كارلو شتاينر

٧٠٠٠ يوم في سيبريا

تعريب
بروفسور دكتور فيصل محمد مكي أمين



منشورات معهد سكينة

٧٠٠٠ يوم في سيبريا

كارل شتاينر

تعريب

بروفيسور دكتور فيصل محمد مكى امين

■ يعود دخل هذا الكتاب لصالح اطفال معهد سكينة المتخلفين عقليا وبدنيا.

حقوق الطبع للغة العربية محفوظة للمعرب


دار هابل للطباعة والنشر والتغليف



الاهــــداء

هذا الكتاب أهديه الى زوجتى سونيا التى أنتظرتنى بوفاء

المؤلف

أشتاينر

تعريف مختصر بالمؤلف

ـ كارل شتاينر

* شيوعى
* يوغسلافى الجنسية ــ نمساوى الاصل
* من مواليد فينا عام ١٩٠٢
* دخل الاتحاد السوفيتى هاربا من فرنسا عام ١٩٣٢ ــ هاربا بشيوعيته
* عين مديرا لمؤسسة الطباعة للشيوعية العالمية
* فى خريف عام ١٩٣٦م ــ فى زمن النظافة والاعتقالات، بالتهم الملفقة.
* وفى عهد ستالين، قضى عشرين عاما اى ٧٠٠٠ سبعة الف يوم بلا جرم ولا ذنب اقترفه ـ فى معتقلات سيبيريا المفزعة الرهيبة.
* هذا الكتاب هو صورة حية وامينة ـ للجرائم الستالينية ــ

(هربت من الخيال ونقلت الحقائق المجردة بوضوح وتتابع منطقى فى داخل الاطار الذى حدثت فيه).

شتاينر حقق بكتابه هذا عملا ادبيا قويا حاز به على جائزة (ايفان قورن كوفاجج) والتى تمنح لاحسن كتاب فى يوغسلافيا سنويا.. وذلك فى عام ١٩٧٢م.

وكتـاب ٧٠٠٠ فى سيبيريا قرأه حتى اليوم مئات الالوف من الناس.. ولكنـه مازال موضـوعـا فى أعلى قائمة أحسن الكتب وأحبها، فى يوغسلافيا وخـارجها. وقد ترجم الى اللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية وها نحن بدورنا نقوم بمحاولتنا المتواضعة هذه، فى ترجمته الى العربية. حتى يتسنى لكل الناطقين بها الالمام التام بما جاء فى هذه الملحمة الواقعية ـ من أهوال، حدثت على مدى سبعة الف يوم، فى سيبريا، فى معسكر شيوعى، فى ارض كان يعتقد انها جنة الشيوعية. بلد أحلامه ومهبط آماله.

وكم كانت خيبة أمله! بدلا عن الرفاهية وجد البؤس والشقاء والمعاناة.

تمهيـــد

فى مدينة (زغرب) الحالمة على ضفاف نهر السافا، عشت عشرين عاما من عمر الزمن، كما ولا يمكن الا ان يكون العيش وتكون الحياة.. سعيت بين أروقة جامعاتها طالبا لايقف امام طموحه شيء حتى وصلت الى كرسى الاستاذية فى شعبة امراض النساء والولادة بجامعة زغرب، حيث شرفنى رئيس جمهورية يوغسلافيا الفدرالية الاشتراكية المعلم جوزيف بروز تيتو، بمنحى وسام العلم اليوغسلافى والنجمة الذهبية بالقلادة.

واثناء تلك الفترة، كنت أراسل الصحف السودانية.. مخابرا ومعلقا وعاكسا لمختلف أوجه النشاط الثقافى والحضارى للدنيا التى أعيش فيها.... وكنت أخص جريدة الرأى العام الاسبوعية برسائلى تلك.. وقد تمكنت عبر هذه الإطلالة الاعلامية، من تكوين وعقد علاقات وصلات وصداقات حميمة، مع بعض الكتاب والادباء والمشتغلين بدنيا السياسية.

قابلت الرئيس اليوغسلافى المعلم جوزيف بروز تيتو، تسع مرات.. أفادنى وأمدنى بالكثـير.. فالرجـل كان أحد أعمدة العصر التى تتصف بالعمق.. والصدق.. والكياسة.. وبعد النظر.. والحكمة.

فى عام ١٩٨٠م تعرفت الى كارلو شتاينر.. كنت قد قرأت كتابه ٧٠٠٠ يوما فى سيبريا.. ودارت بيننـا مناقشات طويلة، واتصل بيننا حوار مفيد، تباينت وأختلفت فيه وجهات النظر، حول مسائل الادب والسياسة والفكر، وبقدر ذلك التباين وبعمق بعض التوافق، كانت الثمرة، رؤى وآفاقا جديدا تفتحت فى الوجدان، وتأصلت داخل النفس.

وجعلت أفكر فى الذى حدث لشتاينر ولمئات الالوف من البشر فى كل أصقاع الدنيا، باسم الاشتراكية.. ولمئات أخرى من الالوف ايضا فى العالم بأسم الحرية والديمقراطية والدين.

فكـرت فى أوضـاع أمتنـا العـربية.. وتساءلت عن المصائر المجهولة للملايين من أبنائها... ولم يكن تفكيرى يتجاوز نطاق انداياح تردداته الكهربية، فالتفكير بصوت عال، وان كان مستقيما ومسنودا بالمنطق والمعرفة لا يجيز صاحبه خيرا كثيرا، ان لم يجر عليه الويلات..

ولا احدد.. لان ذلك هو حال وطننا العربى من المحيط الى الخليج وهذا أقل ما يقال.. وحاولت قراءة أخبار الوطن العربى.. فهالنى ما قرأت..

ولم اجد مايبعث على الراحة والطمأنينة.. واستشعرت قلقا لا مزيد عـليه... فما هو مصير هذه الامة التى كتب على أهلها ان لا يتفقوا ابدا؟ وأزعجتنى أنباء الديون والفقر التى يرزح تحت أثقـالها، جزء كبير من الوطن العربى، بينما يعيش حكامه كما يعيش الوارثون السفهاء.. يغدقون الاموال والرشاوى على المتسلقين والمنافقين والكذابين.. بينما البقية من أهله البسطاء ترزح تحت جبال الهم، من شقاء وفاقه وحرمان. وأيضا تتناقض فيه الامور وتنقلب الايات.. فيغتنى بليل من لم يكسر حجرا او يشق جدولا.. فى حياته. ويأكل خيره ساعة الحصاد جراد المغامرين والاجانب وأصحاب الصكوك والمرابين.

وطن عربى عجيب.. مولع باستقدام المستشارين واستخدام الخبراء الاجانب كأنما عقمت أرحام نسائه عن أن تلد الرجال..!!

وجيلـنا...!

جيل النكسة.. وجيل العبور..

يقولون .. انه عظيم وجليل.. وفيه الصامدون والصابرون والافذاذ.. وفيه الذين باعوا

أنفسهم وضاعوا خلف البريق فى مساحات اللهاث وراء العاجلة، وفيه الذين ثبتوا..
وحفظوا المبادى والقيم والمناقب، ولم تدر رؤوسهم سرابات الزيف المضلة.

وهؤلاء فيهم الخير، كل الخير..

وفيهم الامل، كل الامل..

وهم مناط الرجاء.. كل الرجاء.

كنت أفكر فى وطنى وأمتى وأنا بعيد عنهما.. كانا هما شغلى وهمى ومثار تطلعى ومقياس مقارناتى وتصوراتى وقياساتى، كنت أحس بغربتى لأننى بعيد عنهما.. ثم أحسست أننى اكثر غربة وأنا التقى بهما وأعانقهما.. أمتى ووطنى.

(زى عير القوافل حاملة فوق أمكانها..

شايلات السقا ومن العطش هلكانه..)

وطافت بذهنى المكدود المجهد كلمات الزجال المصرى كمال حداد

(بلادى حفرة مساخر..

جبال آسيا ماتردمها..)

اذا كان على أن أقول الحقيقة.. فانى أسال..

ــ أى بلد ليست به رقابة رسمية على الفكر والتفكير...؟

ــ أنه حال معظم بلاد الدنيا..

ــ أوافقك..

ــ ولكن .. صحة العالم ليست على مايرام.

عالمنا مريض.

عالم فى الجزء المتلاشى من القرن العشرين لا يليق بابناء القرن العشرين بفكرهم... بمثلهم... بتراثهم... وبتاريخ نضالهم من أجل الحرية.

وهذا الكتاب الوثيقة.

لا يهم من هو كاتبه.. ولا يهم فى أى جزء من العالم جرت حوادثه.. وأنما المهم أن الذى فيه مؤهل لان يحدث فى كل زمان ومكان.. وتحت أى ظرف.. وبيد جميع السلطات.. ولا استثنى .. معاناة انسانية صادقة.. نزيف بشرى تجاوز حدود المعقول فاستوطن فى آفاق الواقع، وصمة تدين العسف والظلم والارهاب.. وثيقة نقدمها، لا نرمى بها تشويه أحدا ما .. ولا نستعدى بها معاتبة من يرون ستر المخازى أولى بأهل الوجعة.. ولا نسهم بها فى تعميق شروخ وخلافات ومصادمات، وتاريث وتأجيج نيران حروب باردة أو ساخنة.. شىء جرى.. وأحداث حدثت.. وأناس عاشوا على زبد المعاناة فوق محيط الاسى.. وأقيانوس الحزن والدمع...

والصورة صادقة.. وحقيقية وخطيرة..

قال برجنيف لتيتو عندما التقى به فى بلغراد وهو يرفع بيده هذا الكتاب.. ملوحا به..

ــ هل هذا هو حسن العلاقات التى تريدونها معنا..؟ واجابه تيتو بهدوء وعمق..

ــ لو كانت فيه كلمة واحدة ترونها غير حقيقية، سأوقف توزيعه فورا..

بروفيسور دكتور فيصل محمد مكى أمين

زغرب ١٩٨٤م يوغسلافيا

مقدمــــة

كارلو شتــاينر مهندس الطباعة النمسلوي الاصل، اليوغسلافي الجنسية، الروسي المعاناة، افسح امامه مجالا واسعا وحيويا لمشروعه الروائي الانساني.. حيث انه لم ينقـل بصدق روايته للاحداث الواقع فقط، وانما استطاع بعمق اندفاعه نحو جوهر التعبير الخالص إلى ينقل دلالات الاشياء ذاتها..

وتلك عملية كبيرة لا يقدر عليها الا فنان كبير..

وكارلو شتاينر الذي لم يجرب الكتابة من قبل رغم انه يعمل في مجالات الطباعة، كان عليـه ان يختـرق قشرة الوقائع ليصل الى نبض الشاعرية المصبوغة بالدم والوجع والياس وهو يروي لنا تفاصيل السبعة الف يوم ذات التناوب الفجيعي التي عاشها في صقيع سجون سيبيريا، وان يفعل ذلك جالسا على ربيع الكلمات دون ان يتزحزح من مكانه في المركبة البيانية التعبيرية، لتاتي قصته ملحمة قوية النسج الى درجة الموت كلاما ـــ ان صح التعبير ـــ..

اقـول ذلك مستنـدا الى هذا الحس الصياغي العربي الذي فجره صديقي الكبير بروفيسـور فيصل في نسيج النص المترجم عن اليوغسلافية مباشرة، فاعطانا اليقين الادراكي بان روح الفعل يمكن ان تنتقل عبر وسائط الابانة والعرض من لغة الى لغة، لأن قوة الوشائج والروابط الانسانية هي اصل ثابت في العمل الابداعي طالما انه كان في اساسه صادقا وعمقا ودالا ومؤثرا..

ان الجراح يمكن ان تتحول الى كلمات وحروف، وان الحروف والكلمات يمكن ان تصبح جراحا طالما ان الدم هو الدم وليس الماء..

وكارلو شتاينر مناضل بطريقته، وقد دفع ثمن اختياره بشجاعة إعجازية.. وبروفيسور فيصل هو الآخر مناضل بطريقته، وقد امهر ترجمته لهذا الكتاب الهائل غاليا، من نبضه وحسـه الادبي الرفيـع وقدرته على الغوص في اعصاب الاحداث الرهيبة التي رواها شتاينر، وكان موفقا الى حد الاثارة..

واعترف انني اصبت بحالة غريبة من الحزن والاكتئاب وانا اقرا هذه الصفحات الغريبة التي تشبه وقائعها كابوسا مجنونا من كوابيس العالم الآخر!!

إن الرواية التي يحكيها كارلو شتاينر في هذا الكتاب هي تفاصيل تقشعر منها الابدان بدون شك.. ولكنها تدفعنا بشجاعتها الى ان نقف نحن ايضا امام كل اشكال وضروب العسف السلطوي، لنتامل ونعتبر..

انا لن احكي لكم في هذه السطور شيئا مما جاء في الكتاب، لانني ببساطة شديدة لا استطيع.. فالكتاب غير قابل للتلخيص اضافة الى ان التلخيص نفسه غير جائز او وارد في حق اعمال ادبية تحمل في كل جملة وكل سطر وكل صفحة دقائق واسرار لحظات لا يمكن الامساك بها مجزاة على الاطلاق..

ولكني ساحدثكم عن احساسي الخاص والذي ربما كان هو احساس اي واحد منكم.. الاحساس بفجيعة انهيار المثال، وتحطم الامل الكبير، والظن الخالد الاخير، وسقوط الرمز الجميل والعقيدة المشتهاة في اسن الواقع الكريه ومستنقع المواجهة الذي سفر عن وجه قبيح..

فما اشد الفجيعة.. وما اكبر المأساة..

الانسان الشاعري الحالم الرقيق الممتلىء النفس والروح والعقل بمثاليات التنظير وبالبشارة والفال والانتظار وبرؤى مستقبل قادم لا نظير ولا شبيه له قط.. هذا لانسان الشاب المثالي يسقط فجاة وبدون مقدمات او توقعات في حفير صدمة جحيمية، تتولاه بالصفع والركل والامتهان حتى آخر نبض في عرق احتماله..

هذا الانسان ماذا يكون..؟

انه الشاهد.. الشاهد الاول والاخير..

وحين يقول شاهد كهذا كلمته، فانها تاتي صاعقة وحارقة ومخيفة، لانها صادقة..

والصدق في هذا الزمان قدر لا يقوى على احتماله الا الانبياء فقط..

ولكن الرجل ليس نبيا ولا ينبغي له ان يكون.. ولذلك حق عليه ان يسال الناس: هل وعيتم..؟ هل ادركتم..؟ هل تكشفت الحقائق امامكم..؟ هل عرفتم انكم السبب الاساسي والرئيسي في كل ما يصيبكم من قبل الذين وضعتموهم على نصب الالوهة الوثنية، واخذتم تعبدونهم، ناسين انهم بشر مثلكم..؟

من الذي يصنع الدكتاتور؟

انه الشعب الضعيف الخائر الخائف المهتز الفاقد الايمان.. هذا حق.. والا فكيف تسلط وتجبر دكاترة واباطرة وجلادو الشعوب.. وهم معروفون ومرصودون وجالسون على صفحات مدونة التاريخ..؟

الاسماء الرهيبة..

هولاكو، كاليغولا، نايرون، فرانكو، ستالين، شاوشسكو، بيبي دوك، سالازار، هتلر، ماركوس، و.. و.. وغيرهم وغيرهم.. هؤلاء القساة المتجبرون المتسلطون من الذي مكن لهم واتاح الفرص امام نفسياتهم المريضة لتتنفس حقدا ولؤما وقسوة وحقارة..؟

انها تلك الشعوب بنفسها مع الاسف الشديد.. فهي لا تسال ولا تحاسب ولا تحاكم ولا تحتج حتى فقد كانت دائما مطاطئة الرؤوس تتلقى الركل والصفع، وتداس كرامتها ومقدساتها..

والحاكم عندما ينفرد بالسلطة المطلقة يتعلم اللصوصية والاستبداد ويصبح دكتاتورا يسوم الناس العذاب المصفى ويستقيهم من ذوبه كئوسا مترعة حتى حافاتها..

غير ان التاريخ يخبرنا دائما بان الشعوب نفسها، الشعوب ذات الخلايا المنهكة ومفاصل الابدان المتآكلة، تتحدى في لحظات معينة واقعها العاجز وتندفع نحو جلاديها تطالب بديات عذابها واضطهادها وامتهان كرامتها.. وعندها فقط تفرح الانسانية

بانتصار بنيها لكل القيم النبيلة التي كانت مغيبة ونائمة تحت الرماد.. وكارلو شتاينر بتسجيله لوقائع الايام السبعة الف، لا يلغي ذاكرة امته..
وذلك فعل نبيل في حد ذاته..

فمن الذي كان يظن ان ممارسات الـ (كي جي بي) المؤتمرة بنزوات الدكتاتور السفاح ستالين، يمكن ان تصل الى هذا الحد من البربرية واللاإنسانية والقسوة.. بينما كانت جميع شعوب العالم المضطهدة والمستعمرة تتطلع بامل كبير الى الجنة السوفيتية التي كانوا يعتقدون ان المناضل الرفيق ستالين يبنيها، على انقاض حكم قيصري استبداي هو الآخر..؟
لقد فضح كتاب شتاينر قذارة اللعبة.. وبين كيف تحالف الاشتراكي الشيوعي التقدمي مع مجرم البشرية وجلادها الاكبر هتلر النازي..!
انها ماساة..
وماساة كبرى لا مثيل لها في خيال شباب ظل يحلم ويحلم ويحلم بالغد الوردي المشرق، حتى سقطت الاقنعة وتبين ما تبين من فضائح ومن زيف تكشف، ومن اكاذيب وقفت عارية امام الانسان والتاريخ والوعي العائد..

وفي عالمنا اليوم صحوة اسلامية لا مثيل لها، وعودة الى جذور الاصالة الروحية والمناقبية التي لا تكتفي بوصف العالم او تاويله، وانما تنهض الى تثويره وبعثه واعادته الى وعيه الغائب، والى تراحمه وتلاحمه رافضا كل اشكال القمع والتسلط المادي، رافضا ان يقايض القمح المسموم برهن ارادته وحريته وكرامته الانسانية..
ولا مجال لمحاولة الحديث في المفاضلة بين الاسلام وبين النظريات العقائدية التي وضعها الانسان..
فذلك مستحيل..
ولكني اقول ان ترجمة هذا الكتاب الى العربية «لاول مرة» على يد الصديق بروفيسور فيصل، هي خطوة هامة وحيوية ومطلوبة بشدة.. فالصحوة الاسلامية ينبغي ان تطال بالحسنى جميع الرؤوس المخدوعة التي ادارتها يوما ما شعارات: الاشتراكية والماركسية، وجنة الشغيلة، والعدالة الاجتماعية، والانسان اثمن راسمال ومجتمع الكفاية والعدل والمساواة والاخاء، ولكل قدر حاجته ومن كل حسب طاقته.. الخ.. الخ.. الخ..

تلك الشعارات التي افلحت في زرع بذرة التململ والتمرد داخل الكيانات الغاضبة على اوضاعها بسبب الاستعمار واذنابه وممارساتهم القبيحة، وبسبب محاولة جلب الذين على انغام مزامير رأس المال.. وبسبب غياب سلطة الاسرة الروحية وانتشار المخدرات والخمور واللااخلاقيات، وتحجيم الثقافة الاسلامية ومحاربتها، الخ..
ياتي هذا الكتاب في وقته بالضبط اذن..

بدون شك.. فلا عالمنا الاسلامي وقد شملته الصحوة يرضى بان يتسلط عليه الجلادون او تسود فيه أفكار الالحاد التي تنعت الدين بانه افيون الشعوب..
وقريبا تسقط جميع الاقنعة وتتناثر العروش، وتهتز المعتقدات الهشة، وتنطلق الجماهير المؤمنة بربها لتصنع مجتمع الاسلام الفاضل المثالي.. ويعود القطب الثاني الغائب من المعادلة الانسانية.. الروح..
لان المادة وحدها هي جزء من قانون جدلي وجودي لا يتعادل فيه الانسان، وانما تميل له ردود افعاله الغريزية والتداعيات غير المحكومة بوثاق القيم والاخلاق..
ان العدل هو الحق..
وان الظروف الموضوعية التي تسود العالم الآن تدعونا الى مزيد من التقارب والتلاحم والتراحم والتمسك بالعروة الوثقى وباصول ومباديء وتعاليم وشرائع واشراط ديننا الحنيف، ولن يحدث ذلك الا اذا اسقطنا عن اكتافنا اثقال تجارب انسانية مموهة خدعت البسطاء لزمن ليس بالقصير..
ويهمني ان اشيد هنا بمجهودات صديقي بروفيسور فيصل الذي سهر الليالي وهو ينقل هذا الكتاب النفيس الى العربية لاول مرة بعد ان اشترى حق نشره من مؤلفه اليوغسلافي الجنسية، النمساوي الاصل، بحر ماله.. فاضاف الى مآثره العديدة غير القابلة للتحديد والاحصاء ـ بروفيسور فيصل ـ ماثرة جديدة ومحمدة اخرى وانجازا غير قابل للنكران او الصمت..
والكتاب ترجم الى جميع لغات العالم الحية..
وها هو يدخل الى حرم العربية محملا على اجنحة بيان رفيع هو ميزة لصيقة من ميزات الصديق بروفيسور فيصل صاحب الميزات والاشراقات..
واشهد انني بقراءة هذا السفر الخالد قد ازددت معرفة بما لم اكن اعرف، وقد امتلأت بشتى المشاعر والاحساسات، واصبحت اكثر قدرة على الاعلان عن رأيي ومعتقدي.. فشجاعة الكاتب والمترجم معدية ومتجاوزة وخطيرة..
ونسأل الله التوفيق..

مصطفى سند
ام درمان ـ الثورة ٣١ يناير ١٩٩١م

المقدمـــة

من داخل (زنزانات) البوليس السياسى السوفيتى ن. ك. ڨ. د فى الصحراء الجليدية فى أقصى الشمال. فى بقعة تناثرت فيها احزانى وآلامى.. التى تفوق طاقات البشر. كنت أحمل فى نفسى أمنيـة واحـدة، أن أعيش تلك الايام لاحكى للعالم أجمع، ولزملاء الحزب اولا والاصدقاء، كيف عانينا وقاسينا الأمرين.

وفى تلك اللحظة، التى أفلت فيها من قبضة زبانية البوليس السياسى ن. ك. ڨ. د، وقفت أعد العدة لتحقيق تلك الامنية.

كنت أعلم أن مهمتى ستكون عسيرة جدا.. وأكثر شىء كنت أخافه أن يكون كتابى هذا، مثل غيره من الكتب التى تدخل فى قائمة الادب المعادى للسوفيت. وأن كل الذى عانيته وقاسيته سيبدو للاخرين غير معقول.. بل ومقصود أيضا.

خفت أن يشهر الحاقدون كتابى هذا سلاحا ضد الاشتراكية.. لذلك فانى أقرر أن كل الذى حدث فى الاتحاد السوفيتى، ليس نتيجة للاشتراكية. ولكنه خيانة للفكر الاشتراكى، وثورة الردة المضادة للاشتراكية وهذا تثبته تصفية زملاء الحزب القدامى بين عام ١٩٣٦م وعـام ١٩٣٩م.. وكذلك يثبته تحالف ستالين مع هتلر ١٩٣٦م. وهذا الحلف كان موجها بالفعل ضد الاشتراكية والحرية. والذى يؤكد ذلك، تسليم الشيوعيين الالمان للجستابو.. وحبس وقتل الشيوعية المهاجرين الى الاتحاد السوفيتى.

وقـد قدم ستـالين بعـد الحـرب دليـلا جديـدا بتخريب الاشتراكية عندما هاجم يوغسلافيا تحت شعار (الكومنفورم) وهدد حريتها وخاصة الاتجاه الاشتراكى لبنائها.

هذا الذى قلته فى كتابى، لايجب أن يؤخذ كخلاصة كاملة لكل الذى عشته، ولكنه جزء بسيط من الذى حدث. وآذا أردت حقيقة أن أحكى كل الذى حدث، لعشرات الالوف من النـاس.. فى تلك السنـوات العشرين.. فى غيـاهب السجـون والمعتقـلات.. فى الاتحـاد السوفيتى.. فاننى أحتاج لذاكرة تفوق حدود العقل البشرى.

أسماء الاشخاص فى الكتاب ليست مخترعة.. واذا غيرت اسم شخص ما فانى أفعل ذلك لاجنبه ضراوة القمع البوليسى.

ويندر أن أخوض فى التحليل والتعليق على ماحدث. فقد أردت فى المقا م الاول وصف الحقيقة المجردة.

المؤلـف
أشتاينـر

الجزء الاول

الحبس . والتحقيق
ومحكمة الحرب

موسكو عام ١٩٣٦م

موسكو ليلة ٤ نوفمبر ١٩٣٦
المكان ـ موسكو ـ شارع (نوفوسلوبود سكا) ٦٦ ـ ٦٩
المبنى رقم ٤٤

كنت أغط فى نوم عميق عندما أيقظنى فجأة رنين حاد.. تبينت أنه جرس الباب. وأحسست بيد زوجتى على كتفى، وهى تنادينى بصوت مبحوح: كارلو فاعتدلت فى فراشى. شخص ما يضغط على الجرس بجنون. وسألت نفسى ترى من الطارق فى هذه اللحظة من الليل؟... نظرت الى ساعتى فوجدتها تشير الى الثانية وخمسة وأربعين دقيقة. عاود الجرس الرنين. ولكن هذه المرة بأصرار عنيد. وفجأة أحسست بخوف من المجهول.. فنهضت ببطء. ومازال الرنين الحاد مستمرا. وهمست فى تردد: من الطارق؟ فسمعت:.الزميل أشتاينر أفتح أنا حارس المبنى! .. فتحت كوة الباب فطالعنى وجه حارس المبنى الذى بادرنى قائلا:ــ فى مطبخكم على ما أعتقد فيضان.. فقد سال الماء منه حتى الطابق الارضى.. يجب أن أفحصه. قالها بسرعة وتلعثم. ولكننى أجبته بهدوء شديد:ـ فى منزلنا كل شىء على مايرام. فقال بأصرار: رغم ذلك يجب أن تفتح الباب حتى أتاكد بنفسى. وفى نفس اللحظة التى فتحت فيها الباب وقعت عيناى على ضابط وجنديين. وما أن شاهدونى حتى أقتحم الضابط ومعه جندى وحارس المبنى المنزل.. وبقى الجندى الاخر واقفا فى الممر. وبحركة من يده أزاح الضابط معطفه فوقعت عيناى على رتبته. وكان بدرجة ملازم اول بوليس سياسى ن. ك. ف. د. وكان سؤاله الاول: هل تملك سلاحا؟ أجبت: لا أملك... وفوجىء بهدوئى. وكنت متماسكا، ولم أعد أشعر بالخوف من المجهول... فالخطر هنا ماثل وقد صار حقيقة. فتمشى الضابط بحركة روتينية. كان أشقر الشعر طويل القامة فى الثلاثين من عمره. تعابير وجهه القروية لا توحى لك بأى أحساس. مد لى قصاصة من ورق كانت بيده.. وبدأ يراقبنى بحدة كما يراقب الصياد فريسته التى أصطادها، ولكن بفضول أقل.. وفكرت، أنه اعتاد على مثل هذه الحالات.

سألته... ماهذا..؟

فأجاب بخشونة طبيعية أمر قبض.

أرجعت له الورقة.. فأمرنى بالجلوس على الارض وهو يتجه الى الغرفة الاخرى. وسألنى:ـ من هذه؟ مشيرا بيده نحو زوجتى التى كانت ترقد على الفراش ـ أجبته: زوجتى. فأمرها الضابط:ـ قفى... ولكنى سارعت قائلا:ـ زوجتى فى شهور حملها الاخيرة. من فضلك كن رحيما معها. وأسمح لها بالبقاء فى الفراش لانه غير مسموح لها طبيا بالانفعال.

وكرر الضابط: قفى.. ووقفت زوجتى. فحاولت مساعدتها على النهوض فصرخ الضابط فى وجهى:ـ أجلس مكانك ولا تتحرك. ولكنى تظاهرت بعدم سماعه.. وأتجهت مسرعا نحو سريرها، وساعدتها على أرتداء ثيابها. وفى نفس اللحظة التى قامت فيها، أتجه الضابط نحو السرير وبدأ بتفتيش محتوياته: المخدات، اللحاف، الملاءات الاغطية، كان يفعل ذلك

وهو يرمي بها على الارض. وأمرني وزوجتي بالا نتحرك. فتش كل أرجاء الغرفة.. وعندما كان الضابط منهمكا في التفتيش، كان الجندي الواقف يراقبنا بانتباه شديد. وقد حاولت أن أهـدي من روع زوجتي التي أبعدوها عني، ولكن الضابط أمرني بالصمت. وأستمر التفتيش مدى الساعتين. فتش كل شيء بدقة شديدة. ووضع جميع الكتب التي كتبت باللغات الاجنبية جانبا. وعندما أنتهى من التفتيش أمرني بارتداء ثيابي، فبكت زوجتي بحزن وجعلت أحاول تهدئتها. وسألتني ما الذي تريد حمله معك؟ قلت لا شيء ما الذي أحمله؟ وطمأنتها قائلا: لابد أن يكون هناك ألتباس في الأمر، وسوف أعود اليك حالا.

صاح الضابط:ـ الى الأمام. وتوجه نحو الباب. فتبعته وتبعني الجندي من الخلف. ولم أتمكن من وداع زوجتي.. وأن كان صوت بكائها قد بقي في أذني طويلا بعد ذلك.

وفي الممر الخارجي أنضم الينا الجندي الثاني. ووجدنا في الباب الخارجي للمبنى سيارة تنتظرنا، دفعوا بي الى داخلها.. وعلى يميني وشمالي جلس الجنديان. أما الضابط فقد أرتمى بجوار السائق وهو يأمره بالتحرك. وأخذت العربة تنهب بنا شوارع موسكو النائمة. فحاولت أن أفهم مايدور حولي.. ولكن صوت بكاء زوجتي مازال يرن في سمعي.. فخيل الى أني اودع الحياة.

ليبيانكا ـ القيادة العامة لل ـ ن ـ ك ـ ڤ ـ د

بعد مسيرة عشر دقائق وقفت العربة امام مبنى ال ن. ك. ڤ. د في ليبيانكا.. وفتحت أمامنا بوابة كبيرة.. فدخلت العربة فناء المبنى.. وقفز احد الجنود من العربة.. وأمرني بالنزول. ونظرت حولى، فوجدت نفسى فى فناء ضيق، محاطا بمبنى من خمس طوابق له نوافذ ذات قضبان قوية. فدفعوا بى خلال باب مفتوح الى قاعة واسعة تبلغ مساحتها حوالى الخمسين مترا مربعا. وعلى طول الحائط نصبت كنبات خشبية جلس عليها قرابة الثلاثين شخصا.. من الرجال والنساء وأمامهم رقدت أمتعتم المحزومة. بعضهم كان ينظر الى اللاشىء.. واسبل الآخرون عيونهم يبحثون عن نوم مستحيل. أما القاعة فكانت رافلة فى صمت عميق.. لم يكن يتخلله سوى نحيب بعض الفتيات الصغيرات.. وعاودنى التفكير فى زوجتى.. ولم يكن يقطع على حبل تفكيرى سوى حركة الباب الذى كان يفتح كل عشر دقائق أو نحوها ومناداة الجندى بأسم يقوم على أثره واحد من الجالسين. وبعد ساعتين بالضبط جاء دورى. وأقتادونى الى صالة مجاورة.. فيها رفوف تزاحمت عليها بعض الامتعة والحقائب والسلال والطرود. وخلف المنضدة وقف عدد من رجال البوليس السياسى ببزاتهم الرسمية وبضعة نساء ببلوزات بيضاء. وأتجهت نحو المنضدة. وأخرج ضابط قطعة من الورق وسألنى:ـ

ـــ ما أسمك؟

* أجبته. فكتب.

ـــ هل لديك نقود؟

هل لديك أشياء قيمة؟

* فاخرجت حافظة نقودى وساعتى وعددت نقودى، ومددت له أشيائى. فأستخرج لى أيصالين.

وأمرت بخلع ملابسى فخلعتها ووقفت عاريا.. وعند اكتمال التفتيش أعاودا الى ملابسى.. وقادنى الجندى خلال ممرات وسلالم ضيقة وأبواب عديدة.. وفجأة وجدتنى أمام حارس يحمل حزمة من المفاتيح.. فتح بابا ودفع بى الى داخل حجرة معتمة تنبعث منها رائحة كريهة، وتبلغ مساحتها حوالى خمسة عشر متر مربعا تقريبا.. اكتشفت أن على ارضها يقبع حوالى الثلاثين شخصا. رقد بعضهم ملتفا بمعطفه.. والبعض الآخر حاول أخفاء وجهه بالمعطف. وعندما احسوا بى أرتفع عدد من الوجوه المتعبة.. من بينها وجه رجل ذو لحية شقراء طويلة أخلى لى مكانا بجانبه.. ودعانى لارقد.. وكان على أن اتجه نحوه بحذر حتى لا أطأ احداً من الاخرين.. وبصعوبة أستطعت الوصول الى مرقدى.

قال لى ذو اللحية الشقراء.. أأنت من الوافدين؟ هذا واضح من هيئتك.. (لان بلدياتنا جريئين) ولم أجبه.. فلاحظ أضطرابى ثم أضاف قائلا:ـ خذ لك قسطا من الراحة. فسوف نتحدث كثيرا فى الصباح وصمت قليلا وسألنى قائلا:ـ كم الساعة؟ وهززت كتفى. فصمت واغمض عينيه.

وأعتادت عيناى الظلام.. فنظرت حولى متفقدا لأجد البعض قد نام، وأن البعض

الآخر مازال يحاول النوم، وهو يراقبني بطرف عينيه.

رقدت على الارض العارية بثيابي ومعطفي. وأرتعش جسدي وسرت فيه بعض البرودة حدث ذلك بالرغم من أن جو الغرفة كان ساخنا يؤدي للاختناق.

حاولت أن افكر.. ما الذي يجري حولي؟

ماذا يريدون مني؟

الى متى ساظل هنا؟

ما الذي سيحدث لزوجتي وهي في ذلك الوضع الصعب الذي تركتها فيه؟

هل بلغ عني شخص ما؟

ودارت برأسي موجة من الافكار كأنها الدوامة الرهيبة.. لا بداية أطلاقا.. ولا نقطة يرتكز عليها الفكر فاغمضت عيني بعد أن أخذ مني الجهد كل مأخذ، أحاول أن أغفو قليلا.. ولكن بلا جدوى.. ثم أخذت تلك الاسئلة تطوف برأسي من جديد.. ولكن بلا جواب.. وكانت الساعات القليلة التي انتظرتها حتى بزوغ الفجر طويلة ابدية.. بدت وأنه لا نهاية لها قط.

وفتح باب الغرفة فجأة وصاح الحارس: الى المرحاض، وخرجنا الى الممر ولم يتخلف أحد. ثم دلفنا الى غرفة قسمت الى اجزاء ذات فواصل صغيرة. وكان لابد مما ليس منه بدّ.

فجلس بعضهم.. وأخذ البعض الآخر في الاغتسال من اواني الصفيح التي وضع فيها الماء. وكان الماء باردا وقد انعشني الاغتسال فشعرت بالراحة. وبعد دقائق معدودات أرجعونا الى.. غرفتنا.

والتف حولي المعتقلون وبدأ استجوابهم لي..

فأخذت أجيبهم بلا رغبة.. وبأنصاف الجمل.

وعندما رأوا عدم رغبتي في الكلام بدأ البعض في مؤاساتي: لست وحدك، السجن ممتلىء، ونحن مثلك لا نعلم لماذا نحن هنا أصبر وسوف يأتي دورك. وفتح الباب مرة اخرى ودخل حارس يحمل على طاولة اربع وثلاثين قطعة من الخبز.. الاسود وكانت كل قطعة تزن حوالي نصف الكيلو جرام.. وكان يحمل ايضا أبريقا من الماء الساخن. فأخرج المعتقلون أوانيهم الصفيحية وكؤسهم وأخذوا يصبون الماء الساخن. وكنت لا أملك شيئا منها. ولم تكن لي شهية للاكل أو الشرب ورأيت كل فرد منهم يقسم خبزه الى جزئين او ثلاثة اجزاء.. قطعوها بالخيط فلم تكن لديهم سكين ولاحظت انهم يغمسون الرغيف في الماء الساخن ويلتهمونه، وأيديهم تلاحق الفتات المتساقط الى الارض في حرص بالغ وتعيده الى الافواه. تم الاكل في صمت وكأنهم يؤدون طقوسا دينية. وكان الذي يكمل مخصص وجبته يلف الباقي. في حرص شديد. وكأنما هو يؤدي شعيرة دينية ويضعه داخل اكياس بحوزتهم.. وهكذا يضمن بقية الوجبات.

وسألني ذو اللحية الشقراء: لماذا أنت لا تأكل؟

ــ لاتوجد لدي شهية

وبقي خبزي دون أن يمس. ولكن العيون الجائعة كانت قد التهمته بلا مضغ.. فعرضته على جاري. ولكنه نصحني بان احتفظ به، لان السجن تسوده موجة عارمة من الجوع. وبصعوبة اقنعته بان يأخذ نصفه. فشكرني وهو يلتهمه مسرعاً.. ثم قال لي انهم احضروه الى هنا من فلادفوستك منذ أربع أشهر وهو ينتظر في حظيرة الكلاب، دون أن

يدعوه للتحقيق.

وقال أنه قد أعتقل منذ تسعة أشهر. وانه ومن ثورة عام ١٩١٧م الى عام ١٩٢٠ قاد حرب العصابات ضد اليابانيين فى الشرق الاقصى وبعدها عمل فى صناعة معلبات الاسماك وقد أتهم بأنه يحضر لانتفاضة مسلحة ضد السلطة السوفيتية، وينوى ضم أجزاء من أقصى الشرق لليابانيين.

وأصابنى الرعب والهلع عندما سمعت منه تفاصيل الاعمال المرعبة التى قام بها.. واخذ يعددها لى وهو يقص حديثه. وهالنى أن أجد نفسى راقداً بجواره، أتحدث اليه.

فسألته:ـ كيف يمكن لثورى قديم مثلك أن يفعل كل هذه الفظائع..؟ فضحك بصوت جلجل فى أرجاء الغرفة المكتظة وأتبع قائلاً أن الذى حكاه لى لايمكن أن يخطر على فكره ناهيك عن فعله وأضاف.. أن كل الذى قصصته عليك هو من تلفيق وأختلافات الـ ن. ك. ف. د وأهتزت لحيته الطويلة الشقراء ومنكباه من الضحك. وخيل الىّ ساعتها أن الطبيعة المتوحشة فى أقصى الشرق هى التى تضحك من سؤالى ونظرت اليه بأستغراب.

وسألنى ذو اللحية ـ بماذا يتهمونك..؟

أجبته ـ لا أدرى ولم أر غير الاشخاص الذين القوا علىّ القبض. والتف حولنا عدد من السجناء وسألونى:ـ من أين أنا؟ ومن أكون؟

اجبت ـ أنى مهاجر سياسى وأعيش فى الاتحاد السوفيتى منذ عام ١٩٣٢م وكانت اجوبتى مازالت شحيحة قصيرة وغير مترابطة وكان تفكيرى معطلا. ويعذبنى سؤال واحد.. لماذا انا هنا؟ وكنت أخالنى فى حلم. أو ربما كان هذا كابوساً قبيحاً.. ولم أستمع لبقية أحاديثهم. أستمعت فقط لسؤالى لنفسى لماذا أنا هنا.

وفى الظهر أعطونا نصف لتر شوربة من الكرنب، ومعلقة صغيرة من البسله. وفى العاشرة مساء أطفئت الانوار، ثم أشعلت ثلاثة مرات. وهذا يعنى علامة النوم. فأفترش السجناء معاطفهم ورقدوا على الارض ورقدت أنا. وكنت متعباً جداً.. فاغمضت عينى فى اغفاءة قصيرة.

ولم أنم طويلاً أذ فتح الباب وسمعت الجندى ينادى على سجين للاستجواب. وأحتجت الى وقت طويل لكى أعاود نومى. واذا بشخص يوقظنى.. ثم قال لى الحارس الذى كان يقف بجوار الباب أذهب للأستجواب. فنهضت ولبست حذائى وخرجت الى الممر.. وكانت فى أنتظارى أمرأة ترتدى زى الـ . ن. ك . ڤ. د كانت شابة شقراء تضع على رأسها طاقية مستديرة لونها أزرق سماوى (طاقية الباتيكا) وعليها علامة حديدية هى رمز الاتحاد السوفيتى وتمسك فى يدها قطعة من الورق: وسألتنى

ما اسمك؟ فلما أجبتها.. قالت الى الامام.

عدة مرات فتحت أمامنا قضبان حديدية. وأخذنا نصعد الى الطابق الثانى، ثم نزلنا للساحة، ومنها دخلنا الى مبنى كبير.. واخذنا المصعد الى الطابق الخامس. وهناك أدخلونى الى غرفة كبيرة. ورأيت امام الآلة الكاتبة رجلا أبيض الرأس، متوسط الطول، مقصوص الشاربين، يرتدى زى البوليس السياسى وكان برتبة نقيب مدت له حارستى الورقة فى هدوء وعندما كان يوقع عليها بأسمه كنت أقف بجوار الباب. وحالما خرجت

حارستي من الغرفة، نظر الى النقيب في كل تراخ، واشار بيده الى كرسي قائلا أجلس - أسمي رفزين قاضي التحقيقات أتريدني أن أتحدث بالالمانية أو الروسية؟ أجبته الامر سيان بالنسبة لي فمد يده الى بوريقة قائلا: أقرأ هذا ووقعه.

فاخذت منه الورقة وقرأت:

١ / أنت متهم بأعداد منظمة الثورة المضادة التي قتلت سكرتير اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي السوفيتي، وسكرتير لجنة منطقة لينغراد س. م كبيروف.

٢ / ،وانت منهم بالعمالة للجسابو

وحت أضحك وانا أقرأ في الورقة.. ولم اكن املك الا ان افعل. فقال رفزين:- لاتضحك هذه تهم خطيرة.

أحسست بشعور من الارتياح - فالامر واضح جدا. وهنالك بالتاكيد لبس في الموضوع فأنا لا صلة لي بهذه الاتهامات على الاطلاق. قلت ذلك بثقة وهدوء.

أجاب رفزين - لست على حق - ليس هنالك لبس أو غموض لدينا أثبات ويجب عليك أن تعترف بصدق. ولكني قلت بحزم: ما هذا الذي تقوله باسم الآله أنا برىء تماما وكنت دائماً شيوعياً جيداً وواجباتي الحزبية انفذها بلا نقاش. نطقت ردي ذاك بتصميم شديد وبتأكيد قاطع حتى أشعره أن في الأمر ثمة ألتباس فأجابني بعد صمت خفيف:-

ــ اليوم لن نتحادث في هذا الامر أذهب لزنزانتك وفكر في الامر جيداً.. وغداً نواصل.

وقفت.. في نفس اللحظة ظهرت حارستي.. وأقتادتني الى الزنزانة. وبمجرد قفل باب الزنزانة هبّ نحوي السجناء.. كل منهم يسأل: ايه؟ اين كنت؟

ــ أجبت أن رفزين يتهمني..

ــ غير معقول.. كلها أختلاقات.. قلتها بصوت عال

ــ قال بعضهم.. أنت غريب.. معنى ذلك - جاسوس

ــ لا ليست لي أي صلة بذلك

ــ ماذا كنت تعتقد فينا ألنا أي صلة بالذي اتهموننا به؟

ــ ياللشيطان لم نك نحلم بذلك ابداً. كانت أصواتهم عصبية غضبى وهم يقولون ذلك.

فضرب الحارس الباب بكتلة المفاتيح التي يحملها معلناً - أصمتوا..

ورقدنا في أماكننا ولم أستطيع النوم فكرت طويلا في التهمة التي وجهت الىَ وكيف يمكن أن اكون منغمساً فيها؟

هدأت نفسي وتيقنت أن الامور ستوضع في نصابها وسوف يرون أختلاط الامر عليهم، وسوف يطلق سراحي وأعود لمنزلي.

بدأ صباح جديد، قسم الخبز، الشوربة والبسلة للغداء.. وعصيدة للعشاء. وكنا طوال اليوم قد تحادثنا في استجوابي الليلي.. بعضهم سرد قضيته والتهم الخيالية التي ألصقت به. وكان معظم السجناء لايدرون لماذا أعتقلوا؟ فروى شاب أتهم بأنه ارهابي.. لانه تشاجر مع رئيس (الكواخوز) وهدده بالقتل.

وكان واحد من مجموعتنا هو الوحيد الذي اتهم بأنه ضد الثورة وقد شهد ضده اخوه.. شخصيا.

وعنـدما تمت المواجهة بينه وبين اخيه ذكر بأنه لايستطيع أن يقول غير ذلك.. لان البوليس السياسي يريد منه ما قاله بالضبط.

وبعـدها علمت أن أسم ذلك الشخص هو سميرنوف.. وقد حكم عليه (الثلاثة) بثمانية سنوات سجناً.. اما.. الثلاثة فهو اصطلاح يطلق على لجنة كانت مكونة من رجال البوليس السياسي.. تحاكم الناس ادارياً.. دون أن يمثلوا أمام المحاكم ومرت الايام، ولم يطلبني احد للاستجواب. نقلوني الى زنزانة اخرى في الطابق الخامس، أختلفت عن زنزانتي السابقة بان فيها سرير حديدي، قش جاف، مخده وغطاء من القماش، بنيت في الاصل لتسع شخصاً واحداً ولكنهم وضعوا فيها ثلاثة أسرة وكانت أرضية الغرفة مدهونة بدهان غير مريح على الاطلاق، وهي في عمومها غير نظيفة.

ومرت أربعة ايام كنت فيها بمفردي وفي اليوم الخامس جيء بأثنين.. وأخيراً استدعيت للتحقيق الثاني. قاضي التحقيق رفزين أعتذر لعدم أستدعائي مبكراً لأن لديه أعمالاً كثيرة وقال انه في الغد سيحقق معي بالتأكيد، هذا كل الذي ذكره لي ولم يضع لي أي سؤال.

وقد تذكرت ما قاله قدامى السجناء في زنزانتي الاولى (سباجنك) .. هذا تكتيك البوليس السياسي يدعونك ويعدونك غداً بالاستجواب.. ولكنهم بالطبع لايفعلون ذلك. فتنتظر وتنتظر حتى يتلف الانتظار أعصابك..ومن ثم تصبح فريسة سهلة أمامهم. وقد تعرفت على زملائي الجدد في الزنزانة. لارنوف طويل، قوي البنية، كان مديرا لمصنع الكيماويات في كميروف في الاورال، وهو عضو قديم في الحزب.. وقد أتهم بالتخريب في المصنع الذي يديره.

وكان يقسم دائماً بأن ما أتهم به، هو أمر ملفق وانه لن يوقع على أية اوراق تقدم له.

وفي أحـدى الليـالي أقتيـد لارنـوف وأرجع بعد خمسة أيام.. بلياليها.. وساعاتها ولحـظاتهـا.. كان عليـه أن يقف في ركن الـغـرفـة... يقف بأستمرار.. دون أن يسمح له بالجلوس.. وكانوا يدعونه ليتناول قليلاً من الشوربة والخبز مرة واحدة في اليوم فقط. وأعجب شيء أن هذا الرجل القوي البنية.. والذي خاض الحرب بجانب الجيش الاحمر.. والذي قاسى ويلاتها وذاق صعوباتها. لم يستطع ان يقاوم تعذيب البوليس السياسي.. فقد وقع على كل الاوراق التي قدمت له..

وبعد اسابيع، اقتيد من الزنزانة ولم أره بعدها أبدا كان الاستجواب يتم ليلاً... وفي احدى الليالي اقتادوا قولدمان وأرجعوه في الرابعة صباحا مكسور الاضلاع.

وقولدمان هذا كان سكرتيرا لريكوف، ورئيسا للشعوب السوفيتية والمفوض المسئول في الحزب الشيوعي، الذي يعهد اليه ببث مبادىء الحزب في الوحدات العسكرية، والتأكد من صدق ولاء افرادها للحزب.

طلبوا منه أن يعترف بان رئيسه ريكوف جنده عميلاً للجستابو ولم يعترف أو يوقع على شيء. وقد رقد وهو يئن من السبت الى الاثنين. وفي صباح الاثنين حضر الطبيب يسأله ما به.

ولكنه لم يزد على أناته التي تمزق أقسى القلوب.. الا أن يتمتم في صوت واهن ضعيف..

— هؤلاء الكلاب.. الكلاب الملعونون.

وبعد ساعتين حضر الحراس وحملوه على النقالة.

وبقيت وحدي في المكان الضيق المحصور بين افكاري وأسئلتي كيف؟.. ولماذا؟.. والى

متى؟.. وماذا تفعل سونيا؟... هل هي تعلم بما يتهمونني به؟.. وتوالت على رأسي دوامة من الاسئلة الملحة ولكنها كانت تدور وتدور.. سريعة وقاسية.. نفس الاسئلة.. دائما.. نفس الاسئلة.

وفي اليوم التالى جيىء بثلاثة من السجناء الى زنزانتي.. وقد كان أحدهم من معارفي في الزنزانة السابقة (سباجنك).. اما الاخران فهما جديدان.. حديثا عهد بالاعتقال. احدهما نمساوي الاصل يقيم بموسكو في الخامسة والستين من عمره.. عمل خمسين عاما في دكان لبيع الاسلحة على كبرى كزينكوم. وبعد يومين من اعتقاله علم بانه (عميل للجستابو). وأصاب العجوز يأس واحباط ولم يستطع أدراك التهمة ولا ترتيب أفكاره.

اقسم لى بانه برىء مما نسب اليه وطلب منى أن أنصحه ماذا يفعل لدحض أفتراءاتهم الغريبة؟.

ما الذى كنت أستطيع قوله؟ أى نصح اقدمه له؟ وانا نفسى كنت أحتاج لناصح.

وقد حدث مرة أن العجوز استجوب مدة ثمانية واربعين ساعة.

وكان قاضى التحقيق شاباً حليق الذقن ـ طموحا ولئيماً وقد سبّ العجوز بأفظع الالفاظ:

ـ أنت ياعجوز ياداعر، قمىء تثير الاشمئزاز، ايها العجوز الخداع نحن ومنذ خمسين عاماً نعلم الكثير عن أمثالك الذين يخدمون الراسمالية، سوف ترى من هو البوليس السياسى.

أذا لم توقع على المحضر في ظرف أربعة وعشرين ساعة سنصنع منك سجوقاً.. ياكلب ياعجوز.. يانذل الالمان.

وبكى شاب العجوز وهو يحدثني.

وفي ليلة من الليالى أيقظنى ورجانى أن أذهب الى زوجته، اذا اطلق سراحى قبله، لاقول لها أنه برىء تماماً. وكانت زوجته تسكن بموسكو في شارع باومانوف. ثم قرر العجوز الاضراب عن الطعام، ورقد خمسة أيام في الزنزانة فاقد الوعى.

وفي اليوم السادس حملوه!

وبعد سنوات عديدة التقيت في نورلسك بتهماكن المحكوم عليه بالاشغال الشاقة، والذى كان نزيل مستشفى السجن . وقد حكى لى نتهماكن أن العجوز مات وانه لم يعد الى وعيه أبداً بعد ذلك الاضراب عن الطعام الذى نفذه بشجاعة فائقة. وللأسف لم أستطع أن افى باخر طلب للرفيق اما بالنسبة للسجين الآخر بالرغم من اننى أستطعت أن أكون على اتصال وثيق بشاب الا اننى لم أستطع أن أكون على اتصال معه على الاطلاق وانه لم يرد ان يكلمنى ابداً.

وكان رده على جميع محاولاتى:ـ

ـ لا أريد أن تكون لى أية صلة بعناصر الثورة المضادة. كان في الستين من عمره، وقد كان مديراً للاكاديمية الصناعية في موسكو. يدعى فشتياكوف.

حدثته يوما عن نفسى وبأننى شيوعى وعضو في الحزب منذ عام ١٩١٩م. ونسبة لنشاطى الشيوعى فقد زرت مختلف السجون في أوربا، وهاأنذا الآن متهم بالجاسوسية والارهاب والتخريب. وقد أجابنى فشنياكوف:

ـ البوليس السياسى لايلقى القبض على الابرياء وكان سؤالى له:ـ اذن لماذا القى عليك القبض؟!! فأجابنى أجابة قصيرة وأدار لى ظهره:ـ
ـ هذا التباس فى الأمر، وسوء فهم.
وذات يوم زارنا موظف بالسجن، فى بالطو أبيض وسألنا قائلا: من لديه نقود؟ يوجد كنتين بالسجن ويمكن شراء الخبز، والسكر، والمربة، والسمك والسجائر ثم أعطانا ثلاثة قطع من الورق لنكتب عليها مانود شراءه وبالرغم من أننى لا ادخن فقد طلبت ثلاثة علب من السجائر وقطعة من الصابون.
وفى اليوم التالى حصلنا على الأشياء التى طلبناها. فتناولت السجائر وقطعة الصابون ومددتهما لعشنياكوف العجوز لأنه لم يكن يملك أى نقود. وكان مدخنا شرهاً. وقد فاجأنى بقوله:
ـ كيف يخطر على بالك أن تعرض علىّ أن آخذ منك شيئاً، ياعدو الشعب كيف تتجرأ على ذلك؟
وغضب منى.
ولم أجب بشىء، السجائر والصابون تركتهما على المنضدة، وفى تلك الليلة استيقظت على أنين بالباب، فرفعت راسى، ووقعت عيناى على نبتجى البوليس السياسى فى الممر، ذاك الرجل الذى يبدأ أسمه بالحرف ف ؟ فهكذا كانوا يفعلون عندما لايكونوا واثقين من أنهم تعرفوا على الزنزانة التى يقيم فيها السجين المطلوب وشىء آخر. فهم لايريدون أن يعرف نزلاء الزنزانات المجاورة من الذى يقيم بجوارهم. وايقظ فشنياكوف. فأمره البوليس السياسى:
ـ البس ملابسك، ولاتأخذ أشياءك الاخرى. وفى الثامنة صباحا عاد فشنياكوف من الاستجواب.
آهـ .. آهـ ماذا يحدث! قالوا لى أنى (عصبجى) مخرب، عدو للشعب من جماعة تروسكى، وانهم سيسحقوننى، ويفتتوا أجزائى أن لم أعترف! آه .. آه .. كيف يعقل هذا!
وأخذ العجوز فشنياكوف يئن ويدور داخل الزنزانة قابضاً بكلتا يديه على راسه.

وقد حاولت تهدئته.. ومددت علبة السجائر قائلاً: خذ سيجارة لتهدأ سيلاً. وأخذ العجوز سيجاره وبكى. وسار نحو الباب وأخذ يضربه بعنف. وأتى الحارس فقال له:ـ
ـ أعطنى ورقاً وحبراً. يجب أن أكتب للرفيق ستالين ـ دعه يعلم ماذا يحدث هنا.
وصاح الحارس:
ـ الورق أطلبه من قاضى التحقيق ليس فى هذا ماتريد من الورق. قال ذلك ومضى فى سبيله.
وجلس فشنياكوف العاجز على حافة السرير، وإشعل سيجارة أخرى، وحدق بعيداً بعينيه كانما تاهت روحه معهما وذابت فى البعيد.
وعندما حان موعد التمشى داخل السجن ـ لم يتحرك العجوز من مكانه. وكنا كل يوم نتمشى قليلا من خمسة عشر الى عشرين دقيقة فى فناء السجن الضيق او فوق سقف السجن المسطح. وكنا نتمشى فى شكل دائرى. كل واحد خلف الآخر وبأيدينا خلف ظهورنا، ونظراتنا مثبتة نحو الارض، أما الراس فغير مسموح له بالحركة ناحية اليمين أو الشمال وكان ذلك يتم بدون أى كلام. وكنا نعاقب لاقل هفوة. خمسة ايام لايسمح لنا فيها بالخروج

للتمشي ويسقط حقنا في الشراء من كنتين السجن.
وكانوا يراقبوننا بصرامة تامة كي لايخبىء أحد منا قطع الورق التي نتحصل عليها في الصباح والمساء عندما نذهب لدورة المياه حتى لاتتسرب فيها معلومة للخارج او الداخل. وكان الحارس ينظر الى كل واحد فينا من خلال فتحة في الباب.. ليرى هل أستعملنا الورق في دورة المياه ام لا؟ وبعد طول انتظار وترقب دعيت للأستجواب، وكان الاستجواب عادة يتم ليلاً وبعد الحادية عشر، ويستمر لمدة ساعتين او ثلاثة. وفي الايام الاولى كان يتم حجزي للاستجواب لمدة ثمانية واربعين ساعة. وقد أستجوبني رفزين. وكان لطيفاً وحسن السلوك، وعمد الى أغرائي وحتى ان أعترف بكل شيء. ووعدني بالقبول في الحزب مرة أخرى. ومن المحتمل أن أحصل على وسام.
وسألت المحقق: ما لديه من تهمة ضدي بالضبط؟
أجاب رفزين:
نحن نعلم انك عميل للجستابو، ونعلم انك عضو في تنظيم الثورة المضادة التي قتلت كيروف و... و... فقاطعته بحدة: كل هذا مجرد أختلاف من البوليس السياسي، ولا يوجد دليل ضدي، لأنه لم تكن لي صلة في حياتي قط، مع امثال هؤلاء الناس ولا مع تلك المنظمات.
وأجاب رفزين في برود:
أنك لم تكن لتحبس ابداً، ما لم يكن لدى البوليس السياسي الدليل على جرمك. والبراهين قد عرضت اولاً على اللجنة التنفيذية للشيوعية العالمية. لانك موظفهم. ووافقت اللجنة التنفيذية على القاء القبض عليك. وبعد ذلك سلمت مواد الاتهام للمدعي العام للدولة السوفيتية فشينسكي. ووافق على القاء القبض عليك.
وطلبت منه ان يطلعني على أمر الحبس. فاخرج من احد الادراج أمر القبض واطلعني عليه.. وكان مكتوبا به: (الحبس وافق عليه فشينسكي). وأجبت رفزين:
لا أفهم شيئاً وبوسعي ان أعيد عليك أنه لا علاقة لي بهذه الاشياء، وسوف يصل البوليس السياسي حتماً الى هذه النتيجة.
وفي احد ايام السبت استدعوني للاستجواب. ويندر أن يستدعوا احداً للاستجواب في يوم السبت او الاحد. لذا كانت دهشتي بالغة. ومرة أخرى انتظرني رفزين بنفس نظرات الود المصطنع قائلاً:
- أفهم ياشتاينر، من أجلك نبذت عطلة نهاية الاسبوع أردت ان أنهي مسألتك هذه سريعاً، وكل شيء يعتمد عليك.
أجتبه:
فيما يخصني، انا على أتم أستعداد لان أفعل مافي استطاعتي لكي تطلقوا سراحي وأعود لمنزلي.
وأجاب رفزين قاضي التحقيقات:
حسناً أذن فلنتكلم بجدية. وأخرج ورقاً كثيراً كتب عليه (محضر التحقيقات) وبعد أسئلة مكررة وعلى نحو لايتغير، عن أسمي، وأسم عائلتي، ومكان مولدي سألني:
هل تعترف بانك عضو في منظمة الثورة المضادة التي قتلت سكرتير اللجنة المركزية للاتحاد السوفيتي وسكرتير لجنة منطقة ليننقراد س. م. كيروف؟

ــ يمكنني أن اقول ماقلته في مرات سابقة من أنه لا علاقة لي بذلك وانني بريء تماماً من كل ماتلصقون بي من تهم.

فوضع رفزين القلم جانباً. وقال لي:ـ

ـ بهذه الطريقة لن نصل الى شيء ابداً، يجب عليك أن تعترف.

فأجبته.

ـ ليس لدي ما اعترف به، أنا بريء وهكذا أستمر التحقيق طوال الليل، كان رفزين يحثني على أن أكون عاقلاً وأن أعترف بكل شيء.

ـ أما من جانبي أنا فلست أدري عدد المرات التي حاولت اقناعه فيها بأنني بريء.

ونظر رفزين الى ساعته وضغط على زر وحضر جندي. وقال لي رفزين:

أذهب لزنزانتك وفكر جيداً، وسادعوك غداً مرة أخرى، ولكن أقول لك مرة واحدة اليوم: اذا استمر الحال بيننا على هذا المنوال، وبقيت على عنادك بالا تعترف. ستكون عاقبتك وخيمة فهمت؟ العاقبة وخيمة؟

ولم أجب بشيء وأنصرفت.

وفي يوم الاثنين استدعوني من جديد. وعندما خطوت داخل الغرفة وقعت عيناي على ضابط من ضباط البوليس السياسي بجوار رفزين.. الذي قال:ـ

ــ هذا هو الرجل الذي يعتقد أن بمقدوره جرنا من أنوفنا.. فاذا أستمر في عناده، ضعه ببساطة امام الحائط واطلق عليه الرصاص.

بهذا الاسلوب، قدمني رفزين للمحقق الجديد وخرج.

ـ أجلس :ـ قالها المحقق الجديد وأخرج من جيبه علبة السجائر وقدمها لي.

ـ شكرا لا ادخن.

ـ واشعل المحقق الجديد سيجارة وبدأ في تصفح الاوراق.. وراقبته عن كثب. وكان طويل القامة في الاربعين من عمره شعره اسوه مرتب، حليق الذقن جميل الوجه. لم يكن يرتدي الزي الرسمي ولكنه كان يرتدي قميص الحزب.

وعندما أنتهى من تدخين سيجارته سألني.

ـ هل انت جوعان؟

ـ لا

ـ اذن سنشرب شاياً سوياً

ولم اجب بشيء.

وبدأ معي بلطف، وسألني من انا؟ وكيف حضرت الى الاتحاد السوفيتي؟ فحدثته عن نفسي ذكرت له انني نمساوي الاصل، يوغسلافي الجنسية، وأنه كان عليّ ان أهرب من مطاردات البوليس وقد قضيت بعض الوقت في فرنسا، وكان عليّ ان أهاجر منها لنشاطي الشيوعي.

وأصغى اليّ بأنتباه شديد. ثم قرع الجرس. فدخلت شابة، قال لها: أحضري كوبين من الشاي، وعشرة جرامات من السجوق مرتين وبعد دقائق أحضرت الشابة الشاي والسجوق وقدمه لي. قائلا: كل. بالتأكيد انت جوعان شربنا واكلنا. وبعد الاكل اشعل سيجارته ونفض رمادها قائلاً:ـ

- حدثني عن حياتك، حسناً ولكن دعني أسالك: كيف يمكن لانسان مثلك عمل منذ شبابه الاول قائدا في الحركة الشيوعية كيف يمكن له ان يصبح عميلا لدولة أجنبية
نظرت اليه باستغراب.. ولم احر جوابا فاستمر يقول:-
- انت رجل ذكي.. فاسمع ما انصحك به. اعترف لي بصدق كيف جندت؟ وماهي العملية التي كلفت بها؟
ومن جندت؟ وماهي المهام التي كلفت بها هؤلاء الناس؟..
اجبته:
- انا بريء.. لم يجندني احد.. ولم اجند احداً وعند سماعه كلماتي هذه، قفز من مكانه صائحا هائجا.
هل تعرف أيميك..؟
اجبته.. نعم..
- أذن حدثني اين تعرفت على ايميك..
- كنت أجلس مع احد معارفي في قهوة موسكو مترو بول.
رجعت بذاكرتي القهقهري لاستحضر تفاصيل معرفتي بأيميك وشرعت اقول:-
- كان ذلك عام ١٩٣٤م. حضر الى المنضدة التي كنت اجلس اليها أحد معارفي وبعدها حضر ايميك وتم تقديمه لي وتعريفي به وجلس معنا. ومن سياق الحديث عرفت ان لايميك متجرا في برلين لبيع الحيوانات. وانه يرسل الحيوانات المتوحشة من المناطق الحارة للاتحاد السوفيتي ويحصل بدلا عنها على حيوانات، اقصى الشمال. وبعدها صادفته مرتين في الطريق، وتبادلنا التحية.ولم نتحادث في شيء. هذا كل مايتعلق بمعرفتي بأيميك
- كذاب! سوف أبرهن لك بانك كنت مع أيميك عدة مرات وفي غرفة واحدة بالفندق، وهنالك كلفك بمهمة جاسوسية.
وبعد قوله هذا تيقنت.
ووضح لي جليا، أن كل شيء سيقوله مرتب، ومخترع ضدي. فقلت له بأصرار:-
- أنني أعرف بان كل ضيوف فندق (متروبول) تحت مراقبة البوليس السياسي، لذا فان البوليس السياسي يعلم جيدا انني لم أكن مع أيميك في غرفة الفندق على الاطلاق.
وأشتاط المحقق غضبا، وقفز من مكانه، وضرب بقبضته على المنضدة ودلق المحبرة، وكسر كوب الشاي. وصاح بحقد:-
- الان رأيت مع من أتعامل؟.. انت رجل خطير ماذا تعتقد؟ وامام من تقف؟
اتعتقد انك تقف امام البوليس النمساوي؟ واكمل هائجا:-
سيعلمك البوليس السياسي العقل سريعا. وانتصب واقفا وهو يقول للحارس:- من فضلك، أرجعه للزنزانة فورا.
ووقفت وقلت له: لا اسمح لك بأن تعاملني كالكلب، وتعذبني.
وجن جنونه فصاح بي: أجلس مكانك ولاتتحرك الا بأمري.. وفي النهاية، لماذا أجادلك؟ قف وأدر وجهك للحائط.
ووقفت. وأدرت وجهي للحائط. وبقيت على هذه الحالة مدة ساعتين. وبعدها أمرني بالجلوس. وأخذ ورقة وبدأ يكتب محضر الاستجواب. ولكن ماذا يكتب؟ ان في المحضر كل

ماقلته سابقا نفس الاسئلة ونفس الاجوبة. ولكن وضح لى الفرق الان انه لم يكن يدون كلماتى بأمانة... وبعد مشادة طويلة، وافق أن يكتب بالطريقة التى طالبته بها. وطيلة اسبوعين.. ويوميا.. كان يتم استدعائى للتحقيق معى. وفى الاصل لم يتغير شىء، نفس الاسئلة ونفس الاجوبة.

وفى ذات مرة وفى فترة من الفترات، خيل الىّ أن المحقق ـ قروشفسكى كان مسرورا لذا فقد سألته: كيف حال زوجتى؟

اجابنى بسخرية:

نحن نتابع خطوات زوجتك ويمكننى ان اقول لك انها بحالة جيدة ـ وبمجرد اعتقالك وجدت رجلا آخر وضاجعته.

وخرجت عن طورى بمجرد سماعى لكلماته.

وفى غمرة الغضب نسيت اين انا. وصرخت فى وجهه، وكلت له السباب والشتائم.

ـ باى حق تتكلم هكذا عن زوجتى؟ هذه هى الوسائل الفاشية اليوم لن انطق ولا بكلمة واحدة. وكان صياحى عاليا، لذا فقد حضر ضابط من الغرفة المجاورة ليرى ماحدث. وعندما هدأت نفسى قلت له:ـ

ـ زوجتى تنتظر هذه الايام مولودا جديدا ومن المحتمل أنها الان فى مستشفى الولادة.

ويمكن ان تفهم لماذا أنزعجت. والشىء الذى اريد معرفته كيف هى؟ لقد كنت أعتقد أنى آتعامل مع أنسان.. ولكننى كنت غبيا فاعتقدت انك ستنسى ولو للحظة اننى معتقل.. وستجيبنى على سؤال بانسانية.. والان ارى ان ظنى قد خاب.

فتظاهر قروشفسكى بالبله وكأن شيئا لم يحدث البتة. ووعدنى بأنه سيستفسر عن حالة زوجتى وسوف يخبرنى غدا.

وارجعت للزنزانة.

وعندما أغلقت بابها علىّ بكيت كالطفل. ولاول مرة فى حياتى أبكى بحرقة وعصبية. أما بقية السجناء فلم يندهشوا عندما حدثتهم عما جرى لقد كانوا يعلمون جيدا وسائل البوليس السياسى. الذى لايتورع ابدا فى استخدام اية وسيلة لتحطيم معنويات من يستجوبونه.

بعد ثمانية ايام استدعونى الى مكتب السجون، وأخبرونى بأن زوجتى وضعت طفلة، وهى بخير، وكنت سعيدا للغاية. ولقد سعدت اكثر عندما علمت بان زوجتى لم يلق عليها القبض. ففى معظم الحالات كان البوليس السياسى يلقى القبض على زوجات المعتقلين بدون اعتبار لاى ظرف.. حتى وأن كن ينتظرن مولودا.. أو حتى ان كن مريضات او مرضعات.

وفى سجن بوتيرك كان هناك نحو ثلثمائة امرأة باطفالهن الرضع وأخريات بأطفال دون العام. وبعد سنة من الولادة كان البوليس السياسى ينتزع الطفل من الام، وبالقوة.. ويرسله الى أحد الملاجىء، التى يقوم البوليس السياسى بادارتها.

أما منظر الامهات عندما ينتزع من أثدائهن الاطفال فقد كان رهيبا وكريها الى اقصى حدا.

حصـــن بوتيـــرك

فى منتصف شهر ديسمبر من عام ١٩٣٦م حضر مدير السجن وأمرنى بحزم جميع أمتعتى.

وبدأت وانا متوتر الاعصاب أجمع حاجياتى، ودقات قلبى تتزايد، وفى رأسى تدور أسئلة عديدة..

ماذا يعنى هذا..؟

هل يطلقون سراحى..؟

وأسرعت قبل أن يقودونى الى الطابق الاسفل أودع رفاق الزنزانة.. وأدخلونى غرفة خالية من كل شىء.. ثم خلعوا ملابسى وفتشونى بدقة فائقة وكان علىّ أن اقوم بحركات مختلفة حتى يتمكن الحارس من النظر فى كل فتحات جسمى العارى.

وعندما أنتهى التفتيش الدقيق أمرونى بأرتداء ملابسى وقادونى الى نفس الساحة التى أحضرت بعد اعتقالى لها

وهناك كانت تقف عربة مغلقة.. من نوع الناقلات الصغيرة، كتب عليها باللغات الاربعة الالمانية ـ اليوغسلافية ـ الايطالية ـ الانجليزية ـ كلمة (خبز) رجل البوليس السياسى فتح باب العربة وأمرنى بالدخول.. وكانت العربة من الداخل مصممة على شكل سجن صغير.. قسم الى أجزاء كالزنزانة حشرونى فى أحد الاجزاء فلم أعد استطيع الحركة بداخلها.

كانت كمية الهواء قليلة ومع ذلك فقد أغلقت الاجزاء الاخرى.. ولما حاولت أن أنبه جارى لذلك أمرنى الحرس بأن لا احرك شفتى وان لا أنبس بحرف واحد. وأنطلقت العربة فى شوارع موسكو.

وهكذا سرنا، ولم يكن يخطر ببال أحد من سكان موسكو أن هذه العربة التى كتب عليها باللغات الاربعة كلمة خبز، تحمل فى جوفها ضحايا البوليس السياسى. وبعد مسيرة عشرين دقيقة وصلنا الى اكبر سجن للبوليس السياسى.. فى موسكو (بوتيرك).

وصاح الجنود:ـ

ـ هيا.. بسرعة.. بسرعة.. الايادى على الظهر.

وفتحت بوابة كبيرة صخمة، وبعدها بوابة حديدة فوجدنا انفسنا فى قاعة كبيرة تشبه قاعات محطة السكة الحديدية. بها على الجانبين ابواب بلا مزاليج. فتحوا واحداً منها ودفعوا بى الى الداخل. كانت الغرفة عبارة عن صندوق من الاسمنت المسلح.. خالية من كل شىء عدا كنبة مثبتة على الحائط ـ ولم تكن بها نوافذ ما . جلست على الكنبة، وسمعت كيف يفتح باب وثان وثالث ويدفع من خلاله المعتقلون.

حاول بعضهم أن يسأل الحارس.

ولكنهم سمعوا أجابة واحدة.

ـ الصمت.. ولا كلمة.

وأنتظرت طويلا. حتى أقتادونى الى حمام البخار الخانق، واعطونى قطعة من الصابون.

وشرعت فى الاستحمام.

وبعد عشرين دقيقة تقريبا طرق الحارس الباب صائحا..
. ارتد ملابسك.
سارعت بارتداء ملابسى وانتظرت على مضض، فقد كانت درجة الحرارة فى ذلك الحمام الملعون مرتفعة جدا، حتى أننى لم أستطع التنفس. وانتظرت ساعة من الوقت.. وأخيرا حضر الحارس وقادنى خلال الفناء الى مبنى ذى ثلاثة طوابق.
وتوقفنا فى الطابق الاول عند الزنزانة رقم ٦١ (واحد وستون) وأمرنى الحارس أن أخلع جميع ملابسى وأقف عاريا.. ولكنى قلت له
- يابنى آدم. الا ترى أننى مبتل الثياب. فكيف أفعل ذلك والبرد شديد؟
- أخلع ملابسك ودع النبيح.
وبدأت فى خلع ملابسى.
وبدقة تامة فتش معطفى وملابسى الداخلية.
واستمر ذلك لمدة خمس وعشرين دقيقة وقفت فيها عارياً خلال الممر الفظيع. البرودة والهـواء. وكنت على يقين أننى وفى درجة برودة تزيد على الخمس وعشرين درجة تحت الصفر وفى منتصف ديسمبر. بأننى ساصاب بالالتهاب الرئوى الحاد. ولكن حظى الحسن جعل أصابتى خفيفة لاتتعدى نزلة برد ورشح. وفتح الحارس باب الزنزانة. ودفعنى الى الداخل. ولم أستطع ان أصدق عينى أبدا، هل هذه جهنم..؟ ام هذه ماوى الشياطين..؟ كهف طويل.. طوله ثمانية أمتار وعرضه خمسة أمتار مكتظ بمجموعة من البشر.. بعضهم نصف عار جلس بملابسه الداخلية فقط، وبعضهم رقد على كنبات خشبية مثبتة على الحائط. والذين لم يستطيعوا الحصول على مكان فى الكنبات الخشبية جلسوا على الارض العارية.
لم يكن فى أستطاعتى شق طريقى من الباب الى منتصف الزنزانة مئات العيون كانت مصوبة نحوى.
وقفت فى مكانى مسمراً على الارض بلا كلام.
ومن منتصف الجمع حاول رجل أن يقترب منى.. ونجح فى ان يقول لى..
- يجب أن تأخذ مكانك هنا مؤقتا.
وأشار الى مكان بالقرب من جردل قبيح متسخ وضع هناك لقضاء الحاجة.. كانوا يسمونه (براشا).
- غدا او بعد غد ساجد لك مكانا أحسن.
وطيب خاطرى كثير من المعتقلين.
ونظرت يمينا وشمالا، ولم أعرف أين أجلس.
على اليمين والشمال وقفت جرادل ضخمة لقضاء الحاجة مغطاة باغطية صدئه.
كان يمكن بالطبع الذهاب لقضاء الحاجة مرتين فى اليوم وبصحبة الحارس وفى الليل والنهار وعند غلق الابواب - كانت الحاجة تقضى فى تلك الجرادل- براشا - وأمام الاخرين.
وجلست بالقرب من احداها - لم يكن هناك مفر أبدا.
ولم يمض وقت طويل، حتى أحاطنى السجناء باسئلتهم.
- متى أعتقلت؟ ولماذا..؟ ومن أين أنت؟ الخ الخ.
وعندما علموا بأننى أجنبى غريب. أخبرونى بأن بينهم غرباء مثلى. وفى وقت قصير تعرفت على بعضهم.

وكانت الحفرة التى وضعونا بداخلها صغيرة نسبيا ـ حوالى ٤٥ مترا مربعا.. ويستطيع الوقوف فيها ٢٤ سجينا.. ولكن بها الان مئتان من السجناء. وكان هذا العدد يزيد أحيانا ليصل الى مائتين وستين.

وكانت الروائح الكريهة تنبعث من جوانبها وتتصاعد من أركانها وكأنها الاعاصير الهوجاء.. وكانت درجات الحرارة مرتفعة وغير محتملة على الاطلاق.

وتنفس الناس بصعوبة شديدة.. ثم تساقطوا من الاغماء. وكانت حياة هذه الحفرة من حفر الجحيم تبدأ عند الخامسة صباحا.. امام بابها وقف السجناء بلا صبر، ينتظرون أن تفتح الابواب ويطلق سراحهم، الى دورات المياه.. ولذلك فهم يخبطون الارض بأرجلهم. جرادل قضاء الحاجة ـ براشا ـ أمتلأت الى حافاتها.. ولكى تحمل للخارج كان ذلك يحتاج الى أربعة أشخاص.

كان هذا بالوردية.. كل يوم على أربعة جدد.. ينظفون الزنزانة ويحفظون نظامها.. ولدورة المياه كنا نذهب فى ثلاث مجموعات. وكان هناك حوض للغسيل، نتدافع حوله دائما. كانوا يعطون كلا منا أربعين جراما من الخبز للافطار يحضرونها فى صناديق ويسلمونها لكبير المعتقلين وأسمة (أستاروستا) ـ ومعها ماء ساخن او ماء مغلى وبه تفل القهوه.

وفى الغداء نحصل على نصف لتر من الشوربة ومائة وخمسين جراما من العصيدة.

ومن كان لديه مال يستطيع أن يشترى من كنتين السجن بعض السمك والدهن ـ وفى بعض الاحيان بعض الزبد والسكر ـ والسجائر. فى سجون ستالين كان هنالك نوع من التعاون بين السجناء فى العمل السرى. وفى معظم الزنزانات تكونت لجان للفقراء سميت (كوميدي) الغرض منها الاهتمام باولئك الذين ليست لديهم نقود يشترون بها شيئا من الاكل او الدخان.

وقد كان فى أستطاعة كل سجين أن يحصل على خمسين روبلا من ذويه. تخصم منها عشرة فى المائة للفقراء.

وكان كبير المساجين استاروستا يذهب الى الكانتين ومعه خمسة او ستة من الرجال، بالاكياس والملايات.

وتعد قبل الشراء قائمة تحوى أسماء الراغبين.. وكان الكانتين يقع فى المبنى المجاور.. فيدفعون قيمة كل الاشياء ويضعونها فى الاكياس والملايات.

ويحملونها الى الزنزانة حيث يكومونها فى وسط الحجرة.. ويأخذ كل شخص بقدر مادفع.

وكنا نخزن هذه الاشياء لمدة اربعة او خمسة ايام.. وعادة ماتكون معنوياتنا مرتفعة ويسودنا جو من المرح والبهجة.. حتى اذا انتهى المخزون عندنا ننتظر المشتروات الجديدة ونحن نحس بالكآبة والتوتر. وذلك الكانتين اسمه (الافوجكا). وكانت المشكلة الاساسية التى تواجهنا هى مشكلة النوم عندما يأتى المساء. كنا نرقد مكدسين الواحد فوق الاخر.. وكنا نتنفس بصعوبة. ولم يكن فى مقدور احدنا ان ينقلب على جنبه الاخر الا اذا انقلب جميع النائمين فى صفه على جنوبهم وفى نفس الوقت.

أكبر السعادة هى ان تجد مكانا فى الكنبة الخشبية المثبة على الحائط. اما اصعب الاشياء ليلا فهى ان تجد طريقك الى (براشا) جردل قضاء الحاجة. كان عليك ان تدوس فوق

رؤوس الاخرين.

كل يوم كنا نتمشى لمدة ربع ساعة، ولما كان السجن ممتلئا للحد المذهل، وكنا نتمشى على دفعات، فقد أمرت ادارة السجن أن نفعل ذلك ليلا. فكانوا يوقظوننا في الثانية او الثالثة صباحا لكى نتمشى. وفي كل شهر يرحلوننا من زنزانتنا الى زنزانة اخرى. بعد أن نفتش تفتيشا دقيقا ونحن عرايا.. وكل ممنوع في حيازتنا كان يصادر.

وما الذى لم يكن ممنوعا..؟

قطع الصفيح.. الحديد.. المسامير.. الابر.. كل شيء صلب. وكان التفتيش يستمر ويمتد الى خمس ساعات أحيانا.. وكانوا يخرجوننا الى الاستحمام وفي نفس الوقت يغيرون على اشيائنا المتروكة في الغرفة فيطهرونها..

وكان أول أجنبي تعرفت عليه في تلك الحفرة هو الشيوعي المجرى لانتوش. رأيته يجلس وحيدا في ركن منعزل وقد أطبق فمه فما ينبس ببنت شفة.. كان فقط يحدق من تحت نظارته الى البعيد.. فتبدو عليه سمات المثقفين، على الرغم من ان تقاطيع وجهه لم تكن لطيفة أطلاقاً.

اقتربت منه ذات يوم وحييته باللغة الروسية. ولم يجب بشيء، فتركته دون أن أضايقه او الح عليه. وفي اليوم التالى بدأنا نتحاور عن طريق الصدفة وحدها. لم يكن يعرف الروسية. ولا كلمة منها.

تحدثنا بالالمانية عن اشياء عادية. وعلمت انه من بودابست فقط ولم تزد معلوماتى عن ذلك شيئا.

وفي تلك الليلة أقتادوه للتحقيق، وفي اليوم التالى بعد الظهر اعادوه.. فلم يحادث احدا قط.

وعلمنا ان رجال البوليس السياسى قد أشبعوه ضربا مبرحا.. لانه تهرب عن الاجابة.. وعندما سألته انا لم يرد علىّ فتركته.

وفي ذات ليلة وحوالى الساعة الحادية عشر استدعونى للاستجواب وفي غرفة التحقيق رأيت رفزين، قوشفسكى واثنين من الشبان، وبدأ رفزين في كتابة المحضر.

وجه الى سؤالاً ولم تعجبه أجابتى، فبدأ في أستدراجى لاعترف له بأنى عميل للجستابو.

وبدون انقطاع.. وباستمرار وأصرار كانت اجاباتى:-

- انى برىء

- انى برىء. ولن اوقع على شيء.

الشابان اللذان كانا يجلسان معه في هدوء بادئ الامر، هبوا يوجهون الى اقسى واقبح انواع الشتائم والسباب.

- يا ابن الفاشية.. يا زبالة الفاشية.. يا ابن العاهرة الخائنة الخ..ومن الذى يستطيع أن يحصى كل ماقالوه..؟

وبدأوا يجذبون ثيابى فأدركت ما سيحدث - وتوجهت الى رفزين قائلا:

- تفضلوا على بيوم آخر أفكر فيه.

فأمرهما رفزين بتركي.. وبدأ من جديد في حثي على أن أكون وديعاً وأن أعترف.. فالبوليس السياسى لايعرف الهزل. وأعادوني للزنزانة.
وعندما دعوني في الليلة التالية للاستجواب، أخبرت الحارس بأني لن أبارح الزنزانة ابدا.
وأحتار الحارس وأندهش. ووقف فترة من الوقت وكأنه يجمع أفكاره. وفجأة أندفع يصيح كالمجنون.
وأنزويت في ركن الزنزانة البعيد.
فاستدار وخرج.
وبعد عشر دقائق عاد مع رئيس الحرس.
ومن عتبة الباب صاح رئيس الحرس.
ـ تعال هنا ـ يا أبن الكلب.
ولم آتحرك من مكاني.. فسبني وهددني.
ـ لن آذهب للاستجواب حتى يحضر الى هنا المدعى العمومي.
وحاول رئيس الحرس اخراجي من ركن الغرفة واعدا اياى باللبن والعسل فلم أتحرك خطوة من مكاني.
وعندما رأى أنه لن يستطيع فعل شىء معى، استدار منصرفا.
وبعد مضى ساعة من الزمن فتح الباب.
كان هناك مدير السجن بنفسه..
وكانت معه مجموعة من رجال البوليس السياسى.

وصاح مدير السجن..
ـ احضر الى هنا حالًا.. هل تظن آننا سنلعب معك؟
وآجبته من ركني.
ـ أحضروا المدعى العام.
ولم يستطيعوا الاقتراب منى، فقد كانت الزنزانة ممتلئة بالبشر. وأمر مدير السجن باخلائها.. وبدآ الزحام والتزاحم.وبعد عشر دقائق كانت خالية الا منى.
كنت قابعاً في ركني البعيد.
وانقضى علىّ زبانية البوليس السياسى وأنتزعوني من ركني، والبسوني قميص المجانين ـ الذى يقيد الحركة تماماً.
وبعدها جروني كالجوال ورموني في غرفة الحبس الانفرادى تحت الارض.. وكان أسمها (كارسر).
وتحت الارض وفي اعماقها كانت هناك اثنا عشر زنزانة مختلفة الاحجام جزء منها للحبس الانفرادى.. والجزء الاخر للحبس الجماعى.
ووضعوني في زنزانة الحبس الانفرادى.. ولكن نسبة لامتلاء السجن حينها فقد كان بها أربعة من السجناء.
وعلى كنبة صغيرة مثبتة الى الحائط نام شخصان بصعوبة بالغة. اما الاخران فناما على

الارض. وفوق الباب كانت هناك لمبة تضيء ليلا ونهارا. وبالمقارنة مع زنزانتى الاولى اكتشفت ان الوضع هنا مريح جدا فالنائم يستطيع ان يتحرك بحرية وان ينقلب كيف يشاء.. بين الركن وجردل قضاء الحاجة وبين الركن الاخر والكنبة.

كان طعامى هنا ثلاثمائة جرام من الخبز وابريق من الماء الساخن.. ثم الجوع والبرد القارس. وبعد خمسة ايام اعادونى للزنزانة ٦١. وسألنى لانتوش.

ـ لماذا تثير المتاعب لادارة السجن وانت شيوعى..؟ فى روسيا الشيوعية يجب على الانسان داخل السجن ان يسلك كشيوعى.

ـ عندما يطبقون على وسائل الفاشية يجب ان ادافع عن نفسى.. وبقدر مايكون ذلك ممكنا داخل السجن.

وعلى صدى اجابتى تلك بدأ لانتوش فى تحليل نظريته الغريبة:

ـ الشيوعى يجب ان يضحى.. متى ما طلب منه ذلك.. وخاصة الحزب. ولم افهم شيئا من نظريته ومن هرائه ذاك.

ماهى الفائدة التى تجنيها الحركة العمالية من أعترافى بارتكاب شىء لم أفعله؟ واذا لم اعترف ـ كما تقول نظريته ـ فهل أتركهم يضربوننى حتى الموت؟

ولم استطع قبول وجهة النظر الغبية تلك.

واخيرا بدأ لانتوش يتحدث عن نفسه.. كان سكرتيرا للحزب الشيوعى المحظور.

عامان.. قضاهما فى العمل السرى ببودابست.. قاد الحركة الشيوعية المجرية. وفى القيادة تكونت مجموعة من المعارضين، أختلفت مع أسلوبه. وبدلا من أن يعملوا بين الجماهير وينظمونها، قضوا الليل والنهار فى المساكن مختفين.. يتجادلون ويقرأون كارل ماركس ولينين.

وعندما يشتد الخلاف بينهم يكاتبون اكبر سلطة فى اللجنة المركزية الشيوعية العالمية فى موسكو يطلبون الرأى والنصح. وكان ممثل المجر فى الشيوعية العالمية هو (بلاكون) الرئيس السابق ومندوب الشعوب السوفيتية ايام الجمهورية المجرية السوفيتية. وصف بلاكون لانتوش بانه منشق.. وأمره بالحضور الى موسكو فانصاع لانتوش للأمر وسافر الى موسكو.

وفى الزنزانة ضرب بالعصى والقوا به فى الحبس الانفرادى وأخيرا وقع على أقرار بأنه وبناء على طلب من حكومة (هورتى) أندس فى صفوف الحزب الشيوعى لكى يتجسس. وأنه نظم أعمالاً ضارة بالحزب.. وبأنه سلم الشيوعيين الشرفاء لبوليس هورتى. أعترف بكل ما أرادوه أن يعترف به.

وحرر وثيقة بذلك.

وسألته:

ـــ هل توجد ذرة من الحقيقة فى هذه الاشياء التى أعترفت بها واقررتها على نفسك..؟

ـــ كل الذى أعترفت به كذب. فقد كان الجانب المناوىء لى هو الذى يعمل لصالح هورتى والبوليس المجرى. لقد وشوا بى لابعادى ولكن على الشيوعيين أن يضحوا.

ولم اقتنع بنظرية التضحية تلك

ولم استطع أن أصل الى نهاية فى النقاش معه.

فهذه نظرية كاذبة ولا انسانية وفاسدة.
وسئمت من الحديث العقيم معه، فتركته.

ومن الاشيـاء المثيرة التى سمعتها.. حادث الجزار ميشكا. والذى لم استطع تحديد جنسيته او هويته قط.

كان يتحـدث بطلاقـة كلا من الرومـانية والمجرية والاوكرانية والعبرية. كان الرجل الوحيد الذى يخبىء فى دواخله شيئا شيطانيا. حدثنا ميشكا ـ وقد نسيت أسم عائلته ـ انه كان عضوا فى الحزب الشيوعى لمقاطعة كارباتسك الروسية، التى كانت فى السابق جزءا من تشيكوسلوفاكيا.

وفى التنظيم اندس أحد الجواسس.

وعلم البوليس التشيكى بكل مايجرى فى التنظيم. ووقع الشك على فتاة يهودية كانت هاربة من بولندا.. حيث كان البوليس البولندى يطاردها لنشاطها الشيوعى.

كانت الفتاة قد انضمت الى صفوف الحزب قبل شهور قليلة.. ولذلك فقد اشارت اليها اصابع الاتهام الظالمة وتقرر تصفيتها جسديا. طلب سكرتير الحزب ذلك.. ووقع الاختيار على ميشكا. ليقوم بالتنفيذ. وذات يوم دعاها ميشكا للذهاب معه الى النهر لاداء بعض المهام الحـزبيـة. ولم يسـاورها الشك فذهبت معه. واقتاد ميشكا الفتاة الى مكان منعزل وقام بخنقها والقائها فى النهر.

ولم تمت الفتاة.

كانت فى حالة اغماء فقط..

وتركها وانصرف ظانا بانه أدى عمله كما ينبغى.

وفى ماء النهر البارد عادت الفتاة الى وعيها.

واستطاعت برد الفعل ان تسبح الى الشاطىء الاخر

وشاهدها ميشكا.

فاسرع نحوها عابراً الكوبرى الحديدى وقبض عليها ـ ليقتلها.

ووقفت البائسة امامه ضارعة تستحلفه أن لايقتلها.

ووعدها ميشكا ان لايفعل أن أعترفت بانها جاسوسة تعمل لصالح البوليس.

وحاولت الفتاة اقناعه بكل السبل انها بريئة تماما.. وانها لايمكن ان تلصق بنفسها تهمة بشعة ومشينة كهذه ـ ولن تعترف قط.

وفكر ميشكا بعض الوقت.

ثم أستل سكينة واغمدها فى قلبها.

ورماها من جديد فى النهر. وبعض مضى فترة من الوقت عثر البوليس على جثة الفتاة.. ولم يستطع التعرف عليها.. او على قاتلها.

وبعد ذلك ثبت ان الفتاة بريئة تماما.. من كل التهم التى نسبت اليها.. وان سكرتير الحزب هو الجاسوس.

ثم نجح البوليس فى كشف هوية القاتل. وهرب ميشكا الى الاتحاد السوفيتى.. حيث عاش بعض الوقت فى أمان.

وصلت تفاصيل القصة الى موسكو.

فقبض على ميشكا.

ودافع عن نفسه بأنه أنما كان ينفذ اوامر الحزب.. وان القتل كان واجبا حزبيا فى المقام الاول.

** ** **

وعلمنا يوما أن مجموعة من سجون الاقاليم جيء بها لتواجه بعض السجناء هنا.. وكان فى تلك المجموعة المهندس الشاب ميشا لفيكينوف. وعندما علم المهندس انه فى زنزانة واحدة مع المسجونين السياسيين فزع بشدة.. كيف يحدث ذلك..؟ كيف يوضع فى مثل تلك الزنزانة..؟

انه لم يشتغل بالسياسة طيلة حياته.

الشيء الوحيد الذى أهمه طيلة حياته كان عمله فقط.

له زوجة شابة ـ وابن صغير ـ حدثنا عنهما بالساعات الطوال. أبنه ذى العامين. زوجته التى لاتعلم بحبسه فقد كان فى مامورية، وكان من المفروض أن يعود منها بعد خمسة أيام.

وكان قد كتب لها أنه عائد بالسبت وعليها أن تنتظره بالمحطة.

وهو الان هنا. فماذا يفعل.

لن تجده زوجته عائدا يوم السبت فماذا ستظن به..؟ انها تحبه حباً عنيفاً.

وكان يأمل أن تتضح الامور تماما.. وان يعود الى بيته بالسبت ومرت الايام.

لا أحد يدعوه لاستجواب ما.. ولا احد يسأله شيئا وجاء يوم السبت الذى كان عليه ان يعود فيه.

وهو لايعلم بعد حتى السبب الذى اعتقل من أجله.

وسألته ان كان قد تحدث مع احدٍ ما.. او سب شيئا ما.

وفكر طويلا.. ولم يستطع أن يستحضر شيئا.

وفى يوم الاحد اقترب منى قائلا.

ـ تعرف. لم انم طوال الليل.. فكرت طويلا.. واستحضرت شيئا..

وفى مرة من المرات تفوهت بسباب ما..لانهم ارسلوا لى فى موقع العمل مادة عازلة رديئة..

ربما اعتقلونى من أجل ذلك..!!

هل بمثل هذه البساطة يعتقل الانسان..؟

ونظر الىّ ينتظر ردى. ولم أجب بشيء.

ولما رأيت حيرته هززت كتفى قائلا:

ـ من أين لى ان اعرف لما اعتقل كل هؤلاء؟

واخيرا دعوه للاستجواب.

وعاد الى الزنزانة بعد ساعتين.

كان شاحب الوجه ولم ينطق بكلمة واحدة.

هام على وجهه يدور فى جوانب الزنزانة الضيقة المزدحمة.

ثم جلس فى ركن بعيد.. وكان يبكى

ودنوت منه أحاول أن أخفف عنه.
وبدأ يبكى فى عصبية شديدة وبحرقة أشد.
وسمعنا أحد الحراس يصيح من الخارج
- يا امرأة.. لماذا تبكى.. لا تضعف.
وعندما هدأ روعه حكى لى كيف انتظره المحقق قائلا:
- انت مخادع.. لعين.. ثعبان تروسكى.. مرتشى لاتساوى شيئا.. يا ابن الكلب.. ياعبيط.
وبعد ذلك الوابل المنهمر من الشتائم المحترمة. قال له المحقق:
- غير رأيك واعترف بكل شىء.. اذا انكرت سنحبس زوجتك. وابنك سيكون من المشردين.

وأخذ يتأوه ويئن.. كان ألمه بلا حدود.. لم يأكل.. وظل ينتحب الليل بطوله وفى خلال أربعة عشر يوما ظل يذوى ويذوى.. حتى أصبح كالسمكة الجافة.. كان أيضا يذوب ويتدهور كالشمعة الحزينة فى الليل العاصف كان دائم التفكير فى الامر.. ولكنه لم يستطع أن يفهم شيئا. وفى احدى الليالى جاء ميعاد النوم ورقدنا جميعا.. ثم فجأة فتحت كوة الباب.. ونادى الحارس بهمس.
- لفيكينوف.
وقفز ميشا من مكانه شاحب الوجه.. مرتعشا.. صائحا..
- ماذا..؟ ماذا..؟ ماذا يجرى هنا..؟
وأجاب الحارس.
- استعد للاستجواب
وارتدى ميشا ثيابه.. مشى نحو الباب.. وتبعه الجندى.
وعاد فى الصباح الباكر.
وعلى الطاولة كان فى انتظاره الخبز والماء الساخن.
كيباتوكا.
ولم يأكل ميشا شيئا.
شرب فقط فنجالين من الماء الساخن.
ولم يجرؤ أحد منا على سؤاله.
وبعد مضى فترة من الوقت. بدأ يتحدث من تلقاء نفسه.. عن الاشياء التى عاشها أثناء الاستجواب.
أستقبله المحققون بهذه العبارات..
- حدثنا الان عن كل أعمال الثورة المضادة.
- وعن اعمال تروسكى.
- وقد تحدثت عن حياتى. كيف عشت.. وماذا فعلت فى اوقات فراغى.. أستمع الى المحقق.
ولم يقاطعنى. وعندما أنتهيت من حديثى سألنى..
- هل كنت عضوا فى الشبيبة الشيوعية..؟
- عندما كنت شابا.. كنت عضوا فى الشبيبة الشيوعية.
- اذا كان الامر كذلك أخبرنا من هم أعضاء جمعية تروسكى؟

واندهشت جدا.. وأجبت قائلا:
ـ انها لم تكن جمعية تروسكى حينذاك. وقد مضى على تاريخ انضمامى لها عشر سنوات. ولا استطيع ان اتذكر اسما واحدا من اسماء اعضاء الشبيبة.
وصاح المحقق غاضبا.
ـ أنت من كلاب تروسكى.. عليك الان أن تختار.. اما ان تخبرنى عن اسماء تلك العصابة.. والا صنعت منك عجينة.
وأقسمت بكل شىء فى العالم أننى لم أكن من أنصار تروسكى..
واننى لا استطيع ان اذكر اسماً واحدا.
وأخذ المحقق قصاصة من الورقة وبدأ يقرأ عدداً من الاسماء. وعندها تذكرت الناس فى الجمعية.
ـ أرأيت يا أبن الكلب.؟ تذكرت الاسماء.. والان تستطيع أيضاً أن تتذكر كيف أثنوا عليك.. يانصير تروسكى..؟ ولم استطع ان اتذكر.
ما تذكرت شيئا من ذلك قط.
وكانت هناك مفاجأة.
لعبة يعدونها لى.. بدقة ولؤم.. وتلفيق.
من الغرفة المجاورة أستدعى المحقق أربعة اشخاص.
واجهونى قائلين بأنى قد صوت على قرار بالدفاع عن تروسكى.
وأخبرته بأن ذلك لم يحدث.. ومن الجائز أن نكون قد صوتنا جميعا على قرار ما.. كما يجرى عادة فى كل تنظيم.
ولكنه بالتأكيد لا علاقة له ولا صلة بجماعة تروسكى.
وأعد المحقق المحضر. ذكر فيه باننى أقررت بعضويتى فى جماعة تروسكى. وأنى قد وقعت بأمضائى على ذلك.
وتنفس ميشا متنهداً فى ألم تشديد. وصمت.
وبعد ستة أسابيع أقتادوه من الزنزانة.
وعندما ذهبنا الى الحمام ذات يوم.. قرأنا العبارة التالية:
ـ هيشا لفيكينوف ـ عشرة سنوات أشغال شاقة.
وفى يوم من الايام استدعونى للاستجواب.
وهنـاك وجـدت فروشفسكى.. كان ينتـظرنى بأبتسامة تتراقص على شفتيه سألنى لماذا رفضت المثول امام لجنة التحقيق..؟ وحاول أقناعى بأن أحداً لم يكن يريد مسى بسوء.
وسألته لماذا اذن بدأ فى خلع ثيابى..؟
أجابنى.. هما شابان طيبان خلعا ثيابك للكشف عليك فقط. وعندما قال ذلك كان ينظر فى أوراقه.. تحاشى أن تلتقى أعيننا. ثم نهض واقفاً وتمشى فى الحجرة وبدأ يقول:ـ
ـ من العبط أن تظل على أنكارك.. أن رفضك وعنادك وعدم التوقيع على المحضر ستكون له نهاية سيئة للغاية..
ـ يمكنكم تقطيعى أرباً.. أرباً.. ولكننى لن أوقع محضراً كاذباً.. قط.
ـ هذا لن يساعدك ـ هيا أعترف.

ــ لن أفعل.
ــ هل تريد ان تمضى الى حال سبيلك؟
ــ أجل.
ــ لايمكنك الخروج من السجن. ولكن أذا وقعت.. فان هذا ـ سيسهل عليك.. واذا لم توقع.. تنتظرك حياة قاسية فى السجن.
وكان قروشفسكى فى ذلك محقاً.
عدم رغبتى فى التوقيع على المحضر الكاذب كلفنى كثيراً.. فى السجن ومعسكرات الاعتقال.
وبعد أيام أعاد علىّ الامر مرات عديدة.
ــ أنصحك أن تغير رأيك.. أنت لاتعلم ماذا ينتظرك. كنت أعلم أن البوليس السياسى لايراعى القيم والاعتبارات.. وأنه يلجأ الى أستخدام أقسى وأبشع الاساليب لارغام الضحية على الاعتراف والتوقيع.

المهم ان توقع.. فقط.
واذكر ان فوروبويف المهندس الذى كان فى موسكو حدثنى كيف أرغموه على التوقيع فى المحضر.
وكان فوروبويف عضوا فى الحزب.
وقد سافر الى انجلترا فى مهمة رسمية كعضو لجنة مشتريات، أنيط بها شراء بعض ماكينات المصانع..
وعندما عاد ألقى عليه القبض بتهمة التخريب.
طلبوا منه الاعتراف بأنه كان ينوى شراء آلات لاتناسب المصنع.. وبذلك أراد تعويق بناء الاشتراكية.
وحسب رأيهم فانه فعل ذلك لحساب البرجوازية الانجليزية التى تريد بأى ثمن أن تعطل الصناعة فى الاتحاد السوفيتى. ورفض فوروبويف بعنف أن يعترف أو يوقع على ذلك السخف. وظل على رفضه وأصراره.
وأقتادوه ذات ليلة الى مكان الاستجواب.
وعاد بعد ساعتين.
عاد محطم الجسد والمعنويات.
لم يستطع أنسان ما التعرف عليه.
وفى مثل حالته تلك كان من المستحيل أن نعرف ماذا حدث له.
أجابنا بقوله:
ــ أعترفت بكل شىء.. ووقعت على اعترافاتى.
وفى اليوم التالى تحدث
حكى لنا كيف أعترف.. قائلا:ـ
ــ قررت أن أعترف.. وأجبت المحقق باننى لم أرتكب جرماً ما. لذا ليس لدى ما أعترف به غير ذلك.

ونصحنى المحقق أن أكـون معقولاً وأن أقر بجريمتى، لان قضيتى يجب أن تحسم هذا المساء. وليس هناك مجال للتأجيل.
ومرة أخرى رفضت أن أعترف بما لم أفعل.. وأن أوقع على أكاذيب. واخذ المحقق سماعة التلفون.
وأمر شخصاً ما أن يحضر شهود اتهامى.
واندهشت بالطبع.. ولم أستطع ان اتصور ذلك قط.
بعد دقائق سمعت صوت شخص ما.. يبكى.
هذا صوت زوجتى بدون شك.
وفتح باب الغرفة ودخلت زوجتى وابنتى ذات التسع سنوات وأبنى فى الثانية عشر من عمره.

وعنـدمـا وقعت أبصارهم على انخرطوا فى بكاء مرير يمزق القلب. وأحتضنونى واخذوا يقبلوننى ويصرخون..
ــ بابـا.. بابا.. لا تد فعنا الى الشقاء. اذا وقعت فسوف تحضر الى المنزل، واذا رفضت فسوق يسوقوننا الى السجون.
وأحسست بسكين تغوص فى احشائى.
شرحت لهم أنى برىء.. وليس هناك ما أوقع عليه.

وهنا تدخل المحقق قائلا:ـ
ــ الا تخجل من نفسك..؟
ــ لماذا.. ؟
ــ زوجتك.. أطفالك..
ــ مالهم..؟
ــ يطلبون منك أن توقع.. وأنت لاتزال عنيداً.؟
هلا رحمتهم.. فوقعت..؟ بعد ثلاثة أيام يمكنك الذهاب لمنزلك.. وكان أطفالى يبكون..

وكانت زوجتى تبكى..
ذلك فوق أحتمالى...
وأنهرت.. أنهارت مقاومتى وعنادى أمام دموع أسرتى ولوعتها.. فأخذت القلم ووقعت.
وحكم على فوروبويف بعشر سنوات أعمال شاقة. وعلى زوجته بالنفى.

سجن لفورتوف الحربي

مرت شهور عديدة بدون استجواب.. وفى اغسطس من عام ١٩٣٧م سمعت النداء المعتاد.
- تعال. ياشتاينر.

وعندما اخرجونى للفناء وقعت عيناى على عربة البوليس السياسى المعروفة والمكتوب عليها باللغات الاربعة (خبز). وأعتقدت انهم سياخذوننى للاستجواب فى ليبيانكا.. ولكن خاب ظنى توقفت العربة وخرجت منها. لاحظت انهم اقتادونى لسجن آخر.. وجدت نفسى فى فناء كبير تحوطه مبانى كثيرة حولها قضبان حديدية. اوصلنى الى باب فى المبنى تسلمنى عنده ضابط البوليس السياسى. وسألنى فوراً عن اسمي وتاريخ ميلادى وبعدها امر جندياً بتفتيش.
خلعوا ملابسى جميعها. وفتشوا ثيابى جيداً.. وعندما انتهى التفتيش ارتديت ثيابى.. ووضعوا القيود فى يدي ورجلى.

وامرنى الجندى بالتحرك الى الامام.
وبصعوبة فائقة جرجرت رجلى.. واتكأت على الحاجز حتى أستطيع صعود الدرج.
ثم فتح الجندى بابا من الحديد الثقيل. ودفع بى الى الداخل. فوجدت نفسى فى مربع ضيق من الحجر. زنزانة طولها متر وعرضها متر.

وفى احد الاركان شيدت كنبة على الارض.
جلست افكر.. اين انا الان..
ومرت الساعات دون ان أرى احدا.. وبدأت احس بالجوع وأشعر به يفرى احشائى.. لقد بقيت من الصباح الى المساء دون طعام.. وهذا هو الليل يقبل.. اذن لابد من عمل شىء.
ذهبت نحو الباب وطرقته بعنف.. وسألنى الحارس ماذا أريد..؟
وأخبرته باننى لم احصل على العشاء.. فاذا به يقول لى..
ــ ماذا بك؟ اى عشاء تريد..؟ الساعة الان الواحدة صباحا.
وجلست مبهوتا.. ماذا يعنى كل ذلك..؟ وماذا يضمر لى هؤلاء القوم؟ اى شىء تنطوى عليه احابيلهم..؟ وتعبت من التفكير فاستلقيت على الخرصانة العارية.. وبعد وقت طويل لا ادرى كم هو استيقظت ولم أجد فى نفسى القدرة على الوقوف.. وفتح الباب. وأمرنى الحارس بالخروج.. وجمعت قواى الخائرة لانهض ولكنى لم أستطع الحراك.
وأخيراً، أمسك بى جنديان من أبطى ورفعونى الى فناء آخر، فى مبنى آخر.

اقتادونى الى قاعة شديدة الاضاءة فى الطابق الثانى. وانتظرت... كانت على اليمين والشمال ابواب مبطنة ومنجدة.. وعلى الحائط صورة الرفاق.. ستالين، مولوتوف، بيريا وكاكانوفيج. وعلى الحائط الاخر ساعة، أشار عقرباها الى الثانية وعشر دقائق.
واخيرا اقتادونى الى غرفة. رايت رجلاً فى ثياب مدنية يجلس بجوار الالة الكاتبة.. وقد وقف

الى جانبه أثنان من رجال البوليس السياسى وهما فى زيهما الرسمى.
وعلى ناحية اليمين وبالقرب من الحائط جلس رجل خيل الى أنى أعرفه. وجهه ممتلىء ويبدو أنه لم يقم بحلاقة ذقنه منذ أمد بعيد. قال الجالس قرب الالة الكاتبة.
ـ ستكون هناك مواجهة.
ولم أجر جواباً فقد أصابتنى الدهشة. وواصل الرجل..
ـ أحذرك من توجيه أى سؤال للشهود. مفهوم..؟
ـ نعم.
ـ هل تعرف الرجل الذى يجلس هنا..؟
ـ يخيل الىّ ذلك.
ـ من هو..؟
ـ لا استطيع ان اتذكر.
ـ فكر.
وفكرت بعنف.. عصرت ذاكرتى فما برقت عبر ثقوبها أشعة التذكر.. وعندها سأل المحقق الشاهد.
ـ انت .. هل تعرف هذا الرجل..؟
ـ نعم.
ـ من هو..؟
ـ هذا شتاينر..
ـ من اين تعرف شتاينر..؟
ـ عرفنى أيميك به..
ـ من هو أيميك..؟
ـ أيميك عميل رئيسى.. كبير للجستابو فى روسيا.
ـ وماذا تعرف عن شتاينر؟
ـ حدثنى أيميك بأن شتاينر أيضا عميل للجستابو.
ـ والان.. ماذا تقول عن ذلك يا اشتاينر.
ووجمت.. أصابنى شعور هائل بالغضب فصرخت فيه..
ـ ماذا أقول..؟ أن هذا الرجل مجنون.. أو محرض.
وعندها قفز علىّ المحقق، وأنهال على وجهى ضرباً بكل ما يملك من قوة.. وكان فمه لا يتوقف عن السباب المقذع البذىء. وسال الدم من أنفى بغزارة.. وأظلمت الدنيا أمام عينى.. وعندما رجعت الى الوعى. وقف بجانبى جندى وفى يده بشكير وكوب ماء. فصب الماء على البشكير ومسح به وجهى من الدم.
وأحضر أحدهم كوباً من الشاى صبوه فى فمى بالقوة. وأمر المحقق بفك القيود عن يدى.
ولاحظت بعدها أن الشاهد العجيب قد أختفى من الحجرة. وعندها أمر المحقق أن يحضروه مرة اخرى.
قال المحقق:
ـ شيتز.. انت هل تثبت الشهادة التى قلتها قبل قليل..؟
وعندما رنت كلمة شيتز فى أذنى.. تذكرت فوراً. أين رأيت ذلك الرجل كان هذا فى مقهى

(ميتروبول).. كنت أجلس وهو الى جانبي.. وعندما مر ايميك صدفة أمام المنضدة التى جلسنا اليها، ناداه شيتز وعرفني به. وهنا قلت للمحقق..
ــ أن معـرفتي بشيتـز كانت سطحية جداً.. معرفة مقاهي.. ولقد تغير شكله في السجن كثيراً.. حتى أني لم أستطع التعرف عليه.
ولم يستطع شيتز أن يرد على سؤال المحقق الذى وجهه له، فقفز المحقق من مكانه، وأخذ يصيح في وجهه..
ــ هل تريد أن أبعث بك الى الحبس الانفرادى ـ كارسر ـ مرة أخرى؟.
ــ انني أذكر اقوالي وسأوقع عليها.
ـ وذهب نحو المنضدة فوقع على أقواله.
وحاول المحقق أن يجبرني على الاعتراف.. وسبني بقوله..
ــ أيها البذىء.
ــ أيها البذىء.
ولكني كنت متماسكا.. فذهب الضابط الذى كان يقف الى جانبنا صوب الباب، ونادى على أحد الجنود مشيراً بيده نحوى..
ــ خذ هذه البهيمة الى الشيطان.
وأخذوني مرة اخرى للمربع الحجرى الذى يشبه القبر. وأوشكت الوحدة ان تقتلني . وبعد ساعة اخرجوني من الحبس الانفرادي ـ كارسر ـ ورموني في زنزانة أخرى.
كانت زنزانة ذات سرير حديدى يرفع في النهار على الحائط وينزل بالليل.
وفي الصباح أعطوني قطعة من الخبز. وماءا دافئا ومن ثم فقد دبت الحياة في جسدى واستطعت ان أتمشى في الزنزانة .. ولكني سرعان ما احسست بالتعب. وجلست متكئا براسي على الطولة.. ونمت وصاح الحارس بأعلى صوته.. من خلال فتحة الباب..
ــ لا تنم..
وفي اليوم الرابع دفعوا برجل الى زنزانتي.
ولكن ـ الان ـ لا استطيع ان اذكر اسمه.. فقط اعرف أنه كان سكرتيرا لاكاديمية (قوبكن).. وهـو من الذين أحضروهم الى هنـا من سجن بوتـيرك.. وكانت التهمة له انه من أعوان (تروسكى) وسألته..
ــ ما نوع السجن الذى نحن فيه؟
ــ هذا سجن لفوروتوف الحربي.
وفي المساء قادوه للاستجواب.. ولم يعد بعدها للزنزانة أبداً. وقضيت أسبوعين في سجن لفورتوف.
كانا أسبوعين من الجحيم.
في كل ليلة كنا نسمع صياحاً تقشعر له الابدان.. يتخلله نحيب.. وعويل.. وضراعات رهيبة.. وأصوات أستغاثات تمزق نياط القلوب.
في هذا السجن كان يوجد نظام لم أره في سجن بعده أبداً.. كانت غرف المسجونين في جانب من الممر، تقابلها على الجانب الآخر غرف الحرس.. في نفس الممر.
أن الانسـان هنا لايستطيع ان يهدأ لحظة واحدة.. فان لم يكن تحت طائلة العذاب

القاسي، فهو يسمع عذابات الاخرين.. وأناتهم.. كانوا يسبون الضحايا ويضربونهم ضربا مبرحا موجعا، يجعل اصوات آهاتاهم عذابا تعجز الكلمات عن وصفه.

وكانوا ايضا يستجوبون النساء..

وكان ذلك قاسيا على كل من يسمع أصواتهن الواهية الباكية... وهى تضرع الى جلاديها.. وتنشد رحمة مستحيلة.

وكانت كل جرائمهن، هى أنهن زوجات السجناء.. لم يتركوا شيئاً يخطر بالبال لتعذيبهن.. جربوا كل شيء. الضرب... أبشع الالفاظ... السباب.. أبشع الافعال أيضاً. كانوا يجبروهن على أدانة أزواجهن. تصوروا.. زوجات عشن مع أزواجهن لاكثر من عشرين عاماً.. يتهمن بالعداء للشعب.. فقط للرابطة المقدسة التى كانت تربطهن بأزواج قبض عليهم البوليس السياسى بتهمة العداء للشعب..

وحكم عليهن بالسجن لمدد تتراوح بين العشرة والخمسة عشر عاما فى معسكرات سيبيريا.

وكان الامر ينتهى بالاطفال الى ملاجىء البوليس السياسى.

لايستطيع الاقرباء أن يتولوا حضانة اولئك الاطفال أو رعايتهم.. فخطر الاعتقال يتهدد كل من يمت اليهم بصلة.. والتهمة حاضرة ــ العداء للشعب.

ومرة أخرى اقتادونى لنفس المحقق.. الذى وجه لى ذات الاسئلة:

ــ هل قررت التوقيع على أوراق التحقيق..؟

ــ كلا .. أنا برىء.

وأمتعض المحقق من كلامي.. وأخبرنى بأنه يمنحنى مدة ربع ساعة.. اذا لم أوقع على الاوراق خلالها سيأمر باطلاق الرصاص علي.

وساقونى الى زنزانة تقع فى مواجهة غرفة التحقيق. ومضت الدقائق بطيئة. وفى نهايتها جرونى أليه مرة اخرى. وصاح بى

ــ ماذا..؟

ــ نعم..

ــ هل قررت أخيراً أن توقع على الاوراق.. أم أنك تريد الموت..؟

وفكرت برهة.. ثم أجبته..

ــ خير لى أن اموت.. ولا أوقع على أكاذيب.

وأخرج المحقق ساعة نظر فيها وقال:

ــ أعطيك خمس دقائق اخرى...

وسكت.

وضغط المحقق على زر بجانبه.. ودخل جندى كان يقف بالباب.

ــ قل للعقيد أن يحضر.

ودخل ضابط برتبة عقيد..

ــ هو ذا هنا.. خذه وقم بتصفيته.

وأتجه نحو العقيد.. نزع ملابسى.. تركنى عارياً.. رمى بملابسى فى ركن الغرفة.. ورفع سماعة التلفون.

ـــ فليحضر رجلان فى حالة استعداد كامل، للطابق الثالث غرفة ٣١٤. وحضر جنديان.. يحملان سنجة البندقية.
وبدأت أرتجف.. وانساب العرق البارد من أعلى جبهتى. ووضعنى الجنديان فى منتصف الغرفة.
وصاح أحدهما..
ـــ الى الامام.
ولم أستطع التحرك.. فدفعونى دفعا خلال الممر الى البدروم. وفى الممر قابلت ـ ضابطاً آخر..
وسأل الجندى قائلا:
ـــ الى أين تقوده..؟
ـــ للرمى بالرصاص.
وأمره الضابط قائلاً:
ـــ أرجعوه.. وسأحاول أنا معه مرة أخرى.
وأرجعونى للزنزانة التى وجدت بها ملابسى.
ورقدت على السرير
وتدثرت وبكنى.. لم احس بالدفء أبداً.. كنت أرتعش من البرد.. وقشعريرة مثلوجة تسرى من أوصالى الى بقية الجسد المنهك المغلول. أرتجفت لمدة طويلة.. طويلة.. وفى نهاية الامر نمت.
وبعد ثلاثة ايام استدعانى مدير السجن.. وسلمنى بطاقة مكتوبة بالالة الكاتبة.. طالبا منى قراءتها والتوقيع عليها.
دعوى من مصادر البوليس السياسى الروسى الموثوق بها..
علم بأن المهاجر السياسى كارلو شتاينر عميل للجستابو، وكان يعمل بالتجسس.. ويعد لاعمال تخريبية.. ولذلك الغرض كان المتهم كارلو شتاينر على صلة بأجانب كثيرين.. وكذلك مع بعض المواطنين السوفيت.
كارلو شتاينر كان عضواً فى الجمعية التى قتلت س. م. كيروف وبالرغم من اصرار المتهم على عدم الاعتراف بجريمته، ثبت بأعتراف الشهود جرمه.
وبنـاء على ما جاء فان المتهم مدان تحت المـادة ٥٨ البند ٦، ٨، ٩ وذلك بناء على القانون الصادر فى أول ديسمبر ١٩٣٥م.
المتهم يسلم للمحكمة العسكرية العليا السوفيتية.
أمضاء ـــ المدعى العام.. فشنسكى.

أمام المحكمة العسكرية

طردت من ذهنى وابعدت كل أحلام اليقظة فى أن يطلق سراحى فأنعم بالحرية مرة أخرى.

أستلمت ورقة الاتهام ووضح أمامى كل شىء..

كل من اعتقل كان مدانا ادانة مسبقة.. وكان مذنبا بالضرورة. هذا هو المبدأ الاساسى للبوليس السياسى.. المحاكمات صورية.

تضليل.. ولاشىء غير ذلك.

وفى ليلة ٦ سبتمبر من عام ١٩٣٧م، ألقوا بى مرة أخرى فى المقبرة الحجرية.. بقيت فيها لمدة يومين.

كنت أحصل على الطعام مرتين فى اليوم.. أربعمائة جرام من الخبز ووعاء من الماء الساخن.

وفى الحادية عشر ليلاً جاءونى.

قادونى الى صالة مساحتها حوالى الثلاثين متراً مربعاً.. المنضدة كانت مغطاة بالجوخ الاخضر.

ولم يكن فى الغرفة ـ بعد ـ غيرى وغير الجندى المكلف بالحراسة.

وأمرنى بالجلوس.. فجلست.

ثم دخل ضابط وهو يصيح..

ــ قف.. تدخل المحكمة.

ودخل الغرفة عدد من الضباط.. جلسوا حول المنضدة الخضراء. وعلى منضدة صغيرة جلس شاب فى زيه الرسمى.. وكان ذلك هو سكرتير المحكمة.

وقال الضابط الذى كان يجلس فى الوسط:

ــ تبدأ ـ الان ـ المرافعة والمداولة للمحكمة العليا الروسية.. لمحاكمة المتهم ـ كارلو شتاينر ـ فى التهمة الموجهة له.. وفى الجرم الذى ارتكبه.. وذلك طبقا للقانون الجنائى تحت المادة ٥٨ الفقرات ٦، ٨، ٩.

ــ المتهم .. قف.

فوقفت.

ــ هل أنت مذنب..؟

ــ لست مذنباً ـ أنا برىء تماماً.

ــ كيف حضرت الى روسيا..؟

ولم أكد أبدأ فى كلامى، حتى قاطعنى رئيس المحكمة.

ــ أختصر.

وحاولت مواصلة حديثى. ولكن رئيس المحكمة قاطعنى مرة اخرى.

ــ هل تريد أن تقول شيئاً فى نهاية الجلسة..؟

وبدأت فى الحديث مجدداً فقاطعنى قائلا:

ــ كفى.. كفى.. فنحن نعلم كل ذلك.

وأدار رئيس المحكمة رأسه ناحية اليمين ثم ناحية الشمال، ثم همس للضابط الذى يجلس على يمينه وللاخر الذى يجلس على يساره. ثم وقفوا بعدها. وانصرفوا.

وأمرنى الجندى أن أجلس، فجلست.

ولم يمض كثير من الوقت، حتى عاد القضاة..

وانفجر صوت يقول:

ــ قف.

وقرأ رئيس المحكمة ورقة.. فهمت منها أن بها منطوق الحكم، وهو عشرة أعوام (أعمال شاقة).

ولم تأخذ المحكمة أكثر من عشرين دقيقة.

لم يكن هناك مدع عام.. او ممثل للاتهام.. او آخر للدفاع.

وفى نفس الممر الذى كانت تقع فيه المحكمة فتح الجندى باباً لاحدى الزنزانات، ودفع بى داخلها.

وجـدت فيهـا زملائى، من ضحايا المحكمة العسكرية.. الذين حكم عليهم فى نفس اليوم؟ وبنفس الطريقة.

كان عددهم ثمانية عشر شخصا.. لم تستغرق جميع محاكماتهم الاربع ساعات عددا.

كان فيهم القروى.. والعامل.. والفنى.. وبعض قيادات الحزب المختلفة.

وكان من بينهم أيضاً مدير السيرك.

وعندما دخلت للزنزانة، لم يسألنى أحد عن عدد السنين التى حكم بها على.. فقد كانوا يعلمون.

كلهم كانوا يعلمون.

وكذلك لم يسألنى أحد عن سير المحاكمة.. وكيف جاءت حيثيات الحكم.

فقد كانوا يعلمون.

كل المحاكمات كانت صوراً مكررة لبعضها البعض.

الاحكام كانت معدة سلفاً.. ومقررة.. ومطبوعة أيضا على الالة الكاتبة..

فقط ترك مكان الاسم خالياً.. ليكتب عليه فيما بعد من عليه الدور.

ولم يطالب أحد بأن يعطى الحكم مكتوبا.. فلم يكن لذلك أى معنى أو أهمية.

وكتب فى نهاية كل حكم.. لا حق له فى الاستئناف.

وبالطبع فلم يفكر أحد فى ذلك.. فلمن نستأنف..؟

وبالطبع

اما العفو فلا مكان له.

هكذا كان مشروع قوانين ستالين، ومعاونيه المقربين..

فشينسكى، سميرنوف، أرليخ، ماتوليفيج.. وأمثالهم.

الرحلة الى سيبيريا.... على مراحل...

فى مساء ٧ سبتمبر من عام ١٩٣٧م وفى حوالى الساعة الثامنة أخرجونا الى فناء السجن..
كانت فى أنتظارنا سيارة السجن.. وكانت ممتلئة الى نصفها تقريباً.. ففى نفس اليوم تمت محاكمة أربعة عشر آخرين. وبذلك صار المجموع الكلى أثنان وثلاثون سجيناً.
أقتادونا الى محطة الانتظار فى سجن بوتيريك.. وانزلونا فى منتصف الساحة التى تقع بها الكنيسة القديمة القيصرية.
كانت عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق.. تم تسويرها وتحويلها الى سجن... به جميع أنواع الزنزانات الكبير والمتوسط والصغير. فى كل زنزانة أسرة من طابقين أو ثلاثة ملصوقة على الحوائط. وكانت كل الزنزانات ممتلئة مكتظة.. ببعضها ثلاثون سجيناً.. وبالبعض الآخر أربعون.
ثم شيئاً فشيئاً ملاءوها بالسجناء.. صار العدد عشرة أضعاف ما كان فيها.. وهنا ساءت الاحوال وتدهورت جداً.. بدلاً من المرحاض وضعوا صندوقاً كبيراً لقضاء الحاجة.
وفى الصباح كان نصيب كل ثمانية عشرة رجلاً جردلاً من الماء للنظافة. زنزانتنا لم تكن بها كنبة خشبية.. كانت بها منضدة كبيرة.. وكنت فى قمة السعادة والحظ لان جزءا من المنضدة احتوانى.. فلم أضطر للنوم على الارض الصلبة العارية فى الزنزانة.
الان سرت فى قلوبنا الراحة. فبعد النطق بالحكم لايكون هناك توتر فى الاعصاب او انزعاج ما...
الان لن يقتاد أحد للتحقيق.. بعد ذلك.. فقد أنتهى الامر. بجوارى جلس فاسيلى ميهالوفيج جيراكوف المهندس المسئول عن مصنع موسكو للالات الضاغطة. كان طويل القامة، قوى البنية، اشقر الشعر، اخضر العينين.. من مواليد مدينة كوتلاس.
كان روسياً اصيلاً لا يشبه أهل الشمال
لم يحدث أبداً أن جلس بلا عمل. كان دائماً يعمل.. بدأ فى ترقيع ملابسنا. حدث كلا منا بتاريخ حياته. فحدثناه بتواريخ حياتنا.
الوحيد الذى كان منطوياً على نفسه هو يفيم مروزوف مدير السيرك.
كان يتنهد بحرقة ويبكى باستمرار.
وفى يوم من الايام تحدثت.. حكيت لهم كيف جئت الى موسكو والاعمال التى قمت بها.. وكيف عشت الايام الاولى من فترة الحبس.
ـــ جئت الى موسكو فى ١٤ سبتمبر عام ١٩٣٢م من برلين عن طريق لتفى.. كان المطر حينها ينهمر بغزارة شديدة.. وأسرعت الى العربة التى كانت فى أنتظارى.. كانت سعيد جداً بأن تطأ قدماى أخيراً المدينة التى عاشت طويلا فى خيالى.
فى صبيحة اليوم التالى قدمت نفسى بناء على تعليمات ممثل اللجنة التنفيذية للكمنترن فى برلين، الى رئيس قسم العلاقات الدولية. وكان لقائى به قصيراً.. أذكر أن اسمه هو أبراموف.. قام بأستدعاء شخص يدعى جرنوموردیك يعمل رئيسا للحسابات، وأمره أن يجد لى منزلاً، وأن يؤمن لى الطعام كذلك. وأعطونى خمسمائة روبل.
وقال ابراموف:

ـــ استرح لعدة أيام ثم أتصل بى، بعد ذلك.
وقد قضيت شهر كاملاً أضرب فى شوارع موسكو وأتمشى كما يحلو لى، وعندما استنفذت كل طاقات الفسحة والتسكع قررت أن أزور أبراموف مرة أخرى. فتوجهت صوب مبانى اللجنة التنفيذية للكمنترن، وقابلت ضابط الامن السياسى.. الذى نظر الى فى ريبة واتصل بشخص ما عن طريق الهاتف. بعد ربع ساعة من الانتظار اعطونى قصاصة صغيرة من الورق بها تصريح لمقابلة أبراموف.. وفى طريقى اليه أوقفونى ثلاث مرات للتاكد من التصريح.
وفى الغرفة التى تقع امام مكتبه جلست أنتظر.
كانت هنـاك سكرتيرة تقوم بواجبها.. وهى التى طلبت منى الانتظار. جلست أنتظر لمدة ساعة كاملة، وبعدها سمح لى بالدخول.
كانت هيئته غير مهندمة، وقد غاص فى كرسى الجلوس الوثير ومن فوق منظاره الزجاجى تفحصنى بعيون نفاذة.
وسألنى أسئلة مهذبة وعادية.. وفى نهاية حديثه سألنى أن كنت أستطيع ادارة مطبعة كبيرة. ومؤسسة للنشر ذات اغراض تخصصية. وقد أجبته بأن لى خبرة طيبة فى هذا المجال.
فقال لى بصوت خفيض:
ـــ أذن كل شىء على مايرام. قابل كولاروف وسوف أتحدث معه بشأن ذلك.
كان كولاروف هذا مديراً لقسم البولكان فى الكمنترن.. ومقره الرئيسى فى القصر السابق لرجل الصناعات الروسى (موروزوف) فى شارع فوزدزنكى رقم ١٤ ـــ ويحمل هذا الشارع اليوم اسم كالينيا.
أخبرت عند وصولى البواب، وهو من جهاز الامن السياسى.. بأسمى وحاجتى.. فنظر فى قائمة الاسماء أمامه.. وقال لى:
ـــ دقيقة واحدة.
ولم اكد أجلس حتى حضر رئيس مكتب كولاروف واسمه ستيفان دموفيبج برقمان.. وقادنى للقاء كولاروف.
وجدته يجلس على مقعد وثير.. ومد يده لمصافحتى.. كان مهذباً رقيقاً.. متوسط الطول.. قوى البنية. له رأس أصلع كبير يقف على رقبة قصيرة.. وقد بدا لى شبيها بالتجار فى تلك اللحظة، لا اميناً للسر.. بعيداً جداً عن أن يكون ذلك الرجل الذى نسف كاتدرائية صوفيا عام ١٩٢٢م.. ودفن تحتها مئات البشر من بينهم الوزراء والجنرالات وكبار رجال الدولة.
وضغط كولاروف على جرس أمامه.
فدخلت الغرفة فتاة.. قال لها:
ـــ أطلبى ثلاثة اكواب من الشاى.
أثنـاء شرب الشـاى سألنى كيف سافرت..؟ وما شكل برلين الان؟ وكيف يعيش الرفيق (دمتروف) فى برلين..؟ وماهى وجهة نظرى فى الاحوال السياسية الالمانية..؟
اخبرته بان أغلب الناس يتوقعون استيلاء هتلر على السلطة..
بعد أسابيع قليلة او ربما بعد شهر على الاكثر..
وقال كولاروف بعدم أكتراث..

ــ ولكننا لن نسمح له بأن يستولى على الحكم.
ثم التفت الى برقمان قائلا:
ــ اعمل كل الترتيبات الخاصة بالزميل شتاينر.
ودعته. وذهبت مع برقمان الى مكتبه.
وهناك تحدثنا زهاء الساعتين فيما يجب عليّ أن أقوم به.
وقادني برقمان الى الاقسام كلها.. وقدمنى لرؤسائها واحداً..
واحداً..
قوريف ـ زيليسوف ـ بوكيف.. من بلغاريا. ياوكير وميرونسك من رومانيا.
فليبوفبح ـ بوشوكوفج ـ رادى ـ فونيوقبح (لخت) جوبيج (سنكا) ـ وقرقور فويوفيج ـ من يوغسلافيا.
فرسكوف ـ ميهائيجولا ـ من بولندا.
وكل هذه الاسماء لم تكن هى أسماؤهم الحقيقية.
ذلك هو أذن قسم البولكان...
كان يشغل تقريباً مساحة كبيرة فى قصر موروزوف..
وقد شيدت له بناية حديثة ضخمة داخل القصر.
وفيها تقع المطبعة.. ودار النشر.. (المعهد الزراعى الدولى) وبدات العمل.. آخذت عملية التسليم والتسلم للمطبعة ودار النشر للمعهد الزراعى الدولى ـ آخذت مدة أسبوعين.
وتعرفت على معظم العاملين.
وهم من جنسيات مختلفة عديدة.
ومن اليوم الاول صدمتنى حقيقة مؤلمة.. كانت غرفة الطعام مقسمة الى جزئين مختلفين.
الصالة الكبرى خصصت للعمال والموظفين..
والصالة الصغيرة كانت معدة للقيادين، وقد فرشت مناضدها بالفوط الانيقة.. ويقوم بالخدمة فيها عدد أكبر من الجرسونات كما أن جميع انواع الطعام الجيدة كانت تقدم عليها.
وحاولت أن أقوم بنوع من المساواة بين الصالتين، فأمرت بأن يوحد الطعام فى المكانين وان يكون بنفس القيمة... وقد أصطدمت بثلاثى قسم البولكان. المكون من ممثل الادارة وسكرتير الحزب ثم سكرتير النقابة.
وأخبرونى بخطأ وجهة نظرى. وذلك فى المساواة بين العاملين دون أعتبار لادراك التباين فى الحقيقة الموضوعية، عن الذى عمل اكثر والذى عمل أقل منه.
وهكذا. كان على أن أسحب أمرى للمساواة بين الصالتين.
ولم يمض وقت على ماحدث حتى واجهت الثلاثى مرة أخرى.
فقد أردت أن أعقد صفقة مع مؤسسة توزيع اللحم بموسكو لكى يقوموا بامدادنا كل سبت بثلاثة أطنان من اللحم.. وتعهدت لهم بطبع ما يحتاجون اليه من ايصالات.. وكان تعهدا شخصياً نويت أن أنجزه مهما كلف الامر مستعينا على ذلك ببقايا الورق. وقد تحصل العمال وأسرهم فى أسبوعين على اثنين او ثلاثة كيلو جرامات من اللحم.
ولاحظ برقمان ذلك. فسأل من أين اللحم. وكيف تحصلوا عليه. وكيف يقسم.. وقد اخبرد

كبير الطباخين بأمر تعاقدى مع مؤسسة توزيع اللحم.
وبالطبع أخطر كولاروف، فى الحال.
ودعانى كولاروف ونصحنى بأن أوقف توزيع اللحم للعمال.
وباءت كل محاولاتى بالفشل فى اقناعه بوجهة نظرى.
وكان من رأيه أنه لاتوجد أى طبقة من العمال ذات أمتيازات معينه.
وعلى الرغم من ذلك حاولت تحسين وضع العمال وعمل شىء من أجلهم.
كنا نملك فى أطراف موسكو بناية سكنية للعمال.. يسكنها العزاب من العمال وكذلك أصحاب الاسر الصغيرة.. وكانت المبانى بدائية للغاية ولم تجر لها عملية صيانة منذ عهد بعيد.. وقد تساقط طلاء جدرانها.. وأنهارت أرضية المساكن... وبكل صعوبة وجهد اقنعت كولاروف وبرقمان لكى يصلحوا المبنى من أساسه.
وكان سلفى السابق فرنز المجرى والذى عينه (بلاكون)، قد أهمل شأن المؤسسة.. وكلفنى ذلك ما كلفنى من جهد خارق ومعاناة مضنية حتى أعيد النظام الى قواعده ومجراه.
وما مضى زمن قصير حتى تحسن الاداء بشكل ملحوظ.. وأستطعت ان اكسب احترام العمال وثقتهم.
وفى عام ١٩٣٥م عندما بدأت التصفية داخل الحزب، كان علىّ ان القى كلمة امام لجنة الحزب وعمال المطبعة، واذكر اننى صعدت الى المنصة، ففوجئت بعاصفة من التصفيق.. وقد تحدث عنى ممثل الحزب الشيوعى اليوغسلافى قرقور فيوفج وممثل الحزب الشيوعى النمساوى قروسمان، فوصفونى بالثورى الشجاع.
ثم قال رئيس لجنة التصفية جنرال الجيش الاحمر، انه سوف يمنح الفرصة لاى انسان لديه شىء ضدى لكى يقوله الان.ولم يعترض أحد... او يقول شيئا ضدى.
وبعدها بأيام.. أعلن رئيس لجنة التصفية عن قبول عضويتى فى الحزب. بأجمعية الاصوات..
وكان علىّ طالما حدث ذلك، أن أعمل فى النشاط الاجتماعى.

وقادونى الى اجتماعات ومؤتمرات كثيرة.. حدّثت فيها العمال والموظفين الروس، بصفتى ممثل البوليتاريا الخارجية، عن صعوبة الحياة ومشقتها للعمال فى الدول الرأسمالية.
وحدث أن شاركت بالحديث فى مؤتمر للطلاب بمعهد اللغات الاجنبية.. وهناك تعرفت على أحدى الفتيات...
وهى زوجتى الان.
تزوجنا.. وحصلت على مسكن.. وعشت سعيداً معها.
دائرة معارفنا كانت فى حدود المهاجرين الذين قدموا من مختلف البلاد الاوربية.. وعاشوا فى موسكو.
وأقول لكم.. أن الكثيرين من المهاجرين قد أصابتهم خيبة أمل مريرة عندما وطئت أقدامهم ارض الاتحاد السوفيتى. ولكنهم كانوا دائماً يجدون الاعذار والمبررات لذلك.
كانوا يعزون مايجدونه مخيباً لامالهم للميراث القيصرى.
وسوء الحكم القيصرى وتعذيبه للشعب الروسى.

ومن النادر أن تسمع نقداً هادئا هادفا.
وفى أغسطس من عام ١٩٣٥م عدت من أجازتى التى قضيتها بالقفاز، ففاجأنى أمران خطيران... نائبى فى المؤسسة نكولاى ماركوفج ليبارسكى أعتقل، بتهمة الانتماء لجماعة تروسكى.
والحدث الاخر المزعج... هو اننى قد وجدت نائبا آخر لىّ ولم يكن يخطر على بالى أن يكون لى نائبان فى المؤسسة.
وذهبت الى كولاروف لكى يوضح لى جلية الامر.. وكيف حدث ذلك؟ وفى غيابى ودون علمى ورغبتى..
وقد هدأ من روعى كولاروف وبرقمان.. قائلان ان عملى كثير جدا.. وان المؤسسة سوف تتوسع.
لذلك فلابد من نائب ثان.
لم يمض وقت طويل حتى علمت أن نائبى الثانى على صلة وثيقة بالبوليس السياسى. وان هذا الجهاز لايتهاون ابدا فى زرع عملائه داخل مؤسسة كبيرة وهامة مثل مؤسستنا.
وفى بادى الامر كان نائبى الثانى سميرنوف متواضعا بسيطا.
وبعدها، بدأ يحاول أدخال تعديلات على نظام العمل، لم اقبلها ووقفت ضدها بحزم شديد.
وهنا أضطر، امام ذلك، أن يظهر عنفه وعدوانيته.
وأعتماداً على مركزه الامنى وعلى من يتوكأ عليهم بدأ فى نقد تصرفاتى.
وفى أجتماع الحزب تحدث عن كيف تسود روح البورجوازية فى مؤسستنا ولم ارد عليه فقد كفانى مؤنة ذلك جمع العمال الذى حضر الاجتماع. وفى مناسبة الاحتفال باول مايو ١٩٣٦م منحت جائزة نقدية، تقديرا للنجاح العملى فى بناء الاشتراكية بالاتحاد السوفيتى.
وكان سرورى وسرور زوجتى بذلك مضاعفاً، فنحن ننتظر مولوداً. وقد كانت حياتى فى موسكو متنوعة مليئة.
كنت اشارك فى أجتماعات الحزب المملة التى تسير على وتيرة واحدة، كنت أفعل ذلك بانتظام. وكانت المحاضرات التى تقدم تحمل عناوين مختلفة متعددة.. ولكنها فى الواقع كانت ذات محتوى واحد.. مكرور.. كانت عبارة عن ثناء مجوج ومدح فارغ لسياسة ستالين الحكيمة.. وكان من النادر أن تسمع شيئاً له علاقة بالفكر.. وحتى المناقشات كانت تافهة ومسطحة.. كل متحدث لابد أن يذكر أسم ستالين ولو لمرة واحدة.. وكنت دائم التحدث فى أجتماعات الحزب بالمؤسسة. ولم اعلم فى البداية، أن الخطوط العريضة لكل خطاب، يجب أن تعرض على سكرتير الحزب اولا.. والذى كان من حقه أن يضيف عليها كل الامور التى تشغل بال الحزب حينها.
وكانت صلاتى محدودة مع العاملين.
فمن الصعب أن تجد روسيا واحداً يود حقيقة أن يكون على صلة بأى أجنبى.
أما الشيوعيون الاجانب والشيوعيون الروس فقد كانوا يلتقون فى اجتماعات الحزب فقط.
أقارب زوجتى لم أتعرف عليهم أبداً.
ولم يجروء أحد منهم على تسجيل زيارة لنا.
حتى أنهم عندما علموا برغبتنا فى الزواج نصحوها أن لاتتزوج من أجنبى.

وكان السبب الوحيد الذى ساقوه لها.. هو قولهم:.
ــ او لايكفى انه أجنبى..؟؟!
ولم تتغير نظرتهم لى.. حتى عندما علموا منها اننى عضو فى الحزب الشيوعى.
وذات يوم كنت أجلس فى حديقة بشارع تفرسك بولفار.. وكان يجلس بالقرب منا أحد الاشخاص.. وقد تحدثنا حديثا عادياً فى امور عادية، وعندما أحس بأن لهجتى اجنبية.. نهض واعتذر قائلا:
ــ أنت رجل لطيف للغاية، ولكن من الاحسن ان انصرف.
وجلس فى مقعد آخر بعيدا عنى.
وفى المؤسسة التى أعمل بها كانت هناك فتاة اسمها (تانيا) وهى سكرتيرة الشبيبة الشيوعية.. وقد خطر ببالها أن تدعونى الى منزلها، وتعرفنى على والديها وأختها المتزوجة.
ورحبوا بى عندما زرتهم ودعونى لزيارتهم مرة أخرى.
وبعد أسابيع كررت الزيارة.. وتعرفت عندهم على ضابط بحرى هو زوج أخت تانيا.. وكان اللقاء فاترا لدرجة عدم الارتياح.
وبسرعة تجرعت كوب الشاى.
وأعتذرت بأنى على موعد.
وانصرفت.
وفى اليوم التالى حضرت تانيا الى مكتبى بحجة تذرعتها لسؤالى عن شىء يتعلق بالعمل، ثم عرّجت على الموضوع، وقالت أنها تأسف لذهابى سريعاً من منزلها، ولكنه كان تصرفاً عاقلاً منى.. فزوج أختها لايرغب فى حضور الأجانب للمنزل.

وكان على أذن ان اقصر علاقاتى على الاجانب فقط.
وكان يسعدنى كثيراً حضور بعض معارفى من الخارج.. ليحدثونى بما طرأ على الحياة هناك.
وقليلا.. قليلا.. كان يتملكنى شعور بعدم الارتياح والضيق. وفى مرة من المرات جلست فى مقهى متروبول.
كان ذلك فى عام ١٩٣٤م مع ممثل (أو، ام، اس) فى النمسا الروسى الجنس بارال (وكان هناك ايضا (موستورق) مدير اكبر دكان تجارى فى موسكو.
تحدثنا عن الظروف فى الاتحاد السوفيتى.
وقلت بالتقريب مايلى:
ــ لقد حاول الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى فينا ـ ولمدة خمسة عشر عاما، اقناعى بان هناك بعض الاشياء التى ليست على مايرام.. فى الاتحاد السوفيتى.
وقد احتجت ليوم واحد فقط عند حضورى الى هنا لكى أدرك أنهم كانوا يقولون الحقيقة .
ولم يمض شهر واحد على ذلك الكلام حتى دعانى جيرنوموردك رئيس قسم الموظفين.. وقال لى:
ــ ماذا تعتقد؟ هل نسيت اين انت..؟

ـــ كيف..؟
ـــ أنت لست فى فينا.
ـــ اعلم.
ـــ اذن هل تعتقد انه يمكنك الثرثرة فى المقاهى هنا.. كما كنت تفعل فى فينا.

** ** **

ثم اقترب موعد الاحتفال بثورة اكتوبر.
أردنا ان ندعو بعض الاصدقاء.. وأن يكون أحتفالنا بهيجا وفى الرابع من نوفبر عام ١٩٣٦م، ذهبت كالمعتاد الى العمل.
وهناك أخبرنى رئيس قسم التخطيط بأننا قد تجاوزنا كل معدلات الانتاج التى وضعت فى خطة اكتوبر بمقدار تسعة وعشرين فى المائة.
ودعوت كل رؤساء الاقسام لكى نتشاور ونتفاكر عن تكريم العاملين، ومن منهم يستحق أن يكافأ.
وفى موعد الغداء ذهبت الى (قلب فلبيوفج) (والياس بوشكوفج) فى المطعم الذى افتتح حديثا لكبار القادة.
وكان موقعه فى جناح مستشفى الكرملين.
وسألنى بوشكوفج.
ـــ أن مطعم كمبنسكى فى برلين لايساوى شيئا بجانب هذا المطعم.. اليس كذلك..؟
ولم أجبه بشىء لانى لم اذهب للمطعم المذكور فى برلين. وبعد الظهر ذهبت الى ادارة منتجات الات الطباعة فى تاقانكى لكى أطلب بعض الاشياء لحوجة المؤسسة لها فى السنة القادمة.
وقد قابلتنى بعض الصعوبات. وكان على أن اطلب المساعدة من بياتنسكو، الذى توسط عن طريق اللجنة المركزية للحزب الشيوعى، حتى تقبل طلباتى.
وعند عودتى زارتنى مديرة المدرسة التى نتولى رعايتها ورجتنى التبرع ببعض النقود للمدرسة. كما وجهت الدعوة لى فى السادس من ديسمبر لحضور الاحتفال الذى تقيمه المدرسة وقد لاحظ السكرتير المالى للمؤسسة أنى قد اعطيت نقوداً كثيرة كهدية لاطفال العمال والموظفين بمناسبة الاحتفال.
وقد حاورنى لمدة طويلة فى هذا الخصوص، الا أننى أستطعت إقناعه
وفى السادسة مساء ذهبت الى طبيب الاسنان.
وفى الثامنة كنت بالمنزل.. وبعد العشاء خرجت وزوجتى نتمشى قليلاً..
وعند الحادية عشر تماماً كنا فى الفراش
تلك كانت تفاصيل يومى الاخير.
أنا هنا.. الان..
عندما أنهيت قصتى صمت الجميع.
وبعدها تحدث نميروفسكى المهندس الكهربائى من أوكرانيا ليكسر حدة الصمت المحرج.

ــ ان هذه كوميديا محزنة.
وقد تذكرت شيئا حدث لى.. لا ادرى كيف قفز الى ذهنى عندما ذهبت للاستشفاء فى القفقاز ــ بمدينة كسلوفوسك.. قال لى ادارة الحمامات.. انهم يأسفون جدا لعدم وجود غرف منفصلة.. ولذلك فيتحتم على مشاركة الغرفة مع شخص آخر.. وان علىّ الا أخشى شيئاً.. فهو رجل جيد للغاية ومهذب جداً.
كنت مرهقا من السفر لم أبال.. وأستلقيت مبكراً على سريرى.. ونمت فى الحال.
وأيقظنى حلم غريب.. أحسست بنوع من الكابوس...
وعندما فتحت أعينى رأيت زميلى فى الغرفة يقف أمام سريرى .. وينظر الى بجدية وقصد.. ثم تحرك نحوى ماداً يديه الى الامام وكأنه انسان يمشى فى النوم. ومد يديه الى عنقى..أطبق عليه بقوة.. وراح يخنقنى.. واستيقظت تماما.. قفزت من سريرى.. وألقيت به بعيداً عنى.. ورحنا فى صراع عنيف. وأشتدت الضوضاء.. استيقظ سكان الغرف المجاورة.. على الضجيج.. وأخيراً حضر الممرض وفرّق بيننا.
وطلبت فى الحال آن أتحدث مع شخص من الادارة.
شرحت لهم الموقف.
وفى اليوم الثانى بدا التحقيق.
وتبين لهم بأن ذلك الشخص الجيد جداً والمهذب، مريض عقلياً.. ومصاب بفصام الشخصية.. وأنه يتوهم دائما مطاردة شخص له.

لذلك هاجمنى واراد أن يكتم انفاسى.
وسئمت الراحة.. وكرهت العلاج.
ومضت عشرة ايام..
قضيناه فى الاحاديث عن الاشياء التى عشناها.
وكانت أحاديث ذات شجون...
وعندما بدأنا نحكى عن الاشياء التى حدثت لنا أثناء فترة التحقيق، انبرى ساشا فيبر ــ المسئول الوطنى السابق عن التعليم فى الجمهورية الذاتية للالمان.. انبرى ذلك الرجل يدافع عن ستالين وعهده، ويبرر كل أفعال البوليس السياسى الكريهة.
وقال آنها فترة مرحلية ــ ويجب على الشيوعيين أن يفهموا ذلك.. قال ذلك واكثر، رغم أنه قاسى أشد آنواع التعذيب وكسروا كل أسنانه.

** ** **

فى السابع عشرة من سبتمبر عام ١٩٣٧م.. امرونا ان نكون على آهبة الاستعداد للسفر.
وتحت حراسة مشددة نقلونا الى محطة كورسك.
وعلى خط فرعى وقفت عربتان من عربات الدرجة الثالثة. وبدلا من النوافذ كانت تقف القضبان الحديدية.
وقفت شاحنتنا قرب عربة السكة الحديدية، وخرجنا من الاولى الى الثانية الواحد تلو الاخر.

وداخل عربتين من عربات السكة الحديدية أنحشر حوالى ثمانين سجينا من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. وامرونا بأن نجلس فى هدوء...
وسمحوا لنا بالحديث الهامس فقط.
وحاولنا ان نعرف من الجندى المرافق لنا أين ستكون وجهتنا.. فباءت كل محاولاتنا بالفشل.
لم يجرؤ واحد من الحرس أن يتبادل معنا كلمة واحدة.
مكثنا فى المحطة حوالى الساعتين.
وشاهدنا عن كثب الطريقة التى تناور بها القطارات. سائقو القطارات.. وعمال الوقود .. وبقية موظفى وعمال السكة الحديدية كانوا يمرون بجوارنا.
ينظرون اليها بفضول شديد.
واحسسنا انهم يتعاطفون معنا.
كان ذلك واضحا على قسمات وجوههم.
وكان هناك أيضا الكثير من الرثاء فيها.
بعض المارة اخذ ينظر ويدقق فينا متفحصا.
كان فيهم من يبحث عن قريب له أو صديقه.
وكان هناك امر آخر..

بعض النساء اللاتى قبض على أزواجهن دون ان يكون لديهن معرفة بالمكان الذى اودعوا فيه.. كن يأتين الى محطة موسكو، يراقبن القطارات.. لعل وعسى.
كان يراودهن أمل كبير بأن يلقين نظرة واحدة على اولئك الازواج.
وفكرت فى سونيا.
كم يكون جميلا لو انها ظهرت فجأة بين اولئك الناس.
كيف حالها الان..؟
هل هى بخير..؟ وكيف حال طفلنا..؟ ليتنى اعرف عنها شيئا. لقد بحثت المسكينة فى كل السجون.. تسكعت هنا وهناك ولكن دون جدوى.
لم يكن أحد يعلم مكان السجناء.. او ماذا جرى لهم.!
واخيراً.. الحقنا بالقطار الذى كان يقف على الرصيف الاول. ونظرنا بحزن الى الناس.. كانوا يتحركون بكل الحرية على الرصيف..
يجلسون على المطعم.. ويأكلون.
وتحرك القطار.
وانقبض قلبى.. الى أين..؟ متى سأعود..؟
وصمتنا جميعا.
ومر القطار بضواحى موسكو متجها نحو الجنوب الشرقى
كان الجنود يراقبوننا من خلال قضبان حديدية على أبواب غربة القطار.
كانوا يحذروننا حتى من الكلام.
ولكن شيئا فشيئا استطعنا ان نكسر حاجز الصمت.

.. في بوتيرك أعطونا طعام يومين. عبارة عن خبزٍ وسمك مملح وقطعتين من السكر.
بجوارى جلس جبراكوف.. وماريف الذى كان مديراً لمجموعة من شركات النفط في موسكو.
قصير القامة.. عريض المنكبين.. أشقر الشعر. أنفه يلوح على وجهه كقطعة من البطاطس.
كان سريع التفكير.. والعمل.. يمضغ طعامه وكأنه يضحك.
روسى قح.. من ابناء الريف الاصيل.
وعندما نظرت اليه..
ــ آه .. لاشيء.. تذكرت رئيس في الدائرة الحكومية.
كان يتبع خط الحزب ولا يحيد عنه اطلاقا.. في كل مناسبة.. وفي كل اجتماعات الحزب، كان يلقى علينـا دروسـا اخلاقية عن كيف يجب ان يساق الجميع، وبكل الوسائل على خط الحزب.. أو كما يقول بالفاظه..
ــ يجب أن يمسح على عجيزة كل فرد من الناس بالتربنتين حتى تحترق ومع ذلك فان رئيسى هذا قد مسحوا على عجيزته زيتا.. وحبسوه.
وعند المواجهة،
أصر على انى حاولت تجنيده في مجموعة الثورة المضادة
وهكذا نسافر جميعاً على نفس القطار..
كما يسافر قس الدين المسيحى التابع للدير الاغريقى.
وعندما كنا نتحدث همساً احسسنا بأن شيئا ما يحدث.
عثر احدنا تحت الكنبة على جريدة ازفستيا.
من المحتمل أن أحد الحراس قد نسيها هناك..
قرأناها بالطول.
كان علينا أن نحتاط وأن نكون حذرين للغاية.. حتى لا يكتشف الحراس ما نفعل.
وبسبب الانفعال الشديد الذى ساد جو العربة.. نسينا الحذر.. ففاجأنا الحرس وانتزعوا منا الجريدة.

فى غلادمير

وبعد مضى حوالى اثنتى عشر ساعة توقف القطار فى احدى المحطات.. وبدأ فى عملية مناورة على القضيب المجاور.. ثم حرك جانبا عربة القطار التى بداخلها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.

وأسرعنا نقرأ اسم المحطة، فاذا بها فلادمير. وبعد قليل أحضرت ثلاث عربات ناقلة وزجوا بنا فيها.. كل خمسة عشر سجينا فى ناقلة.

وكانت الساعة تزحف نحو الخامسة صباحا عندما اتجهت بنا الناقلات صوب الاطراف البعيدة للمدينة فى طريقها الى سجن فلادمير.

وقام الجنود بتحذيرنا جيدا.. قالوا انهم سيطلقون النار على كل من يحاول الهروب.. واصروا على بقائنا ساكنين ولم يسمح لنا حتى بتحريك رؤوسنا.

اما سجن فلادمير فانه يقع على تل من التلال المحيطة بالمدينة.

وبعد أن وصلنا الى باب السجن الاسود الكبير، أنزلونا من الناقلات وتركونا نجلس على ارجلنا لمدة تزيد عن الساعتين. وعلمت فيما بعد ان مدينة فلادمير هذه تبعد عن موسكو حوالى الثلثمائة كيلو متر تقريبا - وهى مدينة قديمة عمرها اكثر من مائة عام... وقد كانت قبل ذلك التاريخ محطة للانتظار يمر بها التعساء من الذين حكم عليهم بالاشغال الشاقة فى سيبيريا.

وسجن فلادمير مكون من ثلاثة مبان هى السجن العمومى، وهناك مبنى رابع توجد به الزنزانات بنى حديثاً فى حوالى عام ١٩١٢م... وبجانب هذه المبانى الاربعة اقيم المستشفى.. والحمامات.. والمطبخ.

وأخيرا فتح الباب الكبير.. وهدر صوت آمر:-

— أنتباه.. المساجين.. قيام.

ونهضنا من الطين.. اوقفونا فى طابور من خمس صفوف، ثم أدخلونا فى فناء كبير.. وبدأ النداء على الاسماء.

وكان على السجين أن يذكر. إسمه واسم عائلته، واسم ابيه، وتاريخ ومكان الميلاد، والمادة التى حوكم بها، ثم فترة الحكم التى عليه ان يقضيها فى السجن.

وبعد أن انتهت تلك العملية المضنية أقتادونا الى صالة واسعة لم يسمح لنا فيها بالحديث او التدخين او الاكل. وانتظرنا طويلا.. طويلا.

وعندما جاء دورى اقتادونى الى غرفة ما، وخلعوا عنى جميع ثيابى فوقفت عاريا من كل شىء اراقبهم وهم يأخذون جميع ما املك.. ملابسى الخارجية، والداخلية ثم اشيائى الخاصة.

وادخل الجندى أصبعه الرهيب فى كل فتحة من جسمى.. وعندما أدخل أصبعه فى حلقى ودفعه الى أسفل، لم أحتمل فأزحت يده بعنف.. وصاح بى:-

— فاشست.

وبعد التفتيش اقتادونا للحمام وأعطونا ملابس وأحذية المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.. ثم قاموا بحلق رؤوسنا حلاقة تامة وبعدها أدخلونا فى الزنزانات.

كنا نبدو فى اشكالنا الجديدة بعد الحلاقة وملابس السجن وكأننا أشباح مضحكة.. ولكنها بائسة فى نفس الوقت. ملابس قطنية لونها كحلى داكن وقد اضيف اليها كساءا بنيا فى الكوع والرقبة.. أما غطاء الرأس فكان عبارة عن طاقية روسية صميمة.. وكان الحذاء ذا نعل من البلاستيك وجلد الخنزير وقد غطى بقماش ردىء... واذا اضفنا لكل ذلك المعطف القصير (بوشلات) نجد أنهم قد علقوا على أجسادنا هذه الاشياء الغريبة.. الضيقة على بعضنا، الفضفاضة الواسعة على البعض الاخر.. ولذلك فقد كان من الصعب علينا أن نتعرف على بعضنا البعض من الوهلات الاولى.
بعد ذلك وضعونا فى الزنزانات الارضية.
وهى زنزانات ذات شبابيك غريبة، نصفها تحت الارض لا ترى الشمس مطلقا فهى متجهة نحو الشمال..

أما الاسرة فقد وضعت فى صفين متقابلين.. فى الصف الاول سبعة سرائر وفى الصف الثانى ستة.. وهناك منضدة كبيرة وسط الغرفة.
ثم لا شىء بعد ذلك.
والاسرة كانت عارية الا من حصيرة ومخدة محشوة بالقش وبطانية.

وكان البرد شديدا، ونظام التدفئة البخارية متوقف تماما عن العمل. والزنزانة ذاتها، كانت ضيقة للحد الذى لا يسمح لاحد بحرية الحركة فيها.. والاسرة مثبتة على الارض بالخرصانة المسلحة، وكذلك المنضدة. وفى الركن البعيد قبعت صفيحة كريهة لقضاء الحاجة (براشا) وأحسسنا بالضيق الشديد وبالكرب والحزن، فقد تبخرت كل خيالات الامال التى راودتنا، من اننا سنعيش فى سلام. ونعامل كآدميين.
مرتان فى اليوم كنا نقاد الى المرحاض.. وكان كل دفعة تذهب تتكون من ثلاثة عشر سجينا، يطلب منها قضاء الحاجة فى مدة لا تزيد عن الخمس دقائق بحال من الاحوال، فان تجاوزتها انتزعونا انتزاعا، حتى أن بعضنا كان لايجد الوقت الذى يرتدى فيه ملابسه.
وكنا فى جوع دائم.. نصف كيلو من الخبز فى اليوم.. أما خلال الصباح فقليل من الشاى.. وفى الظهر والمساء حساء الكرنب او البطاطس وقطعة صغيرة من العصيدة. وكان ذلك قليلا جدا وهزيلا للغاية.

وكانوا يخرجوننا الى ساحة ضيقة مسورة بالخشب، يخرجون الجميع فى وقت واحد.. من كل قسم ثلاثة عشر سجينا يقضون ربع الساعة فقط فى رياضة المشى، على هيئة طابور دائرى. اليدان خلف الظهر والنظرات مصوبة نحو الارض ــ والويل كل الويل لمن كان يحاول رفع نظره الى أعلى قليلا.. او تعبت يداه فارخاهما برهة.
ــ يداك على ظهرك يا ابن القميئة الفاشية.. أين تتجه بنظرك...؟ انظر الى الارض.. لا تسعل يا ابن القحبة... يا ابن الكلبة.
وهكذا.... كانت هذه هى وجبتنا اليومية من الشتائم البذيئة اثناء رياضة المشى، يوجهها لنا حراسنا الاشداء.
وعلى الرغم من حوجتنا الماسة الى الهواء الا اننا كنا نحس بالسعادة عند انتهاء الدقائق الخمسة عشر.. دقائق العذاب.

وكان لايسمح لنا بالرقاد.. طيلة النهار نظل جالسين او واقفين.
وقد أخطرونا بأنه يمكننا الكتابة لذوينا مرتين فى الشهر، واعطونا بطاقات نرسلها الى أهلنا بها العنوان، حتى يرسلوا لنا النقود.
وقد كان... فبعد سبعة ايام استلمت رسالة من زوجتى وصورة لابنتى الصغيرة..
واذكر أنه عندما أحضروا لى الرسالة كنت مضطربا جدا، وأذكر أيضا اننى بكيت بحرقة شديدة.. وبعدها بأيام قليلة أستلمت خمسين روبلا وأسرعت الى كنتين السجن فأشتريت الخبز والسمك المملوح، والسكر والبصل، وقطعة من السجق.
وعندما يشترى أحدنا طعاما كنا نأكله جميعنا، دون اعتبار لمن يملك او لمن لا يملك نقودا.. من أشترى ومن لم يشتر.
والشىء الغريب حقا هو ان سجن فلادمير كانت به مكتبة.. جميلة.. وكان بامكاننا كل عشرة ايام او نحوها ان نختار كتابا لبلزاك، ديستويفسكى تولستوى، او اى كتب علمية وادبية مختلفة.
وبعد مرور شهر زارنا مدير السجن.. وهو رجل ضخم الجسم، قوى البنية، أسود الشعر، مكتظ الشارب، قاسى النظرات والقلب. (قبض عليه فيما بعد بعد تصفية رئيس الـ (ج. ب. ى) بيجوف واعدم رميا بالرصاص، لان تعيينه فى ذلك المنصب كان من بيجوف..) وكان فظا جدا.. أجاب على كل سؤال وجهناه له بأهانة بالغة.
وعندما سأله مهندس اللحام جلنكو من مدينة ستالينجراد بمذلة وخضوع أن يعطينا عملا نشغل به فراغنا، صاح فيه بحدة..
ــ نحن ننظم كل شىء بدونكم.

** ** **

مرضت .. واصبت بالاسهال الحاد.. من جراء البرد وسوء التغذية وكنت احسب ان المرض سيزول من تلقاء نفسه، ولكن حالتى ساءت يوما بعد يوم.
وبحثت عن مساعدة الطبيب الذى كان يقوم بالكشف فى نفس الممر.
ذكرت له ما الم بى ولكنه لم يجبنى بشىء.
ورجوته مرة اخرى ان يعيننى على الشفاء.. ولكنه ايضا لم يجب بشىء.
وهنا بدأ الحارس يصيح فى وجهى.. وكان ذلك الحارس فظا قاسيا ومشهورا بيننا على انه أسوأ حارس فى السجن.. وصحت فى وجهه منفعلا.
ــ أنا لا اطلب شيئا سوى مساعدة الطبيب.. فدعنى وشانى.
وبهت الحارس ووجم للحظات، فهو لم يعتقد ان يعارضه احد...
وبدون اى كلمة اعادنى الى الزنزانة، بمرضى.
وحدثت زملائى بما حدث.. فهالهم الامر، وحذرونى من انى سأنقل الى (الكارسر) زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية.
فأصابنى الهم والقلق والخوف.
ولكن، مرت عدة ايام ولم يحدث شىء.
وأحضرت لى الممرضة الدواء.. وأخبرتنى أنهم كتبوا لى غذاءا خاصا بالمرضى.. عبارة عن رغيف أبيض ــ شوربة ــ وفاكهة مطبوخة.

وكانت هذه الممرضة هي الشخص الوحيد في ذلك المكان، الذي يسلك معنا سلوكا انسانيا.
كنا نلجأ اليها في طلباتنا المختلفة.. وكانت ذات وجه مريح، وابتسامة جذابة تكشف عن أسنان بيضاء جميلة...
واؤكد انها قد نقشت في ذاكرة ووجدان كل سجين هنا.. هذه الانسانة الطيبة.
وكان الاكل المخصوص جيدا في يومه الاول.. ولكن في اليوم التالى اختفى الخبز الابيض، وأصبحت الشوربة عبارة عن ماء ابيض. وقلت جدا الفاكهة المطبوخة.
وعندما سألت الحارس عن الخبز الابيض، أمرني أن اكل في صمت. وانفعلت، فأخذت أخبط على الباب مرات عديدة حتى حضر المدير فشكوت له من سوء الطعام قائلا:ـــ
ـــ الدكتور كتب لى غذاءا خاص بالمرضى، ولكنهم احضروا لى فضلات الطعام.
ولم يجب بشىء.. صمت مدير السجن.. ثم لوى ساعدى وأخرجنى الى الممر، وهناك قبض على حارس آخر ولوى ذراعى الاخرى على ظهرى فصرخت من الالم.. واطبق المدير يده على فمى مكمما اياه، فناضلت بشدة حتى خلصت فمى من قبضته صرخت.. صرخت باعلى صوتى فتركونى.. فتحوا باب الزنزانة ودفعوا بي الى الداخل.
والتف حولى الزملاء.. نصحونى أن أكون عاقلاً فهؤلاء الوحوش قساة والصراع معهم لايجدى أبدا.. بل انه يضر ضررا كبيرا.. وكنت اعلم ذلك.. ولكن ماذا افعل...؟
وأغرب شىء أننى في اليوم التالى وبدلا من العقاب المتوقع تحصلت على صحن مملوء بالشوربة.. وعلى سلطانية مملؤة بالفواكه المقلية وقطعة جميلة من الخبز الابيض.

وكيف لى أن أشرح هذه التناقضات.. وانا نفسى لا افهمها.. وقد عزوت الامر الى ضيق الحراس بمدير السجن وبقسوة البوليس السياسى. وانهرت من المرض.. لم استطع الوقوف على قدمى.. فاستلقيت على السرير بالرغم من ان ذلك كان ممنوعا.
ولاحظ الحارس انهيارى ووقوعى على السرير فأمرنى بالنهوض. ولكنى أوضحت له اننى مريض جدا وضعيف للغاية، ورجوته أن يكون طيبا، وان يسمح لى بعشر دقائق أبقى فيها على السرير. ولم يجب بشىء.. وأنما سارع باستدعاء مدير السجن.. وأخبره اننى بدون أدب او حياء.. ولا اريد ان انهض من السرير.
وأخبرت المدير بأننى منهك ومتعب ومريض.. وبأننى لا استطيع الوقوف ستة عشر ساعة بلا انقطاع.
وأمسك مدير السجن بيدى.. قادنى الى نهاية الممر.. ثم فتح باب حديد ثقيل.. ودفع بى الى الداخل.
كانت تلك الغرفة هى (الكارسر) زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية.. شىء اشبه بالقفص الحديدى للحيوانات الوحشية في السيرك.
هنـاك كانت الارض صلبة وجافة خرصانة مصبوبة، عليها مقعد صغير واناء لقضاء الحاجة.. ولا شىء غير ذلك. وفي منتصف الليل القى الى الحارس الذى كان يتمشى في الممر، القى الى بكنبة خشبية قديمة كي انام عليها.. حتى السادسة صباحا.
كانت الزنزانة باردة جدا.. ولم استطع النوم. فنهضت .. تحركت قليلا مشيت الى الامام والخلف انشد دفئا مستحيلا. جاءنى الحارس الذى كانت عليه النوبة الليلية وهو رجل

مسن، متوسط الطول، أبيض الشارب، تبدو عليه علامات الطيبة. سألنى هامسا..
ـ لماذا القوك هنا فى الكارسر..؟
ثم اضاف بود..
ـ اسمع يابنى، أحسن شىء تفعله هنا هو أن تصمت؟ هذا سجن فظيع.. أنت لا تعلم أين تقيم.. وستموت يا ابنى.. قال ذلك، وذهب فاحضر لى قطعة من الخبز والسمك المملح. فأكلت. وحاولت النوم.. أحسست بأنى ضعيف وهزيل جدا. وجاءتنى نوبة من القىء فلفظت كل ماكان بجوفى.

وفى الصباح احضروا لى ثلاثين جراما من الخبز وكوبا من الماء الدافىء وأخبرت الحارس بأنى مريض جدا.
وأقتادنى الرجل الطيب الى الطبيب الذى أمره ان يرجعنى الى زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية.
وصبرت على محنتى.. الى ان جاء يوم أخرجونا فيه وأوقفونا امام الحائط.. وكنا حوالى مائتين سجينا.. من المسجونين بالاشغال الشاقة.. وكانت وقفتنا على صخرة كبيرة.

وأعتقدت أنه التفتيش العادى.. ولكن الجنود أحضروا أشياءنا وملابسنا القديمة التى جئنا بها الى ذلك المكان. فأرجعوها لنا..

واصبح جليا أننا سنغادر سجن فلادمير.. مكان الألم والتعذيب.
وكان هناك الكثيرون من الذين رأيتهم فى سجون بوتيرك وليبيانكا.. ومرة أخرى أشتركنا فى مسلسل النداء على الأسماء والمراقبة الجادة.
وعند انتهاء الاجراءات أمرنا بالصعود الى الناقلات التى اقلتنا الى محطة السكة الحديد.

وفى انتظار عربات القطار المخصصة لنا أخذنا نعد الثوانى ونعجب من تهذيب هؤلاء الحراس الذين لم يشتمونا ولم يحاول أحد منهم أن يعذبنا..

وتحدثنا حديثا عاديا جدا حتى أننا غنينا بصوت منخفض.. وعندما سألنا رئيس الحرس الى اين يقودوننا هذه المرة.. أجاب:ـ
ـ ستكونون فى وضع أحسن من الذى كنتم فيه، فى سجن فلادمير.. وسيحضرون اليه الذين حكم عليهم بخمسة وعشرين عاما (أشغال شاقة).. وأنتم ستذهبون الى معسكرات العمل الاجبارية.

وأصابتنا الدهشة عند سماعنا بصدور أحكام جديدة تصل الى الخمسة والعشرين عاما.. واوضح لنا من كنا نحادثه.. أنه صدر فى شهر اكتوبر قانون جديد أعلن بموجبه الحد الاقصى للعقوبة هو خمسة وعشرون عاما.

وكان ذلك يعنى ببساطة شديدة أننا محظوظون جدا.. فقد حصلنا على عشرة اعوام فقط.. نفس التهمة التى يواجهها غيرنا اليوم بعقوبة قاسية.. يا للحظ..!!
واخيراً..

أخيرا وبعد شهرين ونصف الشهر ودعنا سجن فلادمير سافرنا بالقطار لمدة يومين وليلتين.

وقد كانت زوادتنا للسفر عبارة عن علبتين من السمك.. واثنين كيلو جرام من الخبز ونصف كيلو جرام من السكر. وعندما يقف القطار مدة طويلة نسبيا يحضر لنا الجنود الماء

الساخن (كبياتوك).
ثم وصلنا الى محطة كورسك فى موسكو..
وقفت عربات السكة الحديد التى كانت تقلنا فى القضبان المتجهة الى ليننغراد.. وبدا لنا جليا أننا سنسافر الى الشمال. أين يقودوننا..؟
الى كاريلى..؟ فهناك معسكر كبير للعمل الاجبارى.. يبنون قنال البحر الابيض.
وفى غابات كاريلى أيضا مئات الالوف من المسجونين الذين يقطعون جذوع الاشجار.
وتوقف القطار.. توقف فى منتصف الطريق بين ليننغراد ومورمنسك فى محطة اسمها (كم).
ومرة اخرى أحالونا للقضيب الميت.
كان الوقت مبكرا جدا.. نظرنا من خلال الشباك لنرى المناطق المجاورة الحزينة الرمادية اللون.. نظرنا من ناحية الغابة ومن ناحية البحر الابيض بجوار القضيب.. كانت هناك مجموعة من المنازل.. وبضعة أغنام تتسكع فى المنحدر...

لم يكن هناك بشر.. فقط رأينا فى البعيد مجموعة من المحكومين تحت حراسة مشددة.
وعندما مروا بجوارنا بعد فترة، القوا نظرة داخل العربة، فصاح حارسهم بهياج.
اذن هذا هو ماينتظرنا..؟!!
وفوق البحر الرمادى اللون كان طائر النورس يحلق.. وكانت جذوع الاشجار قرب الشاطىء تسبح فى الماء اللزج. هدوء غريب يسود المكان.. حتى البحر كان ساكنا كالزيت.
وعلى البعد لاحت نقطة سوداء صغيرة.. أخذت تكبر قليلا قليلا وتقترب منا.
يقولون ان الامبراطور بيتر الاكبر أمر بنفى احد رجال حاشيته وعندما سأل أين أرسله.. أجابوه الى (كس أمه).
• ومن هنا جاءت تسمية هذه المحطة كم.
وبدأت الباخرة تدنو من المكان الذى تقف عليه عربتنا.. وأصبحت قريبة من المرسى.. فاصابنا نوع من الاضطراب.. وأضحى فى امكاننا قراءة اسم الباخرة (س. ل. أو. ن) ومعناها سلوفنسكى لاقر او سوبوق. فارناجينا... وترجمة ذلك هى أنهم سيرسلوننا الى جزر سولوفتسكى فى معسكر العمل الاجبارى الفظيع.
رئيس الحرس خرج من عربة الى اخرى.. صائحا..
ــ مساجين.. انتباه.. اعدوا حاجياتكم.. كونوا على استعداد.. أحذركم أى حركة للشمال او اليمين سنطلق النار. كل من يخالف الامر سنصيده..!!
وخرجنا من القطار، واحدا بعد الآخر.. مررنا بين طابور الحرس الذين كانو يحملون فى أيديهم الرشاشات المعمرة. ومن الطابور انحدرنا نحو المرسى ودخلنا فى السفينة واحدا واحدا.
كانت هذه الباخرة مخصصة لنقل البضائع فوضعونا فى الصنادل وكأننا نوع من البضائع العادية.
وعندما أكتمل عددنا هناك، جاء قائد الحرس وبدأ فى النداء على الاسماء.
كان عددنا حوالى المائتين.. وتركنا الضباط والحرس بعد ذلك وذهبوا عنا.. فجلسنا على أرضية الصندل.. جلس كل واحد منا جوار الآخر.. والتصقنا ببعضنا البعض وكأننا

فى علبة ساردين.
وكدنـا نختنق.. ساد بيننا جو رهيب قاتم.. وكان أمامنا المجهول.. الخوف ـ الحزن ـ الضياع ـ تحدث فجاة (قلوشكوف) كان يوما ما سكرتير لجنة منطقة مورنسك.
ـ يا شباب اقول لكم.. سيلقوا بنا جميعا الى البحر.. سيغرقوننا جميعا ـ ومعنا هذه الخردة القديمة.
وليست هذه هى المرة الاولى التى يصفى بها البوليس السياسى حساباته وبالطريقة التى ذكرتها لكم ـ أنها شىء سهل .. يلقون بنا فى عرض البحر.. ثم لا اثر لنا.
بعضنا تملكه القلق لدى سماعه هذه الكلمات.. وحاول آخرون ان يضربوا قلوشكوف بقبضاتهم القوية وبعضنا تصرف بحكمة ونصح الآخرين ان يصبروا.
وهدأ الموقف
ولكننى كنت ميالا الى تصديق قلوشكوف..
وانصتنا الى صوت الهلب وهم يجرونه.. واحسسنا أرتجاج الباخرة.. وشحبت وجوه الكثيرين..وسمعنا نحيبا يعلو من مكان ما..
وبدأت أفكارنا تجرى هنا.. وهناك.. أما أمعاؤنا فقد تحركت وأنتابنا شعور حاد بالغثيان..
وطاف بنا سؤال ملح...
ماذا سيكون مصيرنا..؟
كان ذلك فى ٢ ديسمبر عام ١٩٣٧م.
وتحركت الباخرة ببطء ـ فقد كان المرسى متجمدا من الثلج. فكان عليها أن تناور عدة مرات، وأن تأخذ سرعة أشد لكى تخترف الثلوج. وأستغرقت الرحلة ثمان ساعات كاملة.
وكما ادخلونا واحدا واحدا، أخرجونا من الباخرة كذلك. وبدأنا نصعد للشاطىء عبر طريق شديد الانحدار.. وكان الوقت ليلا ولكن عدة لمبات كهربائية كانت مضيئة.. وقد رأينا بجوار أحد المنازل حاكم الجزيرة ومدير السجن يقف محاطا بمساعديه.
أستلمونا أيضا ـ فردا فردا وهم يقيسوننا بنظراتهم الفاحصة من قمة الراس الى أخمص القدم.
والغريب أن سلوكهم بدأ طيبا فى تلك اللحظات فلم تنطلق من احدهم اساءة نحو احد منا.
وأغمضت عينى بشدة محاولا ان ارى شيئا فى الظلام ونجحت فى رؤية حائط كبير لكرملى جزر سولوفينسكى.
وكنا فى الجزيرة الكبرى من مجموع الجزر.
وعندما أنتهت الاجراءات اوقفونا فى خمسة صفوف متساوية تقريبا وفتحت لنا بوابة ضخمة، ودخلنا فى صمت رهيب.

الجزء الثانى

فى زنزانات سولوفيتسك

في زنزانات جزر سولوفيتسك
كرملـى

تقع جزر ال سولوفيتسك في الجنوب الغربي من البحر الابيض. حوالى ثلاثين ميلا شرقي (كم). في مساحة قدرها مائتين وستة وستين كيلو مترا مربعا.
أما أكبر منطقة مأهولة بالسكان في جزر سولوفتسك فقد أسسها الرهبان في القرن الخامس عشر.. بنوا فيها أول كنيسة هناك.
ثم أزدهرت العلوم والتجارة فيها.. وبذلك فقد أصبحت سولوفيتسك قاعدة مهمة للملكية في موسكو.
وفي عام ١٥٨٤ شيدت حولها الحصون والقلاع.. فقد أعتبرت خطا أول للدفاع ضد هجمات الجيوش المختلفة.. وأخيرا ومع مرور الزمن توسع الدير في ملكيات كبيرة، وأقام مزرعة لتربية الحيوانات، وأسهم في تطوير صناعة السمك والملح... وهكذا أصبح الدير الخشبي وحـوائـط كرمـلى المكان الامثل لاقامة أول وأفظع معسكر من معسكرات العمل الاجباري للسجناء، تقيمه السلطة السوفيتية.
وقـد أحضر لهـذه الجزيرة الرئيسية اوائل السجناء السياسيين وكذلك اصحاب الجرائم الكبرى.. وكان من بينهم رهبان سابقون.. حكم عليهم بأن يقوموا بالاعمال الشاقة مدى الحياة.. في نفس الصومعات التي كانوا يعيشون فيها يوما (كعباد الله).. مع تغيير اسمها الى زنزانات..!!
وكـان في الجزيرة حوالى الخمسين الفا من المحكوم عليهم بالاعمال الشاقة ومن بين هذا العـدد الضخم كانت قلة تعيش داخل زنزانات مغلقة. اما الاغلبية فكانت تؤدي اعمالا جسمانية شاقة، في مزارع تربية الحيوانات..
كانـوا يعملون في ازالة الاعشـاب الطويلة الغـزيـرة.. وفي قطع أشجار الغابات الكثيفة.. ومن اشهرها شجر القضبـان.. وفي صيد الاسماك المعروفة باسماك البحر الابيض المرغوبة في الاسواق العالمية.
كما عمل بعضهم أيضا في كمائن الطوب الكبيرة.
وفي عام ١٩٣٧م حدث تغيير جوهري اذ نقل السجناء المجرمون الى معسكر آخر. وبقى بالجزيرة السجناء السياسيون فقط.. وقل بذلك الاعتماد على استغلال الموارد الطبيعية..
وكـان السجنـاء السياسيون يبقون جل الوقت جلوسا في الزنزانات وبدون عمل. وحين وصولنا هناك، كان في جزر سولوفيتسك أربعة الف وثمانمائة سجين حكم عليهم بالاشغال الشاقة.
وكانت الزنزانات المظلمة للسياسيين والعسكريين تحت الادارة المباشرة للبوليس السياسى (ن. ك. ف. د)..
وقد وضعونا في زنزانات القسس التي كانت تقع في مبنى ذى طابقين، وكانت تتبع للحامية الثانية.

غرف عادية.. الارضية من الخشب.. وبدلا من النوافذ كانت هناك القضبان الصماء.. ثم مدفأة كبيرة من الطين.
كنـا عشرة من المحكومين في زنزانة واحدة.. وكنا سعداء جدا لاننا تخلصنا من زنزانات سجن فلادمير.
وقد أعطونا في الوجبة الاولى أواني من الصفيح وشوربة ساخنة من البطاطس وقطعة من الخبز. وبعدها كمية من العصيدة المخلوطة بالدهن. وحال أنتهائنا من تناولها انفجر صوت :ـ
ـــ أستعدوا للنوم...
فرقدنا على الحصائر التى كانت تفوح منها رائحة العشب الطرى، وتغطينا بالبطانيات الدافئة ونمنا. فقد كنا متعبين.
وعند الساعة السادسة تماما سمعنا صوتا يصيح :ـ
ـــ قيام...
واقتادونا للمر الذى كات به عدة أحواض للغسيل.. فاغتسلنا في هدوء ولم تبدر من أحد منا أى بادرة للشكوى او للتذمر. وبعد ذلك أعطونا خبزا وشايا وبعض السكر.
وعند العاشرة ذهبنا لنتمشى في المقابر القديمة لمدة نصف ساعة بين شواهد القبور التى حكت تاريخ موت الرهبان.. قبل قرون عديدة خلت.
وفي ساحة الكرملى الكبيرة كانت هناك ستة من المبانى ذات الطابقين وذات الثلاثة طوابق، وهى التى أحيلت الى أن تكون سجنا.
وفي منتصف السـاحـة وقفت كنيسـة كبيرة، تم تحويلها هى الاخرى الى مخزن للمواد التموينية. لقد كانت ذات يوم مصلى يتزاحم فيه الرهبان فاذا بها تصبح مخزنا تتزاحم فيه البراميل الخشبية والصناديق وجوالات الدقيق.
وبالقرب من السجن كان هناك حمام بخارى على الطريقة الروسية الاصيلة.
ولم يكن الطعام سيئا... في الغداء كانوا يقدمون لنا الشوربة والعصيدة اما في العشاء فكان الصنف الذى يقدم واحدا لا يشاركه شيء.. وكنا نتلقى قطعة كبيرة من السمك المملوح ثلاث مرات في الاسبوع... وحتى النظام ذاته فلم يكن صارما أو حازما بدرجة كبيرة. ومكثنا في الكرملى أسبوعا كاملا ثم نقلونا الى جزيرة مسكو لم. التى كانت تبعد عن جزيرة الرئيسية الكبرى حوالى عشرة كيلومترات.. ويربط بينهما جسر طويل.
وقد ذهبنا لجزيرة مسكولم سيرا على الاقدام.. ومررنا ببحيرة متجمدة وبغابات أشجار القضبان الجميلة.. ثم بمزرعة مهجورة كانت تربى فيها الثعالب الفضية.
وكانت المزرعة هذه كما علمت مؤخرا ذات عائد طيب، وربح جزيل، ولكنها هجرت وأصبحت خاوية على عروشها، فقد كان من المحتم والضرورى ايجاد مكان ما ليكون سجنا.
ووصلنا الى مسكولم بعد الظهر. وهناك وقفت بناية السجن ذات الطابقين ثم ثلاثة منازل صغيرة، هى المطبخ والحمامات والمكاتب.
وعلمنا أن عدد الجزر التى تضم السجون في تلك الناحية، هى أثنتى عشر جزيرة.. ذات سجون مظلمة كئيبة.
وعندما دلفنا الى فناء الزنزانات رأينا أن النظام هنا ليس ديمقراطيا كما هو الحال في كرملى.

مع المديـر وقف ممثل البوليس السياسى ن. ك. ق. د (باردن).. ووقر فى صدورنا احساس غير مريح تجاهه، فقد قرأنا فى تقاطيع وجهه كل صرامة وقسوة حكم ستالين.
وملأت أجسادنا قشعريرة باردة ونحن نشاهد ذلك المسخ الانسانى الغريب.
وأقتادونا الى قاعة كبيرة خالية.. فخلعنا ملابسنا الى الجلد. وانقض علينا الحراس بمـاكينـات الحلاقة القاسية.. ولما لم تكن لهم الخبرة بكيفية الحلاقة فقد سلخوا جلود رؤوسنا مع الشعر بطريقة فظة جافة.
وكنا عرايا كما ولدتنا أمهاتنا عندما أخرجونا من الناحية الاخرى تحت وطأة البرد القارس ـ اربعون درجة تحت الصفر ـ وكانت هناك الحمامات.
وعلى طول الحائط، وعلى رفوف مائلة وقفت القدور الحديدية التى اشتعلت تحتها النيران.. وارتفعت سحب البخار.. وكانت المياه ساخنة كأنها مياه الجحيم.
وفى القاعة المجاورة احتشد حوالى الستين رجلا، وامام كل منهم جردل خشبى مملؤ بالماء الساخن.. وكان على الجميع ان يدلكوا اجسامهم بالصابون.. والماء.. وان يكون ذلك سريعا وعاجلا للغاية.. وعندما طلبنا المزيد من الماء لنزيل الصابون عن اجسادنا صاح فينا الحراس وأمرونا بالخروج دون حمام.
وحصـل كل واحـد منا على ملابس داخلية وعلى ملابس المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.. ثم قادونا الى الزنزانات.. وتحتوى كل زنزانة على ثمانية عشر سريرا خشبيا.. بكل سرير حصيرة ومخدة وبطانية.. وكانت باردة جدا.. ولزمن طويل.. طويل لم نستطع النوم.

في جزيرة موسكولم

وهكذا بدأت حياة الاشغال الشاقة في جزر سولوفيتسك . وفي جزيرة موسكولم وداخل زنزانة رمادية مظلمة عاش ثمانية عشر رجلا مختلفين.. استطاعوا يوما بعد يوم ان يحيلوا برودة وظلام تلك الزنزانة الرهيبة. وان يبدلوه الى جو مشحون بالكهرباء والدفء. تفجرت المناقشات الحادة التي قاطعها في كثير من المرات حراسنا القساة الغلاظ.

كان كل واحد من الثمانية عشر دنيا فكرية خاصة.. فهو يحمل رأيه الشخصي في كثير من المسائل.. وله آماله. وحساباته الخاصة.

كانوا على اختلافهم يلتقون دائما في نقطة واحدة.. هي انه قد جمع بينهم قدر مفزع رهيب.

احد معارفي القدامى فاسليف جوبراكوف كان يعرف بهدوءه وصبره وطيبته كيف يقاوم الجو المشحون بالعصبية وعدم الاحتمال.. وكان دائما يبدو وكانه تمثال للهدوء واللطف والمسالمة.

أما ماريف فقد اعلننا بعزم أنه ينوي الانضمام للحزب مرة اخرى بعد انتهاء العقوبة. الا انه اضاف قائلا: ومن المحتمل ان لا انضم كذلك.

وكان هنالك ايضا المهندس نميروفسكي الذي كان يتلقي طروداً من الاكل ترسلها له المؤسسة اليهودية الامريكية.. وكان متهما بانه على علاقة مع البرجوازية القديمة.. حدثنا عن طفولته في (اودس) وقال انه كان يعيش في افقر حارات الدنيا. وكان يحس بعمق أنه لن يستطيع مواصلة الحياة.

أما مدير السرك موروزوف فقد كان ينظر الى بطنه وقد تهدل جلدها الهزيل و يتحسر على ايام اكتنازها بالشحم..

وعندما تساءلنا لماذا حوكم بعشر سنوات سجنا ـ رائد الجيش الاحمر. أجابنا بقوله.. لقد تحدثت بخير عن تروسكي.

يا للهول!: الهذا فقط..؟

وهناك. في الركن المظلم جلس الرفيق جلزني السكرتير السابق للشبيبة الشيوعية الاوكرانية... كان يبدو دائما محطم النفسية. مكسور الخاطر صامتا. ساهيا. يبتلع في صدره احزان الابد.

وهاهو جامويد مثير النقاش الحاد.. كان مشرفا على صفحة السياسة الخارجية في جريدة اوكرانيا (الشيوعى).. تعرفنا عليه مؤخرا كان يدافع بحرارة عن سياسة الحزب. وعن الخط الذي ينتهجه.. كان يريد بأي ثمن أن يبرهن على سلامة وضع الدولة وبأن كل شيء فيها يسير على مايرام.

جمع حوله عددا من السجناء.. وكان دائما يدعو الى ان يبقى السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. مخلصين للحزب.. ولو كانوا مظلومين في وضعهم ذاك.. وقال: ان ستالين عبقري، وانه لن يسمح لاي احد بمجرد الشك في ذلك.

وكان مستعدا للتبليغ عن كل انسان يختلف معه في وجهة النظر، لدى البوليس السياسي

وفي احدى المناقشات كان جامويد يصيح ويضرب على صدره بقبضتي يده، ويعلن..
انه هو الذى جعل ذلك الاهبل البرجوازى ادوارد هروت زعيم العمال الفرنسيين يشرب المقلب كالحمار.
تحدث كيف أن هروت في عام ١٩٣٤م زار الاتحاد السوفيتي ليتاكد من ان هناك حرية في العقيدة.
وحتى يثبت لهروت أن في روسيا حرية للعقيدة والعبادة. اعيد على عجل فتح عدد من الكنائس التى حولت الى دور للسينما، او الى مخازن مختلفة الاغراض.
احدى كبريات كنائس كييف والتى تحولت الى مصنع للبيرة. افرغوها واعادوا تنظيمها، وجندوا لذلك حوالى المائتين من العمال.
وفي اليوم الذى وصل فيه هيروت الى كييف اقيمت الصلاة.. مخبرو البوليس السياسى وزوجاتهم مثلوا دور العباد.. جامويد حصل على دور القس الذى القى خطبة الصلاة.. وقد كانت تنقصه الذقن، الا انهم اخذوه الى حلاق المسرح الذى ركب له ذقنا جميلة للغاية.
وقد تم اخراج الامر على الوجه الاكمل.

وكان هيروت في غاية السرور.. وعند عودته لفرنسا صرح بانه رأى رأى العين كيف ان حريــة العقيـدة في الاتحـاد السوفيتي متوفرة وان حق العبادة مكفول لكل انسان.. وبأمكان من يريد الذهاب الى الكنيسة ان يفعل ذلك وقتما يشاء.
وعندما انتهى جامويد من حديثه هذا، سألته:ـ
ــ هل ترى من الصواب اخراج تلك الكوميديا.
ــ عين الصواب.
ــ بل هذا غش.
ــ لماذا لانغش..؟ لقد خدعنا نحن الشيوعيين ممثل البرجوازية الخارجية.
ــ من فضلك.. ان هيروت ليس ممثلا لاى برجوازية خارجية.. فقد صوت الى جانبه كثير من العمال الفرنسيين.
ــ هذا لايعنى شيئا، فالذين صوتوا له يساعدون البرجوازية.
ــ فليكن. ولكن لا يعقل ابدا ان نواجه الحرب ضد الدين بالغش.
ان علينا تنوير الناس. ولا شىء غير ذلك.
ــ اذهب الى الشيطان.. فانت لايمكن مجادلتك.
وأنتهى النقاش عند هذا الحد. وقد وقف الى جانب وجهة نظرى كل الذين كانوا يختلفون معه من قبل، وكان يرهبهم.
ولم استطع ان افهم على الاطلاق.. كيف يدافع عن السلطة من اعتدت عليه هذه السلطة.. ولفقت ضده التهم..وساقته الى السجون ومعسكرات الاعتقال..؟
كيف يمكن ان يحدث ذلك.. انا لا افهم..؟
ان ذلك ضد الطبيعة البشرية..
وقد تحدثت في هذا الخصوص مع رئيس بلدية ستالينجراد يفوروف ورجوته أن يوضح لى ماذا يحدث لبعض الناس.

وكان تفسير يفوروف هو ان هؤلاء البعض يفعلون ذلك ويقولونه لانهم يريدون اسباغ حماية خاصة على ذويهم وأهلهم الذين بقوا على قيد الحرية.

** ** **

كنا نجد هدوؤا نفسيا كبيرا عندما نخلو الى كتاب نطالعه، فننسى كل ما حولنا..
وقد كانت هناك مكتبة يسمح لنا بأن نستعير منها كل عشرة ايام كتابا..
وكان ذلك رائعا.. الا ان اختيار الكتب لم يكن بايدينا.. اذ كانوا يحضرون ثمانية عشرة كتابا يلقونها في الزنزانة عند ميعاد التسليف.. وعليه ان تختار منها او تبادل بكتابك من يرضى بذلك.

وكانت حياتنا رتيبة مملة.. لم يطرأ عليها جديد.. اليوم عبارة عن نسخة من سابقة. لا جديد قط.
الحديث المثير الوحيد هو وصول خطاب لاحدنا.. ولكن الخطابات كانت نادرا ما تصل.
فقد خشى اهلنا على انفسهم من الكتابة. فقد كان سيف الاعتقال معلقا على رؤوسهم لصلتهم باعداء الشعب...
ومن يملكون الجرأة ويكتبون، كانوا يستخدمون الرموز والالغاز.. ويحكون اخبار محزنة للغاية.

وكان احد افراد البوليس السياسى واسمه باردن يمشى بين الممرات كالظل.. دائما على اطراف اصابعه.. يقتحم الابواب ويهاجم النوافذ عله يلمح مخالفة من احد منا لكى يعاقبه. كان قاسيا باردا متعطشا للدماء.. في الثلاثين من عمره.. اشقر الشعر.. كل شيء عنده ممنوع ومحرم..

غير مسموح بالضحك.. غير مسموح بالقراءة بصوت مسموع.. غير مسموح بخلع الحذاء داخل الزنزانة.
مخالفة تلك الاشياء كانت من الامور الصعبة والحرجة للغاية. ويعاقب عليها بشتى انواع العقوبات.. الحرمان من التمشى.. الحرمان من كتابة الرسائل.. الحرمان من الشراء في الكنتين.. او الحبس الانفرادى في (الكارسر) التأديبية القاسية.

في مارس من عام ١٩٣٨م القوا بي في زنزانة يقيم بها الاجانب.. كانت صغيرة جدا ويشغلها ثمانية من النزلاء. وقد تعرفت فيها على الشيوعى الالمانى ورنر هيرش، المساعد الايمن لارنست تاهلمان قائد الحزب الشيوعى الالمانى. الذى كان مطيعا ومخلصا لسياسة موسكو، والذى كانت تنقصه المعرفة النظرية للماركسية... وقد لعب هيرش دورا هاما في مساعدته على اكتساب ثقافته الحزبية. وقد حدثنا هيرش كيف كان يفعل ذلك.
كان يقطن غرفة تلاصق مكان تاهلمان.. وكان يتلقى التعليمات عن طريق نقرات خاصة على الحائط يرسلها له تاهلمان. بعضها تحضير اجندات اجتماعات، او مواد لمؤتمر الحزب، أو صياغة بعض التصريحات الخ الخ.. وقد قام هيرش بكل ذلك تحت مظلة الرضا الكبير لموسكو.. ولتاهلمان شخصيا.

وعندما جاء هتلر للحكم كان على ورنر هيرش ان يهاجر للاتحاد السوفيتى.. وفي الرابع من نوفمبر ١٩٣٦م القوا عليه القبض في موسكو وحوكم بعشر سنوات.
وقد كنا نختلف معه كثيرا في آرائنا.. وخاصة في تلك النقطة المتعلقة بوجهة نظر الحزب

الشيوعي الالماني قبل وصول هتلر للحكم.. ولكن بالرغم من ذلك كنا اصدقاء جيدين. فقد كان رجلا شجاعا.. دائما ضد الارهاب في جزر سولوفيتسك. ناضل ببطولة.. ولم يحصل على مساعدة من اى شخص.. وكان على ان اساعده بقدر المستطاع.. فكنت في كل شهر اشترى له عشرة صناديق صغيرة من السجائر.. وكان يدخن بشراهة.. وعلى الرغم من انه كان يبدو سليما الا ان المرض سرعان ما ظهر عليه وانهار جسده سريعا.

وتقدمت برجاء لمدير السجن لكي يأمر له بوجبة اضافية لانه لايملك نقودا للشراء من دكان السجن.. ولم احظ باجابة.

فقرر الاضراب عن الطعام ونفذ قراره.. غير انى وبعد مرور خمسة ايام نصحته بالكف عن ذلك لعدم جدواه وحدثته قائلا -

ــ هذا النوع من النضال قد يجدى في بيئة ووسط متحضرين. ولكنه عديم الجدوى في هذا المكان.. تماما.. وانت تعلم رد الطبيب عليك وسيقول لك.. مت افطس.

والحق ان اضرابه عن الطعام الحق به اضرارا جسيمة.. وكان دائما ما يوضع في زنزانة الحبس الانفرادى الكارسر. تاديبا له. وفي السنة التى مكثناها معا قضى ورنر فيها مائة وخمسة ايام.. ضيفا على زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية.

وقد استنفذ ذلك الحبس كل طاقاته. وعذبه جدا. فاصبح لايستطيع الحركة الا بجهد شديد.

ونادرا ما كان يخرج ليتمشى.

وعلى الرغم من حماسه الكبير لعهد ستالين الا انه كان يحلم بالحياة في منزل هادىء باوروبا.. بعيدا عن السياسة والمشاكل.

وكان يحب الحديث عن زوجته وطفلته.. ولم يكن يعلم شيئا عن مصيرهما.

وافترقنا في ديسمبر من عام ١٩٣٨م.

وبعدها، ظللت اسال عنه وأبحث في كل السجون والمعتقلات التى تهيا لى ان الم بها.. ولم اكن موفقا في معرفة مصيره.. ابدا.. الا ان بعضهم أخبرنى برؤيته له في سجن اوريبل قبيل الحرب الالمانية الروسية.

وكان هناك ايضا احد معارفي القادمي ساشا فيبر يجلس في الركن البعيد ولا يحادث احد، الا في النادر. وكان دائم القراءة.. وقد حاولت مساعدته ببعض الاشياء او النقود التى كانت ترسلها زوجتي، الا انه رفض واجابنى اجابة قاطعة:-

ــ انا لا استطيع ان اتقبل المساعدة من الذين يختلفون معي سياسيا.

ولكن الزمن كان كفيلا باذابة ثلوج تحفظاته ومواقفه الثابتة. وقد بدأ يلين شيئا فشيئا لمحاولاتي.. وكان رجلا طيبا وحساسا ماتت زوجته.. وله ابن في الثامنة من عمره ولكنه لايعرف عنه شيئا. ثم وجهت اهتمامى بعد ذلك للشاب الايرلندى قولد فيرسكويلس الذى كان يحب ان يفلسف نفسه، والحياة، والشر، والخير، في وضعنا.

وهـذا الشاب له حكاية عجيبة، فقد كان متطوعا في الحرب الاهلية الاسبانية الى جانب الجيش الجمهورى الاسبانى وعمل في برشلونة كخبير في محطة الاذاعة. وكانت له ملاحـظات على رجال البوليس السياسى الذين يتغلغلون في صفوف الجيش الجمهورى

لاخـذ المواقع القيادية.. ولم تعجبه هذه الآشياء فأتصل بقائده واخبره بانه جمهورى متطوع وليس شيوعيا تابعا للجمهورية الستالينية ورجاه ان يسرحه من صفوف الجيش. وطلب منه القائد الصبر لبضعة ايام حتى يجد من يخلفه وبعد ايام استدعوه لاصلاح جهاز لاسلكى فى احدى السفن بالميناء. وما ان وطئت قدماه ارض الغرفة التى قيل ان الجهاز بها، حتى اغلق عليه الباب وتحت حراسة شابين من شبيبة الحزب الشيوعى بقى محبوسا حتى اقلعت السفينة ولم تقف الا فى ميناء سفاستوبولى.

وعند وصولها للميناء السوفيتى جاء رجال البوليس السياسى والقوا القبض عليه وعلى حارسيه الشابين.

وفى موسكو حكم على ثلاثتهم بالسجن لمدة ثمانية اعوام لكل منهم بتهمة التجسس لصالح الانجليز.

وكان معنا رجل أخر ظل منطويا على نفسه طيلة الوقت وهو رجل هادىء الطبع اسمه (بفيفر) كان مراسلا سابقا للجريدة الالمانية فى روسيا (دويتش زنترال زايتنق).

فى فيبرتال بالمانيا كان المعروف عنه انه شيوعى من قادة الحزب، ويمتاز بأنه نشط جدا ومناضل من الدرجة الاولى.

جلس فى الركن محطم النفس بلا ارادة.. ولكنه كان زميلا جيدا.

وشاركنا نفس الزنزانة ثلاثة من الالمان الشيوعيين، جاءوا الى الاتحاد السوفيتى كخبراء، والقى القبض عليهم وحوكموا بعشر سنوات سجنا لكل منهم بعد ان اتهموا بانهم عملاء للجستابو.

وقد فرض علينا نظام السجن عزلة تامة.. ارادوا بكل الوسائل والسبل ان يمنعوا أى اتصال بين الزنزانات. راقبونا بالليل والنهار.

ولكننا نجحنا فى كسر نطاق هذه العزلة.

فى دورة المياه كانت هناك لمبة تضىء بالجازولين.. وفى ذات يوم لاحظنا انها تقف معوجة بعض الشىء. وعندما ابتعد الحارس فتشناها ووجدنا بها وريقة صغيرة. ووضعتها بسرعة فى فمى.. وعندما خرجنا من دورة المياه فتشونا كالعادة لاخذ الاوراق التى يعطوننا اليها لاستعمالها هناك، حتى لا نستخدمها فى أشياء أخرى. وعند رجوعى للغرفة وأنفردت بنفسى بعيدا عن أعين الحرس. وأخرجت الوريقة من فمى.. وقرأت:ـ

ايها الرفاق الاعزاء.. فى الزنزانة رقم ١٢٠ ـ عشرون رجلا هم .... وتتابعت بعد ذلك أسماء العشرين رجلا..

ورددنا عليهم بوريقة صغيرة وحفظناها فى لمبة الجازولين.. وبنفس الطريقة تمكنا من الاتصال بزنزانتين.

تبادلنا الاخبار عن المحاكمات الجديدة والاعتقالات. وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لكى نعلم مايدور فى العالم.

ونجحنا فى الحصول على قصاصة من جريدة متسخة، رجحنا أن يكون أحد الحراس قد ألقى بها فى دورة المياه.. ومن تلك القصاصة علمنا أن روسيا واليابان على خلاف حول بحيرة حسن.

وهكذا أستمرت طرق الاتصال بيننا ممهدة وعلى مستوى طيب.
وفى ذات يوم وبعد خروجنا من دورة المياة، خلعوا ملابسنا جميعها وفتشونا تفتيشا دقيقا. وبالطبع وجدوا عندى البوستة المنتظمة من الزنزانة المجاورة. واقتادونى الى باردن الذى اراد ان يعرف كيف حصلت على الوريقة. وقد أجبته بأنى وجدتها فى دورة المياه ولكنه لم يصدقنى وعاقبنى بعشرة ايام فى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية (كارسر) على دفعتين.. فقد كانت سلطته فى حبسى ذلك لاتتعدى حدود الخمسة ايام. وكان عليه ان اراد تجاوزها الحصول على اذن من الجهات العليا.
وهكذا انتهى بريد الرسائل والاتصال بيننا وبين الزنزانات الاخرى. وعند عودتى من الحبس الانفرادى أخبرنى الزملاء أن مائة روبل قد وصلتنى.. وكانت أخبار زوجتى مقطوعة عنى لمدة طويلة ولذلك فقد سررت سرورا كبيرا لوصول الرسالة... ففيها أيضا وجدت الدليل على أن زوجتى مازالت تتمتع بالحرية.
وعندما حضر الى زنزانتنا مدير السجن سألته متى تحضر لى المائة روبل التى وصلت اثناء غيابى عن الزنزانة، كان رده القاطع:ـ
ـــ لم تصلك نقود
وأيقنت عند ذلك ان النقود أرجعت لزوجتى.. وان هذه الطبخة أجاد سبكها باردن.
وبعد مرور زمن طويل وصلتنى رسالة أخرى من زوجتى وبها صورة أبنتى. وكانت كلمات الخطاب تحمل لى طعنة نافذة.. والما كبيرا.. وحزنا هائلا.. فقد آخبرتنى زوجتى أن أبنتى مرضت وماتت.
وجلست فى الركن لا أريم.. أفكر كيف حدث ماحدث.. وأقارن بين المتناقضات فى هذا المكان.. لقد اهتموا برسالة الموت هذه وسلموها لى بأقصى سرعة يمكن أن تكون.. لم يتركوها تبقى دقيقة واحدة فى الرقابة.
وبعد لم استلم ابدا وانا فى جزر سولوفيتسك رسالة واحدة من زوجتى.
بقيت مع الاسى والحزن، أرقب كيف يتفنن باردن فى تعذيبنا وخلق اسباب النكد لنا...
وعندما حارت به السبل واستنفذ كل الوسائل المتاحة له لمضايقتنا قرر أن (تهوى) الزنزانة مرتين فى اليوم، ولمدة ربع ساعة فى كل مرة، وبحضور الحراس.
وكان لايسمح لنا قط بفتح النافذة.. وفى ايام الحر كانت الزنزانة عبارة عن فرن ملتهب.. حرارة لاتحتمل.. تبتل ملابسنا بالعرق الغزير ولايسمح لنا بخلع بدلة السجن.. وكنا نختنق ببطء.
ورفضوا كل مطالبنا بمد فترات التهوية للزنزانة.. وقد سقط عدد منا مختنقا لفساد الهواء وراح فى غيبوبة طويلة. وقررت ان أفعل شيئا.. وعندما أتى وقت التمشى أخبرت الحارس أنى مريض وأريد البقاء فى الزنزانة.. وحالما ذهب الجميع الى فناء السجن أخذت أناء الماء وقذفت به زجاج النافذة فحطمت لوحين منه.. ودوى صوت الزجاج فى ذلك الهدوء القاتل وكأنه قنبلة رهيبة. واندفع للزنزانات خمسة عشر من الحراس.. فى جنون وغضب. القوا بأنفسهم على.. كل واحد منهم قبض على جزء من جسدى، ثم جرونى الى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية (كارسر).
وبعدها بساعتين اقتادونى الى باردن.. كان يجلس خلف طاولة الكتابة واضعا رجلا على

اخرى ومتكئا بمنكبيه على المنضدة.. وعندما لمحنى أدخل صالح هائجا..
ـــ من أنت..؟ أهي انتفاضة..؟
ونظرت اليه باستغراب. فاستمر يقول
ـــ تحدث. اعترف. انا اعرف كل شيء.
ـــ من فضلك عن اى شيء تتحدث؟ اى انتفاضة تعني؟
ـــ اى انتفاضة؟ انت الذى أعطى اشارة البدء بها. اعترف في الحال واذا لم تفعل فسوف تكون اليوم في جزيرة (سكيرى قورى)
وكانت هذه الجزيرة عبارة عن نقطة صغيرة في البحر.. بها منارة وحارس واحد.. وهنالك كان يقتل المحكوم عليهم بالغضب، والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.. ترمى جثثهم في البحر للاسماك المتوحشة الضخمة.
وأجبت باردن..

ـــ يمكنك ان تفعل بى ماتشاء فانت صاحب السلطة، ولكنى اقول لك انى لم أعط اشارة لاحد، ولم يخطر ماتقول على بالى،، كل ماق الامر انى لم أرد أن أموت اختناقا في الزنزانة..
اردت الهواء الذى تضنون به علينا. ومضى وقت طويل.. طويل.. وهو يحاورنى.. ويريد أن ينتزع منى اعترافا مستحيلا.
وحين يئس من الحصول عليه كتب في محضره ماحدث وأمر باعادتى للزنزانة التاديبية.
وبعد خمسة ايام اعادونى للزنزانة الاولى. وكان الجميع سعداء بعودتى.. وبالعقوبة الخفيفة التى نلتها.
فقد كانوا يتوقعون لى سوءا اكبر..
وبعد هذه الحادثة سمحوا لنا بفتح النافذة وقتما نريد.
وكان ذلك انتصارا كبيرا، هنأنى عليه (فيبر) وأتى يضغط على يدى بحرارة.
ومضت ثلاثة اشهر.. وذات ليلة أيقظنى الحارس وأمرنى بارتداء ملابسى. ووجم الجميع عندما اقتادونى من الزنزانة.. اما أنا فقد أيقنت بأن لحظاتى الاخيرة قد دنت.. كان هذا زمن محاكمات (بهارين) و(ركوف) (وبياتاكوف).. حيث اتسعت رقعة الارهاب الجماعى الفظيع في السجون والمعتقلات.. واعدم عشرات الالاف من الناس رميا بالرصاص.
اقتادونى الى فناء السجن، حيث كانت عربة لورى واقفة بجانب مدير السجن.. وكان هناك أيضا عدد من الجنود.
أمرونى بركوب العربة في حراسة أربعة من الجنود برشاشاتهم.
ـــ وكان على أن أطيعهم فانبطح على وجهى في أرضية اللورى.. وغطونى بمشمع ثقيل.
وفي الطريق أخذت افكر بزوجتى التى قست عليها الايام ماتت ابنتنا، وبعد قليل ستسمتع عن موتى انا ايضا..
بالطبع، سيخبرونها بأنى مرضت ومت.
وأخذت افكر في الطريق البعيد الى جزيرة سكيرن قورى وكيف يجب علينا ان تمر بجوار (كرملى) وبعد نأخذ قاربا بخاريا.
ولكي يمخرون بى عباب البحر في هذه الظلمة..؟ لماذا يقودوننى الى تلك المسافة البعيدة..؟

والموت هنا.. هو الموت هناك.
ووصلنا الى كرملي ووقفت العربة.. فازاح الجندى المشمع وصاح بى.
ــ قف
ولم أستطع الحركة.
ــ قف يا ابن الكلب
ولم استطع النهوض.. فصاح الجندى
ــ هى.. انت..؟ ماذا بك..؟ هل فطست.
فلم أحـر جوابـا.. وأخذنى الجنود من رأسى وقدمى والقوا بى خارج العربة.. وجذبنى احدهم من ياقة بدل السجن وجرنى الى احدى الفرندات ورمى بى الى الارض.
رقدت بلا حراك.. مغمض العينـين.. ولم افكـر فى شىء.. كنت احاول النوم.. وذهبت فى غيبوبة طويلة.
وعندما ايقظونى كان ضوء الشمس يملأ الأفق.. وقف امامى مدير السجن الذى سبق أن تعامل معنا عند حضورنا الى هنا فى عام ١٩٣٧م. وكان فى يده قصاصة من الورق..
قرأ علّى منها قرار ادارة السجون فى موسكو التى حاكمتنى للجنوح وكسر زجاج النافذة، وسب ممثـل البوليس السياسى، بعشرين يوما فى الحبس الانفرادى (كارسر).. وبغرامة قدرها أربعة وأربعين روبلا قيمة الزجاج الذى كسرته.
ووقعت على القرار، ثم قادونى الى المبنى الابيض للكتيبة الرابعة، فى الممر ذى العشرين زنزانة. واستبدلوا حذائى بآخر من السعف ولحاء الشجر (لابتى).. ورموا بى فى زنزانة الحبس الانفرادى (كارسر).
كان علّى أن أحبو حتى أستطيع المرور من فتحة القضبان السفلى الحديدية الضيقة. كانت الارضيـة من الطوب.. والزنزانة ضيقة ليس بها نوافذ. وفوق القضبان الحديدية أوقدت لمبة صغيرة كهربائية.. ليلا ونهارا كانت الزنزانة رطبة وباردة.. وكان علّى ان أتحرك باستمرار.. وان اقوم ببعض التمارين الرياضية لليدين.. ولكنى لم استطع فعل ذلك لمدة طويلة.. فقد اصابنى تعب هائل غريب.
وفى الصبـاح التالى أحضر لى الحارس طعام اليوم.. وهو عبارة عن ثلاثين ديكاجرام من الخبز وبراد من الماء الساخن. ولاشىء آخر وقد أفادنى الماء الساخن حتى أن خدى أبتل بالعرق.
وفى اليوم الخامس تحصلت على لتر من الشوربة...
وخلال الليل كان البرد شديدا جدا.. وكان من المستحيل أن أجد الدفء فى الكنبة الضيقة.
ولكى أفعل ذلك خلعت قميصى ولففته حول رأسى ووجهى.
وسمعت صوت باردن... امام الباب.
ــ من هذا المسجون..؟
وأخبرته بما فعلت لكى أجد الدفء فصاح بى:ــ
ــ ولاجل ذلك انت هنا ـ هيا أزح القميص عن رأسك ووجهك وسارع بارتدائه ــ والا خلعت ثيابك كلها وأبقيتك عاريا.

وفي اليوم الحادى عشر لوجودى في تلك الزنزانة جاء مديرو السجون في زيارة للسجن.. عقداء وجنرالات البوليس السياسى.. كانت شبه لجنه.
سألوني.. لماذا سجنت؟.. فأخبرتهم بكل شيء.. افرغت مافي نفسى.. قلت لهم انى شيوعى أجنبي.. وفي البلاد الاخرى واجهت السجون والمعتقلات لذلك.. ولكن في اى مكان لم الق مالقيته هنا.. من رعب واضطهاد وظلم.
وكان ردهم.. حسنا ـ حسنا.. سنرى ماتقول.
ثم نصحني احد الجنرالات ان اكون مطيعا، وان لا اتحدى قوانين ولوائح السجن.
وشعرت بالراحة عند انصرافهم.
وبعدها بساعات نقلوني الى زنزانة اخرى في نفس الممر.. كانت بها نافذة، وذات أرضية من الخشب.. ومساحتها ضعف مساحة الزنزانة الاولى.. وهناك قضيت ماتبقى لي من مدة الحبس.
وقد أفاد ني وأراحني كل الذى قلته لهم.. ولكن مضت عشرون يوما على حبسى الانفرادى ولم يأت من يخرجني من (الكارسر).
وخبطت على الباب.
فجاءني أسوأ حرس السجن.. رجل حاقد فظ.. كثيرا ما كان يضايقني ويترك الماء الساخن الذى يحضره لي مكشوفا حتى يبرد.
سألني لماذا أخبط. أخبرته بانتهاء مدة حبسى. فنهرني قائلا ـ اياك ان تخبط مرة اخرى.
واستفزتني كلماته جدا فأخذت في الصياح.
ــ لا تصرخ، والا البستك ملابس المجانين.
ولم آبه له.. ازددت صراخا وخبطا على الباب.. وسمع بذلك الضابط النوبتجي.. فسألني ـ ما الامر.. اوضحت له موقفي.. وكان مهذبا.. طلب منى الصبر حتى يرى مايمكن فعله. وعاد بعد قليل ومعه قطعة خبز وشوربة.
قال لي:ـ
ـ كل في الادارة لايوجد احد.. وسأرى فيما بعد.. ولم يخبرني أحد باطلاق سراحك اليوم.
وفي الليل أخرجني من الحبس الانفرادى (كارسر) وقادني الى زنزانة في الطابق الثاني بنفس المبنى.. بها ثمانية أسرة.. وأشار الى سرير كان مفروشا ومغطى ببطانية قائلا:ـ
ــ ارقد.. ونم.
واثناء نومي شعرت بيد تدفعني. ونظرت، فاذا بنفس الضابط يقف بجوارى.. أمرني ان ارتدى ثيابي.. واستغربت كان الوقت ظلاما والصبح لما يطلع بعد.
ــ لماذا لاتتركني انام..؟
ــ ستجد الوقت الكافي للنوم.
وقادني لنفس المبنى الذى اخطرت فيه بقرار العقوبة عند كسرى للنافذة.
وسلمني لجندى كان يقف هناك..
ــ هذا هو صاحبك.. قده.
وعلمت.. وياللهول ما علمت.. علمت أنني لو لم اصح وأخبط على الباب لبقيت في الحبس الانفرادى الى ماشاء الله. فأنا أجنبي ولا احد يهتم بي.. وفي جزر مسكولم نسى

المسئوبون اننى على قيد الحياة.
وسخر الجندى منى قائلا:
ـ ما بالك لاتشبه الآدميين..؟ اشعث.. اغبر.. وسخ للغاية!!
ولزمت الصمت.. فقال بعد فترة..
ـ حسنا... لنمشي.
وكانت هناك عربة كارو أرقدنى عليها وغطانى بالمشمع.. واستغربت فلم يكن ذلك الجندى مسلحا. وسارت العربة ببطء.
وقفنا فى منتصف الطريق.. ازاح الجدى المشمع عن رأسى وسألنى بحنان. كيف اشعر؟ وهل انا جائع...؟ وانحبست الكلمات فى حلقى.. فاجأتنى رقته ومعاملته الانسانية..
ومد لى قطعة كبيرة من الخبز قائلا:
ـ خذ هذا.. وكل.
واكلت بصمت فتقاطرت دموعى على الخبز.. وجلست فى العربة حتى لاحت لنا معالم مسكولم.. وطلب منى الجندى المهذب أن أعود الى وضعى الاول خوفا من أن يرانا احد فا تعرض هو وانا للعقاب.
وعدت الى زنزانتى القديمة.. رفاقى كانوا وقتها فى دورة المياه.. وعندما عادوا فوجئوا بى.. ولم يعرفوننى للوهلة الاولى.. فقد نمت ذقنى وتهدل وجهى واتسخت ملابسى وجسدى وكل شىء فى بدنى.. كانت رجلاى متورمتين.. كأنها أرجل الفيل.
وفى تلك اللحظات وزع الافطار.. كل منهم اقتطع جزءا من طعامه ومده لى.
ولم ارد اخذ شىء.. بكيت فى صمت.. وحكيت لهم كل الذى عانيته..
وعندما علموا باننى كنت فى الحبس الانفرادى (كارسر) قالوا بأنهم خمنوا ذلك. الا ان بعضهم ظن انهم اقتادونى الى سكين قورى، وهناك عذبونى وقتلونى. وبعضهم جمح به الخيال فاعتقد انهم اطلقوا سراحى واننى عدت الى وطنى..
كان فى تفكير كل منهم أمران فقط..
موت او حرية

موت ستانكو درافج

وفى نفس اليوم اقتادونى الى الكرملى لاستحم وأحلق شعر راسى وذقنى.. وقد جدت نفسى فى زنزانة صغيرة مع ثلاثة أشخاص، كانوا من اليوغسلاف.
ستانكو درافج من معارفى القدامى، رايته فى عام ١٩٢٣م بمدينة زغرب عندما كان رئيسا للعمال فى مصنع الاحذية (زافرنتسى).
وفى صالات المصنع المذكور كانت تعقد تجمعات شباب الحزب الشيوعى المحظور.. وكان ستانكو ثوريا أصيلا، دائم الحركة والنشاط، سريع الكلام.. لا يتوقف ابدا فى البحث عن العمل وأداء المهام الحزبية. كان رجلا بلا حياة خاصة على الاطلاق.. كل وقته مكرس للحركة العمالية الثورية.. وكان يفرح لاقل نجاح نحرزه. وفى الحملات البوليسية عام ١٩٢٧م هرب من يوغسلافيا، ليعيش فى موسكو زمنا طويلا نسبيا.. وقد درس فى جامعة الامم الغربية.. وهى مدرسة لتعليم القادة الشيوعيين الذين عملوا فى الغرب.
وكان من بين الذين القى القبض عليهم وسط مجموعة كبيرة من الطلاب، وحكم عليه بثلاث سنوات سجنا.. قضاها بشجاعة نادرة وصبر عظيم.. وفى نفس اليوم الذى كان يستعد خلاله لمغادرة السجن، أخطروه بأن محكمة البوليس السياسى المكونة من ثلاثة أعضاء حكمت عليه بثلاث سنوات اخرى.
واحتج بشدة وبأستمرار على هذه العقوبة الفظيعة واللاقانونية. وكان ثائرا منفعلا على الدوام، الشىء الذى عرضه للعقوبات الصعبة.. وكان يخرق نظام السجن ولايبالى بما يصيبه ابدا.
وعندما رايته لم استطع التعرف عليه اطلاقا، خمدت عيناه الزرقاوان المتقدتان وتغضن وجهه. وكان يشكو بأستمرار من آلام حادة فى بطنه.. ولم يكن يستطيع أكل شىء.. فكان يشرب قليلا من الشاى والشوربة مع قطعة صغيرة من الخبز.
ولعناده الدائم وتمرده المستمر فى السجن، هدّده الضباط بأنه سينتهى فى جزيرة سيكرن قورى.
ولم تستطع هذه التهديدات ترويضه.. كان جسده محطما ولكن روحه بقيت متقدة عالية. كان انسانا غير عادى على الاطلاق. وقد حاولت أن أهدئه بكل الطرق.. فقلت له يوما..
ــ سيقتلونك.
ــ الامر سيان. وخير لى أن اموت بشرفى وكرامتى، بدلا من أن أعيش كالكلب.
ونطق العبارة الاخيرة من بين أسنانه المصطكة.
وفى ديسمبر عام ١٩٣٨م أخطروه بأنه قد حكم عليه بثلاث سنوات أخرى. فما كان منه الا أن سب الضابط الذى قرأ عليه منطوق الحكم، سبا مقذعا .. دفع ثمنه غاليا، اذ قضى فى الكارسر عشرة ايام رهيبة. عاد بعدها مسعورا ومسكونا بالغضب والنقمة.
فصعد على النافذة، وبدأ يصيح.
ــ يارفاق. اذا قدر لاحد منكم أن ينال الحرية يوما ما فلينقل للناس، لكل الناس، أن درافيج تحطم بريئا وعذب بريئا. وتدافعت ادارة السجن.. كورجوكوف.. باردن.. وجنديان. فقيدوه بالسلال واقتادوه..

وكانت كلماته الاخيرة...
ـــ وداعا.. يارفاق.
واقتادوه الى جزيرة سكيرى قورى...
وهناك قتلوه..
والقوا بجثته فى البحر..
اما اليوغسلافى الثانى فكان أسمه انطون (وقد نسيت عائلته).. شيوعى مناضل صلب من مواليد مدينة اسلوفينيا.. نحيف.. متوسط الطول.. اسمر الجلد.. فى الخمسين من عمره يتخلل الشيب شعر رأسه.
هرب من يوغسلافيا فى عام ١٩٢٠م، وقبض عليه فى هاركوف عام ١٩٣٧م ـ وحوكم بعشرة اعوام سجنا، مدانا بتهمة الثورة المضادة.
قابلته فى نورلسك.. ولست ادرى كيف قتلوه، ولكنه كان شجاعا بكل تاكيد.
بعد رحيل درافيج المأساوى أحضر لزنزانتنا الامريكى الاتال، الذى عمل لمدة عامين مستشارا فى مصنع المعادن الكبير بمدينة بتروزا فودسك عاصمة كارلى.. وفى احدى المناسبات ذهب للصيد على الحدود الروسية الفنلندية، وهناك اعتقله جنود حرس الحدود الروسى.. واتهموه بالجاسوسية. وعندما كانوا يتحرون معه طلب منهم اخطار السفارة الامريكية بالامر فوعدوه، ولكن لم يفوا بوعدهم.
وحوكم بخمس سنوات سجنا فى معسكرات العمل الاجبارية، واقتادوه الى جزر سولوفيتسك.
وقد قام بمحاولة للهروب من السجن بعد عامين قضاهما فيه معانيا الظلام والضيق والبؤس. وكان معه فى تلك المحاولة اثنان من المحكوم عليهم بالاعمال الشاقة.
نجحوا فى الحصول على قارب لصيد الاسماك.. وفى ليلة مظلمة تسللوا به الى عرض البحر الذى كان مضطربا هائجا..
وقد بذلوا مجهودا خارقا وانفقوا زمنا طويلا مجدفين الى ـ الشاطىء الاخر.
وعند وصولهم لم يكن الفجر قد طلع بعد.. وظنوا بانهم نالوا حرياتهم.. وجلسوا يتشاورون وينالون قليلا من الراحة قبل الانطلاق الى الحدود الفنلندية.. واذ هم فى جلستهم تلك، فلجأتهم عواء الكلاب. وهربوا داخل الغابة.
احدهم قبض عليه فى الحال.
والآخران هربا نحو الحدود الفنلندية.. واستترا بظلام الليل يزحفان حوالى المائتى متر.. وعندما سمعا خرير المياه وأيقنا بالنجاة، لمحا جنديين روسيين بكلابهم.
واضاء الجنديان الطريق.. وبدأ الهاربان يجريان نحو جدول المياه.. ولاحظهما الجنود فأطلقوا وراءهما الكلاب غير انهما وصلا الاراضى الفنلندية.
وأغرب شىء أن الكلاب أمسكت بلاتال ولم تتركه أبدا حتى تم القبض عليه وضرب بعنف وبلا رحمة واقتيد الى سجن (كم) أما الآخر فقد تمكن من الهرب.
وفى ذات يوم أخرجوا (لاتال) ومعه السجين الآخر الذى شاركه فى عملية الهروب.. وجمعوا كل السجناء فى الساحة، ثم نطقوا بحكم الاعدام عليهما.. لمحاولة الهرب.
كانوا يريدون ارهاب وتخويف السجناء.. فأعلنوا فى جميع أنحاء المعتقل أن عقوبة الاعدام قد نفذت..
ولكن الحكم كان بعشر سنوات لكل منهما.

اعـــدام الراهبـات

كان لاتال يعرف الكثير.
قابل أحد القروين الاوكرانيين فنيتسكوق، كان يقطع الاشجار كسجين فى غابات كارلى.
حكى له الكثير.
كان الذين حكم عليهم يعملون تحت ظروف شاقة وقاسية للغاية.
وعندما كان اليأس يتملكهم.. وتظلم الدنيا امام عيونهم.. يبدأون فى قطع أصابعهم.. نعم هكذا يفعلون.. يقطعونها بشجاعة نادرة ويضعونها على جذوع أخشاب الاشجار ومعها نداء موجـه للضمـير الانسـانى يطلبـون فيـه الرحمة.. من هذه القطاعات المؤلمة التى يعيشونها.. وكانت تلك الاخشاب معدة للتصدير الى انجلترا.
تلك واحدة من حكايات لاتال... وقد حدثنا ايضا بما يلى: منظر فظيع شاهدته عام ١٩٣٥م فى جزيرة سلوفتسك. كان بتلك الجزيرة حوالى الثلثمائة راهبة.
كن ينتمين الى طوائف مختلفة... وارادوا أن يجبروهن على العمل الشاق.. ولكنهن رفضن ذلك باصرار.
أى عمل خلاف التمريض فى مستشفيات معسكرات الاعتقال كان مرفوضا منهن.
ولم توافق - بالطبع - ادارة السجن على اقتراحهن ذاك، فعاقبتهن بالحبس الانفرادى (كارسر).
وفى ذات يوم نقلن الى مسكولم للعمل فى مزارع تربية الحيوانات. وكان ردهن القاطع:-
ـــ لن نعمل لاعداء المسيح.
فتم جمعهن فى ساحـة السجن واوقفـوهن فى صف طويـل.. وتقدم مدير السجن شاهرا مسدسه من الراهبة التى كانت تقف فى الصف الاول، وسألها:-
ـــ هل ستعملين..؟
ـــ لن اعمل لاعداء المسيح..
ودوى الرصاص.. وسقطت الراهبة.
وبركت بقية الراهبات وركعن على الارض يصلون الى الرب. وتوجه مدير السجن الى الراهبة التالية وسالها نفس السؤال.. فسمع نفس الاجابة.. لن نعمل لاعداء المسيح.
ودوى الرصاص.. وسقطت الراهبة.
وهكذا بدات المجزرة الرهيبة. نفس السؤال.. نفس الاجابة.. دوى الرصاص.. السقوط.. ثم الموت. حتى نفذت ذخيرة المدير فصاح هائجا.
ـــ شراميط ملعونات.. سارسلكن جميعا الى ربكن. وكن راكـعات يصلين..
وامر مدير السجن مجموعة من رجال البوليس السياسى لكى يعمروا بنادقهم ويكونوا على اهبة الاستعداد لاطلاق الرصاص. ثم صاح يعيد السؤال.
ـــ يا كلبات.. يا قذرات.. هل تردن العمل..وترتفع اصواتهن الرقيقة وهن يرتلن الصلاة..
وينطلق صوت آمر..
ـــ اضرب.

ويدوى الرصاص. وتسقط الراهبات.. ويختلط الدم بالتراب.
وعندما انتهت المجزرة الرهيبة.. التفت المدير نحو السجناء والقى عليهم خطبة منفعلة.
ـ في الارض السوفيتية، لا مكان للطفيليات.
وأنهى خطبته قائلا :ـ
ـ من لايعمل سيجد نفس المصير.
وأمر السجناء بحفر القبور للراهبات.
انتهت قصة لايتال. ولم نستطع النوم.. تلك الليلة. كل ذلك حدث هنا..؟
وفي نفس الدائرة التي نعيش فيها الان..!؟

** ** **

وكان علينا في زنزانتنا الصغيرة ان نفسح المجال لرجلين سيعودان من المستشفى.
ودخل علينا اثنان قصيران تبدو عليهما دلائل القوة.. شعرهما أشقر طويل.
وتلقيناهم بالاسئلة الملحة الكثيرة.. من هما..؟ ومن أين جاءا؟ وماهى جريمتهما..؟
كانا أخوين.. من فنلندا.. يقطعان الاشجار. من اعضاء جمعية الشبيبة الشيوعية المحظورة.. هربا الى روسيا بموافقة قادتهما وقد وقعا في ايدى حرس الحدود الروسى.. فاتهما بالجاسوسية والتخريب. وكشفا للبوليس خطابا سريا كتب على قطعة قماش توضح بانهما هاجرا لروسيا بناء على رغبة جمعية الشبيبة الشيوعية الفنلندية.. ولكن ذلك لم يفد بشيء.. وعمدوا الى تعذيبهما وضربهما ليلا ونهارا حتى «اعترفوا» بانهما حضرا للاتحاد السوفيتي بناء على رغبة المخابرات العسكرية الفنلندية، للقيام بعمليات تخريب.
وبعدها تم نقلهما الى سجن البوليس السياسى في بتروذاقودسك. وطلب منهما ان يحكيا عن المهمات التي كلفتهما بها القيادة العليا العسكرية في فنلندا.
واعلن الشابان ان اعترافاتهما باطلة.. وكانت تحت وطأة الضرب والتعذيب. وانهما ليسا من المخربين.
ولكن هيهات.. ضربوهما من جديد.. ضربا مبرحا لا مزيد عليه حتى وقعا على الاعتراف الاول.
وحوكما بثمان سنوات سجنا.
كانا مرهقين.. جائعين.. اصيبا بامراض خطيرة.. نقلا على اثرها للمستشفى.. وكانت معاملة الطبيب لهما غير انسانية على الاطلاق.
حاولا مرات عديدة الحصول على تصريح للخروج من المستشفى ولكنهما لم ينجحا.. فمكثا هناك ثلاثة اسابيع كاملة ساموهما فيها سوء العذاب. ونادرا ما كان مريض من ذلك المستشفى يغادره وهو على قيد الحياة.
ففي الغرفة التي كان بها ثلاثين سريرا مات اربعة وثمانون شخصا.
كانت مستشفى بدون ادوية.. بها مواد مخدرة ومسكنه لمنع تسرب اصوات الانين والصراخ.
الاطباء في غاية القسوة.. الممرضات كن الطف قليلا.. ولكن ماذا يجدى كل ذلك..

قطعة من الخبز.. او حفنة من السكر.. وابتسامة مختلقة، ذلك كل ما كان يقدمه.
كانت حالة اصغرهما تزداد سوءا يوما بعد يوم.. الطبيب كان يستمع اليه وهو يشكو الامه بلغة روسية ضعيفة.. ولم يجر عليه كشفا..
بل قال له:ـ
ــ ستحصل على سفوفه.
وفي اليوم التالي أحضرت له الممرضة السفوفة، ولكنها كانت ممنوعة من دخول الزنزانة.. فدفعت بها من كوة الباب. وكان الشاب الفلندى في غاية التعب والارهاق.. فأخذ يحبو ويحبو حتى وصل الى الباب.. ورقد على الارض فاتحا فمه. ومن خلال كوة الباب سكبت الممرضة السفوفة في فمه.
وأخذوه الى المستشفى.
ولكنه لم يعد منها أبداً.
ومرت الشهور.. رتيبة مملة.. كنا نسمع فقط اصوات النورس البحرى.. وكان صوته عندنا يرمز الى الحرية. وفي يوم من الايام أخرست اصوات النورس.
في الوهلة الاولى لم ندر ما حدث.
جاءت لجنة من موسكو.. وطاف بخيال احد أعضائها أن السجناء ربما استخدموا طائر النورس في ارسال الرسائل.
وقررت اللجنة ابادة النوارس التي ظلت تعيش هناك منذ الابد.
وتذكرنا اصوات الطلقات التي لم نجد لها تفسيرا انذاك.. واعتقدنا انها مناورات حربية.
وهكذا أعدم البوليس السياسى واباد طيور النورس بتهمة الثورة المضادة.
وفي ربيع ١٩٣٩ أعيد خلط السجناء في الزنزانات.. وفي مجموعات جديدة.
وبهذه المناسبة تعرفت على السكرتير السابق للحزب الشيوعى المحظور لغرب اوكرانيا جوزيف كريليكا، الذى كان عليه ان يهرب من بولونيا عام ١٩٣٤م.. في نفس العام الذى انتحر خلاله زعيم الحزب الشيوعى الاوكرانى سكرابنك بعد ان علم بأنه سيلقى عليه القبض بتهمة التفرقة العرقية.
في ذلك العام عاشت اوكرانيا اياما عصيبة للغاية. الاعتقالات الجماعية كانت في الاجندة اليومية.. أكثر الضرر أصاب الاوكرانيين الذين يسكنون في الجزء التابع لبولندا.
وقد القى القبض هناك على كريليكا.. وفي السجن اصيب بجلطة دموية في المخ شلت الجزء الايسر من جسده. وقد قاسى ذلك الرجل الكثير..
كان عصبيا جدا.. وكان يدخل في مشاجرات ومصارعات مستمرة مع ادارات السجن.
وعندما لاحظنا وجود بعض الديدان في الخبز هزه جدا ذلك الحدث وثار مبديا استياءا كبيرا.
وقد سحبوه من الزنزانة.. ولم نره بعدها أبداً. وكان كل ما تركه وراءه بضع سيجارات وفرشة أسنان.

في شهر سبتمبر من عام ١٩٣٩م اقتادونا لاجراء الكشف الطبى امام لجنة من الاطباء.. وسألونا بدقة..

وفوجئنا.. لاول مرة نحس ان الاطباء يمكن ان يكونوا انسانيين. كانوا رائعين جدا.
وتغيرت معاملة ادارة السجن.. توقفت الاهانات.. والقسوة والمساس بالكرامة.
زادت فترات التمشى.. وسمح لنا بان نتحدث مع بعض.. ولكن بصوت منخفض.
ولم نر باردن.
وفى كل صباح كنا نسمع ضجيج عدد غفير من السجناء فى ساحة السجن..
وكنا نسمع نفس الضجة فى المساء.
من المحتمل أنهم يعملون فى مكان ما...
ولكن لماذا لايقودونا نحن للعمل..؟
ثم علمنا أن الاجانب لا تعطى لهم فرص العمل..
وبعد ثلاثة اشهر، وفى بداية اغسطس عام ١٩٣٩م. فتحت زنزانتنا.
قالوا لنا انه يمكننا الخروج الى ساحة السجن. ولم نستطع ان نصدق ماسمعنا..
وفى ساحة السجن قابلت زملائى القدامى.. من سجن موسكو، فلادمير، سولوفيتسك، كرملى.
وقابلت مرة اخرى جبراكوف.. ماريف.. موروزوف.. فيبر.. وآخرين كنت قد نسيتهم.
وحدثت لى مفاجأة سارة كبرى بهذه النقلة الجديدة فى اسلوب السجن.. اذ اتيح لى ان اقابل فجأة ووجها لوجه اثنين من معارفى القدامى - جوزيف بيرقر المسئول الكبير فى الكومنترن والذى تعرفت به فى فينا عام ١٩٢٦م.
ثم رودولف اوندراجق الشيوعى النمساوى المعروف.
وعرفنا ماذا تعنى تلك التحركات فى السجون.. كشف طبى.. لجان طبية.. بعض الحريات.. الخ الخ.
سيبدأ العمل اذن فى الجزيرة..؟.. من اجل بناء ثكنات للجيش.. ومطار.. ومحطة توليد الكهرباء.. ومستشفى.. ومنشئات اخرى.
الحكومة السوفيتية تستعد للحرب مع جارتها فنلندا.. فى سلوفيتسك، كرملى تغير وجه الحياة.
كنا نتحرك بحرية طول النهار. وفى الليل كانوا يحبسوننا..طوال اليوم نعيش فى الهواء الطلق.. وبلا انقطاع تحضر مجموعات جديدة من بقية الجزر.
— من أين جئتم يا رفاق..؟
— من جزيرة زاجيكا..
— من ليسينا..
ولكن لم نسمع أن أحداً عاد من جزيرة سكرين قورى. وتجمع حوالى أربعة الاف سجين.. عدد كبير بلاشك.
ومن المخازن احضروا ملابسنا المدنية.
وعمت الزحمة.. حمل احدهم حقيبته.. والاخر صرة ملابسه. ولكن حرص الجميع على خلع ملابس المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة. وارتداء الملابس المدنية.
ووقف السجناء فى مجموعات..
تحدثوا مع بعضهم البعض..

حكوا كل ماعاشوه.. وقاسوه.. وعانوه.
ودبت الحياة فى اوصال الجميع.. تحركوا.. ابتهجوا.. ضحكوا.. فعلوا كل شىء، على الرغم
من انهم كانوا يدركون جيدا ان ذلك قصير الامد.. وموقوت.. وزائل.
أحسوا أنهم سيذهبون الى رحلة بعيدة..
ولكن الى أين..؟
وفى أى سجن..؟
وماهو اسم المعسكر الجديد..؟
لم يكن احد يدرى

الجلاء من جزر سلوفيتسك..

الساعة الثالثة صباحا.. الثالث من اغسطس عام ١٩٣٩م دوى صوت آمر.
ـ استيقظ.
وخرج السجناء من زنزاناتهم.. وتجمعوا في ساحة سجن كرملى. وكان مدير السجن وضباطه يقفون هناك في حالة استعداد قصوى.
وصاح مدير السجن كورجكوف.
ـ انتباه.. أيها السجناء الان ستذهبون من هذه الجزيرة وستنقلون الى مكان آخر أحذركم. كونوا نظاميين في طريقكم الى الميناء.. وخلال الرحلة ايضا اطيعوا اوامر حراسكم بلا تعليق. ان لديهم امرا باطلاق الرصاص عليكم اذا حاولتم الهرب.. هل فهمتم..؟
وساد صمت مطلق.
ـ انتباه.. أشياؤكم في ايديكم.. اصطفوا خمسة صفوف.. للامام مارش...
اربعة الاف وثمانمائة رجل تحركوا في حراسة جنود مسلحين للغاية.
وسمعت وقع خطاهم.. بدت لى منسجمة وذات ايقاع منتظم رغم انها غير منسقة.
وعوت كلاب البوليس السياسى وهي تقاوم السلاسل. وكان الواحد منا اذا عن له ان يتلفت وراءه ليلقى نظرة وداع على الجزيرة التى ترك فيها جزءا عزيزا من عمره، اذا حاول ذلك انتهره الحرس بشدة. فيسير الى الامام.
وصلنا الميناء.. جلسنا في صفوف كما أمرونا.. حضر الضابط وفي يده حزمة من الاوراق عليها الاسماء..
وبدأ النداء على الاسماء.. كان من ينادونه يجيب على عدد من الاسئلة ثم يقف جانبا.
وعندما تجمعت مجموعة من مائتين سجينا اركبوهم في قوارب صغيرة حملتهم الى باخرة شحن تجارية كبيرة. وأستمر الامر لساعات طويلة، القوارب تحمل السجناء للسفينة وتعود فارغة لتمتلىء من جديد، وفي النهاية تم اركاب مجموعة من النساء كن في احدى جزر سولوفيتسك.
كان عددهن حوالى سبعمائة امرأة..
الباخرة الكبيرة عابرة المحيطات التى تحمل اسم المارشال السوفيتي بوجونيا والتى ظلت تنقل الاخشاب من أقصى الشمال الى الغرب.. كان عليها هذه المرة أن تنقل الادميين من السجناء الى مصيرهم الجديد.
قسم جوف السفينة الى ستة عنابر.. كانت مربوطة الى بعضها البعض بسلالم خشبية.. عميقة القرار.. وضعوا لنا الاسرة في قعرها البعيد.. ولكى نصل اليها كان علينا ان نزحف، ونزحف على أيدينا وأرجلنا.
وفي ممراتها وضعوا الجرادل لقضاء الحاجة.
وكانت الحراسة مكثفة ومدافع الرشاش منصوبة في كل زاوية ومنحنى.
وضعت في المجموعة الثامنة.. وعندما نزلت الى جوف الباخرة سمعت اصواتا تدعونى ان آخذ مكانا.. وكانوا رفاقى القدامى.

جلست بالقرب من رودولف اوندراجق، واخذت أعاين جوف البلخرة.. خيل الى انه كبير للغـايـة.. ولم نشـأ أن نستلقى بدءاً، فقـد انشغلنا برؤية حضور الدفع الجديدة من المسجونين.. خيل الى ايضا ان هذه الباخرة تستطيع أن تبتلع فى جوفها الهائل المزيد من الكتل البشرية.. ولكنى فوجئت بأنها ضاقت على سعتها بنا.. وكان على القادمين الجدد الوقوف بالساعات خارج السفينة حتى يدبروا لهم مكانا.

ودوت الباخرة كأنها خلية نحل.. وحاول الناس أن يتحركوا كل ينشد وجها يعرفه.. او يبحث عن مكان مريح.. ومر وقت طويل حتى هدأ جوف الباخرة.

وفى اليوم التالى رفعت مراسيها وأقلعت.

الى أين..؟

لا نعلم.

ولم يكن احد منا يفكر فى الطعام..

ومـع ذلك أخرجنا ماعندنا من زاد تحصلنا عليه خلال الرحلة.. وجلسنا جنبا الى جنب نحكى آلامنـا.. ونحلل ظروفنا.. كلنا أصابنا الهزال والضعف والمرض.. ومع ذلك كانت ارواحنا عالية.

كنـا نفكـر فى ان اعتقـال مليون شخص امر غريب.. ولابد ان يكون مكيدة مدبرة للنظام.. واختلفت تفسيراتنا للاجراءات الستالينية.. التى كانت قاسية للعقل والمنطق.. ولكنها كانت موحدة فى امر واحد.. سوف تمر شهور قليلة ونكون نحن فى منازلنا..

حلم.. وحلم كبير.. ولكنه كان حلم الجميع.

القليلون منا فقط كانوا يعلمون ان ذلك كله سراب خادع.

والان.. وبعد سنين عديدة، عندما تلاشت الامال فى خروجنا الى الحرية.. جلسنا نرقب فى صمت الواح الثلج العائمة والباخرة الضخمة تمرق من بينها.. وتتجه الى حيث لا نعلم.

أستعرضت فى مخيلتى ـ وكان ذلك حال الكثيرين ـ ملامح الرعب والفزع التى عشتها فى السجون الكئيبة.. ولم انجح فى الامساك بلحظة سرور واحدة، خلال تلك الايام العصيبة.

لقد كان ذلك كله حلما متعرجا وكابوسا جهنميا وشيطانيا فى نفس الوقت.

ولقيت فى الرحلة ـ ضمن من لقيت.. الرفيق سرجى بقوروف الرئيس السابق لمنطقة ستالينجراد.. واذكر انه وعندما كنا معا فى سجن لقورتوف سمعته يفلسف الامر بقوله.. ان كل الذى جرى له ضرورى للغاية.

كان يعمـل معاونا مقربا من الرفيق كوزنيكوف رئيس منطقة ستالينجراد الاسبق ورئيس اللجنة المركزية.. وقد كان يشغل منصب المدير العام لسكك حديد منشوريا وعندما بيعت السكة الحديد لليابان، نقل لمدينة ستالينجراد، رئيسا لمنطقة السوفيت.

وبعـد ذلك اعتقـل بتهمة التجسس لصالح اليابان وحوكم بالاعدام.. وقد اعتقد بقوروف ان اعتقاله الان امر طبيعى جدا وان الشك فيه لايثير غضبه.. الم يكن معاونا لاحد المتهمين بالتجسس؟

وكان على ثقة شديدة من أنه سيطلق سراحه قريبا وسيعيش مكرما اكثر من قبل.

وقد سر يقوروف عندما وقع نظره على. واقبل على. هاشا باشا ربما عن انه كان فيما قبل عزوفا عن الحديث مع اى احد. وكان يعتقد بانى عدو للشعب.. وأسرعت أرد عليه التحية قائلا:ـ
ـ سلام.. يا يقوروف.. اما تزال انت هنا..؟
ـ كما ترى..
ـ كنت تعتقد بأنهم سيطلقون سراحك قريبا...
ـ كارلو.. لقد كنت انت على حق.. ولست انا..!!
ـ كيف وصلت الى هذه الخلاصة..؟
ـ يخيل الى ان الذين القوا علينا القبض هم الثورة المضادة.. وعلى رأسها ستالين.
ـ برافو.. دعنى أهنئك.. انا مسرور لانك ادركت ذلك أخيرا.
ـ فى العامين السابقين وفى سجون فلادمير وجزر سلولوفيتسك كان لدى الوقت الكافى للتفكير.
ـ آمل ان تكون قد أدركت مدى التشابه بين لعنة اشتراكية ستالين وعنصرية هتلر..؟
ـ اوافق بأن هذه ليست اشتراكية.. ولكن وضح لى انت هوية هذا النظام.. اذا لم يكن لدينا رأس مال مخصوص. ونظر الى منتظرا اجابتى.
ـ تعرف.. لقد سئل الزعيم الروسى المنشفيك (دان) سؤالا قريبا من هذا فكان رده.. (الشيطان يعلم كيفية وهوية هذا النظام). كان ذلك بعد ثورة اكتوبر فى برلين.
وفى السفينة تعرفت على رجل كان نقيضا من الاخرين..
أعلن عن نفسه بأنه عدو للسلطة السوفيتية. وكان أمثاله قليلين جدا فى ذلك الزمان.. كان ذلك الرجل كابتن الجيش فى روسيا القيصرية اسمه سافجنكو.. كان من الرجال القلائل الذين بقوا على قيد الحياة..
حوكم بالسجن.. وزار ضيفا جل معسكرات الاعتقال منذ عام ١٩٢٧م
وفى عام ١٩٣٧م قضى فترة الحكم الاخيرة عليه ومدتها خمس سنوات فى معسكرات الاعتقال.. وعند عودته الى منزله فى اوكرانيا، انقضوا عليه وانتزعوه من القطار للسجن فى كوتلاس.. وحوكم مرة اخرى بعشر سنوات فى السجن المظلم.. وعلى الرغم من كل ذلك فانه لم يفقد مرحه فى يوم من الايام.
كان يعيد على أسماعنا دائما ـ انه قد تشرف شرفا غير عادى اذ يجد نفسه سجينا مع هذا العدد الكبير من الشيوعيين.
وكانت الرحلة قد أصبحت رتيبة جدا ومملة للحد البعيد ومرهقة للغاية.
ان الحيوانات نفسها، لا تنقل بمثل هذه الطريقة. رقدنا على السقالات العارية المبللة.. قضينا الحاجة فى الجرادل.. لقد كانت بالباخرة دورات للمياه ـ بالطبع ـ ولكن لكى تصل اليها كان عليك ان تقف فى الصف لمدة ست ساعات على الاقل.
ونجحت مرة فى الصعود الى ظهر الباخرة، وتراءت امام عينى كمية هائلة من المياه، رمادية اللون، تمتد فى كل اتجاه الى مالا نهاية.
وتراءت لى السفينة وكانها قشرة تترنح فى كل تلك المساحة من المياه.
واجهتنا فى الباخرة مشكلة مياه الشرب.. كان العطش رهيبا.. وكنا نتقاتل للحصول

على صفيحة من الماء العذب فقد كان طعامنا هو السمك المملوح والخبز الجاف.
وتفشى بين المسجونين مرض الدوسنتاريا.. فقرروا اعطاءنا شيئا يقال انه وجبة دافئة.. شوربة الكروم، والفاصوليا فى اوان من الصفيح الصدىء.. وكانت الشوربة عبارة عن ماء فقط. توضع فى اناء الصفيح الصدىء وتوزع لتكون نصيبا لعشرة من المسجونين..
وبالطبع كان الذين يأكلون بسرعة اكثر يصيبون نصيبا أكبر.
وأصيب الكثيرون بدوار البحر ولايام كثيرة لم يتناولوا طعاما.. وكانت الباخرة قد بدات تئن تحت وطأة الروائح الكريهة.. اذ أن جرادل الفضلات لم تكن تفرغ لايام عديدة، فسالت محتوياتها وتدفقت على الارض.
ولم نعد نحتمل الامر وتعالت أصوات احتجاجنا حتى نجحنا فى جعلهم يفرغون الجرادل يوميا.
وقد سبب ذلك العطش والجوع، والدوار، والمرض، سبب الموت للكثيرين، وبدات الجثث تتهاوى الى أعماق البحر الرمادية اللون.
وعندما توقف الباخرة فى مورينسك دفع اليها بعدد كبير من المجرمين تجاوز الثلاثمائة سجينا من مترددى الاجرام.
وحال صعودهم على الباخرة بدأت مسلسلات النهب والسرقة والسطو.
وحاولنا رغم المرض والضعف والتعب مقاومتهم فشهروا اسلحتهم وخناجرهم الحادة واصيب الكثيرون منا بجراح صعبة.
واستطعنا ان نهدئهم بعد مجهودات مضنية شاقة. وكان الحرس غير مهتمين بما يحدث منهم على الاطلاق..
كانما الامر لايعنيهم فى شىء...
وقد تاقلم المجرمون بسرعة على الجو الكريه الذى كان سائدا فى الباخرة.. واكتشفوا ان بقاع السفينة مخزنا به كثير من الخردوات والبقالة الممتازة المرسلة لاقصى الشمال..
فكسروا المخزن ونهبوا معلبات الالبان والبسكويت والشكولاتة.. لم يتركوا شيئا قط.
جلسوا فى مجموعات ياكلون.
وفى اليوم السادس لابحارنا هاجمتنا عاصفة مدمرة اصابتنا بالرعب والفزع.. وخلنا معها ان الشياطين ستاخذنا الى القيعان السحيقة حيث الموت والوحوش.. كانت الامواج عالية اقتحمت السطح واغرقت المكان بالمياه..
ولم يجد الذين يجلسون فى العراء ملاذا من الريح والماء.. فزاد حالهم سوءا..
كنا على جوع وتعب.. ولكنهم لم يطبخوا لنا شيئا على الاطلاق.. وعلى الرغم من كل شىء فلم نكن نفكر فى ذلك.. كان همنا هو النجاة من ذلك الجو العاصف.
جرادل القاذورات بما عليها تطايرت مع الرياح وانكفات على وجوهنا وأجسادنا.
وفى كل لحظة كان الحال يسوء ويتدهور الى الاسوأ. اغلب السجناء رقدوا بلا حراك.
فما كانوا يستطيعون ذلك لو ارادوا.. يتقيئون ويسبون ويئنون.. وأذكر أننا ونحن نبحر فى البحر الابيض وفى بحر بارنتسوف وبحر الكارسك ان حوالى المائة والخمسين جثة قد القى بها فى البحر.. وربما كان العدد اكبر.. ولكننا لم نكن نستطيع المتابعة فكففنا عن العد

وفى ١٦ اغسطس دخلت الباخرة فى كمين من الثلج.. ولم تستطع الخروج منه.. ناورت بقوة ولكن بدون جدوى.. ثم خمدت قواها فاستسلمت للثلوج والانحباس بينها. وطلبت النجدة.

وفى ١٨ اغسطس وصلت كاسحات الجليد.. ومن بينها كاسح الجليد (لينين)..

واخيرا استطعنا ان نتخلص من المأزق القاسى وظروفه الجبارة.. والقت الباخرة مراسيها فى الارض الجديدة .. واعطونا وجبات جيدة.. ثم تحركنا مرة اخرى.. وكان قائد الرحلة يخشى من تزايد عدد الموتى.

وفى ٢١ اغسطس أبحرنا فى بحر سيبيريا الكبير بنسى.. الذى ينبع من مكان ما فى منغوليا.. ويصب فى بحر الكاربسك..

وفى اليوم الثانى القت الباخرة مراسيها فى دودنكا.. بعد رحلة العذاب والموت.

احــتــرام ابــاك وامــك

عندما دنت الباخرة من الشاطيء، كانت السحب المنخفضة قد تعلقت فوق رؤوسنا. وأمامنا رقدت صحراء ممتدة من الثلج والجليد، كانت الدنيا جرداء.. لا أثر فيها لشجرة ما.. غير ان بعض الحشائش تبعثرت هنا وهناك.. ودب فى نفوسنا أحساس حزين، بأن كل شىء قد ضاع وانتهى.. لا أمل.. ولانجاة.. ولمحنا رصيفا به منزل حشبى.. وكانت هناك محـطة للقـطارات الصغيرة.. وبدأ تفريغ الباخرة.. كان علينا ان نجلس على الجليد فى انتـظار النـداء على اسمـائنـا وبعـد ذلك تم شحننا فى عربات السكة الحديد الصغيرة «دودونكـا» نورلسـك.. وكـان أول من لقينا من البشر فى هذه المنطقة السكنية الصغيرة مجموعة من المجرمين الذين يعملون فى محطة السكة الحديد واتجه نحونا المجرمون وهم يحملون المجاريف فى أيديهم قائلين:ـ

ـ يا اخوان من اين اتيتم

ـ من جرر سلوفيتسكى.

ـ آه.. اذن من سىء لاسوأ..

ـ كيف تعيشون..

ـ آه سوف ترون..

ـ كيف تأكلون..

ـ اننا نحيا. لن تلزمكم النساء.

وهنا عنّ لى أن أتدخل فى الحوار فسألته.. لماذا أنت فى المعتقل..

ـ لاننى لم أحترم أمى وأبى ولكن قل أنت محكوم عليك بخمسة وعشرين عاما.. هيه..

ـ كيف وصلت الى هذا الرقم..

ـ الفاشستى يحكم عليه ـ دائما ـ بخمسة وعشرين عاما.

ـ نحن لسنا من الفاشست.. اغلب من تراهم اعضاء فى الحزب سابقين.

ـ آه.. اذن لم يعجبكم شنب ستالين..

وهنا كان قد تم حشر خمسمائة من السجناء فى العربات الصغيرة دودنكا نورلسك.

وبعد حوالى المائة وخمسة كيلو متر كان علينا ان ننزل ونمشى بأرجلنا تجاه مناجم الفحم.. «نارج» التى كانت تبعد حوالى عشرة كيلو مترات.. كان الطريق يخترق بعض المستنقعات وكانت هناك أجزاء متجمدة.. نزلنا الماء وغصنا حتى ركبنا وبمشقة شديدة استطعنا ان ننتزع أرجلنا مرة اخرى وكذلك صعدنا المنحدر ونحن نلهث من التعب.. كان بيننا كثيرون من المرضى الذين لم يستطيعوا الحركة الا بمساعدة الاخرين.. والقى كثيرون بحقائبهم واشيائهم لعدم القدرة على السير بها. لم يسمح لنا الحرس بأن نلتقط أنفاسنا او نستجم قليلا.. كانوا يخشون ان يداهمنا الليل ونحن فى الطريق.

كـيف بنينا خـطـوط السكة الحديد..

عنـدما وصلنا الى معتقل تادج كان النهار مازال يتمطى على الافق البعيد.. ورأينا خمسـة عنـابـر.. وخمسـة من الخيـام.. وفي أحـد العنابر ذات الحوائط المصنوعة من الموسنـايت ادخلونـا.. كنا حوالى المائة والخمسين رجلا.. وتبينت من زملائى رودلف.. اوندراجق.. جوزيف بيرقر ويفيم موزوف.. كانت الاسرة من ثلاثة طوابق جوزيف بيرقر اتخذ مكانه فى الطابق الاسفل.. اما اندوراجق وموزوف وانا فقد بحثنا عن اسرة فى الطابق الثالث.. وكانت هناك مدفأة حديدية تقف فى منتصف العنبر.. مدفأة من النوع الذى يوقد بالفحم.. وتجمعنا حولها.. ننشد الدفء وفى نفوسنا تتقد الحسرة والحزن.. هنا لامخرج ولانجاة.. وحضر موظفو المعتقل كانوا من المجرمين اوكل اليهم امر تهذيبنا واعدادنا لنكون مواطنين سوفيت.. بدلا من الوضع الذى نحن فيه الان ـ كثورة مضادة. أفهمونا جليا ان علينا النهوض فى الفجر الباكر للذهاب الى العمل، ولكى يتحقق ذلك فلابد من النوم المبكر جدا.. وسألونا هل نود ان نبيع ملابسنا.. ثم نصحنا أحدهم قائلا.. من الاحسن بيعها والا سرقت منكم. وكنت متعبا جدا فنمت فى الحال.. وعند السادسة صباحا صاح فينا صوت آمر.. استيقظوا.

وعقب ذلك النداء بربع ساعة تقريبا.. اقتحم علينا العنبر جماعة من الحرس وبايديهم العصى الغليظة.. وهم يتصايحون.. وكانت هذه الجماعة.. هى حرس المعسكر المكون من عتاة المجرمين والموكول اليها الاهتمام بالا يتخلف اى سجين عن العمل.. فاذا وجدوا ان احدا لم ينهض فى الميعاد المحدد انتزعوه من السرير انتزاعا. الافطار يجب ان لاتزيد مدته على النصف ساعة بحال من الاحوال كنا نذهب للافطار فى المطبخ الذى يبعد ثلاثين مترا عن مواقع غرفنا.. وهو عبارة عن مبنى صغير من الخشب عليه كساء من الورق الملصوق.. ومن خلال نافذة من المطبخ كان يترصدنا بنظراته رجل عجوز اصلع.. يقف بالقرب منه رجل فتى السن فى يده مغـراف للطعـام.. وامـامـه برميل خشبى يتصاعد منه البخار.. وعلى المنضدة بضع سمكات مملوحة.. ومددت له كبون الاكل الذى تحصلت عليه من رئيس العمال ومعه حوالى الستين ديكاجرام من الخبز. وسألنى الاصلع.

ـ اين اناؤك..

ـ ليس لدى اناء.

ـ اتريدنى ان اصب لك الحساء فى طاقيتك..

واخذت السمك المملوح وذهبت ابحث عن اناء.. ولم اعثر على ما اريد وفى العنبر الثانى الذى كان به السجناء القدامى.. كانت هناك كمية كبيرة من الاوانى معظمها عبارة عن علب فرغـة.. ولكنهم رفضوا ان يعطونى واحدة. ودقت الاشارة التى تدعو للعمل.. وقفلوا شباك المطعم.. وذهب معظم السجناء للعمل بدون وجبة دافئة.. وقد تم تقسيمنا للعمـل على دفعتين. دفعة للعمل فى المنجم والدفعة الثانية ارسلت لبناء قضبان السكة الحديد العتيقة لدودنكا نورلسك. وكان من نصيبى العمل مع المجموعة الثانية.. لم يكن للمعتقل سور ولكن بين كل خمسين مترا والاخرى وقف برج للمراقبة به جندى فى يده مدفع رشاش ولايسمح لاحد ان يخرج من ساحة المعسكر قط. فى السابعة الا ربعا اجتمع كل

السجناء في مكان واحد، ثم اتجهنا لمواقع العمل في خمسة صفوف.. لكل فرقة.. والفرقة مكونة من خمسين رجلا، على رأسهم رئيس الوحدة او الفرقة الذى عينته ادارة السجن.

وعندما يكتمل وقوفنا في الصفوف يخرج رئيس الفرقة الى الامام ويقف امام قائد معسكر الاعتقال ويعلمه بالاتي..

ـ الفرقة الخامسة قوتها خمسون رجلا مستعدة للتحرك للعمل فورا.. وكان رئيس الحرس النوبتجي يبدأ في النداء.. الاولى الثانية... الثالثة. وعلى بعد عدة امتار يستلمنا حرس آخر ومرة اخرى يبدأ النداء على الفرقة واحدا واحدا.. وبعدها يصيح المدير..

ـ احذروا.. يا سجناء.. في وقت السير ممنوع الكلام بتاتا.. ومحرم قطعا الانتقال من صف لاخر.. السير خطوة لليسار او اليمين خارج الصف معناه طلقة رصاص تصيب المخالف.. ودون انذار احذركم.. فهل فهمتم..

ـ يا حراس عمروا السلاح.. للامام سر.. وتحرك مئات الرجال. الحرس بسلاحهم المعمر والكلاب الشرسة تعوى وهي تركض بجانبهم عطشى للدماء. لم يكن مكان العمل بعيدا.. ربع ساعة فقط من موقع السكن.. وقسمونا مرة اخرى الى مجموعات كل مجموعة على رأسها رئيس ومهندس للمباني. وكان المهندس يشرح لرئيس المجموعة نوعية العمل المراد انجازه.. وكان علينا في البدء ان نجلب الخرصانة الى موقع الردمية، على عربات صغيرة بعجلات ندفعها نحن بأيدينا، فقد حصل كل ثلاثة منا على عربة صغيرة بعجلات.. اثنان منا يصبان الخرصانة والحصى بالجاروف والثالث يقود العربة.. وعندما تكون العربة في طريقها للتفريغ تكون الثانية في حالة تعبئة كانت ساعات العمل اليومي هي احدى عشر ساعة وعلينا ان نكمل فيها الحد الادنى من معدل الانتاج.

كل ثلاثة أشخاص احدى عشرة مترا مكعبا.. و حسبنا ذلك.. حولناه الى احصاء رقمي.. كان يتحتم على كل عربة لكي تصل الى المعدل الاحصائي اليومي ان تقطع مسافة مجموعها خمسة عشر كيلو مترا.. منذ وصولنا في العمل الى المعدل الاحصائي يحصل كل منا على سبعين ديكاجرام من الخبز.. اما في الصباح و في المساء فما نحصل عليه هو لتر من الحساء.. وخمسة وعشرون ديكا جراما من عصيدة الدخن.. او عصيدة اخرى.. وثلاث مرات في الاسبوع نحصل على عشرين ديكاجراما من السمك المملوح.. ومع مطلع كل شهر نحصل ايضا على تعيين الشهر من السكر والصابون سبعين ديكاجراما من السكر.. وخمسة ديكاجرام من الصابون للغسيل. ام االذين يصلون بالمعدل اليومي للانتاج الى ١٢٠٪ فنصيبهم جائزة من الطعام الاضافي عبارة عن عشرين ديكاجراما من السمك المملوح.. والذين يفشلون في انجاز الحد الادنى من المعدل اليومي للانتاج تنقص كميات الطعام المخصصة لهم.

هكذا كانت الامور تسير.. دون مراعاة لحالة السجناء الصحية.. ولضعف بنيتهم.. ولعدم لياقتهم.. معظمهم كانوا مرضى.. وهؤلاء كان من المستحيل عليهم ان يعملوا بطاقة تمكنهم من انجاز الحد الادنى.. وفي الثامنة مساء عدنا الى معسكر الاعتقال من موقع العمل.. كنت متعبا حتى انني فقدت الاحساس بكل شيء.. ولم أستطع الاكل.. صعدت الى السرير ونمت وبعد ساعتين تقريبا صحوت على أصابع الجوع وهي تمزق احشائي.. كان

اوندراق قد احضر العشاء.. ووضعه على مقربة من سريرى.. على الجانب الايمن من راسى.. أحضر لى شوربة وعصيدة وقطعة من الخبز. استطاع ان يستلف لى علبة كبيرة من علب المعلبات.. لست ادرى من أين وعندما انتهيت من الطعام كانت يدى متسخه ولم يكن بالعنبر ماء.. أردت الذهاب للخارج لاغسل يدى بقطعة من الثلج.. وما ان وضعت قدمى على حافة الباب حتى صاح الحارس وفى يده المدفع الرشاش من على برج المراقبة.. آمر اياى بالدخول الى المعسكر.. كان الخروج بعد العاشرة ليلا ممنوعا منعا صارم.. الكل فى عنابرهم.. الكل نيام.. الهدوء يسود المكان.

ويسير رجل واحد عليه اشعال المدفاة.. وقد كان يفعل ذلك باخلاص شديد لذا فقد كانت العنابر دافئة على الدوام. لم يكن سهلا ان تصعد الى اعلى وتجد سريرك فتنام.. كنا نرقد واحدا بجانب الاخر. متلاصقين ومحشورين فى بعض.. وقد كان لزاما على ان احشر نفسى بين الذين كانوا نياما.. ولا يلاحظ احد منهم ذلك قط.. فهم عادة يغطون فى نوم عميق.. فى صباح اليوم التالى تكرر ماحدث بالامس.. وخلال الوقت الضائع فى عملية البحث عن اناء بقيت بلا وجبة دافئة.. كان على اذن الاكتفاء بالسمك المملوح مع الخبز فقط.. وتشاورت مع رفاقى كيف يمكننى الحصول على اناء فارغ.. قالوا ان من العقل بيع بدلتى وبثمنها يمكن تدبير احدى المعلبات، من علب الفاصوليا بها ثلاث لترات.. وبامكان الجميع استخدامها.. وعند عودتنا من العمل بحثنا عن المجرمين الذين سالونا هل لدينا شىء للبيع ووجدناهم بسرعة.. وهكذا بعت بدلتى بثمانين روبلا.. وكان على ان اضيف اليها رباط العنق ايضا ولم اكن حزينا لذلك.. اعلم اننى لن استخدم رباط عنقى قريبا.. وفى المعسكر كانت هناك منضدة يبيع عليها المجرمون الصابون ومعجون الاسنان والفرش وبعض الاشياء الصغيرة.. وكنت سعيدا فى الحصول على علبة من المعلبات الكبيرة.. وقد اشترك معى فى وجبة الفاصوليا اوندراق وبيرقر وموزروف.. اكلنا نحن الاربعة المحتويات بمعالق خشبية صنعناها بانفسنا.. وكنا سعداء جدا.. فرحين للغاية.. فهكذا سناكل كل يوم وجبة دافئة فى الصباح..

وفى اليوم التالى تبخرت افراحنا.. أخبرنى اوندراق بأنه مريض وهو يحس بضعف شديد.. ولايستطيع ان يعمل.. ذهبت للعنبر المجاور اسأل المسجونين القدامى ماذا افعل.. قالوا بالقرب من مكتب ادارة السجن توجد عيادة.. وعلى المرضى ان يذهبوا لمقابلة الطبيب. واذا ثبت ان الشاكى مريض بالفعل اعفى من العمل وحذرونى بأنه وما لم تكن درجة حرارة المريض ٣٨ درجة سنتقريب فان عليه ان يتوجه للعمل بدون ابطاء.. يفعل ذلك مهما كان نوع المرض.. الا اذا كسرت قدمه.. او اضيب بجرح جسيم فى العمل.. عندها فقط يمكن ان يوقف من العمل.. دون اعتبار لدرجة الحرارة وقدت اوندراق للعيادة.. كان يجلس هناك نحو عشرين مريضا.. وكان الكشف على المريض يستغرق دقيقتين فقط.. ولم يخرج احد منهم راضيا من عند الطبيب.. كانوا يسبون ويلعنون واحد فقط او اثنان خرجا سعيدين فقط اعفيا عن العمل.. وعندما دخلنا سالنى الطبيب لماذا نحن اثنان.. أخبرته ان زميلى ضعيف منهار ولايستطيع المشى وحده.. وانا اعينه.. أجاب الطبيب.. سنرى ذلك الان. ووضع ميزان الحرارة تحت ابط اوندراق.. وعندما كان يفعل ذلك جالت عيناى فى المكان..

منضدة من خشب وبقايا السقالات.. فبالحائط دولاب صغير به ادوية وفى الركن سرير عليه حصيرة وبطانية.. والمكان لم يكن نظيفا للاسف.. نظر الطبيب الى ميزان الحرارة وهز رأسه مخرجا من الدولاب الصغير ثلاث سفوفات اعطاها لاوندراق وهو يقول: ثلاث مرات يوميا .. عد فى المساء مرة اخرى.. لن تذهب للعمل اليوم.. وكنا سعداء بالحصول على تلك النتيجة.. كان ذلك فوق كل تصوارتنا.. ثم قدت اوندراق للعنبر ووضعته على السرير.. وجريت نحو المطعم.. الافطار.. وعندما عدنا فى المساء.. كان اول سؤال وجهته لاوندراجق كيف تشعر الان.. أجابنى بلهجة اهل «فينا» العامية.. كارلو.. اليوم أكلت افطارا «فيناوى» حقيقيا الرغيف الممسوح بدهن الخنزير. اصبت ياكارلو وسررت جدا لان اوندراجق كان مسرورا ايضا ومعنى ذلك انه بخير.. سألته من اين له ذلك الاكل.. حكى لى..

حضر الى العنبر سجين قديم يعمل فى المنجم.. كان يثير الاهتمام والانتباه يسأل ان كان بين القادمين احد من بلاده.. وعندما عرف ان رودلف اوندراجق نمساوى الجنس ومن وطنه. وانه مريض.. هرع فاحضر له خبزا ممسوحة بدهن الخنزير. وبرقت عينا رودلف بالسعادة.. فى النمسا يأكل الفقراء وحدهم الخبز الممسوح بدهن الخنزير وقد سعدت كثيرا عندما ارانى رودلف قطعة منه.. ولكن سعادتى بشفاء وتحسن صحة رودلف لم تكن فى مكانها.. اذ ان حالته ساءت يوما بعد يوم واصيب بإسهال حاد.. وارتفعت درجة حرارته.. لقد زادت السفوفة التى اعطيت له حالته اسوأ.. كان الذى كشف عليه ممرضا فقط.. لم يكن طبيبا.. وذهبت الى ذلك «الدكتور» الممتاز .. ورجوته ان ننقل المريض للمستشفى.

ـ للاسف هنا لاتوجد مستشفى اقرب مستشفى تبعد عنا حوالى العشرة كيلومترات.. وهى ممتلئة جدا تعرف.. انا لااستطيع المغامرة بإرساله للمستشفى.. فهو ليس مريضا جدا.. وسيرجعونه فى الحال.. ومرت سبعة ايام كان كل يوم فيها يحمل معه السوء للمريض.. لم يتحسن قط تدهورت حالته للحد البعيد.. واخيرا اهتدى جوزيف بيرقر الى فكرة.. كانت فكرة طيبة.. قال لنا بعد تفكير.

ـ اسمعوا.. دعونا نجرى به كل مساء للعيادة فى هلع ورعب.. ونحن نصيح اوندراجق يحتضر.. اوندارجق يحتضر.. وقد حرك هذا «الدكتور» جاء الى العنبر ليرى مايجرى.. وخاف ان يموت المريض فعلا.. بعد ان ادخلنا فى روعه ذلك.. فان حدث هذا فسيسبب له حرجا كبيرا.. كان البوليس السياسى يحب النظام.. ولن يأسف بالقطع على موت سجين.. ولكن.. الويل للطبيب ان حدث الموت فى سرير السجن. يجب ان يكون ذلك فى المستشفى.

واخيرا قرر «الدكتور» ان يرسل رودلف الى المستشفى.. غير انه لم يجد اى طريقة لترحيله.. ماعدا الحصان.. او على الزحافة التى تجرها الكلاب.. وعندما جئناه مرة اخرى نخطره ان رودلف يعانى من سكرات الموت.. سألنا ان كان فى استطاعة المريض ركوب الحصان للمستشفى.. وقد نظرت اليه فى استغراب شديد قائلا.. كيف لمريض لايستطيع المشى ان يركب حصانا.. وهز كتفه.

وفى اليوم التالى وقبل ان اذهب للعمل حييت اوندراجق واعطيته خمسة عشر روبلا من ثمن بيع بدلتى.. وافترقنا.. ولم يكن ذلك هينا على كلينا.

ومن على البعد رأيناهم ينقلونه للمستشفى.. وضعوه فى صندوق صغير.. نصفه مدلى

في الهواء.. وشد الصندوق الى الخيل التي جرته في الجليد.. وترك الصندوق آثاره على الجليد.. لوحنا له بايدينا من على البعد.. ولكنه كان ضعيفا فلم يستطع ان يرد على تحياتنا.. حاولنا بعد ذلك ان نعرف شيئا عن مصيره.. كنا قلقين عليه جدا.. ولم نحظ بمعرفة شيء ابدا.. وبعد مرور شهرين نقلوني الى عنبر آخر في نورلسك.. وعرفت التفاصيل.. كانت ادارة معسكرات العمل قد شددت على بناء قضبان السكة الحديد بأي ثمن.. وزادوا لنا ساعات العمل اليومي.. كان معظم السجناء قد جاءوا من معسكرات مختلفة.. قضوا فيها فترات طويلة.. كانت أجسادهم هزيلة للغاية.. من سوء التغذية والمعاملة.. واغلب هؤلاء السجناء لم يكونوا قد اعتادوا على اداء مثل هذه الاعمال الجسمانية.. بالطبع كان هناك من مارس بعض الاعمال اليدوية البسيطة في ماضي حياته.. الا ان اغلب السجناء كانوا من قادة الحزب السابقين ومن موظفين آخرين مديري مؤسسات، وزراء، اطباء، اساتذة.. لاغرابة اذن في ان كثيرا من هؤلاء الناس وفي فترة زمنية قصيرة قد تحطموا جسديا تحطما تاما.. وأصبحت شروط الحياة في معتقل نادج تزداد سوءا يوما بعد يوم.

وكنا عندما نأتي من العمل ونحن مغبرين متربين لانجد ماء للاستحمام.. فقد كان الماء يجلب في براميل خشبية صغيرة يكاد يكفي بالكاد لعمليات الطبخ اليومية.. كنا بالطبع نستطيع ان نستحم بالجليد ولكن الجليد ذاته كان مغطى بطبقة من غبار الفحم.. الاسرة التي كنا ننام عليها كانت بدون حصائر.. او مخدات.. او بطانيات.. كنا نتغطى بملابس العمل.. وعند التدافع للنوم يقع المرء على اى سرير يصادفه ويجده خاليا او ينحشر مع الاخرين.. وحتى السراير ذاتها كانت تشغى بالحشرات اللاسعة.. كالبق والبراغيث.. يوم العطلة كنا نساق للحمام الذي يبعد عن موقعنا حوالى الثمانية كيلومترات.. وكان الطريق اليه يمر عبر المستنقعات ذات المخاطر المهولة.. رعب وتعب حقيقي.. وكانت الحمامات صغيرة ضيقة.. لاتتسع في كل مرة لاكثر من سبعين شخصا.. اما مايتبقى من عدد الثلمائة رجل فعليهم الانتظار في العراء.. على قارعة الطريق.. هل يمكن ان يصدق احد اذا قلنا ان عملية الاستحمام في بعض الاحيان كانت تستغرق حوالى الاثنى عشر ساعة.. وقد ظل المرضى والمتعبين والضعفاء - وهم كثر - يتهربون دائما من رحلة الحمام هذه، رحلة العذاب القاسي.. ولما كان الحمام اجباريا فقد عمد هؤلاء المتهربون الى الاختفاء داخل العنابر وتحت الاسرة.. الامر الذي ادى الى اصابتهم بالقمل من جراء عدم الاستحمام، لمدة طويلة.. كنا نشكو دائما ونتذمر وقد بقي كل ذلك بلا اجابة.. كانوا يديرون المعتقل بواسطة مجموعة من المجرمين.. تكتلوا وجمعوا حولهم عصابة خطيرة.. وقد سادت هذه العصابة فسادا في المكان وعربدت كما يحلو لها.. الطعام كان رديئا تعافه النفس.. بعض المجموعات كان لها كل شيء.. لم تكن بالمكان مخازن لتخزين وحفظ اشياء الاكل.. لذلك بقيت هذه الاشياء بالقرب من المطبخ تحت رحمة السماء العارية.. براميل الخشب التي تحتوى على اللحوم.. السمك.. بقية المواد الاخرى.. وكنا نرقب ونلاحظ كيف يقوم المجرمون بكسر البراميل الخشبية وباختلاس قطع الحم الكبيرة حيث يطبخونها في العنابر.. وكان من النادر جدا ان يحظى احد السجناء السياسيين بقطعة من اللحم.. وكان

من المفروض ان يحصل كل سجين على سبعين ديكاجراما من السكر.. ولكن الذى يحدث هو اننا وطيلة الشهرين اللذين مكثناهما هنا لم نحصل على السكر الا مرة واحدة.. وعندما سألنا ادارة السجن عن ذلك.. كان ردهم.. اشتغلوا اكثر وسوف تحصلون عليه.. ولكننا نعمل بإستمرار ولم نحصل على الراحة المفروضة لنا الا فى فترات قليلة جدا.

ـ كان يجب عليكم ان تعملوا فى أيام الاحد ايضا.

كنا نرتاح فقط عندما تهب العاصفة ـ بورقا ـ بعضها كان عنيفا قاسيا ـ لدرجة تجعل الرؤيا متعذرة لاكثر ن من مترين فقط. عندها كنا نستلقى على اسرتنا وننال قسطا من النوم.. او نتجاذب اطراف الحديث.. كنا نبحث عن الكتب.. ولكنها معدومة هنا تماما.. ولكن، بعضنا لهم ذاكرة ممتازة.. و باستطاعتهم ان يحكوا بالضبط تفاصيل القصص التى قرأوها يوما ما.. يفعلون ذلك وكأنهم يقراون من كتاب مفتوح.

أما الكتابة لذوينا وأهلنا كان مسموحا بها.. ولم أصدق فى البداية ان خطابا يستطيع ان يخترق هذا التيه، ويتجاوز هذه الصحراء الجليدية ويصل الى المرسل لهم.. ولكن السجناء القدامى اخبرونى بامكانية ذلك.. وبأنهم فعلوه وتلقوا ردودا على رسائلهم.. وكتبت الى زوجتى.. وكانت آخر رسالة وصلتنى منها يرجع تاريخها الى عامين.. ولم اصدق انها سترد على رسالتى هذه ومضى شهر وتسلمت منها برقية وبعض النقود.. وكانت سعادتى كبيرة.. لاتوصف.. ولم استلم النقود.. فقد كانت هناك بعض الاسس والقواعد التى يعطى بموجبها السجين مايرسل اليه من نقود.. ومن ذلك حسن السلوك.. والوصول بمعدل الانتاج الى مائة فى المائة، على الاقل ومن يفعل ذلك يكون له الحق فى استلام مبلغ خمسين روبلا من قيمة المال الذى وصل بإسمه.. وهكذا.. ولم اصل الى ذلك المعدل الاحصائى.. ففقدت نقودى.. وفقد الحق فى المطالبة بها.. بكل بساطة.. وهاجت العاصفة الثلجية بورقا مرة اخرى. ورقدنا على أسرتنا نتلمس بعض الراحة.. ودخل علينا موظف المعتقل وقرأ مئات الاسماء.. كان من بينها اسمى.. ثم قال لنا بهدوء.. ستنقلون الى سجن آخر ريثما يتحسن الطقس.. سنذهب اذن الى نورلسك.. وغمرنا شعور طاغ بالابتهاج والسعادة.. لقد كنا نسمع ان السجناء هناك يحيون حياة فيها بعض التهذيب.. ولم اكن اصدق تلك الاحاديث.. ولكن عندما علمت ان هناك يتوفر الماء حسبت اننى مسافر الى الجنة. وتآمرت علينا الرياح الثلجية لتعوق رحيلنا.. ورفضت ان تتوقف قط.. كنا غير صبورين على الاطلاق.. ورغم اننا لم نذهب للعمل فقد تاقت نفوسنا للرحيل.. وبسرعة.

واخيرا تحسنت الاحوال الجوية.. وسلمنا رئيس الحرس الى مجموعة من الجنود.. وعند الرحيل كان الذين بقوا فى منجم نادج ينظرون الينا بحسد شديد، ومشينا تحت الحراسة المشددة والشمس المستديرة الباردة خلال طريق ضيقة.. كانت درجة الحرارة عندها عشرين درجة تحت الصفر مررنا بجوار معسكر العمل الاجبارى للنساء.. وتطلعنا نحوهن بفضول وحزن.. ولم تبق فى ذاكرتنا صورة امراة واحدة واصابنا الشوق والوجد.. وكن ينظرن نحونا بحنان ومودة.. وتراقصت على وجوههن البائسة أشباح ابتسامات ما. وفى الطريق الى نورلسك قابلتنا عربات الشحن.. وعربات الكارو ورأينا امام احد المنازل حيوان «الرنة» وهو نوع من الايائل مشدودا الى عربة زحافة.. ودنونا من نورلسك.

كيف بنينا نورلسك

نورلسك.. مدينة من مدن مقاطعة كرسنويارسكا فى اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية.. مربوطة الى ميناء دونكا على نهر الينسى بخط السكة الحديد.. ونورلسك اصبحت مدينة ذات اعتبار فى عام ١٩٥٣م وتطورت بسرعة حتى انه فى عام ١٩٥٤م اصبح بها سبع مدارس للثانوى العالى، وخمس مدارس للثانوى العام واربع مدارس ابتدائية وثلاثة اندية ثقافية، وبيت للشباب الصغار، ومسرح للدراما، ودار للسينما وثلاث مكتبات، وفى نفس عام ١٩٥٤ تم بناء قصر الثقافة وحوض للسباحة ، ودار للسينما ومدرسة موسيقية. وارجو ان لاينزعج القارىء لاننى قفزت فوق السنين فقد نقلت هذه المعلومات بالدقة من دائرة المعارف السوفيتية الكبرى. وذلك لاعطى القارىء الكريم صورة عن الحقيقة. وصلنا الى العنابر البدائية التى بنيت بأخشاب كانت تستعمل كصناديق لحفظ السلاح.

كانت هناك ورشة صغيرة.. امامها مجموعة من قضبان لبناء السكة الحديدية الجديدة التى ستربط مناجم الفحم الى شبكة السكة الحديد الرئيسية.. وعندما شاهدت تلك العنابر التى تعمها الفوضى وعدم النظام تذكرت فورا الاحاديث التى دارت حول نورلسك ابان وجودنا فى منجم بنادج.. ونورلسك هذه تبعد عن دودنكا مسافة المائة وعشرين كيلومترا ودودنكا هى المركز الذى يقع وسط جزيرة تايمر كان معروفا قبل حوالى الستين عاما فى القرن الماضى.. وقد حاول التاجر المعروف موروزوف ان يصنع شيئا.، ان يستغل هذه الطبيعة الغنية المتوحشة.. وباءت كل محاولاته بالفشل.. لم يكن يملك الايادى العاملة الكافية.. ولذلك فقد نامت افكاره عن هذا المشروع.. ولجأ موروزوف الى الحاكم لمنطقة ينسى وطلب المساعدة.. وارسل الحاكم الى مدينة بتروقراد تقريرا وافيا عن المعادن النفيسة التى تزخر بها نورلسك وما جاورها وبعد سنوات عديدة جاءت لجنة الى ينسى وبصحبة نائب الحاكم والتاجر مورزوف اتجهوا نحو نورلسك ثم ناحية الشمال.. وارسلت اللجنة تقريرا الى القيصر جاء فيه ان بمنطقة نورلسك توجد مناجم غنية جدا بالثروات الطبيعية.. ولكن يلاحظ انه لايمكن استثمارها لان موسم الصيف هو شهران فقط وباقى شهور السنة شتاء قارس وبرد وثلج وعواصف.. ولايمكن تبعا لهذه الاحوال الجوية فلا يمكن ايواء العاملين فيها.. ولذلك فان مشروع التاجر موروزوف لايمكن تحقيقه.. كان ذلك رأى موظفى القيصرية.. فهنا لايمكن ابقاء البشر تحت مستوى رحمة طبيعية قاسية.. اما البيروقراطية الستالينية فقد كانت ديناميكية بحق.. فى عام ١٩٣٥ امر ستالين بأن يجد البوليس السياسى، اخصائيين وعمال مهرة وان يفتح فى نورلسك معسكرا للعمل الاجبارى.. حدث ذلك التوجيه فى شتاء عام ١٩٣٦/٣٥م وبعدها القى القبض على المئات قبضوا على مهندسى المناجم، والاطباء ادينوا بتهمة التخريب، حاكمتهم محاكم «الثلاثة» بعشر سنوات سجنا فى معسكرات العمل الاجبارية.

وفى نفس الوقت وفى عدة سجون مختلفة كان فى الانتظار خمسة الاف من العمال والقرويين والمثقفين. حتى يفتح طريق فى نهر الينسى، وشحن مع اول يوم فى الصيف الرجال والسلاح والخيام. وهكذا حقق البوليس السياسى المعجزة وافتتح فى صيف ١٩٣٦

معسكر العمل الاجباري في نورلسك.. ولم يفكر احد في الاحوال الجوية.. كان اوائل المعتقلين الذين وصلوا الى نورلسك من الشباب والرجال الاصحاء لقد اختارهم البوليس السياسي اختيارا دقيقا.. طقس قاس.. عمل شاق.. منطقة خالية من السكان.. ظروف حياتية غير طبيعية.. كل ذلك كان يحتاج الى رجال اقوياء ذوي مناعة.. اللجنة الطبية التي قامت بالكشف على كل فرد فعلت ذلك بدقة متناهية وبالتفصيل ودققت جدا على صحة الاسنان. ففي اقصى الشمال كان يسود مرض الاسقربوط.

عند وصول اول شحنة من الرجال في صيف عام ١٩٣٦م اخذ الرعاة فورا في الرعي.. رعوا قطيعا من الايائل.. ووضعوا الشراك للثعالب الفضية.. وكان من جراء ذلك ان تقهقرت الايائل والثعالب الفضية وافراد قبيلة الساموبد نحو الشمال الشرقي من نهر الينسى الى بحيرة بياسينا. ثم اقيم المعسكر ونصبت الخيام.. في الخيام كانت هناك بعض الاسرة الخشبية.. ثم وضعوا مدفأة حديدية في الوسط وجعلوا لكل خيمتين مطبخا.. اما المواد الغذائية فكانت تنتظر تحت السماء المفتوحة.. كان بالمعسكر كميات وفيرة من المأكولات حصلوا حتى على الليمون والادوية التي تعالج مرض الاسقربوط.

في السنة الاولى تم بناء عنابر السكن والمكاتب فقط.. كانت الاخشاب غير موجودة بالمنطقة.. فاضطروا الى احضار مواد البناء عن طريق النهر وكان اول واجب قام به الرجال هو تنظيف المنطقة من الجليد العالي المتجمد.. الادوات التي عملوا بها كانت بدائية جدا عتلة.. طورية.. جاروف.. نظفت الارضية المتجمدة ووضع الاساس للعنابر وقد احتاج الرجال الى جهد خارق كلما ارادوا حفر حفرة في الارض.. اكثر من نصف اولئك الشباب مات من شدة العمل والبرد والمرض.. واثناء عمليات بناء العنابر خرج الجيلوجيون ينقبون عن المعادن. وبعد فترة وجيزة ارسلت عينات الصفيح والنحاس والكوبالت والمعادن النفيسة الاخرى الى موسكو. وكان في باطن الارض احتياطي هائل من الفحم..

في عام ١٩٣٧م حضر الى نورلسك عشرون الفا من الحكوميين.. وقد استطاع جزء بسيط من ان يجد مكانا في العنابر.. اما الاخرون فقد كان عليهم ان يسكنوا الخيام.. نصف اولئك السجناء قاموا ببناء خطوط السكة الحديدية الضيقة.. دودنكا نورلسك..

في عام ١٩٣٨م حضر ثلاثون الفا من المسجونين الجدد. عن طريق الشاحنات.. وصلوا دفعة تلو الاخرى. ولكن عدد الرجال هنا لم يترفع قط فقد كانت نسبة الوفيات عالية لدرجة مخيفة.. ماتوا جماعات كبيرة.. ولم تكن حصيلة جهدهم لمدة ثلاثة اعوام ذات قيمة تذكر..

طلب ستالين ان ينتقلوا بعد ذلك الى استغلال المعادن النفيسة.. وبأي ثمن.. مهما كان.. ومهما عز.. فقد كان الرجل يسعد للحرب.. وكانت قيمة هذه المعادن قد ارتفعت في الاسواق العالمية يوما بعد يوم خاصة بعد وصول هتلر للسلطة.. ولم يكن الاتحاد السوفيتي يملك مالا يشترى به هذه المعادن..

دعا ستالين الى مكتبه مدير منطقة نورلسك ماتفيف.. وحدد له فترة زمنية معينة هي عام ١٩٣٩ لكي يتم استخراج الصفيح والنحاس من مناجم نورلسك.. ووعد الرجل.. اعطى عهدا ان يتم انجاز المهمة التي كلف بها.. وجاء عام ١٩٣٩م ولم تستخرج المعادن.. فسيق الرجل ومعاونوه الاربعة الى كوليم واعدموا رميا بالرصاص وفي مكان ماتفيف تم تعيين زافيناقن وعندما استلم زافيناقن ادارة نورلسك كان فيها ثمانين عنبرا ومقبرة كبيرة..

كان عمر المدينة حينها ثلاثة اعوام وعمر مقبرتها مئات السنين.. وكان زافيناقن اذكى من سلفه.. طلب كادرا مؤهلا من المهندسين والفنيين والاقتصاديين.. جاءته من جزر سولوفيتسك فرقة كبيرة مكونة من اربعة الاف رجل.. وقد عرفت هذه الفرقة في تاريخ نورلسك بمرحلة سولوفيتسك وكان زافيناقن ومعاونه قولوهوف في حاجة لمثل اولئك الرجال.. كانوا يعلمون بان مشروعا كبيرا مثل بناء مصانع المعادن في نورلسك لايحقق بقوانين القهر.

ولكى يجتذب المهندسون والفنيون للعمل هناك.. اعطوهم امتيازات صغيرة.. سكنا جيدا.. وطعاما جيدا كذلك ولكن البوليس السياسى كان يفكر بطريقة اخرى.

المسجونون السياسيون يقومون بأقسى وأشق الاعمال والمهام.. والمجرمون الاعمال البسيطة السهلة.. وهكذا كان زافنياقن وقولهوف في صراع مع «القسم الثالث» لكى يقوم المهندسون والفنيون بمهامهم الدقيقة داخل حجرات دافئة.بدلاعن حفر الارض المتجمدة.. وكثيرا ما عارضا البوليس السياسى.. ومن عجب ان رأسيهما ظلا على كتفيهما.. وحصل زافنياقن على معاون اخر هو بريميف والذى كان واجبه الاساسى هو التاكد من ان المساجين السياسيين لايحصلون على امتيازات وان لايصبح موقفهم جيدا ابدا.. مرت سنة واحدة وارتفعت سحب الدخان في مصانع نورلسك ومن ميناء دودنكا انطلقت اول شحنة من الصفيح.

مـوت رودلف أونـد راجـق

عند قدومنا من منجم نادج الى نورلسك.. عينت مع زملائى فى القسم الثانى لمعسكر العمـل.. كان الوقت ظلامـا عندما تسلمنا رئيس القسم ليمان. وسررنا جدا حين قادونا للحمام. ليس لاننا قمنا بالاستحمام وانما لاننا بقينا طول الليل هنا وفى اليوم التالى قادونا الى عنابر مسورة.. كان فى القسم الثانى الذى الحقنا للعمل به حوالى الثمانية آلاف من المساجين.. سياسيين. ومجرمين على السواء.. وكانت النساء هناك ايضا ثمانمائة امرأة فى عنابر مخصصة لهن ومسورة بالاسلاك الشائكة.. وذهبنا للعمل فى الصباح الباكر كالمعتاد وضعونا امام العنابر وبعدها توجهنا نحو باب المعسكر. كان الجو باردا لحد لايصدق.. خمسة واربعون درجة تحت الصفر. وعندما اقتربنا من الباب روعنا مشهد فظيع.. على ارتفـاع نصف متـر من الارض علق جثمـان سجـين.. عارياً.. باردا ميتا.. ربطت رجلاه بالاسلاك.. وكان رأسه متدليا كانت عيناه زجاجيتين باردتين. برزت عظامه.. كان جلدا على عظيم ـ فمه مهشم ويابس فوق رأسه علقت لافتة كتب عليها «هذا هو المصير الذى ينتظر كل من تسول له نفسه ان يهرب من نورلسك» كانت تقاطيع وجهه مألوفة لدى بدرجة كبيرة.. من يكون هذا الرجل.. عذبنى السؤال.. دار فى رأسى هزنى هزا عنيفا لا... لا. لايمكن ان يكون ذلك حقيقة احسست بيد تعصر قلبى.. وبسكين تغوص فى احشائى كان ذلك الرجل هو رودلف اوندراجق.. هل حاول الهرب حقا.. لم يحدثنى ابدا بفكرة كهذه.. يوما بعد يوم كانت صورة الجثمان تلوح أمام أعينى وتثبت هناك.. وانشل فكرى بعنف والحاح.. لماذا علقت جثته أمام باب المعتقل.. وفى يوم ذهبنا للحمام.. كان هناك طبيب نوبتجى اسمه جورج.. علمت انه من لايبزج سألته هل رأى الجثمان المشنوق عند الباب.. أجابنى.. لماذا تستغرب واضح انك حضرت مؤخرا.. انتظر سترى الكثير من العجائب وحدثته لماذا اهتم بدرجة كبيرة برودلف.. نصحنى جورج بليسكى الطبيب الا اتحدث مع اى شخص فى هذا الموضوع.. ووعدنى بأن يتقصى الحقيقة من زملائه الاطباء.. وفى يوم الاحد سجل لى زيارة بالعنبر ودعانى للذهاب معه.. ذهبنا سويا الى عنبره وهناك عرفنى على الطبيب رايفجر من لينتقراد.. كان طبيبا جراحا فى مستشفى المعسكر بالقسم الاول. حدثنى بانه يتذكر حضور اوندراجق من منجم الفحم الى المستشفى كان اوندراجق فى حالة صحية سيئة للغاية.. كان مصـابـا بدوسنتـاريـا مزمنـة ومهملة.. وبضعف فى القلب.. وكان منهارا ومتهالكا للحد البعيد.. والامل فى شفائه كان ضعيفا ايضا.

ولكن ورغمـا عن كل شىء بدأت صحتـه تتحسن تحسنـا طفيفـا بعد شهرين من احضاره.. وتحدث رايفجر كنت نوبتجيا فى المستشفى عندما حضر اوندراجق تلك الليلة.. جاء الى غرفتى وطلب منى ان اعطيه سفوفه منومه.. وشكرنى وذهب. وفجأة سمعت صوت جسم يرتـطم بالارض وجرت الممرضة فوجدت اوندارجق يرقد امام الباب.. وهرعت الى هناك.. كشفت عليه واكتشفت الوفاة. وسألته كيف يمكن ان يعلنوا ان اوندراجق هارب.. قال لى انه لايعرف وليس فى مقدور احد ان يعرف.. بليسكى كان مهتما باوندراجق.. فقط رجانى ان احكى له كل ما اعرفه عنه.

ولد اوندراجق فى زنويم التى اصبحت اليوم تابعة لتشسكوسلوفاكيا كان من قادة الحزب الشيوعى النمساوى.. وعندما وصل هتلر للسلطة فى عام ١٩٣٣م وجده فى برلين

القى عليه النازيون القبض ورموه في معتقلات العمل الاجبارية.. وعندما اطلق سراحه من المعتقل سافر اوندراجق الى سويسرا.. واتيحت له الفرصة ليلقى خطابا في اجتماع الاشتراكية العالمية بجنيف.. فتحدث عن الاشياء التى عاشها في معسكرات النازية.. حكى الكثير مما قاساه وعاناه هناك.. ومن سويسرا ذهب هو وزوجته وطفله الصغير الى الاتحاد السوفيتي حيث عمل لسنوات عديدة في نقابات العمال العالمية «بروف انترن» وعندما قرر ستالين تصفية قدامى الشيوعيين، كان هو من اوائل المعتقلين، ومعه مؤسس الحزب الشيوعى النمسوى «كورتشونير» وكورتشونير هذا كان في بداية حياته موظفا في البنك وناشرا للكتب.. القى عليه القبض في هاركوف عام ١٩٣٦م وحوكم بثلاث سنوات سجنا.. وعندما استأنف الحكم قررت المحكمة العليا في اوكرانيا ان تستبدله له بعشر سنوات سجنا.. وفي عام ١٩٤٠ سلمه البوليس السياسى للجستابو الذى صفاه جسديا.. لا استطيع نسيان اوندراجق قط.. كان رجلا طيبا لست ادرى هل ستعلم زوجته كيف مات.. لقد استمعت زوجته الى نصيحة بعض الاصدقاء بعد اعتقاله، واستطاعت بمساعدة القنصل النمسوى ان تعود لموطنها.. انهيت حديثي ورجعت الى العنبر.. وفي نفسى حزن وأسى.. عملت في المجموعة التى كانت تقوم بصهر الصفيح والنحاس. كانت الخامات تنقل الى المصانع من المناجم في عربات السكة الحديد.. واللوارى الكبيرة.. كان الدوام اليومى من الثامنة صباحا وحتى الثامنة مساء.. وكان على كل سجين ان يقوم بتفريغ ستة عشر طنا من المعادن.. وكنا نحصل بعد كل هذا المجهود المضنى الشاق على ستين ديكاجراما من الخبز، مرتين في اليوم، ووجبة دافئة نصف لتر من الحساء وبعض العصيدة وسمكة صغيرة من سمك بحر الشمال.. اما الذين لايستطيعون الوصول الى الحد الادنى من معدل الانتاج كانوا ينالون طعاما اقل.

وكان هناك الكثيرون لايستطيعون ذلك ولايقدرون عليه.. اما للمرض او الضعف.. وقد جمعوا اولئك «المقصرين» من كل الوحدات واجبروهم على الاستمرار في العمل حتى يوفوا بالمعدل الاحصائى للانتاج. وكل ساعتين او نحوهما كان يصل فوج من الذين اكملوا المعدل، وبقى بعضهم في مكان العمل طوال الليل واصلوا العمل مع مجموعاتهم القديمة في الصباح.. وسقط الرجال على الارض.. لم يكن في استطاعتهم العودة الى المعسكر على اقدامهم قط.. بعضهم حمل الى المستشفى غائبا عن الوعى.

كانوا مرهقين متعبين ولم تكن درجات حرارتهم مرتفعة وذلك بالطبع هو المبرر الوحيد الذى يمكن ان يعفيهم عن العمل.. لذلك القوا بهم في الماء البارد ليعودوا بهم الى الحياة. ولكن الكثيرين منهم لم يعودوا ابدا للحياة. كانت حوادث الموت بسبب الارهاق في العمل الاضافى تزداد يوما بعد يوم وقررت ادارة السجن ان تفعل شيئا.. فأصدرت الاوامر بأن تكون ساعات العمل الاضافية للذين لم يحققوا معدلات الاحصاء هى ساعتان فقط. وعلى الرغم من كل ذلك.. فان الحياة في نورلسك خير من الحياة في سجن «نادج». العنابر مساحتها واسعة.. الحشرات القارصة اقل منها هنا.. كان بالامكان الاستحمام دون الحاجة الى الزحف عشرة كيلو مترات لتحقيق ذلك.. الخدمات الطبية كانت أفضل اطباء مؤهلون يبذلون قصارى جهدهم للتخفيف عن السجناء التعساء.. كان هناك ايضا عدد من الاطباء المعتقلين.. الذين كانوا في الاكاديمية العسكرية بلينتجراد.. دكتور نكشين.. دكتور بايف.. دكتور روزبلوم.. دكتور سوهوروكوف من موسكو.

لقد بذل اولئك الاطباء في الواقع قصارى جهدهم لكي يسهلوا علينا الحياة.. كانت عليهم رقابة دائمة ومشددة من رؤساء العنابر الصحية . وكثيرا ماعوقبوا ورمى بهم في اصعب الاعمال ولكنهم كانوا يفضلوا بالطبع ان يحفروا الجليد القاسى بدلا من ان يرسلوا الرجال المرضى للعمل. كانوا من اشجع الناس واصلبهم اعوادا..

احدهم هو دكتور سوهوركوف الذى كان طبيبا للفريق الرياضى في موسكو وحين رافق مجموعة من اللاعبين في عام ١٩٣٦ الى السويد لاجراء مباراة في كرة القدم عاد ومعه اللاعبون يتحدثون بان الحياة في الخارج ليست بائسة كما تدعى التصريحات الرسمية. وعندها القى القبض على كل اعضاء الفريق وطبيبهم وحوكموا بعشر سنوات سجنا.

اما رئيسة القسم الطبى في الجناح الثانى من المعسكر فهى الكسندرا سليبكوف حضرت الى نورلسك مع زوجها مهندس المناجم سليبكوف وكان يعمل كمدير للمنجم وهو الذى ارسله الحزب لكي يراقب ويحول دون تخريب السجناء للعمل. وكان من المستحيل ان يحدث مثل ذلك التخريب بالطبع.. حتى الكلام عنه لم يكن واردا.. السجناء عملوا ويعملون باخلاص اما الطلقاء فيتقاضون الرواتب كل انسان هنا كان يعلم جيدا بان العمل يدور باكثر من كلمة ممتاز. وكان المهندسون الشبابن «الاحرار» يعلمون ايضا انه يمكن وبدرجة كبيرة الاعتماد على المهندسين والفنيين السجناء. الكسندرا كانت شابة وجميلة.. طيبة القلب وانسانية للحد البعيد.. تعمل بوحى من ضميرها.. كان مبدؤها الاول والاخير المرض فوق كل شىء ولايهمنى ان كان المريض سجينا ام طليقا. كانت تعامل الاطباء السجناء الذين تعلمت منهم الكثير معاملة الزملاء الانداد. كانت بالطبع حذرة جدا حتى لاتقع تحت طائلة مؤاخذة البوليس السياسى. ونجحت في ان تخصص للمرضى من السجناء مطعما خاصا بهم.. يدار تحت رعايتها..

ويعد الطعام للمرضى حسب توصيات الاطباء فقط.. وبذلك انست المرضى انهم سجناء.. واهتمت جدا بالناقهين من المرضى الذين يخرجون من المستشفى حتى لايرسلوا للعمل قبل اكتمال شفائهم. لذلك كانت كثيرا ماتصطدم برئيس المعسكر والويل لرئيس السجناء اذا رأته الكسندرا يضرب سجينا مريضا.. أخذت على عاتقها ان تعيد هذا الرجل اللا انسانى لوضعه كسجين مثله مثل غيره من السجناء يؤدى الاعمال الشاقة التى يرهق بها غيره.. وهو منهم..

رؤسا البوليس السياسى لم يكن يعجبهم تصرفها قط ولكنهم لم يستطيعوا فعل شىء فزوجها من قادة الحزب في نورلسك ولقد بقى كثير من السجناء على قيد الحياة بفضل هذه المرأة الشجاعة.. شهور طويلة مضنية قاسية قضيتها في عمل شاق بمصنع تعدين الصفيح كان علينا ان نحمل الصفيح في براميل ونشحنه على القطارات التى تذهب الى دودنكا وكرسنوبارسك عمل شاق وطعام ردىء انهكا جسدى.. ولذلك توقفت لم اعد استطيع العمل.. تحدثت في ذلك مع صديقى جورج بليسك ووعدنى بالمساعدة.. وبعد وقت قصير قرر دكتور نكشن ان اعمل عملا خفيفا غير مرهق. واحلت الى اللجنة الطبية فأوصت ايضا ان يكون عملى بسيطا سهلا.. وقد اعترض ممثل البوليس السياسى ووصفنى بأنى «مجرم خطير» وبالرغم من ذلك تقرر ان اصبح ممرضا في العيادة. وظهرت علامات مرض التيفويد.. وكان يجب عمل مستشفى كرنتينة وان يكون ذلك عاجلا جدا.. وقرر ان اكون مسئولا عنها. وعملت بها لمدة اربعة اشهر كان المرضى جميعهم ومعهم الادارة

الصحية مسرورين من عملى ومقتنعين به.. وعندما انتهى الوباء اغلقت الكرنتينه وكان لزامـا على ان اعود مرة اخرى للعمل الشاق وكان ذلك الان ممكنا وميسورا فقد تحسنت صحتى واستعدت قواى.

فى المعسكر كان هناك عدد كبير من الاجانب.. رجال افذاذ عقليات جبارة اخلاق رفيعة ومثل عليا.. وظهر من اولئك وتجلى كالنجم الباهر جوزيف بيرقر رجل غير عادى على الاطلاق طيبـة لاحـدود لها.. استعداد دائم لعون الاخرين والوقوف معهم فى احرج اللحظات.. تضحيات كثيرة مطلقة كان جسده هو شخصيا ضعيفا للغاية. ولكنه كان مهتما بالاخرين. يهـون عليهم ويخفف عنهم وينقـذهم من العمل الشاق. كل قوته الروحية وكل طاقاته استغلها ليخفف قدر الاخرين.

كان يوجــه جل اهتمامه للذين يأتون حديثا للمعتقل.. والذين لم يتأقلموا بعد.. والذين كانوا ضحايا لنزوات ادارة السجن.. وارهاب عتاة المجرمين. كان يمدهم بالخبز والدخان والملابس الثقيلة.

فى مطلع شبابه انضم للحركة الشيوعية ووضع عقليته الجبارة فى خدمة الحركة العمالية.. وقبل القبض عليه كان واحدا من قادة الحزب وفى اللجنة التنفيذية للكمنترن.. لسنوات عديدة كان يقود سكرتارية الحزب للشرق الاوسط.

فى عام ١٩٣٥م قبض عليه بتهمة «التروسكية» وحوكم بخمس سنوات سجنا.. وكلما تنتهى مدة الحكم تفتح القضية وتعاد محاكمته ويسجن من جديد.

مأساة المعتقل فورن شور

حدثني بيرقر عن مأساة معتقل فورن شور كان هو احد الثلاثة الذين بقوا على قيد الحياة.

في صيف عام ١٩٣٥ تحرك قطار من موسكو الشمالية يجر عربات بضاعة شحن عليها اربعمائة سجين من سجن بوتريك عن طريق الفولجا والاورال.. انزلوهم في ستالينسك التي كان اسمها ايام القيصر نوفوكوزنيك.. ومن بين اولئك المحكوم عليهم كان بيرقر ابقوهم لمدة اربعة وعشرين ساعة ثم اعطوهم طعاما لثلاثة ايام وتحركوا بهم نحو منطقة الاشجار المتفرقة. مروا بطريق صغير شاهدوا فيه خيام قبيلة كيرقسك الرعوية.. وبحب استطلاع شديد راقب افراد القبيلة هذه القافلة البشرية.. وفي بعض المرات تبادل بعض الكيرقيزيين بعض الكلمات مع بلدياتهم من المعتقلين وهم يشقون طريقهم.. واحدا واحدا.. حتى وصلوا الى المنطقة الحجرية ووطئت اقدامهم ولعدة كيلومترات تلك الاحجار الصحراوية الصلدة.. وبعدها دخلوا مرة اخرى منطقة الاشجار المتفرقة.. وهكذا من طلوع الفجر الى المغيب كانوا يضربون في ذلك التيه اللا متناهي.

وفي المساء نصبوا الخيام وناموا على الارض العارية كانت المؤن محمولة على ظهر اربعين حصانا من الخيول السيبرية الصغيرة.. وفي المساء اضرموا النيران حول خيامهم تحسبا من غارات الحيوانات المفترسة وكانت الذئاب والثعالب تعوى و تهر طول الليل ذلك عدا وحوش ضارية اخرى.. كانت الخيل متوترة خائفة تصهل باستمرار طول الرحلة ولمدة ثلاثة اسابيع كاملة.

توقفوا عند سطح الجبل.. تركوا عشرين مريضا لايستطيعون السير بجانب الطريق.. واستمروا في طريقهم حتى بلغوا غايتهم اما الذين تركوهم وعادوا لهم بعد ايام فقد وجد الجنود عظامهم وملابسهم فقط.. ثم نصبت خيام المعسكر.

الخيام الكبيرة استعملت كمطبخ وباقي الخيام نظمت لتكون مستشفى وانهيت جميع الاعمال الضرورية وبعدها امر مدير المعسكر براحة لمدة ثلاثة ايام.. اكلوا فيها الاسماك واللحوم المعلبة والخضروات المجففة.. ومن ثم فقد تحسن موقف الصحة العامة كثيرا

لم يكن العمل شاقا وليس هناك معدل احصائي قد وضع بعد ثم وصلت مجموعات اخرى من السجناء كانت افواجهم في البدء تصل كل اسبوع.. ثم اصبح ذلك يوميا حتى تجمع حوالي اثني عشر الفا من السجناء. ونزل الجليد بغزارة، بلغ ارتفاعه مترين وقطع المعسكر وانعزل عن بقية العالم.. ونسى رجال البوليس السياسي شيئا هاما وبسيطا ان الرجال والجياد يجب ان ياكلوا.. احتياطي المؤن كان يكفي بالكاد لشهرين اثنين فقط وامر مدير المعسكر بتقسيم وجبة السجناء الواحدة الى وجبتين.. قال ان ذلك اجراء تحوطي. وبهذه الظروف اخطرت ادارة المعتقلات الرئيسية في موسكو «قولاق» عن طريق الراديو.. ووعدت بارسال المساعدة بالطائرات.

كان المعدل الاحصائي للعمل اقصر.. ولم يشعر احد بالجوع بعد.. وانتظر الجميع قدوم الطائرات وذات يوم واوقفوا كل المعسكر في حالة استعداد كامل وذلك لتنظيف الجليد حتى تهبط الطائرات وعمل الرجال كالمجانين وحول المكان الذى كان مهيئا لنزول الطائرات

وضعوا كميات كبيرة من الاخشاب واشعلوا فيها النار ولم تظهر الطائرات. ونزل الجليد مرة اخرى.. ونظف المكان ايضا مرة اخرى وتعلقت العيون بالسماء مضى شهر كامل ولا اثر للطائرات وانقسمت نصف الوجبة الى نصفين وصمت السجناء وذبحت الخيل ليأكل السجناء.. اما الشوفان فاحتفظوا بها...

واخيرا ظهرت الطائرات وهب الجميع من اماكنهم فرحين يلوحون بقبعاتهم ومعاولهم وايديهم.. وحلقت الطائرات فوق المعتقل ولكنها لم تهبط فقط القت بحمولتها الصناديق والسلال علقت في مجموعات على المظلات في الهواء.. قليل منها جدا وصل الهدف اما الكثرة الكاثرة فقد ضاعت في الغابة والجليد المرتفع ومن يستطيع ان يركض خلفها. جمع السجناء والجنود بعض الصناديق والسلال التى كانت بها ملابس ثقيلة وخبز جاف وارتفعت الروح المعنوية بعض الشيء ومضى اسبوعان ظهرت بعدهما طائرة واحدة، القت شيئا من الخبز والمعلبات.. وارتفعت الوجبة عدة جرامات. ومرت الايام وجاع الرجال.. وبدأوا يموتون من الجوع.. انقص مدير المعسكر عدد جنود الحراسة الى النصف ثم ارسل النصف الاخر للصيد.. كانت هناك بعض الحيوات. في بعض المرات يحضر الجنود دبا مقتولا.. ولكن ذلك لم يكن كافيا قط. وارتفع عدد الموتى بين السجناء لم نكن ندفن الموتى كنا نهيل عليهم الجليد فقط. وفي الربيع وعندما ذابت الثلوج انتشرت روائح كريهة لاتطاق كانت تلك هى روائح الجثث المتحللة. لم تكن لدى الاحياء قوة على دفن موتاهم وانتشر مرض التيفويد ولا ادوية بالمعسكر وقف الاطباء مكتوفي الايدى عديمي القدرة على التصرف.. ثم فتحت الطريق.. وجاء الطعام على ظهور الخيل ولكن.. من بين اثنى عشر الف سجين بقى على قيد الحياة ثلثمائة فقط

المحامى المجرى كروشى

الكثيرون يذكرون محاكمة الشيوعيين المجريين المشهورة.. والتى قام بها نظام هورتى ضد ـ سلاى ـ وفورست ـ وقضت عليهما بالموت شنقا. فى المعتقل عام ١٩٣٩ تعرفت على المحامى كروشى ملونار الذى تولى الدفاع عنهما. حادث غريب كان له الفضل فى ذلك كان لنا يوم معين للحمام نحن ساكنى العنبر نمرة «١٤» مائتان من الرجال يخلعون ملابسهم فى حجرة امامية قبل ان يتوجهوا الى حجرة التعقيم، فجأة يكتشف احد السجناء انه فقد ملابسه الداخلية.. كان واضحا ان احد الذين يعملون بالحمام هو السارق.. وبدون ملابس داخلية تصبح الحياة مستحيلة فى ذلك الجو الشديد البرودة.. هذا بالطبع عدا المشاكل التى سوف تحدث مع ادارة السجن.. سيكون عقابه رهيبا بدون شك.. كان عليه ان يدفع الثمن مضاعفا.. ومن اين له ذلك ونقود السجناء تصادر فور اعلان وصولها.. قام الرجل بطلب العون من رئيس العمال.. فما كان من هذا الا ان بدأ يضربه بقسوة شديدة.. وهنا اقبل رجل طويل القامة رياضى الجسم.. مفتول العضلات.. وانهال على المجرم ضربا.. وتعالت اصوات المشاجرة فهرع المجرمون لعون زميلهم ودارت معركة عنيفة جدا كان النصر فيها حليف السجناء السياسيين

بوليس المعسكر قبض علينا والقى بنا فى الزنزانات التأديبية كارسر كنت بين المعتقلين ومعى الرياضى المفتول العضل كروشى.. فى الزنزانات التأديبية تعرفت به اكثر كانت معرفة عن قرب هذه المرة.. لقد جاء إلى الاتحاد السوفيتى هاربا بعد محاكمة سلاى وفورست من نظام هورتى الذى كان يبحث عنه وفى الاتحاد السوفيتى قبضت عليه فرق النظافة الكبرى وقدم لمحاكمة عسكرية بتهمة العمالة لنظام هورتى وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة اعوام بعد خروجنا من زنزانات الحبس التاديبية كارسر عملنا معا فى مجموعة واحدة كان لها الفضل فى بناء مصنع المعادن الكبير برومبلوشتاكن كان العمل صعبا جدا قاسيا جدا..

حفرنا الارض المتجمدة بالقضبان الحديدية المدببة وبالمجاريف ونزيف العرق آعددنا اساس المصنع ونحن نكاد نلفظ آخر انفاسنا وعلى الرغم من البرودة المهلكة كان علينا ان نخلع معاطفنا المحشوة بالقطن «بوشلات» فقد كانت اجسادنا تتفصد عرقا غزيرا يوازى الجهد المبذول فى العمل الشاق.. كان كروشى قوى الجسم للحد الخارق.. لم يتعبه العمل كالاخرين.. كان دائم المرح والمزح.. فى الامسيات يجلس على كنبة العنبر ويبدأ فى ترجمة اشعار بوشكين للمجرية. ماسمعته قط يشكو.. حتى عندما يعضنا الجوع كان هو صابرا قويا.. منفرج الاسارير يحلم دائما بالعودة الى بوادابست ليعيد فتح مكتب المحاماة الخاص به.

مصير الحزب الآشتراكى النمسوى

عندما احبط الرهبان الكاثوليك الذين انضموا للفاشية فى فبراير من عام ١٩٣٤ الانتفاضة الشعبية فى فينا، هرب معظم اعضاء الحزب الاشتراكى النمسوى الى تشيكوسلفاكيا فسكنوا بيرن وبعض الاماكن الاخرى.. كانوا يتلقون العون من الحزب الاشتراكى الديمقراطى ونقابات العمال ولان الناس فى الهجرة دائما يتذمرون ويشكون ودائما ايضا مايشكلون ارضية خصبة للثورة والانقلاب على القيادات الحزبية.. وهكذا تقرر احداث انقسام فى عضوية الحزب الاشتراكى النمسوى. اعضاء الحزب الاشتراكى انتفضوا سريعا ضد قيادتهم وحدث الانقسام وضع هذا القسم.. او هذه الشريحة من الحزب على صدور اعضائها النجمة السوفيتية. وعلى اسطح المنازل رفعوا الاعلام الحمراء والنجمة الخماسية السوفيتية.

ثم بدأوا يقذفون الاعضاء الباقين فى الجناح الاخر ويكيلون لهم السباب والتهم، وبدأوا يبحثون عن الملجأ فى التنظيمات الشيوعية، وعندما ارتفع عددهم الى عدة مئات طلب الحزب الشيوعى النمسوى رسميا من قادة الاتحاد السوفيتى الموافقة على ان ينقل الحزب الاشتراكى النمسوى الى الاتحاد السوفيتى وحصل على ذلك وفى محطة بيلوروسكا الجديدة بموسكو استقبل اول قطار بالموسيقى والتهليل والهتاف. وفى الميدان عقد اجتماع كبير.. تحدث فيه الشيوعيون ثم تحدث كوبلنق وقروسمان كممثلين للحزب الشيوعى السوفيتى.. ثم ساروا بأعضاء الحزب الاشتراكى النمسوى واعتبروا من الثوار الابطال. وهناك كانت فى انتظارهم الموائد العامرة بالازهار والورود.. والطعام الجيد والانخاب. وعلى نغمات الموسيقى وبين صحاف الامل الدسم الممتاز والحلاوه البالغة. انشدت الاغانى الثورية.

فى الاسابيع الاولى ساروا خلال شوارع المدينة فى مسيرات استعراضية جذبت انظار الناس وهم بملابسهم المكونة من البيمبراسا وطواقى الباسك وبعد ذلك اختفوا من شوارع موسكو.. كان يمكن ان تلقاهم فى الاماكن السكنية وبالقرب من المصانع الكبيرة فى موسكو وهاركوف ولينينجراد وروستوف وغيرهما..

فى تلك الايام جرى الغاء كبونات الخبز بالاتحاد السوفيتى كان العمال الروس سعداء للغاية ولكن العمال النمسويين بدأوا فى اظهار التذمر والتضجر فهم يحصلون فقط على الخبز الاسود وعلى قليل من السكر فهرع قادتهم الذين كانوا فى موسكو الى المصانع وحاولوا تهدئة الموقف بين اعضاء الحزب الاشتراكى النمسوى. ولكنهم سمعوا نغمات غريبة.. ذات لهجة غير مرضية.

ـ انتم خدعتمونا.. اتركونا نعود للنمسا وقد لجأت تقريبا كل المجموعة للسفارة النمسوية فى موسكو طالبة منها تمكينهم من العودة للوطن ولكن السفارة النمسوية لم تكن على عجل فهناك فى فينا كانوا يناقشون هل يسمح لاعضاء الحزب الاشتراكى النمسوى بالعودة للوطن ام لا.. وفى موسكو وعند خروجهم من السفارة النمسوية القى البوليس السياسى الروسى القبض عليهم.. بتهمة الثورة المضادة. وارسلوهم فورا الى معسكرات العمل الاجبارية.. «أو. أس. أو» وكانت محكمة الثلاثة قد حكمت على كل منهم بعشرة اعوام سجنا.. وقد قابلت فى نورلسك عام ١٩٣٩ عددا من اعضاء الحزب الاشتراكى النمسوى

ولكن للاسف الشديد لم احفظ اسماءهم ولكنى عقدت اواصر الصداقة مع واحد منهم فرتز كوبنشتاير كان من فينا يقيم مع ابويه فى المنطقة العاشرة وهو شاب قوى ممتاز. ولكى ينقذ نفسه من الجوع كان يبيع دمه.. كان القسم الصحى فى نورلسك يستشرى الدماء مقابل الاكل.. من يعطى دمه يحصل على عشرة قطع من البيض، كيلوجراما من السكر، نصف كيلوجرام من الزبدة، كيلوجراما من الفاكهة المجففة، واثنين كيلو جرام من الخضار الطازج. كان كوبنشتاير يبيع دمه كل شهرين.. وانزعجت جدا للامر فحذرته ذات يوم الا يبالغ حاول اقناعى بأنه يشعر بالعافية والقوة.. ولكنه فجأة احس بالمرض كان مصابا بالكلى وضعف القلب.. وساءت حالته يوما بعد يوم.. ونقل الى المستشفى لان ذلك كان لابد منه بعد عدة اسابيع اخرجوه وكان يبدو عليه انه قد تحسن من يدرى.. فعند اندلاع الحرب نقلوه من نورلسك الى منطقة كرسنويارسك ضمن من نقلوهم الى هناك وبعدها.. لم اعرف عنه شيئا ابدا.

كل شــــياطــين هذا العالم

شغلت مبانى مصنع المعادن الجديد فى نورلسك حيزا كبيرا واستوعبت اعدادا كبيرة من الايدى العاملة.. المجموعات الضخمة التى وصلت مؤخرا عملت ليلا ونهارا بدون اى اعتبار للاحوال الجوية القاسية.. لم يكن هناك يوم للراحة.. او عطلة الاسبوع البرودة كانت شديدة فظيعة، حتى ان الانسان ينتابه احساس مؤكد بأن فمه قد تجمد ولم تكن البرودة وحدها هى العامل الوحيد للقوة الجوية.. كانت هناك الرياح الجليدية العاصفة وكانت تعصف وتزار بجنون حتى ليخيل للمرء ان نهاية العالم قد دنت.

تظلم الارض فجـأة.. وتدمدم الارجاء.. وينطلق هياج الرياح وحفيفها وصفيرها.. ليكتسح كل شىء. كانت جميع شياطين العالم ترقص وتتصايح حولنا.. فى بعض الاحيان يهب ذلك الاعصـار الجليـدى المسعور «بورقا» لثلاثة اسابيع او اربعة دون توقف او انقـطاع.. يغمر كل شىء.. الطرق.. الممرات.. العنابر كان يلزمنا عندها جهد جبار خارق لنقطع تلك الخمسين مترا صوب المطبخ.. كانت الرياح تهددنا دائما.. وتعوقنا.. وتخطف من ايدينا اوانينا الثمينة.. وعندما تهاجمنا فجأة تلك الرياح «بورقا» ونحن فى طريقنا الى مكان العمل يحدث الهرج والضجيج.. احيانا كثيرة جدا تعود بعض المجموعات الصغيرة بدون حراسـة من اى نوع ويحـدث ان يضل بعض السجناء طريقهم فى تلك العاصفة فيردمهم الجليد.. ويعثرون عادة على جثثهم متجمدة على مقربة من المعسكر.. فى اماكن العمل ومواقعه ماكنا نحصل على الدفء ابدا ولاسيما قبل اكتمال الابنية التى يمكن اللجوء اليها.. وفى بعض الاحيان يسمح لنا بايقاد نار كبيرة للتدفئة.

لم تكن تلك هى معاناتنا الوحيدة.. الاعاصير الجليدية والرياح «بورقا» بل كان هناك هم آخر فالشمس فى نورلسك تشرق لاربعة اشهر بلا انقطاع نهار دائم اربعة اشهر.. ومثلها ايضا ليل دائم لاتشرق فيه شمس قط.

وكان تأثير الشمس الدائمة ضارا جدا بأجسام السجناء.. وفى شهور الليل وعندما يسود الاظلام كنا نعمل عملا قليلا بالطبع. ثمة شىء اخر ففى الاحوال الجوية الرديئة عندما تهب الرياح العاصفة وينزل البرد والجليد والرطوبة تظهر أهمية الملابس الثقيلة المدفئة كل الملابس كانت محشوة بالقطن.. وكذلك المعطف والمنطلون وبالطو المطر.. اما الحذاء فهو من النوع المضاد للجليد والصحراء.. «فالينكا» لم نكن نحن السجناء نحصل على ملابس جديـدة قط.. موظف السجن هم الذين يستـولون عليهـا.. امـا بقية البشر فنصيبهم الرث والمهلهل والقديم. واستجلابا للدفء كنا نلف اجسادنا المقرورة بالخرق البالية. منظر الواحد فينا يشبه «الهبمول» فتحتان فى الوجه للعينين وفتحة للانف واخرى للفم.

اقرب الاصدقاء اليك لايستطيع ان يعرفك مهما كان دقيقا، فى المعسكر كانت هناك فرقة من الرجال الضعفاء والمرضى ومنهوكى القوى اسمها فرقة الهنود. جميع افرادها عبارة عن هياكل عظمية بالية.. اناس مصهم الجوع.. وانشفهم البرد، واودى بنضارتهم العمل الشاق.

كانوا موكلين بقضاء الاعمال الاضافية فقط.. يزيحون الاشياء الزائدة عن مواقعها.. ينظفون دائرة المعسكر من الجليد كان من نصيبهم ـ بالطبع ـ اردأ انواع الملابس بعضها

ممزق وبعضها مرقع بالوان شتى.. وبديلا للحذاء الصحراوى تحصلوا على احذية بالية ذات نعـال من قطع اطارات السيارات القديمة.. ماحصلوا عليه في موسم الشتاء اسمه «بوركى» ولذلك بدون انقطاع كانت ارجلهم متورمة واطرافهم حمراء متساقطة وغالبا ما كانت ايديهم وارجلهم تتجمد.. وكانت عمليات بتر الاطراف واردة في قائمة الاحداث اليومية وفي كل عام يغادر نورلسك الى معسكر اخر كثيرون من العاجزين بسبب ذلك.. ادارة السجن كانت تعاملهم وكأنهم حيوانات فقد كان المبدأ هنا.. انهم لايعرفون شيئاً اسمه المرض او الضعف كان على السجين ولكى يعفى من العمل ان يكون مرتفع الحرارة جدا.. وعندما يعودون من العمل الى عنابرهم كان ضعيفهم يتوكأ على من به رمق من قوة.. واين هى هذه القوة.. صورة يومية للبؤس والشقاء.. والضياع... بعض الاطباء امثال شفجوك ومن لف لفهم كانوا اشد قسوة على اولئك البائسين من ادارة السجن المعدومة الرحمة والانسانية.

مــصير المحاربين الاسبان

عند انتصار الجنرال فرانكو هرب جزء كبير من اعضاء الجيش الجمهوري الاسباني الى فرنسا.. اسكنوهم هناك في معسكرات خاصة.. اما المحاربين الاسبان والذين كانت بلادهم تقع تحت سيطرة الفاشية، اعيدوا لاوطانهم.. جزء من الاسبان ذهب الى امريكا الجنوبية.. بعضهم بقي بفرنسا والبقية قضت حياة محزنة في المعسكرات. لم ترد اية دولة ولاحتى الاتحاد السوفيتي ان تفتح اذرعها لتحتوي اولئك الثوار التعساء.. كثيرون كانوا من اعضاء الحزب الشيوعي الاسباني ولكنهم لم يمنحوا حق اللجوء للاتحاد السوفيتي

كانت الحكومة الفرنسية تجأر بالشكوى من تحمل اعبائهم وتحدثت الصحف الوطنية وتساءلت ان كان الاتحاد السوفيتي قد اصيب بالصمم.. واخيرا وافق ستالين على قبول الاطفال الجمهوريين فقط وبدأ خمسة الاف طفل اسباني يتدفقون على الاتحاد السوفيتي بشتى الطرق هيئة المعونة الحمراء العالمية «ام. او. ب. آر» قامت بايوائهم في داخليات الاطفال ولم يقبل المحاربون.. ولكن دولورس اباروري وبعض اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاسباني قوبلوا بحفاوة بالغة وقد صفقوا لستالين عندما وضعه معاون لينين القديم امام الامر الواقع. لقد رجاه مانيلوسكي ان يقبل ايواء عدة الاف من المحاربين الجمهوريين.. وشاء ستالين ان يعرف عنه الكرم فوافق قائلا: آمل الا يسلك الاسبان مسلك الخنازير كما فعل اعضاء الحزب الاشتراكي النمسوي. وتم شراء ملابس للاسبان في باريس على حساب الاتحاد السوفيتي ومن ثم نقلوهم بسفينة سوفيتية من ميناء اوديسا واستقبلوا بحفاوة كبيرة كما استقبل اعضاء الحزب الاشتراكي النمسوي في موسكو وقد تم اسكانهم مؤقتا في احد فنادق العاصمة الروسية.. وبعد ان اخذوا حظهم من الراحة والحفاوة تم ارسالهم الى مدن مختلفة في اوكرانيا وروسيا.. استوعبوا العمال المؤهلين منهم في المصانع .. اما العمال غير المؤهلين فقد ارسلوا للتأهيل.. وبأمر من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي دفعت المصانع مرتباتهم كمرتبات أحسن العمال الروس.. اضافة الى انهم لم يكونوا مطالبين بالوصول الى الحد الادنى للمعدل الاحصائي في العمل.. دام ذلك الحال لمدة ثلاثة اشهر ثم طالبوهم بالمعدل الاحصائي للعمل وقالوا لهم انكم الان كالعمال الروس تماما وعليكم ماعليهم ايضا.. ولكن الاسبان لم يأخذوا ذلك القول مأخذ الجد واستمروا يعملون كالسابق وعند صرف الرواتب في اخر الشهر تبين لهم انها تقل كثيرا عن المبالغ التي اعتادوا ان يقبضونها من قبل وبدأوا يعلنون احتجاجهم.. وحاولوا تهدئة الموقف ولكن الاسبان اصحاب الدماء الحارة والمزاج الناري ثاروا وارتفعت اصواتهم. وحتى تنتهي الفضيحة وآثارها احتوت قيادة النقابات الموقف ودفعت لهم فرق الرواتب من مواردها الخاصة وهكذا ساد الهدوء لمدة شهر اخر..

وبعدها لم يعد احد يحتمل احدا.. العمال المهرة استطاعوا بالكاد الحصول على متطلباتهم الحيوية، اما بقية العمال فعجزوا عن تدبير امورهم. فتركوا العمل وتدفقوا نحو موسكو واخذوا يطوفون على الجزء الخاص باسبانيا في الكومنترن وهناك ساعدوهم بالنقود واعادوهم الى مواقع عملهم وفي مصنع قاطرات السكة الحديدية بهاركوف كان يعمل حوالى اربعين الف من العمال الاسبان.. دخلوا في اضراب مفتوح احتجاجا على ضعف الاجور.. وهنا.. تدخل البوليس السياسي وكان هناك توقيت في كل المدن لبدء عمليات

اعتقال الاسبان.. وفي محكمة ال «او. اس. او» محكمة الثلاثة تمت محاكمة المتهمين غيابيا. التهمة كانت هي الثورة المضادة والحكم كان يتراوح بين ثمانية وعشرة اعوام سجنا وكان نصيب معسكرات الاعتقال في نورلسك مجموعة من الاسبان عددها حوالي المائتين والخمسين. كان ذلك في عام ١٩٤٠ وهكذا جيىء بأطفال الجنوب الدافىء الى اصقاع الشمال المتجمدة ليقضوا فترات العقوبة السوفيتية مرض معظمهم اثناء فترة الترحيل وقد حكى الذين وصلوا بسلام ان عددهم عندما تحركوا من موسكو كان ثلاثمائة رجلا وفي نورلسك لزم اسرة المستشفى جزء كبير منهم واعلن الاطباء ان البقية منهم غير صالحة للعمل ومن مجموع المائتين وخمسين اسبانيا الذين جاءوا الى نورلسك قبرت براري الجليد مائة وخمسون وفي عام ١٩٤١ ارسلت البقية الى كارقاند.

معسكر العقوبات في كولارقون

في نورلسك كانت هناك اقسام عديدة للعقوبات الذين يخالفون النظام العام او يرتكبون احدى الجرائم كانوا يستوعبون في تلك الاقسام لمدد تتراوح بين الشهر والستة اشهر وبعض الذين يدخلون هناك في قسم العقوبات لم يكن يعودون مرة اخرى قط. تقع كولارقون في اطراف نورلسك وهي ابشع واسوأ اقسام العقوبات.. الذي يصل هناك يفقد كل امل له في الحياة.. في كولارقون كان يسود نظامان.. نظام المعسكر ونظام السجن . مدير القسم يقوم بتصنيف السجناء بناء على نوع العقوبة الموصى بها. الجميع يذهبون الى مواقع العمل بدون استثناء.

كان التفريق بين السجناء يتم بعد انتهاء العمل.. فهناك من تقفل عليهم الزنزانات.. وهناك من كان يسمح لهم بحرية التجول في المعسكر لساعات محددة.. واغلب نزلاء كولارقون هم الذين يتمردون ويرفضون العمل.. ومن بين هؤلاء كان يوجد عدد كبير من المجرمين فالعمل عند «المجرم الحقيقي» عار مشين . وقد نفذوا مبدأهم ذاك تنفيذا حرفيا. وادارة السجن كانت هناك وكانت تنظر اليهم من خلال اصابعها اما السجين فالويل له كل الويل اذا رفض الذهاب للعمل لاى سبب من الاسباب

ومن بين السجناء السياسيين الذين يرفضون العمل كان هناك اصحاب الاتجاهات الدينية وطوائفهم كثيرة ومتعددة ولكن الكثيرين منهم ما كانوا يرفضون العمل على الرغم من ان ذلك كان في وسعهم وبامكانهم ان يقولوا «لن نعمل لعدو المسيح ستالين» ولم يكن يردع المتمردين على العمل مايلقون من عقوبات عادية كالحبس الانفرادى «كارسر» او عقوبة الوجبة. لذلك كانوا يرسلونهم الى كولارقون وهناك تستحيل الحياة والعمل بين عتاة المجرمين.

كان السجناء في العادة يتهربون من العمل الشاق بمختلف الحيل والوسائل كانوا يلجأون الى الاختفاء بعضهم يرفع الالواح الخشبية في ارضية العنبر ويندس تحتها والاخرون يمكثون وقتا اطول في دورات المياه او يلجأون الى حجرة الموتى وكانت ادارة السجن التي دست انفها في كل شيء تلاحقهم حتى وسط الجثث. وكان هناك الذين يعلنون بالمفتوح انهم لن يستطيعوا الذهاب الى العمل.. بسبب المرض او نقص الملابس الثقيلة والاحذية وفي مثل هذه الاحوال يخبر رئيس الوحدة رئيس قسم العمل او احدا من مساعديه الكثيرين. ويسرع المساعد بإحضار البوليس المسلح بالعصى الغليظة فيأتون للعنبر ويخاطبون السجين طالبين منه الاسراع بالانخراط في صف الخارجين للعمل واذا اصر على التمرد والرفض اشبعوه ضربا مبرحا ثم يؤخذ الى الحبس الانفرادى «كارسر» وهناك يواصلون ضربه وكان السجناء يحتالون باخفاء جميع ملابسهم والبقاء في اسرتهم عرايا وكان يسقط في يد البوليس فهو لايستطيع ان يطاردهم عراة في تلك البرودة القاسية. وقد وجدوا حلا لذلك احتفظ بوليس المعسكر ببعض الملابس الاحتياطية ولكن الغالبية كانت ترفض ارتداء الملابس الاحتياطية. فكانوا يجرونهم بالقوة من اسرتهم الى الخارج ويرمون بهم عربات الكارو التي يجرها الحصان ثم يغطونهم بالفرو ويربطونهم بالحبال وهكذا يوصلونهم الى مواقع العمل وعندها كانوا يضطرون الى ارتداء الملابس بعضهم لم يكن يستطيع العمل خصوصا بعد تلك المعركة كانت اطرافهم تتجمد وقد حصلت ادارة السجن على ماتريد رغم ذلك اذ بدأت اعداد المتمردين تتناقص يوما بعد يوم واذا تكرر رفض

سجين للعمل رموا به الى كولارقون فى كولارقون يعملون بتكسير الحجارة.. وبعضهم كان يؤدى اعمال القرويين ايضا. وعلى كل حال فلم يكن العمل اصعب من عمل المعسكر ولكن الظروف هى التى تتغير كانت ظروفا قاسية للحد البعيد.

استبداد وطغيان وظلم وعنجهية لايمكن لاحد ان يحتملها فترة طويلة مهما كانت درجة تحمله وقوة اعصابه فى المعسكر كان يجب ان يسود النظام، وبدقة شديدة، فالجوعى والمنهكون والمرضى لابد ان يستعدوا قواهم وتتحرك جموعهم فى الصباح الى مواقع العمل وذلك بالطبع حتى تنفذ الخطة فى مواعيدها اما فى كولارقون فقد كان الامر مختلفا جدا ولما كان ذلك الاعتبار واردا كانت الادارة تفعل ماتريد دون اى تحسب للعواقب. المواد التموينية تتعرض للسرقة دائما ويتحصل عليها اولئم الذين لايستحقونها قط.. من الذين لايعملون بين المجـرمين سادت حرب طويلة. كانت هناك مجموعة تسمى «الامناء» واخرى تسمى «العاهرات» الامناء لهم مبدأ ثابت هو انه لا حل وسط مع ادارة السجن قط وكان ذلك يعنى ان لايعملوا وان لايتم تعيينهم فى وظائف بوليس المعسكر.. يعيشون دائما حياة طفيلية وكانوا يتحينون الفرص للهروب من المعسكر حتى يتسنى لهم العودة الى السرقة والنهب والقتل. ورغم ان الهروب من نورلسك كان مستحيلا الا ان بعضهم استطاع ان يفعله فهرب وسرق ونهب وقبض عليه واعيد مرة اخرى وذلك امر سيان لديه.

العاهرات هذه الفرقة هى التى كانت متواطئة مع ادارة السجن تعمل معها كمخلب القط وكبوليس وكمخبرين وكموظفين علاقة افرادها طيبة مع ادارة السجن كانت الحرب بين اولئك الجرمين تأخذ احيانا طابعا عنيفا القتل.. الاذى الجسيم.. الضرب المبرح.. الخ ظواهر يومية تعكس الحال المتردى فى هذا المعسكر فى اماكن العمل كانت الحروب الحقيقية تنشب ويستعر اوارها ويتقد. ادوات العمل الرهيبة كانت هى الاسلحة التى تستخدم فى تلك الحروب واحيانا لولا تدخل الحرس لقضى المجرمون على بعضهم البعض، الانسان السوى كان مستحيلا عليه العيش فى كولارقون بل ا ن المجرمين انفسهم ما كانوا يشعرون هناك بالراحة والامان.. الخروج من هناك غير ممكن على الاطلاق.. الكثيرون كانوا يعمدون الى تسبيب الاذى الجسيم لانفسهم كانون يقطعون اطرافهم مثلا ويمزقون اوصالهم.. ولم تكن لدى الكثيرين بالطبع الشجاعة الكافية لان يفعلوا ذلك بأنفسهم.. فكانوا يتبادلون احداث الاذى لبعضهم البعض.

يتحلقـون حول شجـرة ويقف احـدهم بجوارها وفى يده ساطور حاد.. ثم يأتون الواحد تلو الاخر يضعون اصابعهم على جذع الشجرة فيبتر لهم حامل الساطور اصبعين او ثلاثـة وبذلك يصبحون من المعوقين وتوكل لهم الاعمال الخفيفة الهينة فقط وعندما اصبحت تلك العمليـة ظاهرة خطيرة اصدرت ادارة السجن امرا مفاده ان كل من تقطع اصابعه يبقى تحت رعاية طبيب المعسكر ولايرسل للمستشفى ابدا وبحث المجرمون عن طرق اخرى تبعدهم من كولارقون ارتكبوا جرائم جديدة ثقيلة ارسلوا بسببها للسجون العمومية ويتم ذلك بالطبع اذا قتل مسجون مسجونا اخر يحدث ان يجلس احدهم قرب النار التماسا للدفء فيأتى الاخر ويهشم رأسه هكذا وبكل بساطة.

وفى عام ١٩٣٩ / ١٩٤٠ قتل بنفس الطريقة اربعمائة شخص واستمر التحقيق لمدة اربعـة اشهـر وفى خلال تلك المـدة كان المجرم يرقد على سريره فى السجن ينعم بالراحة والهـدوء وعنـدما اخذ هذا التهرب عن العمل يتخذ ملامح الظاهرة الخطيرة امر رئيس البـوليس السياسى ان لايتم التحقيق فى السجون العمومية بل يجب ان يكون فى موقع الجريمة والعمل.

مثيرو الشغب

البوليس السياسى لم يقتنع بحبس الابرياء، والزج بهم فى الزنزانات، وارسالهم الى معسكرات العمل التى انتشرت فى اقاصى الشمال ولكنه ذهب الى أبعد من ذلك.

استغل السجناء ليتجسسوا له بلا انقطاع.

بين السجناء اندست مجموعات مختلفة من الرجال .. كانت مهمتهم الدائمة هى المراقبة المتصلة، واستراق السمع لما يقال.

وبالطبع لم يكن من الصعب ان يخرج الرجل البرىء والمحكوم عليه ظلما ما فى صدره من غل وحقد على شكل كلمات ساخطة ضد العهد أو سخرية من أل ن ك ق د البوليس السياسى.

وكان هذا الجهاز يراقب بنوع خاص اولئك الذين يحسبهم (خطرين) فقام بخلق شبكة كبيرة من مثيرى الشغب كجواسيس ووشاة، ووعدهم بالاعمال الخفيفة الهينة وباطلاق سراحهم ايضا فى ذات يوم جاءنى احدهم.

كان اسمه روجا نكوفسك .. سألنى من أين أنا ..؟ ولما اجبته بانى من فينا، خيل الى انه سر بذلك جدا.

حدثنى بانه درس فى فينا وسعد بفتياتها غاية السعادة .. واثلج صدرى ان وجدت (مواطنا) لى فتحدثنا فى كل شىء .. وابدى روجانكوفسك اهتماما خاصا بما أؤدى من عمل، وهل اجد فيه صعوبة، وهل لدى طعام كاف .. وحدثته بصراحة مجيبا عن كل ما سأل.

فوعدنى بان يتحدث مع بعض اصدقائه فى المطبخ لكى يعطونى شيئا للاكل.. وقال ايضا انه سيحاول ايجاد وظيفة لى هناك .. وشكرته جدا على شهامته تلك .. وبعد مرور فترة من الزمن جاءنى واخبرنى انه قد تحدث مع رئيس المطبخ الذى ابدى استعداده لمساعدتى ..

وذهبت بناء على توصيته وقابلت رئيس المطبخ الذى سألنى ان كنت قد عملت من قبل فى مثل ذلك المطبخ، فنفيت له هذا وقلت له ليست لدى فكرة عن الطبخ وما اليه ..

ـ حسنا .. سأرى ما يمكننى ان افعل من اجلك.

كان اسمه لارنوف ..

سألنى عن ماضى حياتى واظهر اهتماما ما بذلك اخبرته باقتضاب.

ـ انا من النمسا .. ومن مسؤولى الحزب الشيوعى هناك، عملت لسنوات طويلة فى الحزب الشيوعي اليوغسلافى وعشت بعض الوقت فى فرنسا وكان عام ١٩٣٢ هو عام حضورى الى موسكو ..

كان يستمع الى باصغاء منتبه، وحتى يحثنى اكثر على الكلام امر الطاهى ان يعد لى أكلة جيدة .. وبعد دقائق حصلت على قطعة من اللحم فى اناء من الالمونيوم وكذلك على قطعة من الزلابية وقطعة خبز كبيرة.

ـ شتاينر من الافضل ان تأكل اولا .. وبعدها نتحدث .. وطابت نفسى للاكل جدا .. وكانت الغرفة دافئة .. حتى ان عرقي تصبب .. وعندما انتهيت سألنى ان كنت اريد شيئا فشكرته وأسرع يلف لى ما تبقى من قطعة الخبز فى ورقة اتبعها بقطعة كبيرة من السكر وابتسم وناولنى كل ذلك

ـ شتاينر، قل لى .. عندما كنت تتجول فى مدن اوربا .. هل كنت تفكر بان الاشتراكية ستاخذ هذا الشكل ..؟

ـ لا ..

ويبدو انه لم يقتنع بذلك الرد المقتضب .. فتابعنا الحديث قلت له ..
ــ ان ملايين الناس .. وحتى يومنا هذا يؤمنون بالاشتراكية وبالطبع لديهم وجهات نظر مختلفة في الامر .. انهم يؤمنون كما كنت انا اؤمن بان روسيا تبنى الاشتراكية والعالم الجديد .. وهذا ليس لاسعاد الشعب الروسى فقط ولكن للعالم اجمع.
ــ والان ..؟
ــ الان نتج من ذلك حكم العنف والرعب .. ملايين الابرياء في معسكرات العمل الاجبارية وفي غياهب السجون، كلمة واحدة .. ذلك كله غش وتضليل.
واستمع الى لارنوف بانشراح ورجانى قائلا:
ــ عليك ان تحضر كلما شعرت بالجوع .. رجال مثلك ينبغى ان لا يجوعوا.
ــ سأفعل ..
ــ وانا سوف اتحدث مع رئيس القسم في المعسكر بشأن توظيفك بالمطبخ.

تعرفت على أخت هنرك ياقودا

فى نفس اليوم جاءنى رجل من عمال المطبخ واخبرنى ان لارنوف يستدعينى .. وذهبت اليه .. كانت علامات الرضا مرتسمة على وجهه .. واخبرنى بانه اقنع الرئيس «لهمان» لكى يوظفنى فى المطبخ وبمجرد ان يتم ذلك سيجد لى عملا هينا سهلا.

فى المطبخ كان هناك طاحونة لطحن الشوفان .. وقد قام السجناء بتصميمها منذ فترة .. وقادنى لارنوف الى حجرة صغيرة وارانى الطاحونة واوضح لى كيفية تشغيلها .. وبعد نصف ساعة فقط بدات اطحن بنفسى .. وكنت فى غاية السعادة .. العمل كان سهلا جدا .. وكانت الغرفة دافئة .. والاكل جيدا وكان معنى ذلك ـ ايضا ـ اننى تحولت للعمل هنا وعملت فى الطاحونة ليلا ونهارا.

وكانت تناوبنى العمل تاييس قلقوريفنا ياقودا، اخت رئيس البوليس السياسى السابق.

كان اخوها هنرك ياقودا يمتهن العطارة من البدء. ثم عمل ولمدة ستة عشر عاما فى ادارة القسم السياسى للدولة (جى . ب . يو) وفى عام ١٩٣٣ منحه ستالين وسام لينين .. وفى عام ١٩٣٥ عينه رئيسا لادارة امن الدولة.

ثم اتهمه فى عام ١٩٣٨ بالعمالة لصالح دولة اجنبية واعدمه رميا بالرصاص.

تاييس ياقودا كانت فى الثانية والثلاثين من عمرها .. طويلة القامة رشيقة القوام .. سوداء الشعر .. مع بعض شعيرات بيضاء .. ألقى عليها القبض لانها كانت اخت ياقودا .. وحوكمت بعشر سنوات سجنا فى معسكر العمل الاجبارى.

لاقتها مضايقات كثيرة جدا، فقد كانت اخت الرئيس المرعب لل ن ك ق د الموظفون .. الحرس .. المجرمون .. كلهم وبلا استثناء عاندوها وعاكسوها وضايقوها كلما وجدوا فرصة لذلك .. وكانت سعيدة لزمالتها لى .. فحتى وقت قريب كان زميلها المناوب فى العمل مجرما خطيرا تفنن فى تعذيبها.

كنت اقسم معها الاكل .. وكان كثيرا يكفينا نحن الاثنين .. وعندما لاحظ الطباخون ذلك اخبرونى انهم لن يعطونى شيئا بعد ذلك ابدا .. حاولت اقناعهم بان هذه المرأة مسكينة ولا يد لها فيما كان يفعله اخوها وانها ليست مخطئة ولكن هذا لم يساعد بشىء وبدأوا يكرهوننى .

فى البداية كانت تاييس متحفظة قليلة الكلمات وعندما اطمأنت الى بدأت تحدثنى بالتفصيل عن حياتها وحياة اخيها.

فى احد ايام الاحد جلسنا فى حجرة لتنظيف السمك واعداده وكنا بمفردنا فحدثتنى تاييس عن اعزازها لى .. وبانها ومنذ وقت طويل كانت تحن لمثل هذه الصداقة .. ووضعت راسها فوق صدرى ..

وعلى الرغم من انه مضى على وقت طويل يحسب بالاعوام لم ار فيه امراة قريبة منى كهذه المراة .. وبالرغم من اننى اعيش حياة خيرا من سابقها وصحتى العامة جيدة .. وبالرغم من كل ذلك فلم احس بما يمكن ان يحس به الرجل تجاه المراة .. لم تثر فى اى رغبات .. وعجبت لذلك وفى داخلى لم اتمكن من معرفة الاسباب .. وبهدوء انسحبت من ذلك الوضع الحميم.

فى ذلك اليوم كانت على نوبة المساء .. وبقيت تاييس معى حتى الحادية عشرة ليلا .. وكان لدى دقيق احتياطى كثير فلم اعمل وانما جلست مرتاحا اثرثر معها لمدة ثلاثة ساعات كاملة .. تحدثنا عنها وعن اخيها سألتها عن حقيقة اعدامه بالرصاص رغما عن انه كان احد المقربين من ستالين.

فى البداية لم تكن تريد التحدث عنه .. ولكنها بعد حين تحدثت عنه كثيرا جدا كانسان جيد للغاية .. قالت ..

ــ لو كان شريرا لكان اليوم فى اعلى المناصب وأرفعها .. كان عليه ان يموت.طالبه ستالين باعمال وحشية كثيرة لم يستطع القيام بها او تنفيذها .. كان فى صراع دائم مع ضميرة ..عاش فى ازمات نفسية مؤلمة .. وعندما قتل ستالين زوجته «اليليوف» طلب من اخى ان يجد طبيبا موثوقا به لكى يعطى شهادة طبية تثبت انها انتحرت .. وهكذا بدأت بينهما حرب دراماتيكية محزنة.

واستدعى اخى طبيب القلب المشهور دكتور «لفين» واوضح له الموقف وماذا يطلب ستالين .. واظهر دكتور (لفين) تقززة واستنكاره .. ولكن اخى اوضح له انه لن يخرج من مبنى الـ ن ك ق د اذا لم يفعل ما طلب منه .. ورفض دكتور (لفين) ذلك باصرار عنيد .. وبعدها بايام اعلنت الصحف ان دكتور (لفين) قبض عليه لارتكابه جريمة شنعاء .. وانه عن وعى وادراك .. اعطى تشخيصات خاطئة .. وانه عن قصد مجرم كان يعالج كبار قادة الحزب علاجا خاطئا فتسبب فى موتهم وانه غدر بفتيات قاصرات ايضا .. الخ .. ألخ فحققوا معه.

وعـذبوه واهانوه .. لاسابيع عديدة .. وليلا ونهارا .. ثم القوا القبض على عائلته .. واخيرا رضخ .. ووقع على الشهادة المطلوبة .. وهى ان زوجة ستالين انتحرت.

وكان دكتور (لفين) شخصية لها نفوذ كبير فى الاوساط الطبية فى موسكو .. وكثر القول حول موت زوجة ستالين وحول انتحارها .. وانتشر الهمس .. وفاض واربى ولكن مكانة ونفوذ دكتور (لفين) اخرصا الهمس .. ثم اطلق سراحه ..

ونشرت الصحف لقطات توضح ان التهم التى لفقت له .. كانت تهما باطلة وانه تبعا لذلك سيعاقب كل من قام بتلفيقها .. فقد اساءوا للدكتور السوفيتى الامين .. وبعد قليل القى عليه القبض من جديد.. ومات فى السجن .. كل ذلك اثر على اخى تاثيرا شديدا .. وكان مترددا ماذا يفعل ..؟

وعنـدما امره ستالين بقتل الكاتب مكسيم جوركى ذهل ولم يعرف كيف يتصرف كان جوركى فى البدء يبرر جرائم ستالين ويدافع عنه بحرارة .. ثم بدا له ان من حقه ان ينقد ستالين وان يعطيه بعض الدروس .. ولكن ستالين تحمل ذلك بصبر نافذ ...

وعندما فات جوركى حده ولم يعد ستالين يتحمل ذلك قرر ان يصفيه جسديا .. وكان على اخى ان ينفذ ذلك شاء ام ابى ..

ــ فاخذ يكثر من التردد على منزل جوركى .. وكان صديقا جيدا لزوجة ابن جوركى .. والان كان عليه ان يقتل الرجل الذى صادقه ذلك كان أكثر من طاقة اخى ..

وذات يوم ساله ستالين متى (سيتعفن) جوركى ..؟

واشمأز اخى .. ذهب الى منزله وقرر ان يقوم بترحيل اقرب الاقربين له الى الخارج ... وللاسف وقع فى الخطأ القاتل .. اسر لصديقه بسيدوفيسك الذى كان يقود القسم الخارجى ل ن ك ق د بما انتوى.

ووعده بسيدوفيسك بالمساعدة .. ثم وشى به لستالين والقى القبض فى الحال على اخى واضيف الى مجموعة البولشفيك الذين قام هو شخصيا بالقبض عليهم .. بهارين .. ريكوف .. بياتاكوف وغيرهم .

وحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص.

وكانت التهمة التى وجهت له .. هى تهمة الثورة المضادة والعمالة اللامبريالية .. وبذلك انهت تاييس حديثها.

ولم اعمل بعدها طويلا فى المطبخ والسبب الذى من اجله طردت .. عرفته مؤخرا.

بعـد تحالـف هتـلر ـ ستـالين

في نهاية عام ١٩٣٩ تحالف هتلر وستالين تحالفا على تقسيم العالم بينهما كان صدى ذلك الحلف في واقعنـا نحن النمسويين والالمان بالمعسكر، صدى مباشرا .. جمعونا مع بعض وفي القسم الثاني من المعسكر وفي العنبر ن ـ تجمع كل الالمان والنمسويين .. قاموا بتجميعنـا دون ان يوضحوا لنا الاسباب فكر الرجال ان ذلك يعني الموت الجماعي لنا بالرصاص. كان معروفا ان العلاقة بين هتلر وستالين متوترة .. ولم يكن احد يعلم انهما وقعا حلفا من اى نوع .. وكان موقف الكثيرين سلبيا .. قليلون اصابهم الفزع ولكن الجو تغير فجأة.

في ذلك اليوم وقفت امام العنابر عربة شحن مملوءة بحزم الملابس وامرونا ان نفرغ حمولتها .

ثم حضر الضابط ونادى على الافراد واحدا واحدا .. وامرونا بخلع ملابسنا القديمة الممزقة .. وارتداء الملابس الداخلية الجديدة والبدل والبالطوات الجديدة ايضا .. وكانت هنـالك جزم الجليـد الجيـدة ثم اعطى كل منا حقيبة صغيرة تحمل على الظهر بها لحم الخنزير المدهن والخبز والسكر.

وسألنا ماذا يعني ذلك ..؟

ـ حاولنا ان نعرف شيئا من ضباط ال ن ك ڤ د الذين ابدوا ازاءنا ظرفا غريبا وشاذا لم نعهده منهم ولا يتفق وطباعهم .. ولكنهم تهربوا من الاجابة علينا .. ثم جاءنا رئيس الـ ن ك ڤ د في نورلسك واخبرنا باننا سنسافر الى موسكو.

وقـد تأجـل ذلك السفر الى موسكو .. هبت فجأة عواصف جليدية ذات رياح عنيفة للغاية، فتعذر على الطائرات الهبوط .. طائرة واحدة استطاعت الهبوط .. حملت ثمانية عشر من الالمان .. وطارت ولكن بعد ساعتين عادت، فمن الاحسن الانتظار حتى تهدأ الاحوال الجوية .. في ذلك الوقت لم يكن من الممكن استعمال اى نوع اخر من المواصلات سوى الطائرات.

وفي انتـظار تحسن الاحـوال الجوية وبدافع الفضول واللهفة، قمنا بفتح الحقائب الصغـيرة التي علقوها على ظهورنا، وفوجئنا لم نصدق اعيننا .. واصيب الكثيرون منا باسهال حاد .. معداتنا لم تكن مستعدة بعد لتقبل هذا النوع من الطعام الجيد .. وقاموا بملء الحقائب مرة اخرى .. كانت ايديهم مبسوطة للاخر .. وجلسنا في مجموعات نتحدث عن آخر التطورات .. وبدأنا نعيد ونبدىء ..

ـ ماذا يعدون لنا ..؟

ـ لماذا هم محتاجون لنا ..؟

الصديق روجانكوفسك كان دائما معنا ..

اهتم بكل شيء .. واستمع بانتباه وبلا تعب لكل تعليق وسؤال.

وضح للمسافرين كيفية التصرف عند الوصول الى المانيا وهدأ الجو .. وسكنت الاحوال الطقسيـة الثـائـرة .. جمعوا ثمانية عشر المانيا وطاروا بهم .. وفي اليوم التالي كان من المفروض ان تطير مجموعة جديدة حدد عددها باربعين سجينا ..

ولكن الاحوال الجوية تدهورت وساء الطقس مرة اخرى .. وكان علينا ان نصبر وننتظر .. ومرت عشرة ايام اخرى .. فارجعونا للمعسكر والعنابر ولم يوضح لنا احد ما لماذا لم نسافر .. لم نسمع كلمة واحدة فى هذا الخصوص .. ولكن فيما بعد وبالتحديد فى صيف عام ١٩٤١ قابلت فى نورلسك مجموعة من السجناء الجدد وكان معهم احد الثمانية عشر الذين طاروا بهم الى موسكو .. كان اسمه اوتو رابى .. وقد حدثنى قائلا..

ـ اخذونا من نورلسك الى كرسنويارسك .. هناك وجدنا مجموعة من ١٨٠ المانيا كانوا فى المعسكرات المختلفة .. طاروا بنا الى موسكو وعاملونا بطريقة انسانية .. كل شىء كان على ما يرام .. فى محطات المرور جلسنا الى موائد نظيفة واكلنا جيدا .. طلبنا عصير العنب المعتق.

وفى موسكو نقلونا الى سجن بوتيرك .. ادخلونا الى قسم مخصوص زنزاناته تقفل بالليل فقط .. وخلال النهار كفلت لنا حرية الحركة .. اكلنا بكثرة .. كل واحد منا كان له سريره الخاص به ملاءة بيضاء ومرتبة مريحة ومخدة من الريش.

وفى ورشة السجن اعدوا لنا ملابس اخرى بالمقاييس الدقيقة لكل منا .. كانوا يعدوننا للسفر الى المانيا .. ولم نكن نعلم شيئا معينا من ادارة السجن وبدأنا نقلق .. نحن شيوعيون هاجرنا من المانيا عندما اتى هتلر للسلطة، ولذلك فان تسليمنا للحزب الوطنى الاشتراكى الالمانى يعنى دفعنا الى موت محقق .. كنا فزعين بدون شك.

كان الكثيرون ورغم السجن والتعذيب والاهانة، صلبين صامدين متمسكين بعقيدتهم الشيوعية .. وكانوا يفترضون انه من الواجب استشارتنا وتخييرنا بين البقاء فى المعتقلات والعودة الى المانيا .. ذات يوم دعانا احد كبار ضباط البوليس السياسى ن ك ڤ د دعانا واحدا واحدا الى مكتبه ونقل الينا ان مجلس السوفيت الاعلى انعم علينا بالعفو واستبدل السجن بالنفى من الاتحاد السوفيتى وكان كل واحد منا ان يوقع بالعلم. بعضهم رفض ان يوقع .. وحاول توضيح الامر للبوليس .. قائلين..

ـ نحن شيوعيون ولن نرجع لالمانيا الفاشية.

ـ ونحن كذلك لا يهمنا ماذا تريدون .. وماذا لا تريدون .. عليكم ان تسافروا فقط.

والبعض الاخر اعلن ترحيبه بالعودة الى المانيا وقام باداء الاغانى الفاشية .. ووجه السباب لكل من يشك فى نوايا النازية ...!

الترحيل كان اسبوعيا الى المانيا .. وفجاة توقف ... وفى الافطار لم نحصل على الخبز الابيض والزبد والكاكاو .. اعطونا افطارا عاديا .. ماء ساخنا ـ كبياتوك ـ قطعة خبز اسود وبعدها اعادونا الى معسكرات العمل .. وهكذا كانت رحلتنا .. لم يوضح لنا احد شيئا وانهى اوتو رابى حديثه معيدا .. هكذا كانت رحلتنا .

فترة المعسكر فى الحرب الروسية الفنلندية

حمل عام ١٩٤٠ مفاجأة كبرى .. هاجمت الجيوش السوفيتية فنلندا .. وفى جزر سلوفيتسك رأينا اول ضحايا تلك الحرب .. نقل الى نورلسك ستة آلاف جندى سوفيتى من الذين وقعوا فى اسر الجيوش الفنلندية .. وقد اطلق سراحهم عندما عقدت معاهدة السلم بين الدولتين المتحاربتين.

وجد الجنود السوفيت انفسهم بين عشية وضحاها فى معسكرات العمل الاجبارية .. لم يكن يخطر ببال احدهم قط انهم سيحاكمون بالسجن، مددا تتراوح بين الخمس والعشر سنوات .. كانت التهمة انهم وقعوا اسرى فى ايدى الفنلنديين .. لقد ظنوا ـ بحسن نية ـ ان وجودهم هنا سيكون مؤقتا .. وفى اول الامر ذهبوا للعمل بدون حراسة .. ولم يكونوا مقسمين الى مجموعات .. وانما ظلوا فصائل وبلتونات كالحال معهم فى الجيش ولقد فشلنا فى التحدث اليهم .. لم يكونوا يريدون التحدث معنا ابدا ظنا منهم اننا ثورة مضادة.

ومرت اسابيع عديدة .. وفى ذات يوم جمعوهم امام المطبخ .. كانوا على يقين قاطع بانهم سيعودون الى منازلهم .. وبدت عليهم سعادة كبيرة .. ووقف امامهم ضابط أل ن ك ڤ د .. ووضعت بين يديه طاولة صغيرة القى فوقها حزمة من الاوراق .. كانت تحت ابطه .. وصاح ..

ــ انتباه .. الذين سنقرأ أسماؤهم عليهم ان يخطوا للامام .. ثم يذكروا لنا اسماؤهم واسماء العائلة.

وبدأ الجنود يخرجون مع سماع النداء واحدا واحدا .. يتم توزيعهم يمينا ويسارا والى منتصف الساحة ايضا ثلاث مجموعات .. بعد ذلك ذهب الضابط الى المجموعة الاولى وقرأ عليم .. .«بما انكم لم تقفوا امام العدو بصمود وشرف وتضحية حكم على كل منكم خمس سنوات سجنا».

وذهب للمجموعة الثانية وقرأ عليهم القرار وكان بالسجن ثمان سنوات .. اما المجموعة الثالثة فكان القرار هو السجن لمدة عشر سنوات .. لكل منهم .. وكل الاحكام كانت بالاشغال الشاقة فى معسكرات العمل الاجبارية .. واندهش الجنود .. كانت اغلبيتهم من الجرحى وبعض الجراح جسيم فادح .. والبعض خفيف .. وكان منهم ايضا اولئك الذى اخلوهم من المستشفيات الى بلادهم .. وبدأوا يعضون اصابع الندم .. لانهم لم يبقوا فى فنلندا.

***

فى ذلك الشتاء من عام ١٩٤٠ هبت عواصف جليدية قوية عنيفة دفنت قضبان الخطوط الحديدة ولم تترك منها اثرا فى كل من دودنكا ونورلسك .. واسقط فى ايدى الجميع .. كيف تصل تعيينات الطعام ..؟

قام آلاف السجناء بمجهودات مضنية شاقة لتنظيف خطوط السكة الحديدة عملوا ليلا ونهارا ..وكان ذلك بلا جدوى .. عبثا لا طائل من ورائه .. تلال الجليد التى كانوا ينظفونها بعد جهود خارقة، كانت العواصف تعيدها الى اماكنها وفوقها المزيد من الجليد.

استعنا بثلاث كاسحات للجليد .. ولكنها هى الاخرى تجمدت وردمها الجليد .. اربعة اشهر طويلة انقطعت فيها المواصلات تماما بين دودنكا ونورلسك .. كنا نسكن فى خيام على

طول خط السكة الحديد.
عانينا من البرد اهوالا دونها اهوال القرون.
الخيام عبارة عن ثلاجات رهيبة .. الكنبات التى ننام عليها غير محتملة على الاطلاق .. فى وسط الخيمة كانت هناك المدفأة .. يجلس حولها الاقوياء فقط .. وتدور المعارك الضارية على مكان لقدم حولها .. كان المجرمون هم سادة الموقف .. ينتزعون اللقمة من افواه السجناء السياسيين، ولا يجدون من يعترض .. او يقف امامهم.
فالحرس منهم .. وادارة السجن تتواطأ معهم باستمرار .. كنا نعانى منهم كثيرا .. ولكن لمن نشكو .. ولمن نتظلم ..؟
المواد التموينية بدأت تتناقص .. وتوشك على النفاد .. تبقى فقط الدقيق الابيض .. ولكنه لم يكن معدا للسجناء وحتى لا تقع المجاعة قامت ادارة السجن مضطرة ومرغمة على اصدار امرها بصنع الخبز من الدقيق الابيض .. وان تصنع ايضا منه الزلابية ولاسابيع عديدة كنا نأكل فقط الزلابية.
كان الذين ينظفون خطوط السكة الحديد يقعون فى مصيدة الموت تحت عجلات القطارات عندما يدهمهم الجليد فجأة ويلقى بهم على الخطوط مثلجين، ساكنين، بدون حراك. وفى ليلة من الليالى وعلى بعد مائة متر امام محطة نورلسك رقم ٢ كانت الفرقة النسائية تنظف الجليد ومر قطار كان عدد النساء خمسين امرأة .. دهس القطار منهن ستة واربعين .. كن فى لحظات قليلة بين قتيلة وجريحة واخيرا حل ربيع عام ١٩٤١.
الاعاصير الجليدية توقفت .. خطوط السكة الحديد نظفت وعدت مع بقية السجناء الى نورلسك .. وسررت برؤية اصدقائى القدامى ..
قبل بداية الحرب الروسية الالمانية وصلت الى نورلسك فرقة عسكرية من ضباط بلاد البلطيق «لتوانيه، استونيه، لاتفيه» كان عددهم ألفين وستمائة ضابطا .. وعومل اولئك الضباط كما عومل الاسرى الروس .. لم يذهبوا للعمل .. حصلوا على طعام جيد .. لبسوا بزاتهم العسكرية .. موظفو المعسكر كانوا ينادونهم ـ يا رفيق ـ يا رفيق.
لم يكن يخطر على بال اولئك الضباط ما ينتظرهم .. وقد ضربوا حول أنفسهم سياجا من العزلة عن بقية السجناء ولم نستطع التحدث اليهم علمنا فقط انهم استدعوا فى بداية عام ١٩٤١ الى مكان قريب من مدينة جوركى على نهر الفولجا .. تحت شعار التثقيف العسكرى ومن ثم ارسلوهم الى نورلسك.

الحرب الالمانية الروسية
الحياة في المجهول
في غياهب زنزانات أل ن ك ڤ د في نورلسك

في يوم الاحد الثاني والعشرين من شهري يونيو عام ١٩٤١ ذهبت الى الحمام .. صديقى فاسيلى جبراكوف كان يعرف المسؤول عن الحمام، ولذلك فانه كان يسمح لنا في بعض الاحيان بان نمكث وقتا طويلا هناك.

بعد الحمام كنت اذهب مع فاسيلى الى عنبره .. كان فاسيلى جبراكوف مهندسا ممتازا وكانت ادارة السجن تقدر له ذلك .. فكان بناء على هذا يحظى ببعض المحسوبية - ان جاز القول - كان عنبره نظيفا ولديه مرتبة محشوة بالقش، وغطاء، ومخده .. كما ان هناك مكبرا للصوت تم توصيله بقسم التثقيف في المعسكر .. فكنا نستمع من خلاله الى اغاني الاسطوانات .. وفي بعض الاحيان كانت تاتينا محطة الاذاعة.

وكانت هذه المرة هي احدى تلك الصدف الجميلة اذ كانت الاذاعة تبث برامجها. وعند دخولنا العنبر توقف الارسال فجأة، واعلن المذيع عن حديث لمولوتوف .. وسمعنا كيف تكلم مولوتوف عن هجوم النازية الخسيس وما ان تكلم مولوتوف عدة كلمات، حتى انقطع البث فجأة.

كان بالعنبر حوالى مائة رجل صمتوا جميعهم ، واخذوا ينظرون الى بعضهم البعض مبهوتين من المفاجأة .. كان صمتا غير مريح بدده جار فاسيلى الذى قال واسنانه تصطك الان انتهت حياتنا ولم يعقب احد .. كان الخبر اكبر من كل كلام.

وبعد مدة طويلة دبت الحياة في العنبر واحضر فاسيلى ماء ساخنا وبعض الخبز الابيض .. فشربنا الشاى ولم يمس احد الخبز وهمس فاسيلى قائلا:-

ـ كارلو، ماهو رايك؟ وما هم فاعلون بنا ..؟

ـ بالنسبة لى فالامر سيان .. وخير لنا ان تنتهى هذه القسوة الابدية .. وحضر بوليس المعسكر واعلن بان على الذين لا يقطنون هذا العنبر الخروج فورا والعودة الى عنابرهم .. ومررت بفناء المعسكر.

في ايام العطلات كنت ألتقى ببعض السجناء يتحادثون، او يعرضون اجسامهم لاشعة الشمس .. اما اليوم فكانت الساحة خالية خاوية .. وفي عنبرنا كان الصمت مطبقا جناحيه مخيما على الجميع .. همس بعضهم لبعض ثم آثر التزام الصمت اخيرا .. كانوا يعلمون .. كانوا يعرفون ايضا انه متى ما تعرضت البلاد للخطر فان اول من يضارهم السجناء .. وهكذا سيكون الحال الان ..

في صباح يوم الاثنين صلصل الجرس .. تجمع السجناء في الطريق المؤدى الى باب المعسكر «لينيكى».

لاحظنا التغيير الذى طرأ فورا .. في العادة كان بوليس المعسكر يقف في خمس صفوف . ولكن الحرس المسلح كان يقف معهم اليوم ..

وبدأوا في النداء ..ووقفنا .. ثم فتح الباب فرأينا قوة جديدة من الحرس المسلحين

والضباط .. وفي طريقنا لمكان العمل اوقف رئيس الحرس طابور السجناء واخذ يعدهم عدة مرات .. وفي اليوم الثاني للحرب بدوا يخفضون انصبتنا من المواد التموينية ... فلم نحصل على السكر .. نقص الخبز الى النصف .. وقسم الصابون الى قسمين .. ثم قاموا باخراج السجناء الاجانب من جميع اقسام المعسكر ووضعهم في القسم التاسع .. وكان ذلك في يوم ٢٥/٦ كل الاجانب ما عدا جوزيف بيرقر وشخصي.

فقال بيرقر:

ــ لماذا لم ينقلونا نحن ..؟ هل اغلقوا مكاننا في كمينة الطوب ..؟

ــ اطمئن سيجدوا لنا مكانا افضل.

وعدت في وقت متأخر من العمل .. ذهبت الى المطبخ لاخذ العشاء وعندما مررت بنافذة المطعم لمحت لارنوف .. فاشار لى بيده لادخل وقال لى.

ــ يبدو انك جائع ... خذ هذه قطعة خبز ولحم بارد .. لا استطيع ان ادعوك على كوب شاى .. وليس لطيفا ان اذهب من اجله فسيعلمون ان لدى ضيفا ..

وانحنى لارنوف نحوى وهمس في اذنى بخفوت الجيش الالمانى يتقدم بسرعة .. قالوا ان كييف قصفت عدة مرات..

ــ كل الذين كانوا يوما ما اعضاء في الحزب سيقتلهم هتلر اذا ما انتصر.

ــ انت نمساوى .. فاذا انتصر هتلر سيطلق سراحك.

ــ مستحيل .. انت تعرف ان هتلر قتل الشيوعيين الالمان والنمساويين وارسلهم الى معسكرات النازية.

وسمعت رنين الجرس .. فكنت سعيدا بانتهاء تلك المحادثة اللزجة وعندما عدت الى العنبر قدمت لجارى قطعة من الخبز قائلا.

ــ كل .. لقد اكلت انا .. عزمنى لارنوف.

ــ اسمع .. عليك ان تعمل حسابك من لارنوف، انا احذرك.

وهنا اضاء ذهنى فجأة .. وتجلت لى الحقيقة الكاملة .. وضح لى جليا لماذا تحدث معى لارنوف عن سير الحرب.

وفي تلك اللحظة اقتحم العنبر ضابطان من أل ذ ك ڤ د بملابسهم الرسمية وثالث بالملابس المدنية ومعهم ثلاثة من بوليس المعسكر وفزع الرجال فاندسوا تحت الاغطية .. وبقيت انا وجارى جالسين وقلت لجارى الذى ارتعدت فرائصه.

ــ اتوا لقبض روحى.

وسأل الضابط النوبتجي بصوت مرتع.

ــ هل يوجد احد هنا من فرقة ماتفيف ..؟

وبالرغم من انى كنت اجلس في نهاية العنبر الا اننى سمعته جيدا وصمت .. فقال الضابط النوبتجي.

ــ نعم .. يوجد ..

ــ اسمه ..؟

ــ شتاينر ..

ــ هو من اريده بالذات.

اتجهت نحوى مجموعة الضباط .. لم يسالوننى عن اسمى .. وصاح احدهم.
ـــ ارفع يديك الى اعلى..
ورفعت يدى الى اعلى فقال الضابط لرجال البوليس ..
ـــ فتشوه ..
وفتشنى رجال البوليس بدقة .. وكل شىء وجدوه عندى وضعوه جانبا وامرونى ان اتبعهم وفى الساحة كانت الانوار مضاءة للحد الذى تحول الليل فيه الى نهار باهر.
ووضعت يدى وراء ظهرى واتجهت نحو باب المعسكر وهناك رأيت بيرقر ايضا، فى نفس وضعى .. فحيانى بهزة من رأسه ورددت عليه بنفس الاشارة. وتركنا الجندى بلا كلمة .. وسرنا فى الطريق المؤدى الى مبنى أل ن ك ڤ د .. حاولت ان اتحدث مع بيرقر، ولكن لم اكد افتح فمى حتى صاح الجندى فى وجهى مهددا.
واخذت نفسا عميقا من انفاس ذلك الليل فقد كنت اعلم ان تلك هى الفرصة الاخيرة لى لافعل ذلك .. دخلنا مبنى أل ن ك ڤ د واخذ احد الضباط بيرقر من يده .. وتحت الممر قادونى الى حجرة بقيت فيها مع احد المدنيين وكان يجلس على منضدة بها آلة كاتبة واشار لى الى كرسى بجانبه فجلست .. اخذ يراقبنى وهو يدخن دون ان يتفوه بشىء .. انهى سجارته واخرج اوراقا كثيرة وسألنى.
ـــ ما أسمك ..؟
ـــ كارلو شتاينر.
ـــ متى ألقى عليك القبض اول مرة ..؟
ـــ فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٣٦
ـــ لماذا ..؟
ـــ بتهمة العمالة للجستابو، وعضوية منظمة ارهابية.
ـــ هل اعترفت ..؟
ـــ على اى شىء اعترف ..؟ لست بعميل .. ولم ارتكب جرما ضد الاتحاد السوفيتى .
ـــ هل استأنفت ..؟
ـــ ورفض الاستئناف.
ـــ اسمع يا شتاينر .. انت ارتكبت جرما عظيما ضد الاتحاد السوفيتى وقد صدر عليك حكم خفيف .. عشرة سنوات؟
كان عليهم ان يرموك بالرصاص .. ان عليك الان تشكر الحكومة السوفيتية

ماذا تعمل الان ..؟ اما زلت تعمل من اجل الثورة المضادة ..؟
ـــ لم ارتكب اى جرم ضد الاتحاد السوفيتى .. ولست اعمل الان فى المعسكر من اجل الثورة المضادة ..
ـــ انت ما زلت تستعمل التكتيك القديم وتنكر اى شىء، يمكننى اخبارك بانك لن تفلت هذه المرة بسهولة .. ومد لى محضر التحقيق القصير قائلا .. وقع ..
ولم ارد ان اوقع .. فنظر الى باستغراب شديد وهو يقول ..

ـــ لماذا لا تريد ان توقع عليه ..؟
ـــ انا لا اوقع فى اوراق أل ن ك ڤ د .
ـــ لماذا ..؟
ـــ فى عام ١٩٣٦ القى على القبض فى موسكو، وحكومت بعشر سنوات بتهمة مختلفة تماما .. وكنت على يقين من ان الظلم سيرفع عن كاهلى يوما ما .. ولم افقد ذلك الامل حتى الان .. وهـا انتم مرة اخـرى تحـركون التحقيق معى .. وانا اعلم ان تحقيقات أل ن ك ڤ د .. واحكامهم ليست لها سند قانونى .. وقد قررت ان لا اوقع على محضر قط.
ـــ آهـ .. هكذا اذن.
قالها المحقق وضغط على جرس امامه فهرع نحوه جندى من الحرس .. تركه معى ونهض خارجا من الغرفة وبعد قليل عاد ومعه رئيس ال ن ك ڤ د فى نورلسك واسمه بوليكاربوف.
ونهضت واقفا عندما حضر بوليكاربوف ..وصاح هذا الاخير فى وجهى.
ـــ ماذا تفعل هنا ..؟ اى مسرحية هذه ..؟
ـــ هذه ليست مسرحية .. هذه هى الحقيقة .. ولن أمثل فى مسرحيتكم انتم.
وصاح بوليكاربوف.
ـــ ماذا ..؟
وقبض على عنقى بيديه .. كان يخنقنى بعنف وهو يضغطنى على الحائط .. ولم ادافع عن نفسى .. كان الموت والحياة عندى لحظتها متساويان واطلق سراحى وبقيت بجوار الحائط ..
ـــ خفت ..؟
قالها وجلس.
ـــ اسمع هل تعلم فى اى وقت نعيش ..؟ انا املك كل الحق وبلا ادنى تحقيق ان اضعك امام الحائط واطلق عليك النار .. ولكنى لن افعل سنقوم بتحقيق منظم .. وبدلا من ان تكون شاكرا لنا ها انت تقوم بهذه الحركات البهلوانية .. انا اسألك بأدب جم هل تستطيع ان تسلك سلوكا معتدلا ام لا ..؟
ـــ افعلوا بى ما تشاؤون ولكنى لن اوقع على شىء .. ونهض بوليكاربوف وخاطب المحقق قائلا ..
ـــ أرم به تحت الارض .. دعه يفطس!
وجرنى الجندى خلال ممر مظلم .. ثم ضربنى ودفعنى الى ركن الغرفة وهو يسبنى .
ـــ انت يا فاشستى .. يا قذر .. سأنزع كليتيك.
ـــ لست بفاشستى .. انت الفاشستى ..
وحـاولت الدفاع عن نفسى بكلتا يدى. وحضر لمساعدته جندى آخر .. فقادانى خلال الساحة الى السجن المركزى لل ن ك ڤ د فى نورلسك وظهر رجل طويل القامة وفى يده حزمة من المفاتيح ونظر نحوى من خلال قضبان الباب
ـــ مرة ثانية .. فاشستى آخر .. تعال هنا.
سنريك كيف تحترم السلطة السوفيتية .. وقادنى الى طابق علوى على يمينه وشماله وقفت الزنـزانات الرهيبة وبالطبع خلعوا ملابسى ووقفت عاريا ثم فتشونى للاخر حتى قطعة الخبز التى كانت معى قطعوها الى قطع صغيرة وفتشوها جيدا ورمونى فى الزنزانة

.. وبعد ان اغلقوا الباب خلفى .. احاط بى السجناء ووجهوا لى العديد من الاسئلة ..
ـ من اى قسم انت ..؟ هل لديك دخان ..؟ ماهو الجديد ؟ وعندما علموا اننى لا أدخن اصيبوا بخيبة امل . وصاح احدهم من السرير الاعلى.
ـ دعوا الرجل فى سلام علّه يرتاح قليلا .وانسحبت الاغلبية وقادنى احدهم من يدى ثم تقدم نحوى اخر وبمنتهى الحفاوة مد لى يده وعرفنى بنفسه قائلا.
ـ المهندس برلف .
وجه مستدير .. وشعر اسود كثيف تتخلله شعيرات بيضاء .. ومن خلال عينين حادتين خضراوين حدق فى وجهى بقوة وهمس .. هنا يوجد اوركا. كثيرون .. هل تعلم ..؟ انهم المجرمون حاسب.
هل لديك شيء للاكل .. والتفت لاخرج له من سلتى بعض الخبز برغبة حقيقية .. ولكن السلة كانت قد اختفت .. وكان من العبط البحث عنها .. اخبرته بذلك فنظر الى اعلى الى السرير الذى فوقه ولم يقل شيئا .. وبحثت لنفسى عن سرير .. لم تكن الزنزانة ممتلئة فى الاسرة العليا رقد السجناء ذوى الجرائم الكبرى (بلاتنيا) وفى السراير الارضية القى السجناء السياسيون انفسهم .. وكانوا يسمونهم (فرايرى) اى الصعاليك .. وفى الاسرة العليا حيث كانت هناك اربعة اماكن بالقرب من السقف. كان يرقد صغار اللصوص الذين اطلق عليهم (كسوجنكن).
كان جارى فى السرير المهندس زميسكى من تفيرا كالنينا .. التى تبعد سبعين كيلومترا من موسكو .. حوكم بعشر سنوات سجنا بتهمة العمل التخريبى عندما نشبت الحرب وضعوه فى السجن .. لانه وفى حديث مع زميل له مدح الصناعة الالمانية .. ولم ينكر زميسكى ما قاله. لانه رأى بنفسه الصناعة الالمانية .. كان يعتقد انه لا تثريب عليه ولا سوء فى الامر اذا تحدث بخير عن الصناعة الالمانية الجيدة .. بقينا لمدة اسبوعين نستانس ببعضنا البعض . هذا الرجل اللطيف. صاحب الافكار المركزة. تعرفت عليه عن قرب.
اكد لى بان الصناعة اكبر عدو للانسانية .. لان الانسان يصبح عبدا لها .. وستقوده الى الدمار المحقق بدون شك ولم يمض شهران حتى حوكم زميسكى واعدم رميا بالرصاص .. وتعرفت على بقية سكان الزنزانة . كانت خليطا عجيبا من البشر .. اكبر السجناء المجرمون اسمه افانوف كان يرقد رقدة خاصة .. كان دائما يختار وضعا يتكىء فيه بيده على السرير ويبرز جسمه الاعلى للامام وحوله يتحلق صغار اللصوص يستمعون اليه وينفذون جميع اوامره
اما بقية اهل الاجرام. فكانوا ينظرون اليه باحترام كبير وبخوف اكبر. **يستجيبون لادنى** رغباته.
ـ بيلى اعطنى ماء .
ـ كارسوبى ـ ناولنى البشكير واوقد المدفاة . الخ الخ
وهم يتسارعون لقد عرف ذلك الرجل كيف يتحكم فى اتباعه ومن يعصى له امرا كان يضرب حتى الموت .. لم يكن الخبز ينقصه ابدا. كانوا يخطفونه له خطفا من ايدى وافواه السجناء كذلك الذى حدث لى عند قدومى
كانت اخبار العالم الخارجى مقطوعة عنا تماما .. وكنا فى قلق دائم اما بقية المجرمين فكانوا يلعبون الورق يقطعون اوراق الجرائد قطعا متساوية ومن لب الخبز يصنعون

الارقام ... ثم يخرجون من جحر صغير قلما ملونا يلونون به الكروت .. كانوا يلعبون على الخبز والشوربة .. وفى بعض الاحيان يقامرون بالملابس .. ومنهم من كان يقامر حتى بوجباته القادمة لعدة ايام فيقاسون الجوع والضعف .. اما الذين يقامرون بالملابس فلم يكن يفعلون ذلك بملابسهم فقط، بل بملابس الاخرين كذلك

وكان من دواعى الفخر ان تاخذ الامور مجراها الى النهاية مع بعض السجناء السياسيين المغلوبين على امرهم .. كانت الضحية المختارة تجلس فى هدوء لا تعرف ما يدبر لها ويحاك ويتقدم احد المجرمين قائلا ..

ــ اخلع هذا .

مشيرا الى قطعة الملابس التى لعب عليها قبل قليل .. ولا يستطيع احد الاعتراض .. كانوا يلعبون بارواح الاخرين .. وعندما تنشب المعارك بينهم ويصدر القرار بتصفية زيد من الناس، كان على الذى يخسر فى الورق ان ينفذ الحكم فى المحكوم عليه بالموت. فاذا كان السجين الضحية فى نفس المكان، كان على القاتل ان يفعل ذلك سريعا .. بقطعة من حجر .. او بأى كتلة اخرى .. واذا كان السجين الضحية فى قسم آخر كان القاتل يتعقبه حتى يجد فرصة فيقضى عليه .. واحيانا كان المقتول الحى يخطر بالحكم عليه وتظل المطاردة قائمة بالشهور والسنين حتى يتمكن القاتل منه .. اما من يعارض او يتباطأ فى تنفيذ حكم صدر له تنفيذه، فكان يقتل فورا بتهمة الخيانة.

ورغم ان لعب الورق فى السجن كان ممنوعا الا انهم ظلوا يلعبون .. يجلسون وظهورهم نحو الكوة التى يطل منها الحارس .. ويشرعون فى اللعب والاخرون يتحلقون حولهم كانوا ينهمكون فى اللعب .. وفى المشاهدة فينسون انفسهم .. كنت تسمع فقط صوت الورق والخبط عليه ثم السباب والالفاظ البذيئة واللعنات .. والكلمات الجارحة وبعد يومين استدعانى المحقق للتحقيق مرة اخرى وسالنى

ــ هل عقلت.

ــ لن اعطى اى بيانات ولن اوقع على شىء.

ولم يرجعوننى الى زنزانتى رمونى فى زنزانة الحبس الانفرادى (كارسر) كانت مساحتها ضيقة جدا، وارضيتها من الخرصانة المسلحة .. وليس بها نافذة بها لمبة صغيرة تضىء ليلا ونهارا. وجلست على ركبتى فى بادىء الامر ثم لم استطع البقاء على هذا الوضع طويلا .. اذ احسست بخدر شديد فحاولت التحرك والمشى وعندما تعبت بركت مرة اخرى على ركبتى

وظل الحال على ذلك المنوال طيلة النهار، والليل، وعند الصباح احضر لى الحارس بعض الطعام الردىء جدا، فعافته نفسى وابيت ان امد له يدى .. واستدعانى مدير السجن سائلا اياى لماذا انا مضرب عن الطعام.

اخبرته ان هذا الطعام هو نصف ما يعطى لنا عادة ولذلك انا ارفضه .. قال لى.

ــ هكذا الحال فى زنزانات الحبس الانفرادى ولا يحصل احد على اكثر من هذه الكمية.

لم اقتنع ولكن ماذا افعل .. عدت للزنزانة فوجدت انهم القوا فيها بشاب وسيم وجهه امرد كوجوه الفتيات قال لى ان عمره عشرون عاما، ولم يكن ذلك يبدو عليه كان يبدو وكأنه فى السابعة عشرة من عمره .. حدثنى انه من مينسكا وقد قام هو وبعض زملائه بالدراسة بعمليات كسر وسرقة وحوكم بخمس سنوات وكان اسمه فكتور . جاءوا به من السفينة رأسا الى زنزانة الحبس الانفرادى لانه قام بمحاولة للهروب فى ميناء اغاركه على نهر الينسى

وقد اصيب في عملية التهريب هو ورفيقاه بجروح بالغه . وكان عليه ان يمثل امام محكمة المعسكر مكتت ومعي فكتور خمسة ايام كاملة حدثني عن امه وعن مدرسته التي كانت تزوره في السجن اسبوعيا والتي اتخذت كل التدابير لاطلاق سارحه ولكن .." وسالته

ــ كيف صبحت لصا

ــ ليس بسبب الفقر ولكن بسبب الفراغ والملل ولان اصدقاء السوء .. دفعوني الى ذلك ابي ترك ثلاث اخوات واختفى والدتي لم تكن ترعانا فهي مشغولة بتحصيل لقمة العيش تركته يتحدث وسرحت بعيدا . ثم بعد ذلك اصبت بالمرض اخذوني للطبيب وامر بنقلي فورا من زنزانة الحبس الانفرادي وحصلت على طعام المرض وكنت طيلة الايام الخمسة الماضية لا اكل شيئا يذكر بل كنت اشرب ماء فقط .. كنت على هزالي وضعفي ارقد فوق تلك الارض الصلبة العارية الرطبة .. اصابني التهاب في الاذن .. وكانت اوجاعي تفوق كل احتمال .. ووعدني الطبيب بارسالي الى اخصائي الاذن والانف والحنجرة في نورلسك .. وهو نكولاي افانوفچ سوهوروكوف.

وكان يقوم بعلاج السجناء والاهالي على السواء .. وقادني تحت الحراسة للمدينة .. وكان مبنى العيادة يقع امام مبنى أل ن ك ڤ د .. ولم يكن الحارس يعلم ان دكتور سوهوروكوف هو سجين مثلي .. كان يخاطبه يا رفيق وتركني انفرد بالطبيب .. وكنا مضطربين جدا .. هو وانا .. نريد ان نعرف ماذا جد من احداث منذ ان افترقنا من بعضنا البعض.

حدثته عن كل شيء مر بي، وحدثني هو عن الموقف في الجبهة وشكوت له من آلام الاذن فاعطاني حقنة .. ووعدني بانه سيرسلني للمستشفى المركزى.. واستدعى سوهوركوف الجندى وقال له آمرا.

ــ اعده الى هنا بعد يومين.

وعند عودتي بعد يومين لم نستطع التحدث حرية فقد بقي الجندى معنا بالغرفة وربما كان ينفذ الاوامر وقال لي الدكتور بصوت حاد.

ــ كتبت تقريرا لرئيس أل ن ك ڤ د وطلبت منه ان يرسلك حالا للمستشفى فانت مريض جدا

وكان ذلك كافيا بالطبع لان افهم.

وفي اليوم التالى بدأت في الانين والتوجع .. وشكوت من آلام حادة جدا ابقتني ساهرا طول الليل .. وحذرني الحارس بأن اصمت واحاول النوم فلم آبه لما قال .. واستمر الانين والتوجع وفي الصباح قدم تقريرا بذلك لرؤسائه .. واستدعوني للضابط النوبتجي .. هددني بالعقاب لاني لا احترم قوانين السجن .. فاخبرته بما أعانيه من آلام .. ووافق على ارسالي للطبيب مرة ثالثة، وهناك نجحت في تبادل بضع كلمات مع دكتور سوهوركوف .. وكتب تقريرا ثانيا طلب فيه ارسالي للمستشفى على وجه السرعة لان حياتي في خطر.

فــى المستشفــى المــركــزى

بعـد خمسـة ايام استدعونى من الزنزانة كنت اعتقد انهم سيقودوننى للطبيب رافقنى جنديان .. وعند وصلنا مفترق الطرق تقدم بى نحو اليسار ولم يكن ذلك طريق الطبيب.

كان واضحا انه يقود الى المستشفى المركزى التى تقع فى القسم الخاص من المعسكر .. وفى ساحة القسم الثانى تجمع السجناء من كل العنابر ليلقوا نظره على شخصى .. وليرفعوا لى ايديهم بالتحية واشارات التعاطف والتشجيع.

الموظف قرأ التقرير وقال للجندى.

ــ حسنا يمكنك ان تذهب . المريض سيبقى هنا .. ولم استطع تصديق اذنى .. وتحدث الجندى تلفونيا مع ادارة السجن وبقيت مشدودا متوترا اتابع ملامح وجهه.

ــ حسنا . حسنا.

ووضع السماعة واستدار منصرفا.

الموظف الذى استقبلنى كان يأكل خبزا ويشرب الشاى .. ولاحظ نظراتى النهمة فقطع من الخبـز ومدها لى .. وخجلت جدا رغم انه ضبطنى متلبسا بالنظر اليه، وهو يأكل .. وحاولت ان ارفض ولكن نداء جوعى كان اقوى.

ــ هنا .. لن تجوع.

قالها الموظف .. وحضرت الممرضة وقادتنى للحمام.

كان بالمستشفى بعض الذين ستجرى لهم عمليات جراحية . وبعضهم كان بيد او رجل مكسورة .. علمت ان احدهم سقط من المدخنة التى طولها مائة وخمسون مترا .. واصيب بجروح عديدة .. وبعد اربعة عشر يوما خرجوه من المستشفى.

وفى نفس الظهيرة استدعانى دكتور سوهوركوف .. وقد استغربت جدا عندما قادنى الى دورة المياه .. وقفل الباب علينا .. لم نتحدث عن مرضى .. ولكن تحدثنا عن آخر الانباء.

قال لى ان انباء خطيرة تتردد عن تقدم الالمان .. وانهم يسيرون بسرعة البرق .. وحدثنى عن القوانين القاسية فى المعسكر .. اما انا فقد حدثته عما يجرى لى، وكيف انهم عادوا يتهمونى من جديد .. ووافق على التكتيك الذى اتبعه وقال لى انه من المهم جدا ان يكسب الانسان الوقت .. اما من ناحيته هو فسيعمل كل ما فى وسعه لابقى بالمستشفى .. وهو يأمل ايضا ان اقضى شهرا كحد ادنى .. واذا لم تسر الامور كما يريد فسيجرى لى عملية جراحية فى اذنى لابقى مدة شهرين.

ــ فى مدة الشهرين يمكن ان يحدث الكثير.

ــ فليكن يا دكتور افعل ما تراه مناسبا.

قلت ذلك بعد ان اعدم فى الايام الاخيرة اربعة من السجناء وفى المستشفى كنت اعيش جيدا.السكندرا افانوفن سليبكوف كانت مديرة المستشفى وكانت تحرص على العناية بكل شىء .. المعاملة الجيدة .. نظافة الاسرة .. الغذاء الكامل.

وكنت ارقد على سرير نظيف .. ولا يدرك معنى ذلك الا من نام على الكنبات الصلبة المليئة بالبراغيت والقمل.. كان معى فى الغرفة ستة من المرضى .. اثنان يمكنهما الوقوف وواحد اجـريت له عملية فى عينيه .. وآخر كسر يده .. كان اسمه ساشا بروكفن وهو من عتاة

المجرمين .. في رقبته اوزار دماء وارواح كثيرة.
عمل ما لا يمكن عمله حتى يبقى بالمستشفى لفترات اطول .. بالليل كان ينزع الرباط عن الكسر ويحرك يده بعنف ليمنع التئام الجروح والعظام.
وسألتنى الطبيبة التى تقوم بعلاجه.
ــ هل لاحظت شيئا مريبا في سلوكه ..؟
ــ لم ار منه ما يريب.
وفي ذات صباح دخلت سستر اولقا العنبر على حين غرة فألفت الرباط محلولا عن الكسر .. سارعت وخاطته بابرة وخيط وقالت له مازحة.
ــ من فضلك لا تفك الشريط مرة اخرى.
وشتمها بروكفن بحقد .. وكان ذلك شاذا .. فالمرضى يحبونها لانها عطوفة رقيقة .. عاشت ماضيها القريب في اودسا كانت صغيرة عندما تزوجت .. وحبس زوجها لارتكابه احدى الجرائم .. واجلسوها على كرسى الاتهام رغم انها كانت بريئة ولا تعلم عن جرمه شيئا وبتهمة التواطؤ والتستر على الجرائم حوكمت بخمس سنوات سجنا واستانفت بدون جدوى .. وعند انتهاء فترة السجن .. عملت الان بالمستشفى كامرأة حرة.
لم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى يسب فيها بروكفن اولقا .. والسبب في ذلك انه حاول ان يستميلها الى جانبه .. وعندما كان يغازلها حذرته بهدوء وادب ان يكف عن ذلك.
ولكنه حقد عليها وبيت في نفسه ان ينتقم منها بشتى الطرق كانوا يعالجون التهاب اذنى ببعض المسكنات والادوية .. وقالوا ان المهم هو تحسن صحتى حتى استعد للعملية وكان مما حدثنى به دكتور سوهوركوف كيف ان رئيس ال ن ك ق د ظل يسأل دائما عن صحتى، ويحاول اخراجى من المستشفى.
وبعد اسبوعين تحسنت واصبح من الممكن اجراء الجراحة لى، وتم تحديد موعد العملية. وفي يوم السبت اخبرنى دكتور سوهوركوف ان اكون مستعدا للعملية يوم الاثنين.
عشت على اعصابى .. وطيلة يوم الاحد كنت مضطربا ليس بسبب العملية، ولكن بسبب التفكير في العودة للسجن .. فلا زالت هناك الكنبة القذرة الخشبية ولجنة التحقيق والجوع.
وجاءت اولقا في الصباح الباكر من يوم الاثنين .. اعطتنى حقنة في يدى اليسرى وقادتنى الى حجرة العمليات .. وهناك كان دكتور سوهوركوف والكسندرا واحدى الممرضات.
وقال دكتور سوهوركوف بلهجة جادة ..
ــ كيف تشعر ايها المريض ..؟
ــ على ما يرام.
ــ اذن كل شيء جيد .. هل وقعت على موافقتك باجراء الجراحة ..؟
ــ لا افهم سؤالك ..
ــ تعرف يا شتاينر انها شكليات على كل مريض تجرى له جراحة ان يوقع قبلها على اقرار بموافقته على ذلك .. اخلاء لمسؤولية الطبيب عند حدوث بعض المضاعفات.
ــ آهـ .. لقد وقعت على ذلك منذ يوم السبت .. وهنا تدخلت الكسندرا سليكوف قائلة.

ـــ يا دكتور سوهوركوف أليس من الممكن عمل شيء آخر خلاف العملية ..؟ لماذا نخاطر بها ونحن لسنا في حوجة لذلك ..؟

ـــ أسألي المريض

وسألتني عن رأيي في هذه المسألة فاجبتها بحزم..

ـــ انا مستعد للعملية.

ـــ اذن الى الامام .. استلق على الطاولة.

قالها دكتور سوهوركوف بلطف شديد .. وغطت الممرضة عيني بفوطة وربطت يدى على طاولة العملية .. ثم مسحت على المكان الذى ستجرى فيه العملية بمحلول ما .. واحسست بوخز ابرة .. كان احساسا غريبا غير مريح قط .. بعد دقائق قليلة احسست بوقع الازميل والشاكوش يخترق الجمجمة.

لم اكن اشعر بألم شديد .. خيل لى ان ما يجرى بعيد عني فقط كان هناك سائل ينحدر على عنقي ادركت انه دمي .. وسألني الطبيب سؤالا لم اتبين كنهه سمعته يتحدث ببطء ..

ـــ اعطني قطنا .. الملقاط .. الشاش .. القطن .. الخ الخ.

ـــ سننتهي في الحال

وتوقف الخبط بالشاكوش .. وعندما كانوا يقومون ابوضع اللمسات الاخيرة فكرت بحزن .. ان رأسى السليمة صنعوا منها راسا مريضة .. هل هذا الذى جرى لا نتيجة له ..؟ من المحتمل ان اكسب الزمن .. ولكن كيف اعرض نفسى للخطر ..؟ ولكن هناك اخبار الاعدام ايضا كثيرون اعدموا أل ن ك ڤ د ... متعطشون للدماء ولا يمر يوم ولا تطير رؤوس.

وتبتل بالدم .. كنت اعلم .. اذا خرجت ووقفت مرة اخرى امام فورهوف فلن افلت من حكم الاعدام .. انا اعلم .. اذن من الخير محاولة كل شيء .. وانا مستعد لعملية اخرى بدل ان تطير رأسى.

وانتهت العملية، او كادت كان بأمكاني تحريك يدى .. وسألني دكتور سوهوركوف ..

ـــ هل تريد ان نحملك على النقالة ..؟

ـــ كلا .. شكرا .. سأسير على قدمى.

ووضعتني الممرضة برفق على السرير .. ثم شعرت بالمرض حقيقة بعد ذلك .. ارتفعت درجة حرارتى .. ولم استطع الاكل على الاطلاق.

الكسندرا ودكتور سوهوركوف كانا يمران على دائما متفقدين وحملت الى سستر اولقا انواعا مختلفة من الطعام .. وكنت امسها بصعوبة شديدة .. وقد انتهز بروفكن الفرصة .. فما ان تحضر السستر الطعام حتى يكون بروفكن جوار سريرى .. كان يقول لى:

ـــ انت لن تستطيع الاكل في هذه الحالة .. اما انا فشهيتى جيدة .. جيدة للغاية ويحمل الطعام دون ان ينتظر جوابا منى.

وتحسنت حالتى اخيرا .. انخفضت درجة الحرارة وعندما حاولت الوقوف هرعت الى سستر اولقا منزعجة وسارعت بتأنيبى على ذلك ..وعلق بروفكن قائلا.

ـــ ارى انك تهتمين بالفاشست.

كان دكتور سوهوركوف يشرف بنفسه على عمل الغيار للجرح .. وبعد اسبوع قال لى.

ـــ هذا شيء ممتاز فقد بدأ الجرح يلتئم.

ولكن ذلك لم يدم طويلا .. اذ بدأت المضاعفات فى الظهور ارتفعت درجة الحرارة الى ٤٠ درجة سنتقريت .. وقلق سوهوركوف والكسندرا .. واخذ الصديد يتدفق من الجرح .. فأعادونى مرة اخرى الى غرفة العمليات.

وسألنى سوهوركوف ان كنت ادخلت شيئا فى جرحى ولكنى نفيت ذلك فقال لى:

ــ لا تخف .. سأبقيك فى المستشفى اطول فترة ممكنة رغم ان رئيس أل ن ك ق د .. سأل عنك مرة اخرى.

وبدأت حالتى تسوء يوما بعد يوم .. ورقدت هناك فاقد الوعى تقريبا .. حتى ان الكسندرا اصابها قلق شديد على .. ودعت الى كونسلتو عاجل .. اقترحت فيه اجراء جراحة ثالثة لى ولم يوافقها احد .. خاف الاطباء على حياتى .. وجلبت الاكسندرا اجود وانذر انواع الادوية التى كانت محجوزة فقط لرجال ال ن ك ق د ، ولكى تفتح شهيتى للاكل احضرت لى كأسا من النبيذ واعتنت اولقا بى ايضا عناية فائقة ..ومرة احضرت لى بعض الحلوى من المطبخ ووضعته على دولابى.

وجاء بروكفن كالعادة واستولى على الصحن .. ودخلت اولقا فى نفس اللحظة فرأت فعلته .. وصاحت به فى انفعال ..

ــ كيف تفعل ذلك ..؟ ألا تخجل من نفسك ..؟ أتسرق طعام مريض ضعيف ..؟ ألم يكفك ما تأكله ..؟

ورد عليها بروكفن بحقد ..

ــ خذيه .. كليه انت .. طعام فاشستيك هذا .. وألقى بالصحن فى وجهها.

وجرت اولقا من الغرفة .. وكنت مغتاظا للحد البعيد .. ولكننى كنت عاجزا ايضا عن النهوض لتسوية الامر معه .. وتقرر بناء على تلك الفعلة ان يخرج بروكفن من المستشفى فى نفس اليوم ولكنه عاد بعد ثلاثة ايام واعتذر لها واقسم انه سيسلك سلوكا حسنا ..

وبدأت صحتى فى التحسن .. نزلت درجة الحرارة وانخفضت وسمح لى الطبيب ان انهض .. وتمشيت حتى الغرفة المجاورة وتحدثت مع المرضى الاخرين .. لقيت هناك قوستاف شولر .. الذى نقلوه من السجن الى المستشفى .. كان من اصل ألمانى .. ولد فى روستوف على نهر الدون .. كان عضوا فى الحزب الشيوعى ومسؤولا عن القسم الزراعى بالمنطقة .. وقد القى عليه القبض فى عام ١٩٣٧ بتهمة التخريب، وحوكم بخمسة عشرة عاما.

وكان يقضى مدة حكمه فى نورلسك، ولم يشفع له انه خبير فى أمور الزراعة .. بل كان عليه عملا جسمانيا شاقا .. كغيره من الناس .. غير انه نجح فى ان يصبح مساعدا لحفظ الدفاتر فى ادارة المعسكر ..

وبعد اسبوعين من نشوب الحرب القوا به فى السجن واتهموه بأنه قد اثنى امام السجناء على هتلر وفيرماخت. ولكنه رفض تلك التهمة ونفاها بشدة .. وعند التحقيق رفض التوقيع على المحضر .. فانهكوا قواه حتى لم يعد يستطيع الحركة وكان عليهم اخيرا ان ينقلوه الى المستشفى واكشف الاطباء ان هناك نزيفا وجروحا داخلية قد اصيب بها.

ــ سررت لرؤيتك يا كارلو ..

ــ اشكرك وانا كذلك ..

وقد وجدته عندما اقتربت من سريره فى حالة صحية سيئة للغاية .. وكانت نفسيته

محطمة كذلك .. فقد اخبروه بحقد، انهم قاموا بترحيل زوجته وطفليه من روستوف الى كازاخستان.
ـــ كل شيء عندى الان سيان .. كيف تنتهى الامور ..؟ اننى لم اعد احتمل اكثر .. بمجرد عودتى للسجن ساوقع على كل ما يطلبونه منى.
ـــ لا داعى للانهيار يا قوستاف يجب عليك ان تدافع عن نفسك وان تناضل كما ناضلت عام ١٩١٧ يجب ان تقتنع بكلامى هذا ..
ـــ كانت الامور مختلفة فى الماضى .. كنت مؤمنا بالاشتراكية كنت مستعدا للتضحية بنفسى من اجلها .. واليوم .. اليوم فقدت ذلك الايمان .. وتحدثت معه مرات عديدة .. ولكنى لم انجح ابدا فى اقتلاع جذور تلك المرارة من نفسه.

وكان هناك ايضا و فى ذات الغرفة الكابتن طيار سيماكوف احد الضباط السوفيت .. القى عليه القبض مع اربعين ضابطا آخر فى عام ١٩٣٦ فى فلادفستك .. بتهمة التحضير لحركة انفصال الشرق الاقصى من الاتحاد السوفيتى.

وكان سيماكوف يعمل فى روسيا الوسطى .. اما لماذا اراد ان يفصل الشرق الاقصى عنه وطنه ..؟ فسؤال الاجابة عليه أل ن ك ڤ د واعترف سيماكوف وستة عشر آخرون بصحة التهمة فحكم على كل منهم بعشرين عاما .. وحكم على البقية بخمسة وعشرين عاما لكل منهم .. وعندما كانوا يحققون مع قائده ـ قائد سلاح الطيران ـ قفز من النافذة الى الشارع وتهشم.

كان سيماكوف فى معسكر دودنك وتحدث مع بعض رفاقه عن الهروب بطائرة الى الخارج .. وكانت هناك بعض الطائرات فى مطار دودنك ووشى احدهم لل ن ك ڤ د بالخطة . فقبض على سيماكوف ـ وبيرلوف ـ وبسيالوف ـ واقنياتوف بتهمة الهروب وحكموا بالاعدام.

واضرب سيماكوف عن الطعام احتجاجا على حكم الاعدام .. ونقل الى المستشفى فى حالة صحية متأخرة من جراء الضعف الشديد ومضت اربعة اشهر على اضرابه عن الطعام .. وكانوا يغذونه تغذية اصطناعية.. وكان مصابا بضعف شديد منعه من الحركة والكلام.

حاولت اقناعه بالاقلاع عن اضرابه ذلك اوضحت له ان لا يمكن ان تنجح الوسائل الانسانية ضد نظام ستالين اللا انسانى .. واغمض سيماكوف عينيه مشيرا الى انه يفهمنى ولكنه بقى على رأيه ووافق بعض ضغوط والحاح من جانبى على مضغ قطعة من العجور المخلل .. ولكنه لم يبلعها .. بصق كل ما فى فمه .. كان الوقت منتصف النهار عندما حضر قاضى التحقيق ساكولين يتبعه جنديان ومستشار المستشفى الاقتصادى .. واشارت المرضة الى سرير سيماكوف .. وامر ساكولين الجنديين قائلا:
ـــ ارفعوه ..

وعندما اراد الجنديان الامساك به .. قالت الممرضة.
ـــ لحظة .. انتظرا ريثما احضر بدلته.

وقال ساكولين ..
ـــ لن نحتاج الى بدلته.

وبكت المرضة بصوت مرتفع ملتاع.

وامسك احد الجنود برأس سيماكوف والاخر برجليه وحملوه الى الساحة حيث كانت

تنتظر عربة كارو.
القوا به في العربة واتجهوا نحو مقابر المعسكر وهناك نفذوا فيه حكم الاعدام وخلال ذلك اليوم لم يمس احد المرضى الطعام كان ما حدث اكثر واكبر من احتمال الجميع .. وتحسنت صحتي شيئا فشيئا .. عادت الحرارة الى معدلها الطبيعي وكانوا يضغطون على الطبيب لاخراجي من المستشفى وكان يجيبهم بجملة واحدة لا تتغير قط.
ـ ما زال ضعيفا.
كانوا في العادة يخطرون المرضى بمغادرة المستشفى بعد انتهاء العلاج .. ثم يأمرونهم بالخروج وقت الغداء .. وكان الرجال الاخرون يسرون لذلك .. لان الطعام سيكون وفيرا بعد خروج الناقهين وكان الامر معي ايضا كما ذكرت مر وقت الغداء ولم يقدموا لى شيئا .. وفي حوالى الساعة الخامسة عصرا جاءتني مديرة المستشفى الكسندرا قالت بحزن.
ـ لا استطيع فعل شيء بعد الان .. صدر امر خروجك فورا من المستشفى والجنود ينتظرونك هذه اللحظة.
واحضروا لى حاجياتي وعندما ارتديت ملابسي حضرت الكسندرا مرة اخرى وصحبتني الى غرفة الطبيب المناوب وهناك لم يكن بالغرفة اى انسان .. مدت لى الكسندرا طردا صغيرا فيه خبز ابيض جاف وقرطاس من السكر.
ـ هذا سيساعدك كثيرا ..
وقبضت على يدها بشدة رفعتها الى فمي، ولكنها انتزعتها بسرعة وقالت بخوف.
ـ ولكن..
وادرت ظهري وخرجت.

مـرة أخـرى فـى السـجن

وتحركنا صوب السجن .. واخيرا، وبعد مضى شهرين عدت الى نفس الزنزانة وجدت بعض الوجوه القديمة .. ولكن الكثيرين لم يكونوا هناك .. كانت وجوه جديدة قد حلت محلهم .. وكانت الزنزانة ممتلئة جداً .. والكنبات مكتظة وممتلئة بالسجناء .. ورقد اغلبهم على الارضية الخرصانية العارية ..

تحرك احد زملائى القدامى وطلب من شاب يجلس فى طرف الكنبة ان يعطينى مكانه .. ولكنى رفضت واعلن الشاب باصرار انه يترك مكانه لى بطيب خاطر.. وجلست على استحياء ثم اخذت اقسم بالخبز على الجميع .. وفى الصباح عندما استلمنا الماء الساخن ناولت كلا منهم قطعة سكر.

ولم تمض ساعات على قدومى من المستشفى حتى استدعانى المحقق. ولم اصدق عينى عندما وجدت فى ركن الغرفة بروكفن وهو يحمل يده المعصوبة بالجبص.

وادركت فورا لماذا كان هذا الرجل هنا .. نظر الى بحقد قاتل وباحتقار غريب كان وجهه يشبه وجه عنزة شمطاء .. ونزع المحقق قطعة من ورق اللف، وشرع يصنع لنفسه لفيفة .. وساله بروكفن.

ــ هل تسمح لى بالتدخين ..؟

ــ بالتاكيد ..

ومده يده وناوله قطعة ورقة لفها بروكفن بيد واحدة وواجهنى المحقق قائلا.

ــ الثورة المضادة مرة اخرى.. والعداء للاتحاد السوفيتى كنت تنشرها فى المستشفى مع شريكتك السستر اولقا ميهالجوق لقد مدحتم هتلر وتنبأتم بنهاية الدولة السوفيتية.

وصمت ثم سالنى..

ــ كارلو شتاينر ..الان سنواجهك هل تعرف هذا الشخص.

ــ لقد قلت من قبل اننى لن ادلى بشىء قط.. ولا اعترف باى تحقيق طالما انكم تستخدمون ضدى مجرما عريقا كبروكفن.

ــ اذن انت تريد نسف التحقيق ..؟ انصحك ان تعدل عن هذا التكتيك ولا تجبرنا على استعمال طرقنا الخاصة بأمثالك.

ــ اعيد عليك مرة اخرى، وبكل وضوح، اننى ارفض ان اشترك فى اى تحقيق وضغط المحقق على الجرس .. فدخل الغرفة احد الجنود.

ــ ابق هنا لحظات.

قالها وخرج وبعد دقائق حضر ضابطان وساكولين وسولداتوف .. جلس المحقق مرة اخرى ووقف الضابطان فى منتصف الحجرة ونطق كونيق.

ــ نتابع المواجهة .. الشاهد بروكفن .. هل تعرف هذا الرجل ..؟!

واشار الى بيده واجاب بروكفن.

ــ اعرفه جيدا .. كنامعا بالمستشفى لمدة شهرين.

ــ من هو ..؟

ــ كارلو فريدريخوفيج شتاينر..

ــ كيف كانت العلاقة بينكما ..؟

ـــ علاقة عادية للغاية .. ويمكن القول بانها كانت جيدة لقد ظل شتاينر يعطينى طعامه دائما.
ـــ معنى هذا انه لم يكن بينكما سوء تفاهم ..؟
ـــ نعم بالطبع.
وتوجه نحوى قائلا.
ـــ المتهم شتانير .. هل تثبت ذلك ..؟
ولم اجب فتوجه نحوى الضابطان قائلا.
ـــ يلتزم الصمت .. لا يريد الاجابة على اى سؤال.
هذا المتهم يقول انه لن يشارك فى التحقيق.
هاجمنى الضابط ساكولين قائلا:
ـــ انك تسلك سلوك ابشع المجرمين.
واجبت ساكولين قائلا:
ـــ كثير من المجرمين لا يدلون بأقوال حتى يحصلوا منكم على الخبز والدخان.
ـــ هكذا ..؟
ـــ اجل وانا لا اطالب بشىء .. وليس من حقك ان تقارن موقفى مع موقف المجرمين.
ـــ هكذا ..؟
ـــ واكثر انا ارى ان العلاقة بين ال ن ك ڤ د والمجرمين جيدة للغاية.
ـــ نحن فى حالة حرب ليكن سلوكك مضبوطا .. ولن نناقشك كثيرا ولن نضيع وقتنا معك.
ـــ من فضلك لا تضيع وقتك معى .. ولن اشترك مرة اخرى فى كوميديا التحقيق وانا على حق .. واثباتى على ذلك هذه المواجهة.
توجه كونيف نحو بروكفن قائلا:
ـــ قل لنا ما تعرفه عن شتانير.
وبدأ بروكفن ـ وكان جاهزا ـ مسلسل الاكاذيب.
ـــ كنت بالمستشفى فى نفس غرفة شتانير وكانت سستر الوقا ميهالجوق تجلس على السرير بجوار شتاينر وتحدثه عن اخبار الحرب الجديدة .. وكانت تتحدث عن انتصار الالمان الكبير ولقد سمعت باذنى شتاينر وهو يقول لها «قريبا سينتهى ستالين .. قليل من الوقت وسوف تحضر الجيوش الالمانية .. وسنكون كلنا احرارا» ذلك ما قاله بالضبط.
وسالنى كونيف ..
ـــ هل تعترف بذلك ياشتانير ..
وصمت .. لا اجد خطابا.
وسال كونيف بروكفن اسئلة عديدة .. اجاب عليها بأسهاب .. وكأنما هو ملقن .. القى على عاتقى التهمة كاملة والصق مثلها واكثر على سستر اولقا .. وفى كل مرة كان المحقق يتجه نحوى سائلا:
ـــ هل تعترف بذلك.
ولكنى كنت دائم الصمت.
وبعدها كتب كونيف المحضر .. ذكر فيه بالطبع انى ارفض الاجابة وارفض المواجهة مع بروكفن ووقع هو وبروكفن والضابطان ولم يكن عندى ما اوقع عليه .. كان الوقت ليلا

عندما عدت الى الزنزانة .. وكان الجميع نياما , , . فرقدت على الكنبة العاريه .. ولم استطع النوم كان فكرى مشغولا بكل ما جرى وبكل ما سيجرى فى اكتوبر ١٩٤١ كانت الحالة فى الجبهة خطيرة للغاية .. كانت الجيوش الالمانية تطرق ابواب موسكو .. وما الذى كنت انتظره ..؟

الاعدام بدون ادنى شك .. ولكن الامر لم يعد يعنيني وحدى كانت هناك وقبل كل شىء سستر اولقا .. ماذا اصنع ..؟ وكيف احذر هذه الانسانة المسكينة ..؟

كان امامي خيار واحد .. هو ان التقى مع دكتور سوهوركوف كان يجب على ان اذهب للعيادة وخير شىء هو ان اكتب قصاصة ورق فيها ما اريد قوله .. وان اتحين الفرصة لاعطائها له.

كان بيدى الايصال الذى اعطوه لى بالمستشفى مقابل اشيائى كنت ما زلت محتفظا به .. ووجدت قلما .. وعلى ظهر الايصال كتبت باختصار الاشياء التى قالها بروكفن .. وبانى لم اعترف بشىء وفى الصباح اخطرت الحارس بانى اشكو آلاما حادة فى اذنى .. ورجوته ان يذهب بى للطبيب .. وفى اليوم التالى قادونى الى الدكتور سوهوركوف ووقف الجنديان فى الممر .. ووجدت الفرصة للحديث معه .. واخطرنى فى الحال ان سستر اولقا ذهبت للتحقيق معها . وقالوا لها انك وافقت على كل ما ذكره بروكفن .. وتألمت بشدة ورجوته ان ينقل لها ما دار بالضبط وان يحثها على الاستمساك برفض كل اكاذيب بروكفن.

وبنفس التهم الملفقة جلس صديقى جوزيف بيرقر فى السجن واضرب عن الطعام حتى كاد يقضى عليه .. واطعموه بالحقن وعندما ساءت حالته نقل الى المستشفى ولكنه واصل الاضراب هناك عن الطعام.

وانهى اضرابه فى اليوم الحادى والستين عندما وعده رئيس ال ن ك ڤ د من اننا لن نمثل امام محكمة المعسكر كان هناك عاملان اساسيان اثرا على بيرقر لينهى اضرابه عن الطعام.

وقوف الولايات المتحدة والمعسكر الغربى فى صف روسيا ضد المانيا وتاثير ذلك على التقليل من احكام الاعدام ..

والسبب الثانى او العامل الاساسى الاخر هو تأثير دكتور ماردن فى المستشفى المركزى على بيرقر .. قال له ان الاستمرار فى الاضراب عن الطعام معناه الموت المحقق له .. ولكن ايقاف الاضراب يعنى اتاحة الفرصة امامه للعودة الى الحياة .. وبتلك اللغة التى يتحدث بها مع السجناء استطاع ان يؤثر على بيرقر .. وكان من حسن الطالع ان خبطت انا على الحائط.

محاولة للانتفاضة

في ليلة العشرين من اكتوبر عام ١٩٤١ استيقظ السجن على صخب وضجيج غير عاديين .. سمعنا حركة دائبة في الممرات واصوات خبط شديدة على ابواب الزنزانات التى فتحت واغلقت .. كنا نعتقد بان يوم اللحم عاد مرة اخرى .. يوم اللحم هو يوم الاعدام الجماعى بالرصاص.

وفتحت ابواب زنزانتنا ودخل علينا سجناء القسم الاول من المعسكر .. من ذلك القسم بالذات ارسلوا مائة واربعين سجينا لسجن البوليس السياسى .. الجزء الاكبر منهم كان يعمل في الورشة المركزية للتصليح «ز - أ - د - م - س» وبعضهم عمل في محطة توليد الكهرباء .. لم يكن في مقدورهم ان يعلموا شيئا من الاسباب التى يساقون بها للتحقيق.

وفي تلك الليلة اقتيد منهم اثنان للتحقيق .. المجرم ميشا الذى عاد في صبيحة اليوم التالى .. والسياسى السجين هجنياك الذى استجوب لمدة ٢٤ ساعة.

اما نحن فكنا نظن اننا نعلم لماذا القوا القبض على عدد كبير منهم ولماذا تجرى في ذلك القسم «عمليات كبيرة كهذه». ففي الورشة المركزية يعمل العقيد السابق للجيش السوفيتى كوردوبيالو .. كان رئيسا لمخزن الانتاج الجاهز .. ألقى عليه القبض ايام النظافة داخل الحزب، وحوكم بعشرين عاما في معسكرات العمل .. ولسنوات عديدة عمل في المناجم .. ولعلاقاته الحميمة مع ال ن ك ڤ د حاز على عمل جيد.

وعندما نشبت الحرب استولت على كوردوبيالو فكرة مجنونة ورغبة عارمة في تنظيم انتفاضة ..

جمع السجناء وحدثهم ان له اتصالات مع العالم الخارجى .. وان الحراس ورجال المطافىء يقفون معه .. ثم قام بتقصى معلومات دقيقة عن قوة الحرس .. وعن القوة الاخرى للجماعات المسلحة .. ونظم له قيادة من ثمانية اشخاص .. ونصب نفسه قائدا عاما يساعده وينوب عنه عدد من السجناء .. وكان ميشا رئيسا للقيادة، وبالطبع علم ال ن ك ڤ د بذلك وتابعوه ومن له صلة به. وراقبوهم مراقبة دقيقة.. وعندما تجمعت لل ن ك ڤ د قائمة تحوى اسماء عدد كبير من الناس، القى عليهم القبض جميعا ومرة واحدة.

وقد اعترف كوردوبيالو بكل شيء .. وارتفع عدد المعتقلين الى مائتين. اغلب السجناء انكروا .. وقالوا ان معرفتهم به معرفة سطحية ولا يعرفون بقية الافراد الذين معه ..

رئيس القيادة ميشا كان طويل القامة ضعيف البنية، له شوارب قصيرة اصلع الرأس في العقد الرابع من عمره .. حكى لى كيف اشترك في المؤامرة.

— لم تكن لى صلة بالسياسة .. كنت رئيسا لعصابة نهب في اودسا اشتهرت بنهبها للبنك الحكومى عام ١٩٣٤ نهبنا اربعة ملايين روبل اى ما يساوى حوالى مليون ونصف بالعملات الاجنبية .. ومضت سنتان لم يعثر لنا فيهما على اثر .. احد مساعدى وشت به عشيقته بالرغم من جهلها التام لعملية النهب .. وهكذا قبض علينا.

في نورلسك كان ميشا صاحب نفوذ واسع كبير بين المجرمين كان يضع الشرائع التى تحكم المجرمين داخل السجن وعندما اتوا به لزنزانتنا لاحظت ذلك سريعا .. قفز كل مجرم من مكانه وتواثبوا اليه يقدمون فروض الولاء والطاعة.

لم يكن في حاجة الى الكلام معهم .. كان يشير بيده فتلبى كل رغباته كان يشبه المثقفين في هيئته العامة .. وقد حدثني كثيرا عن حياته .. بالقرب من اودسا كان والده يملك ريعا جميلا . خصصه لزراعة الفاكهة والخضر. واستطاع ان ينافس به المزارعين البلغار الذين كانوا يحضرون الخضر من ضواحي اوديسا لسوق المدينة.

وكان ايضا يمون السفن الراسية في سينا اوديسا بالخضر والفاكهة .. ويمتلك شاحنة خاصة به لترحيل منتوجاته الزراعية .. وفي عام ١٩٢٩ بدأ تطبيق نظام الكولخوز .. ومن اوائل الذين تخلصوا منهم وصادروا ممتلكاتهم .. كان والد ميشا .. وشحنوا عائلته المكونة من تسعة افراد ومعهم اربعة عشر عائلة اخرى شحنوهم في قطار من قطارات البضاعة ارسلوهم الى سيبيريا ولكن ميشا واربعة من الصبيان قفزوا من القطار وعادوا الى اوديسا تموا بعض الوقت في طرقات المدينة متسكعين .. وعندما انتهى المال الذى معهم امتهنوا نهب وقطع الطريق ..

وبعد عملية النهب الكبيرة للبنك كان عليهم ان يرحلوا من اوديسا فقد كان البوليس وراءهم .. وعندما ألقى القبض كان ميشا يفكر في طريقة ينتقم بها من السلطة السوفيتية كل ما فعلته بعائلته.

وفي القسم الاول حصل ميشا على عمل سهل شأنه في ذلك شأن عتاة المجرمين .. كان مراقبا في محطة توليد الكهرباء .. وكان له وقت فراغ كبير ومقدرة على الاتصال بالعالم الخارجي .. وبمعاونة آخرين استطاع ان يتحصل على اشياء كثيرة جعلت حياته في السجن مريحة .. لم تكن تنقصه حتى الفودكا وكانت له عشيقة .. هي المراة التى تقوم بالنظافة.

وكان قد بدأ يفكر في الهروب من السجن عندما اندلعت الحرب .. وتعرف على كوردوبيالو الذى كان يعلم شيئا عن صراع ميشا مع السلطة ومن اتصالاته بالعالم الخارجي ايضا.

وعندما ساءت الاحوال في جبهة القتال. تحرك العقيد كوردوبيالو لاسترداد حريته باعتبار ان هذه هي الفرصة المثلى .. كان قد استرحم لستالين ـ في البدء ـ شأنه في ذلك شأن غيره .. وقال انه برىء وانه مستعد للتوجه فورا الى جبهة القتال لكى يضحى بحياته من اجل وطنه .. ولكنه لم يتلق ردا على استرحامه ذاك.

وشرع كوردوبيالو عندها يخطط لتنفيذ ما يجول برأسه .. اما ميشا فقد كتب هو الاخر لستالين وكانت فرصته اكبر .. فهو ليس سياسيا وكان غيره قد نال حريته واطلق سراحه بمثل ذلك الاسترحام .. وارسل لجبهة القتال.

ولكن وبما ان ميشا كان ابن فلاح ثرى من الذين صودروا ونفوا الى سيبيريا فقد حذف اسم ابنه من قائمة الذين اطلق سراحهم وسرعان ما تآلف كوردوبيالو وميشا واتفقا على كل شيء .. وكونا قيادة لجهاز الانتفاضة .. مهمتها تجنيد اكبر عدد من السجناء والاتصال بالعالم الخارجي .. وبالذات مع الذين كانوا سجناء سابقين وحسب خطتهم كان على رجال مقاومتهم احتلال مبنى ال ن ك ف د .. ادارة مصنع نورلسك ادارة السجن المبنى الرئيسى لحرس السجن .. وبعد ان نجحوا في استقطاب عدد كبير من السجناء .. ومن المدنيين على السواء. ولم يكن غالبية الذين جندوا يعرفون شيئا عما يحدث .. لم تكن لديهم اية افكار عن ذلك .. لان الرؤساء جمعوا المعلومات عن هوية كل سجين واحتفظوا بالاسرار لانفسهم .. ووضعوا كشفا بالاسماء .. وقد كان كشفهم يضم اسم هجيناك .. وهو خالى الذهن عن

مغامرة كوردوبيالو .. وكانا يتقابلان فقط في الاعمال الرسمية ..وكان هجيناك مسؤولا عن قسم الامدادات في مصنع الالات الحديدية .. وعلى الرغم من ذلك ألقى كوردوبيالو التهمة عليه وقال انه كان يعلم بجميع الاستعدادت للانتفاضة.

كان هجيناك في الخمسين من عمره قوى البنية .. قصير القامة .. يحمل في وجهه ذقنا طويلة جللها الشيب .. كان عاملا من اعضاء الحزب القدامى وبعد الثورة كان مديرا لاحدى المؤسسات .. وفي عام ١٩٣٧ ألقى عليه القبض بمدينة منسك وحوكم بعشر سنوات سجنا .. والتهمة هي التخريب.

وشىء مشابه من ذلك حدث للشاب الصغير مشكى الذى جاء من روسيا البيضاء وقد حكم عليه بالسجن لعشر سنوات ايضا .. كان شاحب الوجه، كستنائى الشعر .. في الرابعة والعشرين من عمره .. كان يصطنع العبط ويدعى البلاهة بأكثر مما يوحى مظهره. ودون ان يتوقع شيئا وجد نفسه في كشف المقاومة ..

كان مشكى يعمل خراطا في المصنع .. وفي اوقات فراغه للمقاومة، فقال انه يصنع المقصات والمدى .. ولكن ذلك ليس للمقاومة.

وكان ذلك كافيا للثورة المضادة .. استمرت المحاكمات ضد رجال المقاومة لمدة اسبوعين .. وبعد مضى الشهرين في حجرات السجن .. وفي احدى الليالى سمعت صياحا وضربات عنيفة وجاء دور زنزانتنا وكان بها ثلاثة من اعضاء جماعة كوردوبيالو .. انتزعوهم من الزنزانة انتزاعا وبقى فقط مشكى الصغير.

دعوه في اليوم الثانى ليوقع على ورقة كان بها .. انه اشترك في منظمة للثورة المضادة والتجهيز لانتفاضة مسلحة .. وحوكم بعشر سنوات سجنا.

ومن المائتين الذين قبض عليهم في تلك الانتفاضة اعدم مائة واربعة وستون سجينا رميا بالرصاص. اما البقية فبعشر سنوات سجنا لكل منهم.

اليوم الذى كان حكم الاعدام سينفذ فيه حكى لى هجيناك انه في الليلة السابقة له حلم حلما مزعجا ..

ــ احس باننى لن اكون معكم بعد اليوم.

واقتادوا ميشا رئيس كل المجرمين .. «ورئيس القيادة»

واستلم افانوف اعباء قيادة المجرمين في زنزانتنا .. وبالرغم من ان المجرمين اعترفوا بقيادته الا انه لم ينل ما كان لميشا من احترام ونفوذ وكان ميشا يدافع ويزود عنا نحن المجرمين السياسيين ولا يسمح للمجرمين بمهاجمتنا قط.

وعندما صفيت مجموعة كوردوبيالو وفي نفس الاسبوع رموا مجموعة كبيرة بالرصاص .. كان من بينهم افانوف ايضا .. كان ذلك يوم الاحد .. وعند الظهيرة اقتادوا المجرمين للموت .. لم يكونوا يرغبون في ذلك .. ربطوهم بالحبال .. وادخلوا في افواههم شيئا اسمه الكمثرى .. كمية من المطاط القوى على شكل ثمرة الكمثرى .. منعا لصياحهم.

ضربهم الحرس حتى سالت دماؤهم وحملوهم كقطع الاحطاب وشحنوهم في العربات الى سجن آخر. وهناك اعدموهم بالرصاص .. كان الحال مع السجناء السياسيين مختلفا، ذهبوا دون ضوضاء بشجاعة ورضا ودعونا قائلين..

ــ التحية يا رفلق ..

ذهبوا في هدوء .. وبساطة .. وفي عصر ذلك اليوم نفسه رموا بالرصاص ثمانية واربعين مجرما بتهمة التخريب ..

وهذا يعنى انهم لم يريدوا ان يعملوا فى وقت الحرب عملا كافيا وكان عدم الذهاب الى العمل لمدة ثلاثة ايام يعنى ان يقدم السجين للمحاكمة .. وكانت هيئة المحكمة المختصة تطبق المادة ٥٨ الفقرة ١٤ وكان ذلك يعنى الموت .. قبل الحرب كان المتمردون على العمل يحاكمون اداريا فقط .. بعد تلك الاعدامات الجماعية ساد الهدوء لايام ولم يدع احد للاستجواب.

التحقيق يستمر

وفوجئت مرة اخرى عند التحقيق .. لقيت فى غرفة المتحرى شاهدا من شهود الاتهام ضدى .. وكان موجودا بالمستشفى فى نفس الوقت الذى كنت فيه هناك .. وشاءت سخرية الاقدار ان يكون اسم هذا الشخص ايضا بروكفن .. لم يكن له صلة قرابة ببروكفن الاول رغم الشبه الظاهر بينهما.
واعيدت نفس المسرحية ونفس التهمة ضدى .. لم يتغير شيء .. سوى عدم اقامته .. بالغرفة التى كانت بمثابة المسرح المختلف الديكورات والتى كان يشاركنى سكناها بروكفن .. الاول .. اما هذا فقد ذكر انه جاء يزور صديقا فسمعنى احدث سستر اولقا بحديثى الخطير.
وصمت التزاما بالمنهج الذى قررت التمسك به .. ووقع الضابطان على المحضر.
اخبرونى ان فى الزنزانة المجاورة صديقى جورج بيلسك وانه متهم فى قضيتى ذاتها، ولكنه يواجه موقفه كمتهم ثان .. ثم علمت انه اضيف الى مجموعتنا بدون وجه حق اذ انه فى القسم الثانى للمعسكر . وكانت هذه هى المرة الثالثة التى يتهم فيها جورج بيلسك .. المرة الاولى حوكم بخمس سنوات سجنا فى موسكو .. وكان مفروضا ان يطلق سراحه فى التاسع عشر من اكتوبر عام ١٩٣٩.
وقبل خروجه تجمعنا فى عنبره عند الاصيل .. غاسليا جوبراكوف .. جوزيف بيرخر .. وشخصى .. لكى نحتفل بخروجه ووداعه .. كان ذلك حدثا يستحق .. فسيرحل عنا خير الاصدقاء.

ونجح جوبراكوف فى الحصول على زجاجة من الليكير .. كانت تلك هى المرة الاولى التى اذوق فيها الكحول منذ اعتقالى .. ونجح بيرقر ايضا فى الحصول على قهوة حقيقية .. وفى تمام الثامنة مساء جلسنا على الكنبات وطلبنا من النوبتجى .. وكان هو السكرتير السابق للجنة الحزب فى منطقة ساراتوق، حتى يقوم بصنع القهوة لنا، واستنشقنا رائحتها النفاذة الطيبة .. وسحبنا من المخبأ زجاجة الليكير وصببنا قليلا من القهوة.
وفى اللحظة التى كنا نمنى انفسنا فيها بشرب انخاب الوداع السعيد لجورج ظهر على عتبة الباب رجلان من بوليس المعسكر وهببنا فزعين لابد ان احدا قد وشى بنا وعند اقتراب رجلى البوليس اسرعت بخطف زجاجة الليكير واخفيتها فى بنطالى.
ــ من منكم هو بيلسك ..
ــ نعم .. هو انا ..
ــ هل انت هنا .. جيد
وخرج رجلا البوليس ونظرنا بعضنا الى بعض .. ما الذى يعنيه كل هذا ..
لقد فسد المزاج وتعكر الجو وفى اللحظة التى كنا نستعد فيها لمغادرة العنبر دخل علينا نفس الرجلين من البوليس ومعهما آخر يرتدى الملابس المدنية واقترب الرجل المدنى من بيلسك قائلا ..
ــ خذ حاجياتك وهيا معى انت مقبوض عليك..

ونقد بيلسك الامر بدون كلمة واحدة وهكذا انتهت حفلة وداعنا .. اتهموا بيلسك مرة اخـرى بالثورة المضادة تحت المادة ٥٨ الفقرة العاشرة وامام محكمة السجن شهد ضد سجينـان ..احـدهما اعلن انه سمع عبر الحائط بيلسك يدعو للثورة المضادة والشاهد الثاني كان هو رئيس القسم الصحي .. الذى قال انه لا يستطيع ان يذكر شيئا محددا .. ولكنه يؤكد ان بيلسك عنصر من عناصر الثورة المضادة وهكذا حكم على جورج بيلسك بخمس سنوات سجنا ولم نره بعدها ابدا.

عيد ميلاد المسيح ١٩٤١

وجاء عيد المسيح .. وجاء معه برد غريب تكسرت منه الاشياء درجة البرودة اربعون تحت الصفر .. لم نرد ان نتمشى فى فناء السجن .. كان الامر عذابا لا يطاق والما لا مزيد عليه .. كنا نفضل الجلوس فى الزنزانة نجتر الذكريات الجميلة .. كان بيننا رجال يحلمون بالعودة يوما ما الى محيط اسرهم .. حتى يحتفظوا بذكرى ميلاد المسيح .. وتحدث الرجال بعاطفة حارة عن عطلة السلام .. وبعضهم امتلأت عيناه بالدموع .. وهناك بينهم من جاءه يقين بانهم لن يشهدوا عيد الميلاد القادم وعندما كنا نتحدث فتح الباب ودخل علينا رجل فى خرق بالية .. يحمل بيديه شيئا شبيها بغطاء الرأس ووقف لحظة وقال فى صوت خفيض.

ـــ طاب نهاركم ..

وفكرت .. انه بالتأكيد ليس روسيا .. كان ضعيفا لا يكاد يقف على قدميه .. نظر حوله يبحث عن مكان يجلس عليه .. فتحركت نحوه وسألته ..

ـــ من اين جئت ..

فنظر نحوى بطرف عينيه ولم يقل شيئا .. فعرضت عليه ان يجلس وسألته

ـــ لم تقل لى من اين اتيت واى لغة تتحدث..

فقال بصعوبة وهو يتمتم.

ـــ انا من المجر ..

ـــ هل تتحدث الالمانية ..

ـــ قليلا..

وجلس لوقت قصير .. ثم شرع فى فك الخرق التى كانت عليه .

ـــ هنا الجو ساخن ..

وبرك على رجليه وتابع ما كان يقوم به .. وعندما خلع عددا من الخرق البالية هالنا ان نرى امامنا هيكلا من العظم والجلد .. ولم نصدق انه بشر مثلنا .. عندما استلقى ساكنا امامنا حتى تحرك فأيقنا انه حى .. وبدأ المجرمون فى السخرية منه .. وجهوا اليه اسئلة محرجة غريبة ..

ـــ ما الذى بك يا اخ .. انت من بعيد .. ها ..

ـــ اين عفشك ..

ولم استطع فى ذلك النهار محادثته .. واطلق عليه الصحاب اسم «القادم».

وفى اليوم التالى عندما هدأ واطمأنت نفسه تحدث .. علمت انه هرب من مكان عمله .. ولكنهم القوا عليه القبض وسألته:

ـــ اين كنت تنوى ان تذهب عند هروبك ..

ـــ الى منزلى فى رومانيا ..

ـــ هل تعلم بعد المسافة بينك وبين ما تريد ..

وهز منكبيه ولم يجب .. وبعد الافطار بدأ يتكلم بكثرة .. حدثنى بخبره كان فى الاصل من ترانسلفانيا، من كيوبت .. التى كانت تابعة لرومانيا ولكنه مجرى الجنسية استدعى عام ١٩٣٩ للتجنيد الاجبارى بالجيش الرومانى .. وارسل للثكنات فى بيسارابى وبعد تحالف هتلر وستالين .. اصبحت بيسارابى تابعة لروسيا فقام هو وخمسة من ابناء جلدته

بسحرك نحو الحدود المجرية مشيا على الاقدام .. قائد القوات السوفيتية اعطاهم تصريحا بذلك.
ووصلوا الى فوروهت فجلسوا للراحة، وهم على بعد خمسة كيلومترات من الحدود المجرية .. وظهر فجأة اماهم ضابط ال ن ك ڨ د وسألهم ماذا يفعلون هناك .. فأعطوه التصريح قائلين انهم فى الطريق الى منازلهم ودعاهم الضباط للذهاب معه للقيادة .. وهناك كتبوا اسماءهم وبعد ساعات من الانتظار نقلوهم الى مدينة كوسوف وهناك تم حبسهم وبعد ثمانية ايام رحلوهم فى شاحنات الى مدينة ستانسف ثم جرى ضمهم الى قوافل الترحيلات الجماعية التى ذهبت نحو مدينة كرسنوبارسك .. ومنها ابحرت بهم سفينة الى نورلسك وهناك قرأوا عليهم الحكم وكان منطوقه ..
ــ خمس سنوات سجنا مع الاشغال الشاقة لكل منهم ..
والتهمة هى الهروب وعبور الحدود السوفيتية.

كان الجو غير محتمل بالنسبة لهم .. تمزق الشاب المجرى القوى وتهلهت صحته فأصبح هيكلا من العظم والجلد .. وانسدت امامه كل المسالك ففكر فى الانتحار ولكن شجاعته تخلت عنه فى اللحظات الاخيرة وأستقر رأيه مرة اخرى على الفرار .. وانتظر حتى تحسنت صحته قليلا .. فشرع فى تنفيذ شىء مستحيل .. وقبض عليه لم يستطع المتحرى ان يتفاهم معه قط .. وعندما جرب كل الوسائل وفشل فى ذلك استدعانى بناء على طلبه لاترجم له .. وحاولت ان اوضح للمتحرى ان محاولة فرار هذا الرجل ينبغى ان لا ينظر اليها بعين الجد .. لان هذا الهيكل العظمى الذى تبقى من الرجل لا يستطيع ان يخطو عشر خطوات على بعضها .. وكان المتحرى ذكيا استبدل المادة ٥٨ الفقرة ١٤ التى تحاكم بالموت .. استبدلها بالمادة ٨٢ التى تقضى بحبسه خمس سنوات سجنا.
وحكمت عليه محكمة المعسكر بثلاث سنوات سجنا فصار مجموع مدة الحكم عليه ثمانية اعوام .. للعديد من الايام بقينا سويا فى الزنزانة كان المجرى سعيدا ولم يجبروه على العمل الشاق لسوء صحته .. فبقى يستمتع بالدفء. وكان يخشى اليوم الذى ينقل فيه الى معسكرات العمل الاجبارية .. فى بعض المرات كان يجلس فى الركن ويبكى بصوت مؤثر .. خففت عنه بقولى ان الحرب ستنتهى وسيعود الى اهله .. ولكنه قال لى ان ما يبكينى اكثر مصير امى .. عندما يصل الروس الى كوبيت سيطرودنها من المنزل .. وربما ارسلوها الى مثل هذا المكان فتموت من البرد ..
وابتسمت .. كان ذلك فى ينـايـر عام ١٩٤٢ وكان الالمان يتقدمون داخل روسيا وهذا القروى البسيط تركزت مخاوفه فى الروس سيأخذون قريته كوبيت .. وعندما فكرت فى ذلك بعد حين، وجدت انه كان محقا فى مخاوفه، ثم ارسل المجرى الى المعسكر .. ولم اره مرة اخرى .. ولست ادرى ان كان قد التقى بأمه ام لا ..

الكلام عن كيفية تنظيم الكولخوز

تغير سكان الزنزانة .. جميعهم وبقيت انا .. مضى نصف العام وسحب المجهول تعشش في رأس السجناء الجدد حملوا معهم اخبارا متضاربة كثيرة رجال البوليس زادت عصبيتهم وتوترهم لتقدم الالمان ومما اشعل نيرانها اكثر جرأة المغامرين امثال كوردوبيالو .. الاعدام كان يوميا .. وكانت الرؤوس تبتل بالدم كل صباح جديد فرصتنا في النجاة كانت ضعيفة للغاية ..

في سجن ال ن ك ف د وصلت مجموعات جديدة من معسكرات مختلفة خاصة معسكرات المدينة .. كان يكفي ان يشكو احد السجناء من قسوة العمل .. حتى يتدخل ال ن ك ف د .. حتى المجرمون لم تكن احوالهم سليمة.

اعدموهم بالجملة ـ في مجموعات ـ داخل الزنزانات كانت مناظر العسف والتنكيل محزنة للغاية .. المجرمون الذين كانوا يعلمون بان أيامهم في الحياة معدودة .. كانوا يرهبون المساجين السياسيين كانوا يأخذون الخبز منهم عنوة .. واساؤا اليهم كثيرا .. وهددوهم بان قدوم هتلر وشيك، ليشنق كل الشيوعيين ويعلقهم على الاعمدة.

وهؤلاء المجرمون هم ابناء القرويين .. وكانوا ينظرون الى السجناء السياسيين باعتبارهم مسؤولين عن ضياع حقوق آبائهم .. وعن نفيهم الى سيبيريا .. الشاب كوليا كان احد اولئك الذين يسبون السجناء السياسيين وكان متطرفا عنيفا .. بعد اعدام ايفانون تولى قيادة ورئاسة المجرمين في زنزانتنا ..

علاقتي به كانت جيدة جدا .. فلم يكن يعلم باني شيوعي وكانت علاقته بالاجانب يسودها الاحترام والعطف .. كان يلح علي بدون انقطاع ان احدثه عن الحياة في الخارج .. وكل مرة كنت اتحدث فيها عن النمسا او فرنسا او يوغسلافيا كان يعيد على نفس السؤال:

ـــ هل يوجد هناك كولخوز ..

وعندما كنت اجيبه بانه لا توجد في تلك البلاد كولخوزات جماعية كان يتهلل بالسعادة والفرح .. وعندما الح على مرة لاحدثه عن الحياة في الخارج انتهزت هذه الفرصة وسألته ..

ـــ لماذا تكره الكولخوز الى هذا الحد ..

ـــ سأحكي لك هذه القصة ..

ـــ أرجو ان تفعل ..

ـــ حسنا .. عاش والدي في قرية تبعد حوالى الستين كيلومترا من كراسنودار .. وكان والده ـ جدي ـ يمتلك اثنتي عشر هكتارا من الارض الخصبة الجيدة وقد عمل فيها هو وعائلته المكونة من اربعة عشرة شخصا.

وفي عام ١٩٢٩ دارت اخبار مفادها .. ان كل المزارع ستصبح جماعية وتحدث القرويون في ذلك الامر كثيرا .. لم يكن احد منهم يعلم ماهية المزارع الجماعية .. بعضهم كان يتحدث عن النساء سيصبحن ملكا للجميع .. وبعضهم قال ان الاطفال سينتزعون من احضان ذويهم .. الخ..

ولم يتحدث احد قط عن الذي سيحدث للارض والبهائم.

واغلب المزارعين كانوا يمتلكون ملكيات تتراوح مساحاتها بين الثمانى هكتارات وبين الثلاثين هكتارا .. وبعضهم كان يستأجر الفقراء معه .. ولكن الاغلبية كانت تعمل بعائلاتها فى فلاحة الارض .. وفى ايام الحصاد يتعاون الجميع .. من الاطفال فى سن السادسة حتى الشيوخ الكبار.

فى قريتنا كان تعداد السكان حوالى الالفين وكان تعداد الفقراء قليلا لا يكاد يذكر .. فى خريف ١٩٣٠ جاءت لجنة للمنطقة ودعت كل القرويين وحضر الجميع ماعدا الاطفال والمرضى .. وترأس الجلسة قروى فقير .. واعلن ان سكرتير لجنة الحزب للمنطقة يريد ان يتحدث عن الكولخوز.

ووقف شاب يتحدث لمدة ساعتين عن الكولخوز .. وفى النهاية دعى كل الذين يؤيدون السلطة السوفيتية ان ينضموا للكولخوز .. وبعدها طلب رئيس اللجنة ان يفتح باب المناقشة .. وقال انه يعطى الكلمة لمن يريد الحديث .. وصمت الجميع .. وبالرغم من ذلك تقدمت احدى بنات الكوزاك وسألت:

ــ كيف يكون ذلك الكولخوز، هل هو مؤقت ام دائم..؟

ــ من اليوم سيكون الكولخوز والى الابد.

كانت تلك هى اجابة السكرتير .. وساد القاعة هرج ومرج شديدان ..

ــ لا ... لا .. هذا ما لا نريده ... اذا كانت المزارع جماعية للابد لن ننضم للمزارع الجماعية .. وتحدث السكرتير مرة ثانية عدد محاسن الكولوخوز .. وتحدث عن الالات الزراعية الجديدة التى سوف تدخل مجال الزراعة .. وكذلك عن الحصاد الوفير و .. و .. الخ الخ وعندما كان يتحدث طار حجر فى الهواء وبدات الفوضى .. وهاج الناس وماجوا .. وساد الهرج المكان.

وانسحبت اللجنة الحزبية بصعوبة بالغة.

وبعد اسبوعين جاء عدد من رجال المدينة .. دعوا بعض القرويين فى مجلس القرية، واخبروهم بأنهم مزارعون ويريدون تشغيل نفر من الفلاحين.

كانت خدعة كبرى .. تم عن طريقها انتزاع الارض .. وتمليكها واقتسامها .. وتدهورت الامور اثنان وعشرون عائلة من اغنياء فلاحى القرية الذين كان يشار اليهم بالبنان انتزعوا منهم كل شىء .. الزرع .. والضرع .. والمأوى كل الممتلكات اصبحت ممتلكات للكولخوز.

وفى اليوم التالى مباشرة اسست قيادة لجنود ال ن ك ق د .. ولم يستطع احد من القرية التحرك .. وبصحبة بعض الفلاحين مرت اللجنة على منازل احد الاغنياء واخرجتهم بالقوة من منازلهم .. سمح لهم بأخذ القليل من المواد التموينية .. بعضهم رضى الخروج بصمت فأسكنوهم فى منازل صغيرة عينتها لهم اللجنة .. والبعض الاخر رقد على الأرض مع الاطفال ورفضوا مبارحة منازلهم .. فكسر الجنود الابواب حملوا الناس الى خارج منازلهم بالقوة .. وبكى الجميع .. سادت اصوات النواح الحزين واختلط بصياح الاطفال وسباب ولعنات المسنين .. فى ذلك اليوم نجحت اللجنة فى العمل الذى اوكل اليها .. واصبحت الارض مناصفة جماعية.

اربعة من الفلاحين قاوموا .. كان سلاحهم المعاول والمناجل .. فقبضوا عليهم الاربعة

.. قيدوهم وذهبوا بهم الى مكان مجهول وكانت اصوات الابقار الجائعة والتى لم تحلب بعد تتصاعد فى خوار حزين. وفى اليوم التالى ارادت اللجنة استئناف عملها ولكنها واجهت مقاومة شديدة.

تجمعت القرية وتسلحت بالمعاول والمناجل .. فاضطرت اللجنة للانسحاب وذهب الفلاحون الى منازل الذين تعاونوا مع اللجنة واخرجوهم الى الطرقات وداسوهم بالاقدام .. فمات اربعة منهم .. والباقون لاذوا بالفرار .. فكانت نجاتهم من الموت، به ..

ورجع الاغنياء الى دورهم .. ومرت ثلاثة اسابيع لم يأت فيها احد الى القرية وفى ذات ليلة هبت القرية مفزوعة على عواء الكلاب واصوات الشاحنات والاضواء الكشافة الحادة .. ولم يجروء احد على الخروج من داره .. وفى السادسة صباحا طرق الجنود ابواب الدور .. وامروا الفلاحين بالحضور الى مجلس القرية فلم يكن بد من ذهابهم . وامام مجلس القرية جلس سكرتير لجنة المنطقة وضابط ال ن ك ق د .. الذى اخرج ورقة وقرأ قرار اللجنة التنفيذية للمنطقة .. وقد جاء فيه.

ان كل الذين قاوموا وتسببوا فى مقتل الاربعة فلاحين صدر قرار بنفيهم واسرهم الى سيبيريا .. ومن اراد خلاف ذلك فسيقدم للمحاكمة بتهمة القتل .. اما منازلهم واراضيهم فسيحصل عليها من لا منازل او ارض لهم.

ثم نظروا فى تنظيم الكولخوز .. بعد ذلك شحنوا فى شاحنات اثنين وعشرين عائلة .. وقادوهم تحت الحراسة المشددة الى جهة مجهولة .. واسكنوا فى دورهم الفقراء من اسر الفلاحين وعددهم ثمانون اسرة ...

وفى الصباح التالى عقدوا اجتماعا دعوا له الذين لا ارض لهم فقط .. وفى الاجتماع صدر قرار بتاسيس الكولخوز .. وتم اختيار عامل من مصنع هاركوف لصناعة القطارات كان قد ارسله الحزب ليكون رئيسا للكولخوز .. واختير اكبر منازل الفلاحين ليكون مقرا للكولخوز الجديد .. واطلق عليه اسم ..

ــ الطريق الى الاشتراكية ..

وساد القرية ذعر شديد وبدأ الفلاحون فى ذبح انعامهم.

ذبحوا خلال الشتاء فقط حوالى ثلاثة الف بقرة .. وثورا وحصانا .. اما الانعام الاخرى كالخنازير والخراف والاغنام فقد كانت اعدادها اضعاف ذلك بكثير .. وفى الربيع كان من النادر رؤية بقرة هنا .. او هناك .. وبدأ الكولخوز عمله.

جمعوا فى حظيرة كبيرة .. من المزارع المهجورة الحيوانات من خيل وخنازير وبط ودجاج .. الخ .. وعينوا رجالا للعناية بها وفى ظرف ثلاثة اشهر نفق نصف هذه الانعام.

وجاء الربيع .. كانت اعمال الكولخوز تتقدم ببطء شديد لم يكن هناك أناس ليفلحوا الاراضى الشاسعة .. كان الفلاحون خائفين ان يعملوا بجد وجهد فيؤخذ حصاد عملهم .. ولذلك فقد عملوا بالحد الادنى لما يمكن ان يقيم اودهم فقط .. هم وانعامهم.

وفى الخريف حضرت اللجنة .. وقررت على كل فلاح معدل انتاج احصائى يعطيه للحكومة من القمح واللحم واللبن والزبد كان المقرر عاليا بحيث لم يبق للفلاحين شىء .. اما الذين فشلوا فى تقديم ما طلب منهم فقد حوكموا باحكام قاسية ثم اعلنوا انه يجب مضاعفة العطاء .. وعجز الفلاحون عن الوفاء بالمطلوب .. فجاءت مجموعة من ال ن ك ق د ورجال الحزب مروا على الدور واخذوا القمح من الفلاحين .. بحثوا عنه فى كل

مكان. في المستشفيات والحظائر وتحت ارضية المنازل حفروا ونبشوا وتسلقوا واستعانوا بالكلاب البوليسية التي دلت على مكان القمح ..
وعندما جاء المساء بقي كل انسان خائفا ولم يجرؤ اعضاء الحزب او رجال الكولخوز الجديد على الخروج الى الشارع .. خوفا من الانتقام .. وذات صباح وجدوا رجلا من اعضاء الحزب مبقور البطن .. حشى جوفه بالقمح .. والصقوا عليه ورقة كتبوا عليها ..
ـ هذا هو القمح ..
ومع الشتاء جاء الجوع .. القليل الذى تبقى من الماشية ذبحوه واكلوه وفي عام ١٩٣١ استطاع الفلاحون الجوعى ان يحرثوا الارض بعد جهد مهلك .. مات منهم الكثيرون جوعا وارهاقا وذهب الكثيرون الى المدن ليتسولوا وبذلك فقط انقذوا حياتهم ... وهل الصيف .. وبقيت الارض غير مزروعة جرداء تشكو الظلم والجفاف .. ومرة اخرى جاء رجال ال ن ك ڤ د ..واعلنوا انه وبتهمة التخريب تم نفى معظم الفلاحين الى سيبيريا .. واعطوهم مدة ثلاث ساعات ليجمعوا اشياءهم كل عضو في الاسرة كان بامكانه حمل ستة عشرة كيلوجراما.
وقادوهم الى محطة السكة الحديد وشحنوهم في قطارات البضاعة تحت حراسة ال ن ك ڤ د واوصلوهم الى سيبيريا في الطريق اعطوهم الماء الساخن والقليل جدا من الخبز .. ودامت رحلة العذاب اربعة اسابيع . ثم توقفوا في مدينة فرهن اودنسك كثيرون ماتوا معاناة لذلك الوضع ومرض معظمهم.
والذين بقوا على قيد الحياة وضعوهم في عنابر لمدة اربعة عشرة يوما .. ثم قسموهم الى ثلاث مجموعات ووجهوهم وجهات مختلفة.
المجموعة التى كنت فيها ذهبت بصحبة ال ن ك ڤ د الى مكان لم تكن تعرفه .. في العربة وضعوا الاطفال والعجائز وحاجياتهم.
اما البقية فسارت على الاقدام عبر الغابات والاحراش .. في الطريق قابلنا المحكومين بالاشغال الشاقة يقطعون الاشجار كنا بعد مسيرة ما يقارب الخمسة والعشرين كيلومترا نرتاح في الخيام او العنابر التى اقام بها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة.
فاذا امطرت السماء انتظرنا اياما عديدة حتى تنشف الارض ونستانف السير . كان الوحل رهيبا ويصل الى اعلى الساقين وتقدم الركب الى مسافة ثلثمائة وخمسين كيلومترا داخل الغابة .. ثم توقف المسير .. كانت المجموعة تضم مائتين من الرجال.
حول مجرى للماء وبجانب ارض خضراء جمع ضابط ال ن ك ڤ د المنفيين وقرا عليهم قرار الحكومة:
«الفلاحون الذين جاءوا هنا ليبقوا الى ابد الابدين سيقسمون هذه الارض في دائرة قطرها مائتان وخمسون كيلومترا مربعا .. هنا يمكن حرث الارض وزراعتها وتربية المواشى من يترك هذا المكان سيحاكم بعشر سنوات سجنا .. لقد ارتكبتم جرما خطيرا ضد الدولة السوفيتية .. وكان من المفروض ان يكون الحكم هو الاعدام رميا بالرصاص .. ولكن رغما عن ذلك رأت الدولة السوفيتية ذات الانسانية والرحمة ان لا تقسوا في حكمها عليكم .. ومنحتكم هذه الفرصة في هذه البقعة الغنية ذات الارض الشاسعة المزدحمة بالغابات لتبدأوا حياة جديدة.
وستمنحكم الدولة السوفيتية سلاحا .. ويمكنكم الان ان تبدآوا في بناء منازلكم ..وسوف

تحصلون على قرض من البذور للزراعة».
ثم دعى بعد ذلك الفلاحين لازالة الحشائش وتنظيف الارض من الاعشاب .. ومن اجل اطعام المواشى ايضا .. وكل عائلة قالوا ستمنح بقرة تسدد قيمتها فيما بعد.

كانت هناك ايضا الجياد التى حملت ادوات الفلاحين وست بقرات كانت توفر اللبن للاطفال .. ومطبخ بولندى .. وهذه الاشياء التى بقيت اعتبروها هدية للفلاحين .. وفى فترة شهرين تم تشييد ثلاثين منزلا صغيرا من الاخشاب .. يحتوى الواحد على غرفة كبيرة ومطبخ .. قائد المنطقة السكنية كان ضابطا من ال ن ك ڤ د .. وهو رجل طيب ساعد الفلاحين كثيرا .. وقد كان يذهب لاحضار الطبيب او لجلب بعض المسامير من المعسكر المجاور على صهوة جواده لمسافة ثلثمائة كيلومترا .. مساعدة منه للناس .. وقد احضر من المدينة عشرين بندقية صيد ..
ووزعها على الفلاحين لكى يصطادوا بها الحيوانات المتوحشة التى كانت كثيرة فى تلك المنطقة .. وجاء الخريف .. فجمع قائد المنطقة السكنية الفلاحين قائلا..
ـ هذه القرية يجب ان تحمل اسما فماذا نسميها ..؟
اقترحوا .. وصمت الجميع .. ثم قال رجل عجوز مسن .. ساخرا ..
ـ اقترح ان نسميها باسم القائد المحبوب رئيس الحزب الشيوعى السوفيتى ولم يفطن قائد المنطقة السكنية لسخريته وقال ..
ـ من الافضل ان نعطيها اسما محايدا.
ووافق الجميع على اسم «برزوفك» وهو اسم شجرة القضبان التى كانت تنمو منها غابات تلك المنطقة وتتكون ومرت السنون واصبحت القرية الجديدة كغيرها من قرى الريف الروسى .. شوارع واسعة صفوف من الاشجار الضخمة وكانت الارض خصبة فأعطت انتاجا وفيرا .. وبنى الفلاحون خلايا النحل وربوه وجنوا منها الشهد وكانت معظم الاسر تملك بقرتين او ثلاثة وبعض الخنازير .. وفى وقت الصيد كان الفلاحون يصيدون الثعالب الفضية وبعض الايائل وتصالح القديم والجديد تعايشا بصدق ونسى الناس ما مضى وكان الشباب مقتنعا فبقى هادئا يعمل .
وفى يوم من الايام نقل قائد المنطقة السكنية لانه كان يملك حسن التفاهم مع القرويين .. وعين فى منصبه شاب قاس شديد وبدات المتاعب الجديدة .. امر بعدم السفر من القرية الا بتصريح صادر منه .. وعندما يحاول احدهم الحصول على التصريح كان يستجوبه استجوابا حقيقيا .. لماذا وكيف وكم ومتى ...الخ.
ثم تذكر يوما شيئا خطيرا هو ان الفلاحين اصبحوا اغنياء وذلك يشكل فى رايه خطورة على الاتحاد السوفيتى .. فسافر الى المناطق المجاورة وعاد بعد سبعة ايام ومعه رجل آخر جمع القرويين وخطب خطبة قصيرة ..
ـ لقد حان الوقت لكى تنظموا الكولخوز.
وصمت الجميع لم يقاوم احد الفكرة .. فقد كانوا يعلمون ما ينتظرهم واسس الكولخوز هنا ايضا .. وعين الرجل الذى اتى مع قائد المنطقه السكنية رئيسا له.
وعندما اتى فصل الشتاء هربت .. انا ـ كوليا ـ ومعى اربعة من القرية .. وفى الطريق هاجمنا رجلا عائدا من المدينة ونهبنا حافظة نقوده ووثائق اثبات شخصيته .. ثم هاجمنا

رجلا اخر ايضا واخذنا ما معه .. وفى المرة الثالثة قاومنا من هاجمناهم واستنجدوا بأهل الجوار فقبض علينا وسلمونا لمركز البوليس وحكم على كل واحد منا بعشر سنوات اعمال شاقة وفى المعسكر قتلت رجلا يدعى «ناريادجكا» المسجون الذى كان يوزع العمل على بقية السجناء وكان ظالما .. ورفض اعطائى عملا سهلا .. والان انتظر الحكم على بالموت لان جرمى كبير وشنيع.

الاعـــدام رميـــا بالـرصـــاص

كنت ارفض باستمرار التوقيع على اى وثيقة .. تقدم لى .. فى التحقيق .. ولم يدعنى قاضى التحقيقات للاستماع .. رغم رفضى ذاك وكان سجن ال ن ك ڤ د ممتلئا لدرجة جعلت جزء من معسكر العمل الاجبارى والخاص بالذين تحت التحقيق يضيق بهم المكان فينقلون الى سجن آخر .. السجن الاول كان من الخشب والثانى من الحجر وهذا هو الفرق الوحيد بينهما .. فى السجن الثانى كان الطابق الارضى طوله اربعين مترا وعلى طول الممر المظلم جزئيا كانت توجد على الجانبين عشرون زنزانة مختلفة الحجم .. وقد صفت كنباتها ليقيم فيها من اربعة الى اربعين رجلا ..

وكما فى السجن الاول كان نصف الزنزانات هنا مخصصا للذين حكم عليهم بالاعدا م .. يفصل بين النصفين باب حديدى له قضبان قوية فاصل غليظ بين الموت والحياة ..

وفى نهاية الممر كانت هناك اربع زنزانات تاديبية «كارسر» وعلى شمال المدخل الرئيسى يقع مكتب السجن وبجواره مساحة قدرها اربعون مترا، معزولة بحائط عازل متين .. وكان ينفذ فيها حكم الاعدام رميا بالرصاص ..وضعونى فى الزنزانة رقم ١٤..

وعندما دخلت تذكرت فى الحال سجن بوتيرك فى موسكو ثمانون رجلا كانوا يقيمون فى هذه الزنزانة .. يجلسون نصف عراة لان الغرفة كانت مزدحمة بالناس .. وشديدة القذارة قابلت معارف كثيرين من المعسكر وبعضهم كان من معارف السجن الاول فى نورلسك . هنا كان الكثير من الضباط السجناء خاصة من بلاد البلطيق كانوا لوقت قريب يقيمون فى معسكر مخصوص لضباط بلاد البلطيق فى بحيرة بياسين .. يبعد حوالى الاربعين كيلومتر من نورلسك وقد نقل جزء من الضباط الى السجن بعد مضى شهرين من بداية الحرب الالمانية الروسية.

حصلت على مكان بجانب الجنرال بروديس من استونية كان يرقد على يمينى وعلى شمالى يرقد مساعده الكابتن روبيروق وكان هناك ايضا الكابتن الاستونى ليوك وال لتونى . والصول قروهبيرق والكابتن ليداكس وآخرون .. لا تحضرنى اسماؤهم الان وكان اميز الضباط بدون شك هو الجنرال بروديس .. اصبحنا اصدقاء جيدين ..كان رجلا مثقفا للغاية وخبيرا عسكريا ممتازا . يتحدث بطلاقة اللغات الالمانية. الروسية، الانجليزية. الفرنسية والايطالية .. وكانت له معرفة واسعة بالثقافة الالمانية والفرنسية .. وقد قضى فى المانيا سنوات عديدة وقد درس فى فرنسا بكلية الاركان .. والقوا عليه القبض مع وزير الحربية الاستونى الجنرال لايدونير. الذى نفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص.

وفى سجن نورلسك الثانى كان يقيم السجناء الذين ينتظرون تقديمهم للمحاكمة. او الذين ينتظرون النطق بالحكم من محكمة «او . اس . او» محكمة الثلاثة المخصوصة التى كانت تنطق بحكم السلطة .. كثيرون من نزلاء هذا السجن كانوا لا يعلمون انه محكوم عليهم بالاعدام .. وعندما قادوهم للقاعة حيث نفذ فيهم حكم الاعدام رميا بالرصاص كانوا يعتقدون انهم سيمثلون امام المحكمة. ان الموت لم يكن افظع شىء هنا .. كان الانتظار المميت بالشهور والسنين هو العذاب الاكبر الذى جعل الكثيرين يتمنون الموت ويشتاقونه.

قابلت احدهم ويدعى تاتا من معتنقى الديانة المحمدية وكان يعيش فى القفاز .. هذا الشاب القفقازى حكمت عليه محكمة المعسكر بالاعدام لانه صرح بكلمات فى صالح الاتراك .. وظل ينتظر نصف عام الرد على طلب الاسترحام الذى قدمه .. وشطبت المحكمة العليا عقوبة الاعدام ولما لم تكن هناك مكاتبات لاعادة التحقيق قد حكمت عليه محكمة المعسكر بالاعدام مرة اخرى وتكررت هذه المسرحية ثلاث مرات .. واقام لمدة عامين فى زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام حتى فقد نصف عقله واخيرا ساعدوه واعدموه رميا بالرصاص.

كانت المشاجرات بين المجرمين والسياسيين تحدث كل يوم حامية الوطيس من اجل الخبز .. وحتى لا يحدث ذلك تم الاتفاق على ان توزع «نهاية الخبز» بالدور يوميا .. وحرص كل فرد على ان يحصل على نصيبه من «نهاية الخبز» او «رأس الرغيف» وكان كل واحد ينبه الاخرين قائلا فى المساء.

يا ريس ستاروستا غدا دورى.

وكانت خيبة الامل فاجعة كبرى عندما لا تصل فى الغد قطعة خبز واحدة ذات نهاية .. الوجبة الدافئة يقسمها الرئيس بنفسه .. فنطاز الاكل يوضع فى الممر امام الباب .. السجناء يقفون صفا واحدا ثم يسيرون بالاوانى الى حيث يوزع عليهم الرئيس الكميات بالتساوى ويقفل الباب بعد ذلك .. ويحدث كثيرا ان لا يتحصل الواقفون فى نهاية الصف على شىء من الطعام .. ومعنى ذلك ان بعضهم قد وقف مرتين فى الصف او يخطىء الرئيس فى العدد .. وكان بعض السجناء يفرحون بأيام الاعدامات الجماعية فما يتبقى من وجبات الاموات يوزع عليهم .. والجوع لا يرحم.

كان السجن أقل رتابة وسكونا من السجن الاول .. كانت الاحداث تتلاحق .. الاعدامات اليومية .. صيحات السجناء تطالب بالمزيد من الطعام .. الحرس يصيح بهم.

ــ انتم لستم فى حاجة لشىء .. ايامكم اصبحت معدودة.

وعندها تتعالى ابشع الالفاظ واقساها على الاسماع .. وعندما يسحب الحرس المحكوم عليهم بالموت يوسعهم ضربا مبرحا فى الطريق الى الاعدام كان اطلاق الرصاص يتم ليلا .. وقد سبب هذا آلاما نفسية حادة واضرارا كبيرة .. كثير من المرشحين للموت كانوا يرفضون الخروج من الزنزانات، فكانوا يخرجون بالقوة .. والضرب الرهيب .. وقد اثرت حوادث زنزانات الموت على نفسية السجناء .. كانت هناك عمليات تقطيع وتشويه وقسوة .. فالحراس يحصلون على الفودكا ويثملون فتزداد شراستهم وجنونهم .. وتتعالى صيحات التوجع وتسمع خارج السجن .. واجبر هذا ال ن ك ڤ د على تنفيذ احكام الاعدام نهارا .. كان الموت يتم فى الرابعة عصرا والدفن يتم ليلا بالشاحنات وفى حفر كبيرة جماعية .. كان الكل ينتظرون الموت .. والمسألة هى مسألة من سيكون عليهم الدورة والمنتظرون لم يحاولوا ابدا توفير الخبز للوجبات القادمة .. لانهم لم يكن يتوقعون ان يعيشوا حتى يأكلوه .. وربما افطروا فى الصباح، فلا ينتظرهم وقت الغداء غير الموت.

وفى صبيحة يوم الايام عندما استيقظنا من النوم قال لى الجنرال بورديس.

ــ اليوم سنفطر جيدا.

لم أفهم ما يقصد.

واخرج الجنرال كيسا صغيرا به قطع من السكر كان يخفيه تحت وسادته لكى لا يسرق.

ـ اسمع .. عندى قطع من السكر كنت أحتفظ بها للاحتفال باستقلال استونيه ولكن يخيل الى اننى لن انتظر ذلك اليوم، لذا سنحتفل الان.
ـ انا على ثقة تامة .. باننا سنعيش طويلا .. ونحتفل كثيرا .. لذا ارجو ان لا تمس هذا السكر.
ـ انا لست متفائلا مثلك ..
ثم التفت نحو روبيرق قائلا ..
يا سيادة الكابتن .. من فضلك كن مهتما لكى نحصل على ماء ساخن «كبياتوك» ووجه الدعوة لرفاقنا الاثنين.
كان يعنى اثنين من الضباط الاستونيين .. وعندما وصل الماء الساخن جلس الضابطان الاستونيان على اسرتنا، وجلسنا نحن فى شكل دائرى وبدلا من المفرش الابيض للسفره وضعنا بشكيرا متسخا .. وتصاعد البخار من اناء الصفيح القديم .. وامام كل منا كانت هناك قطعة سكر صغيرة .. اكلنا الخبز مع الماء الساخن المسكر .. وعندما انتهى الافطار تفرق الضيوف شاكرين .. واتجه برودس نحونا قائلا:
ـ الان تبقى لى فقط ان اكتب وصيتى.
ـ يجب عليك ان لا تفسد علينا احساسنا الجميل بهذا الافطار.
ـ تعودت ان احدق فى عين الحقيقة.
ـ هل تعتقد انهم سيرموننا بالرصاص ..؟
ـ لست اعتقد .. ولكنى متأكد والمسألة مسألة ايام ..!
ـ انا لا أريد ان افقد الامل.
وصمت الجنرال برهة ثم قال ..
ـ ما زلت اذكر كيف انى قد جئت الى قرية سوفالك على الحدود، وانا ضابط صغير .. كانت الحياة جميلة فى تلك البلدة .. البنات .. التمشى أمام محطة السكة الحديد .. و .. .
ـ ثم ماذا ..؟
ـ أيه .. كانت اياما جميلة للغاية.
وسرحت عينـاه فى الافق البعيـد .. وتحـدث بانفعـال .. حزين .. عن اشياء خاصة وذكريات سالفة وسالته.
ـ لماذا سمحت للروس بأن ينقلونك الى سيبيريا ..؟
وفكر لوقت قصير .. ثم قال ..
ـ ارجوك .. تحدث ..
ـ سأحدثك .. بدأت مأساتنا فى ذلك اليوم الذى سمحنا فيه للروس ان يقيموا ل معسكرا فى مينائنا البحرى .. وهذا لان البعض كان يعتقد بأننا مهددون من الالمان بسبب احتلال «سودت» وضم النمسا .. خفنا على فقدان استقلالنا وقد كنت ضد الاتفاق مع ستالين .. ولكن لايدونر الذى كان وزيرا للحربية اخذ موقفا محددا قتل به موقف السياسيين . مفاده ان احسن شىء هو ان نسـاوم الروس مؤقتا .. وكان الحزب الاشتراكى الديمقراطى هو الحزب الوحيد الذى عارض الاتفاق القاضى ببناء قاعدة حربية روسية .. وانضممت انا الى رأى الحـزب الاشتراكى الديمقراطى .. لايدونر كان رئيسى ويسكن معى فى نفس المبنى، وكنت اقابله يوميا .. وفى بعض الاوقات الحرجة لم نكن نفترق قط .. وحدث قبل اسبوع

من توقيع الاتفاق مع الروس، ان استيقظت في الليل قلقا مهموما .. افكر بمصير وطني .. وضغطت على جرس باب لايدونر .. وفتحت الخادمة الباب .. واخبرتها بانني اريد حديثا عاجلا مع الوزير .. قالت انه ليس وحده ولكن معه عدد من السادة .. والححت عليها ان تخبره بوجودى .. وجاءني لايدونر وكان يرتجف بشدة .. ونظر الى مستغربا وسألني..

ــ ماذا حدث ..؟

ــ اريد ان اتحدث معك ..

ــ اقترح ان تنتظر لساعة من الزمن ..

وعدت الى منزلى الذى كان الطابق الاسفل لطابقه .. ولم تمض نصف ساعة حتى جاءتني الخادمة تدعوني للوزير .. قادتني الى غرفته وقفل علينا الباب قلت له ..

ــ تحدث .. ماذا هناك ..؟

ــ هل تسمح في الحقيقة للروس ان يحتلوا بلادنا ..؟

ــ ليست هذه ـ الميناء ـ هي كل البلد .. اننا نسمح لهم بوقت معين فقط في القاعدة.

ــ هذه هي البداية وانت ضابط وعليك ان تعلم من اننا لن نستطيع ابدا اجلاءهم مرة اخرى ..

ــ ماذا تقترح ..؟

ــ الحرب ضد الروس ..

ــ نعم انا للمقاومة اذا حاول الروس الدخول لبلادنا ضد ارادتنا ولكن الى متى نستطيع المقاومة .. ثلاثة ايام ..؟ ثلاثة اسابيع ؟ عندها لن يكتفوا بالقاعدة فقط .. سيأخذون الوطن كله وطلع الفجر.

لم استطع اقناع لايدونر بان المقاومة واجب مقدس .. وفهمت بان كل شيء قد انتهى.

وعدت الى منزلى .. واخذت احدق في مكتبي ربما تكون هذه هي آخر مرة اراه فيها وذهبت الى والدى الذى كان يعمل في الغابات على مقربة من تالين .. وحدثته ما الذى ينتظرنا .. وفي البداية لم يشأ تصديقي .. وبعدها اخذنا نقلب الامر على وجوهه .. ماذا نفعل ..؟ اقترحت عليه ان نرحل الى المانيا.

والدى الذى ولد في المانيا رفض ان يبحث عن المأوى لدى هتلر امام زحف ستالين . اراد البقاء في منزله.

وحاولت اقناعه سدى .. رفض رفضا باتا قاطعا ان يتحرك من استونيه قال لى ..

ــ أيامى في هذه الحياة معدودة .. وليس لدى مزيد من الوقت ابحث فيه عن وطن جديد.

عدت الى تالين .. ابحث .. لعله يوجد اناس مثلى على استعداد لحماية الوطن ولكن كان الوقت متأخرا .. كان الروس قد بدأوا احتلوا جزء في البداية وبعده كل البلد فهم الناس هذه الحقيقة لقد فقدنا كل شيء لبعض الوقت، احتل الروس ادارتنا المدنية .. .. ولكن سرعان ما ضاقوا بنا .. فبدأت الاعتقالات والطرد.

في المقدمة كان دور البرجوازية .. ثم جاء الفلاحون الاغنياء والمثقفون وفي النهاية جئنا نحن ..

اولا زعموا انهم سيرسلوننا مؤقتا للاكاديمية لمزيد من التأهيل .. وقادونا الى مناورات عسكرية في غابة بالقرب من تالين .. وعندما تجمع مئات من ضباط جيش استونيه القديم

.. جاء رجال ال ن ك ڤ د احاطوا بالغابة .. وطلبوا منا ان نسلم اسلحتنا ..
وكانت فكرة المقاومة غير مجدية امام المدفعية الثقيلة والمدافع الرشاشة لقد وقعنا في الفخ .. واخذنا بالخديعة والحيلة الخسيسة .. كل منا كان عليه ان يقف رافعا يديه امام ضابط من ضباط ال ن ك ڤ د ليفتشه .. وبعدها كان علينا ان نخلع بزاتنا العسكرية .. ونقف عرايا كما ولدتنا امهاتنا .. اوقفونا في صفوف كثيرة وامامنا تكومت ملابسنا .. ومرت ساعات ونحن على تلك الحال .. ثم سمحوا لنا بارتداء الملابس مرة اخرى وكان ذلك هو تخصص ال ن ك ڤ د وبعدها شحنونا في الناقلات .. وفي محطة سكة حديد تالين وضعونا في قطار شحن داخل عربات مغلقة .. كل ثمانين في عربة .. وفي الممر وقف حرس ال ن ك ڤ د وكان يحاسبنا على كل حركة نأتي بها .. ويحاول اخراس كل نأمة تصدر من احدنا .. وفي المحطات كان الامر أسوأ.
عمدوا الى الدق على العربات بشاكوش خشبي كبير .. وكان هذا مزعجا للغاية .. وخاصة بالليل .. لعلهم كانوا يختبرون سلامة العربات .. فقد حدث ان قفز بعض السجناء من القطار المسرع .. وبعدها سارت الامور كما يبغون .. في كل مكان بالطريقة العادية .. خلال محطات الانتظار .. على طول الطريق الحديدى .. الى سيبيريا حتى كرسنو يارسك .. كل شىء سار كما خططوا له.
في كرسنو يارسك، اركبونا قاربا كبيرا مغلقا .. وكانت هناك باخرة كبيرة تجر اربعة قوارب اوصلتنا الى اسفل مجرى نهرى ال ينسى. قاربنا الذى فكوه في دودنكا واصل مسيرة الى نهر فاليكا .. وبعدها بالنهر حتى بحيرة بياسين ..
انزلونا في خيام .. اقمنا بها لبعض الوقت .. كان على الجميع ان يعملوا عملا شاقا .. انا ومعى ثلاثة جنرالات آخرون اعطونا عملا سهلا بعض الشىء لكبر السن كنا ننظف المراحيض ..!!
وهكذا استمر الحال في بداية الحرب، التى علمنا بها فقط عندما قادوني ومعى خمسة وعشرون رفيقا في اليوم الخامس من اغسطس عام ١٩٤١ وارسلونا للسجن في نورلسك ..
وبعدها قادونى للتحقيق .. وهناك تمت ادانتى .. وبقيت نقاط بسيطة في المادة ٥٨ والتى كانوا يحاولون تفصيل تهمتى عليها .. الخيانة العظمى الصلة بالاعداء .. العمل في جيش العدو .. الارهاب .. التجنيد للثورة المضادة .. واعترفت بما ارادونى ان اعترف به ..
وصمت الجنرال برودس اخيرا، ولانهماكنا في الحديث لم ندر بأن الوقت مر سريعا وان منتصف النهار قد ازف .. وعندما حصل اوائل السجناء على الحساء كان الحراس مخمورين .. فصاح احد المجرمين ..
ــ يا اخوة .. اليوم يوم لحم ..
وصاح الاخرون ..
ــ انت جبان ..
ــ اترك النكت السخيفة ..
وكنت الاخير الذى استلم حساءه .. ولاحظت ان رئيس الحرس يقف على قدميه بصعوبة .. وفكرت بان المجرم على حق .. وانهم يجهزون شيئا ما ..
من المحتمل ان يكون دورى قد جاء اليوم ..
ولكن الرعب لم يفقدنى شهيتى.

وبعد الاكل رقدت فى مكانى .. ورقد جيرانى .. الجنرال برودس والكابتن روبيرق على الكنبات ..

كنا مستغرقين فى تفكير عميق .. بعض السجناء وقفوا للامام يسترقون السمع لما يحدث فى الممر .. وساد الزنزانة هدوء مشحون بالتوتر .. وكان الممر هادئا .. وفجاة سمعت صرخة حادة .. وقفزنا على ارجلنا وهرعنا نحو الباب وهدأ الصراخ .. كانوا يجرون شيئا ثقيلا بالممر .. وبعد عشر دقائق سمعنا باب الزنزانة المقابل لنا يفتح .. ويخرج منه رجل بهدوء الحركة فى الممر اصبحت اكثر حيوية .. فتحت ابواب الزنزانات واغلقت كانت اصوات الخطوات تسمع بوضوح ..

وفجأة تجمد الواقفون بالقرب من الباب .. وخفقت القلوب .. وارتجفت الايدى وتخلخلت الركب .. كان صوت المفتاح هذه المرة فى باب زنزانتنا.

وتدافع الجميع وانكمشوا فى اماكنهم .. فتح باب الزنزانة دخل رئيس الحرس .. وصل حتى منتصف الزنزانة .. وقف يراقبنا وبعدها توقف .. وبحركة من اصبعه اشار على مجرم ذى شعر اشقر، يدعى سدوى وقال ..

ــ فلنذهب يا سدوى ...

ــ الى اين ..؟

ــ المدير يريدك ..

ــ انا ابول على مديريك ..

ــ انه يريد اخبارك بشىء وستعود فى الحال ..

ــ دعنى وشأنى لن اذهب ..

فخرج رئيس الحرس وعاد ومعه ثلاثة من الحرس.

ــ سدوى .. .أنزل ..

ــ لن أذهب ..

ــ ستذهب ..

ويشتمهم سدوى بيأس مفجع ..

ويقبض رئيس الحرس على رجل سدوى الذى ينتزعها منه بعنف .. ويحاول ان يصعد الى الرف الاعلى .. ويتشبث بالكنبة الثانية ويقبض الاربعة على ساقه ويجرونها بقوة .. ويقبض سدوى بدوره مستميتا على الرف .. ويبدأ الشد والجذب لمدة دقائق حتى انهارت السقالة التى كان الرف مثبتا عليها فوق رؤوس الذين كانوا يجلسون تحتها فى الكنبات.

ووقع سدوى على الارض .. واخذ يصيح بفزع ورعب ..

وساد الزنزانة اضطراب شديد .. وهب الجميع يسبون رئيس الحرس ..

ــ دموى .. مصاص دماء .. اترك الرجل.

وهرع جندى وناول رئيس الحرس [الكمثرى] فحاول ان يدخلها فى فم سدوى وضغط سدوى بعنف على فكيه .. وقاوم بشدة واستماته واخذ رئيس الحرس يسدد الى فم سدوى لكمات هائلة فجرت منه نافورة دماء حمراء.

واستمر ذلك حتى خيل الينا ان الفم قد تحطم، ثم نجح رئيس الحرس اخيرا فى ادخال الكمثرى الى فم سدوى الذى اخذ يشخر بعنف وسالت بقع الدم من الكنبة الى الباب..

واحنى الجميع رؤوسهم .. عندما اقتيدت الضحية الى المذبح .. وساد الزنزانة صمت

حزين .. حزين..
وعندما جاء الحساء في المساء دبت الحياة مرة اخرى فأكلنا وكأن شيئا لم يحدث .. وفوجئنا بشدة عندما وصل الى الزنزانة كابتن البحرية السوفيتية «الحربية» منشيكوف .. وكنا نعلم ان الحرب ما زالت مستمرة ولكن الاخبار .. كانت تصلنا مبتورة لا تشفي غليلا.
كان منشيكوف قد اشترك في الحرب، ومنه علمنا تفاصيل مثيرة للغاية ومنشيكوف هو قائد جزيرة نوفيه زيمليه .. التى ابحرت منها سفن الحراسة المشددة لكي تحمي السفن الحربية الامريكية والانجليزية ومن هناك تابعت السفن رحلتها حتى دودنا واغارك .. وقد بقي جزء من الشحنة في دودنكا .. لمصنع المعدات المطلية بنورلسك .. ومن دودنكا واغارك ابحرت بقية الشحنة عن طريق نهر ال ينسى الى كرسنوبارسك.

وفي اغسطس وصل الى ميناء نوفيه زيملية شحنة اخرى .. افرغتها السفن الحربية الانجليزية والامريكية ، ثم استدارت لتعود الى قواعدها في انجلترا وامريكا .. ولم تمض ساعات على ذلك حتى اعلن الحرس من برج المراقبة انه شاهد في الافق البعيد سفينة مجهولة .. كان الاعتقاد بانها احدى سفن الحلفاء .. ولم يعر احد الامر اهتماما اكثر من ذلك .. بعد مضي فترة من الوقت اعلن برج المراقبة ان السفينة تقترب من الخليج.
وتحدث منشيكوف مواصلا قصته ..
ــ وخرجت لارى ما يجرى ..
وعندما صعدت الى برج المراقبة اصابتني الدهشة كانت سفينة المانية وامرت باعطاء اشارة التنبيه .. ولكن كان الوقت متأخرا .. كانت السفن التي قطعت مسافات طويلة قد ألقت مراسيها في عرض الخليج بحثا عن الاستجمام والراحة .. وكان طاقمها قد ركن الى الراحة ..واصبح تغيير اتجاهها يحتاج الى ساعات طويلة.
وكانت الباخرة الالمانية تقترب .. احدى سفن الحلفاء التجارية التي كانت في المقدمة ارادت التحرك والابتعاد عن الخليج .. وكان ذلك ما ينتظره الالمان .. فعندما وصلت الباخرة الى فم المضيق اصابتها القذيفة الاولى .. فمالت وترنحت ثم غاصت في الماء وبذلك سدت طريق الخروج على السفن الاخرى.

حاولت مدفعية الساحل ان تصيب بنيرانها السفينة الالمانية .. ولكنها كانت بعيدة عن مرماها.
وعندما رأى الالمان ان بطارية الساحل عاجزة عن الوصول اليهم اقتربوا من الشاطىء وامطروا السفن نيرانا حامية .. دمروا كل البواخر التي كانت تقف في الخليج .. وكل أجهزة الميناء.
وكان هناك حوالى المائة والاربعين بين قتيل وجريح.
وقد اصبت في يدى.
وبقيت في مستشفى دودنكا لمدة ثلاثة اسابيع انا ومن كان معي من الجرحى.
ثم ألقي علينا القبض .. وها أنا بينكم متهم باني عميل الماني .. وذات يوم كانوا يقومون باختيار رئيس السجناء في الزنزانة «ستاروستا» وكان عجبي شديدا عندما رشحني دكتور

اولنجك لاكون رئيسا للسجناء .. فمعرفتى به سطحية جدا.
ودكتور اولنجك هذا كان بولندى الاصل ولد فى روسيا .. حدثنى انه عمل كطبيب فى قسم الـ ن. ك.ق.د .. وبعد دخول الجيوش السوفيتية الى شرق وجنوب بولندا عام ١٩٣٩ حصد الرصاص الغادر الالاف من الضباط البولنديين الذين اسروا فى غابة بجوار ليبلين.
فطلب اولنجك عند ذلك اعفاءه من الخدمة .. ألقوا عليه القبض بتهمة التخريب والانهزامية .. وفى نورلسك حيث كان يقضى فترة العقوبة .. كان عليه للمرة الثانية ان يمثل امام المحكمة بتهمة الاعداد والتحضير لانتفاضة مسلحة وصادقت اولنجك .. ولكن هذه الصداقة لم تدم طويلا.
فى احدى الامسيات تحصلنا على سمك .. فاخذ اولنجك يخرج السكر من كيس صغير معه ويصبه على السمك واستغرب جدا .. فسألته لماذا يأكل السمك بالسكر .. وغضب اولنجك وسألنى ماهو الشىء غير العادى فى ذلك. فأجبته بان هذا الامر فى حد ذاته غير عادى وثار اولنجك ثورة عنيفة .. ونشب بيننا نقاش حاد متوتر عن العادى واللا عادى وانتهى كل ذلك بان تشاجرنا ولم نتحدث بعدها ابدا مع بعضنا البعض ولكن حادثة سدودى قربت بيننا مرة اخرى.
اعادت الصداقة التى افسدناها الى حرارتها السابقة .. ضغطت على يده بقوة واعجاب عندما بدأ يعلن بصوت عال استياءه للطريقة اللا انسانية التى اتبعت مع سدودى قبل تنفيذ حكم الاعدام.
كانت الحقيقة تحتاج الى شجاعة فائقة حتى يقولها احد .. ذلك لانهم كانوا يعاقبوننا بعشرين يوما سجنا فى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية «كارسر» .. وكان من الممكن ايضا اتهام المرء بالتنظيم للعصيان.
وكان معلوما ان اولنجك متهم بالتحضير للعصيان المسلح ومن المؤكد ان تلك الكلمات كان من الممكن ان تزيد موقفه سوءا وقد حكمت عليه محكمة المعسكر بالاعدام رميا بالرصاص. وكان الهجوم الذى وقع على ميناء نوفيه زيمليه واغراق سفن الحلفاء قد اصاب سكان نورلسك باضرار فادحة جسيمة.
الدعاية الستالينية الكاذبة هدأت من روع الشعب الروسى قليلا .. بالحديث عن الخطط والوعود المطاطة .. وحصروا الامر فى الخمس سنوات القادمة وبعدها سيكون كل شىء فى متناول اليد.
وقبل ذلك كانت الدولة السوفيتية تعلن بانها محاطة بالدول الرأسمالية ويجب عليها ان تخزن موادا تموينية كثيرة حتى اذا دخلت فى الحرب التى تعد لها البروجوازية ضد الاتحاد السوفيتى كان بالامكان ان تصمد.
وعندما بدأت الحرب، تراءى فورا انه لم يكن هناك اى احتياطى او اى مخزون من المواد التموينية فمن اليوم الاول للحرب، اكل الشعب الروسى بالمقياس سكان المدن الكبيرة كانوا يحصلون على المعدل الاقل ولكن الناس خارج المدن الكبيرة لم يحصلوا على شىء!!
فى نورلسك كان الموقف سيئا لان الارض هناك لا ينمو فوقها شىء غير بعض انواع الكرنب التى تنجح بعد صعوبة شديدة وجهد ومعاناة.
كان اوراقه مرة الطعم ومن الصعب اكلها ان لم يكن من المستحيل وقد اخذ الحلفاء على

عاتقهم امـداد نورلسـك بالمـواد التمـوينيـة، فى سبيل الحصول على النيكل والنحاس والكوبالت وبعض المعادن الاخرى.

والان، وبعد ان غرقت السفن فى الخليج، بقيت البطون خاوية جائعة .. وفى مخازن تلك المواد كان هناك احتياطى لشهرين فقط.

كانت الاولوية فى تلك البقايا لل ن ك ڤ د .. والحرس وان بقى شىء فللشعب وبذلك كان السجناء يحصلون على الفتات .. نقص وزن الخبز فى السجون وفى معسكرات العمل الاجبارية على السواء الوجبات الساخنة كانت تتكون من الكرنب غير القابل للاكل والسمك المملوح.

اللحم والدهن والسكر .. كانت من الاشياء المعدومة وحتى لا تحدث الكارثة المتوقعة بدأوا فى ارسال بعض المواد التموينية عن طريق الجو.

واضطربت الاحوال النفسية للناس يوما بعد يوم ظهر ذلك على السجناء اولا ثم امتد ليشمل الطلقاء .. كانت هناك وعود كثيرة ستحصلون على كل شىء مما كنتم تحصلون عليه قبلها.

ولكن الوعود لم تكن تكفى لسد صيحات الجوع عند الناس ومرت الاسابيع والشهور وتدهورت احوال الطعام انعدمت الاسماك المملوحة ايضا وبدأ الموقف يسوء كثيرا وفى مثل تلك الظروف كان ال ن ك ڤ د .. يعـرف كيف يـصرف الارهاب مكان الاكل .. العسف والقهـر بديـل الطعـام القـوا القبض على رئيس الامدادات فى نورلسك كريجفسك وعلى مساعديه ..

ونشروا اشـاعات كثيرة بواسطة معاونيه تحكى عن اكتشاف منظمة للثورة المضادة وعـلى رأسهـا كريجفسـك الذى كان من اصـل بولندى .. والتى كان اعضاؤها يخربون ويتلقون المواد الغذائية ويحرمون منها السكان الاحرار والسجناء .. واعترف كريجفسك ومعاونوه «بكل شىء» وحوكموا بالاعدام ولكن الحكم لم ينفذ.

وبعض مضى عام افـرج عنهم ووضعوا فى اماكنهم ووظائفهم السابقة كل ذلك جرى بدون ايضاح من جهة ما.

ورغم هذا كان كل شىء واضحا وضوح الشمس .. وفى تلك الظروف وصلت الى نورلسك كميات كافية من الاغذية .. ولم يعد الامر محتاجا الى ضحايا جدد يتهمون بالثورة المضادة لسوء الامدادادت من نهر الفولجا الام الى نهر الينسى العجوز.

فى اليوم الاول من سبتمبر عام ١٩٤٢ اقتيد الى زنزانتا اربعة من الالمان .. قالوا انهم قد رحلوا فى بداية الحرب من جمهورية بوفولشك الالمانية الى الضفة الشمالية لنهر الينسى .. وهم فى الاصل من الالمان الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر الفولجا.

وكان موقعهم الجديد يقع على بعد ثمانين كيلومترا من بوست بورت، لكى يعملوا فى صيد الاسماك وقد واجه هؤلاء القوم ظروفا صعبة للغاية .. وجدوا انفسهم فى ارض جرداء لا ينمو عليها شىء ولا توجد بها امكانيات لاطعام الف ومائتى شخص .. جلهم من النساء والاطفال.

ومثل جميع الذين رحلوا قسرا، حصلوا على معدات وسقالات ومواد البناء لكى ينبوا اكواخا صغيرة وفى الشهر الاول كانوا يحصلون على ستين ديكا جراما من الخبز لكل منهم

وكمية ضئيلة من الاغذية.

وبعد مرور الشهر كان من المفترض ان يكونوا قد اكملوا بناء مساكنهم وانتجوا من الطعام ما يكفيهم وقد امر ال ن ك ڨ د بتأسيس الكولخوز التى تعنى بصيد الاسماك من نهر الينسى .. كان على هؤلاء القوم الذين بدأوا حياتهم فى مواقع بعيدة جدا عن المياه، ان يتعلموا صيد الاسماك وفى نهر يشبه البحر عرضا من كان على ضفته هذه لا يرى ضفته الاخرى.

وهؤلاء الالمان القرويون ركعوا امام رئيس المنطقة السكنية ليعطيهم عملا اخر .. تجمع حوله النساء والاطفال .. بكوا باصوات مرتفعة تمزق نياط القلوب وتوسلوا اليه ان يرحلهم الى مكان غير هذا ليجدوا عملا من الاعمال التى تعودوا عليها.. ووعدهم رئيس المنطقة السكنية بانه ولشهر قادم سيعفيهم من تسليم ما يصطادونه من اسماك للدولة.

وعادوا بهدوء الى عنابرهم .. كانوا سعداء لان الاكل سيتوفر عندهم لمدة شهر .. صيد الاسماك نفسه لم يكن عائده كبيرا ولكنه كان اضافة هامشية للطعام الذى تحصلوا عليه وسرعان ما انقضى الشهر وكان عليهم ان يدخلوا فى قوارب الصيادين ومعهم شبكات كبيرة ويرموا بها فى نهر الينسى الى ابعد مدى تستطيعه قدارتهم الضعيفة .. وفى مجموعات تتكون من اربعة الى ستة اشخاص ذهبوا .. يمارسون حرفة جديدة عليهم .. هى صيد الاسماك.

وبعد مرور ساعتين عادت معظم القوارب وغالبية من عليها كان من النساء .. كان الجميع قد اصيبوا بالجنون من الخوف والرهب يقسمون ان اقدامهم لن تطأ تلك القوارب مرة اخرى اما الشجعان وهم قليلون فقد صمدوا لوقت اطول وكانت حصيلة الصيد ضعيفة للغاية تكاد تكفى بالكاد وجبة العشاء.

وفى يوم احد حزين صادفتهم عاصفة هوجاء .. كان عدد القوارب التى خرجت للصيد هو ثلاثة وعشرون قاربا .. غرق منها ستة قوارب واستطاع الاخرون النجاة بصعوبة بالغة .. وفى ذلك اليوم الرهيب مات ثلاثون شخصا منهم ثمانية عشرة امراة تركن خلفهن ستة عشر طفلا بلا رعاية .. وبعد تلك الكارثة لم يستطع قائد المنطقة السكنية ان يأمر الصيادين بالنزول الى النهر .. ولكن بعد ان اوقف القائد صرف الوجبات الغذائية ايام عديدة عاد معظم الصيادين الى النهر وبمرور بعض الوقت حدد قائد المنطقة السكنية للصيادين المعيار الذى يجب عليهم الوفاء به.

وقال الصيادون ان السمك لا يريد ان يدخل فى الشبكات وعوقب الصيادون الذين لم يقدموا المعدل المقرر من الانتاج وحرمانهم من الاغذية.

وفى فصل الشتاء تجمد نهر الينسى .. وكان الصيادون اسعد الناس من انهم لن يجبروا على ركوب النهر الخطر ولكن سعادتهم ماتت فى مهدها .. اذ سرعان ما صدر الامر اليهم بان يعودوا للصيد خلال حفرة يحفرونها فى الثلج ومع حلول فصل الشتاء تجيء الليالى القطبية فكان عليهم ان يحملوا معهم المشاعل للصيد .. حفروا الثلج وكسروه بالمعاول وآلات الحديد الحادة القوية .. وبالدموع والجهد والالم وكانت تمر الساعات الطوال وهم لا يحفرون حفرة تصل الى الماء اذ كان سمك الثلوج يصل الى عدة امتار .. وكانت الاسماك تريد الهواء فدخلت بسهولة ويسر فى الشبكات .. وكان الصيد فوق المتوقع وجيدا للغاية

.. وكانت الرياح الثلجية قوية فسرعان ما قفلت الحفرة بعد ساعات وتجمدت من جديد.
وحتى لا ينهك تكسير الثلوج قواهم جعلوا الصيد من دورتين .. كل دورة مداها اثنا عشرة ساعة .. تعمل فيها مجموعة جديدة .. وكان الامر يسوء جدا عندما تهب العواصف الجليدية والاعاصير الثلجية «بورقا» و في تلك الصحراء اللا نهائية يجن جنون العواصف .. فما كان هناك شيء يعوق طريقها . كانت تعربد وتئن وتصرخ وتعوى وهى تجرف كل ما امامها.

ولكى يحافظوا على انفسهم من الرياح الشديدة اخذ الرجال في اقامة الخيام ووضعوا عليها جلود حيوان الرنة التى اشتروها من الرعاة ولكن بعد العاصفة الاولى التى كسحت كل خيامهم توقفوا عن نصب خيام جديدة في سلفستر هاجت العاصفة المدمرة المزمجرة فانعدمت الرؤيا تماما حتى مقدار خطوة واحدة .. ولم تساعد المشاعل الموقدة .. وفي ذلك اليوم تجمدت خمس نساء ..وكثيرون تجمدت وتيبست ايديهم وارجلهم وبصعوبة شديدة استطاع الناس العودة الى المنطقة السكنية واستمرت العاصفة لاكثر من اسبوعين.

وخلال تلك الفترة لم يستطع احد الذهاب لصيد السمك وعندما هدات العاصفة، اتجه الصيادون مرة اخرى الى العمل .. كان معظم السمك قد تجمد ولم يعثروا على اثر له وضاعت المعدات وفقد معظمها .. وبدأوا من جديد في حفر الثلوج التى اصبح سمكها خياليا و في بعض الاحيان حفروا وحفروا ولم يستطيعوا الوصول الى الماء .. ولم تكن معهم شباك وكان يجب ان يصطادوا بالسنارات فكان الصيد ضعيفا لم يكف لاطعامهم الا بصعوبة شديدة .. وعندما جاء فصل الصيف تقرر ان يذهبوا مرة اخرى للنهر المتوحش.

و في اليوم الاول حدثت كارثة رهيبة مجموعة من ستة صيادين ابتلعتهم الامواج .. ولم يعرف احد قط كيف حدث ذلك .. في الايام الاولى من الصيف كان الصيد ضعيفا جدا .. وعندما امر رئيس المنطقة بانقاص الطعام لان المعدل الانتاجى لم يسلم، رفض الصيادون الذهاب الى الصيد.

و في اليوم الثالث وصلت مجموعة من ال ن ك ق د والقت القبض على جميع الرجال .. واتهمتهم بالتخريب .. اثنان من القادة حوكموا بالاعدام وحوكم البقية بعشر سنوات اشغال شاقة .. عهد ستالين كان مليئا بالاكاذيب ولكن كذبه في وضع نظام الاقليات فاق كل شيء.

كيف كانت تلقى الخطب ..؟ وكيف كانت تروج لما قاله ماركس وانجلز ولينين وستالين ..؟ كم من المقالات التى تحصى بالالاف في الكتب والصحف تحدثت عن المساواة بين الشعوب وعن حرية الاديان؟ فقط الذين سجنوا وعذبوا واضطهدوا كانوا هم الذين اتيح لهم ان يقفوا على حقيقة ذلك الاثم الكبير ..وعظمته!!

عندما احتل الاتحاد السوفيتى بلاد البلطيق في عام ١٩٣٩ نفى الى سبيريا عشرات الالوف من الاستونيين واللاتفيين واللتونيين وكانت اغلبيتهم من المثقفين وبعد تحالف هتلر وستالين عندما احتلت الجيوش السوفيتية بسرابى وجنوب بولندا، ارسل الى سيبيريا عشرات الالوف ايضا من البولنديين والرومانيين والاوكرانيين وهم كذلك من المثقفين.

و في عام ١٩٤١ عندما بدأت الحرب بين الاتحاد السوفيتى والمانيا بدات النظافة

الجديدة فى دول البلطيق .. مئات الالوف من المواطنين والضباط وصف الضباط والقرويين ارسلوا منفيين الى معسكرات العمل الاجبارية فى سيبيريا وبعد ايام من بداية الحرب هشمت «جمهورية الالمان ال يوفولشك» الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر الفولجا ورحل السكان الالمان لتلك المنطقة رحلوا هم واطفالهم والمسنون واعضاء الجمهورية الى سيبيريا فى اقصى الشمال وكان ذلك القدر هو مصير سكان الاجزاء الاوربية للاتحاد السوفيتى بعضهم تم سجنه وارسل الى المعسكرات والبعض الاخر نفى وبعد انتهاء الحرب بدأت «النظافة» من جديد على انها كانت فى الاساس مستمرة ببولندا ودول بلاد البلطيق .. وبدأت من جديد تفور تياراتها الجامحة، لتصب فى روافد الالم والعذاب، وسارت الافواج التعيسة نحو الشمال والشرق فى روسيا.

واذا كان عدد الذين تم نفيهم قبل الحرب الى سيبيريا عدة مئات من الالوف، فانه تصاعد اليوم ليصبح بالملايين .. كان بالامكان رؤية قطارات الشحن ممتلئة بالناس من مختلف الجنسيات وكان من ضمن الذين ارسلوا للسجون والمنافى، افراد قبائل القفقاز الصغيرة الذين سكنوا فى سيبيريا ـ ججانى ـ انقوشى ـ وكاراجاى وكريما تتارى ومن اوكرانيا البولغاريون.

ولقى المصير ذاته «كالميس» هؤلاء الناس الذين واصلوا العيش فى تلك المناطق لمئات السنين وكان يجب عليهم بعد الحرب تركها لكى يعيشوا فى الصحراء الجليدية الشمالية .. ويتم استخدامهم كسماد للتوسعات الستالينية.

وفى نهاية عام ١٩٤٠ كان هناك فى نورلسك عدد كبير من الشيوعيين الاجانب، معظمهم من الالمان .. وكان اولئك النفر كانوا اعضاءا نشطين فى الحركة الشيوعية.

وعندما استلم هتلر الحكم. هرب هؤلاء الشيوعيون الى الاتحاد السوفيتى وعمل كثيرون منهم فى المصانع المدنية والحربية وعاشوا جيدا ومثل جميع مواطنى الاتحاد السوفيتى كانوا تحت مراقبة ال ن ك ڤ د ومثل هؤلاء الناس اجبروا على ترك بلادهم، كانوا يعودون فيتحدثون كيف كان حالهم جيدا بالمقارنة لما شاهدوه بعيدا عنها. وقد جاء ذلك بالطبع فى مصلحة ال ن ك ڤ د .. وفى زمن النظافة بين عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٣٩ القى بمعظمهم فى السجون والمعتقلات وعدا الالمان .. كان النمساويون .. والمجريون .. والبولنديون .. والبفاريون ... وبعض اليوغسلاف.

جزء من اولئك الاجانب ربطت بنيهم علائق وثيقة .. وساعد بعضهم بعضا بالرغم من انه كان ممنوعا الذهاب الى العنابر الاخرى ولكن دائما كنا نلتقى ونتحدث كما ينبغى.. ولقد اهتزت معنوياتنا واحسسنا بالهزيمة الداخلية فى ارواحنا عند سماعنا لاخبار تحالف هتلر وستالين.

الكثيرون من الشيوعيين الاجانب ـ وبالرغم من كل شىء ـ كانوا يصدقون ستالين .. ولكن هذا الحدث الخطير فتح اعينهم جيدا كنت فى اغلب الاحيان اناقش بوبوف .. وهو الذى قام بالاشتراك مع ديمتروف وتانيف بحادث احراق الريهستاك ومعهم الاخرون بالطبع.

وعندما عاد بلاقوى الى الاتحاد السوفيتى ومعه تانيف حاكمتهم المحكمة العسكرية بتهمة الجبن امام العدو .. ليقضوا خمسة عشر عاما فى معسكرات العمل الاجبارية وابدى

بلاقوى اشمئزازا عندما قلت له فى احدى المرات بان الفرق بين هتلر وستالين هو شىء واحد فقط ان الاول المانى والثانى قروزى .. وفى ذات يوم من الايام هرع بلاقوى الى عنبرنا قائلا:
ــ كارلو .. لقد كنت على حق.
ــ كيف ..؟
ــ ألم تسمع..؟
ــ ماذا..؟
ــ وقع الاثنان حلفا.
ــ من هم الاثنان ..؟ تكلم بوضوح ...
ــ لقد تحالف هتلر وستالين .. وهذه جناية للثورة.
ــ هل هذا شىء جديد ..؟
ــ نعم..
ــ والملايين من الشيوعيين الذين تتحلل اجسادهم فى السجون ..؟ أليست هذه خيانة..؟
ــ نعم .. الان فهمت .. ان تصفية الشيوعيين كانت مرحلة تحضيرية لهذا الحلف وماذا الان؟
ــ لا شىء سوى الاعداد للحرب الدكتاتورية ضد الديمقراطية عندما لا تكون هنالك حوادث هامة .. مثل «يوم اللحم» وما شابه، تمضى الحياة ونحن على الكنبات نحكى النكات والالغاز والاحاجى .. وكانت غالبية النكات سياسية ذات مغزى .. وكان ذلك خطرا على الجميع ولكننا فى السجن ما كنا نعير الامر انتباها.

وفى مثل هذه الزنزانة التى يقيم بها اكثر من ثمانين شخصا والتى تمتلىء بكل الجنسيات الاوربية كان البعض يأتى والبعض الاخر يذهب به الى اين؟ ال ك ن ڤ د كان دائما يخفى الحقائق عن الذين اقتيدوا الى معسكرات العمل الاجبارية .. ولكنهم بعد حين يعلمون ان من اقتيدوا الى المجهول كان مصيرهم المعلوم هو الموت.

وكنت اتحدث مع الجنرال برودس عن الاحوال السياسية فى العالم فى وقت الحرب كنا نعلم القليل جدا مما يدور فى ميادينها وطبعا النشرات الرسمية كانت مليئة بالاكاذيب تسعون بالمائة كانت بعيدة عن الحقائق ..كانت هى ما تريده السلطة السوفيتية بالطبع لا توجد فى اى بلد من بلاد العالم كميات من الكذب الرسمى كما توجد فى الاتحاد السوفيتى آنذاك .. كذبوا على الشعب السوفيتى فى عهد ستالين كما شاء لهم الخيال .. اما الناس الذين كانوا يفكرون بعقولهم، فهم يعلمون ان الحقيقة تناقض ما يشاع من اخبار رسمية.

ولم يكن يسمح لاحد فى زمن الحرب ان يمتلك جهاز راديو ولا احد يستطيع ان يستمع الى الاذاعات الاجنبية القليل الذى كان يعلم .. يخضعه الناس للتحليل ليصلوا من خلاله الى بصيص من الحقيقة.

كان الكثيرون يعتقدون بان الاتحاد والتحالف مع الامريكيين والانجليز سيفضى بعد الحرب الى الديمقراطية .. ولقد خاب ظنهم وخانهم التفكير السليم .. وذلك ما اوضحته الحوادث بعد نهاية الحرب.

موت الجنرال بـرودس

كان الجنرال بردوس رجلا وديعا وواقعيا .. بعيدا كل البعد عن الاحلام والتفاؤل .. كان يعتقد وقتها بأيمان قاطع انه طالما بقى ستالين فى السلطة، فلن تكون فى الاتحاد السوفيتى ديموقراطية .. بخلاف البعض الذين كانوا على يقين بان هتلر عندما يفقد الحرب ستجبر امريكا وانجلترا ستالين على انتهاج الديمقوطراقية فى حكمه .. صباح اليوم العشرين من سبتمبر عندما عدنا من دورة المياه لاحظنا فى الممر عددا غير عادى من الجنود .. تعرفنا على اغلبهم بحكم رؤيتنا لهم كل يوم.

اجرينا فى اذهاننا احتمالات كثيرة .. لم يكن من بينها، انهم يعدون «ليوم اللحم» احدنا فقط ذكر هذا الاحتمال فأسكته الجميع بالحجج والبراهين .. قالوا له فى مثل يوم اللحم يكون الحرس مخمورا اما اليوم فهم غير ذلك .

مرت وجبتا الافطار والغداء كالعادة بدون شىء جديد وقد حاول السجناء التحدث مع الحرس من قريب حتى يكتشفوا ان كانوا مخمورين ولم تكن هناك رائحة خمر تنبعث من افواههم.

بعد الغداء دعوا بعض السجناء ومن بينهم الجنرال بردوس والكابتن روبيرق الى مكتب السجن .. وبصبر نافذ انتظرنا عودتهم بعد ربع ساعة عاد الجميع قالوا انهم قد اوقفوهم فى صفوف يضم كل صف ثلاثة وقاموا بتصويرهم.. وعند ذلك هدأت نفوسنا. اغلب نزلاء الزنزانة نمرة ١٤ لم يكونوا تحت التحقيق اتفقنا على ان الذين تم تصويرهم سيمثلون قريبا امام المحكمة .. فقد كان من العادة ان يحتوى محضر التحقيق فيما يحتوى على صورة المتهم كان الشخص الوحيد الذى ازعجه التصوير هو الجنرال بردوس انسحب الى ركن الزنزانة ..كعادته حين يريد التفكير فى امر وبعد ساعتين نهض وحدثنى قائلا:

ــ شتاينر .. هل تصدق انت انهم صورونا لجلسة المحكمة القادمة..؟

ــ هناك احتمال .. ان ينتظروا مرحلة جديدة .. ولكنى لا اصدق بعد الحرب ولن يرحلوا احدا من نورلسك ..

ــ لا .. انت مخدوع .. هذا شىء آخر..

ــ على كل حال لن يكون هناك شىء فظيع..

ــ شىء فظيع ..؟ من المحتمل انهم صورونى للمرة الاخيرة.

وجاهدت لكى اقنعة رغم احساسى الخاص، بان الامر سيكون سيئا جدا، وتذكرت احد الاحاد.

كانوا قد اعدموا عددا كبيرا من المجرمين رميا بالرصاص .. وقبلها بيوم قاموا بتصويرهم جميعا ولم يخطر ببال احد منهم انهم «يتصورون» للمرة الاخيرة فى حياتهم بعد محادثتنا بساعتين اقتادوا اثنين من الذين اخذت لهم الصور الفوتوغرافية .. نادى مدير السجن على اسميهما وعندما اجاباه .. قال لهما..

ــ خذا حاجياتكما .. واتبعانى. ومن اركان الزنزانة سمعنا.

ــ سيرحلون لمعسكر العمل الاجبارى .. وسمعنا صوت الزنزانة الاخرى وهو يفتح كان

معظم من معنا، يتصورون ان مجموعة كبيرة للسجناء سترحل الى معسكرات العمل الاجبارى.

بعضهم اخذ يتوجه للذين تم تصويرهم ببعض الوصايا المختلفة لتنفيذها عند وصولهم الى المعسكر .. وقد خيل إلينا ان شيئا ذا اهمية لم يحدث .. بعضهم ذهب وآخرون جاءوا واحتلوا مساحاتهم وهذه ظاهرة يومية .. تلك كانت افكارنا .. ثم حدث فجأة خطأ في الاخراج.

والن ك ق د يخطىء في بعض الاحيان .. فتحت ابواب زنزانتنا ودخل عدد من الجنود احدهم كان يحمل في يده «الكمثرى» ونظر الينا الجنود بحدة .. وقال واحد منهم.

ـــ ليست هذه رقم ١٥

وسبوا بوقاحة قائد الحرس الذى فتح الزنزانة بالخطأ وسرعان ما خرجوا واطبق علينا صمت، كصمت القبور .. بدده صياح مجرم ملتاع ..

ـــ هذه مرحلة .. للعالم الاخر..!

كان عدد الذين تم تصويرهم وبقوا في الزنزانة ستة اشخاص اثنان منهما بقيا رابطي الجأش الجنرال بردوس والكابتن روبيرق احد الضباط اللتونيين بكى بكاء مرا عنيفا وبصوت مرتفع واطلق عليه اسم الجبان ولكنه لم يصمت وحتى الثلاثة الاخرون لم يثبتوا للموقف وانهارت عزائمهم وفي الليل اخذوا يخرجون الرجال استمر ذلك حتى منتصف الليل وكانت اصوات الصراخ والبكاء تتعالى تتبعها ضربات المفاتيح على الرؤوس فتختلط الاهات والضراعات .. ولم تغمض عين احد في الزنزانة كان وداع الضحايا يأتينا من الزنزانات الاخرى حزينا يمزق نياط القلوب..

ـــ العفو يا رفاق .. وتأتى الاجابة الجماعية حارة كالدمع..

ـــ عفونا.

وبعد منتصف الليل سمعنا اصوات عربات الشحن المحملة بالجثث تغادر المكان واستمر ذلك حتى الخامسة صباحا .. وكنت سعيدا لانقضاء الليل الكابوسى المقيت .. وعندما قادونا في الصبح الى دورة المياه .. لم الاحظ شيئا غير عادى على الحرس كانوا كعادتهم يزرعون الممر جيئة وذهابا .. ووقف احد الحرس امام دورة المياه واخذ يراقب كيف يجلس السجناء على الفتحات وتتعالى الصيحات.

ـــ اسرعوا .. اسرعوا.

وخرجنا ليحصل كل منا على اربعين ديكا جراما من الخبز اكلناها بهدوء وشربنا معها الماء الساخن «كبياتوك» وبعد الافطار لاحظنا كيف جمع الجنرال بردوس حاجياته في «صرة» حتى النعل الذى كنت احسده عليه خلعه ووضعه داخل الصرة ثم اقترب منى ومد الى الصرة قائلا.

انت كنت صديقى من فضلك، هذه الاشياء للذكرى، لاننى لن احتاج اليها بعد الان. ولم ارد اخذها

حاولت اقناعه بانه سيعيش لوقت طويل .. ولكن كل محاولاتى باءت بالفشل .. قال لى بحزن نبيل.

ـــ صديقى العزيز، ترى ما يحدث، اعلم ان الساعات اصبحت معدودة هذا الاشياء

الصغيرة ستنفعك، ان ام تأخذها انت، ستقع في ايدى هؤلاء الدمويين لى رجاء واحد اذا كتب لك ان تعيش وتعود الى اوربا، ابحث عن ابى وحدثه بكل شيء .. وان لم تجد ابى حدث ابناء بلدى كيف دفعنا ثمن تفكيرنا الضحل الساذج، حذر اوربا بما يحدث هنا ..

وبهذه الكلمات اختتم برودس حديثه لى. ووعدته وانا احاول ان ابدو متماسكا، ولكنى كنت انزف في الاعماق .. وحاولت ان لا اظهر على وجهى شيئا.

الوعد الذى قطعته له لم استطع حتى الان الوفاء به فما زالت استونيه جزاء من الاتحاد السوفيتي .. وكان من السذاجة ان اعرض والده العجوز للخطر اذا كان حيا برسالة تأتيه من الخارج .. اما فيما يخص الرأى العالمى آمل ان يكون كتابى هذا اثباتا باننى قد اوفيت بوعدى الذى قطعته للجنرال برودس وبقية الضحايا.. اما حاجيات الجنرال برودس فانى لم اقبلها لقد اردت ان يبقى الرجل الشجاع مع الامل .. ولكنى ما صدقت ابدا اننا سنبقى على قيد الحياة.

وحتى موعد الغداء بقيت مع الجنرال برودس جالسا احاول ان احادثه في موضوع آخر ولكنه كان دائما يعود ليتحدث عن النهاية كان يفعل ذلك بهدوء وجأش رابط. وعند تقسيم الغداء حدث شيء .. بردوس وروبيرق وانا كنا آخر الواقفين في الصف وتحصل بردوس على الحساء .. وعندما أتى دور روبيرق مد يده ليتسلم الحساء فصاح الحارس:

ــ جميعهم اخذوا حساءهم واغلق الباب .. وبقينا روبيرق وانا بدون غداء.

وطرقنا الباب .. طويلا .. فجاء الحارس .. واوضحنا له باننا لم نحصل على الاكل، فأغلق الباب مرة اخرى بدون كلمة واخذنا نطرق من جديد ومضى وقت طويل قبل ان يعود مرة اخرى وكان روبيرق يقف امامى وطلبنا منه ان يأتينا بالحساء وصاح السجناء من الكنبات..

ــ اعطهم اكلا .. لم يحصلا على شيء وبدلا عن الاجابة .. ضرب الحارس روبيرق بحذائه في بطنه وهو يوجه له السباب ..

ــ فاشست .. سوف نطعمكم وابتعد روبيرق عن الباب وهو ينزف ويعرج .. وتبعته انا واخذ بعض السجناء يشجعوننى على الصبر، والاصرار حتى انال وجبتى واخذوا في الصياح.

ــ اليوم لم يحصل اثنان منا على وجبتهما .. غدا سيكونون عشرة كل هذا لان اولئك لا يعرفون كيف يحصون العدد بدقة وتحت ضغط السجناء ذهبت نحو الباب وطرقته لمدة طويلة، وفتح الحارس الباب .. وبدون كلمة قبض على يدى وجرنى الى الممر، واخذ يضربنى بقبضة يده على رأسى وهو يصيح..

ــ هذا هو حساؤك .. هذه هى عصيدتك .. واخذت اصيح بصوت مرتفع فجرنى والقى بى في زنزانة الحبس الإنفرادى التأديبية «كارسر» وكانت تقع في الجانب الاخر من الممر جوار زنزانات الموت وفتحت ابواب حديدية بالقضبان كانت مساحتها طويلة ومظلمة بها مصباح كهربائى احمر يضيء فوق الباب معطيا ضوءا خافتا لا يستطيع معه الانسان ان يرى نهاية الزنزانة.

وعندما تعودت عيناى على الظلام، رأيت في الركن رجلا يرقد على الارض الصلبة واقتربت منه .. خيل الى اننى اعرفه ولكنى لم استطع ان اتبين من يكون .. ومد لى الرجل يده وطلب

مني قائلا..
ـــ ساعدني حتى اقف .. عندما تعرفت عليه وتعرف هو على بجاتنياكوف احد العمال من ليننجراد .. وكان قد تعرف على تروتسكي في زمن الحرب الاهلية وعندما ذهب ترو تسكى من روسيا نفى بجاتنياكوف الى سيبيريا وفى عام ١٩٣٥ القوا عليه القبض وحوكم بعشر سنوات في معسكرات العمل الاجبارى .. وكان يقض فترة الحكم في نورلسك وعندما بدات الحرب نقلوه من المعسكر الى السجن وقدم مرة اخرى للمحاكمة امام محكمة المعسكر بتهمة نشر اخبار كاذبة وبانه قال لبعض السجناء..
ـــ ان جيش هتلر قد احتل هاركوف.. وحوكم بالاعدام وسألنى
ـــ وانت ..؟
كان يعتقد باننى حوكمت بالاعدام .. فحدثته عن اسباب حبسى قال.
ـــ غريبة..؟
ـــ لماذا القوا بك في زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية «كارسر»؟
ـــ من المحتمل انهم سيعدموننى الان.
ـــ سيكون ذلك بلا جدوى ...
وعلمت منه انهم اخرجوه مع اربعة آخرين وادخلوه الى هذه الزنزانة التاديبية «كارسر».
اما الاربعة الاخرون فقد نفذ فيهم حكم الاعدام اما لماذا لم يات دوره حتى الان فهذا ما لم يستطيع توضحيه وتكلمت معه بضع كلمات بصعوبة بالغة ..وفجاة فتح باب «الكارسر» ودخل ضابط ال ن ك ق د ساكولين ومعه جنديان .. وعندما وقع نظره على هاج صائحا.
ـــ ما اسمك ..؟
ـــ شتاينر.
وصاح في وجه الحارس.
ـــ كيف دخل هذا الى هنا..؟
واتجه نحوى قائلا.
ـ اطلع بره .. اخرج.
وكنت سعيدا حين ارجعونى مرة ثانية الى زنزانتى وبعد ذلك قادوا بجاتنياكوف من يديه ولم احدث احدا عن لقائى به في الزنزانة التاديبية لانى بذلك سأسبب اضطرابآ شديدا وبمجرد ادخالى في الزانزانة بدأت من جديد اطرق الباب .. فظهر الحارس اخبرته باني لم احصل على غداء .. كان حارسا آخر ولدهشتى قال.
ـــ سوف ابحث لك عن شيء.
وبعد دقائق احضر لى حساء السمك .. واكلته بشراهة بالرغم من برودته .. وفي اللحظة التى انهيت فيها طعامى، فتحت ابواب الزنزانة، ودخل نائب مدير السجن واخرج وريقة قرأ منها اسم احد السجناء ولم يجب احد فاعاد قراءة الاسم وعندها وبكل صعوبة سمع صوت خافت لرجل يجلس على الكنبة الارضية قال نائب مدير السجن ..
ـــ خذ حاجياتك واتبعنى..

ـــ ثم استحثه قائلا بضيق..
سريعا .. ليس لدى وقت ..
واجاب الضحية بوهن وضعف..
ـــ ليس لدى حاجيات..
وخرج وهو يرتعد ويبكي بصوت مجنون ويكرر باستمرار.
ـــ لماذا ..؟ لماذا ..؟ لماذا ..؟
ودفعه نائب المدير امامه..
ولم تمض دقائق حتى جاء نائب المدير مرة ثانية الى الزنزانة ونادى على روبيرق ونهض روبيرق من مكانه بلا كلمة .. قامته الطويلة النحيلة مرقت خلال الباب عندما انحنى وهى تترنح قليلا .. وكان الاخير هو الجنرال بردوس .. عندما سمع صوت المفاتيح بالقرب من باب الزنزانة احتضنى بقوة وشدنى الى صدره .. وقال.
ـــ وداعا .. وداعا..
وصاح صوت .. قاسى .. رهيب.
ـــ بردوس.
وخرج الجنرال من الزنزانة وكانه فى الطريق الى نزهة سارة ذلك الرجل الشجاع الباهر مات فى نورلسك رميا بالرصاص فى الواحد والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٤٢ .. عند الرابعة بعد الظهر لم يخرجوا احدا آخر من زنزانتنا فى ذلك اليوم .. وفى منتصف الليل سمعنا صوت الشاحنات وهى تنقل الجثث الى مقابر السجن.

وفى اليوم التالى وبمساعدة تلغراف السجن احصينا انه فى ظرف يومين كان عدد الذين رموا بالرصاص اكثر من اربعمائة رجل كان اغلب الذين حكم عليهم بالاعدام قد حاكمتهم محكمة الـ (أو . اس. أو) وهى محكمة من ثلاثة اعضاء .. من كبار ضباط ال ن ك ڨ د والتى من صلاحياتها محاكمة المتهمين غيابيا اما الباقون فتحاكمهم محكمة المعسكر
وكنت موقنا ان دورى آتى قريبا جدا .. فحاولت اعداد نفسى لتحمل اسوأ الاحتمالات وسألت نفسى سؤالا واحدا فقط.
- هل ستحاكمنى بالموت محكمة (او. اس أو.) ام محكمة المعسكر..؟
كنت افكر كيف افعل لحظة الخروج للموت .. وحدثت نفسى بأننى سأخرج معتدل القامة مشدود الظهر وعندما اقف امام الزبانية المتعطشين للدماء سأقول لهم الحقيقة فى وجوههم قررت ان اسأل قضاتى.
ـــ هل هذه حرب ابادة للشعب، وفق تعاليم ماركس وانجلز ولينين؟ وسوف اسألهم ايضا.
ـــ هل طردت الثورة رومانوف لتنصب فى الحكم من هو أسوأ منه ..؟
لمن اقول هذا ..؟

ربما يفهمنى الناس وتذكرت شبابى ورجعت بفكرى القهقهرى لعام ١٩١٩ حينما كنت فقيرا وشابا عاملا فى مطبعة بفينا ولاول مرة سمعت متحدثا فى جمع شيوعى للشباب .. خيل الى انه يتحدث من قلبى.
كنت فقيرا .. اسكن داخلية الصناعات اكل مرتين فى اليوم فقط كنت احصل على خمس

كرونات في الاسبوع استلمها من السيد واقتسمها مع اختى الطالبة .. وحتى احارب ذلك الفقر واتخلص منه انضممت للشبيبة الشيوعية وبعد شهرين من انضمامى للشبيبة لاول تجربة احتكاك مع السلطة .. على رأس مجموعة من الشباب قاومت البوليس كان ذلك في الخامس عشر من شهر يونيو عام ١٩١٩ في هورلقاسى .. واطلق البوليس النار فاصبت بجراح خطيرة ومكثت مرميا في منتصف الطريق.

وعندما خرجت من المستشفى بدات في ممارسة نشاطى الحزبى وعندما اقترح على ويلى منزنبرق سكرتير الشبيبة الشيوعية ان اذهب ليوغسلافيا عام ١٩٢١ لكى اعمل في صفوف الحزب الشيوعى المحظور، وافقت بسعادة وكنت ابحث عن الاخطار مستعدا للتضحية وعملت عشر سنوات بيوغسلافيا تحت وطاة احلك الظروف واقساها حتى عام ١٩٣١ عندما اكتشف البوليس المطبعة السرية التى كنت اديرها وذهبت الى باريس لكى اعمل وسط المهاجرين اليوغسلاف وكنت اتجول من ضاحية الى اخرى بحثا عن العمال اليوغسلاف بغرض تنظيمهم .. وكان منهم نست دينس .. فلى يقى .. اقرى .. وقتروفى .. كما تعرفت على قاقورتين .. اوتاكرنق ـ فلوردسدورف ـ وهرناكس من النمسا.

وكان على ان ارحل من باريس .. بناء على رغبة العضو اليوغسلافى في باريس سبالايكوفج .. واجبرنى البوليس الفرنسى على الرحيل من فرنسا وعدت مرة اخرى الى فينا واسست مطبعة كان تمدها الاحزاب الشيوعية لدول البلقان بالمواد الادبية.

قبض على وحبست .. ولم يكن عندى ماهو اقيم من الحزب الشيوعى وعندما وصلت الى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٣٢ كنت اسعد انسان في العالم .. لقد وصلت اخيرا الى بلاد احلامى ومهبط آمالى وكم كانت خيبة املى!

بدلا عن الرفاهية وجدت البؤس وعندما وطئت قدماى ارض موسكو في روسيا البيضاء وبمجرد خروجى من القطار احاط بى المتشردون يسألون الاحسان وهم يمدون ايدى الضراعة ماذا يعنى هذا؟

في موسكو .. عاصمة الثورة العالمية .. يتشرد الصغار ويصبحون شحاذين ..؟ وخجلت خجلت كثيرا وعندما حضرت العربة الليموزين وحملتنى الى الفندق وذهبت الى فندق «لوكس» مبنى البيروقراطية وتركت حقائبى وذهبت اتجول في شوارع موسكو .. وخاب املى مرة اخرى الصفوف المتراصة امام المخابز اللفافات البائسة في محلات القهوة .. النساء العجائز يسألن بالحاف قطعة من الخبز .. وكن يشكرن الذين يعطونهن قطعة الخبز .. ربنا يعطيك.

اما في غرفة الاكل بالفندق فكانت الامور مختلفة تماما .. هنا يجرى تخفيف الشيوعية قوائم الطعام تفوق مثيلاتها في فنادق الانترناشونال بفينا ـ وبرلين .. وباريس .. كافيارا السالمون الفاخر المقلية كل انواع الفاكهة المطبوخة .. تلك كانت قائمة الطعام لقيادت الحزب الشيوعى.

في المانيا لم يكن هنالك هتلر قد جاء الى الحكم .. ولكن هنا في موسكو كان بالامكان مقابلة بيسك ـ نورنل ـ والاخرين.

كانوا يشعرون بالراحة هنا في فندق لوكس اكثر من سعادة تهلمان في برلين .. كان في موسكو بعض الزعماء الالمان الاخرين ولكنهم سكنوا الساحة الخلفية لفندق لوكس».

كانوا هم المناضلين بحق ضد هتلر.

وقد جاءوا الى موسكو بناء على رغبتها .. وقتلوا جميعهم فى سجون ال ن ك ف د!!

ومنهم ـ هانز نيومان ـ هيرمان رميل ـ وارنر هريش ـ ماكس هولز وقد كانت فى انتظارى مفاجأة كبرى فى اليوم التالى عندما تابعت التجول عبر شوارع موسكو

فجـأة وجدت نفسى امام متاجر امتلأت بالمواد التموينية والملابس .. ولم تكن هناك صفوف كالتى رأيتها امام مخابز الرغيف الاسود .. وسألت نفسى كيف حدثت هذه الاعجوبة؟

كانت المتا جر اسمها تورقسين .. فقط يمكنك ان تشترى منها بالعملة الصعبة والذهب.

آه هنا سوق الدبلوماسيين والاجانب الذين جاءوا الى موسكو للعمل وهنا ايضا يمكنك رؤية الفقراء الذين احضروا خاتم الزواج والحلى الاخرى ليشتروا خبزا او لبنا لاطفالهم.

وفى فنادق موسكو الفخمة سافوى ـ متروبول ـ ناشونال ـ كان بمقدور الاجانب ان يحصلوا على كل ما يشتهون بالعملة الصعبة ـ كافيار ـ الشمبانيا الفرنسية وكانت الفتيات يعطين اجسادهن للاجانب والمعلومات لل ن ك فُ د.

هكذا بدت لى موسكو وكان يمكن ايضا ان تقرأ فى طرقاتها اللافتات والشعارات الكبيرة «البروليتاريا الخارجية تنظر الينا بحسد» وعندما عينت مديرا لمطبعة مؤسسة (أم ـ أ ـ أى ـ) كان بامكانى التأكد من ان فى موسكو يوجد عمل سرى للشيوعيين .. عدا تلك الكتب المعهودة التى تروج النظرية الشيوعية والتى كنا نطبعها كان على ان اقوم بتزوير جوازات سفر الدول الاجنبية الاخرى.

هكـذا فكـرت فى كل الاشيـاء وانـا ارقد على الكنبة ولا يغمض لى جفن .. وفى الافطار الصبـاحى اعـطونـا زيادة فى الحساء .. كانت هى الفائض الذى تركه الرفاق المقتولين بالامس. لذلك كانت باردة واحسست بالم شديـد فى معدتى .. ثم تفاقم وزادت حدته .. وطرقت الباب اطلب نقلى للطبيب ولكن دون جدوى .. حتى دورة المياه منعونى من الذهاب اليها .. واضطررت الى استعمال الجردل الموضوع فى الزنزانة «براشا» امام اعين الجميع ونزفت وبصعوبة سحبت جسدى الى مكانى ورقدت فى الحال وعندما حان ميعاد الغداء لم استطع النهوض واحضر لى الرفاق الطعام ولكنى تركته لهم ورغم الالم الذى بدأ عليهم لمرضى الا انهم كانوا سعداء لحصولهم على وجبة اضافية.

فى المعسكر تحت وطأة القوانين الصارمة

فترة الظهيرة حملت لى مفاجاة كبرى .. فى الممر وقع خطوات مسرعة خفت وارتجف قلبى كنا نتوقع دنو اللحظات الاخيرة من اعمارنا .. ورقدت بلا حراك على الكنبة ..كان الامر سيان بالنسبة لى .. وتمنيت لحظتها ان تكون هذه نهايتى .. ولكن حدث ما لم اتوقع قادونى ومعى خمسة وعشرون من نزلاء الزنزانة الى فناء السجن حيث وجدنا عددا كبيرا من السجناء وعجبت لعدم وجود حرس عدا اولئك الذين كانوا فوق ابراج المراقبة. ووقف السجناء فى مجموعات ينتظرون ويتجادلون فى المصير الذى ينتظرنا لم يكن احد يعلم ما يجرى ووقعت عيناى على صديق جورج وسرت نحوه واحتضنته بقوة ولكن فزع من منظرى وحدثته عن ما الم بى ولم اكن استطيع الوقوف فوضع جورج معطفه المحشو على الارض فجلست عليه واخذ عدد السجناء فى الفناء يتزايد كل لحظة واخرى وفى المجموعة الاخيرة رأيت جوزيف بيرقر وجرى نحوى سألنى ما بى وتحدث للجميع عن سوء صحتى.

ولكنى كنت أرى ايضا ان صحة الاخرين لا تسر انها ليست احسن من صحتى وخاصة جوزيف بيرقر الذى بدأ وكأنه قادم من القبر لتوه وضمن الجميع انهم سيرسلوننا الى سجن آخر .. ولم يكن أحد منا قد حوكم بعد .. وقال البعض.

ـ بل سيقودوننا الى المقابر وهناك يطلقون علينا الرصاص.

واخيرا فتحت بوابة السجن الكبيرة .. وفى الناحية الاخرى رأينا مجموعة كبيرة من جنود ال ن ك ڤ د مسلحين تسليحا تاما .. وهم يمسكون بأيديهم مقاود الكلاب البوليسية التى ما ان وقعت ابصارها علينا حتى بدأت فى النباح والزمجرة واستلم احد الضباط من مدير السجن حزمة من الوثائق .. وتحركنا فى خمسة صفوف .. وعندما لاحظ الضابط انى اسير مستندا على اثنين من رفاقى سألنى ما بى اوضح له جورج انى مريض جدا وكان على ان اخرج من الصف حتى لا اعوق سيره وهرع احد الكلاب مكشرا انيابه نحوى وتمكن الجندى من السيطرة عليه وابعده عنى فى اللحظات الاخيرة.

واوضح الضابط لمدير السجن انه لن يأخذنى لاننى لا استطيع السير وسمعت هذه المحادثة فرجوت الضابط ان يأخذنى فقال لى .

ـ الطريق طويل للغاية ولا اريد ان تتاخر المجموعة ثلاث ساعات من اجلك .. الاصدقاء الذين كنت اتوكأ عليهم قالوا للضابط بانهم سيحملوننى لنقطة النهاية دون تاخير.

وعندها وافق. وصاح بصوت مرتفع ..

ـ ايها السجناء .. انتباه .. فى اثناء السير ممنوع الكلام او الانتقال من مكان الى آخر اى خطوة للشمال او اليمين ساعتبرها محاولة للهرب وسيتعامل معها سلاح الجنود بدون تحذير سابق ايها الحراس استعدوا للقتال وسارع الجنود بتعمير بنادقهم ورشاشاتهم.

ـ الى الامام مارش .. وفى نفس الوقت تحرك معنا الحرس وعوت الكلاب .. وقادنا الطريق الى الاتجاه العكسى للمقابر .. وتصاعدت بين صفوف السجناء تنهدات تنم عن الراحة والخلاص .. وبالرغم من المرض احسست باننى قد تحسنت .. ولكن ذلك لم يدم طويلا وشعرت بعدها بالم مريع ولم استطع السير بعدها وبركت على ركبتى وبصعوبة استطاع

رفاقى ان يمنعونى من السقوط .. ولاحظ الضابط حركة غير عاديه فى الصفوف فامر بالتوقف واقترب منها وقال لى مرافقى بان حالتى سيئة للغاية فسمح لى بالجلوس على الارض لارتاح قليلاً وبعد ربع ساعة اقترب منى وسألنى.

ــ كيف حالك الان ..؟

ــ تحسنت كثيرا فامر بالسير وبعد مئات الامتار احسست بالضعف مرة اخرى ولم استطع السير واقترب منى الضابط فالتمست منه ان يسمح لى بالخروج من الصف وعندما سمح لى مشيت متكئا على رفيقى بجانب القافلة وبدأ النزيف كان الدم يسيل منى بغزارة وسمعت السجناء يقولون..

ــ هذا لن يحتمل طويلا ..

وكان الامر عندى سواسية فى تلك اللحظات سأكون سعيدا جدا لو استطعت الرقاد والى الابد .. وكان يجب ان ارتاح قليلا ولكن ذلك لم يتيسر وتحركت القافلة ببطء وكان الضابط يطوف بى كثيرات ويسألنى هل استطيع السير كان الوقت مساء عندما اقتربنا من عنابر عالية، قالوا انها ثكنات حرس المعسكر خيل الى انها الابدية ومررنا بحواجز من صفوف عديدة سورت بالاسلاك الشائكة وعلى طول هذه الاسلاك رأيت ابراج المراقبة والحراس وفى الاعلى نصبت الانوار الكاشفة التى انارت السور الشائك واخيرا وصلنا باب خشبى كبير به لافتة كتب عليها «نورلاق ن ك ف د القسم السابع للمعسكر».

ذهب الضابط الى منطقة الحرس بالقرب من الباب ثم يعاد ونادى على لاخرج من الصف وتوكأت على صديقى الى منطقة الحرس وهناك كان فى انتظاره طبيب سألنى ثم فحصنى بدقة وقال للضابط.

ــ يجب نقله فورا للمستشفى

وقال الضابط ان ذلك ليس من اختصاصه وبعد ان يسلمنى للمسؤولين هنا. يمكنهم ان يتصرفوا بما يشاؤون وسأله الطبيب ان كان بالامكان اصطحابى الى العيادة اجاب الضابط انه لن يسمح بذلك . وكان على ان اخرج للممر وبركت على ركبتى لست ادرى كم من الزمن رقدت ثم شعرت بهم يضعوننى على نقالة حملونى بها للعيادة حيث اعطانى الطبيب سفوفة ابتلعتها فورا رقدت فى العيادة حتى منتصف الليل .. وعندها حضر كاتب السجن واخطر الطبيب بانه غير مسموح لى بالمبيت هنا .. بل يجب ان اذهب للعنابر ولم يستجب له الطبيب .. تباطأ فى تنفيذ الامر وابقانى حتى الصباح فى العيادة .. وكان دائم السؤال لى كيف اشعر واحضرت لى الممرضة شايا دافئا .. وفى الصباح حضر مدير القسم الصحى .. واخطره الطبيب بحالتى الصحية ففحصنى وتحدثا بمصطلحات لاتينية لم افهمها وقال مدير القسم الصحى.

ــ يجب ارساله للمستشفى

ــ لقد اردت نقله الى هناك بالامس: ويجب الحصول اولا على تصريح من ادارة المعسكر .. وذهب مدير القسم الصحى الى ادارة المعسكر وعاد سريعا وهو يقول.

ــ يظهر ان جرمك فظيع رهيب .. لقد رفض مدير المعسكر فكرة ذهابك للمستشفى. وبعد ذلك جاء بوليس المعسكر وبصحبة الطبيب قادونى من العيادة كان المعسكر الذى مررنا به ساكنا ليس به حياة، سوى دخان يتصاعد من مدخنة المطبخ كانت المبانى محاطة

بصفين من الاسلاك الشائكة وتلك هى زنزانة الحبس الانفرادى «كارسر» ودنونا من هدفنا فى منتصف الساحة الضيقة يوجد عنبر خشبى كبير كسيت نوافذه بلخشاب السقالات واحيط بقضبان حديدة الساحة كانت محاطة بحاجز سلكى .. وفى كل ركن قبعت ابراج المراقبة جاء الحارس عن ضغط الجرس واستقبلنا بعد ان سلموه قصاصة من الورق .. واخبره الطبيب انى مصاب بمرض معد ويجب عزلى عن السجناء الاخرين.

وضحك الحارس بصوت مرتفع واجاب الطبيب قائلا ..

ــ هناك غرفتان كبيرتان فقط .. تسع الواحدة منهما خمسين شخصا فقط ولكن الان بها اكثر من مائة وخمسين سجينا .. فلا يمكن ان تتحدث عن قصة العزل هذه وسيكون سعيدا اذا وجد لنفسه مكانا.

ــ اذنا سأحاول الحصول له على اذن لنذهب الى المستشفى .. وقادنى الحارس الى العنابر .. فتح قفلين كبيرين وادخلنى فى برندة وبعدها فتح الباب الشمالى وسمح لى بان ادخل قائلا..

ــ يا اخوة افسحوا مجالا للمريض ولكن لا تقتربوا منه فهو مصاب بمرض معد.

وفى نفس اللحظات هرع الى اصدقائى ومن بينهم جورج قلدونى الى نهاية الغرفة .. ووجدت لنفسى مكانا بصعوبة شديدة شعرت للحظات ببعض التحسن لانى سعدت بلقاء اصدقائى ثم تدهورت حالتى بعد ذلك ساعت للغاية .. واخطر الرفاق الحارس ساعة الغداء لينقل اخبار صحتى المتدهورة جدا للطبيب.

مرة أخرى فى المستشفى المركزى

بعد الظهر .. على غير المتوقع ظهرت عربة الاسعاف .. الرفاق الذين شاهدوها جاءونى مستبشرين واخبرونى اننى سانقل الى المستشفى. دخل ممرضان بصحبة الطبيب الذى كان مسرورا لنجاح مساعيه فى ارسالى الى المستشفى.

خلال الرحلة السريعة مررنا بنورلسك. توقفت عربة الاسعاف امام قسم الامراض المعدية فى المستشفى المركزى لمعسكر نورلسك.

كنت اعرف الجميع هنا، فقد قضيت بها شهرين من قبل فى قسم الجراحة.

كشف على الطبيب المناوب كشفا دقيقا، وامر بنقلى الى القاعة رقم ٢ .. وكان قسم الامراض المعدية مكونا من اربعة اجزاء .. ثلاثة اجزاء منها بكنبات ذات طابقين عاديتين كالتى فى عنابر المعسكر .. ولكل مريض مرتبة من القش ووسادة وغطاء. وكانت نظيفة للغاية.

اخذوا ملابسى واعطونى بنطالا ازرق اللون، ومعطفا خفيفا بنفس اللون ولم يكن لدى مكان خال فى الكنبة السفلى .. فامرت الممرضة المريض الذى خفت حدة حالته ان يصعد الى الكنبة العليا .. وبذا حصلت على مكانه.

وكنت سعيدا جدا، فها انا ارقد على مرتبة من القش، واستطيع ان اتغطى بغطاء بعد زمن طويل .. واحضرت لى الممرضة سفوفة فشربتها، ونمت حتى المساء وعندما صحوت وجدت ممرضة النهار قد غيرت الوردية وسلمتها لممرضة المساء .. وكنت اعرفها من قبل اسمها بيجانكا ألسى .. قابلتها عندما كنت اعمل فى الشبيبة الشيوعية فى المجموعة الثالثة عشر بمنطقة فينا.

وكانت السى قد حضرت فى عام ١٩٢٠ مع اختها الى موسكو .. فى الايام الاولى كنا نتلقى رسائل من الاختين ونحن فى النمسا. تصفان فيها الحياة بروسيا. ثم انقطعت هذه الرسائل.

وعندما عدت الى فينا فى عام ١٩٣٢ سألت احد اصدقائى عن الاختين وما حل بهن. قال لى، انهن قد اصبن بحادث عندما كن يتسلقن جبال القفقاز. وفى نورلسك حدثونى بانه توجد بمعسكر النساء امرأة باسم بجانكا .. ولكن لم يخطر ببالى ان تكون هى بجانكا ألسى كامب. وعندما تهيأ لها الظرف المناسب جاءت تعودنى سألتها.

ــ ألسى .. انت هنا ..؟

ــ مثلما انت هنا تماما ..

ــ سمعت فى فينا بانك قد اصبت بحادث عندما كنت تتسلقين جبال القفقاز.

ــ انا ..؟ وفى القفقاز ..؟ لم اذهب ابدا الى هناك ..

واصغيت لها باهتمام بالغ وهى تحدثنى .. كما اصغت هى وبنفس الاهتمام لما قصصته عليها.

اخبرتنى انها تزوجت رجلا روسيا اسمه اولنيكوف كان احد سكرتيرى تروتسكى وعندما طرد ستالين تروتسكى الى تركيا بقى اولينكوف فى موسكو لينظم ارشيف تروتسكى ثم قرر اللحاق به .. واستعد هو وانا للحرية من الاتحاد السوفيتى .. ولكن ال ن ك ڤ د ظهروا وطلبوا منه ان يفتح صناديق الارشيف .. ولكنه احتج بالوعد الذى قطعه ستالين لتروتسكى بحمل ارشيفه للخارج .. وذهب رجال ال ن ك ڤ د وعادوا بعد ساعات ليلقوا

عليه القبض .. ومن وقتها لم اسمع عن زوجي اولنيكوف شيئا ورحلوني الى روسيا الوسطى .. وهناك اصيب طفلي الوحيد بالملاريا ومات.

وفي عام ١٩٣٧ القوا على القبض وحوكمت بتهمة التروتسكية بعشر سنوات في معسكرات العمل الاجبارية.

وحكت لى ألسى عن الظروف التى عاشتها اختها كذلك .. قالت لى .. عنها .. ان ابنتها التى كانت تدرس الطب طردت من الكلية بعد حبس امها وعملت كموظفة في مصنع للقطن بالقرب من لينيناكان.

وحدثت ألسى عن النمسا .. فلم تكن تسمع عنها شيئا منذ ان تركتها في عام ١٩٣٠ ..

وفي اليوم التالى حضرت ألسى مبكرة للعمل .. لانها كما قالت قد احترقت شوقا لسماع الجديد منى.

وفي ذلك اليوم علمت بان صديقي كروشي يصارع الموت في الغرفة المجاورة وتاقت نفسى الى رؤيته والوقوف على احواله .. فقادتنى ألسى الى الجانب الاخر من الممر.

السستر المسؤولة اخبرتنى بانه ممنوع منعا باتا الدخول الى تلك الحجرة .. وبعد رجاء والحاح .. وتوسل من ألسى سمحت لى بالدخول وبحثت عن كروشى كانت الاسرة ممتلئة بالمرضى .. ورغم انني مررت بها عدة مرات فلم استطيع التعرف عليه.

وذهبت الى السستر ارجوها ان تأخذنى اليه ففعلت .. وقادتنى الى سريره .. في اللحظات الاولى اعتقدت بان الامر قد اختلط على السستر فليس هذا كروشي ... ولكن بعد ان تمعنت وتفرست فيه كثيرا هالنى ان ارى ما تبقى من الرجل الرياضى الممتلىء الجسم .. كان رأسه كرأس طفل صغير .. ووقفت بجانبه صامتا حزينا حتى فتح عينيه .. وطافت على فمه رفة ابتسامة لقد تعرف علي .. وحاول ان يقول شيئا. كأنه كان يريد ان ينطق باسمى .. واقتربت منه .. دنوت حتى التصقت به ... ولكنى لم اسمع شيئا.

راقبته وهو يحرك شفتيه بيأس وعذاب كأخرس يلتمس الصياح .. ولذلك فقد كنت سعيدا جدا عندما دعتنى السستر للخروج .. ومددت له يدى ولكن يداه اللتان رقدتا تحت الفراش بقيتا بلا حراك .. وهز رأسه بصعوبة .. وحزن وسألت ألسى عن مرض كروشي .. قالت انه احضر الى المستشفى مصابا بالدوسنتاريا .. ورقد في نفس الغرفة التى ارقد بها الان .. وكان يتحدث الالمانية بطلاقة وقد جعل ذلك ألسى سعيدة لانها استطاعت ان تحادثه .. وكانت صحته تبدو وقتها في تقدم نحو الاحسن .. حتى ان الطبيب قال له يوما.

ــ ستغادر المستشفى قريبا .. وفجأة اصيب بنكسة واشتد مرضه .. واحزننى حاله كثيرا واحتلت رأسى افكار سوداء..

وفي اليوم الثالث حضر موظف من ادارة المستشفى يحمل امرا بنقلى الى المبنى الرئيسى للمستشفى المركزى ولم يعلم الاطباء لماذا .. وعندما اوصلونى الى هناك. قفلوني في غرفة بها شباك ثبتت عليه القضبان كما في السجن .. وكان بابها مغلقا على الدوام ..وعندما كان يعوزنى شيء كنت اخبط على الباب، وانتظر حضور رئيسة الممرضات لانها الوحيدة التى كان يسمح لها بالدخول الى غرفتى .. ومن وقت لاخر كان يحضر ضابط ال ن ك ڤ د .... ويراقب هل الجميع ملتزمون تنفيذ الاوامر .

كان بالغرفة اربعة اسرة اثنان محجوزان واثنان خاليا هنا كان يرقد المرضى الذين

احضروا من السجن .. كان احدهما هو قوستاف شولر، الذى مرض مرضا شديدا مرة اخرى وحكمت عليه محكمة العسكر بالاعدام .. فقدم استرحاما وبقى ينتظر الرد عليه وفيما هو بين هذا ذاك مرض مرضا شديدا فقادوه للمستشفى.

هذا الرجل الذى لم يكن يملك القدرة على الحرب من اجل الحياة ادرك اخيرا بانه اهلك نفسه عندما اعترف بالاشياء التى لم يرتكبها قط.

والان وعند ما علم بان هذه الايام هى كل ما بقى له من عمر، عرف الخوف طريقه الى قلبه .. وقد استغرب جدا عندما اخبرته بان قضيتى لم تنته بعد ولست فى زنزانة السجن ولكنى فى عنابر المعسكر القسم السابع.

ـــ كارلو .. قل لى .. انت بطل اذا استطعت ان تخوض معركة كهذه.

ـــ نعم.

اما المريض الثانى فكان مجرما.. وبدا فى السجن اضرابا عن الطعام وقد جعلوا يغذونه صناعيا.. اضرب عن الطعام لمدة شهرين.. وفى المساء كنا نسمع كيف كان ياكل السكر والخبز. كان متاكدا ان اخلاقيات السجناء السياسيين لاتسمح لهم بان يشوا به..

الطبيب الذى اشرف على علاجه.. كان يعمل رئيسا لقسم الباطنية بالمستشفى المركزى، واسمه دكتور ماردانا.. من استونيا.. ويقضى فى سجن نورلسك عشر سنوات سجنا...

كان كثير الاهتمام بمصير السجناء المرضى.. وكان يتولى الاشراف كنائب لرئيسه ومديرة المستشفى الكسندرا افانوف سيليبكوف..

وكان السرور يبدو على المرضى كلهم حين يحضر دكتور ماردانا بقرب اسرتهم..

كان ذا لحية طويلة شهباء.. نظراته دائماً صافية..

وعندما علم دكتور ماردانا بحكاية سجنى المتقطع وما صادفته من مرض وارهاق، مس ذلك شغف قلبه

كان ياتى لزيارتى فى غرفتى عدة مرات، حتى يطمئن الى صحتى.. وذات يوم دخلت غرفتنا الكسندرا سليبكوف، وعندما اقتربت من سريرى استغربت لرؤيتى هنا.. وطيبت من خاطرى كما كانت تفعل دائما.. وعند خروجها تمنت لى شفاءا عاجلا.. واصابنى سرور حقيقى واصيل لدى رؤيتى لتلك المرأة النبيلة..

فى الثلاثين من سبتمبر عام ١٩٤٢، دخل الى غرفتنا مدير السجن ومعه جنديان.. واقترب المدير من السرير الذى يرقد عليه قوستاف شولر وساله..

ـ ما اسمك؟.

ونظر اليه شولر بعينين جاحظتين مسمرتين، ولم يجب بشىء فلم يكرر المدير سؤاله وانما قال له..

ـ هل لك حاجيات هنا؟....

ـ ملابسى فقط، الاشياء الاخرى فى السجن..

واحضرت له الممرضة ثيابه فارتداها فى بطء شديد وكان يخطىء عند اللبس، ومن ذلك انه ارتدى البنطال دون ان يرتدى ملابسه الداخلية ولما اراد ان يصحح هذا الخطأ قال له المدير..

ـ اترك هذا الان، لسنا بعيدين عن السجن.. هناك سوف ترتدى مرة اخرى وكنت سعيدا

لانه لم يكن ساخرا..
ولم يجـرؤ قوستاف على الاقتراب من سريرى، ولكنه اوما لى برأسه وخرج.. وعندما اقتادوه حضر دكتور ماردانا.. ووقف بعض الوقت بجانب سريرى دون ان يتكلم.. وبعدها استدار وخرج..
وبقيت مع المجرم بمفردنا في الغرفة.. فقال لى:
ـ ذلك الذى اقتادوه سيعدم بالرصاص.
ـ لا اصدق.. اعتقد انهم اصدروا عفوا عنه..
ـ لا تتكلم عبطاً.. هل رأيت ابدا ان الجنود يحضرون للمستشفى انهم يأتون فقط عندما يريدون ذبح شخص ما..
ـ اسكت..
بعد ذلك بيومين مرض دكتور ماردانا.. وحل محله دكتور ميلر وهو المانى من لينغراد..
كان دكتور ميلر في المرة الاولى عندما لزمت سرير المستشفى ياتى الى كثيرا ونتحادث بالالمانية.. ولكنه تظاهر الان بعدم معرفتي.. وعندما اساله شيئا بالالمانية، كان يجيبنى بالروسية..
ويوما سالت دكتور سوهوركوف ليفسر لى موقف دكتور ميلر فقال لى..
ـ عنـدمـا تقـدمت الجيـوش الالمانيـة.. كان دكتور ميلر ينتهز كل فرصة ليتفاخر باصله الالماني.. وحتى مع الاطباء اليهود تحدث بلهجة خطيرة.. والان وعندما اخذت الجيوش الالمانية في الانسحاب، اصبح دكتور ميلر روسى الاصل، اما اسم عائلته الالمانى فهو توافق في الاسماء ليس الا.. وعاد يؤاخى زملائه اليهود ويبدى اشمئزازا من جرائم الالمان..
المجـرم الذى كان مضربا عن الطعام تعرض لسباب قاس من دكتور ميلر لانه يسبب للسلطة السوفيتية مشغوليات كثيرة، وان سلوكه ذاك سلوك عدواني..
وذات يوم جاءنى دكتور سوهوركوف ومعه كيس من القماش وبه سكر وقال لى..
ـ هذا ارسلته لك اولقا..
لم تتجرأ اولقا على زيارتى لانها مراقبة.. المرض موروزوف كان مكلفا من ال ن.ك.ق.د بمراقبتها.. وقد اخبرها موروزوف بهذا وطلب منها ان لاتبوح بسره..
يقع المستشفى المركزى في منطقة القسم الخامس للمعسكر.. ولذلك فكثيرا ما انظر من النـافـذة، لاراقب كيف يمـر الاصـدقـاء والمعـارف.. كثـير من الاطبـاء علم بوجودى في المستشفى.. وكانوا يمرون ويحيـوننى، احد المرضين احضر لى قطعة من الدوبار ربطت عليها كيسا صغيرا وانزلته من الشباك وهكذا حصلت على البريد والهدايا الصغيرة.. بعض الخبز، وبعض السكر كلهم كانوا تواقين ليعرفوا شيئا عن صحتى..
وفي يوم كنت اقف قرب الشباك.. وعند اللحظة التى جررت فيها الكيس دخل على دكتور ميلر..
ـ ماذا تفعل؟.. الا تعلم انك تحت التحقيق، وغير مسموح لك الاتصال بالعالم الخارجي؟..
واجبته بهدوء تام..
ـ كنت اعتقد انك طبيب ولست من الـ ن.ك.ف.د..
ـ انا وطنى.. سوفيتى.. ولن اسمح لك في المستشفى بمواصلة اعمال الثورة المضادة..

واخرجت من الكيس السكر القليل الذى حصلت عليه فى تلك اللحظة، ووجهته الى ميلر..

ـ هذا دليل نشاطى فى الثورة المضادة..

وانتزع دكتور ميلر الكيس من يدى ورمى به من الشباك..

وفى اليوم التالى اخرجونى من المستشفى بحجة انى قد بلغت تمام الصحة.. وكان وزنى حينها سبعة واربعين كيلو جراما فقط، فى حين ان المعدل الطبيعى لوزنى هو أثنان وسبعون كيلو جراما..

بصحبة اثنين من صف ضباط الـ ن.ك.ڤ.د اللذين تسلحا بالبنادق الاوتوماتيكية تحركت من المستشفى المركزى، التى كانت تقع فى وسط نورلسك، الى القسم السابع من المعسكر باطراف المدينة..

كانت المسافة حوالى الثلاثة كيلومترات ، مشيتها فى خمس ساعات احد من رافقانى كان شابا مهذبا.. وعلى الرغم من انه لم يتحدث معى بشىء.. الا انه كان يبدى تعاطفاً معى.. اما الثانى فكان كلبا بوليسيا بحق، ليس له من الانسان الا ملامح وجهه

وفى كل مرة اساله فيها ليسمح لى براحة قليلة كان يسبنى باقذع الالفاظ.. وسألته..

ـ لماذا تسبنى؟..

ـ وانت لماذا لم تمت؟..

ـ يرسل الناس عادة للمستشفى للعلاج لا للموت..

ـ كان يجب تسميمكم جميعا كالفئران..

ولم اجبه..

الجزء الثالث

بـانـوف الحيـوان

عندما نظر الى حارس السجن اصابته دهشة بالغة، قال لى...

ــ أنت هنا مرة أخرى..؟ من كان يصدق بانك ستبقى على قيد الحياة؟

سمعت فى القسم الصحى بانك قد مت.

وهنا أدركت أن استفسار القسم السابع للمعسكر عنى، أجابت عليه المستشفى بانى مت. فى العنبر قابلونى بفرحة صادقة.. وبعضهم قال ان صحتى تحسنت واخبرتهم باختصار عن الذى جرى لى.

ثم علمت أن الاحوال غير جيدة وغير مريحة اطلاقا.

فى الخامسة صباحا نستيقظ ونخرج من العنابر الى الساحة، الأصحاء والمرضى جميعهم... البوليس يحرسنا بالعصى الغليظة.

ثم يقرأ رئيس الحرس اسماء الذين اعفاهم الطبيب من العمل ليعودوا مرة اخرى للعنابر.. أما البقية فعليها أن تتوجه للعمل.

لم أكن أدرى كيف أستطيع أن أعمل وانا بهذا الضعف.. رغم انه يتوجب على الاستعداد لكل شيء..

أفطرنـا على حساء رؤوس السمك، وقليل من عصيدة الشوفان.. لم استطع الاكل.. ولم استسغه، أفسدنى طعام المستشفى الجيد.. وكان بحوزتى بعض الخبز الجاف فاكتفيت بالماء الساخن (كبياتوك).

جاءِ الطبيب الشـاب وهـو من لتفـانيا، عرضت عليه نفسى فاخبر رئيس الحرس باعفائى من العمل.. وأمر أن يحضرونى له فيما بعد بالعيادة وبقى معى فى العنبر ثلاثة مرضى.

كان علينا تنظيف العنبر نحن المرضى ونقل جردل قضاء الحاجة، والتنظيم وأيقاد المدفاة.. وقمنا بما علينا.

قبل منتصف النهار قادونى للعيادة.. وكشفت على لجنة من الاطباء وأبدوا ـ استغرابهم لتعجيل خروجى من المستشفى وانا لم أبلغ الشفاء بعد رافقنى الطبيب الشاب اللتفانى الى العنبـر وأخبـر الحـارس باعفـائى من العمل.. وبانه سيبلغ الامر لادارة المعسكر.. ووعدنى بغذاء المرضى الخاص.

بقيت على سريرى أرقب الاشياء فى العنبر.. الكنبات خالية، فقد اخذ المجرمون الأغطية معهم للعمل.. البنطال كان هو المرتبة.. الجاكت أصبح وسادة، المعطف المحشو للغطاء.. ومن كان يملك بشكيرا فهو سعيد لانه يلفه على عنقه.

كان المساء قد حل منذ وقت طويل عندما عاد الرفاق من العمل.. أسرعوا يلتمسون شيئا من الدفء وقد تعلقت على وجوههم حبات الثلج فغيرت من أشكالهم. أيديهم كانت متيبسة من البرد فلم يستطيعوا فك الزرائر وحل أربطة الملابس.

قمت بمساعدتهم قدر طاقتى.

وبعد أن نالوا مايبتغون من الدفء شرعوا يتحدثون.. وجاء العشاء فقام بتوزيعه رئيس العمال مع مساعديه.. الطعام كان نصف لتر من حساء الكرنب وقطعة من السمك المملوح..

وربما عصيدة أيضا.. وفى تلك الليلة تناولت عشاء السجن اما طعام المرضى فقد حصلت عليه فى اليوم الثالث.
بعد العشاء هدأ الناس قليلا.. وارتخت الاعصاب والعضلات.. وبدأ دبيب الحياة يسرى فى السجناء.. فتعالت بعض الضحكات..
حكوا ماحدث فى ميدان العمل.. دائما كان هناك الجديد.. والمثير ضرب الحرس شخصا حتى اوشك على الموت.. رموا آخر بالرصاص فى محاولة للهرب.. الخ
بقيت فى العنبر لمدة اسبوعين.. لم يجبرونى على العمل.
شاركت متطوعا بعض المرضى فى أشعال المدفأة.. وقمت بترقيع ملابس الرفاق الممزقة. وتحسنت صحتى
وفى يوم، قال لى الطبيب غدا يمكن أن تذهب للعمل.
كانت ملابسى وحذائى تحتاج لاصلاحات وترقيع فأنجزتها.. وكانت قفازات يدى ممزقة ومهترئة
وفى اليوم التالى وقفت فى الصف.. من عنابر السجن الى الباب الرئيسى مشينا تحت حراسة بوليس المعسكر.
نزلنا طريقا منحدرا قادنا الى ساحة وسط غابة.
هنا كان علينا ان نجمع الحصى.. وكان الطريق الى هذا المكان يمر عبر منطقة المعادن.
السجناء الذين كانوا يعملون فى الوردية تركوا أماكن عملهم لبعض الوقت ومروا علينا بحب استطلاع كبير.. لم يكن ممكنا التعرف على أحد بسبب الملابس.. وكان الحرس يزجرهم ويبعدهم عنا فيفرون الى أماكنهم.
وفى اثناء السير كان الحرس يراقبنا بيقظة ودقة.. ليتأكد اننا نسير.

فى نفس الطريق.. وكثيرا ماكنا نقف لنسمع سباب القائد وتهديده باستعمال السلاح.. أما اذا انزلق أحدنا او وقع فى الجليد، كان عقابنا الركوع على الجليد لمدة ربع ساعة.. وفى تلك الاثناء كان الحرس ينهال علينا سبا بأشنع وأبشع الالفاظ.
وكنت سعيدا عندما وصلنا الى مكان العمل.
وقفنا امام كوخ صغير من الخشب..
قائد الحرس، ومدير موقع الحصى، ورئيسنا، ذهبوا الى مكان العمل ليوضحوا لنا واجباتنا..
مكان العمل كان محاطا بالافتات رسم عليها رأس أنسان ميت (جمجمة) وكتب عليها (منطقة محظورة).
أخذ الجنود مواقعهم حول مكان العمل.. وبدأنا فى الحفر.. حفرنا كتل الجليد الكبير.. ونبشنا الحصى المتجمد تحتها بالمجاريف والمعاول والعتلات. وحملنا الحصى على العربات الى مكان التجميع.
كل مجموعة كانت تتكون من ستة رجال.. أربعة منهم أستخرجوا الحصى ووضعوه على العربات.. واثنان دفعوا العربة الى مكان التحصينات. لم نشعر بالبرد رغم ان درجة الحرارة كانت منخفضة جدا.. كان العمل صعبا للغاية والمعدل الاحصائى كان عاليا.

ورغم ذلك كان علينا آن نكثف العمل.. الذى يبطىء كان الجنود يجعلونه يخلع معطفه المحشو.. وذلك يرغمه على العمل بسرعة حتى لايتجمد من البرودة.
واذا رأى الجنود أن هذا لايساعد جعلوه يعمل بالقميص.. وبعد زمن قصير رقد السجناء هناك وناموا للأبد.
كانت مواعيد العمل من الساعة الثامنة صباحا والى وقت الظهيرة بلا راحة او توقف قط.. اما الحرس والكلاب البوليسية فيغيرون كل ساعتين... بعد العمل يحصل رئيس الحرس من ادارة العمل على ايصال كتبت عليه النسبة المئوية لمعدل الانتاج التى أعطيت لنا وكان الحرس يحصلون على جوائز كلما كانت المعدلات كبيرة.. اما اذا نقص المعدل فالويل لنا من غضب الجنود عند عودتنا..
كانوا يقودوننا فى عمق الجليد ولا يسمحون لنا بانتهاك نظام الصفوف.. وكل خمس دقائق يوقفوننا ويصيح فينا رئيس الحرس..
ـــ نعم.. كيف يعجبكم هذا.
سأعلمكم كيف تعملون..
ورغما من ذلك كان مدير العمل يرأف علينا ويمنحنا أيصالا كتب عليه بأننا أنجزنا المعدل الاحصائى المطلوب فى العمل بنسبة ١٠٠٪..
وبعد العمل الشاق والبرد القارس كنا نسر جدا بعودتنا للعنابر الدافئة وحساء الكرنب..
وبعد الاكل لم تكن الاوانى فى حاجة للغسل، فاننا نكون قد غسلناها جيدا باصابعنا والسنتنا.
اثناء توزيع الخبز فى العنابر تحدث المشاجرات الدامية، رغما عن محاولة رئيس العمل الذى كان مسجونا سياسيا، ان يكون عادلا ـ ومنصفا، فهو يعطى الذين انتجوا فى العمل كميات آكبر من المتكاسلين ولكن بعض المجرمين كانوا يريدون اكثر من استحقاقهم.. وذات يوم تعدى احد المجرمين على رئيس العمل بسبب الخبز وأستل سكينا وأصابه بخمس عشرة طعنة.
وآخذنا نصيح فى طلب المساعدة ولكن لم يحضر احد.. وأمسكت انا بقطعة من الخشب ورميتها على الشباك بقوة.. وعندما أطلق جندى فى برج المراقبة عيارا ناريا.. فهرع بوليس المعسكر الى العنابر.
ومات رئيس العمال الطعين وهو فى طريقه الى المستشفى.
وبعد اغتيال رئيس العمل اصبح الرئيس الجديد من المجرمين.. فكان يعطينا سطح الحساء ويعطى النصف الأسفل الدسم لرفاقه المجرمين... وبذلك أنهارت قدرتنا على العمل بسبب نقص الغذاء.. وقل انتاجنا وتدنى.
ولم نعد نحصل على ايصال المعدل الانتاجى لان المدير لم يشأ تحمل مسئولية ذلك الانتاج الضعيف.
وفى ذات ليلة سمعت صيحة حادة تشق صدر السكون وتوقظنى من النوم.. وفتحت عينى..
كان فى منتصف العنبر تقف مجموعة من الحرس وهم يتمايلون سكرا ويتصايحون
ـــ فاشستيون .. انصار الثورة المضادة. تروتسكيون.

ـ ماهذه الكدمات..؟ من فعل بكم ذلك؟
ـ عدا العمل الشاق.. علينا ان نتحمل الضرب والاهانة والاذلال.. وخرج المدير من العنبر دون ان ينطق بكلمة.
وعندما حضرنا في اليوم التالى للعمل كان بانوف ثائرا متحفزا كالنمر.. دعى كل الذين شكوا للمدير بالامس.. وجعلهم يعملون في مكان واحد وقال:
ـ اذا اردتم العودة الى العنابر احياءا.. عليكم الوفاء بالمعدل الاحصائى للعمل.. سأريكم انا لمن تشتكون..
وعنـدما حان وقت العودة.. رأى بانوف بان المجموعة أكملت خمسين بالمائة من المعدل الاحصائى للعمل فصرخ فيهم..
ـ ماذا تظنون ايها الفاشيون..؟ تتحايلون ثم تريدون ان نطعمكم السلطة السوفيتية.؟ لماذا تعيشون فوق الارض السوفيتية ولاتؤدون ـ العمل؟
والتفت بانوف وناول المعول لاحد السجناء قائلا:
ـ اضربهم به ـ كما كنت افعل انا.. هل فهمت..؟
ولكن السجين لم يتحرك من مكانه..
وسأله بانوف مهددا..
ـ نعم.. ماذا ننتظر؟
وصمت السجين..
وقال بانوف بصوت قبيح..
ـ آهـ... انت لاتريد ضربهم.؟
ـ لا استطيع..
وجـذب بانوف المعول من يده بعنف واخذ في ضربه.. وحاول السجين ان يحمى نفسه بيديه.. وأهاج ذلك بانوف..
ـ ماذا؟ انت تدافع عن نفسك..؟
وناول البندقية للجندى الذى كان يقف الى جانبه.. وبدأ يضرب السجين بكلتا يديه، وبكل قوته.
وسقط السجين راقدا على الجليد.. وصاح بانوف مرة اخرى بصوت كالرعد..
ـ قف..
وبقى السجين راقدا على الجليد.. وصاح بانوف مرة اخرى بصوت كالرعد ولكن السجين بقى بلاحراك... وجرى بانوف الى الكوخ الخشبى واحضر جردلا من الماء الصاقع وصبه على السجين..
ـ الان سوف نرى،هل ستنهضه ام لا؟
ولم يتحرك الرجل.. ونادى بانوف على رئيس العمال..
ـ اوقفه على رجليه..
ورفعه رئيس العمال.. ولكن الرجل سقط مرة اخرى..
كان ميتا..
وعندما عدنا للعنابر لم يفكر احد في العشاء..

وتبع ذلك الفاظ جارحة قبيحة.
ومن على الكنبات جروا عددا من السجناء السياسيين، ورموا بهم على الارض وداسوهم بالاحذية الثقيلة وهم يصيحون فيهم..
- سنريكم كيف تعملون..
وقبضوا على واحد من السجناء السياسيين امسكوا بعنقه وهم يصرخون - هل ستعمل جيدا.. هل ستفي بالمعدل الاحصائى للعمل..؟ ولم يستطع الرجل البائس ان يجيب.. وأثار ذلك حفيظتهم فظلوا يضربونه بقسوة على رأسه.. وبعد نصف ساعة جاء جندى غير ثمل وأستطاع أن يخرج الجنود السكارى من العنبر.
وفى اليوم التالى عذبونا بعنف وقسوة.. وعندما يشكون فى أن احدا منا لايعمل كما يريدون.. يستدعيه رئيس الحرس بانوف وينهال عليه ضربا ولكما وركلا.. ولكزا ببندقيته القصيرة وهو يصيح.
ـــ هذا ماسيحصل عليه كل من لايعمل جيدا.
وفى ذلك اليوم ضربوا عشرين رفيقا ضربا مبرحا أعجزهم عن الحركة. وكنا نبذل كل طاقاتنا لنعمل، حتى لا نتهم بالتقصير.
وفى المساء، قبل عودتنا للديار، القى بانوف علينا خطبة قال فيها
- أنا ذاهب الآن إلى المكتب لاحضر الايصال فاذا وجدت أنكم لم تصلوا الى معدل الانتاج المطلوب، سأعدمكم رمياً بالرصاص جميعاً. وانهرنا.. لم يعد أقوى الرفاق قادرين على الوفاء بمعدل الانتاج المطلوب لارضاء الجنود السكارى، مهما فعلوا وبذلوا..
وأزداد غضب افراد الحرس علينا يوماً بعد يوم.
بانوف ومساعدوه ظلوا كل يوم لايذهبون الى منازلهم الا بعد ان يكونوا قد أشبعوا واحدا منا ضربا يكاد ان يصل به الى حد الموت.
يضربون الضحية بمؤخرة البندقية حتى يسقط ارضا.. ثم يضربونه أيضاً وبقسوة حتى يقف.
ولا يستطيع المسكين.
فنحمله حملا الى المعسكر.
ومرة حضر الى العنبر مدير قسم العمل.
وسأل رئيس العمال..
ـــ لماذا ضعف انتاجكم..؟
ـــ انا نفسى لا ادرى ماذا افعل مع هؤلاء الفاشست لارغمهم على العمل.
وعندما سمعنا ذلك.. خرج واحد منا وقال:
- المواطن المدير.. ليس هذا صحيحا.. أننا لانرفض العمل بجد.. كلنا يعمل فوق طاقته..
ولكن انظر الى هؤلاء الرجال واشار باصبعه للذين يقفون بجانبه - واستمر يقول:
- هل يستطيعون الوفاء بالمعدل الاحصائى للانتاج؟
هذه الكلمات شجعت السجناء الاخرين ليخلعوا قمصانهم المتسخة. ويعرضون عظامهم الهزيلة، المكدودة من الضرب..
وسأل المدير.

وتعالى صوت يصيح..
- الى متى نحتمل هذا..؟
الا يكفى الجوع والعمل الشاق..؟
هل سيقتلوننا هكذا. ؟
وعندما سمع رئيس العمال ما قال الرجل. اسرع نحوه..
- اتحرض الرجال..؟ ضد من تحرضهم..؟ ضد السلطة السوفيتية واراد رئيس العمل ان يضربه.. ولكن السجين لوى ذراعه والقى به على الارض.
وهرع اثنان من مساعديه لنجدته ولكنهم واجهوا نفس المصير. وعندما احضر الحارس العشاء، طلبنا منه أن يحضر لنا أحداً من ادارة المعسكر واخطر السجين الضابط النوبتجى.
وكنت اقف فى الصف لانال نصيبى من العصيدة، عندما دخل علينا الضابط فى العنبر.
وصاح الحارس
- انتباه...
وسأل الضابط..
- من الذى نادى علىّ..؟
وتقدم احد السجناء وقال:
- انظر ماذا يجرى هنا.. عدا العمل الشاق والضرب المبرح الذى يتكرم به علينا الجنود. عدا كل ذلك يواصلون ضربنا هنا فى العنابر.
- اين رئيس العمال..؟
وفى اللحظة التى تقدم فيها رئيس العمال صاح الضابط قائلا:
- يا وجه الشؤم، ياحثالة العصابات والبلطجة ماذا يحدث هنا..؟
وحاول رئيس العمال بالحجج المعهودة ان يسيىء الى السجناء..
- هؤلاء الفاشست لايريدون ان يعملوا.
وقاطعه الضابط..
- اعلم ذلك جيدا.. انت العامل الوحيد.. اما كل الباقين فهم السيئون.. الى الامام.. زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية (كارسر) وفى اليوم التالى حضر نفس الضابط الى العنبر وبصحبته ملاحظ قسم العمل.
وبعد أن تحرى فى كل الشكاوى..
اختار السجناء رئيسا جديدا للعمال.
كان رجلا قد حكم عليه بخمس سنوات سجنا بتهمة الغش. وفى زمن الحرب واجه اتهاما تحت المادة ٥٨ لانه فى حديث مع بعض السجناء سمى الاخبار التى يذيعها مكتب الاعلام السوفيتى بأنها كاذبة..
وينتظر المثول امام المحكمة.
كان اسمه ساباكار.. تصادق فى الحال مع رئيس الحرس وحدثهم بما يجرى امس.. فى العنبر.. ورأينا كيف يشير بأصابعه نحو السجناء الذين تظلموا.
ولكن فى ذلك اليوم تركنا الحرس وشأننا.. لم يعترض احدهم طريقنا عند عودتنا للعنابر..
كان ذلك اول مساء نعود فيه بهدوء..

وفي العنابر كانت تنتظرنا لجنة من الاطباء..
خلعنا ملابسنا ووقفنا عراة.
هؤلاء الاطباء الذين رأوا من قبل رجالا كثيرين اصابهم التعذيب فاجأهم منظرنا.. وهزتهم شكاوانا..
وقال رئيس الاطباء..
- لاتشكوا شيئا.. اننا نرى بأعيننا، فالامر واضح لايحتاج الى تفصيل وفي اليوم التالي للكشف الطبي علينا اعلنوا بأن المعدل الاحصائي للعمل قد قل بنسبة ستين بالمائة.
وسر الكثيرون..
قالوا سنعمل قليلاً من الآن.. ولكن البعض الآخر أكد اننا لن نستطيع حتى لو بذلنا كل جهد ان نصل الى هذا المعدل الاحصائي الجديد للعمل.
ومع ذلك التخفيض اختفى بانوف.
رئيس الحرس الجديد لم يهتم أبدا ان كنا سنحقق المعدل الاحصائي المطلوب ام لا..
كان لا يسب احدا منا قط.. وله اساليبه وطرقه الخاصة.
عند توزيع الاكل بقيت عنده وجبات كثيرة وعد بها الذين يصلون الى المعدل الاحصائي للعمل.. وتحدث كذلك بأن المدير وعد بجائزة هي عبارة عن طرد صغير من الدخان..
وكانت تلك وسائل جديدة.. غير ضارة.. ارغمت السجناء على العمل فوق طاقاتهم...
وبعض مضى زمن قليل.. اصبحت السلطة غير صارمة..
الاكل من المطعم لم يعد يحضره بوليس السجن.. وأنما يحضره السجناء بصحبة البوليس.. وبالقرب من نافذة المطعم تلاقى كثيرون من المعارف والاصدقاء القدماء... فساعدوا بعضهم البعض بقطعة خبز او ابتسامة. وذات يوم كان دوري للذهاب الى المطعم.. انتهزت الفرصة جريت الى العنبر الذي يقيم فيه صديقي ساشا وهو طالب شاب من ستالينجراد. كنت معه في جزر سلوفيننسكي، وفي نفس الزنزانة.
لم يحصل ساشا من عائلته على نقود قط.. وكنت اعطيه النقود والاكل والدخان..
وقد وجدته في العنبر يجلس بالقرب من المنضدة ويقرأ كتاباً.. حدثته في اقتضاب عن الوضع الصعب السيء الذي أعيشه.. واوضحت له بانه ليس عندي متسع من الوقت.
ولكنه قاطعني ببرود شديد قائلا:
- عندما يكون الانسان في السجن، فانه ليس بحاجة لان يزعج الاخرين..! ثم انه وانت تعلم.. ليس من المسموح به الذهاب الى العنابر الاخرى..!!
وجريت من العنبر..
حز في نفس كثيرا ذلك اللقاء..
هذه الليلة لم اشعر بالجوع ابدا
ودعونا مرة اخرى امام لجنة الاطباء..
وقد توصلت هذه اللجنة الى حقيقة مفادها ان اغلبية السجناء في العنابر يعانون من سوء التغذية الحاد، ومرض الاسكربوت - الدرجة الثانية والثالثة
وبعد مضى وقت قليل وصلت اوامر بان يحول المرضى المتدهورين من عنابر السجن الى المعسكر.

كان من بين الذين بقوا فى عنابر السجن جوزيف بيرقر.. كما بقيت انا ايضا.
وقد تحسنت احوالى منذ ذلك الوقت تحسنا ملحوظا.. حاول جوزيف بكل جهده ان يساعدنى.. احضر لى الخبز.. فكر فى كل الاساليب لكى يتحقق بيننا نوع من الاتصال، رغم ان ذلك كان من الخطورة بمكان وذات يوم تحصلت من جوزيف على قطعة خبز بداخلها وريقة كتب فيها ان كروشى قد مات..
وعلى الرغم من انى كنت اتوقع حدوث هذا الامر الا اننى حزنت جدا، وهزنى ذلك النبأ هزا عنيفا ـ الوريقة اطلعت عليها الالمان الاخرين لان النبأ كان مكتوبا باللغة الالمانية.
وفى اليوم التالى لاحظت عندما كنا فى موقع العمل، ان رفيقنا كروك كان يذهب الى رئيس الحرس بانوف الذى اعادوه الينا مرة اخرى.. ويتحدث اليه.
وبعد حوالى الساعة دعانى بانوف اليه.. واستغربت ماذا يريد منى رئيس الحرس..؟
وتقدمت الى الامام.. فسألنى:
ـ ماهى تلك المنشورات التى تطلع عليها السجناء؟
ولم اصدق اذنى. فاجبته:
ـ ماذا تقصد؟ انا لم اطلع احدا على شىء.
ـ سلمنى المنشور فى الحال والا اصابك الضرر..
كنت ادرك حقيقة موقفى.
فانا اقف امام قاتل.. ولا اسوى عنده شيئا.. يستطيع هو ان يردى اى شخص بالرصاص فورا ويتهمه بمحاولة الهروب.. او يضربه حتى الموت ويزعم انه تهجم على الحراس.. يستطيع ان يفعل ذلك دون ان يحاسبه احد
كنت ابحث عن الكلمات التى اقنعه بها، اننى لم اوزع المنشورات... وصمت.. لست ادرى ان كان بسبب البرد القاسى، ام بسبب الخوف من القاتل.
ـ هل تريد ان تسلمنى المنشورات؟
اجبت بصوت خفيض
ـ ليس لدى منشور.. واعتقد ان كروك قد افترى على الكذب.
وثبت بانوف سنجة البندقية على الجليد لكى يحرر يديه..
ـ الآن ساخلع ملابسك واعريك تماما.. وابحث فى كل شىء.. حتى اجد المنشور.. او تتجمد من البرد.. والان اخلع المعطف.
وفتش المعطف فلم يجد شيئا ورمى به على الجليد.
ـ اخلع الجاكت..
وفتش الجاكت ومرة اخرى لاشىء.. وتجمدت يدى.. واتى دور البنطال ووقفت عاريا فى ملابسى الداخلية ارتعشت من البرد والخوف.
وفى النهاية اخرج من الجيب وريقة جوزيف بيرقر.. وعندها فقط فهمت عن اى منشور كان يتحدث..
ولم يستطع قراءة الشىء المكتوب على الوريقة فسألنى:
ـ ماهو المكتوب هنا..؟
ـ خبر عن وفاة صديقى

ـ جيد.. ساسلم الورقة لقاضى التحقيق الذى يشرف عليك.. والويل لك ان كذبت..
وسمح لى بان البس ملابسى من جديد.
ولعدة ايام بعد ذلك، لم احصل على اخبار من جوزيف.

وقد حاولت بكل الطرق ان اكون معه على اتصال.. ولكن دون جدوى وذات يوم عدنا من العمل، فلاحظت ان الرياح الجليدية تراكمت ثلوجها امام الحاجز السلكى حتى حجبته تماما.
وفى المساء كان علينا ان نحمل جردل قضاء الحاجة الى الساحة، واتفقت مع الزميل الذى رافقنى فى اداء هذه المهمة، ان يرجع بالجردل الفارغ للعنبر بمفرده.. لاننى اريد البقاء فى الساحة.
ولم يلاحظنا الحارس عندما كنا فى الساحة، فقد ابتعد عن الباب لانه كان يشعر بالبرد، وكنت قد وضعت فى حسباني مثل ذلك التصرف منه. ولم يعد يهتم بأمرنا.
وعندما قفل الباب، اخذت ازحف، ورميت نفسي خلف التل الجليدى.. ولم يلحظنى احد، حتى الحارس الذى كان على برج المراقبة لم يرنى. لانه ان راى حركتى فكان سيرمينى من مكانه بالرصاص.
وعندما وصلت الى عنبر جوزيف ودخلت عليه لم يصدق عينيه.. وسالنى مضطربا.
ـ كيف نجحت فى الوصول الى هنا؟
ـ من خلف الحاجز الشائك تسللت.
ـ هل تعلم أنك وضعت حياتك على كف الحظ؟
ـ نعم.. ولكن الحارس الذى على برج المراقبة لم يكن متاحا له ان يبصرنى.
وبعدها هدأ جوزيف.. بعد ان ساوره القلق والشك والاضطراب.
جمع جوزيف خبزا ملأ به كيس المخدة..
ثم حدثنى عن الاشياء الجديدة.
وكان على أن أعود..
وفكرت ماذا أقول للحارس..
وخطرت على ذهنى فجاة كلمات أغنية قديمة.
ـ كيف يتسلق ماير جبال الهملايا..؟
كنت فى موقف لا احسد عليه.
اذا عبرت الحاجز مرة اخرى سيلاحظنى الحارس من على برج المراقبة، واذا لم اعبر فكيف ارجع الى العنبر؟
وقررت ان اذهب الى منزل الحرس الصغير واطرق الباب وليكن مايكون.
وخرج الحارس وصاح من السلم:
ـ من الطارق؟
ـ دعنى ادخل
ولكن الرياح القوية طمست كلماتى وحملتها بعيدا عن اذنيه فلم يسمعنى.
ـ اى شيطان انت.. الا تجيب؟
ـ انا من العنابر.. افتح..
ورغم انى قلت ذلك بأعلى صوتى الا انه لم يسمعني. وعندما اقترب منى سالنى مرة اخرى..

ـ من ذلك الذى يتجول؟ هل تريد ان أرميك بالرصاص؟
واخيرا افهمته اننى ارغب فى الذهاب الى عنبر السجن الخاص بى..
ودخل الحارس الى منزله الصغير وانا خلفه.. وسألنى..
ـ كنت تبحث عن اى شىء هنا؟
ـ انا من عنابر السجن... ذاك العنبر..
ـ انت من عنابر السجن؟
ـ نعم
ـ كيف وصلت الى هنا؟
وحدثته بالحقيقة كاملة طمعا فى عطفه.. ونظر الى طويلا ولاحظ الكيس فى يدى..
ـ ماذا عندك؟
ـ خبز..
ـ جيد.. انتظر حتى يأتى مساعدى وسيتحدث معك قليلا فى هذا..
وجلست على الكنبة انتظر.
كانت افكارى تاخذ ابعادا مفزعة.. سينتزعون الخبز منى.. سأضرب بشدة.. وسيقودوننى الى زنزانة الحبس التاديبية (كارسر).
وشعـرت بالدفء يسرى فى جسدى، ففكت زرائر المعطف.. واخرجت من الكيس، قطعة خبز، وأمسكت بها لبعض الوقت فوق المدفأة.. فينبغى قبل كل شىء أن املأ بطنى من ذلك الخبز قبل مصادرته.
ولم يأت الحـارس الثانى.. وانطفأ الفحم فى المدفأة.. وبحث الحارس عن وعاء.. وجعل يسب الحارس المساعد لتاخره فى الحضور، ولاضطراره ان يذهب بنفسه لجلب الفحم.
وقلت له عارضا خدماتى..
ـ ساجلب لك الفحم..
ـ لن تهرب منى..؟
ـ الى أين أهرب..؟
اخذت الصفيحة والجراف الصغير وخرجت الى الساحة.
قضيت وقتا طويلا حتى نجحت فى تنظيف الصندوق من الجليد.. وخرج الحارس مرتين ليرى اين انا.. واخيرا جدا توصلت الى الفحم.. وعندما عدت بالصفيحة وهى ممتلئة.. نظر الى الحارس نظرة الرضا.. فأشعلت المدفأة وبدأت اتحدث معه.
أستطعت أن أثير أهتمامه.. وتعجب لموضوع التحقيق معى مرة ثانية..
وقال لى:
ـ لقد وضعت حياتك على كف عفريت، حتى تسعى لهذه الحفنة من الخبز وكان من الممكن أن تكون فى عداد الاموات.
ـ فكرت فى اسكات جوعى بأى وسيلة من الوسائل ونسيت أهمية حياتى..
ـ اسمع ايها الشاب.. انت تعجبنى.. تعال وسوف ادخلك العنبر..
ولكنى انصحك ان تقلع عن امثال هذه الحماقات.
وفى العنبر قابلونى بفرحة وأبتهاج شديد.. حكيت لهم مغامرتى.. ووقف بعضهم يسبنى..
ووقف البعض الآخر يشيد ببطولتى..
وافرغت كيس الخبز.. وقسمته على الاصدقاء.

وتقدم منى احد المجرمين (اوركا) وتوسل الى أن أغيره قليلا من الخبز حتى الغد.. وكنت مضطرا الى اجابة طلبه.

بعد تحويل السجناء المرضى من عنابر السجن، وصلت مجموعة جديدة الى السجن.. كانوا حوالى المائة سجين.. أغلبهم من المجرمين..

وقد زاد بلاؤنا بذلك.. جوع.. وعمل شاق.. ثم جاء النهب والسرقة والقتل.. كان الذى لا يأكل خبزه فى الحال، يسرق منه فى الحال أيضاً.

احد المجرمين وضع خبزه على المدفاة، وذهب لاحضار الماء الساخن وعندما عاد، لم يجد اثرا للخبز.. صاح قائلا:

ـ دعوا المزاح.. وأرجعوا الخبز الى مكانه..

ولم يتحرك احد.. اذن فالامر جد.. ولا احد يمزح..

وذهب الى مكان المدفاة.. وأخذ بيده القضيب الذى تحرك به النار وتوجه نحو مجموعة من الشباب متهما اياهم بسرقة خبزه.. واقسم المجرمون الشباب بقسم الاجرام، انهم لم يمسوا خبزه.

ـ اعطيكم عشر دقائق من الوقت لارجاعه فان لم تفعلوا، سرى عليكم قانون المعسكر.

واخذ القضيب بيده وجعل يخطر فى العنبر جيئة وذهابا.

ولم تمض خمس دقائق حتى نادى عليه الشباب، وهمس أحدهم فى أذنه وتلفت المجرم كالصائد المجنون.. وتوجه نحو شاب كان يجلس فى الكنبة العليا..

ـ لابوها.. اعطنى الخبز..

ـ دعنى.. فى هدوء..

وصعد المجرم الى الكنبة.. وفتشها.. فأخرج علبة كبيرة بها خبز قضم جزء منه.

ـ يا اخوة.. انظروا ـ هذا لديه خبز كثير لايستطيع اكله.

ووقف المجرمون يصيحون..

ـ وجب قتله، قطعة أربا.. اربا..

وبدأ المجرم يضرب الشاب.. وحاول مجتهدا ان يصيبه بقضيب الحديد على رأسه.. ولكن الشاب كان قد لف ملابسه حول رأسه.

ودارت المعركة..

ثم فجأة قبض الشاب بكلتا يديه على رأسه وصاح..

ـ آه.. آه.. أنا لم آخذ شيئا.. لم آخذ شيئا..

وسال الدم من الخشب الى الكنبة السفلى..

وهمد الشاب.. مات..

فذهب المجرم الى الشباك وطرقه.. وبعد مضى زمن قصير دخل الحارس

ـ قتلت الصعلوك الحقير. أحمله حتى لايتعفن.

واتجه الحارس الى المكان الذى يرقد فيه القتيل وهز رأسه..

ـ نعم.. حكاية جميلة..

وخرج من العنبر وقفل الباب وراءه.. اما المجرم فذهب الى مكانه واكل بقية الخبز الذى وجده فى العلبة.. وقال ضاحكا..

ـ الان سيرى ذلك الطفل من الذى سرق منه الخبز..
وكانت الساعة قد تأخرت تلك الليلة عندما دخل رجل الى ن. ك. ڤ. د المسئول ومعه مدير المعسكر والطبيب. وصحونا جميعا.. وكتب المحضر عن الحادث.. وسحبوا القتيل والقاتل الى الخارج.
وأحتدم الجدل والنقاش فى العنبر.. واختلفت وجهات النظر..
فمن قائل ان القتيل كان بريئا.. ومن قائل انه سرق الخبز فاستحق الموت. والذين اتهموه بالسرقة قالوا ان من عاداته ان يلتهم خبزه فور الحصول عليه.
اما اولئك المعتقدون فى براءته فذكروا انه شكى اليوم من وعكة ومن عدم استطاعته الاكل.
بعد يومين عرفنا الحقيقة..
كان القتيل بريئا.. اما المخطئون فهم الذين اتهموه..
رئيس العمال سابكار اختار كروك مساعدا له.. وكان الاثنان ومعهما رجلان من السجناء يحضرون الطعام مقسما الى وجبات جاهزة..
يفعلون ذلك ان كان الطعام سمكا او غيره.. حتى يستطيعوا اختلاس جزء منه يخصون به انفسهم.
وكان ساباكار ايضا يخفى بعض الطعام فى احيان كثيرة.
ويحدث ان يكون العشاء هو الحساء ومعه العصيدة والسمك.. فيحصل السجناء على الحساء والعصيدة فقط.. اما السمك فيذهب الى بطون اخرى.
وبعد ان مر على هذا الحال ردحا من الزمن اكتشف السجناء هذه اللعبة فتربص بهم المجرمون وضربوهم ضربا مبرحا.. لا مزيد له.. حمل على أثره ساباكار الى المستشفى.
بعد ذلك الحادث اقترح الحرس ان اكون انا رئيسا للعمال.
وعندما اخبرنى مدير القسم العملى باختيارى، صرحت بأنى ارفض وأجابنى بتصميم..
ـ ستقوم باداء العمل الذى نكلفك به نحن.
ولم يكن لى خيار آخر، فوافقت مكرهاً.
وفى اليوم الاول نشب بينى وبين بانوف صدام عنيف.
كان المفروض ان يزال الطحلب المتجمد ـ فى مكان العمل ـ وذلك الطحلب كان سمكه حوالى العشرين سنتمترا.. وطريقة اخراجه من اربعة جوانب ثم اخراجه من الارض.. ثم ترص مربعاته فوق بعضها ـ البعض..
وذلك العمل كان يقوم به اصدقاء رئيس العمال، او الذين يعينهم رئيس الحزب بانوف... نوع من المحسوبية بالطبع.. وقد أمرت انا ان يقوم بهذا العمل السجناء الضعفاء صحيا والهزيلون والمرضى.. ولم يعجب ذلك الامر، اولئك الذين كانوا يحتكرون القيام به.
وعن قصد، وقفوا يعلنون احتجاجاتهم وتذمرهم بصوت عالٍ حتى يسمعهم الحرس.
وبدأ بانوف يهتم بما حدث.
المجرمون لم يكونوا فرحين او مرحبين برئاستى، لذلك بدأوا فى الصياح
ـ رئيس العمل فاشست.. اعطى العمل السهل للفاشستيين.
وقال لى بانوف باقتضاب شديد..
ـ وزرع العمل على الذين كانوا يعملون فيه من قبل.

حاولت ان اوضح وجهة نظرى، ولكنه قاطعنى بحدة..
- اذا لم تفعل فى الحال ما طلبته منك، سأفعله انا بنفسى..
- لماذا اذن تختارون رئيسا للعمال، اذا كان رئيس الحرس هو الذى يوزع العمل؟
واثاره ردى هذا.. فاشتد غضبه، وانفجرت ثورته، وخلع البندقية من كتفه بسرعة وهو يقول:
- يبدو انك لم تعرفنى بعد.. ولكن ستعرفنى اليوم.
وصاح الجنود..
- اقطع رقبته..
وكان اعلاه صياحا الحارس المنغولى صاحب الكلب، وحين كان يصيح حاول كلبه الافلات من يده ليهجم على.. فأخذ يصيح..
- اتركه لكلبى مينوس، حتى يجعل منه انسانا..
ولكن لعجبى الشديد ودهشتى البالغة، فان بانوف عدل عن رأيه فجأة، وقال:
- حسنا.. دع العمل يمشى هكذا.. وسنرى كيف تكون النتيجة..!
اذا لم يصلوا الى المعدل الاحصائى، سيحملونك فى المساء الى المقابر.
وعندما حضر مدير منطقة العمل لجمع الحصى، حتى يعطينى تعليماته توجهت اليه قائلا:
- ضد رغبتى رئيسا للعمال، وها انا فى أول يوم أواجه المتاعب مع الحرس.
وحكيت له المشكلة التى حدثت بيني وبين بانوف وأصدقائه.
كان مدير منطقة العمل سجيناً سابقاً.. قضى عشر سنوات فى السجن.
بتهمة العمل التخريبى..
حاول تهدئتى قائلا:
- انتبه جيدا حتى يعمل الرجال. اما الباقى فسيكون على مايرام..
وبعد انتهاء العمل ذهب بانوف ليحضر الايصال.
وعندما عاد بالوريقة صاح قائلا للحرس:
- أنظروا.. لقد أوفوا بالمعدل الاحصائى للعمل.. بنسبة مائة وثلاثين بالمائة..!!!
واستغرب الجنود.. وقال المنغولى..
- يا للأسف.. أنا كنت سعيدا لان كلبى مينوس كان سيجره الى المعسكر.
هناك مثل قديم يقول:
(المنطقة التى يسود فيها الجوع تكثر بها الفئران).
فى عنبرنا كان هناك عدد كبير جدا من الفئران.. رغم أن الطعام لها كان معدوما عندنا.. حتى الفتات الذى يتناثر من طعامنا سرعان مانرفعه بحرص شديد ونضعه داخل الفم مرة اخرى.
فى أحد المرات لاحظنا أن اثنين من السجناء أستيقظا بالليل وحاما حول المدفأة بحذر شديد.. وبعد مراقبة طويلة اكتشفنا أنهم يصطادون الفئران ليلا ويطبخونها فى أناء كبير من الصفيح.
الكثيرون أبدوا اشمئزازهم.. ولكن بعد أن تذوقوا طعم الفئران المطبوخة اخذوا فى الدفاع عنها..

مضى نصف عام ونحن على تلك الحال.
لم يتحسن موقفنا.. ولم يتحرك نحو التحسن قيد أنملة.
الحرس.. ورئيسه بانوف.. سلكوا نحونا سلوكاً حيوانياً حقيراً.
في ذات يوم أمر بانوف أحد الشبان بخلع ملابسه العليا، لانه في رأيه، لم يعمل جيداً..
وصاح الشاب في وجه الجنود:
ـ في الوقت الذى ينزف فيه الاخرون بجبهة القتال، انتم تظهرون شجاعتكم هنا ـ على السجناء.
دهش بانوف، وتغير لونه.. لم يكن معتاداً على مثل هذه اللهجة فصاح به:
ـ تعال قريبا..
والتفت السجين متردداً..
ـ أسرع.. أسرع.. ادر وجهك نحو الجليد.. انبطح.. هيا.. بسرعة وانصاع الشاب لامره.
واخذ بانوف البندقية، وبدا يضربه بعنف.. وعندما استنزف كل طاقته، وانفثأ غضبه، امره أن يقف.. ولم يستطع الشاب الوقوف.
واخذ بانوف في ضربه من جديد.. وكان بعد كل ضربة موجعة يصيح به:
ـ قف.. قف
واخيراً جمع الشاب ماتبقى له من قوة ووقف.
وعندما خلع قميصه في العنبر راينا على جسده كدمات سوداء تجمع تحتها الدم.
ولم نفهم كيف استطاع أن يتحمل كل ذلك الضرب.
كثرت امثال هذه التصرفات الوحشية يوما بعد يوم.. وبدا السجناء في الهروب من مكان العمل.. وكانوا يعلمون بأنهم لن يستطيعون الوصول الى البعيد.. ولكنهم سيكونون قد ابتعدوا ولو ليوم واحد عن مسلسل الضرب والتعذيب.
وحتي يتمكنوا من الهروب، انتهزوا فرصة (الاعاصير) السوداء.. حيث كانت الرؤيا تنعدم تماماً ولمسافة متر واحد.
وكانت هذه الاعاصير تهب بعنف وضراوة، فيسارعون بجمعنا في مكان واحد وينتظرون انقشاعها فان لم تنقشع عادوا بنا الى العنابر..
وغالباً ما كنا نتوقف لمدة ثلاث او اربع ساعات الى أن نرجع للمعسكر مرة اخرى. ويأخذ رئيس الحرس في عملية التعداد لنا كل نصف ساعة.. واذا تغيب احد تعطى اشارة الانذار.. وعندها يهرع من الثكنات الجنود والكلاب البوليسية التى برعت في اقتفاء الاثر..
ثم يبدا البحث..
كان المكان المفضل للاختفاء ـ دائما ـ هو مصنع صهر المعادن (ب ـ ام ـ زد) والوصول الى هناك أمر صعب ومحفوف بالمخاطر.. فهو يمر عبر مراكز ابراج ـ المراقبة.. ولكن السجناء كانوا على ثقة من أن الحرس لن يروهم في تلك الاعاصير..
اما بالمصنع فكانت هناك اركان وزوايا كثيرة تمكن المرء من الاختفاء خلفها.. او ورائها.. او تحتها..
واكثرها ملائمة للاختفاء هو التل الكبير الذى تتدفق فيه من الانابيب، المعادت المصهورة.
وعلى الرغم من أن مثل هذا الهروب لن يجدى فتيلا فقد كانوا ـ كما قلت يفكر [illegible] فيه

وينفذونه بأستمرار..
وعندما يجدون الهارب يقودونه الى منزل الحرس حيث يضرب حتى الموت. ويلجأون، مرات أخرى عديدة، الى أرهاب بقية السجناء.. فيقودون الهارب الى العنبر، وامام السجناء يضرب بمؤخرة البندقية ضرباً دونه الجنون، ويصيحون به خلال ذلك:
ـ خذ هذا لانك هربت.. بعد لن تستطيع العمل.
ويحدث أن يستمر البحث عن أحد الهاربين عدة ايام..
أحد السجناء اختفى لمدة يومين فى مخزن الفحم الخاص بمطعم الطلقاء. بالنهار كان يعمل فى المطعم فيستحق بعض الطعام.. وبالليل يذهب الى السطح ويستدفىء بالقرب من المدخنة.
وفى بعض الاحايين يرفض الهاربون تسليم أنفسهم للجنود.
أحد جيرانى فى الكنبة كان يهودياً بولندياً.. هرب الى الحدود الروسية الالمانية لكى يقع اسيرا ويرسل لمعسكرات النازية علها تكون ارحم به.
وفى الحدود قبض عليه ال ن. ك ڤ. د .. وقادوه الى كييف.. وحاكمته محكمة الكبار الثلاثة بخمس سنوات أشغال شاقة.
وأرسل الى نورلسك.. ومن هناك ـ ايضا ـ حاول الهروب.. فقبض عليه بالقرب من اغاركه ومعه اثنان آخران.
وارجعوه الى نورلسك، وهو الان ينتظر المحاكمة الجديدة.
كان أسمه بودولسكى عانى كثيرا من تعذيب الحرس.. ولانه يهودى تخصص الجنود فى اهانته..
كان عامـلا جيدا.. ولم يستطع بانوف من هذه الناحية أن يفعل له شيئا.. ولكن رئيس الحرس وجد سبباً آخر.
اخبرنى بودولسكى هذا، انه سيحاول الهرب من مكان العمل يوما ـ حاولت اقناعه بالعدول عن الفكرة.. لان الهروب كان دائما ماينتهى بمأساة وكان رده أنهم لن يقبضوا عليه حياً ابداً.
وفى ذات يوم من الايام قام رئيس الحرس بعدّ الصفوف جيداً فى ساعة الرجوع وكان كل شىء يبدو تماماً وعلى مايرام.
ولكن عنـد وصـولنـا امام باب المعسكر، وحين جاء حرس المعسكر لاستلامنا افتقدوا فى التعداد واحداً ناقصاً.
أجريت عملية التعداد مرة وثانية.. ولم يكن هناك أى خطأ.. انه مفقود
أخرج رئيس الحرس وريقة من جيبه وبدأ فى النداء على الاسماء..
وعندها فقط علم ان بودولسكى مفقود.
ولأننا كنا فى المعسكر وأمام الضباط والادارة فلم يستطع الحرس أن يصبوا علينا غضبهم.
ولكن هذا لم يمنع بانوف من أن يهددنا بتصفية حساباته معنا فى صبيحة الغد..
وفى اليوم التالى أخذنا استعداداتنا كالمعتاد للذهاب الى العمل.
ومضى الوقت ولم يرسلونا الى مواقع العمل..
وانتظرنا.. يوما.. ويومين.. وثلاثة ايام.. دون ان يقودنا احد لمواقع العمل.
لقد أرسل كل حرس القسم السابع فى المعسكر للبحث عن الهارب...

غير انهم باءوا بالفشل.
وذات يوم ارسلنا للعمل.. واعتقدنا أنهم قبضوا على بودولسكى.. وأستغربنا لأن الحرس لم يتحرشوا بنا.. كانوا هادئين.. لم نسمع سباباً يوجه لاحد منا.. وفى وقت المساء وقبل التعداد الأخير قال بانوف:
كلكم هنا اليوم..؟
ألم يهرب أحد..؟
الى أين تهربون أيها التعساء..؟ اننا سنقبض على بودولسكى بكل تأكيد.
وعلمنا عندها أن بودولسكى مازال طليقاً.. وسررنا جميعاً..
مضى وقت طويل لم نحس فيه بالسرور مثل ذلك اليوم.
وبعد مضى اسبوع رجع الذين ذهبوا للطبيب فى العيادة بخبر عن هروب بودولسكى..
وبانه قد شوهد بالقرب من المصنع رقم ٢٥..
وفى اليوم التالى كان هناك انذار كبير.. فى نورلسك.. حجزت على أثره مجموعات كبيرة من العمال.. ولم يسمحوا لهم بالذهاب الى العمل.
وكنا نحن من ضمنهم.. بقينا فى العنابر..
وعلمنا ـ من تجاربنا ـ بأن هناك معركة صيد جديدة للهارب.
وبدأوا فى البحث عن بودولسكى.. وتتبعوا أثره واقتفوه ثم عثروا عليه.
وجدوه فى مكان ما بالقرب من مركز ترسيب المعادن السائلة فى (ب. ام. زد).. وعندما احاطوا به من جميع الجهات، ورأى أنه لايستطيع الفرار قفز فى السائل المعدنى المصهور الذى كان يغلى ويفور..

وارتفعت فى الهواء سحائب من الدخان.
لقد أوفى بودولسكي بوعده..
لم يسلم نفسه حياً للمعذّبين والزبانية.
بعد هذا الحادث اخذت أدارة المعسكر تهتم بالسجناء من عنبرنا..
دخل ذات يوم الى عنبرنا رئيس القسم السابع للمعسكر متفقداً.. البعض تشجع ورفع اليه شكواه.. وبوجه خاص كانت الشكوى من الحرس والمجرمين بعد ذلك تحسنت الاحوال.
العصابة التى كانت تمارس السرقة والنهب بلا رادع او عقاب، بدأ بوليس المعسكر فى وضع حد لنشاطها المرعب... المجرم باكلين سرق طاقية فرو من أحد السجناء.. وسارع السجين بالبلاغ عن ذلك.. حضر المأمور بنفسه ومعه أثنان من بوليس المعسكر.. وأمر باكلين بارجاع الطاقية الى صاحبها..
وحاول باكلين الانكار.. ولكنه أمر بضربه بعصا من المطاط.. حتى انهار باكلين وبكى..
واعترف بجرمه.. وعد بأنه لن يكرره ثانية..
وبعد ذلك لم تعد حوادث السرقة تحدث فى العنبر..
ورغم هذه الراحة النسبية كنا نحاول الهروب العشوائى..
البعض عن طريق الفرار فى برارى الجليد.. والبعض عن طريق المرض الذى سببوه لانفسهم بانفسهم.
وكانت اكثر طرق المرض استعمالا هى طريقة الاسهال..

الماء البارد على معدة خاوية أو ابتلاع الصابون كان يسبب اسهالا حادا فى نفس اليوم..
وغالبا لم يتحمل الرجال الضعفاء فقدان ماق ابدانهم الجافة من سوائل عن طريق الاسهال، فوجدوا الراحة النهائية، بدل تلك الراحات المؤقتة التى يمنحها الطبيب.
وكان آخرون يلجأون الى تجميد أرجلهم وأيديهم.. وذلك سهل جداً.. بضع دقائق بدون قفازات او جوارب صوفية ويحصلون على اصابات تجميد من الدرجة الثانية أو الثالثة.
فى الحالة الاولى كانوا يشفون بعد شهرين او ثلاثة.
وفى الحالة الثانية كانوا يفقدون أطرافهم.. أو جزءا منها.
بعد هذه المحاولات.. أصبح العدد الذى يذهب الى العمل هو نصف العدد السابق.. وكان المتخلفون يحرمون من الطعام.. وأصبح الجوع غير محتمل على الاطلاق..
قيمة صحن الحساء تعادل قيمة حياة الانسان.
وفى ذات مرة حدث أثناء توزيع الطعام أن دفعوا شاباً للامام فتدفق حساؤه.. وفى اللحظات الاولى لم يدر مايفعل.. ثم تدارك موقفه وهو على الارض لينقذ مالايمكن انقاذه.
بدأ يلحس ماتبقى من حساء على الارض كالكلب المسعور.
وحتى وقت طويل لم يهدأ جنونه.. بكى كالطفل الصغير.
اصدقائى أعطوه من خبزهم.. واستغرب الآخرون ذلك..
كانوا يرددون باندهاش حقيقى..
ـ هؤلاء أعطوه خبزاً.. تصدقوا..!!
لم ينس بانوف أبداً الصدام الذى وقع بينى وبينه فى اليوم الاول لتعيينى رئيسا للعمال.
كان يبحث بلا انقطاع عن فرصة يسوى حسابه معى فيها.
ولكى نستطيع أن نصل الى معدل الانتاج المطلوب، حاول السجناء بكل الطرق ان يغشوا..
المجموعة التى كانت تستخرج الطحلب مثلا، عدت الى رصه فوق بعضه تاركة الفجوات الكبيرة وسطه حتى يبدو هائل الحجم.
وكان بانوف يراقب ذلك.
وصاح فى وجهى بحدة شديدة..
ـ رئيس العمال، احضر هنا فى الحال..!
وعندما وقفت على بعد خمسة أمتار منه سألنى..
ـ ماذا يعمل هؤلاء الناس..؟
ونظرت اليه باستغراب، فصاح فى وجهى..
ـ لماذا تدعى العبط..؟
ـ كيف ذلك..؟
ـ سأريك فى الحال.. كيف ذلك..
ـ أخبرنى ماهو الشىء الخطأ..؟
ـ اذهب الى هؤلاء، فى ناحية اليمين الى اعلى وانظر.. ماذا يفعلون!
وكان يراقبنى بسخرية وتشفّ وحقد.
والتفت فأدركت كل شىء.. وجعلت افكر فى طريقة تخرجنى من هذا المأزق. وبدأت فى اصطناع موقف حازم معهم.. سارعت أوبخهم لانهم لجأوا للغش. ورجعت الى بانوف مرة أخرى.. فقال لى بهدوء مريب.

ـ تعال.. قريبا وحدثني ماذا رايت هناك..؟
وتمتمت بشيء غير مفهوم.
ـ من تريد غشه انت ايها الفاشستي..؟
ـ هذا ليس غشا.. الرجال ضعفاء للغاية.. وهم بفعل ذلك الذى رأيت، يريدون تسهيل موقفهم.
ـ ماذا..؟ اتدافع عن أناس يغشون السلطة السوفيتية..؟
ـ انا لا ادافع عنهم.. ولكن ...
ـ ولكن ماذا..؟
ـ ولكن أحببت ان اوضح لك..؟
ـ انت توضح لى..؟ أنت..؟
وبدأ بانوف يرتجف.
ووقفت لا اريم.. عاجزا عن الاتيان بأى شيء فى تلك اللحظة.. وخلع بانوف البندقية من كتفه.. وبالجانب الاملس للسونكى ضربني على خدى.
ـ امشى من هنا.. مارش..
وبمجرد ان اعطيته ظهرى، احسست بمؤخرة البندقية تستقر على كتفى فتهشمه.. ولم استطع التنفس.. وخطوت بألم شديد.. ووقعت على الجليد.

وعندما عدنا فى المساء رجوت الحارس أن يقودنى الى مدير المعسكر.. وحدثته بما جرى، وطلبت منه أن ان يعفينى هذه المرة بحق، عن الاستمرار فى وظيفة رئيس العمال.. ولم يشأ أن يوافق فى الحال.
ولكنى أريته كتفى المهشم وقلته له..
ـ من اليوم، أنا لست رئيساً للعمال.
ـ حسنا.. سنرى.. عليك أن تستمر ثلاثة أو أربعة أيام لحين تعيين رئيس جديد للعمال.

وفى اليوم التالى حدث شيء أجبرنى على ان اتخلى فورا وفى الحال عن مسئولية رئيس العمال..
شاب صغير فى العشرين من عمره جلس اثناء العمل على الجليد ليستريح قليلا.. وكان من المسموح به للسجناء ان يرتاحوا لمدة خمسة دقائق بعد كلساعتين، من العمل الشاق.. احد مساعدى رئيس الحرس، امر الشاب بان يقف ولكن الشاب لم يستجب له.
وصاح الحارس
ـ هل تريد أن تقف..؟
ـ انا مريض ولا استطيع متابعة العمل.
وكان الجندى يقف على بعد مائة متر تقريبا منا طلب من الشاب ان يحضر اليه.
لم يكن باستطاعتنا سماع صياح الجندى، او بماذا اجابه الشاب.. ولكنه رأينا حركاتهم..
واشار الجندى للشاب أن يقف جانبا..
وبمجرد ان تحول الى المكان الذى اشار عليه الجندى.. خلع هذا بندقيته واطلق النار..
أصابت الرصاصة الشاب، الذى كان وجهه متجها نحونا.. وبعدها سقط ميتا.

ومن الثكنات المجاورة هرع الجنود عند سماعهم لصوت الطلق النارى. وبعد قليل وصلت اللجنة الرسمية.. فاوضح لهم القاتل كيف حدث ماحدث وفى اليوم الثالث قرىء

علينا قرار رئيس الحرس فى نورلسك.
ويتضمن توجيه الشكر للجندى على يقظته فى احباط محاولة للهرب..
وتقديم حافز مادى للجندى عبارة عن خمسمائة روبل.
بعد ذلك الحادث.. وبعد تلك الجائزة العجيبة بدأ يسيطر على تفكيرى شىء واحد فقط.. هو كيف انقذ نفسى من موت محقق ينتظرنى.
كان هناك طريق واحد فقط..
هو ان اجعل من نفسى معوقا.
قررت أن أجمد أصابع رجلى اليسرى.. وفى الصباح عندما لبست حذاء الجليد الصحراوى، لففت حول رجلى لفافات كثيرة جعلتنى ألبس الحذاء بصعوبة..
وبذلك تعطلت رجلى عن الانطلاق والتحرر وانحبس فيها تدفق الدم.
كان ذلك اليوم باردا جدا وكنت واثقا من نجاح خطتى.
كنت أحلم بسرير المستشفى الدافىء.. وحتى اضمن تحقيق اقصى درجة من النجاح ذهبت على جانب من الاخرين وصببت ماءا فوق اصابع رجلى اليسرى. واجتهدت ان اقلل حركتى لاعوق تدفق الدم.
هناك الراحة.. التى ربما امتدت لشهور عديدة.. وعلى الان ان اتحمل فقط بعض الالام الشديدة.. فعند خلع الحذاء من الرجل المتجمدة ينخلع الجلد.. ولكن ذلك لايعنى شيئا بجانب ما سأحصل عليه وأنعم به فيما بعد.
ولم افكر أبداً فى أننى سأكون طول حياتى معوقاً..
وعند عودتى للمعسكر، تعجبت لانى لم أشعر بالالم.. وعزوت ذلك الى أن الاطراف عندما تتجمد لايشعر الانسان بالالم الا بعد ساعات.
وفى العنبر، وبمساعدة رفيق خلعت الحذاء عن رجلى اليسرى.. وكانت فجيعتى لا حدود لها عندما وجدت بأن تجمد الاطراف ـ كان من الدرجة الاولى.
وفى لحظات تلاشى حلم السرير الدافىء والهدوء والراحة. ورغما عن ذلك ذهبت للعيادة.
وبعد ثلاث ساعات من الانتظار جاء دورى.. ولم اسمع الكلمة التى كانت تهدهد احلامى .. وقال الطبيب للممرضة..
ـ مكمدات بالماء البارد للرجل..
وعدت الى العنبر وأنا اطأطىء الرأس حزنا وأسفا وكسوفاً.
صداقتى مع احد افراد الحرس، جاءت لى فى بعض المرات بتسهيلات كثيرة كان من وقت لاخر يدعونى الى مكان حراسته.. وهناك كنت أشعل له المدفأة... وأجلب اليها الفحم.. واقوم بغسل الارضية.
وكنت بهذا احصل على بعض الطعام.
وفى بعض المرات عندما يكون متأكداً من غياب مدير المعسكر، يسمح لى بالتجول وسط العنابر الاخرى حتى احصل على قليل من الخبز، يقدمه لى اصدقائى الطيبون.
وكثيرا مايرسلنى الى المطعم لاحضار الاكل له.
وكنت احصل من الطاهى دائما على بعض الاكل لنفسى..
ذات مرة شكوت له الموقف غير المحتمل فى مكان العمل.. وعن تعذيب رئيس الحرس

بانوف.. ووعدني الحارس بأنه سيهتم في أن يعينني فراشا لنظافة العنابر.
وكانت العنابر تنظف بواسطة المرضى المتخلفين عن العمل.
وعملت في النظافة لعدة ايام.. وعندما علم المدير بذلك، الغى وظيفة فراشي النظافة للعنابر وامر بان يستمر المرضى في القيام بعمل هذه ـ النظافة.
ولحسن حظي اصبت بالمرض..
ارتفعت درجة حرارتي ارتفاعا عاليا.. وذهبت الى المستشفى وخاف الطبيب أن يكون مرضي هو وباء التيفوس.. ولذلك وضعوني في عنبر الامراض المعدية.
وخلال الوقت القصير الذي قضيته بالمستشفى مات عدد كبير من السجناء بمرض التيفوس.
كان السجناء من شدة الجوع يأكلون اي شيء يقع تحت ايديهم..
كثيرون بحثوا في صناديق القمامة ونبشوا مخلفاتها ومحتوياتها.. جمعوا رؤوس الاسماك الصغيرة وبقايا المعلبات التالفة.. فاصيبوا بالاسهال والنزلات المعوية الحادة.
وفي زمن وجيز انتشر وباء التيفوس، بسرعة رهيبة.
واغرب شيء أن كثيرين ماتوا من الاكل..
نعم أكلوا كثيرا على امعاء خال من كل شيء.. فلم يحتملوا .. وماتوا. وكان هناك الذين لايستطيعون الاكل ايضاً.. ينظرون الى الرغيف بلهفة وحرقة والم واسف.
وكانوا يحصون القطع التي ستوزع عليهم، فان نقص منها شيء صاحوا باصوات واهنة مجنونة..
ـ لقد سرقنا.. لقد سرقنا .. يجب اعادة قطع الخبز المحمص لنا ـ وكانت مثل هذه الصيحات مؤشرات خطيرة الى ان هؤلاء المرضى سيعيشون لبضع ساعات قادمة ثم يموتون.
اما الممرضون فكانوا ينتظرون موت هؤلاء ليحصلوا على ماعندهم من قطع السكر والخبز.
وكان من الممكن رؤية الممرض وهو يصير فجأة كثير الاهتمام بمريض ما .. على عتبة الموت، ولكنه يتجاهل المرضى الآخرين الذين هم في حاجة ماسة الى جرعة ماء.. والذين ظلوا يلحون في طلبها بالساعات الطويلة.. دون جدوى..
وهكذا يبقى المريض مهملا لايجد من يسأل فيه..
اما الان وهو ينازع الموت.. الكل يريد مساعدته.
عندما كنت طريح الفراش في المستشفى علمت أن تطورا خطيرا قد حدث. اذ انهم (سرحوا) عنابر السجن.. وارسلوا السجناء الى المعسكر.. وحمدت الله لانني لن ارجع لذلك الجحيم مرة اخرى.
وعندما اطلقوا سراحي من المستشفى.. لم يرسلوني كالاخرين الى المعسكر ولكنهم وضعوني في زنزانة الحبس التاديبية (كارسر)!
ماذا سيفعلون بي..؟
حتى امنياتي بالعودة الى حياة المعسكر العادية لم تتحقق..
أنا الوحيد الذي لم يرسلوه الى المعسكر..
كنت اعلم أن ال ن. ك. ف. د لايفلت الضحايا من قبضته بسهولة.. ولكنني لم أصدق أبداً، أن شخصي الضعيف هو (اخطر) السجناء! (واين؟) في المحيط الذي يضم مئات الالوف من

السجناء ـ معسكر نورلسك.. التهمة ضدى كانت ملفقة..
وعلى الرغم من أننى املك الاسباب التى تجعلنى اكره وامقت بشدة، عهد ستالين وال ن. ك. ڤ. د الذى ثبت اركان ودعائم ذلك العهد، رغم كرهى ذاك الا اننى لست فاشيا. وهذا مايعلمه ال ن. ك. ڤ. د جيدا..
لماذا اذن اخذونى بانيابهم القاطعة..؟
لقد اختارنى واصدقائى ـ بعناية شديدة.. مدير ال ن. ك. ڤ. د بوليكاربوف لنكون اول الضحايا..
وهو يرى الان اننا ربما افلتنا من يده.. وذلك ما لايريده..
ان بوليكاربوف رجل واسع السلطة فى نورلسك.. ويمكن ان يقتنع بأن السجين أقوى منه.
رمى السجناء بالرصاص فى مجازر جماعية مشينة مؤسفة.. هؤلاء الذين كانوا على بعد ثمانية الف كيلومتر من الجبهة.. زمن الحرب.. ولم يكن يشكلون خطرا ما على عهد ستالين..
وقد تدخلت ديمقراطية الغرب لايقاف سفك الدماء وقدمت العون ثمنا لذلك.. ورغم هذا كان بوليكاربوف يجد الوسيلة والاسباب ليرسل بعض الضحايا الى العالم الاخير..
وهاهو يحاول معى لعبة الموت والحياة..
يريد أن يكسر شوكتى بتعريضى لتجربة سلسلة جديدة من الالام المبرحة. أسبوعان كاملان.. قضيتهما فى زنزانة الحبس الانفرادى التأديبية ذات ـ الشبابيك المحاطة بالقضبان الحديدية القديمة.

حوكمت بالاعدام

فى مايو عام ١٩٤٣م اقتادونى من زنزانة الحبس الانفرادى الى السجن وللاسف الشديد فان الحال لم يتغير قط.. لم يكن هناك جديد نفس الحكايات، نفس التلفيقات، نفس الوجوه ـ ولكن بأسماء متغيرة حتى المجرمون كانوا كسابقيهم.
وعلى الرغم من ذلك كان هنالك اختلاف ما.. علمنا بأن محكمة المعسكر لاتصدر حكما بالاعدام الا نادرا جدا.. وكانت معركتنا مع الوقت قد وصلت الى نهايتها.. وقد وضح لنا جليا أن اهداف تلك الحرب لم تكن كما اعتقدنا فى اعماقنا ـ من جل الحرية ـ ولكنها كانت من اجل البقاء فقط على قيد الحياة.. نكون او لانكون..
وقد تيقنت انا ورفاقى جيدا، بأن الحرية فى الاتحاد السوفيتى لن تتحقق طالما بقى ستالين فى السطة.
وبدأ لنا ان تلك المعارك المتصلة التى خضناها من اجل البقاء قد حالفنا فيها نصر كبير، بلاشك.. بالقياس الى ضراوتها وعنفها. وفى الحق فان قاضى التحقيقات الجديد الذى قادونى اليه قال لى فور ان رآنى..
ـ ان علىّ الا اخاف من اننى سأرمى بالرصاص.
وقاضى التحقيقات الجديد هذا هو الكابتن قيزايف من مدينة نالجكا بالقفقاز، وهى المدينة التى تم اخلاؤها عندما احتل الالمان الجزء الشمالى من القفقاز.
بدأنى الكابتن قيزايف قائلا:
ـ أنا قاضى التحقيق الجديد، ويهمنى ان انهى قضيتك التى أستغرقت زمنا طويلا.
ـ اذا اردت ان تنهى قضيتى، يجب عليك ان تنفى عنى وعن رفاقى التهمة التى يتهموننا بها.
ـ لا استطيع ذلك فأنت بالذات توجد عندك اثباتات قوية تدينك بشدة.
ـ لعلك لا تقصد شهادة المجرمين الذين استغلتهم سلطات التحقيقات؟
ـ لا.. اننا لم نأخذ بشهادة المجرمين مأخذ الجد، ولكن لدينا شهود آخرين تكفى شهاداتهم لادانتك.
قلت له مستغربا..
ـ هذا شىء جديد بالنسبة لى..!
ـنعم وسوف تستغرب اكثر عندما تسمع اسماء هؤلاء الشهود..
ـ هذا مهم عندى للحد البعيد..
وقبل ان يتفضل باخبارى عن اولئك الشهود وعن اسمائهم، القى على سمعى خطبة طويلة، اوضح لى فيها انه لايهتم بكل هذا الامر.. ولكنه يريد ان ينهى مابدأه الاخرون.
وعدنى بان يكون التحقيق موضوعيا.. وبأنه لن يسمح قط بأى شىء غير قانونى وأخبرنى ايضا بشىء خطير آخر.. قال ان محكمة الثلاثة ضباط الكبار لل ن. ك. ف. د اصدرت حكما على ثلاثتنا بالاعدام، ولكن المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى نقضت حكم الاعدام، وأمرت باجراء تحقيق جديد.
وبالرغم من اعتقادى وأيمانى القاطع بامكان حدوث امر كهذا، الا اننى استغربت جدا..

ولو لا ان الذى اطلعنى عليه هو الكابتن قزايف ضابط ال ن. ك. ڤ. د الذى وعد باطلاعى على كل الامر، لما صدقته.
وسألت قزايف..
ـ هل يمكننى معرفة اسماء الشهود؟
ـ بالطبع، ولكن قبل ان اقول لك الاسماء، يجب ان آخذ منك وعدا بانك ستعطى اقوالك وستوقع الى المحضر.
ـ اعدك بذلك..
قلتها بدون تردد.. كان يهمنى ان اعرف اسماء من شهدوا ضدى، وكنت متلهفا على ذلك جدا.. فاجابنى قائلا:
ـ الشاهدان الاساسيان ضدك.. هما روجانكوفسكى ولارينوف.. وكانت مفاجأة مذهلة لى.. واضاء فى ذهنى شىء كالبرق الخاطف.. لقد بدأت افهم الان لماذا كان لارنوف وروجانكوفسكى مهتمين بى.. يبديان نحوى كل تلك المشاعر الزائفة.. ماكان يدور بخلدى قط انهما من المخبرين والعملاء، كان ذلك بعيدا عن كل تصور واحتمال.
ـ ما الذى دفع بشخص مثل روجانكوفسكى وشخص مثل لارينوف ان يعملا فى خدمة ال ن. ك. ڤ د...؟
ولم احصل على رد منه، فبدأت أتساءل بينى وبين نفسى.. هل هذان الشخصان من المتعاطفين مع نظام ستالين.. واصبحا من ضحاياه..؟ ليسا كذلك بالتأكيد!! بل لابد ان يكونا!! لا.. لا.. هذا احتمال بعيد ان لارنوف كان من قادة رابطة الشبيبة فى لينينغراد.. وبعد اغتيال كيروف القى عليه القبض وقادوه الى المعسكر، فقد كان ذات يوم من المعارضين ولكنه هجر ذلك وتخلى عنه منذ زمن بعيدا.
وروجا نكوفسكى كان من قيادى الحزب الشيوعى فى اوكرانيا الغربية، وكان مثل الكثيرين الذين غيروا السجون البولندية واستبدلوها بالسجون السوفيتية.
ما الذى يرغم رجالا كهؤلاء على ان يصبحوا عملاء للسلطة؟ ان الاجابة رغم كل شىء ليست صعبة للغاية.. فالظروف فى معسكرات الاتحاد السوفيتى تختلف عن ظروف السجون فى الغرب، والتى يمكن فيها ـ بالطبع ـ على كل من يقضى فترة العقوبة ان يعود لاهله ويعمل فى المهنة التى هو مؤهل لها.. اما هنا فى الاتحاد السوفيتى فان الامر مختلف جدا.. كل سجين يعلم جيدا انه عندما يقبض عليه يصبح أمره كأمر الوحش السجين.. حريته تقرر بمدى فائدته.. بما يمكن ان يعود على جهة معينة من نفع يقوم به ويقدمه.. وذلك يمكن ايضا ان يقرره ضابط صغير من ضباط ال ن. ك. ڤ . د والذى لايخشى قط أن يتهم بأنه لم يتخذ الموقف الصحيح تجاه رجل برىء ارسله الى المعسكر او اطلقه منه.. وقد يخشى ان يعاقب ويوبخ لانه لم يكن صارما وقاسيا وحادا ويقظا ولايساوم.. اى انسان كان محكوما عليه ولو بمدة بسيطة يجب ان يشكر كل الظروف التى جعلته يخرج حيا بعد انتهاء تلك المدة.. واذا قدّر له ان يعيش فهل يخرج سليما بغير عاهة من العاهات..؟ اما بعد اطلاق سراحه فينتظره النفى الى سيبيريا.. والتى سيحيا فيها حياة تصبح معها عذابات المعسكر حلما من الاحلام الجميلة.
اذن فالخيانة من امثال روجانكوفسكى مبررة رغم مرارتها.. لقد ارادوا ان يتقوا ضربات ال ن.ك. ڤ. د فوجهوا الضربات الى رفقائهم..!! وكان زملاؤهم يكشفونهم بسهولة ويسر..

يكفى ان يكون عمل الواحد منهم خفيفا داخل المعسكر. حتى يكون موضع الشك والظن..
وغالبا مايجرى ذلك بدون اساس.. ولكن.. اما فى حالة الاثنين المذكورين فلم يدم السر
طويلا.. سرعان ما دل عليهم وكشفهم الوضع المريح الذى تمتعا به فى المعسكر.
وفى حالتى كان محقق ال ن. ك. ڤ. د مجبرا على كشف عملائه.. فلم يكن لديه شهور آخرين.
وفى اليوم الثانى دعونى للاستجواب لمحت شمال الباب روجانكوفسكى..
كان على ان اجلس فى مواجهته.
وكنت أحدّق فيه باستمرار متفحصا ممتعنا.
اما قزايف فقد جلس بجوار الالة الكاتبة.
كان روجانكوفسكى قد أحنى رأسه يحدّق فى الارض متجنبا نظراتى الفاحصة.
كان ضعيفا هزيلا مهتزا.. يمسك بين يديه غطاء للرأس ويدعكه بعصبية ظاهرة.. وجبينه
المجعد يتلون من الانفعال.
ألقى المحقق خطبته المعهودة.. وبدأ يعمل فى المحضر.. سأل روجانكوفسكى.
ـ روجانكوفسكى هل تعرف الرجل الذى يجلس قبالتك؟
ـ نعم.. هذا شتاينر
ـ الشاهد روجانكوفسكى هل كانت علاقتك بالمتهم سيئة..؟
ـ لا .. بالعكس علاقتى بالمتهم كانت فى أحسن حالاتها.
ـ يا كارلو ، شتاينر.. هل توافق على ذلك..؟
كان المحقق يخاطبنى أنا هذه المرة فقلت له
ـ كانت علاقتى معه عادية.
ـ حسنا.. الان نسأل الشاهد روجانكوفسكى، حدثنا عن المتهم؟
ـ تعرفت على شتاينر عندما كنا نسكن عنبرا واحدا فى السجن.. ومن خلال حديثى معه
وحديثه معى استطعت ان استشف واستنتج مايؤكد انه يكره السلطة السوفيتية وخاصة
ستالين.
وهنا صمت. وهو يحدق فى الارض. وسألنى المحقق..
ـ هل مايقوله الشاهد صحيح..؟
ـ هذا تلفيق ودس. انا لم اتحدث مع روجانكوفسكى فى السياسة قط.
وتدخل المحقق موجها السؤال للشاهد.
ـ ماذا تعرف ايضا عن المتهم..؟
ـ فى فبراير عام ١٩٤٠م كان من المفترض ان ترسل مجموعة من الالمان والنمسويين الى
المانيا.. وقد صرح لى المتهم، بانه اذا قدّر له ان يرجع الى اوربا حيا فسوف يبذل كل طاقاته
ويكرس كل جهوده حتى يعلم العالم أجمع مايجرى فى الاتحاد السوفيتى.. ومعنى ذلك انه
يريد ان يسىء الى الاتحاد السوفيتى.
ـ حسنا.. يا كارلو شتاينر هل توافق على هذه الاقوال..؟
ـ انا انفى بشدة واصرار ماقاله.. جملة وتفصيلا.. ولم يحدث قط اننى تحدثت مع
روجانكوفسكى فى هذا الخصوص.
واستمرت المهزلة.. كان روجانكوفسكى يحكى اشياء ملفقة مختلفة توحى بأننى ثورة
مضادة.. وقد استغرق ذلك اكثر من ساعة.

ولقد نفيت بشدة كل الذى رواه روجانكوفسكي من أكاذيب وتهم ملفقة.
والفرق بين هذا التحقيق وبين كل التحقيقات السابقة هو أن هذا المحقق خاطبنى بلطف واقنعنى أن أعترف بكل شىء لان ذلك يعنى نهاية القضية.. ولم يكن ذلك ممكنا بالطبع.. فقد اصررت على نفى كل أقوال الشاهد الملفقة.
وفى المساء واجهونى بلارنوف ـ الشاهد الثانى.. والقى المحقق نفس المحاضرة التى قدم بها الشاهد الاول.. ثم خاطب عميله لارنوف قائلا:
ـ من فضلك حدثنا بالذى تعرفه عن شتاينر..؟
ـ لقد حضر الى المتهم يوما وانا اعمل بالمطبخ وكنت أتولى ادارته.. وسألنى أن أجد له عملا.. ولما سألته من هو.. حدثنى قائلا انه شيوعى منذ ان كان شابا.. وانه احس بحب شديد للاتحاد السوفيتى.
ولكنه عندما حضر للاتحاد السوفيتى مدفوعا بحبه ذاك، أصيب بخيبة أمل كبرى..
لقد وجد الظلم بديلا للعدل ووجد الحقد بديلا للرحمة.. وفاق ذلك كل ما عرفه من استبداد فى البلاد الرأسمالية.. وقال ان الفقراء هنا زادوا فقرا كما افتقر الاغنياء ايضا.. وقال انه لم يجد دكتاتورية البوليتاريا ولكنه وجد دكتاتورية مافوق البوليتاريا.. وقال عن اعضاء الحزب انهم قطيع من الخراف..
وسألنى المحقق.
ـ هل توافق على اقوال الشاهد.؟
ـ لقد مضى على حديثى من لارنوف وقت طويل جدا لا استطيع ان اتذكر ولكنى انفى كل ما قاله باصرار.
ولم يضغط على المحقق.. سجل حديثى كما هو ووقعنا نحن الثلاثة على المحضر.. وعند انتهاء التحقيق طلبت مقابلة المدعى العام.
ولقد اراد قاضى التحقيق أن يعلم ماهى الاسباب التى دفعتنى الى أن ـ أطلب هذا الطلب..

هل انا غير مقتنع بالطريقة التى أدار بها التحقيق؟
وقد أجبته بانى لا املك ان اعترض عليه بالطبع.
ولكنى أريد ان أسأل المدعى العام عن الاسباب التى من أجلها لمدة عامين فى السجن، وهل وشاية العملاء أمثال روجانكوفسكى ولارنوف هى مما يمكن أن يعتد به ويعتمد عليه..؟
ووعدنى قزايف أنه سيطلع المدعى العام على طلبى هذا.
وبذلك انتهى التحقيق..
وقادونى الى مكانى.
وفى اليوم التالى استدعونى مرة أخرى.. وعندما دخلت حجرة قاضى التحقيقات، رأيت فى منتصفها رجلا يرتدى معطفا للمطر وعلى راسه قبعة.. وقد وضع يديه داخل جيبى المنطلون.
قال لى بهدوء شديد..
ـ أنا المدعى العمومى.. ماذا تريد منى..؟
ـ كان يمكن أن يجيبك قاضى التحقيق. ومن المحتمل أنت تعرف أنت لماذا..

ـ التحقيق واضح التلفيق. والمعاملة غير أنسانية وبلا أساس.
ـ انت متهم بانك عنصر من عناصر الثورة المضادة ولذلك يجب ان تبقى فى السجن.
ـ لنفرض أننى من عناصر الثورة المضادة.. ولهذا بالضبط أنا موجود فى المعسكر.. ولكن هل يكون الانسان متهما بتهمة واحدة مرتين..؟
ـ لن تعطينا أنت أرشادات.. كل مرة نستطيع ان نقيم دعوى ضدك.
وكل الذى نفعله مبنى على القانون.
ـ اريد ان اعلم ايضا هل من القانون استدعاء عتاة المجرمين للشهادة ضد السجين السياسى، من أمثال الذين استدعاهم بروفكن للشهادة ضدى وغيرهم..؟ لقد دعت سلطات التحقيق شاهدين من عملائها ليلفقا اقوالا ضدى.
ـ ماهى اثباتاتك بان روجانكوفسى ولارنوف عميلان من عملاء ن. ك. ڤ. د؟
ـ من موقفهم الواضح.. يمكن استخلاص حقيقتهم. انهما عميلان.. ويعملان فى ادارة المعسكر اعمالا رقيقة هيئة ناعمة ، تثبت انهما عميلان.
ـ هيه.. وماذا..؟
ـ انت كمدع عام تعلم جيدا ان الرجال الذين يقيمون فى المعسكر..
وبناء على المادة ٥٨ لايسمح لهم ابدا ان يؤدوا عملا ما فى ادارة المعسكر.
ولم يجب المدعى العام بشىء.
ولكنه التفت الى قاضى التحقيق قائلا:
ـ كفى.
وعند عودتى الى الزنزانة رأيت دقتياروف يجلس على الكنبة.. وكان قد أحضر الى السجن مع اثنين من القسم التاسع للمعسكر.
كانوا يعملون كموظفين فى كمينة الطوب.
شخص ما اخطر ن. ك. ڤ د بأنهم من عناصر الثورة المضادة. وأنهم يشيعون الاقاويل الضارة ضد الاتحاد السوفيتى.. وهم ايضا يتوقعون فوز النازية وانتصارها فى الحرب.
وقد سألنى دقتيارف عن سير التحقيق، فحدثته باقتضاب عن الاشياء التى عشتها فى السجن منذ بداية الحرب.
وكان دقتيارف قد انكر فى التحقيق معه كل مانسب اليه.. وكان مصمما على الانكار.. ولكنه وبعد ما سمع بأن الشخص الذى لايحصلون على اعترافاته يبقونه طويلا فى السجن قال لى..
ـ لا.. لا.. لن ابقى طويلا فى السجن.. فى الحال ساطلب التحقيق معى وسأعترف بكل شىء..
وعندها ربما حكموا على بعشر سنوات، وهى ليست أبدية.. فالحرب لابد ان تنتهى وهم لابد ان يمنحوننا العفو.
ومن الغريب انهم استدعوه للتحقيق فى نفس الليلة.
وفى منتصف الليل انتهى التحقيق.. عاد منه وهو فى منتهى السعادة ـ وقال ان قضيته ستنتهى فى ظرف ثلاثة ايام، وانه سيعاد الى المعسكر لعمل خفيف.
واستدعوه مرة أخرى.. عاد منها ايضا وهو مقتنع ويبدو عليه الانشراح والهدوء، وأكد لنا أن قاضى التحقيق طمانه على أنه سيحاكم بناء على المادة ٥٨ الفقرة ١٢ ـ والتى تدين من يعلم بوجود جمعية للثورة المضادة ولايبلغ السلطات عنها. واضاف قائلا:

-زميلي الثاني اعترف ايضا بكل شيء.. ولكن الزميل الثالث ظل عنيدا ولم يعترف بشيء قط.
وسرعان ما وقف الثلاثة لسماع منطوق الحكم الذى جاء فيه.. الحكم بالاعدام رميا بالرصاص على قتيارف وزميله الذى اعترف ايضا.. اما ثالثهما وهو الذى أنكر فقد حوكم بعشر سنوات سجنا.
فى الزنزانة، ولمدة شهرين كاملين جلس المعلم الشاب ذو اليد الواحدة، كوليكوف، والذى كان يعمل فى المدرسة الثانوية بنورلسك كان يجلس هناك ولايعلم شيئا عن الجرم الشنيع الذى ارتكبه.
ا رسل كوليكوف من معهد المعلمين لجبهة القتال راسا.
وهناك خاض معارك ضارية ضد الهتلريين انتهت بفقد يده.. وعندما أخرجوه من المستشفى، تم تعيينه معلما فى نورلسك.. واسندت اليه سكرتارية الحزب للجنة المعلمين.
وكان المعلم الشاب يحظى بحب جميع الموجودين معه فى الزنزانة.. كان مرحا وعلى استعداد دائم لتقديم العون للجميع.. وكان مثقفا جدا.
وحتى نتغلب على الملل، ونقتل الوقت، كنا نحكى الروايات والقصص من الواقع المعاش..
وكان كوليكوف محدثا بارعا للحد البعيد.. يستطيع ان يروى تفاصيل القصص التى قرأها بدقة شديدة.
لم يكن يمضى يوم واحد دون ان يتحفنا بحديثه الشائق الطلى.
وما استطاع ابدا ان يعرف السبب الذى اعتقل من اجله.
وسالته مرة ان كان قد تحدث فى الجبهة او المستشفى بحديث صريح أو منفتح مع احد من الناس.. ولكنه لم يستطع ان يتذكر شيئا من ذلك القبيل.
وقال انه يذكر جيدا عدم تحدثه مع اى شخص بالمدرسة حديثا يمكن ان - يؤدى الى اعتقاله.. وهو واثق من ذلك.
وفجأة صاح رئيس الحرس..
- كوليكوف... للتحقيق..
وشحب لونه وتغير.. وهو الذى كان هادئا واثقا من نفسه.. وساعدته على ارتداء معطفه فقد كان رئيس الحرس يحثه على الاسراع.
وعاد بعد ساعات مضنية عاد للزنزانة..
وعلمنا كل شيء.. فلاعتقاله قصة.. وهى قصة فى غاية الغرابة... بعد ان تنحى عن ادارة المصنع فى نورلسك زافنيا، تم تعيين الجنرال بانيوكوف خلفا له ومديرا للمصنع.. وكان رجلا مترفا منعما عاش هو وابنه وزوجة ابنه.. وعندما انضم ابنه للجيش بقى هو وزوجة الابن فى الفيلا ينعمان بالهوى الاثم ويمارسان الخطيئة.. والابن بعيد فى خط النار.
وولدت الزوجة الحسناء الخاطئة ابنا.. كان بانيكوف هو والده وجده فى نفس الوقت.
وعلم الابن وكان لابد ان يعلم.. فعاد سريعا الى نورلسك وفى نيته ان يفضح العاشقين الاثمين.. ولكن الاب اشترى صمت ولده بمبالغ طائلة جدا وأركبه سفينة حملته الى البعيد.. والنفوذ يفعل كل شيء.
وعاش الجنرال العاشق مع عشيقته الحسناء، زوجة أبنه.
وبدا الشباب فى نورلسك يثورون على الذى حدث ويثيرون الاقاويل - فالاب جنرال والابن محارب فى سبيل وطنه.. فكيف يستباح عرضه وينتهك؟ ومن أبيه؟

وذات يوم بدأوا ينـاقشـون ذلك في اجتماع لشباب الحزب.. وكان كوليكوف أكثر الذين اهتاجوا لذلك.. ولم يدر بخاطره انه بهياجه ذاك قد وضع رأسه تحت مقصلة اتهامات ن. ك. ڤ. د الملفقة الدنيئة. لم يستطع ال ن. ك. ڤ. د بالطبع أن يسأل أو يتهمه بشأن ثورته على الجنـرال العـاهـر. وفي مدة الشهرين التى قضاها الشاب في السجن استطاعوا ان يطبخوا له طبخة انضجت على نار هادئة.

قالوا انه ينشر شائعات كاذبة عن ضابط كبير في الجيش السوفيتي.

وجاءوا بشهودهم وأدلتهم.

ورأت المحكمة ان الشاب ضحى بيده في سبيل وطنه، وأعتبرت ذلك من الاسباب المخففة عنه، فحوكم بخمس سنوات سجنا في المعسكر.

قاضي التحقيق الجديد اسرع في انهاء قضيتي..

في مدة خمسة عشر يوما.. وانا نفسي اردت ان ينتهي كل شيء... كتب محضرين مختصرين لم يكن بهما شيء خطير ووقعتهما أنا.

وفي اثناء التحقيق أحسست بأنه سرّ كثيراً لانه سينتهي من قضية استمرت لمدة عامين كاملين.. وكان بحق ملتزما جانب القوانين المكتوبة، حازما في ذلك.. وبعد انتهاء التحقيق دعاني الى غرفة عمله.

وجلست أمام قزايف على منضدة صغيرة..

كان يستطيع مراقبتي بدقة وتمعن.. ثم مدّ يده الى بحزمة ضخمة من الاوراق، وطلب مني ان أقرأ كل ماجاء فيها.

كانت نمر الصفحات متسلسلة.. وقد حوت الاولى منها فهرسا بالمعلومات عن محتويات الصفحات الاخرى..

أربعـة صفحـات حوت مواد القانون.. وهي مؤشر على فقراتها بدقة شديدة وبدأت أقرأ بحرص بالغ.. كان أكثر مايهمني هو شهادة الشهود الاخرين.

لم اهتم باقوال روجانكوفسكي ولارنوف.

وجدت أن المحكمة قد استجوبت عددا من اصدقائي ومعارفي.. وقد تلهفت جدا على قراءة ما قاله اقرب الاصدقاء اليّ..

كان الشاهد الاول هو صديقي فسليا جوبراكوف.. استجوبوه عدة مرات بشأني ولكنه كان يرفض الادلاء بأية اقوال تدينني.. هددوه ـ وتعرض لمعاناة قاسية الا أنه كان ثابتا مصرا على المقاومة.. وقد اخافوه بأنه سيوضع في قفص الاتهام.. ولم يرضخ لهم ابدا.

وكان الشاهد الثاني هو بتلان الذى ادلى باقوال تافهة وغير هامة اطلاقا، ولم يستطيعوا استخدامها ضدي.

والشاهد الثالث هو يفيم موروزوف، قال انه معلوم لديه أنني أنتقدت السلطة السوفيتية ولكنه لم يستطع اعطاء شيء ملموس.

أما شهادة المجرم الخطير بروفكن فانني لم أقرؤها.

ومن بين الاوراق الكثيرة وقعت عيناى على محضر التحقيق الخاص باصدقائي المتهمين جوزيف وجورج وشهادات الشهود ضدهم.. وكانت اقوال اصدقائي واقوال الشهود ضدهم لاتختلف كثـيرا عن اقـوالي.. ولكن في قضية جوزيف اضيفت فقرات قام بالتوقيع عليها ممثلوا ال ن. ك. ڤ. د، والاطباء الذين اكدوا ان جوزيف قد أعلن الاضراب ونفذه وأنهم

أطعموه بالقوة بعد الايام الخمسة الاولى من اضرابه.
وهنا عثرت أيضا على اقوال اخرى..
كانت ضد الشيوعي البلغاري بلا قوى بويوف وضد الشيوعي المجرى ياقورت. وقد ادلى بعض الشهود بأقوال ضدهم تفيد بأنهما كانا عضوين في (عصبتنا) للثورة المضادة
وبالرغم من ان بويوف وياقورت قد اقتيدا من قبل الحزب بعيدا عن نورلسك كمعوقين..
الا ان السلطات لم تستطع اتهامهم..
وفي النهاية قرأت خلاصة تقرير ال ن. ك. ڤ. د بنورلسك الذى جاء فيه..

بعد الفحص الدقيق لمادة الاتهام - عن طريق قسم التحقيقات في نورلسك - ضد كارلو شتاينر وجوزيف بيرقر وجروج بيلسكى الذين يقضون فترة العقوبة في معسكر نورلسك بتهمة الثورة المضادة،
فان القسم المذكور قد توصل الى ان هؤلاء الثلاثة..
١/ كارلو شتاينر
٢/ جوزيف بيرقر
٣/ جورج بيلسكي.
من العناصر الخطرة جدا التى تشكل الثورة المضارة والتى لايرجى صلاحها ابدا. لذلك يري ن. ك. ف. د بنورلسك انه من الضروري الحكم عليهم بالاعدام.
امضاء رئيس ال ن. ك. ڤ. د نورلسك.

وتتبع هذه الحيثيات خلاصة البينات كما قام بتقويمها المدعي العام بنورلسك.
- بعد الاطلاع على مادة الاتهام التى أعدها قسم تحقيقات ال ن. ك. ڤ. د فى نورلسك، فان المدعى العام بنورلسك يوافق رأيه رأى ال ن. ك. ڤ. د فى نورلسك، بأن هؤلاء المتهمين الثلاثة، كارلو شتاينر وجوزيف بيرقر وجورج بيلسكى، هم من عناصر الثورة المضادة الخطرة التى لايرجى اصلاحها، ويوصى بتنفيذ حكم الاعدام عليهم.
المدعى العام لنورلسك.. ميهايلوف.
وبعدها ختم المحضر. بالحكم الذى أصدرته محكمة الثلاثة ضباط الكبار (أو. أس. أو) فى كراسنويارسك.. وقد جاء فيه:
- بعد الاطلاع على مادة الاتهام التى قدمها قسم التحقيقات ل ن. ك. ڤ. د فى نورلسك وخلاصة بينات المدعى العمومى فى نورلسك..
فان محكمة الثلاثة ضباط الكبار (أو. أس. أو) لمنطقة كراسنويارسك تضم قرارها القاضى بالحكم على كارلو شتاينر وجوزيف بيرقر وجورج بيلسكى بالموت، الى قرار قسم التحقيقات فى نورلسك، والقاضى أيضا بنفس الحكم.
أن كارلو شتاينر، جوزيف بيرقر، جورج بيلسكى الذين يقيمون فى معسكر نورلسك، وقد سبق أن حاكمتهم المحاكم السوفيتية بتهمة الثورة المضادة، والاعمال الارهابية، والجاسوسية، والتخريب، استمروا فى اعمالهم العدائية داخل المعسكر.
ان المذكورين قد نشروا بعنف وباستمرار ادعاءات الثورة المضادة وحاولوا ان يخلقوا جوا انهزاميا خائنا وقاموا بالتبشير لنصر الجيوش الهتلرية،، وبناء عليه، فان محكمة الثلاثة ضباط الكبار لل ن. ك. ڤ. د (أو. أس. أو) - لمنطقة كراسنويارسك تلخص الاتى:

- شتاينر، وبيرقر، وبيلسكى، الذين يقيمون الان فى سجن التحقيقات فى نورلسك يحكم عليهم بالاعدام رميا بالرصاص.
أمضاء.. رئيس محكمة الثلاثة ضباط الكبار لل . ن. ك. ڤ. د لمنطقة كرسنويارسك.

الجنرال... (الامضاء غير واضحة)....
وفى النهاية كان قرار المحكمة السوفيتية العليا بتاريخ ١٩٤٢/٩/١م.. كما يلى: - بعد الاطلاع على مادة قسم التحقيقات لل. ن. ك. ڤ. د بنورلسك ان المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى وجدت أنه لايمكن تأييد خلاصة الحكم، بتنفيذ عقوبة الاعدام ضد المتهمين كارلو شتاينر، جوزيف بيرقر، وجورج بيلسكى، والذين ادينوا بالثورة المضادة للاسباب الاتية:-
١/ من قرارات ال. ن. ك. ڤ. د الكثيرة بنورلسك والتحقيقات الواردة معها لانجد اثباتات ادانة المتهم كارلو شتاينر حيث ان توقيعاته على التحقيقات غير موجودة.
٢/ اى قرار لسلطات التحقيق ينبغى أن يكون له محضر تحقيق مع المتهم، وهذا ليس موجودا فى حالة المتهم كارلو شتاينر وبدلا عن ذلك وعن المحضر الثابت للتحقيق باقوال

المتهم.. كتبت تعليقات بأن المتهم يرفض اعطاء أية اقوال.
وحتى هذه التعليقات والتى جاءت على شكل قرارات من لجنة التحقيق فان المتهم لم يوقع عليها.
٣/ المتهم جوزيف بيرقر..
لقد استشفينا من حيثياتكم.. أنه أضرب عن الطعام محتجاً.. لمدة ثلاثة وستين يوما.. وانه قد اطعم بالقوة ليبقى على قيد الحياة.
٤ / المتهم جوزيف بيلسكى..
لم يجر معه تحقيق عادى ايضا.
وللاسباب المذكورة آنفا لانؤيد ماتوصلت اليه محكمة ال (أو. أس. أو) لمنطقة كرسنويارسك.
تعاد جميع اوراق قرار الاتهام ضد..
١ / كارلو شتاينر
٢ / جوزيف بيرقر
٣/ جورج بيلسكى.
الى قسم تحقيقات ال ن. ك. ڤ. د فى نورلسك..
بغرض اجراء تحقيق جديد.
رئيس المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى
الامضاء (غير واضح.. وغير مقروء)..
وعندما فرغت من قراءة كل هذه الملفات بقيت ساكنا فى مكانى بلا حركة لمدة طويلة من الوقت.
من الغريب اننى لا ازال حيا حتى الان...
وصلت كل الاجهزة.. وعلى جميع المستويات الى قرار بموتى، ولازلت حيا!!
ال ن. ك. ڤ. د فى نورلسك.
المدعى العمومى..
ال (أو. اس. أو)..
كلهم وباجماعهم قرروا موتى وموت اصدقائى.. ولا نزال احياء!
كيف يمكن أن يحدث ذلك..؟
المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى لاتؤيد ولا توافق على قرارات هذه الاجهزة الثلاثة.. بقوتها وجبروتها..
هل نجح الاحساس بالعدل..؟
ان المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى لم تكن شيئا يذكر الى جانب قوة ال. ن. ك. ڤ. د والمدعى العام ومحكمة أل (أو. اس. أو).. كيف يمكن نقض قرار اتخذه مركز قوى رهيب مثل ن. ك. ڤ. د..؟ كيف..؟
هناك تبرير واحد لا غير..
هناك آلاف القضايا والاف الاحكام بالاعدام.. ولايمكن قراءتها كلها حتى يتم تأييدها.. ان التأييد يصدر تلقيائيا وبدون فحص تلك القضايا.. أما الحالات الشاذة مثل.. رفض اعطاء اقوال.. اضراب عن الطعام.. فقد اضاف لقضيتنا شيئا خصوصيا جعلها تحظى بالفحص

والتدقيق.. لذلك لم تؤيد المحكمة العليا حكم الاعدام.
وكان ال. ن. ك. ڤ. د يرمى الى ان يطيل امد التحقيق لسنين عديدة، حتى يحبسنا فى سجن المعسكر.. اذا لم يكن هناك مجال لموتنا.
ولم يضايقنى قاضى التحقيق وانا أقرأ.. تركنى أهضم كل شىء بهدوء - واستوعبه بامعان ورويه.. وما ان اعلنت له انتهائى حتى سألنى:
- هل قرأت كل شىء..؟
- نعم.. كل شىء..
- ماهو تعليقك..؟
- من فضلك قل لى.. كيف استطاعت هذه الاجهزة أن تصدر حكم الموت على أناس أبرياء، دون تفكير دقيق..؟
- نحن الان فى حالة حرب. وأى جرم مهما كان صغيراً يجب أن يردع ويحزم.
- لايمكن ان تقبض على الناس من الشارع وتحاكمهم بالموت لانك فى حالة حرب..!
- كل ذلك مضى.. ويجب ان لاتخف.. لن تعدم بالرصاص.. ستحاكم بعشر سنوات سجنا.. وعندما تنتهى الحرب ونهزم هتلر ربما اطلقوا سراحك ونلت حريتك.
قال هذا وصمت فترة.
وبعد ذلك مدّ الى ورقة كتب عليها...
أن التحقيق فى قضيتى قد انتهى.
وكان على التوقيع بالعلم على ذلك.
ووقّعت..
وبقيت فى السجن لاسبوع آخر.
وفى يوليو من عام ١٩٤٣م وفى يوم الاثنين بالذات وعند الصباح الباكر، دخل الزنزانة رئيس الحرس وقال لى دون ان يذكر اسمى..
- خذ حاجياتك واتبعنى.
وحاجياتى هى.. بشكير. فرشاة أسنان - كيس للخبز. ولاشىء.
التفت الى الرفاق وقلت لهم بحزن حقيقى:
- وداعا.. والى اللقاء..
قادنى الحارس الى مكتب السجن، وهناك حيّانى مدير السجن شوهاردن - بهذه الكلمات.
- رغما عن كل شىء لقد أفلّت من يدى.. كنت انتظرك بصبر نافذ لكى اوقفك امام (الدورة)!
- هل يسعدك قتل الناس..؟
- الفاشست أمثالك.؟ نعم.. يسعدنى كثيراً وضع رصاصة فى مؤخرة رأسك واجبته بهدوء..
- كعضو سابق فى الحزب الشيوعى، لا استطيع ان افهم ابدا، بان شيوعيا مثلى يكون متعطشاً للدماء..
ونظر الىّ مدير السجن نظرة يتطاير منها الشرر.. ثم قال وهو يضغط على كلماته..
- يسعدنى ان افعل ذلك.. كثيرا.. جدا.
بعد وقت قصير تجمع معى عدد من السجناء.. صفونا فى صفوف خمسة، ونادوا على اسمائنا.. امام الباب كان ثلة من الجنود بالسلاح.. الطريق من السجن الى القسم الثانى استغرق خمس دقائق فقط.. وقفنا امام الباب.. ثم جاء موظف قسم المعسكر.. فى يده قائمة

باسمائنا.. شرع ينادى علينا متمما.
وقـادونا الى مكتب القسم الثانى للمعسكر، حيث استلمنا كبونات الغذاء ثم سمحوا لنا بوقت حرّ حتى الساعة الخامسة.
كنت أعرف القسم الثانى من المعسكر معرفة جيدة للغاية، فقد قضيت فيه عامين كاملين.
وقررت ان اذهب للعنبر لارى هل بقى من اصدقائى القدامى أحد... على الرغم امن أننى أعلم جيدا ن اصدقائى الاجانب نقلوا الى القسم التاسع فى المعسكر.. ولكننى كنت امل ان التقى ببعض اصدقـائى الروس وفى مثـل ذلك الوقت يكـون المعسكـر عادة خاليا من السجناء.. فالجميع بكروا فى الذهاب الى العمل.. الباقون هم المرضى فقط أو الذين كانوا ساهرين فى وردية الليلة.
دنوت من احد العنابر ووقفت قرب الباب.. لم استطع ان اتقدم للامام.. كانت الحجرة مظلمة للغاية.. فقد غطى الثلج الشبابيك، ولم يكن الاوان قد آن لذوبانه بعد.. وفى مكان ما فى نهاية العنبر اضيئت شمعة وحيدة. بعد خطوات قليلة اصطدمت بالمدفاة.. وايقظت الضجة التى أحدثتها الحرس النوبتجى الذى كان نائما بالقرب من المدفاة وقبل أن أجد لسانى الذى لصق بحلقى كل أساله أن كان باتلان يعيش هنا، هب فى وجهى صائحا..
ـ ماذا تريد..؟
قلت باضطراب ـ اننى ابحث عن باتلان..
ـ هناك .. فوق الثانى من الشمال.
وعندما أعتادت عينى الظلمة رأيت باتلان.. كان نائما.. ووقفت بعض الوقت بقربه، وانا افكر هل اوقظه ام لا.. واشفقت عليه.. ثم خفت ان لا اراه مرة اخرى ابدا.. ونطقت اسمه بصوت خافت.. ولكنه لم يتحرك كان يشخر بعمق ... وتحركت نحو الحارس وسألته متى يستيقظ باتلان.. ولكنه كان فى مزاج ردىء لم يرد معه اجابتى.. وبالصبر والحيلة عرفت منه ان باتلان يصحو عادة فى الظهيرة قبل الغداء.. وقررت العودة اليه. ثم بحثت فى عدد آخر من العنابر على أمل ان التقى بأحد من معارفى واصدقائى.. ولكنى لم اجد احدا، على الاطلاق كان فى يدى كبون الغذاء مازال.
وكان بأمكانى الذهاب لتناوله.. غير انى لم أكن أملك آنية اضع فيها الطعام.
وذهبت الى المطعم ورجوت الحارس أن يسلفنى اناء.. ولكنه سبنى بغلظة فمضيت منه الى اقرب عنبر وسألت النوبتجى ان يعطينى اناء.. فسألنى..
ـ أنت لست غريبا عنى ـ اين تعارفنا..؟
ـ ربما.. لقد كنت فى هذا المعسكر من قبل. ويحتمل اننا التقينا..
ـ ما اسمك..؟
ـ كارلو..
ـ هل انت كارلو شتاينر..؟
ـ نعم
ـ لم اكن اتوقع رؤيتك ثانية.. او لم تحبس فى بداية الحرب..؟
ـ نعم والى الان أجلس فى السجن..
ـ ماذا يمكنهم ان يصنعوا بالانسان؟ لم اكد اعرفك.. ان لم تقل لى اسمك!!
وكان ينظر ويحدق فى وجهى بحب استطلاع شديد.

علمت أننى سكنت معه لمدة طويلة فى عنبر واحد.
كان هذا الرجل من رجال السكة الحديد فى لينينجراد..
وكان منذ عام ١٩١٢م عضوا فى المجموعة الثورية.. وقد اشترك فعليا فى الثورة.
واصبح رئيسا للسكة الحديد فى لينينجراد.. وفى عام ١٩٣٧م القوا عليه القبض بتهمة تجهيز محاولة اغتيال استالين.
وفى فترة التحقيق كان يضربونه بعنف وحقد شديدين حتى أصيب بعاهات عديدة.
وعندما جاء المعسكر كان عاجزا عن اداء اى عمل فعينوه نوبتجيا على العنابر.
وأخذ العجوز الكبون منى وذهب بنفسه لاحضار الطعام لى، وكان مكونا من الشوربة والعصيدة، فأعطانى قطعة من خبزه الخاص.
التهمت طعامى بسرعة.. وسعيت وراء اللحاق بباتلان.
كان باتلان قد أستيقظ من نومه... وشرع فى الاغتسال من اناء صفيحى وضع فيه الماء.
واضطرب بشدة حين وقع نظره على.. ومضى يحدق فىّ بعمق مذهولاً غير مصدق لما يرى.
وفهمت موقفه جلياً.. عامان فى السجن دفعت ثمنهما غالياً من ملامحى وعمرى ومظهرى.
وذهب باتلان الى المطبخ ليحضر غذاءه، ولأول مرة من ز من طويل أشعر بانى أصبحت شيطاناً.
وعندما بدأنا الحديث قادنى الى عنبر آخر.. وهناك وجدت صديقاً قديماً .. بولتنكوف سكرتير الحزب.. لمنطقة دنيبروبتروفسك.
بعد اعدام هتاينج سكرتير منطقة دنيبروبتروفسك الذى كان متهما بقيادة منظمة تروتسكى، القوا القبض على خلفه لولتنكوف بتهمة العضوية فى نفس المنظمة وحوكم بخمس عشرة عاماً سجناً.
ولوقت كبير عمل رئيساً للعمال فى المجموعة التى كنت أعمل بها.. واستضافونى بود وحرارة.. كان بولتنكوف قد تلقى طرداً من العجوز قبل فترة قصيرة.. وهى تقيم فى مدينة ألما ـ أتى..
وكان بالطرد شحم لحم الجنزير.. ومعلبات اللحوم الامريكية.. واعطانى بولتنكوف قطعتين من الخبز.. وقطعة من شحم لحم الخنزير ـ للطريق.
وبمجرد خروجى من العنبر الذى يقيم فيه بولتنكوف أحسست بغثيان وألم فى المعدة كنت قد أكلت ـ وبعد زمن طويل جداً ـ أكثر من طاقة معدتى التى تعودت على الكفاف.
وجلست على السلالم امام المنبر..
لقد حان الوقت لأعلن عن نفسى فى مكتب المعسكر.. اذ أنهم حتى ذلك الوقت لم يقولوا لى شيئا.. ولكن كان من الواضح انهم سيضعوننى فى القسم التاسع للمعسكر.

فى القسم التاسع للمعسكر
الارض المتجمدة أبدا

فى حوالى الساعة السادسة تجمع اولئك الذين تم اختيارهم للقسم التاسع فى المعسكر.. تجمعوا كلهم ماعدا تلك المجموعة التى وصلت معى من السجن.. ثم أضيف الينا عشرون رجلاً. وبذلك اصبحنا حوالى الثمانين رجلا تولى قيادتنا ثلاثة من بوليس المعسكر الى الباب.. هناك كان حرس المتابعة منتظراً.

أربعة كيلومترات كاملة كان علينا ان نقطعها من القسم الثانى الى القسم التاسع للمعسكر. وفى طريقنا الذى أتخذ الجانب اليمينى من ادارة المعسكر فى نورلسك والتى تقع بالقرب منها ثكنات وادارة حرس المعسكر. كان علينا ان نطأطىء رؤوسنا.. وكنا نلمح بالكاد المبنى الحجرى للجراج المركزى والذى كانت به أماكن تتسع لمئات العربات. وتعرج الطريق حول بحيرة ديقلشك.. ومن هنا كان بالامكان رؤية مبانى القسم التاسع للمعسكر، وكمينة الطوب الكبيرة.

وتحركنا ببطء شديد.. الكثيرون منا لم يكن باستطاعتهم الاسراع فى المشى. وقد تغاضى رئيس الحرس عن ذلك ولم يطاردنا.

ورغم أن الساعة تجاوزت الحادية عشر ليلاً فقد توقفنا مرتين لعدة دقائق من أجل الراحة.

كان المعسكر يتدفق بالضوء وكأننا فى رائعة النهار.

وبعد انتظار طويل ممض مضجر فتح الباب ووقف فى جانبه الاخر موظفو السجن أخذ رئيس الحرس ينادى علينا بالاسم، ويحقق فى تاريخ قدوم كل منا ونظامه فى العمل.. وكنا كلنا نكون فرقة عمل واحدة.

وعندما جاء دورى قال.. ستكون فى نفس الفرقة..

ولكنه سرعان ما غيرّ رأيه.. وصاح..

ـ لا... انت ستذهب الى فرقة عمل أخرى.. لانك ضعيف ولاتصلح لمنطقة التراب..

ثم تفاكر مع مساعديه وتوجه نحوى قائلا:

ـ ستذهب لفرقة العمل نمرة ٢١ العنبر رقم ٩

وكان العنبر رقم ٩ مبنيا من الالواح الخشبية.. فتحت الباب بحذر شديد.. كان الجميع نياما.. بحثت عن مكان خال ولكن بلا جدوى.. كانت كل الاماكن مشغولة.

وقفت.. احمل صرتى الصغيرة فى يدى.. وسمعت صوتاً خافتاً يأتى من الخلف.. التفت نحوه.. كان رجلا يرقد على الكنبة السفلى.. اشار الى بيده لاقترب منه، فلما فعلت، سألنى عما أبحث.. أوضحت له أننى ضيف جديد أرسلنى رئيس الحرس، ولم أعثر على مكان أنام فيه.

فنهض وقد بدأ عليه الاهتمام.. بحث هنا وهناك.. زرع العنبر طولا وعرضا ولم يعثر لى على موضع.. فاضطر الى ايقاظ اربعة اشخاص وأمرهم ان يفسحوا لى مكانا معهم.

وبدأ الرجال فى السباب.. تحرك منهم اثنان فقط.. اما الاخران فواصلا نومهما.. وقال لى النوبتجى..

ـ ارم نفسك هنا..

وخلعت البالطو المبطّن والحذاء.. ورقدت على الكنبة.. او بالاصح رقد نصف جسمى على جسم جارى.
غذائى وكيس الخبز وضعتهما تحت راسى ولم يكن هناك مكان آخر.. وتحرك الرجال النائمين بالقرب منى.. وأحسست أننى أرقد على الواح خشبية خشنة قاسية.
غطيت وجهى بالبالطو انشد نوماً سريعاً، فالوقت كان متاخراً للغاية، والعمل يبدأ فى الصباح الباكر.. وفجأة شعرت بشىء يتسلل الى وجهى.. مددت يدى ببطء وقبضت عليه.. كان مجموعة من البراغت المتوحشة.. وكنت معتاداً على النوم معها ومقاسمتها ساعات الليل.. ولكن هذا النوع الذى زارنى سريعاً، كان مبالغاً فيه.. من كل النواحى.. سحقت الذى زحف على وجهى.. ولكن سرعان ما هاجمتني جيوش اخرى.. احسست بأن جسدى قد التهب وعشرات الافواه القارصة المتعطشة للدماء تنغرس فيه وتبدأ عمليات الامتصاص.. حاولت بكل الطرق تخليص نفسى، ولكنى فى النهاية القيت سلاحى واستسلمت. فقد كانت معركة خاسرة من البداية. وبقيت حتى الصباح مفتوح العينين، أنزف من الداخل والخارج.
وأيقظ رنين الجرس الحاد معظم الرجال، اما الذين تناوموا فقد تولت ضربات جيرانهم تلك العملية.. واستيقظ جيرانى فرأونى.. وبدأوا ينظرون الىّ باستغراب شديد.
الذين كان بينهم وبين النظافة ودّ مفقود، ذهبوا راسا للمطبخ لاحضار وجبة الافطار.. وكان علىّ التوجّه للمكتب لاحضار كبون الاكل ـ والخبز.. وقضيت زمنا طويلا فى البحث عن المسئول الذى أعطانى الكبون وكان على أن استلم الخبز فى المساء.

وبينما أنا أجرى هنا وهناك من مكتب لآخر سرقوا كيس الخبز الذى تركته فى العنبر.
وسمعت صوت الجرس للمرة الثانية.. وذلك يعنى التوجه للعمل..
ومن العنابر تدفق نهر السجناء.. وقفوا فى خمسة صفوف.. ثم تحركوا الى مواقع العمل.
وبحثت عن الغرفة رقم ٢١ التى وضعت فيها.. وعندما وجدتها قابلت رئيس الغرفة واوقفنى فى الصف.
وما أن وقفنا فى الصف حتى جاء رئيس الحرس وسأل قائلا:
ـ أين شتاينر..؟
وأجاب رئيس العمل ـ من المحتمل أن يكون هذا الجديد.
قال ذلك وهو يشير الىّ، فخرجت من الصف.
وقال لى رئيس الحرس..
ـ أرجع مرة ثانية للفرقة التاسعة..
ورجوته ان يتركنى هنا.. ولكنه أجابنى بعدم استطاعته عمل شىء فى هذا، وقال انه يتفهم موقفى جيدا ولكن الامر اكبر منه.. فقد صدرت التعليمات من (أعلى) بان أؤدى الاعمال الجسمانية الشاقة.
وصدمتنى هذه المعاملة.. سببت لى كآبة شديدة.. ففتحت الابواب وتحركت نحو فرقتى الجديدة.. الفرقة التاسعة ـ وفى الخارج وقف الحرس متأهبا.
الطريق لمكان العمل كان طويلاً جداً.. خيل الىّ أنه لا نهاية له ابداً وكنت متعباً جداً.. ليل طويل بلا نوم.. تعب وعناء فى البحث عن كبون الطعام.

نجحت بعد صعوبة شديدة في لم شتات قواى المبعثرة.. وتابعت خطوات الاخرين.. وحذرنى الحارس بكلمات جارحة ان اترك التلكؤ وان اسرع قليلا.. وعندما وصلنا الى مكان العمل سارع رئيس الحرس بتفتيش المكان خشية ان يكون احد الناس المتعاطفين مع السجناء قد ترك فيه خبزا او ـ طعاما.
ثم تفرّق الحرس.. احاطوا بالمكان وقفلوا منافذه.. ووضعت اللافتات التى تنص على ان هذه منطقة ممنوعة.. وبعد ذلك سمح ببدء العمل. كانت ارشادات رئيس العمل هى نفس ارشادات رؤساء العمل المختلفين، نفس الكلمات ونفس الجمل.
امامنا وقف تل ضخم كان علينا ان نساويه بالارض..
حفر السجناء حفراً عميقة في الارض المتجمدة ابدا وقاموا بوضع المتفجرات داخلها.. ثم حضر الفنيون فوضعوا الفتيلة والكبسولة في ذلك الموقع.
عندما حانت ساعة الراحة ابعدونا لمسافة ثلثمائة متر تقريبا عن المنطقة الخطرة اما كتل الارض المتجمدة. فكان من الواجب تكسيرها بالالات الحادة والمعاول.. ثم توضع في عربات النقل الصغيرة وتحمل الى مكان تفريغها الذى يبعد حوالى مائتى متر عن الموقع.
كل عربة صغيرة تحمل رقما معينا وعند التفريغ ترصد ويسجل رقمها في دفتر يحمله سجين موكل به ذلك.
وبعد انتهاء العمل يبدأ فرز نمر العربات التى افرغت حمولتها.. وبذلك يحصل كل سجين مقابل الكمية التى أفرغها على الخبز والطعام الدافئ.
وقف كل واحد في مكان عمله المخصص الا انا.. فلم اكن قد حصلت على عمل بعد. نظر الى رئيس الحرس وسألنى:
ـ كم تبلغ من العمر..؟
ـ ثمانية وثلاثين عاما..
ـ ماذا..؟ لقد كنت اعتقد انك في السابعة عشر.. هل انت مريض..؟
وحدثته من اين أتيت..
وقام هو بسؤال رئيس العمال قائلا:
ـ ماذا أصنع بهذا..؟
ـ هذا ماكنت افكر فيه انا نفسى.. لقد وصل الى هنا بصعوبة شديدة..
اسمع ياشتاينر هل تعرف الكتابة..؟
ـ أعرف.
ـ اذن سوف نوكل اليك عملية رصد عدد العربات التى تفرغ حمولتها.
وجلست على عجل مكسور، وأمامى قطعة من الخشب أكتب عليها عدد العربات التى افرغت حمولتها.. وفي المساء جمعت عدد علامات ال (×) التى قمت بتسجيلها.. ثم كتبتها على وريقة أعطيتها لرئيس العمال.
وعند عودتنا في المساء لم أكن مكتئبا كما كنت في الصباح. كنت سعيدا لانى صادفت اناسا طيبين اعطونى عملا سهلا.
في فرقتى كانت نسبة الالمان تسعين بالمائة مقابل عدد قليل من الروس.. الغالبية كانت من الالمان المهاجرين، والبعض كان مزدوج الجنسية (المانى روسى).
وفي المساء جاءنى بعض المعارف القدامى طلبوا منى ان ازيد من علامة الـ (×) امام حصة

كل منهم.. فوعدتهم بذلك.
كان همى لحظتها أن أحصل على اناء أحضر فيه طعامى.. ولم ابحث طويلا، احد الرجال عرض علىّ بعض الاوانى مقابل قطعتين من الخبز.. استقطعهم من طعامى على اربع دفعات.

بعد مرور يومين جاءنى الحارس متسائلا

- كيف وصل الجميع الى المعدل الاحصائى فى العمل..؟ وبعضهم تجاوزه الى أعلى.. ومع ذلك فمكان التفريغ ممتلىء حتى النصف..؟

حاولت اقناعه بأنى أكتب بدقة شديدة.. ولا مصلحة لى فى اى تجاوزات. وأصبحت حذرا وكنت اكتب اقل القليل فى الزيادة.. وهذا اغضب منى زملائى.. وقال لى بعضهم.

- أنت رجل بلا قلب.

ولم استطع مقاومة نظراتهم المتوسلة الضارعة وأجسامهم الهزيلة وبطونهم الخاوية.. وعدت أكتب من جديد العلامات (×) الزائدة.

وأستدعانى رئيس الحرس.

كان جادا معى هذه المرة..

- ياصديقى العزيز.. أرى أنك تعطف على الاخرين اكثر من عطفك على نفسك.. يخيل الى أنه يتوجب عليك جر العربات المحملة. واذا تكرر منك ماحدث، سأعين أحداً مكانك.

ووعدته بأن أكون عند حسن ظنه.

وفكرت فى أيجاد عمل بديل، لاننى كنت أعلم جيداً من أننى لن استطيع البقاء هنا فى ذلك المكان.. وفى نفس المساء ذهبت الى المكتب وطلبت من رئيس الحرس أن يجد لى عملا آخرا سهلا. ولكنه اعتذر بعدم امكانية ذلك وطلب منى اللجوء الى القسم الصحى. وقد كان.. ذهبت الى دكتور ماير الذى كان المانيا يعيش فى روسيا، وقبض عليه عام ١٩٣٤م بتهمة التجسس للالمان.. وحوكم بعشر سنوات سجنا.. قضى معظمها فى الاعمال الشاقة... والان ارجع الى مهنة الطب مرة اخرى.. كان رجلا ضخم الجسد - ابيض الرأس.. اصلع.. طيب وهادىء.

وعندما مثلت أمامه.. وشرعت فى خلع ملابسى لأريه كيف انا هزيل، اشار الى بيده قائلا:

- لاتفعل.. فبدون اللجوء الى تعريتك أستطيع ان اعرف حالتك الصحية ثم وعدنى بأن يخبر مدير المعسكر، ويحاول نقلى الى فرقة عمل اخرى.

وعندما كنت اشكره . قال لي

- من أول الشهر ستحصل على وجبات ضد مرض الاسكوربوت، وهى وجبة اضافية تعطى لمرضى الاسكوربوت. وتتكون من الخل والجزر وبعض نقاط الزيت..

وكنت قد علمت ايضا ان المرضى بهذا المرض يحصلون على ربع لتر خميرة تعد فى مطبخ المعسكر من دقيق الذرة الشامى ونبات خميرة البيرة.

وعملت عدادا للعربات الصغيرة مدة يومين بعد ذلك.. وفى اليوم الثالث عندما اردت ان اجلس فى مكانى بالقرب من العجل المكسور، حضر الىّ رئيس العمال وبصحبته أحد السجناء.. وطلب منى تسليمه أدوات عملى، ثم أعمل مكانه فى قيادة وجر العربة المحملة بالتراب.

وقد كان.. استطعت ان اجر خمس عربات بشق النفس، وفى العربة السادسة خارت قواى

لم تستطع يداى الامساك بمقود العربة، فهوت العجلات وانقلبت العربة وتبعثرت نصف الحمولة..
وتوصلت البقية الى مكان التفريغ بعد جهد جهيد.. والان..؟
مكاني أخذه سجين آخر، وعلى تفريغ العربات حتى موعد الغذاء. واستطعت الصمود قليلا.. ولكن في النصف الثاني من النهار لم استطع الحراك. ولم أسمع رفاقي يعلقون.. كانوا يعملون انني اقاسى الان بسببهم.. وعندما انتهى اليوم عدت متكئا على سواعد رفيقين.. وذهبت الى القسم الصحى.. فقاسوا حرارتي.. ولكنها كانت طبيعية.. وعليه فسأذهب غدا للعمل... مرة اخرى.
وفكرت في التمرد على الذهاب غداً لموقع العمل.. ولكنى كنت أعلم أن لذلك نتيجة واحدة.. هي وضعي في زنزانة الحبس الانفرادى. وسيكون وضعي هناك أصعب.. وكمية الخبز اقل.. لا... لا ان ذلك ليس هو التصرف السليم.
وتوجهت الى مدير المعسكر.. ليحدد لى عملاً سهلاً.. كنت أنوى أستعطافه ورجاءه.. ولم اجده في مكتبه فقصدت معاونة وبمجرد ظهورى أمام الباب صاح في وجهى قائلا:
- ماذا تريد مرة اخرى..؟
- انى هنا للمرة الاولى.
- امس حضر الى هنا صانع يشبهك.. ماذا تريد..؟
- عملى صعب جدا.. وانا مريض وهزيل كما ترى..
- ما اسمك..؟ وبأى مادة حوكمت..؟
فذكرت له أسمى والمادة التى حوكمت بها.. فأجابنى بلهجة عنيفة..
- ليس لمثلك عندى الا العربة المحملة والمجراف.
وعلمت انه لا فائدة من الجدل معه.
وكانت الساعة العاشرة ليلا.. وسمعت انذار النوم..
توجهت الى العنبر لاطعم البراغيت من دمى.
كنت على ثقة من أننى لن احتمل..
سانهار.. والى الابد...
سانتهى من كل الامى.. انا احب الحياة رغم آلامها وبؤسها ولكن كيف اقاوم.. لاستمر احيا.
واخيرا نمت.. وفي الصباح لم اسمع انذار النهوض من النوم. وايقظنى النوبتجى وأسرعت الى المطعم لاجد افطارا لى.. كنت متعبا جدا.. وفكرت.. كيف استطيع الاحتمال والصمود اليوم..؟
وعندما كنت اقف في الصف امام الباب مر دكتور ماير..
وأسرعت أحييه فنظر الى باستغراب، واقترب منى وسألنى..
- كيف لم تحصل على عمر آخر..؟
- كما ترى.. انني كدت ان اموت بالامس.
- اذن مر علىّ بعد العمل.
واعطتنى كلماته هذه طاقة، وقوة جديدة.. الطريق الى مكان العمل لم يكن طويلا مثل كل يوم، ولم يتعبنى المشى على الاطلاق.. عملت بكل قواى حتى لا اغضب زملائى..وعند فترة الراحة في الظهيرة حدثتهم بأن دكتور ماير طلب حضورى الى العيادة وآمل أن يساعدنى.

وقال أحدهم..
يكون جميلا اذا اسرع، حتى نحصل على وجباتنا كاملة، هل تعلمون؟
هذا هو اليوم الثالث ونحن لانحصل على المعدل المطلوب.
وفى المساء ذهبت لمقابلة دكتور ماير.. وقد ودعنى رفاق القسم بامل.

وأمام المسئولين وضح لهم دكتور ماير حالتى الصحية فوعدوه بأن يضعونى فى عمل اسهل.. فقط على الصبر لمدة ايام.. واصبت بصدمة شديدة... كنت آمل ان تكون هناك استجابة فورية لرجاء الطبيب.. وبكيت بصمت. وحاول دكتور ماير ان يخفف عنى عناء الصدمة ويطيّب خاطرى.. ولكنى لم اسمع ماقاله لى. كنت افكر فى الذى ينتظرنى غدا.. واصابنى خوف شديد. وركبنى همّ قاتل. وفى صالة العيادة قابلت الممرضة التى تعمل مع دكتور ماير وكانت تعرفنى من قبل.. فسألتنى:
ـ كيف حالك..؟
ـ ممتع للغاية وان كان أحسن من هذا فلن استطيع احتماله!!
ـ هل مازلت تفرغ التراب..؟
ـ نعم. للاسف..
ـ ماذا يقول دكتور ماير..؟
ـ انه سيحاول مساعدتى.. ولكن من فى المكتب لايتجاوبون معه بسرعة.
ـ دكتور ماير سيساعدك بالقطع.. لقد ذكر لى أنه سيفعل شيئا من اجلك
ـ دكتور ماير رجل طيب بالتأكيد ـ ولكنى عندما اتذكر يوم غد والعمل فى التراب، اتمنى الموت.
ـ انتظر قليلا ساتحادث مع الدكتور.
عادت بعد دقائق ودعتنى للعيادة.. قال لى الطبيب:
ـ منذ الان ولمدة ثلاثة ايام لن تذهب للعمل.. وفى هذا الوقت سأحاول ان افعل شيئا لنقلك.
ولم اجد من الكلمات ماينلسب مقام شكره.. توقفت الكلمات فى فمى وغصى بها حلقى.. فتمتمت بما يشبه لغة العرفان وانصرفت.
يمكننى اذن ان ارتاح لمدة ثلاثة ايام..ويمكننى فيهما ان اتجول فى القسم التاسع من المعسكر واتعرف عليه بصورة أحسن.. ان الرجال هنا لايتزاورون لانهم بعد العمل يصلون درجة الموت من التعب.
اول شىء فعلته هو اننى زرت شاسا فيبر الذى كان يعمل فى كمينة الطوب كمساعد كاتب.
علاقتى به لم تكن كما ينبغى، بسبب رأيه ورأيى المتباينين فى نظام ستالين.. حيانى ساشا بحرارة.. ربما تغيرت افكاره.
ولم اكن مخطئاً.. من الكلمات الاولى التى تبادلتها معه اكتشفت التغيير الكبير الذى طرأ على افكاره.. وما ان جاءت على لسانى ذكرى القائد المحبوب. حتى بدأ عليه سيلا من الشتائم والصق به العديد من النعوت القبيحة. كان ساشا غاضبا من أجل السياسة الوطنية، التى اتبعت اتجاه الالمان فى روسيا.. وبالاخص اولئك الذين يسكنون منطقة الفولجا
واحضر ماء ساخناً.. وجلسنا على الكنبة نشرب الشاى، وودعته منصرفا عند سماع جرس النوم.

وقبل نهاية الثلاثة ايام اخبرني رئيس الحرس بأني نقلت الى الوحدة التى تعمل في كمينة الطوب..

ورحلت الى عنبر آخر..

ومنذ الليلة الاولى احسست بالفرق بين هنا وهناك.. كانت البراغيت هنا اقل.. وكان النوم اهدأ.

كانت كمينة الطوب تجاور المعسكر، لذلك فقد ذهبنا للعمل دون حراسة.

كانت الحراسة فقط حول المصنع وفوق ابراج المراقبة.

الطوب الذى لم يجف بعد كان من نصيبي.. احمله على عربة صغيرة الى مكان التجفيف.. وافرغه وارصه على الادراج.. كان العمل شاقا ايضا، فالمعدل الاحصائى عال جدا.. ولكنه على اى حال كان محتملا بالقياس الى غيره. وزال عناء المشوار الطويل لمكان العمل والعودة الى المعسكر.

وسألت الرفاق الذين عملوا هنا لوقت طويل..

ـ كيف الحال مع الخبز..؟

ـ نحن نحصل على كميات جيدة منه.

ـ هل غالبية العمال هنا من النساء..؟

ـ القسم به جانبان.. جانب للنساء وآخر للرجال.

الحب في المعسكر

لما كان العمل هنا مشتركا بين الرجال والنساء.. فقد حرصت النساء على أن تكون هيئتهن أنيقة مرتبة نظيفة.. كن يحضرن لمكان العمل بالمكياج اما ملابس المعسكر التى كن يرتدينها فقد كانت أنيقة نظيفة رغم فقرها وبؤسها.. بعضهن كن حريصات على ارتداء الملابس التى أرسلت لهن من منازلهن.

لاحظت ان عدداً من الرجال فى الاقسام الاخرى يأتون الينا بغرض مغازلة النساء.. يحدث ذلك رغما عن بعد تلك العلاقات وارتفاعها عن سوء الغرض. وكانت هناك علاقات جادة أيضاً.

غرفة تجفيف الملابس لو قيض لها ان تتحدث لباحت بالكثير من الذى دار بين جوانبها.. كانت الغرفة منظمة للغاية، دافئة حميمة كأنها أعدت للعشاق.

ولم يكن أحد يفكر فى الراحة.. كل شخص اتخذ لنفسه موقفاً يتمتع ـ بوجوده داخل نطاقه.. وبمعرفته الخاصة فقط.

وعلى شدة الرقابة وحرصها كانت القلوب تخفق بالعواطف الجياشة وتتجاوب دقاتها معبرة عن جيشان الوجدان الانسانى.

وكان للحب ثمنه.. كما لكل شىء هنا..

كانت خدمات الحب من رسائل ووصايا وتعليقات ولفت نظر الخ.. تكلف الكثير. قطعة من الخبز. وفى النادر قطعة من لحم الخنزير او السكر والزبائن العملاء كانوا من الطباخين.. وصانعى الاحذية والخياطين.. وغيرهم.

وعلى الرغم من أن غالبية الرجال كانوا شباباً الا أنه لم تكن لهم امكانيات أو هوية فى النساء.

فى بعض الاحيان تحدث بعض المآسى العاطفية تكون نهايتها القتل او الانتحار. وبعد مرور شهر أحسست بأنى أحسن كثيراً مما كنت عليه حين جئت الى هنا.. الا أننى لازلت ضعيفا. اغلب السجناء ايضا كانوا ضعفاء.. لذلك كان الرجال والنساء فى المجموعة الثالثة.

فى الاتحاد السوفيتى سجنوا مليون امرأة.. فى معسكر نورلسك وغيرها. كانت هناك معسكرات عديدة للنساء.. جزء منهن كان يقيم فى معسكرات مختلطة ايضا.

عنابر النساء فى مثل هذا النوع الاخير من المعسكرات كانت محاطة بحاجز من الاسلاك.. ولم يكن يسمح للرجال بدخولها قط. فى معسكرات النساء وضعوا معا السجينات السياسيات والمجرمات ايضا. وقاست النساء اكثر من الرجال فى هذه الحياة المشتركة مع العاهرات واللصات والقاتلات.

وبالرغم من المنع الصارم والعقاب القاسى فان الرجال كانوا يأتون دائماً ويوميا الى عنابر النساء.. ينامون معهن فى فراشهن ويمارسون الحب معهن على مرأى من الجميع.. وكان رجال بوليس السجن هم أصحاب النصيب الاكبر فى التمتع بالنساء.. كانت للواحد منهم اكثر من عشيقة وخليلة.. وقد شجعت ادارة السجن على نمو تلك العلاقات الخاصة.. وكانت الفرص متاحة وكثيرة للقاءات المحرمة.

كانت كمينة الطوب من تلك المبانى ذات الفجوات والنتوءات مما يصلح ان يكون مخابىء

جيدة للعشاق.. وقد فكر المدير باتسرنى فى عقوبة خاصة للعشاق المقبوض عليهم بتهمة ممارسة الحب.

كانت تلك العقوبة هى تنظيف المراحيض ونقل القاذورات والفضلات فى العربات الصغيرة الى خارج المعسكر.

وكان الفضوليون ينتظرون كل مساء بالقرب من مبانى دورات المياه ليروا عشاق اليوم المقبوض عليهم بتهمة ممارسة الحب.

كانوا يجرون عربات الفضلات بشجاعة وصبر وغالبا ماتمتنع الناس عن البكاء والشكوى.

السجناء السياسيون من الرجال والنساء كانوا اقل الفئات نشاطا فى ممارسة الحب.. لاسباب كثيرة.. منها الاخلاقى والمبدأيى والوضع الخاص الذى كان صعبا للغاية.

ترك الكثيرون منهم نساءهم واطفالم وراء ظهورهم بلا عائل ولا معين. كانوا يعلمون بأن السلطة تنظر اليها كأعداء للشعب.. وكذلك تتصرف حيالهم.. ماذا يعنى ذلك فى الاتحاد السوفيتى..؟

هذا يعلمه فقط الذين عاشوه وعانوه.

الزوجة اولا.. تفصل من العمل.. وبعدها يطرد الاطفال من المدرسة.

يجب عليهم بعد ذلك ومن تلقاء انفسهم ان يختفوا من المدن الكبرى. وان يحاولوا الانزواء فى القرى البعيدة.. وكان الاقارب عادة يتهربون منهم ولايريدون او يطيقون استضافتهم.. خوفا على أنفسهم من المضايقات البوليسية والرقابة وربما القاء القبض عليهم.

وكانت النساء مجبرات على طلب الانفصال عن الازواج السجناء.... كانت الاعلانات فى الجرائد تحمل يوميا تصريحات النساء المتبرئات والمطلقات لازواجهن.. ويحدث ذلك بضغوط معينة.

لذلك كان السجناء السياسيون يتعففون عن مثل تلك الممارسات العاطفية مع نساء المعسكر.. كانوا يمسكون جماح رغباتهم حرصا على السلوك السوى القويم.. كان هناك بعض الذين يشذون عن هذه القاعدة بالطبع.

وكان الذين يتمتعون بالجاذبية والحظوة لدى النساء هم الاقوياء (الشبعانون) والدعارة فى نورلسك كانت منتشرة جدا.. ففى كل وقت تكون هناك امرأة ما مستعدة لتبيح نفسها مقابل وجبة طعام.

وغالبا ماتحدث المغالطات والتحايل والهروب من اداء الثمن المطلوب بعد ارتكاب الخطيئة.. وتحدث المشاجرات وتتصاعد المشاكل.

صديقى ساشا فيبر كان يعمل كاتبا فى كمينة الطوب تعرف على مساعدة المعمل ايدى.. كانت تسكن منطقة الفولجا.. المانية أعدم زوجها رميا بالرصاص.. وكانت التهمة هى العداء للشعب.. ثم اعتقلت هى وحكم عليها بعشر سنوات سجنا.. وجمع الحب بين القلبين التعيسين واحكم وثاقه وفاض وأربى..

وفى عام ١٩٤٧م اطلق سراح ساشا لقضائه مدة العقوبة، وأصبح حرا.. ولكنه بقى فى مكانه يعمل قريبا من مالكة قلبه أيدى التى كان عليها ان تقضى خمس سنوات اخرى فى

السجن.

وفي عام ١٩٤٩م جرى أعتقال ساشا مرة اخرى.. وحوكم بعشر سنوات سجنا.. ومن سخرية الاحداث ان أيدى أفرج عنها في عام ١٩٥٢م ـ فبقيت في انتظار قضاء حبيبها لمدة عقوبته الجديدة... ولكنه كان انتظارا بلا جدوى.. فقد اخترقت يد الموت ساشا في عام ١٩٥٣م.. وقضى نحبه في قسم (مدنا فورا).

كان على النساء ان يعملن اعمالا شاقة كالرجال تماما.. وقد طبق القائمون بالامر ذلك المبدأ حرفيا في الاتحاد السوفيتي.. وعملت النساء في كمينة الطوب اشق واقسى الاعمال.. حفـرن الطين والتـراب والحصى. وفرغن أكياس الاسمنت الثقيلة.. وكان ذلك يعتبر من الاعمال الخفيفة الهينة.. لان الاسمنت في الاكياس وزنة الكيس الواحد خمسون كيلوجراما وفي رأى السـدنـة الحاكمين ان ذلك شيء خفيف ولم يكن في الاعتبار أن النساء ليس في مقدورهن اداء عمل ما تعودن عليه.. لاسيما اذا كان من اعمال استخدام القوة العضلية.. ومن النساء السجينات من كانت أستاذة جامعية.. ومن كانت طبيبة ومن كانت عاملة فنية الخ الخ..

العمل الشاق والظروف غير الصحية، طعمت النساء ضد النظافة والفضيلة والقيم. كن يبحثن عن مخبأ يلذن به مع رفيق، وهن قذرات مشعثات لم يغتسلن او ينظفن ثيابهن منذ اسابيع عدة.

وكانت نتيجة تلك العلاقات غير الشرعية اطفالا غير شرعيين ايضا... والكثيرات كن يبحثن عن الحمل بأية طريقة حتى يأخذن بعض الراحة (الشرعية).

أمـا الاطفال فكانوا يقومون بانتزاعهم من أحضان الامهات، حتى يذهبن لمواصلة العمل الشاق.

أمام محكمة المعسكر

بعد كل ثلاثة اشهر تحضر الى المعسكر لجنة طبية تقوم بمراجعة وفحص وترتيب أوراق العمل للمراحل الجديدة.

وكان الرجال يخافون قدوم هذه اللجنة ويهابونه اذ من المحتمل أرسالهم الى مواقع اخرى، العمل فيها أكثر.. وأشد قسوة.

كان الكثيرون منهم يعملون بشتى الطرق لتستمر احوالهم الصحية في الهبوط.. وان لاتتحسن أبداً.. وكان ذلك يعني الكثير.

كانوا يمتنعون عن الاكل لمدة ثلاثة ايام وأكثر حتى يبدو عليهم الهزال والضعف، أو يستمرون في التدخين بشراهة وعدم توقف فيبدون أمام اللجنة منهكي القوى شاحبي الوجه.

في ذات ليلة عندما عدت من العمل أخبرني النوبتجي ان اذهب فورا لمكتب المعسكر. وخفت جدا..

ما الذي جرى..؟ لماذا لايستمر الهدوء وان كان قاسيا في حياتي هنا لمدة طويلة؟

هل سأنقل الى عمل شاق آخر..؟ ام لاني لم اكمل اول الامس المعدل الاحصائي للعمل.

قررت الذهاب اولا للمطعم اضمن وجبة عشائي اولا.. لان ذهابي للمكتب قد يضيعها على.

أخذت آنيتي وتوجهت لمكان الطعام.. وجدت حساء الفاصوليا.. وهذا مايحدث نادرا للغاية، ورجوت الطاهي أن يضاعف لي الكمية عوضا عن العصيدة.. فانا لا أريدها.

ولكن الطاهي كان كريما، وضع لي ضعف نصيبي من الحساء وفوقه وضع ايضا العصيدة وأعتبرت ذلك فالا حسنا.

وبعد العشاء أسرعت الى مكتب المعسكر.. وأخبرني المدير قائلا:

- غدا لاتذهب للعمل. ولكن تعال هنا في تمام الثامنة وسنذهب سويا الى المحكمة.

المحكمة..؟ كنت أعلم مالينتظرني.. ولكني مع ذلك كنت مضطربا جدا.. سينقلون لي ما اخبرني به ال ن. ك. ڤ. د من قرار نجاتي من الموت. ولكني كما ذكرت كنت مضطربا جدا.

كان الموقف في الجبهة قد تغير بمرور الوقت. انسحب الالمان من كل الجبهات.. أما عندما سجنت انا وأصدقائي كان الاتحاد السوفيتي يواجه موقفا هو الكارثة بعينها. وذلك بفضل السياسة العبقرية لجوزيف ستالين. كان الجيش الاحمر يواجه تلك الحرب بدون جنرالات.. قادته الافذاذ امثال توهاجفسكي - ياكير - بلوجير - وآخرين لايقلون عنهم في العبقرية العسكرية.. كانوا قد اعدموا في عام ١٩٣٧م.

الذين كانوا على قمة القيادة في بداية الحرب كانوا أشباحا كاريكاتورية فقط للقواد العظام.. يعرفون فقط كيف يلعقون حذاء ستالين.. اما عن الحرب فكانت افكارهم صفرا كبيرا.

وبفضل أمريكا.. والمساعدات الكبيرة في العتاد الحربي.. والمواد الغذائية والطبية، بدأ الموقف على الجبهة في التحول لصالح الاتحاد السوفيتي.

وكان أملي الان أن لا أكون ضحية للسلطة فهي لم تعد في حاجة لمزيد من الخراف.

ومرة أخرى يتضح جليا المقياس العادي للفرق بين الرجل الاوربي في وطن غير وطنه، وظروف غير ظروفه.. وذلك لان القضية ضدي وضد رفاقي رغما عن كل شيء ستقام من جديد..!

كنت طول الليل أفكر بذلك.
فى الصباح الباكر كنت مستيقظا منذ الخامسة.. ذهبت للاغتسال، ولم يكن من الممكن حلق ذقنى ذلك الصباح.. كان بنطالى مرقعا.. لذلك انشغلت بالبحث عمن يعيرنى غيره من اصدقائى فى العنابر المجاورة.
أردت أن يكون منظرى حسنا فى المحكمة..
قبل الثامنة بدقائق كنت فى مكتب المعسكر. قادنى المدير الى جنديين توليا حراستى.. كان الوقت خريفا والطقس جميلا منعشا.. سرنا ببطء.. كنت افكر فى ماينتظرنى وكانا يدخنان ويتحدثان بصوت خفيض. اما انا فقد بدأت فى اعداد اجاباتى على الاسئلة والاتهامات المتوقعة من القضاة.. وغمرنى فجأة احساس بسعادة غريبة.. مرة اخرى سأرى اصدقائى جوزيف وجورج.. وكنت أتطلع لمناقشة الشهود وتفنيد تلفيقاتهم وتعرية مواقفهم المتآمرة.. وطاف بذهنى هاجس آخر.. هو ان يملأ الندم قلوب الشهود فيسحبون شهاداتهم الكاذبة.. ولكن ذلك لايحدث فى الاتحاد السوفيتى لان شهادة ال. ن. ك. ڤ. د شهادة لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.
كانت محكمة المعسكر تقع فى بناء خشبى من طابق واحد. وعندما وصلنا دخل أحد الجنود، وعاد بعد دقائق فقادنى الى الممر.

وفى الممر قابلت جوزيف.. ومن الشهود كان هناك روجانكوفسكى فقط.. حصر نفسه فى احد الاركان ولم يجرؤ على رفع عينيه نحوى.

وحييت جوزيف.. وبعد دقائق أحضروا جورج وبقى حرّاسه فى الخارج.. ووقفنا نتحدث بحرية وبلا حرج.. ومضى وقت قليل ثم وصل المهندس بروس الذى كان يشهد ضد جوزيف.. وكان تصرفه نقيضا لتصرفات روجانكوفسكى.. اقترب منا وحيانا.. وعرض علينا السمك المملح والخبز.. وجلسنا على الكنبة وأفطرنا.. وفى الممر ظهرت سكرتيرة المحكمة عدة مرات لترى ان كان الجميع قد وصلوا...
تحادثنا كثيرا دون ان نلقى عنتا فى رفع اصواتنا.
وظهرت سكرتيرة المحكمة لتعلن أن الجلسة أجلت حتى بعد غد، لعدم وصول الشهود. فانصرفنا بهمومنا..

وفى اليوم المحدد جئنا، وجاء الشهود ماعدا روجانكوفسكى.. فتأجلت الجلسة أسبوعا.. فانصرفنا ايضا بهمومنا.
وعند حضورنا للمرة الثالثة كنا نعلم أن الجلسة ستعقد، سواء أحضر الشهود ام لم يحضروا.. وادخلونا الى قاعة المحكمة.
أجلسونا فى الصف الاول.. وبقى الشهود فى الغرفة المجاورة.
كان الجنود المدججين بالسلاح يقفون على الجانبين يراقبوننا بعيون حادة.
وفجأة صاح أحد الجنود..
ـ قيام.
ووقفنا.. ومن الحجرة المجاورة ظهر القضاة، وعلى رأسهم كان القاضى قروهوف.. وهو رجل سيء السمعة.

وبعد قليل جاء رجل فى ملابس مدنية وآخر فى زى ال. ن. ك. ڤ. د وسكرتيرة المحكمة الشابة.

وأنعقدت المحكمة بدون المدعى العام.. ولم يكن لنا من يقوم بالدفاع عنا.. وحتى لو توفر لنا هذا الحق، فمن هو المحامى الذى يجرؤ على ارتكاب خطأ جسيم كهذا الخطأ.. ففى عهد ستالين لم يقم محام واحد بالدفاع عن متهم تحت المادة ٥٨.
جلسنا وأتخذ القضاة أماكنهم خلف منضدة مكسوة بالقماش الاحمر. وظللت اراقب قروهوف وهو يقلب الاوراق.. كنا نكرهه.. وعندما دخل لاحظت انه يعرج.. كان قصير القامة نحيف الجسم.. وظهره مقوس. كان وجهه وجه عنزة شمطاء.. وعينه اليسرى من الزجاج.
وهمهم بكلمات غير واضحة.. علمنا منها أن الجلسة قد فتحت.
إكان أول من نادوا عليه هو جوزيف..
ـ المتهم جوزيف هل تشعر بانك مذنب..؟
ـ لا اشعر بأنى مذنب.
ثم كان الدور على شخصى فنادونى.
ـ المتهم شتاينر هل تشعر بأنك مذنب لنشرك افكار الثورة المضادة بين السجناء فى معسكر نورلسك..؟
ـ لست مذنبا.. كل ذلك من تلفيق واختلاق ال ن. ك. ڤ. د، لست انا او من اصادقهم بفاشستيين.. او ثورة مضادة.
ولم يعلق احد على اجابتى، نادوا على جورج..
وسأله قورهوف..
ـ هل لك اعتراض على تكوين المحكمة..؟
ـ نعم .. لا اعترف بمحكمة فى تكوينها أعضاء وموظفو ال. ن. ك. ڤ د
وانحنى قورهوف مخاطبا من معه.. تارة يمينا واخرى يسارا..
وهمسوا له همسا طويلا.. اتجه بعده نحونا قائلا..
ـ المحكمة ترفض الاعتراض.
وبدأ الاستماع للشهود.
أول الامر قرأ قورهوف تقريرا من ثمانى صفحات.. وفى كل منهما كان يتساءل ويجيب لماذا لم يحضر الشهود الذين دعوا للجلسة.
مريض.. مات.. نقل الى معسكر خارج دائرة ال ن. ك. ڤ. د فى نورلسك.
حضر شاهدان فقط.
أحداهما كان لارنوف الذى أصر على ترداد نفس الاقوال التى أدلى بها فى شهادته السابقة عند المواجهة.
وسألت لارنوف..
ـ كيف حدث أن أطلق سراحك بعد انقضاء مدة العقوبة مع العلم بأن آلاف الرجال قضوا فترة العقوبة ولم يطلق سراحهم.
ولم يتركنى قراهوف أتم كلامى، قاطعنى قائلا..
ـ الشاهد الثانى قال انه كان مع جوزيف فى السجن وفى نفس الزنزانة..
وسمع جوزيف يروج بين السجناء احاديث الثورة المضادة.
وجاء الشاهد الثالث المهندس يروس وكان قد وصل متأخرا. وقام قراهوف بوضع أسئلة

سريعة له.. ذكر يروس فى بعض اجاباته عليها ان جوزيف يقول دائماً ـ معظم الذين حوكموا بتهمة الثورة المضادة أبرياء.
ووجد جوزيف فرصة فى النهاية ليقول شيئا.. فوصف الشهود بأنهم عملاء ال. ن. ك. ڤ د واثبت بالتاريخ والاسم ان شهودا بعينهم ظهروا فى خمس حالات مختلفة امام هذه المحكمة.
وقاطعه قراهوف قائلا:
ـ لا اسمح باساءة الشهود..
وتحدث جوزيف ايضا يقول:
ـ انا يهودى ومن العبط ان اتهم بأني انتظر انتصار هتلر بفارغ الصبر.. يجب على ال. ن. ك . ڤ. د ان يكون على علم بمصير كل من اليهودى والشيوعى اذا انتصر هتلر.
وتحدث آخرون..
أما انا فقد تحدثت عن شهادة لارنوف وروجانكوفسكى مفندا.. ثم اتيحت لى الفرصة فى النهاية للحديث رغم أن قورهوف كان يقاطعنى بنفاذ صبر.. ثم ينقر بالقلم على المنضدة.. ولم آبه لمقاطعاته.
استمر حديثي..
ـ ان أنتقاد السلطة ليس بفاشية.. وان فى العالم تتكون أفكار مختلفة جدا.. وعلى سبيل المثال وكبرهان على ما اقول.. فى الدول التى دخل الاتحاد السوفيتى حليفا لها تسود افكار مختلفة عن افكار السلطة.. ولكنها تجد الفرصة لتعبر عن نفسها.. و .. وهنا قاطعنى قورهوف قائلا:
ـ الان كفى.
ثم نهض فنهض بعده بقية القضاة وخرجوا من نفس الباب.
وبعد مضى نصف ساعة عادت المحكمة للانعقاد مرة اخرى وقرأ قورهوف الحكم.
ـ تعلن المحكمة ان الثلاثة متهمين مدانون بتهمة تنظيم مجموعة الثورة المضادة داخل المعسكر.. ولانهم نشروا بين السجناء الروح الانهزامية، وبناء على منطوق المادة ٥٨ الفقرات ١٠ و١١ حكمنا على المتهمين بعشر سنوات سجنا لكل منهم فى معسكرات العمل الاجبارية، ويفقدان الحقوق المدنية للمواطنين لمدة خمس سنوات.. انتهى.
وعندما خرجنا.. علمنا أن لنا حق الاستئناف لدى المحكمة العليا.
وودعت جوزيف وجورج.
قادونى مرة اخرى الى القسم التاسع من المعسكر ـ لنظام اقسى..
أما جوزيف وبيرقر فقد أعيدا للقسم السابع من المعسكر.

الدولة التى لاتوجد فى خريطة الجغرافيا

عند عودتى للمعسكر أخبرنى النوبتجى بأن ساشا سأل عنى عدة مرات وأنه أوصى علىّ بالحضور عنده حال وصولى.
وكان الوقت مبكراً على العشاء.. وذهبت لساشا الذى يقيم فى العنبر المجاور.. وعندما ظهرت على الباب هرع للقائى مهوولا وسألنى..
ـ كيف كانت المحاكمة..؟
ـ كما ترى. لقد نجوت من الموت.
ـ هذا هو المهم. ان الزمن كفيل بمحو كل شىء.
ـ ولكن.. يجب علىّ قضاء عشر سنوات.
وجلسنا على الكنبة.. وكان ساشا يحتفظ لى ببعض الطعام، وعندما أكلت سألنى.
ـ الا تعتقد بأن الحال سيتغير بعد النصر على الفاشية..؟
ـ مادام ستالين فى السلطة فان سجون الاتحاد السوفيتى ستمتلىء وكذلك المعسكرات.
ـ هذا مرض مؤقت، من أمراض المجتمع الجديد.
ـ ليس هذا مرضا.. ولكنها خاصية هذا النظام.
ـ فى الدول الاشتراكية يمكن أن تكون هذه ظاهرة عابرة.
ـ آه ياصديقى.. بعد موت لينين وقدوم ستالين للسلطة بدأ كل شىء يحدث تدريجيا.. علاقة حقيقية بكل ماهو اشتراكى، ثم انحرفت رابطة البولشفيك القدامى، أو لنقل انحرفوا بها.. ثم قضوا ـ ايضا تدريجيا على كل الذين بقوا مخلصين للاشتراكية الحقيقية.
ـ لماذا كل ذلك..؟ الم يكن من الاجدر ان تشاع الحرية بين الناس وستكون فائدة ذلك اكبر.. بدلا من تحطيم كل شىء.. هنا..؟
ـ اعتقد ان مايحدث هو الوسيلة المثلى للحصول على ايدٍ عاملة رخيصة لكى تقوم بالعمل فى هذه الصحراء الجليدية..؟
وصمتنا قليلا.. ثم سألنى ساشا..
ـ هل تعتقد أنت، بأن هذا النظام نوعا من العبودية..؟
ـ هذا ما لا اعتقده.. ان نظام العبودية يختلف عن نظام ستالين.. انك لايمكن ان تقارن قاطرة البخار بقاطرات الديزل.. ومن المحتمل اننى لم أستطع التعبير جيداً.. ولكنى اقول ان نظام العبودية نظام بدائى ولكنه انسانى بالمقارنة مع نظام ستالين الذى يعكس البربرية الحديثة. ان عمل الناس غير الاحرار عمل بلا عائد.. الا اذا اعتبرنا ان معسكرات العمل الاجبارية تعود بربح ما ـ ان مثل هذه المعسكرات فى كل مكان بالاتحاد السوفيتى وروسيا هى المؤسسات الوحيدة التى تعود بربح ما.. معظم المصانع تعمل بالخسارة.. اما عن الزراعة فحدّث ولا حرج .. المليارات تذهب لدعم الصناعة والزراعة فى شكل مساعدات مباشرة فمن اين تؤخذ؟ انها بلاشك هى العائد المجزى التى تجود بها معسكرات العمل الاجبارية...
ـ هذا ما تقوله أنت. ولكن كيف يمكنك اثبات ذلك..؟
سألنى ساشا هذا السؤال وهو يهز رأسه بشك كبير.
ـ لنبدأ بنورلسك.. كيف يقومون باعاشة اكثر من مائة الف سجين..؟ ان الحكومة

السوفيتية تصرف على الفرد مبلغ مائتين واربعين روبلا في الشهر.. يدخل ضمن ذلك بالطبع منصرفات الادارة والحرس الخ الخ.. ولكن المواد التموينية لاطعام هؤلاء السجناء يزرعها ويحصدها السجناء بأنفسهم في مختلف معسكرات العمل الزراعية الاجبارية.. الاسماك المملوحة التي يطعموننا بها، يصطادها السجناء انفسهم في مورنسك.
الفحم الذى يوقدون به في المطاعم.. ويشعلونه للتدفئة في العنابر من الذى يحفره من باطن الارض والمناجم.. ان السجناء هم الذين يحفرونه.. انهم يبنون السكة الحديد نفسها التي تمد وتوصل الينا الاشياء.. انهم السجناء الذين يشيدونها.. ثم الملابس التي نلبسها من يقوم بحياكتها..؟ انهم السجناء انفسهم.
حتى النسيج والخيط تنتجه النساء في معسكرات بوتيمى.. ومقابل الطعام البسيط الذى يمنون به علينا فاننا نستخرج الافا من اطنان النيكل والنحاس.. ومئات الاطنان من الكوبالت واليورانيوم. وكل هذه الخامات، او معظمها يصدّر الى الخارج وتحصل روسيا السوفيتية منه، على مئات الملايين من الدولارات.. ثم يأتي بعد ذلك من يريد اثبات ان عمل السجناء غير مربح
ـ حسنا ـ ياكاربو ـ بضربك لهذا المثل عن نورلسك استطعت ان تقنعني، ولكن كيف الحال مع مئات المعسكرات الاخرى..؟
ـ سأضرب لك امثلة عديدة.. فلنبدأ (بكوليمه) التي في الشمال الشرقي من الاتحاد السوفيتي.. هذه المنطقة كانت مثل نورلسك بعيدة عن كل تطوّر .. عاشت فيها القبائل الرعوية... ويمتهن افرادها تربية حيوان الرنة... واليوم بها معسكر ضخم يضم مليون وخمسمائة الف سجين.. معظمهم يعملون في مناجم الذهب.. هل تعتقد أن ذلك المصنع غير مربح؟

ومثال آخر.. هناك معسكر (فوركته) وبه مناجم للفحم لا اول لها ولا آخر، تعطى نوعية عالية من الانتاج هي افضل من الفحم الذى تعطيه مناجم حوض دونسك.. وهناك ايضا سكة حديد (فوركته) طولها حوالى الالفين من الكيلومترات.. وينقل بها الفحم.. وقد شيدها السجناء بانفسهم... والسجناء كذلك يعملون في حقول البترول.. وصناعة الاخشاب.. وهى من أهم الصادرات.. لا اتحدث عن جذوع الاشجار فقط.. ولكن السقالات وفلنكات وعتبات قضبان السكة حديد.. وتلك عائدها كميات كبيرة جدا من العملات الاجنبية..
فمن هم قاطعوا تلك الاخشاب..؟
ان خمسة وتسعين بالمائة من مجموع هذه الاخشاب يقطعها السجناء.. في مناشير سيبيريا.. وفي الاوراك من روسيا الشمالية.
وكل واحد من اولئك العاملين ينال مبلغ مائتين واربعين روبلا شهريا.. وفي الاجزاء الاوربية اقل من ذلك بالطبع.
ـ انك تتحدث عن المصانع والقطاعات التي تم تجريبها وانتجت للسوق.. وهذه دون شك تعود بفائدة كبيرة.. ولكن كيف الحال مع تلك الابنية الكبيرة الشاهقة..؟ افكر في بناء السكة الحديدية الكبيرة مثال (ب. أم .م) بايكال ـ آمور او خط جنوب سيبيريا من جليابنسكا والتي تخترق الاباكان.. وتقود الى الحدود المنغولية.. او خط السكة الحديد على طول

البحر المتجمد من فوركته الى اغاركه والتى تمر الى ياكوتيه.. او خط حديد تايشت ـ بارتسك ـ لينا ـ كومسمولس ـ وخطوط اخرى.. وماذا عن محطات توليد الكهرباء التى تبنى على انهار سيبيريا؟

ـ هذا سؤال آخر.. قد لاتوجد هنا ارباح مباشرة ولكن كل ذلك يموّل عمليات البناء فى مواقع أخرى.

ـ نعم هذا ما اعتقده..

ـ او بطريقة اخرى ان السجناء يمولون تلك المشاريع..

ـ ماذا..؟

هذا شىء مضحك للغاية.

ـ انا لا امزح.. وتلك هى الحقيقة.. لقد أعلن ان السجناء يمولون تلك المشاريع جزئيا.. فى البناء يعمل مائة الف سجين.. وفى بناء خطوط السكك الحديدية الكبيرة (ب. أ. ام) كان يعمل عدد مليون وخمسمائة الف سجين.. وبمجرد ان يصل السجناء الى مكان العمل يحصلون من ادارة المعسكر على كرت كتب عليه..

أعزائى..

أحيطكم علما انى بصحة جديد.

أرسل لكم عنوانى الجديد.

ب. أ. أم. صندوق بريد رقم ٢١٣١/١٦١.

أرجو أن ترسلوا لى شهريا قليلا من النقود على هذا العنوان.. حيث يمكننى الحصول على اهم المواد التموينية والسجائر.

مع تحياتى..

امضاء (×)

كان على السجناء التوقيع باسمائهم على الكروت، ثم يكتبون بعد ذلك عناوين عائلاتهم... وأقاربهم..

وكان أولئك يسارعون بارسال المبالغ ولو اضطروا لحرمان أنفسهم من ضروريات الحياة.. وبعد مرور أسبوع واحد تصل الى البنك لحساب المعسكر مبالغ من خمسين الى الف روبل.. ويندر جدا ان يحصل السجين على جزء بسيط من هذا المبلغ.

كان على السجين ان يحصل على معدل انتاج معين لمدة ثلاثة اشهر وبدون لايستحق مبلغ الخمسين روبلا التى تعطى لمن يحقق ذلك المعدل وكان ذلك تعجيزا بالطبع.. لانه لا احد يستطيع ان يفعل ذلك.. وهكذا يصبح المال من حق ادارة المعسكر.. ويطلب السجين من ذويه مالا آخر. وهكذا.. وغالبية الاهل لاينتظرون وصول تأييد استلام المبالغ ولكنهم يستمرون فى ارسال دفعات المال.

أما السجناء فليست لديهم الحقوق ليكتبوا خطابات لذويهم دون ان تقرأ مضمونها ادارة المعسكر.. ثم ان كاتب ومحاسب المعسكر هو الذى يوقع على ايصالات التسلم.. وهكذا وبطريقة ما تتجمع مئات الملايين من الروبلات التى تكون تحت أيدى ادارة المعسكر. وهذه طريقة واحدة... هل أذكر أخرى...

ـ اذا سمحت.

ـ حسنا.. فى العادة.. وفى نهاية كل عام يكتب جميع عمال وموظفى الدولة طلبات للحصول

على سلفية جديدة تمكنهم من بناء (الاشتراكية). هكذا يطلبون.. وتستجيب لهم الحكومة السوفيتية ولاترفض لهم طلبا... وتسرع فورا فى اعطائهم هذه السلفيات التى تخصم من رواتبهم على اقساط شهرية لمدة عام كامل.. اما السجناء فلا مرتبات لهم، ولذلك فهم يعفون من دفع الاقساط.. وهنا يستولون على هذه السلفية ويخصمون اقساطها من المبالغ التى يرسلها الاهل للسجناء..

وهكذا تتجمع المبالغ من هنا وهناك وتصبح مئات الملايين من الروبلات كل عام.

ـ احسب انك على حق.. ولكن..

ـ صبرا.. صبرا.. ليس هذا كل شىء.. انت تعلم فى العادة ان نهاية كل المحاكمات تنص على مصادرة جميع الاموال والممتلكات.. وبالطبع فان الذين حوكموا ليسوا مليونيرات.. ولكن لكل واحد منهم اثاثات.. ساعة.. لوحات فنية.. الخ وخاصة المثقفون.

ـ كيف ذلك..؟ هل ال ن ك ڤ د جزارون..؟

ـ طبعا.. منعوا السجناء من حمل اى شىء حتى الاحذية الثقيلة. وبهذه الطريقة جمعوا مئات الملايين.

وابتسم ساشا وهو يقول..

ـ تابع.. تابع.. ياكارلو..

ـ ساثبت لك ما اقول.. فى كل المدن الكبيرة.. وبالاخص فى موسكو توجد محلات لبيع الاشياء القديمة والاشياء الاثرية.. هنلك يمكنك شراء الاحجار الكريمة.. العقود الذهبية ـ الصور ـ الاوانى الخزفية والصينية ـ السجاء ـ الصور الاثرية القديمة.. من أين تأتى كل تلك الاشيـاء..؟ انهـا من مصـادرات السجنـاء وتجنى الحكومـة منهـا الدولارات والاسترلينى والماركات..

هذه تحقق ملايين الروبلات.. ولايجب ان ننسى النقود التى تصادر عند الحبس.

هذه ايضا يمكن ان نسميها طريقة تصفية نقية.. واقول (طريقة) تجاوزا. فان الدولة التى تمارسها دولة لاتوجد فى خريطة العالم اسمها..... ق، ى، ل، أ، ق.

وسكان هذه الدولة الكبيرة، وبناء على احصاء عام ١٩٣٨م كانوا واحدا وعشرين مليونا.. اسمهم السجنـاء.. يضاف اليهم ثمنماية الف من الاحرار هم الادارة ـ الحرس ـ القسم السياسى.. الخ الخ.

ـ كيف نظمت دول ال ق. ى. ل. ا. ق هذه..؟.

ـ لقد كنت انت وزيراً، ويجب عليك معرفة ذلك بنفسك.

ـ قد يكون غريباً فى نظرك اذا قلت لك اننى وانا الوزير السابق اجهل طريقة التركيب الهيكلى للـ ق.ى. ل. ا. ق. ويجب ان يكون فى علمك، بانه عدا ستالين وثلاثة او اربعة من وزرائه المقربين، لا يعلم احد شيئاً عن ذلك الامر.

ـ الهيكل التركيبى هو نفس هيكل الـ سوفنارك.. ولكن الاختلاف فى الاسم فقط.. ق. ى. ل. ا. ق «الادارة الرئيسية للمعسكرات» وزراؤها مختلفون.. وهى كدولة حقيقية تحتاج الى ان اعدد لك اهم اداراتها ـ الادارة الرئيسية للمعسكر.. لصناعة الاخشاب ـ لبناء الطرق ـ للمعـادن الملونـة ـ لصنـاعـة النفط ـ للمناجم الخ وهذه الادارة الرئيسية للمعسكرات ق. ى. ل. ا. ق لها مجالس برؤساء فنيين.. انها اشبه شىء بمجلس الوزراء.

- اوه !! هذا ما لن يصدقه احد في العالم..!!.
-نعم هذا شيء فظيع لان اناساً قليلين في العالم يعلمون ذلك. في موسكو يجيء مراسلوا الصحف العالمية.. ياتون لايام معدودات.. احدهم يمتدح.. الآخر ينتقد.. ماذا يمكن حصاده من تلك الملاحظات النقدية السطحية العابرة..؟ بعضهم يتحدث عن الازياء.. وكيف ان اهل موسكو لا يجارون الموضة العالمية..! والثاني يتحدث عن خلو الاسواق من بضائع الرفاهية..! والثالث لم تعجبه غرفة اللوكاندة التي يسكن بها!! الخ ذلك الهراء. هذا ما يقرؤه الناس في الخارج.. فماذ يكون تعليقهم عليه..؟ «ليس ذلك جميلا بالطبع كما عندنا ولكن لا باس به..» انهم يقولون ذلك..

وفي موسكو يقيم دبلوماسيون ذوو خبرة وحنكة.. كانوا من قبل في فينا - برلين - طوكيو روما - وهم دائماً يكتبون تقارير لحكوماتهم.. وتاخذ الحكومات تلك التقارير كحقائق موثوق بها لا تقبل المناقشة ولا يتطرق اليها الشك.. وهذا كله كلام فارغ.. ان اولئك الناس لا يملكون ادنى فكرة عن الذي يجرى في هذا البلد الذي يعيشون فيه..ربما لسنين عديدة.

- هؤلاء رجال اذكياء كيف فات عليهم ما يجرى..؟.
-لكى يعلمون ما يجرى عليهم ان يكونوا في موقفنا..!!.
— أريد ان اذكرك ان بعض الذين ساعدتهم الظروف وخرجوا من المعسكرات وهربوا خارج البلاد بدأوا يكتبون عن ذلك. احد البولنديين وكان في جزيرة سولوفكي.. كتب في بلاده كتابا عن الاشياء التي عاشها.
- هذا ماحدث.. ولكن معظم الناس لايصدقون ذلك.. وحتى الذين يصدقونه فانهم يقولون.. ان هذه اشياء داخلية تهم روسيا وحدها.. وهي لاتهمهم.
-وماذا عن السياسيين، امثال شرشل، روزفلت، سباك والاخرين، الا يحتمل انهم يفهمون حقيقة مايجرى هنا.. او حتى بعض هذه الحقيقة؟.. هؤلاء الساسة يفهمون الحقائق الاولية التي تحدث هنا.. ولكن المصالح الحقيقية لبلادهم توضع فوق كل مصلحة اخرى.. ومن المؤكد انهم لايدركون خطورة الامر، ولايعلمون مدى استشرائه وايضا انتشاره، فقد تحدث مثله غدا للمجريين وبعد غد للبولنديين وقد يحدث لخلافهم.

وتاخر الليل ونحن نتحدث.. ان تبادل مثل هذه الافكار مع ساشا جعلني انسى للحظات قصيرة أبعاد مآساتي الحقيقية، وهي انني سابقى عشر سنوات اخرى في سجون ستالين.

وعدت للعنبر أخيرا..
بقيت مستيقظا طول الليل، لم يطرق النوم او يراود اجفاني. وفي الصباح نهضت متعبا منهكا ومصابا بالصداع.
الزملاء الذين رأوني هكذا ظنوا ان انهياري مردّه للحكم الجديد عليّ بعشر سنوات اخرى.
وفي منتصف النهار احسست ببعض التحسن، فأخرجت من جيبي قطعة خبز لم استطع أكلها في الصباح.. وحينئذ فقط شعرت بالجوع.. واقترب مني عدد من المعارف.. حاولوا أن يؤاسونني وان يخففوا عني.. كانوا جميعهم يقولون.
-سوف تنتهي الحرب.. وسنكون أحرارا.

وهذا في واقع الامر جيد ومعناه ان صدور الرجال لازالت عامرة بالامل.
تعودت على عملي الجديد في كمينة الطوب، وكنت سعيدا لانه تم تحت سقف يقيني شر الطقس وويلاته. وكان العمل في العراء صعبا لبدء الليالي القطبية والبرد والرياح.. وعلى الرغم من اننا سنعمل تحت ضوء اصطناعي الا ان ذلك سيكون في مكان مقفول دافيء.. ولن نشعر بالجوع بالكثير والمفاجيء.
وجاءت عطلات نوفمبر.
لم تعمل الوحدات.. وأسعدنا ان نخلد الى الراحة لمدة يومين. وفي السابع من نوفمبر اخرجونا للساحة، لتنظيف الطرق من الجليد.. وعند هبوب عاصفة نوفمبر الباردة التي لاتكذب وعدها، كانت المفاجأة هي حضور مدير المعسكر للعنابر بنفسه وتوجيهه الامر لرئيس العمـال بأن يذهب كل العمال الى العيادة.. لان اللجنة الطبية ستجري الكشف عليهم من جديد.
ووقع هذا الخبر على الجميع وكأنه صفعة من الرياح الباردة. وحزنت انا. اذن لن أبقى طويلا في هذا العمل الدافيء السهل.. سيلقون بي الى الشدائد والمهالك مرة اخرى..؟
وطمأنت نفسي بأنني ما ازال ضعيفا.
او لعله يوجد طبيب يعتقد انني لا اقدر على العمل الشاق.. من يدري؟
وفي ممر العيادة كان علينا ان نخلع ملابسنا الى الوسط وننتظر حتى ينادوا علينا.
وجعلت اختلس النظر الى أجساد الرفاق لاقارن بيني وبينهم .. وهل يوجد من هو أضعف مني جسدا..؟ كانوا كلهم عبارة عن هياكل عظمية كسيت بالجلد.. كانت عظامهم حادة تكاد تمزق جلودهم ورغم ذلك كنت أهزلهم. ونودي عليّ.. وامام اللجنة سألوني ـ هل لديك صعوبات..؟
ـ مازلت ضعيفا.. واتعب سريعا.
وسمعت من خلفي كلمة (فتاريا) وذلك يعني (الثانية) وكدت أنهار لانهم نقلوني الى عمل أصعب.
وفي اليوم التالي جاء مدير المعسكر وقرأ بعض الاسماء.. وكنت من بينها وقال أنهم نقلونا الى وحدة السكة الحديد.
وأخذت حاجياتي واتجهت الى العنابر التي تقيم بها وحدة السكة الحديد.. وواجبها هو صيانة الخطوط الحديدية.

كنت من عمال السكة الحديد

كانت واجبات وحدتنا العملية هى صيانة قسم الخطوط حتى مسافة مائة وخمسة كيلومترات .. الى محطة فالك .. من خط دودنكا ـ نورلسك.
فى فترة الصيف قمنا باجراء العمليات الارضية وغيرنا الخطوط.. وفى الشتاء نظفنا القضبان من الجليد والثلج.
كان العمل فى الصيف صعبا لانه كان من المحتم نقل القضبان والعوارض من مكان لاخر.. وكان العمل فى الشتاء سهلا رغم ان درجة الحرارة تصل الى ستين درجة تحت الصفر.. وكان علينا أن نمر على خطوط السكة الحديد وننظف القضبان والعوارض بالمجاريف والمعاول ونكسر الثلوج المتراكمة فوق الخطوط.
كنا فى الطريق بين كمينة الطوب وفالك نتعرض للصقيع والبرد والرياح.. كان طول الطريق تسعة كيلومترات نقطعها بدون توقف، وقد جعلنا ذلك نستشعر الجوع الحاد.
وحاولت أن أعمل أكثر لاحصل على طعام اكثر.. وحتى بعد إنتهاء العمل كنت اذهب لساحة المعسكر كى انجز بعض الاعمال الاضافية المختلفة. انظف الجليد، اقوم بتكسير حطب الوقود، وكنت احصل مقابل ذلك على صحن من الصفيح زنته كيلو جرامان من العصيدة او الحساء.
وبعد ذلك جرى بينى وبين الرجل الذى يوقد المطبخ اتفاق مفاده ان اقوم وفور عودتى من العمل فى الثامنة مساء بنقل الفحم للمطبخ حتى الواحدة صباحا مقابل ثلاثة كيلوجرامات من العصيدة.
جئت وجلست فى المخزن انتظر اشارة البدء من الرجل المسئول عن الوقود حتى اذا اعطانيها قمت بالعملية المطلوبة. وكنت انقل الفحم على عربة صغيرة. وذات مرة نمت من التعب.. وكنت ساتجمد من البرد لولا ان الرجل، وكان يحتاج الى مزيد من الفحم اعطانى اشارة البدء فلم اتحرك.. وحضر الرجل ليرى ماذا يجرى ـ وبعد جهد جهيد استطاع ايقاظى من النوم. ولولا ذلك لمت من البرد. وفى المرة الثانية وعندما ناولنى صحن العصيدة، جلست على الفحم فى الركن وعندما استشعرت الدفء الذى سرى فى اوصالى نمت فورا. وفى النوم احسست أن احدا يجر الصحن من يدى ولم استطع ان استيقظ.. وعندما شعرت ان يدى فارغة بالفعل فتحت عينى ونظرت، فاذا برجل يجرى نحو الباب فجريت خلفه وقد طار النوم من كل اقطار نفسى.. وبدأت الحرب من اجل الصحن. جذبت الصحن نحوى، فجذبه اللص نحوه،، انا اجذب وهو بدوره يقاوم.. وكانت المعركة سجالا بيننا.. حتى جاء شخص من عنبرى صدفة فساعدنى على استعادة حقى.. وكنت فى غاية السعادة والهناء.
وفى احدى الامسيات طلب منى الطاهى ان احضر له حطبا جافا وكان مايطبه موجودا فى كمينة الطوب.. وظللت حتى الواحدة صباحا فى ذهاب واياب وكدت ان اموت ارهاقا وتعبا.
وعندما انتهيت رجوت الطاهى الصينى جان ان يعطينى وجبة ولكنه اعتذر بأن كل شىء لم ينته طهوه بعد.. وبعد الحاح شديد اعطانى قطعتين من السمك المملوح..
وسألته قليلا من الحساء، فكان رده ان اردت شيئا من ذلك فعلىّ الحضور فى الخامسة

صباحا لان الطعام لم ينضج بعد.
وعدت الى العنبر. كنت جائعا ومتعبا ومكدودا حتى الموت.. اكلت السمكتين في الطريق.. وبقيت حتى الخامسة اصارع الجوع ولا استطيع النوم رغم التعب.. وهرعت الى المطبخ ليعطيني الحساء الموعود ولكنه أصمّ اذنيه ولم يعطني شيئا.. ثم قال لي بعد لأيّ.
ـ لقد دفعت لك اجرك جيدا على ذلك العمل القليل الذي أديته.
وعدت الى عملي النظامي متعبا جائعا مظلوما.
نمت في تلك الليلة لاربع ساعات فقط، قمت منها وانا متعب يدغدغ النعاس اعيني بلا انقطاع.. وقررت ان لا اعمل بعد ذلك في المطبخ على الاطلاق.. لقد خدعني رئيس الطهاة وغدر بي في خبث شديد، سيكون له زادا يرويه للاخرين.
وقد عرف الصينيون بين اهل اوربا على انهم من لاعبي السيرك فقط.. وفي المعسكرات كانوا يغسلون الملابس. وكان ذلك هو حالهم ايضا في المعسكر رقم ٩ بنورلسك. وفي زمن الحرب قاسى الصينيون الجوع.. ففي ذلك الوقت كانت الوجبة الرئيسية هي القمح غير المطحون يضاف للعصيدة..
وكانت اقوى البطون لاتستطيع ان تهضم حباته السليمة.
وفي الشتاء يوم طرأت للصينيين فكرة جهنمية هي انه يمكن الاستفادة مرة اخرى من حبات القمح التي لم تهضم والمختلطة بالفضلات فجرّوا كتلا كبيرة من الفضلات اذابوها في القدور التي يغسلون بها الملابس.. وتحللت الفضلات بالماء الساخن..
وهكذا تحصلوا على القمح من جديد.. فاعادوا طبخه مرة أخرى... وكانوا يخصون بهذا الطعام الزائد ابناء جلدتهم ولست أدري من الذي وشى بهم.. وربما كان ذلك من انتشار الروائح الكريهة حول المطعم .. المهم لقد كشف امرهم.
وحرم عليهم تحريما باتا الاقتراب من مكان طهي الطعام. وأمروهم بالبقاء في أماكن الغسيل فقط وهددوهم بالعقوبات الصارمة وبالاشغال الاضافية.
وهكذا حرم الصينيون من الوجبات الاضافية.
وقد أكد البعض منهم انهم ظلوا حذرين فقط.

الاحداث المجرمون

لم تكن معاناة السجناء السياسيين مقصورة فقط على مايلاقونه من عنت الادارة وقسوة البوليس، ولكن كان هناك ايضا مايعكر صفو أمنهم ويقضّ نوم اعينهم.. فهناك السجناء المجرمون الذين يقيمون بالمعسكر ويقضون فترات السجن فى الجرائم التى ارتكبوها.

كانوا ينعمون بعيش افضل من السجناء السياسيين.. كانوا يحصلون على الاعمال السهلة البسيطة على عكس السياسيين. فكان منهم الموظفون ـ الخياطون ـ صانعو الاحذية ـ المسئولون عن نظافة المعسكر ـ وما الى ذلك.

الخطر الكبير والحقيقى كان يتمثل فى المجرمين الاحداث.

كان فى نورلسك وحدها اكثر من الف طفل مجرم تتراوح اعمارهم بين العاشرة والرابعة عشرة.

كان اغلب هؤلاء هم ابناء العائلات التى رفضت الانضمام للكولخوز من زمن المزارع الجماعية.. ثم قبض على افراد تلك العائلات ووضع ابناؤهم فى الملاجىء، فهربوا من قسوة المعاملة هناك ومن الجوع والاضطهاد. ثم كوّنوا عصابات صغيرة وعاشوا على النهب والسرقة والقتل بعد ذلك.

سكنوا فى الكهوف والمغارات، ينامون نهارا ويمارسون نشاطهم الاجرامى ليلا. انعدم لديهم الحياء والادب وذابت فى نفوسهم القيم والفضيلة.. وقد حاول ال. ن. ك. ڤ . د ان يوجههم الى الطريق المستقيم..

حسنوا لهم ظروف الحياة فى الملاجىء.. ولكن ذلك لم يساعد كثيرا.. كان عددهم اكثر من كل امكانيات.

وكان الكبار يستخدمون هؤلاء الاحداث بمهارة وذكاء.. علموهم كيف يسرقون وينهبون ويقتلون. كانوا يعيشون فى عنابر مخصصة لهم.. ولكن فرصة لقائهم بالكبار كانت ميسورة التحقق دائما.. فهم يحصلون على الطعام من نفس المطعم.

وأذكر أنه وعند وصول أول مجموعة من الاحداث الى معسكرنا، أحسسنا نحوهم بالعطف الشديد واعطيناهم من طعامنا، شفقة ورحمة بهم.. ولكن سرعان ماردوا لنا جميلنا سلوكا رديئا وسرقة ونهبا وضربا وقتلا.. كانوا مسلحين بالمدى وبشفرات الحلاقة الكبيرة.. هاجموا السجناء ــ وخطفوا طعامهم على قلته، واعتدوا على العنابر فى غياب الرجال الذين ذهبوا للعمل.. وضربوا وجرحوا المرضى الذين تصادف وجودهم فى العنابر آنذاك، فاذوهم وسببوا لهم الكثير من الالام والمواجع.

وكانوا يخطفون الخبز من الذين يحملونه لمجموعات السجناء، فكنا نختار لحمله الاقوياء فقط والذين يستطيعون الدفاع عن حملهم الثمين.

وتوصلنا الى نتيجة منطقية جدا هى ان المعالجة النفسية لن تفيد ولن تجدى مع هؤلاء النشىء الفاسدين، لان تأثير المحيط الفاسد يكون تياره اقوى من كل مقاومة كان هناك بالطبع بعض الضحايا.. من الذين قتل آباؤهم أو حبسوا بواسطة ال ن ك ڤ د وهؤلاء يظلون فى نطاق ماجبلوا عليه من خلق حسن وتربية قويمة، رغما عن كل شىء.

وفى نورلسك قابلت ابن رئيس الدائرة الحكومية الشعبية لاوكرانيا... (باناس لوبجنك).. وكان عمره ستة عشرة عاما.. وقد حاكمه ال. ن. ك. ف.د بعشر سنوات سجنا فى المعسكر.. وكل ذنبه انه ابن أسرة تهمتها العداء للشعب.
والده كان عضوا فى اللجنة السياسية لاوكرانيا.
وعندما علم والده بان عصا الاتهام ستطوله سارع بقتل نفسه وزوجته وثلاثة من اطفاله.. كانت اعمارهم تتراوح بين اثنتى عشر سنة وثمانية عشرة شهرا... اما الكبير فقد كان مع جده، ولذلك بقى على قيد الحياة، ليواجه السجن وويلاته.
وتعاطفنا معه جميعا.. بحثنا له عن عمل سهل.. وكنت خائفا عليه. ولكنى عندما قابلته بعد عامين اكتشفت انه لم يتغير، فسرنى ذلك كثيرا.
وكان هناك من هو على شاكلته.. كما ذكرت.

أصبحت طباخا رغما عن ارادتي

كان شتاء عام ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ شتاء بالغ القسوة والشدة.. ومن النادر جدا ان تصل درجة البرودة الى خمسة واربعين درجة تحت الصفر. وقد حدث ذلك فى هذا العام.
وكانت ادارة السجن مجبرة على ايقاف العمل فى العراء، لان الرجال تجمدوا من البرودة.. حتى وجوههم تجمدت هى الاخرى رغما عن دثار الصوف الذى يلفونه حولها.
كان الذين يذهبـون للعمل، هم الذين يعملون فى خطوط السكة الحديد فقط.. والتغيير الوحيد الذى طرأ بشأن هذه الفرقة، هو ان المرضى والضعفاء من العاملين فيها تم اعفاؤهم عن قطع كل المسافة بين بداية الخط ونهايته، وخصصت لهم أماكن محددة للوقوف عندها.. وكان القسم الخاص بى يقع على حدود كمينة الطوب.. فكنت اقوم بصيانة الخط ونظافته من مدخل كمينة الطوب الى مكان تغيير السكة الحديد.. ورغما عن ذلك عذبتنى الرياح وجلدتنى بعنف واحال البرد جوى الى مدينة جائعة.. رغم انى كنت سعيدا ومحسودا من الكثيرين على وجودى فى هذا الموقع البعيد نسبيا عن العراء القاتل. غيرى يعود فى العاشرة والحادية عشر واحيانا فى الواحدة. وقد ادفأنى احساسى بالقرب من كمينة الطوب بعض الشيء.. كانت القضبان تظل نظيفة عندما لاتهب الرياح. فكنت اختفى تحت السقف لبضع دقائق.
طبعا دخول القاعات كان محرما علىّ.. وكنت اتصرف فالوذ بالمكان المناسب.. حتى لا تمر المراقبة فلا تجدنى، ونصف قسمى يقع عند نقطة التحويل الثالثة.. وكان يحرسها عند مركزها ضابط من الجيش اللتونى اسمه ملباردوس.
كان ملباردوس هذا ضخم الجثة، يتحرك بصعوبة شديدة فى الغرفة الضيقة التى تقبع فى منتصف المدفأة الحديدية والمستديرة والتى كانت دائمة الاشتعال.
وعندما تمر عربات السكة الحديد محملة بالفحم وتقف أمام نقطة التحويل الثالثة يسارع ملبـاردوس بنقل مايحتاجه منها. وعندما دخلت عليه حجرته اول مرة لاستدفئ نظرالىّ مستفسرا.. فقلت له:
ـ اريد ان استشعر بعض الدفء فان اليوم بارد جدا..
ـ حسنا استدفئ. ولكن لمدة خمس دقائق فقط.. ان الدخول الى هذا المكان ممنوع.. واذا عثر عليك المفتش هنا فيسبب لك كثيرا من المتاعب.
ـ حسنا.. اعدك بانى لن امكث طويلاً
وبعد عشر دقائق من الدفء كنت اواجه رياح نوفمبر القاتلة مرة اخرى. كان الشتاء قاسيا، وكنت اقوم بتكسير الثلوج وتنظيف الجليد وازاحته عن القضبان.. محاولا الحفاظ على درجة حرارة جسمى. وعندما اتعب... ولا أتمكن من الاستمرار اسارع بالبحث عن مكان أجد فيه بعض الدفء لبعض الوقت..!!
وذات يوم كنت اقف وبيدى المعول والجاروف.. ولم ادر الى اين اتجه... كنت اعلم ان المفتش يراقبنـا مثـل كل الصيـد.. وتلفت يمينـا وتلفت يسارا... ثم تحركت نحو نقطة ملباردوس.. وما ان اوشكت على اقتحامها حتى قابلنى سادا على الطريق ليحول بينى وبين الدخول.. وفهمت موقفه جيدا.... ثم حيانى ورددت تحيته.. ووقفت امامه ارتجف كريشة

فى مهب العاصفة...
وكان وجهى مليئا بالثلج وعيناى حزينتين.
ـ ادخل... ولكن لوقت قصير.
وهرعت الى الحجرة الصغيرة قبل أن يغير ملباردوس رأيه.. جلست فى الركن البعيد حتى لا اضايقه فيعمد الى التخلص منى.. وخلعت طاقية الفراء التى كنت اشدها برباط تحت ذقنى..
واحسست بالدفء سريعا.. فخلعت البالطو ايضا.. ولكن ملباردوس التفت نحوى محذرا وهو يقول:
ـ لاتخلع ملابسك.. فأنت تعلم أنك ذاهب بعد قليل.
وحاولت بكل الوسائل ان استدرجه للحديث معى حتى اكسب بعض الوقت ولكن محاولاتى كانت مكشوفة له وباءت بالفشل.
وعندها قلت له:
ـ حسنا... لو استطعنا ان نأكل شيئا.. الان..
ـ ما الذى تود أكله.. الان..؟
ـ ربما قطعة من الخبز الاسود.
ـ نعم ـ هذا مفهوم.. ولكن اذا قدر لك ان تختار.. فماذا تطلب..؟
ـ اختار قطعا من الرقائق باللبن والكوزة والسكر.
ـ هل تأكل هذا بشهية..؟
ـ جدا.. وأحب كذلك الكيك.

وهنا.. سألنى بفضول شدد..
ـ هل كانت زوجتك تعد لك ذلك..؟
ـ بل .. من مطابخ فينا..
ـ هل انت من فينا..؟
ـ نعم..
ـ هكذا..؟ لم اكن اعلم.
وكان يراقبنى بعناية وانا اتحدث.. حدثته باسهاب عن فينا.. وأكثرت من الحديث عن الطعام وأصنافه الشهية ـ ويبدو أننى لمست وترا حساسا عنده. وكنت اتحدث بمزاج وانا استشعر الدفء.. وهكذا وفى النهاية استطعت ان اجلس لمدة ساعة كاملة.
وفى اليوم التالى حضرت ايضا.. وجلست فى ركنى البعيد.. وصمت ملباردوس ثم بدأ يسألنى عن انواع الطعام المختلفة.. وأخذت اسهب فى الحديث عن الاشياء التى اعرفها.. جيدا.. فلخرج من جيبه ورقة وقلما وشرع يسجل اسماء الوجبات المختلفة وطريقة طهوها.. وقطع علينا الحديث مفتش الخطوط. لمحة ملباردوس من بعيد، خلال النافذة الصغيرة. وخرجت سريعا وبدأت فى تنظيف الخطوط.
وعندما ذهب المفتش، دخلت من جديد الى الغرفة.

ووجدت ملباردوس ينتظرنى وهو منشرح الصدر كمن يستقبل ضيفا عزيزا.. وهمهم بترحيب..
ـ اجلس ـ اجلس.
وتابعت حديثى عن الاكل.
وفى اليوم التالى.. جاء دور الحديث عن المطعم الباريسى.. حكيت له عن حياتى فى باريس.. وكان على ان اتابع الكلام حتى لايمل صاحبنا.. فتطرقت الى اللوفر.. ونابليون.. والموناليزا.. واللوحات الاخرى المشهودة.. ولكنه قاطعنى قائلا:
ـ حدثنى عن المطعم الباريسى.. حدثنى عن الاشياء التى أكلتها فى باريس، وحدثته باسهاب، حدثته عن الاشياء التى لم آكلها فى باريس.
وكان هو يكتب فى مفكرته، وانا استدفىء.. والسعادة تغمرنا نحن الاثنين.
اما اليوم الذى تلى ذلك فقد كان عن المطعم المجرى.. كنت اعرف منه فقط اللحم المطبوخ بالطماطم.. والسمك المطبوخ بالطماطم والشطة.. اما بقية المأكولات فقد اخترعتها.. وبرعت فى ذلك.. وراقبت ملباردوس وهو يدون تلك الاشياء بجدية تامة..وفكرت.. كم سيندهش المجريون عندما يطلعون على هذه المفكرة ويرون انواع الطعام التى جعلتهم يأكلونها.
وما ان توقفت قليلا لالتقط انفاسى، حتى حدثنى ملباردوس بأن الوقت قد انتهى .. وكثيرا ما كان يفاجئونى وهو ينظر خلال الشباك قائلا:
ـ المفتش قادم..
ـ فتش القضبان..
وعندها أخرج سريعا من الغرفة.. وابدأ فى اختراع الوصفات الطعامية لكى ادخل مرة اخرى.. واستدفىء قليلا.
وكان لملباردوس عذره فى تحريم دخول الاجانب الى غرفته.. فقد كانت تستخدم كوكر للمطارحات الغرامية.. وكعش للعشاق يلتقون فيه لقاءات حميمة ساخنة.. وكثيرا ماكنت ارى امرأة تدخل الى الغرفة خلسة ثم يتبعها رجل بعد قليل. ويخرج عندها ملباردوس متصنعا انه ينظف نقطة التحويل..
كان الذين يمارسون الحب مع عشيقاتهم فى حجرته هم الطباخون.. فكان يحصل بذلك على قليل من الطعام.
وفى يوم كنت استدفىء عنده فى الغرفة عندما دخل الطاهى وجلس على الكنبة واثناء حديثه مع الطاهى أشار ملباردوس نحوى قائلا:
ـ هذا طباخ من فينا.
وارتبكت.. وسألنى الطاهى اين كنت اعمل.. ولم أعرف كيف ارد عليه... ولكن ملباردوس اجابه مباهيا بأنى عملت طاهيا فى مطاعم كثيرة.. واخذ يعدد له المطاعم التى ذكرتها له واحدا واحدا.
وذات يوم وانا استلقى على الكنبة فى العنبر بعد يوم عمل مرهق، رأيت ساعيا من ادارة المعسكر يسأل رئيس العمال عن شىء.. وكان وصول الساعى دائما يعنى حدثا جديدا.
ورأيت رئيس العمال يهز منكبيه.. ثم يصيح فينا..
ـ انتباه.. الهدوء

وصمت جميع من في العنبر، كأن على رؤوسهم الطير.
ـ هل يوجد عندنا في الفرقة طاهي..؟
ولم يجب احد.
ـ انظر بنفسك لايوجد طهاة هنا.
قال رئيس العمال ذلك بانتصار وهو يدفع الساعي بعيدا.
وتنفست الصعداء.. لاني كنت احس بان ذلك الامر يعنيني في الدرجة الاولى.. ولابد ان تكون له علاقة بالطاهي الذي تعرفت عليه عند ملباردوس.. وعاد الساعي مرة اخرى.. بعد ربع ساعة بالضبط.. فتح الباب ومعه الطاهي الذي كان في غرفة ملباردوس. وخفت ان تسوء العاقبة. وتمنيت ان تغطس بي الارض.. ولكن الوقت كان متأخرا على ذلك. لقد لمحني الطاهي..

اشار نحوي بيده قائلا:
ـ هذا هو..
ولم اتحرك من مكاني.. جمدت وسكنت أوصالي.. ولم ادر كيف أخرج نفسي من هذا الموقف الحرج.
ووقف رفاقي يصيحون...
ـ نعم.. نعم .. انه من امهر الطهاة.. خذوه..!
وفجاة وجدت رئيس العمال بالقرب مني، يسألني بغضب..
ـ لماذا لم تقل انك الطاهي المطلوب..؟
ـ انا لست طاهيا..
قلتها مدافعا عن نفسي.. ولم يصدقني احد.
كان لزملائي بالطبع دافعهم الخاص للزج بي في غمار هذه المهنة.. انهم يتوقعون ان يحصلوا مني على كميات اوفر عندما اكون قرب الطعام.
وفي طريقي الى مكتب المعسكر كنت أفكر كيف أخرج من هذه الورطة.
واستغرب الطاهي.. لم يستطع أن يفهم لماذا لا اريد أن أعمل في مهنتي التي أجيدها ـ وهي الطبخ ـ وقد ظن الامر تمرد مني.
واخذ يقنعني بأن وضعي سيكون افضل.. فسأكون ممتلىء البطن على الدوام وثانيا سأتمتع بالدفء. ولكني اعتذرت بشدة.. فأخذوني الى مكتب مدير المعسكر بنسرنوق..
وهناك كان رئيس المطعم بارسوكوف وحال دخولي الغرفة توجه الطاهي
ونظر الى المدير، من راسي الى اخمص قدمي.. وسألني..
ـ منذ متى وانت تعمل طاهيا..؟ وماهي الاماكن التي عملت بها..؟
ـ هناك خطأ في الأمر.. وبعض الخلط.. انا لست طاهيا..؟
ـ هذه اول مرة في حياتي أسمع بهَذا.. اذ ان الجميع في الغالب يدعون بأنهم يجيدون الطهو.
ثم التفت المدير الى رئيس المطعم قائلا:
ـ هذا رجل أمين ـ أفصل كوزينيكوف فورا وخذه مكانه.
وقلت لمدير المطبخ..

ـ انا لا افهم في الطبخ..
ـ أسمع اذا لم آخذك الان سيقول المدير بأني احتفظ في المطبخ باللصوص هذا هو الموقف وعليك تقديره جيدا.. ومن ثم يجب أن تعمل بالمطبخ.. المهم أنت ستتعلم بسرعة.. ان عمل الحساء والعصيدة عمل سهل جدا.
لاحظت ان وصولي الى المطعم سبب اضطرابا كبيرا بين العاملين فيه.. كان معظمهم من المجرمين واللصوص.. نظروا الى بأستغراب شديد.. واقترب مني العاملين.. واخذوا يوجهون الى العديد من الاسئلة.. ارادوا ان يعرفوا اى نوع من الطباخين انا.
وباقتضاب شديد، اوضحت لهم بأنه لا فكرة لي في صناعة الطعام.. فبدأت عليهم علامات السرور والابتهاج بصدقي ذاك، وبأني لن أكون منافسا قويا لهم.
في البداية كنت اغسل القدور.. القدور التي تسع من خمسمائة الى الف لتر من الطعام.. وكان هذا العمل اصعب كثيرا من العمل في خطوط السكة الحديد.
كان علي ان انحني حتى ينقصف ظهري لاغسل باقي العصيدة المحروقة التي تلصق عادة بقعر القدور، مستعينا بقطعة من القماش والحديد. كنت افعل ذلك بجهد شديد فيسيل مني عرق غزير.. وكنت افقد شهيتي للاكل بعد ان انهي هذا العمل الشاق.. وكان الطباخون يخصون انفسهم بوجبات خاصة يصنعونها في الخفاء.. وكانوا في البدء يموهون على هذا الامر.. ثم اطلعوني على سرهم عندما اطمأنوا الىّ فشاركتهم اكل اللحم المغلي، وشوربة اللحم، والشواء، والمعلبات، والبطاطس المجفف والخضروات التي كانت تأتي من الولايات المتحدة.. اما السكر فكان يأتي من كوبا. ـ
في زمن السلم، لم يكن الطعام جيدا.. كما هو الان.. فان السلع الاجنبية تأتي الى نورلسك.
بالطبع، كان اعداد طعام خاص بالطهاة ممنوعا قطعيا.
مدير قسم المعسكر بانسرني كان مصدر رعب حقيقي لافراد المطعم.
وعندما يحضر الى المطعم، كان يبحث في الاركان مسلطا ضوء مصباحه الكهربائي على الاركان، عله يجد أية مؤن مخزونة. والويل كل الويل لمن يقبض عليه متلبسا بجرم من ذلك النوع... كان يرسل في الحال الى زنزانة الحبس التأديبية (كاربسر) ومنها الى الاعمال الشاقة.. وعلى الرغم من كل ذلك التدقيق والمراقبة فان الطهاة كانوا يفعلون مايريدون.. يسرقون، وبكميات كبيرة، احسن المواد التموينية.. من الدهون وبدرة البيض.. فيوزعون جزءا منها على بوليس المعسكر ورؤساء الحرس.. والباقي لعشيقاتهم.
وكان مما يشرف الطاهي ان تكون له امرأة.
وعلى الدوام هناك احد من ادارة المعسكر او الوحدة العملية (يعسكر) في المطعم.. ولكن اولئك النوبتجية ماكانوا يلقون بالا لما يجرى من عمليات النهب والاختلاس للمواد التموينية.. هم انفسهم كانوا يودون الحصول على شيء من ذلك يدخرونه لايام الجوع القاسية.
اما المدير الذى كان يأتي بنفسه لتفقد الاحوال في المطعم، فأنه دائما يسأل رئيس الطهاة هل هو مسرور بعملي.. فكان يسمع ثناءا حارا علي.. وعندها يجيب المدير بنفس الجملة..
ـ الم تر..؟ لقد كنت على حق عندما قلت لك خذه..!

وبمرور الزمن اعتدت على عملى الجديد.
وسرعان ما اعترفوا بى كطاه.. على الرغم من انى كنت اقوم بطهو العصيدة والشوربة..
وفى ذات يوم اردت ان آكل شيئا.. وقالوا لى ان اقوم (بتحمير) شىء من السمك. وعندما اخذ السمك فى النضج ظهر فى المطعم · انسرنى، وسألنى:
ـ لمن تطهو هذا السمك؟
ـ للطباخين ايها المواطن المدير..
ـ لقد بدأت اذن تفعل عمل الخنازير..
ـ هذه نفس السمكة التى يأكلها كل السجناء.. ولكنها مطبوخة فى قليل من الدهن.
ـ يخيل الى.. انك بدأت تكون ذكيا اكثر مما يجب
وهددنى قائلا: اذا رأيتك مرة اخرى تفعل شيئا كهذا فسوف تذهب لتحفر الطين للطوب.
وعاد بعد ايام للمطعم.. وتوجه نحوى فورا وهو يقول..
ـ الا تقلى اليوم سمكا..؟
وصمت ـ لم احر جوابا..
واخذ المدير مصباحه الكهربائى وبدأ يفتش اركان المطعم ركنا ركنا.. ولكنه لم يجد شيئا..
وعندما هم بالخروج رفع جوال القمح ونظر بداخله..
ـ ماهذا..؟
وعندما نظرت معه داخل الجوال.. رأيت اناء به قطع من خبز الدقيق الابيض.. كنت ارى ذلك للمرة الاولى.. ولا علم لى بمن وضعها هناك.
وصاح المدير قائلا..
ـ على من النوبتجية اليوم..؟
ـ انا.. انا.. ايها المواطن المدير..
ـ أنزع المريلة.. واختف ـ من المطعم فورا.
وكان وجهه قد احمر من الغضب.
وأستجبت لما قال فى صمت.. كنت أعلم بأن اى توضيح لن يجدينى فتيلا.
وخرجت مطاطىء الرأس من المطبخ.. آلمنى أن أفقد عملا سهلا بمثل هذه الطريقة البلهاء..
لم اكن اعلم بالطبع من هو الطاهى الذى صنع ذلك ومتى اعد هذا الخبز وانضجه..
ولكنى فيما بعد علمت من هو.. كان من زمن يسعى لابعادى عن الطعام.
وفى المساء ذهبت للمدير أسأله عن الوحدة التى سأعمل بها.
ولكنه قال لم يستلم تعليمات بشأنى، وعلىّ أن أعود للفرقة التى كنت اعمل بها
وكنت انتظر بالطبع العقاب.. وهو وضعى فى المجموعة التى تقوم بالحفر فى الطين.. كما هددونى من قبل، وكما هو معلوم فى مثل تلك الحالات..
ولكن يبدو أن بانسرنى لم يكن مقتنعا بأنى مدان.

اصبحت عاملا للتحويل فى السكة الحديد

وجاء مارس.. اخيرا.
مضت ثلاثة اشهر هى أسوأ الشهور على الاطلاق.. شهور عجاف باردة.. قاسية.. مميتة..
ومارس فى نورلسك ليس هو شهر الربيع.. ودرجة الحرارة فيه دائما ماتكون اربعين درجة تحت الصفر.
وهى كثيرة ولكنها بالقياس تكون اكثر احتمالا.

وقابلنى الرفاق بالكثير من الترحيب.. فعندما عملت بالمطعم كنت اعطيهم كميات اضافية من الطعام.. ولم ينس احد منهم ذلك.. وان كانوا قد اسفوا على عدم استمرارى فى عمل المطعم.
ومرة اخرى بدأت أعمل فى المرور على قضبان السكة الحديد.. بالجاروف والمعول..
لم ازر بالطبع ملباردوس لان القسم الذى كنت اقوم فيه بالعمل كان يقع بالجهة المعاكسة.
وكنت استدفىء فى حجرة التغيير للقطارات رقم خمسة.. وكان المحولجى الذى يعمل بها، قليل الواجبات الوظيفية.. وكان يشكو الملل، لذلك فلم يمانع أبداً فى مجاذبتى اطراف الحديث.
وفى صباح يوم، تركت العمل كالعادة، وهرعت الى الحجرة الصغيرة التماسا لبعض الدفء ولاخذ معداتى التى كنت اترك بعضها هناك.. وقال لى المحولجى بان الشخص الذى يستلم منه العمل لم يأت بعد.
وبعد مرور ساعتين عدت له مرة اخرى فوجدت (غياره) لم يأت بعد.
فطلب منى ان اعمل مكانه لفترة قصيرة من الزمن لانه يجب ان يذهب بنفسه فى طلب غيار من رئيس المحطة.
واخطروه تلفونيا بأنهم سيرسلون من (يغيره).
ومر وقت طويل ولم يأت احد. فتركنى مرة اخرى وذهب.
وبعد نصف ساعة عاد ومعه عامل التحويل فى السكة الحديد.. وسألنى هذا فى الحال..
ــ هل تريد ان تصبح محولجيا.
ــ ولكنى لم اقم بعمل مماثل من قبل.
ــ اسمع.. بناءا على المحادثة التلفونية ستكون محولجيا.. سنفيدك بالتلفون ماذا تصنع..
قضيب نمرة كذا، وقضيب نمرة كذا.. فى اتجاه كذا وكذا. وسنعطيك تعليمات مكتوبة..

وهكذا تم الامر.
كنت فى كل أمسية، وبعد انتهاء العمل اذهب لمحطة السكة الحديد لاتعلم شيئا جديدا يساعدنى على اداء عملى الجديد، من رئيس المحطة، ومر اصدقائى ــ يوما من الايام ــ فرأوا الاعلام فى يدى وانا اشير للقاطرات واتحكم فى تحويل مسارها.. فلم يصدقوا اعينهم.
وبقيت عاملا للتحويل فى السكة الحديد.
وكانوا قد بدأوا فى بناء عنابر كبيرة ــ هناك عند آخر المعسكر.
ولم يكن ذلك يعنى شيئا جديدا، لان المعسكر كان يتوسع بلا انقطاع..
لفت انتباهى ما كان يقوله العمال فقط.. واثار فضولى.

ـ ان العنابر تبنى بطريقة جديدة..
كانت حجراتها ضيقة وعلى النوافذ والابواب قضبان حديدية قوية..
ـ لعلها ستصبح سجنا هي الاخرى..!
وبدأ السجناء في الاستنتاج والتخمين.. قالوا انها ربما كانت عنابر للعزل كما في القسم السابع للمعسكر. واذا كان ذلك صحيحا فان لي الحق في التخوّف.. فمعنى هذا ان الامور ستكون اشد صرامة وقسوة.
ولكن سرعان ما انتشر خبر جديد مفاده أن العنابر معدة لكبار ضباط الالمان الفرماخت.
وعندما انتهت العنابر، علمنا ما الامر.
فقد وصلت من دودنكا سفريات مخصوصة بها مجموعات كبيرة من الرجال.
وعندما بدأوا في تفريغها لم يسمحوا لاحد بالاقتراب من قضبان السكة الحديد.
ولكن من على البعد كان بالامكان رؤية الزى العسكرى للجيش الالمانى.
وبعد اسابيع علمنا اشياء اضافية عن السجناء الجدد.
نقلوهم للعمل في حفر الطين لكمائن الطوب.. اما الذين كانوا يقومون بذلك العمل منا، فقد نقلوهم الى مواقع جديدة.
ومن على البعد ـ كما ذكرت ـ كنا نراقب كيف يقودونهم للعمل.. كان الجميع يرتدون زيا موحدا.. ويضعون على رؤوسهم قبعات متشابهة.
وكانت على ظهورهم وقبعاتهم ارقام كبيرة ظاهرة.
وكانوا يخرجون للعمل من باب مخصوص.
وعن طريق المرضى الذين يأتون من المستشفى علمنا بان اولئك السجناء هم (كاتورجانى).. نوع جديد من السجناء.. يشكلون اولئك الناس الذين تعاونوا او تعاطفوا مع الجيوش الالمانية عند قدومها وعند انسحابها.. ولم يتم اعدامهم في الحين.
القى ال. ن. ك. ف. د عليهم القبض. وحاكمتهم المحكمة العسكرية (كاتورقو).. وكان معظمهم من عمداء المدن.. ومن القرويين.. والجنود والبوليس.. والمعلمين.. الخ.
اما الالمان الذين كانوا معهم فانهم بقية الذين وضعوا في معسكر الابادة ولم يستطيعوا الهروب منه في الوقت المناسب.
وسرعان مابنيت عنابر مشابهة.
المجموعة الجديدة التى شغلتها كانت من النساء.. وهن ممن كانت لهن اتصالات مريبة بجيوش الاحتلال.. كما كانت لبعض الرجال السابق ذكرهم.
وبعضهن كانت لها علاقات حميمة مع الضباط الالمان.
وممن القى عليهن القبض بعض العاملات.. اللاتى عملن في غسل ملابس الضباط الالمان.. او عملن عندهم في اعمال النظافة وما اليها.
ولاول مرة نرى سجناء سياسيين من مجرمي الحرب.
وذات يوم نجحت في التحدث الى ضابط المانى.. كنت اعمل في نقطة تغيير الخطوط.. وكانت هناك مجموعة من ال كاتورقاش تقوم بتفريغ الحطب من عربات السكة الحديد التى وقفت بالقرب من منطقة عملى.
سمعت شخصان منهما يتحدثان مع بعضهما.. ومن لهجتهما علمت أن أحدهما المانى.. وحتى لا اثير شبهة الحرس أخذت الجاروف وتصنعت بأنى أنظف المكان العالى.

وكنت من حين لآخر القى نحو الالمانى كلمة المانية.. ولقد اندهش الرجل جدا واستغرب وهو يسمعنى اتحدث الالمانية.. فسالنى:
ـ كيف حضرت الى هنا..؟ هل انت المانى..؟
وباقتضاب اوضحت لهم من انا وكيف حضرت الى هنا.. وسألنى بلهفة..
ـ هل معك سجائر..؟
ـ لست من المدخنين ولكنى سأبحث لك عن شيء تدخنه.
وانسحبت بهدوء فقد رأيت أحد الحراس وهو يراقبنى. وذهبت الى القسم الذى يقومون فيه بعملية صب الطوب، ورجوت احد معارفى ان يعطينى دخانا.. ثم وضعت ما حصلت عليه فى علبة ثقاب واخذت الجاروف واقتربت من المجموعة.. وأخذت أتحين الفرصة لاعطى الالمانى الدخان دون أن يرانى احد. وما ان لففت علبة الثقاب واردت وضعها على الارض حتى سمعت صوت الجندى يصيح بى:

ـ هيه.. ماذا تفعل هناك..؟ هيا اختف من هنا..
فاستدرت منصرفا الى حجرتى. ومن خلال النافذة رأيت أن الالمانى يحدق فى اتجاهى.. ولكنى لم استطع ان افهم اشاراته.
ولقد سألنى موظف المحطة عن سير عملية تفريغ الحطب، فانتهزت هذه الفرصة لاقترب من عربات القطار مرة اخرى.
وفى اللحظة التى التفت فيها جندى الحراسة للجانب الآخر واعطانى ـ ظهره، القيت علبة الثقاب بالقرب من المجموعة.
وبعدها، ومن خلال النافذة رأيت كيف يحاول الالمانى الاقتراب من علبة الثقاب مرات عديدة.. كان كلما تقدم خطوة نحوها انتهره الجندى ليظل بعيدا عن خط السكة الحديد..
وبعدها حاول رجل آخر نفس المحاولة..
وأخيرا نجح.
وقد خشيت ان لايستطيع المدخن كبح جماح نفسه فيعمد الى اشعالها.. وعندها.. الويل لى. لان الجندي سيدرك فورا لماذا كنت الف وادور حول المكان..
ولكنهم لم يدخنوا.. ولا ادرى ما السبب. لعلّه بسبب الحذر.. ولعله بسبب انهم لايملكون عود ثقاب..
على كل حال لقد نجوت.
وقد باءت بعد ذلك كل محاولاتى بالفشل لان احادث احدا من ال كاتورقاشى لان الجنود كانوا يراقبون بدقة فائقة.
ومرة اخرى عملوا قريبا من نقطة تغيير الخطوط.. وفى حجرتى دخل احد الجنود يلتمس الدفء.. وعندما حاولت الخروج لالتقى ببعضهم حذرنى بأنه من غير المسموح به الوقوف بالقرب منهم.. ولم أحاول المستحيل.. وكذلك لانى لم ارد أن ازرع الشك فى نفسه نحوى.
سرعان ما تخلى عنى الحظ..
فى يوم مر ضابط ال ن. ك. ڤ. د المسئول عن القسم التاسع، وكنت اقوم بعملى كالعادة.. وقد حاولت الاختفاء ثم تذكرت التعليمات التى تنص على ان يبقى المحوجلى بجانب نقطة تغيير الخطوط وينتظر المسئول ويطلعه على عمله... فوقفت مكانى.. وعندما وصل الى

تقدمت بضع خطوات فى اتجاهه ووقفت قائلا:
ـ التغيير نمرة خمسة العامل شتاينر كل شىء على مايرام.
وعندما سمع اسمى سألنى بحدّة..
ـ شتاينر؟ كيف وضعت فى هذا العمل..؟
ـ لقد اصبحت محوجليا بمحض الصدفة..
ـ شىء مثير.. اذن من الذى بقى دون ان يصير محولجيا..؟
قالها بسخرية شديدة.. وتقدم فى اتجاه التلفون..
وسمعته يخاطب رئيس المحطة..
ـ اسمع.. ارسل احدا ليستلم العمل فورا من المحولجى فى المحطة نمرة خمسة.. ومن مكانك هذا..!
وهكذا عدت مرة اخرى للجاروف والمعول.. وحتى فى هذا العمل لم أمكث طويلا لان ضابط ال. ن. ك. ڤ. د اكتشف مكانى.
كان على ان اجمع حاجياتى سريعا استعدادا للمرحلة الجديدة.. ولم يكن لدى من الوقت مايكفى.. ولذلك ودعت رفاقى بصعوبة شديدة.
وكنت امتلك بعض الاشياء خلال اقامتى فى القسم التاسع من المعسكر. ملابس داخلية.. علبة من الصفيح.. ملعقة خشبية.. غطاء..
وقد حصلت على علبة الصفيح ايام عملى فى المطعم من بقايا احدى المعلبات الامريكية.. اما الملعقة الخشبية فاننى دفعت فيها ستين ديكاجراما من الخبز. وكذلك الملابس دفعت فيها اربع وجبات من الخبز. والغطاء كان هدية من ساشا فيبر. وضعت كل اشيائى فى كيس امريكى كنت قد غسلته جيدا من قبل. واقتادونا للحمام، حيث فتشنا بوليس المعسكر تفتيشا دقيقا.. وصادروا الملابس الداخلية على اعتبار انها من ممتلكات الدولة.
علبة الصفيح والملعقة الخشبية احتفظت بهما بعد لاى.. وانقذت الكيس بصعوبة شديدة. وسرنا بمرافقة بوليس المعسكر نحو باب الخروج.
ووقفنا ننتظر لفترة طويلة حتى يتسلمنا الحرس.
كنا نتساءل الى اية جهة بسيقودوننا..؟ كنا امام الباب حوالى الاربعين سجينا.. كل منا حاول ان يخمن الى اين يذهبون بنا.. وبعدها عرفنا آننا كنا جميعا مخطئين..
كان الظلام قد اطبق.. فساروا بنا بسرعة فائقة.. ودون رحمة وهم يستحثوننا.
ـ سريعا.. سريعا..
وردّدت هذه الكلمات حتى الكلاب المرافقة فى عوائها ونباحها المخيف.
واخيرا وفى محطة السكة الحديد حصرونا فى الركن..
وانتظرنا..
حشرونا فى عربات القطار التى تقفل من الخارج كالحيوانات.. ولمسافة مائة وعشرين كيلومترا سار بنا القطار مستغرقا اثنتى عشر ساعة..
وكانت الساعة الثامنة صباحا عندما وصلنا الى دودنكا...
دودنكا!! لم تخطر ببال احد منا.

فى دودنكا...
كيف شربت الفودكا بشهية

لم ار دودنكا مرة اخرى منذ ١٩٣٩م الا اليوم فقط.. لقد حدث فى هذه الخمس سنوات تغيير كبير جدا.. ما كل هذه المعسكرات الكثيرة للسجناء التى ازدحم بها المكان..؟
فى الدقائق الخمس التى يقف فيها القطار منتظرا اشارة المرور، استطعت ان استرق النظر من خلال فتحة صغيرة فى العربة.. كانت العنابر تشبة عنابر القسم التاسع فى معسكرنا بنورلسك.. النوافذ ذات القضبان الحديدية والابواب المكسوة بالصفيح.. السلك الشائك الذى يحيط بالمكان ترادفت صفوفه.. ابراج المراقبة العديدة المربوطة بشبكة تلفونية.. كل شىء تغير.. كل شىء..

فى المحطة فتح الجنود ابواب العربات.. فى الطريق الى المعسكر كانت هناك حركة بناء متصلة.. مجموعات تبنى بوابة خشبية كبيرة من خلال بابها الواسع امتدت قضبان السكة الحديد.. علمنا انها مخازن جديدة.

على بعد خمسمائة متر من محطة السكة الحديد كان يقع القسم الجديد الثالث والذى وجدوا لنا فيه مكانا بصعوبة شديدة.. نحن الاربعين.
هنا، كل السجناء يعملون فى السكة الحديد. وفى احد العنابر الاربعة كان يسكن المسئولون عن الماكينات وسائقو القطارات والمحولجية كانوا كلهم من المجرمين ويذهبون للعمل بدون حراسة.

وفى العنبر الثانى كان يسكن عمال الورشة، وهم خليط من المجرمين والسياسيين.
أما فى العنبر الثالث فكان يسكن العمال الذين يعملون فى خطوط السكة الحديد.. وحشرونا فى ذلك العنبر.

فى العنبر الرابع كانت القيادة، وقاعة استعملت كغرفة للمرضى. وقد قسم نصف العنبر الى قاعتين.. فى احداهما اسكنت اثنتا عشر امرأة، كن يعملن فى السكة الحديد.. اثنتان منهن فقط سياسيتان والبقية مجرمات.

وفى النصف الاخر كان يسكن موظفو المعسكر.
من الوهلة الاولى استطعنا ان نتبين الفرق بين معسكرنا فى نورلسك وهذا المعسكر.. كان السجن هنا مرحا اذا صح التعبير. ففى نفس اليوم سمحوا لنا بان نشترى الخبز وبعض المواد التموينية الاخرى.. وفى العشاء تنازل لنا الكثيرون عن حسائهم.. ورأينا بعضهم يشرب الشاى بقطعة كبيرة من السكر، وكانوا ياكلون مع الشاى الخبز الابيض الذى صنعوه بانفسهم.

ولقد استغربنا ذلك فى البداية.. ولكن بعد فترة علمنا من اين تاتيهم كل تلك الخيرات.. كان الذين يعملون فى السكة الحديد ينهبون العربات المحملة بالمواد التموينية.

لم نعد نحس بالجوع بعد ذلك.. ولقد ادركت لماذا يتطلع الكثيرون فى نورلسك الى دودنكا.
كانت مجموعتنا تعمل فى حاجز الردمية للسكة الحديد. كانو، قد وضعوا خطوطا جديدة

توصل لميناء دودنكا على نهر الينسى.. وقد استوجب ذلك تغيير الخطوط القديمة، على ان يتم العمل قبل حركة الثلج فى النهر.. كانت تلال الثلج تمتد لاكثر من مائتى مترا فى عمق الشاطىء.. ولو اصاب الثلج القضبان لسبب فيها التواءات واعوجاجات.. فكانوا يضعون بعض اليـايات حتى يسهل اهتزاز القضبان دون ان تتعرض للمقاومة.. وكانت الثلوج عندما تدفع مع حركة الموج تسحق كل ما يقف فى طريقها وتهشمه كانه علبة ثقاب.. كثير من المنازل اختفت وكأنها لم تكن.

عندما كنا نقوم بالعمل فى تركيب القضبان، نجد انفسنا دائما فى عمق الماء.. ولذلك فقد كانت السرعة حيوية لنا.. وكانوا يحتسون الفودكا لم يفعل السجناء بالطبع بل فعله الحرس ورؤساء العمال... ولما كانت الفودكا هى الحافز لنا لكى نسرع ونحن فى الماء وحتى لانتجمد من البرد.. فقد شكونا لرئيس قسم السكة الحديد ذلك.. فوعدنا بأنه سيحضر هذا التوزيع بنفسه.

وفى اليـوم التـالى قسموا علينا الفودكا بحضور مدير السكة الحديد فى فترة وقت الظهيرة.. احضر بنفسه الفودكا ووقفنا فى صف واحد.. حمل رئيس العمال الزجاجة بيد والكوب باخرى.. وتقدمنا واحدا بعد الآخر.. وبدأ رئيس العمال يصب لنا ونحن نشرب.. وكانت متعتنا فوق كل متعة أخرى.. وتلمظ بعضنا بتلذذ شديد. وسأل بعضنا..

ـ كيف المشروب..؟

ـ فوق التصور..

لم يكن احد ليجرؤ على القول بأننا شربنا ماءا عاديا من نهر الينسى. كان عملنا فى الميناء.. وكان عملا جيدا نؤديه بروح عالية لاننا كنا نعمل بغير حراسة.

ولكن الميناء نفسها كانت محاطة بالسلك الشائك.. وعلى طول خط الاسلاك الشائكة كانت تقف ابراج المراقبة التى يتابع منها الجنود تحركات الجميع..

والميناء نفسها كانت تحتل منطقة كبيرة فيها مخزن البضائع التى ترسل بالسفن الى نورلسك.. واحيانا يضيق بها المخزن فترقد فى العراء..

ومن ذلك ايضا جوالات الدقيق.

كان السجناء يعملون فى كل اقسام الميناء تقريبا.. ماعدا (ال كاتورقاش) وفى هذه المنطقة بالذات كان يعمل اكثر من خمسة الاف سجين وطليق.. كلهم يعملون معا لاتختلف ملابسهم ولا هيئاتهم.. السجين كالطليق والطليق كالسجين.. حتى الرجال والنساء كانوا يعملون مع بعضهم البعض فى موقع واحد.

فى اوقات الراحة عند الظهيرة كان بامكاننا التمشى فى الميناء بحرية تامة. وقد تعرفنا على احوال الميناء فى ايام قدومنا الاولى... وكان البعض يتعلم بسرعة.. تعلموا ايضا كيف يسرقـون.. عادوا وجيوبهم مملؤة.. السكر، الدقيق، المعلبات، وبعض المواد التموينية الاخرى التى كانوا يسرقونها بسهولة شديدة.. ومن لم يحمل فى جيوبه شيئا كانت بطنه مليئة بكل مايشتهى.. الجوع هنا غريب وغير معروف.

رغم التفتيش عند الخروج من الميناء كانت الاشياء تتسرب وتصل لمن يستطيع ان يشتريها.. راجت التجارة بالطبع. وكان بالامكان شراء الخبز والسكر والصابون، بل وحتى الكلونيا.. وكان بوليس المعسكر يفتش العنابر ويصادر باستمرار.. ولكن سرعان ما تحل

بضائع اخرى بدل تلك المصادرة.. السرقة ذاتها اصبحت شيئا مألوفا وتغيرت النظرة الاخلاقية اليها.. المهم هو خفة اليد.. عندما كنا في نورلسك كنا نتمنى العمل داخل المعسكر، اما في دودنكا فالامر مختلف جدا.. من النادر ان تجد سجينا يود البقاء في المعسكر. كلهم يفضلون العمل في الميناء بدون اى اعتبار لنوع العمل وصعوبته.

وذات يوم تم تعييني عاملا (كبياتلشجك) للماء الساخن. كان عملي هو تسخين الماء يوميا في الصبح والظهر والمساء.

كان المكان الذى يغلي فيه الماء يقع في العنبر الصغير.. وقد وضعت فيه قدرين كبيرين.. ووضعت سريرى في الركن.. في الغرفة المجاورة وضعت اربعة اسرة يقيم فيها بعض موظفي المعسكر ـ احدهم كان رئيس الحرس، والثاني من البوليس، والثالث امين مخازن المواد التموينية، اما الرابع فهو الكسندر بوشكو.. مدير قسم الترحيل بالسكة الحديد.

كان الاربعة يتجولون بحرية وبدون حراسة داخل المعسكر.. وكان واجبي هو ان اغلي الماء (كبياتوك) وانظف الغرفة.. لم اكن جائعا على الاطلاق.. كان معي من الاكل اكثر مما هو متوقع واكبر من كل طاقاتي على الاكل..

كان السجناء الاخرون من مجموعة الدول الاشتراكية حول الاتحاد السوفيتي يتمتعون باشياء وامتيازات خاصة من بينها الفودكا والنساء، كان مجموعهن اثنتى عشر امرأة.. تسعة منهن لهن عشاق.. ومن الرجال الذين كنت اخدمهم كان ثلاثة لهم عشيقات ماعدا (بوشكو).. وكانت الحرية متاحة للنساء ليقمن بزيارة الرجال وقتما يشئن.

بعد مضى فترة من الوقت رحلوا الى العنبر الصحي، وطلبوا مني ان ارحل معهم، وذلك لثقتهم في شخصي حيث كنت اكتم اسرارهم. وذهبت معهم..

احضروا شخصا آخر مكاني.. وحددت واجباتي الجديدة بنظافة الغرفة التى يسكنون فيها.. وكذلك الغرفة المجاورة التى تقيم بها النساء.. وقد تعرفت عليهن جميعا.. خصوصا الشابات منهن.. ومعظمهن حوكمن بعشر سنوات اعمال شاقة وذلك بتهم بسيطة لا ترقى الى مستوى ذلك العقاب الصارم.

عملن في كل شيء.. فراشات.. خادمات.. عاملات بالسكة الحديد.. الخ.. احداهن كان محكوم عليها تحت المادة ٥٩ بتهمة عضوية عصابة اجرامية اسمها (شورا) قصيرة القامة ممتلئة الجسم.. جميلة الوجه.. ذات عينين سوداوين ساحرتين.. لم تكن بقية النساء على علاقة طيبة معها.. لانها كما يقلن كانت ذات وجهين..! وكانت تبكي بلا انقطاع من اجل اطفالها الذين تركتهم عند امها. واقسمت ان لا تدع رجلا يمسها ابدا.. ولكن الجميع كانوا يعلمون بانها عشيقة المخزنجي الذى كان يطعمها الحلوى.

وكن يسألنني دائما.. هل تاتي (شورا) الى الغرفة..؟

ولم اكن اريد افشاء سرها، رغما عن علمي بانها كانت تشارك سبستين سريره.. كانت مهتمة جدا ان لا افضح سرها.. ولذلك فقد كانت ترشوني بالهدايا من الخبز الابيض وقطع السكر.

كانت اجمل النساء هى اولقا سرب.. شابة جميلة التقاطيع رشيقة البنية... قبل ان يقبض عليها في عام ١٩٤٠م كان طالبة بكلية الطب، وقد اعتقلت مع زميل لها بتهمة الانضمام لمجموعة الثورة المضادة. وكذلك لانها وزعت بعض المنشورات المكتوبة بخط اليد وسط زملائها الطلاب.. وحوكمت بعشر سنوات ـ سجنا.

كان عملها هو التمريض في العيادة.. مدير المعسكر بوريس الذى كان متحررا للغاية طلب

منها ان تكون عشيقة للدكتور .. ولكنها رفضت.. كانت تغسل ملابسه فقط ولاتسمح له باكثر.. وكانت رغم ذلك متحررة منطلقة العواطف... وقد تأكدت من هذا عندما لقيتها في نورلسك بعد سنين عديدة فوجدتها حاملا وقد احبها الجميع وعشقوها.. وحارب من اجلها بوشكو مدير قسم الترحيل الذى كان ينتهز كل فرصة ليغازلها.. لم يكن شابا ولا جميلا.. وقد باءت كل محاولاته بالفشل.. حتى الهدايا والنفحات التى كان يقدمها لها على شكل معلبات لحم.. وقطع سكر.. ومواد تموينية أخرى لم تحرك فيها ساكنا.

فقد كانت تتمتع بامدادات اخرى جيدة.

وعلى كل حال، فان العلاقة بين الرجال والنساء لم تكن دائما حسنة.. فالنزاعات تنشب في كل حين، وعلى ان اقوم بدور حمامة السلام في كثير منها. حدثت تغييرات خطيرة من الادارة.. نقل بوريس مقرر ال ن. ك. ف. د وجاء بدلا عنه مدير جديد هو بوتنسيق.

وقد حاول ان يضع خطا مغايرا لسياسة سلفه في ادارة المعسكر.

الاشياء التى كانت تحدث في الميناء لم يستطع تغييرها.

ولكن في المعسكر، قام بتعيين رئيس جديد للحرس، واتخذ اجراءات وضوابط ومراقبات حازمة.. كان من جرائها اجراء تفتيش دقيق ومتصل للغرف التى تسكنها النساء، والسجناء من مجموعة الدول الاشتراكية.

وفي ذات يوم ذهبت للعيادة، فجاء رئيس الحرس للغرفة بعد ذهابى وكسر الباب فوجد في السرير بوليس المعسكر ومعه ماريسيا.

وانتهى المطاف بماريسيا الى زنزانة الحبس الانفرادى (كارسر).

ويوما دخل رئيس الحرس الجديد في غرفة ال بريدوركا وكنت أضع زجاجات ـ الفودكا.. فسالنى من اين لى هذه الزجاجات.. واجبته هذه زجاجات كيروسين.. اخذ واحدة وشمها..

ـ هكذا اذن..؟ رؤساؤك يشربون الكيروسين.. وانت ايضا تتجرعه بسرور. وصمت برهة.. ثم قال بسخرية..

ـ وكيف الحال مع النساء..؟ من المحتمل ايضا انهن دميات من الخشب.

ـ هنا..؟ اننى لم ار اية امراة..

ـ بعد نصف ساعة سانتهى من المرور.. تعال الى مكتبى.

وذهبت اليه.. فطلب منى ان اجلس بالقرب من منضدته.

ـ والان حدثنى عن كل شىء يجرى في العنبر ـ بالتسلسل ـ من هن..؟

ومن هم عشاقهن.. وماهى الكمية التى يشربونها من الفودكا..؟

ـ انا نوبتجى فقط ولست جاسوسا.. هذا الامر من اختصاص بوليس المعسكر.

ـ آه .. هكذا انت ..؟ اذن انتظر.. انا سوف اساعدك.. غدا سوف تحصل على اسوأ عمل يمكن ايجاده هنا..

وصمت.. ثم صاح فجأة..

ـ الان.. اخرج من هنا فورا..

وخرجت من المكتب. واخبرت المدير بما حدث لى، فهدأ من روعى، ووعدنى بانه سوف يتحدث مع بوشكو ليجد لى عملا في قسم الترحيل.

وقد هدأنى ذلك قليلا.

واستمر عملى كما هو لايام.. ثم صدر الامر بنقلى الى مكتب الترحيل نوبتجيا.

في ميناء دودنكا...

كان المكتب الذى تقع به ادارة السكة الحديد داخل الميناء في دودنكا. وكان رئيسى هو السكندر بوشكو.. كان يقضى فترة العقوبة من عشرين عاما حاكمته بها محكمة ارجونيكيز في شمال القفقاز، بتهمة العمل التخريبي.
وكان بوشكو من السجناء السياسيين القلائل الذين يملكون تصريحا للتجول بحرية في دودنكا.. ودون حراسة ايضا.
كانت واجباتى الوظيفية هى احضار الفحم وايقاد المدفأتين..
موظفات قسم الترحيل كن خليطا من السجينات والطليقات.. وكانت الطليقات يتمتعن بالشباب والجمال.
ومن الانطباع الاول توصلت الى خلاصة مفادها أن العلاقات بين السجينات والطليقات ليست علاقات عمل فحسب ولكنها صداقة حميمة.
بعدها اكتشفت ان الطليقات لا يأكلن المعلبات المسروقة فقط، ولكنهن يقمن بصنع الخبز من الدقيق الذى تسرقه السجينات في الاكياس.
ولم يستمر الوضع على ذلك فقط.. بل ان الفتيات الطليقات استجبن لبعض المطالب الحيوية بالنسبة للنساء.. فكن يهدين صديقاتهن السجينات الجوارب الحريرية، وعلب البودرة، وزجاجات العطور.. بعض النساء السجينات كن يكتفين باكياس القماش التى يجيء فيها الدقيق من امريكا فيصنعن منها ملابس جميلة..
وعلى منضدة رئيس قسم الترحيل بوشكو كانت هناك دائما الفودكا والبسكويت... والمعلبات.. احدى الطليقات حازت على اعجابه.. اسمها فاليا.. ربط بينهما الحب العميق.. فقررا الزواج عندما تنتهى فترة عقوبة بوشكو..
ولم يتم الزواج..
فبعد اربعة عشر يوما من اطلاق سراح بوشكو وصلت الى دودنكا زوجته وابنته الكبرى.
وهكذا عشت هناك..
كنت أحس بأننى في الجنة.
من الموظفين حصلت على الطعام المسروق.. كنت آكل الحلوى كما أشاء، ويحلو لى..
وعملت شهرا اصبحت بعده موظفا بالسكة الحديد.
وكان عملى الجديد عبارة عن مراقبة البضاعة التى تشحن والتى تفرغ في عربات السكة الحديد.. وكان علي ان احدد بالضبط تواريخ وصول العربات وتواريخ التفريغ والشحن..
وكنت على اتصال دائم مع الموظف الذى يعمل في حركة الخطوط لاخبره بسير العمل.
كان عليّ ان اراقب كيف يجرى التفريغ بناء على لوائح السكة الحديد. هذا العمل.. عمل موظفى السكة الحديد.. هو العمل المثالى الذى كنت أحلم به كسجين.. لم يكن متعبا جسمانيا.. اما من الناحية المادية فقد كنت مكتفيا.. وهذا يعنى ان الاكل عندى وفير.. وكنت أعلم أن كثيرا من الموظفين يبيعون الاشياء المسروقة ليحصلوا على نقود اضافية وفيرة... ساعات العمل هى اثنتا عشرة ساعة في الوردية.. ساعات الراحة اربع وعشرون ساعة.. بعد العمل الليلى الذى لم يكن متعبا قط. لدينا في المكتب مدفأة، نطبخ ونخبز فيها.
وسرعان ما اصبحت كغيرى..

تعلمت انتهاز الفرص.. اجد صندوقا مكسورا او كيسا من الدقيق ممزقا يخفق قلبي وتزداد وتتسارع دقاته.. فأمد يدى.. كنت فى الاول طفيليا آكل من خفة يد الاخرين.. ثم صارت لى كينونتى واصبحت لصا مقدرا مثل مثلهم.

وفى ذات يوم حدث شيء لم يكن متوقعا حدوثه فى دودنكا.. بعيدا عن الميناء كانت تعمل مجموعة من مجموعات الكاتورقاشى تحت حراسة مشددة... كانوا حوالى الخمسين.. يكسرون الثلج فى نهر الينسى المتجمد ويستخرجون جذوع الاشجار التى كانت مشحونة يوما ثم سقطت فى الماء وتجمدت.. وكان يجب اخراجها من هناك.

الكاتورقاشى الذين كانوا يعملون تحت حراسة مشددة نوعا.. استطاعوا بوسيلة ما الاقتراب من الجنود.. انتزعوا مسدسا اوتوماتيكيا قتلوا به جنديين وجرحوا ثلاثة.. وفر احدهم.

أخطرنا القيادة فورا.

وفى هذه الاثناء التى ساد فيها الهرج والمرج هرب نحو خمسة واربعين من الكاتورقاشى.. وبقى خمسة رافضين الاشتراك فى عملية الهروب.

وبعد ساعات حسمت معركة المطاردة، قتلوا جميع الهاربين ماعدا ثلاثة استبقوهم كشهود لما حدث.

كنا نحن قدماء السجناء فى حيرة شديدة من هذه العملية الانتحارية التى اقدم عليها هؤلاء الكاتورقاشى..والتى لم يكن لها اى معنى على الاطلاق. فمن يحاول الهرب أمامه خياران ـ الموت برصاص الذين يطاردونه، او الموت قهرا فى هذه الصحراء الجليدية اللامتناهية.

ويبدو أنهم فضلوا الموت العاجل على البقاء لمدد تتراوح بين العشرين والخمسة والعشرين عاما فى ذلك التيه المهلك.

واستمر المدير الجديد فى تنظيف المعسكر من جميع الادواء الخلقية، فكانت اولقا الحسناء احدى ضحاياه.. طردوها من العيادة، فبقيت فى القسم الرابع من المعسكر.. وكان عليها وعلى غيرها من بقية النساء تفريغ اكياس الدقيق والاسمنت والمواد الاخرى من على متن السفن التى تصل الى ميناء دودنكا.

كنت اقابلها دائما فى مكان العمل.. ورأيت مدى العذاب الذى تتعرض له وجاهدت لكى اخفى عنها ما الاحظه عليها من الاسى حتى لا احرجها،فقد كانت معتدة بنفسها

وقد حاول بوشكو مساعدتها بشتى الطرق.. ولكنه ولزمن طويل لم يستطع نقلها الى عمل أسهل.. حتى كللت مساعيه اخيرا بالنجاح، فتم نقلها الى قسم انتاج الفحم الخشبى.

وعندما عدت بعد سنين عديدة الى نورلسك مرة اخرى علمت بان اولقا حوكمت بعشر سنوات اخرى بتهمة الدعاية للثورة المضادة بالمعسكر.

فى عملى الجديد استطعت ان اكسب رضا بوشكو رئيس شبكة السكة الحديد بدودنكا ومن معه.. فتمت ترقيتى الى كبير الموظفين.

وقد اصبحت بذلك رئيسا على مجموعة من الموظفين.. سعيت معهم وبهم حتى اصبحت مجموعتى خير مجموعات العمل على الاطلاق.. وحصلنا مرات عديدة على جوائز من ادارة المعسكر وادارة السكة الحديد.

فى مجموعتنا كانت هناك شابة من الطليقات اسمها نينا شعبان رياضية الجسم لها عينان واسعتان.. وابتسامة جذابة.. كانت عندما تضحك تصلصل الاجراس وتتمايل ايقاعات

الفرح.. وعلمت انها تسكن مع أبويها.. والدتها وزوج والدتها .. الذى كان يعمل مديرا للتغليف فى دودنكا.
فى ايام الاجازات عودتنا نينا على احضار سلة مملوءة بالمأكولات والفودكا... كانت لطيفة معنا.. ولانى كنت اكبرها بكثير فاننى لم اتصور او اعتقد لحظة واحدة انها تفعل ذلك عن عاطفة تجاهى.
وظنى بأن ظروف عملى كرئيس لها هى التى جعلتها تهدينى هذه الاشياء لتكسبنى الى جانبها..
وذات يوم سمعت همسا هزنى بشدة وزلزل كيانى... فقد همست لى بعض صديقاتها بأنها غير سعيدة لانى لا ابادلها العاطفة.
ونقلت الى من همس لى ان يخبرها بلطف عن حقيقة الوضع.. وضعنا نحن الاثنين، فهى طليقة وانا سجين، وهذه العاطفة ستضر بها دون شك وفى تلك الايام وصلت سفن كثيرة الى دودنكا.. من الولايات المتحدة الامريكية.. وانجلترا.. وحتى يتم تفريغ كل تلك السفن تم تعيين الطلقاء وقد حصلوا لهذا الغرض على ملابس واحذية خاصة.. كان عليهم ان يعيدوها بعد العمل لادارة الميناء. وكان هنالك مربط خاص للسفن التى تاتى من الخارج، بعيدا عن المكان الذى يعمل فيه السجناء..
وقد تم بناء متجر لبحارة السفن..
وكان السجناء يراقبون تلك السفن بنظرات دقيقة فاحصة على وجه الخصوص.. كانوا يعلمون انها تنقل المواد الغذائية.
موظفو الخطوط البحرية.. واللصوص.. يعملون معا.
كان الموظفون مهتمين جدا بأن يحولوا تلك العربات الى الخطوط الميتة.. حيث يتمكنون من نهبها بهدوء وبدون مضايقات، ثم يقتسمون غنائمهم بعد ذلك. قضبان وخطوط السكة الحديد لم تكن تكفى لنقل كل المواد الى نورلسك فكان جزء كبير منها ينقل فى فصل الشتاء.
اذن، لابد من بناء خط حديدى عادى بين دودنكا ونورلسك.
والقيت مهمة الاداء الصعبة فى الانشاء على فرقة الكاتورقاشي.. وتقرر ان تمر القضبان بطريق آخر وليس على طريق الخطوط القديمة الضيقة.
وعمل الكاتورقاشي ـ عملوا بجد لا مزيد عليه طيلة فصل الشتاء القاسى.. اما فى فصل الصيف فقد توقف العمل لعدم وجود كميات كافية من القضبان الحديدية واستمر العمل لسنوات.. واخيرا انجز الخط المطلوب.. واصبحت دودنكا مربوطة الى نورلسك بخطوط حديدية واسعة.
كانت اعمال التفريغ فى الميناء تهتم بها منظمة اسمها قروزوفوى اوجاستوك.... وكان رئيس قسم التفريغ احد الطلقاء من الذين قضوا فترة العقوبة فى جريمة عادية.. كان اسمه استامبولى.. وينوب عنه من السجناء السياسيين زبوروفسكى وهو احد القادة السوفيت.. وكان رفيقا للنمساوى فايسبرج سيولسك فى سجن التحقيق بهاركوف وحوكم بعشر سنوات سجنا.. وكذلك سلسر نائب رئيس ال ن. ك. ف. د فى تفليس بالقوقاز.
كانت صلتى بهؤلاء الناس مستمرة وكثيرة لان نوعية العمل كانت تتطلب اعمالا دائما مع قسم التفريغ.
وكانت ادارة السكة الحديد تحرص على ان نقوم بتفريغ القطارات وشحنها فى الزمن المحدد

لها بالضبط.

وكل خطأ يحدث يكون عقابه المادى كبيرا وفادحا..

ولذلك فان رؤساء قسم التفريغ جاهدوا وحرصوا دائما على ان توثيق علاقاتهم مع موظفى السكة الحديد.. الذين يحددون قيمة الغرامة.. ثم يقررون هل تدفع ام لا..

وكانت وسيلتهم الى هذا التقرب والتودد هى الهدايا الصغيرة المختلفة. اما علاقتى ـ انا ـ مع بوريس وسيلسر والاخرين فقد كانت تقوم على قاعدة اخرى.

فقد كنا ذات يوم اعضاء فى الحزب، وهذا ربط بيننا بشدة فى المعسكر. وتلك الاشياء كنا ننتهى من تسويتها ونحن نهتدى (بخط سير الحزب). اغلب الشيوعيين سلكوا سلوكا مدهشا فى مساعدة زملائهم السابقين ومحاولة التخفيف عنهم.. فقد كان قدر السجن صعبا للغاية.

الاضراب الاول والاخير فى السجن

فى التاسع من مايو عام ١٩٤٥م وصلت عربات عديدة من عربات السكة الحديد محملة بالمهام الميكانيكية والادوات والاجهزة.
وفى انتظار السفن بقيت اسابيع عديدة.. وقد حاول الجميع ـ مجتهدين اخلاء المخازن منها لاستقبال شحنات جديدة..
ورجوت العمال فى الاسراع لان العربات كانت فى انتظار القاطرة المتجهة الى نورلسك.. وحتى لا اضيع الوقت اتصلت تلفونيا بالموظف المناوب فى مكتب الحركة لكى يرسل قاطرة للعربات.
ووصلت القاطرة بعد دقائق.. ومد سائق القطار رأسه صائحا فى جموع العاملين.. سجناء وغيرهم..
ـ يا اخوة.. وقعت معاهدة السلام.. وانهزم الالمان وانتشر الخبر فى كل مكان.. سرى سريان النار فى الهشيم تؤازرها ريح قوية..
وتوقف الجميع عن العمل.
وتوجه السجناء نحو باب الخروج من الميناء..
كانوا يتجمعون فى كل الجهات.. ولم يدر الحراس ماذا يفعلون.
هكذا.. فجاة جمعت كلمة السلام كل الناس، السجناء والطلقاء والحراس...
وهتف الجميع..
ـ انه السلام.. قودونا الى المعسكر.. فاليوم لن نعمل.
ورددت الارجاء هذه الاصوات الهادرة المنطلقة.
وارتبك الضباط.. قالوا ليس لدينا تعليمات.. ولكن صوت السجناء القوى صاح فيهم.. ـ انه السلام.. عن اية تعليمات تتحدثون قودونا الى المعسكر واندفعت الكتل البشرية المتلاحمة للخارج.. لم يستطع الحرس ايقاف احد او اجراء التعداد اليومى على احد... وتدلت المدافع الرشاشة نحو الارض.. لاول مرة لايسبنا الحرس... كلمة السلام وحدت قلوب الجميع.
وعند وصولنا امام المعسكر.. جرى نفس العرض.. وبذات الصورة..
فتحت بوابة المعسكر على مصاريعها وتدفق الجميع.. مثلما خرجوا من بوابة الميناء ولم ينتظر الحرس كما كانوا يفعلون كل يوم ـ دخول الجميع، بل اتجهوا الى ثكناتهم.. وبقينا فى ساحة المعسكر.
كان الناس يلتحمون ويتعانقون ويشدون على الايدى.. انهار من الفرح الحقيقى والسعادة المطلقة تدفقت فى ذلك النهار، احتفاء بانتهاء الحرب المرعبة.
وكرر الجميع لبعضهم البعض.. الان، وبعد قليل سنذهب الى بيوتنا. بالطبع سيصدر العفو.. ويعود الجميع الى منازلهم.. قال احدهم فجاة ـ نعم.. اذا كانت لاتزال هناك عوائل.. عائلتى ابادها الالمان. وظهر مدير المعسكر.. القى كلمة قصيرة.. قال فيها ان هتلر قد انهزم .. وان الجيش السوفيتى انتصر، وان السلطة السوفيتية وعلى راسها الرفيق ستالين، لن تنسى باننا فى زمن الحرب عملنا جيدا.. وبذلك ساعدنا على سحق المحتلين.. وذكر كذلك بأن الجميع سينالون العفو.. ثم قال:

ـ بالطبع لن يستطيع الجميع الذهاب فى الحال الى منازلهم. ولكن العقوبة ستلغى.
كنا سعداء.. بما سمعنا.. اتجهنا صوب العنابر.. وعند المساء اعطونا الحساء للعشاء كالمعتاد.
ولاول مرة رفع السجناء عقائرهم محتجين ومعلنين عدم الرضا.
ـ اليوم كان بامكان هؤلاء الكلاب طبخ شيء أحسن.
ومرت الاسابيع.
ولم نسمع شيئا عن وعد العفو.. بقى موقف السجناء كما هو.. وكان شيئا لم يحدث فى العالم.
وعندما ذكرت هذا الامر امام الصديق جوزيف.. قال بصدق
ـ كل شيء فى العالم يتغير..
اجل كل شيء يتغير ولكن(ق ب ل ا ق) (الادارة المركزية للسجون) تبقى كما هى دائما.. والى الابد.

اول خطاب من زوجتى بعد خمس سنوات

منذ عام ١٩٤٠م وانا افقد تماما كل اتصال مع زوجتى.
على الرغم من انه وحتى قبل ذلك.. كانت رسائلها نادرة.
كنت أعلم تقريبا انها تعيش فى موسكو.. اما هى فانا واثق من انها لم تكن تعلم شيئا على الاطلاق.. حتى النقود التى استلمتها منها فى بعض المرات كانت ردودى عليها لاترسل لها.
أنا أعلم ذلك.
بالطبع لم يسمح لى ابدا بالكتابة عن وضعى الحقيقى.
وكل تلك السنوات الخمس كان يغمرنى يقين بارد بأنه لا زوجة لى.
عندما القى على القبض كان عمرها عشرين عاما.
كان بامكانها وهى فى تلك السن ان تحتمل.
موت الطفل ـ الضغوط الهائلة التى تعرضت لها.. ولكن ايضا كان بامكانها ـ طبعا ـ ان ارادت ان تتزوج من رجل آخر.
وعندما انتهت الحرب قررت ان ارسل لها رغما من ظنى الاخير رسالة.. لعل وعسى..
لم أرسل الخطاب من بريد المعسكر العادى.. ولكن طلبت من احدى الالمانيات وكانت تعيش فى دودنكا وتعمل كمساعد محاسب فى محطة السكة الحديد.. طلبت منها ان ترسل خطابى فى صندوق البريد العمومى.. مثلما كان يفعل معظم السجناء.
وكانت الرسائل فى العادة تراقب.. ولكن الاغلبية ايضا كانت تصل الى ذويها. ورجوت زوجتى ان ترسل لى ردها بواسطة الالمانية.
ومرت اسابيع عديدة.. دون رد.. وانهارت جميع امالى.. ويوما ما.. طلبت منى الالمانية ان اذهب الى غرفتها فى وقت الراحة عند الظهيرة.
أحسست بضعف عام فى جسدى.. وكانت الساعة العاشرة صباحا.. ووقت الراحة مازال امامه ساعتان.. وشعرت بانى لن استطيع الانتظار بقية الوقت.
اتجهت دون ان يكون لى ما افعله نحو السفن.. النساء والرجال منهمكون فى تفريغ البضائع من على متن السفن.. ومنهمكون ايضا فى اعادة تحميلها على عربات السكة الحديد..
كان العمل يسير سيرا عاديا.. ولم يكن لى عمل يشغلنى.
فعدت بعد نصف ساعة اتسكع هنا.. وهناك..
حاولت التحدث الى الالمانية.. وعندما اقتربت من مكان عملها اشارت الى بالقلم محذرة انا لا افعل.
ولم ادرك مغزى اشارتها فى التو واللحظة.
هل كانت تعنى انه لاشىء لى عندها..؟ ام انها كانت تحذرنى فقط لكى اظل بعيدا عنها..
كانت لديها عدة اسباب للخوف بالتاكيد.. فى نفس الغرفة جلس احد السجناء من الذين اشتهروا بعمالتهم لل ن. ك. ف. د فهو ينقل كل شىء.. وحتى لا اعرضها للخطر خرجت من الغرفة. وبحثت عن عمل ما يعيننى على قطع الوقت.
واخيرا جاء وقت راحة الظهيرة. وذهبت اليها. دخلت غرفتها فلم اجد احدا.

وعندما هممت بالخروج دخلت الفتاة الالمانية. أخرجت من حقيبة يدها جريدة خبأت فيها الرسالة.
وفي الحال تعرفت على خط زوجتي فخفق قلبي بعنف.
ونزعت الرسالة من يدها وجريت نحو الحظيرة التي يحفظ فيها الفحم.
واختبأت في ركن.. أحمل بيد مرتعشة انفعالا والظرف الممزق.
ـ عزيزي الوحيد كارلو..!
بدأت في قراءة الخطاب.. وتدفقت ادمعي.. فتوقفت لم استطع الاستمرار الجملة الاولى اخذت تتراقص امام عيني المبتلتين بالدموع.
عزيزي الوحيد كارلو.!
آه .. من السعادة.. ويا للفرح.. كل شيء سيكون رائعا عندما تكون البداية هكذا.
انها مازالت في يدي.. حبيبتي.. زوجتي.. لم تتخل عني.. اذن..؟ وقرأت بعدها. علمت انها استلمت خطابي بعد صعوبات جمة، لاني ارسلته على العنوان القديم، دون ان ادري طبعا بأن زوجتي رحلت منذ زمن بعيد. علمت كيف انها قد عاشت سنوات الحرب.. هي واقاربها.. كانوا يعتقدون انني مت منذ زمن طويل.
وانتهى اخيرا الخطاب، لانه كان لابد ان ينتهي، بكلمات دافئة حانية ممتلئة بالحب والشوق والامل..
وكان هذا اول يوم لسعادتي الحقيقية في المعسكر.. وقد توصلت الى الاجابة على السؤال الذي طالما اقضى مضجعي واقلق راحتي.. لماذا اعيش؟

نعم.. كان على ان ادفع ثمن العذاب مضاعفا حتى اعيش هذا اليوم. وبنفس الطريقة تبادلنا الخطابات الحارة الملتهبة.. ومعها النقود والمجلات.
ثم علم مخبر ال. ن. ك. ڤ. د كل شيء.
السجناء جميعهم يعلمون ان زيكوف عميل لل. ن. ك. ڤ. د بالقسم الثالث من المعسكر في دودنكا.. حوكم زيكوف بعشر سنوات لانه اختلس المال العام.. ولانه اراد تحسين موقفه، استجاب لخساسة نفسه فاصبح جاسوسا ينقل كل شيء.. ماذا اكل السجناء.. ملذا قالوا.. ماذا سرقوا.. اثار حفائظ السجناء ليلتقط شيئا يبلغ عنه.
كان بالطبع يزيد على مايسمع من خياله، حتى ينال الحظوة والتقدير عند ال. ن. ك. ڤ. د وكانت مكافاته على ذلك انه حصل على اجازة لعدة ايام لم يظهر فيها بالمعسكر.. كانت له عشيقة من الطليقات اعتاد ان يقضي عندها الليل.. وكان عمله هو رئاسة الموظفين في السكة الحديد بالوردية التي اعمل بها.. ودائما ما كان (يطنطن) بان ارقام صفحات التفريغ لا ترى بوضوح كاف.. ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع ولكنه اراد اخراجي عن تحفظي باستثارة غضبي.. فلم اعطه هذه الفرصة أبدا. ظللت احتفظ ببرودي واكبح جماح نفسي بعد مجهود قاسي ومعاناة شديدة.
كان الجميع يخافونه ويتقون شره..
السجناء والطلقاء على السواء..
لانه كان يعرف مدى سلطانه.. وعلى ذلك الاساس تأتي تصرفاته.
وعلم سري اخيرا، فاسرع به الى سادته.

لم يكتف بالطبع عند حدود اخبارهم بانى استلم خطابات لا خطر فيها من زوجتى.. ولكنه قال انه فى اثر جمعية للجاسوسية والثورة المضادة، فلها فروع بالخارج.. وانه ايضا تصل مبالغ كبيرة جدا من النقود لصالح هذه الجاسوسية داخل المعسكر.
وفوضوه بالطبع كى يراقبنى بدقة.. وكان ذلك هو السبب فى عدم طردى من العمل حال بلاغه الاول عنى.. كأنما يعدون لى كمينا.
اول الامر استدعى ال. ن. ك. ڤ. د الالمانية واستمع الى اقوالها ونصحها بأن تعترف فورا.. وبكل شىء.. لانهم يعرفون جوانب الموضوع كلها.. وبعدها استدعو زوجها الذى كان يعمل فى السكة الحديد. اتهموه بالجاسوسية وطالبوه ان يعترف بالامر.
وبحثت عن الالمانية فى موقع عملى حتى وجدتنى.. اكتب ارقام قطارات السكة الحديد.
- اسمع باسم الالة اكتب لزوجتك لكى لا ترسل رسائل بعنوانى، لان ال. ن. ك. ڤ. د علم بالامر واختلقت قضية جاسوسية من ذلك.
قالت كلامها بسرعة وانصرفت كما اتت..
حتى اننى فهمت بصعوبة شديدة ما قالت.. وما عنت.
وفى فترة غيابى فتشوا حاجياتى.. اخذوا كل شىء مطبوع او مكتوب.. حتى كتاب حياة جايكوفسكى اخذوه.
ومن المحتمل ان ال.ن. ك. ڤ. د تاكد له ان قضية الجاسوسية هذه هى تهمة ملفقة بغباء شديد فاكتفى بطردى من العمل.
وتحصل مدير المعسكر على اوامر بنقلى الى وحدة عملية لا صلة تربطها بالميناء اضافونى للوحدة التى تعمل فى نقل التراب.
وبعد ايام نقلونى من القسم الثالث بالمعسكر الى بيريسلك.
وبريسلك ليست بعيدة ولكنها فى الجوار.
كانت منطقة شديد الحيوية.. تصل اليها دفعات جديدة من السجناء لتحل محل الذين ماتوا فى زمن الشتاء.. او الذين عاقتهم الاصابات.
عنابرها ممتلئة غاصة بالبشر.. الكثيرون ينامون تحت الكنبات..
تجارة الاشياء التى يجلبها القادمون رائجة ومتصلة. بعد كيلوجرامات من الخبز وقليل من الدخان، كان بالامكان شراء بدلة.. بوجبتين قميص حريرى.. وزوج احذية جميل.
المشترون هم المجرمون.. والبائعون من الالمان فى الغالب الاعم.. او الروس العائدين من المانيا والنمسا.. والذين اقتادوهم الى المعسكرات دون ان تكتحل اعينهم برؤية بلادهم.
ومن ذلك المكان كانوا يرسلون السجناء الى نورلسك.
وضمن مجموعة منهم نقلونى الى هناك.. مرة اخرى.

مرة اخرى فى نورلسك
فى القسم السادس من المعسكر

عنـدمـا وصلت شحنتنا الى نورلسك استلمتنا ادارة السجن.. وضعونا فى اقسام مختلفة من المعسكر.
من محطة السكة الحديد الى المدينة سرنا فى طابور مكون من خمسة صفوف على طول شارع قورنا ـ عابرين زافودسكا الى المنطقة الكبيرة التى تسمى بوليشوى ـ مصنع المعادن (ب، م، اس).
فى هذا المكان اذكر اننى عملت فى سنوات قدومى الاولى الى نورلسك.
عنـدمـا كان يعمل بالميناء عشرة الاف من السجناء بآلات بدائية وبجهد عضلى فاق كل تصور، فى كسر الارض المتجمدة دائما وحفرها.. وبعد هذا فى مكان صغير لصهر المعادن وطلاء الرقائق المصنوعة منها.
والان، على امتـداد البصر، كانت تقف الوحـدات الكبـيرة.. ذات المـداخن الضخمـة.. والصـالات.. والورش... والمخـازن.. وتفرعت خطوط السكة الحديد.. مرت بكل المنطقة وجاست خلالها.
وتصاعد دخان المصانع فمازج سحب البرد الرمادية اللون عبر السماء.
وكانت العربات الكبيرة التى تجرها القاطرات مملؤة بالمعادن الملونة الساخنة الثمينة.
اما فى الاماكن التى لم يتم بناؤها بعد، فقد عمل السجناء بنفس الالات التى عملت بها انا وزملائى من قبل.. حين كانت بداية الاشياء.
نعم لقد تم تشييد الكثير.
ولكن اين الذين بنوا هذا المصنع الكبير..؟
اين اوندراجق.. وكيروش.. وفلدمان..؟
الاف من الرفاق الشيوعيين.. ومن.. الروس ـ الاوكرانيين.. اوزبكا.. قروزيانى.. اين ؟
واين الاخرون الذين شيدوا كل هذا الشموخ..؟
اين رفاقى..؟
انهم يرقدون فى المقابر الجماعية بنورلسك.
وقريبا سيلحق بهم جزء كبير من هؤلاء الذين اراهم الان.. هنا.
فى مؤخرة ال (ب، م، اس) يقع القسم السادس من المعسكر..
مكان اقامتى الجديد.. منذ هذه اللحظات.
اول شىء فعلوه.. ان قادوا مائتين منا للعيادة.
اجرى علينا الكشف الطبى.. وحددوا لكل منا المرتبة التى يعمل فيها.
وعندما كنت انتظر دورى.. ذهبت الى رجل ما، لم اره من قبل..
وكان قد دخل وخرج عدة مرات من حجرة الطبيب.
وكسجين قديم استطعت ان اخمن انه من مجموعة السجناء التابعين للدول الاشتراكية التى تحيط بالاتحاد السوفيتى..
كان هو مدير القسم الصحى.. وسألته:

ـ معذرة.. من فضلك هل يمكنني التحادث معك لمدة دقيقتين..؟
ـ ماذا تريد..؟
ـ سأكون صريحا معك.. منذ عام ١٩٣٩م وانا نزيل هذه السجون والمعسكرات.. انا الوحيد القديم بين هؤلاء الذين قدموا من دودنكا. اعلم باننا سنوضع جميعا في مجموعة الاشغال الشاقة. من فضلك اعني لانقاذ نفسي من ذلك العمل ولو لفترة قصيرة.
ـ من اى درجة انت..؟
ـ لم اقابل الطبيب بعد..
ـ ما اسمك..؟
قلت له اسمي.. فكتب المعلومات في ورقة وذهب الى حجرة الطبيب.
واقترب مني بعد عشر دقائق..
ـ حصلت على الدرجة الثانية.. فهل انت مسرور بذلك..؟
ـ لا اعرف كيف اشكرك.. ماهي واجبات عملي الجديد..؟
ـ ستعمل ممرضا في قسم النقاهة.
وتنفست الصعداء..
مرة اخرى نجحت في انقاذ نفسي من العمل الشاق.. ولو لفترة.
في القسم السادس من المعسكر كان هناك قسم اسمه (طور النقاهة) بالطبع هذا بخلاف اقسام المستشفى التى كانت بكل جزء من اجزاء المعسكر هناك وضع بخلاف اقسام المستشفى التى كانت بكل جزء من اجزاء المعسكر هناك وضع الذين لم يكونوا من المرضى الكاملين ـ ان صح التعبير ـ من الذين اصيبوا بالضعف والارهاق والتعب.. ولا يملكون القدرة على العمل.. وعندما نظرت اليهم اصابني الدوار.. هؤلاء الشباب الذين يبدون كالهياكل العظيمة.. ماهو السر في بقائهم واقفين حتى الان على اقدامهم.. وكان يجب ان يكون مصيرهم هو الموت.. تعبا وضعفا وارهاقا؟!!
وتعهدناهم بالرعاية الصحية.. كانوا يحصلون على ثلاث وجبات جيدة في اليوم ـ الزبد ـ والخضار ـ واللحم.. وبعضهم كان يعاني من مرض الاسقربوط كان بعضهم يمكث لمدة ثلاثة اسابيع.
والذين لاتتحسن اوضاعهم الصحية يمكثون لثلاثة اسابيع اخرى.
وكان يتم اعفاؤهم من العمل في هذا الوقت بالطبع. والذين يستطيعون التحرك، كانوا يجعلونهم يقومون بنظافة المعسكر لمدة ساعتين في اليوم. وكانوا يتحايلون ليبقوا فترة اطول.. فباعوا الخبز الذى يحصلون عليه، او استبدلوه بالدخان.. لذلك قرر الاطباء الا يوزع الخبز عليهم بكميات كبيرة كدفعات.. بل على المرضين توزيعه قطعا صغيرة تقدم مع كل وجبة.. او يوضع داخل الشوربة.
كان واجبي ان اجعلهم ينظفون العنابر..
وقد كلفني ذلك كثيرا حتى اقاوم رجاءاتهم بان لا اضغط عليهم في العمل وفي بعض الاحيان كنت اتغاضى عن ذلك.. وفي النهاية جاءتني المتاعب لان الذين رفضت ان اعطيهم الخبز كاملا كتعليمات الاطباء، وحتى لا ـ يبيعونه.. اشتكوني للطبيب ووشوا بي.
كنا نحن الاربعة الذين نعمل بالتمريض نسكن حجرة واحدة صغيرة بها اربعة اسرة

عسكرية عليها مراتب القش والملاءات والاغطية.. وقد كنا كذلك نتناول نفس الطعام الذى يخصص للسجناء.. وبعد مضى شهرين فى هذا العمل المريح تحسنت صحتى تحسنا ملحوظا.. وحدثنى الطبيب المسئول بانه سيعطى مكانى لشخص آخر اضعف واهزل منى ولم يبق امامى بالطبع سوى ان اشكره على مساعدته القيمة لى وتجاوبه مع رجائى السابق.
نقلت الى الوحدة التى تعمل فى بناء منجم الكوك الجديد..
وهو من الانشاءات التى كانت تتولى القيام بها فى هذه المنطقة مؤسسة متالورق ستروى، التى يديرها المهندس ابستاين.
كنت اعرفه من قبل، فعند حضورى لاول مرة الى نورلسك من جزيرة سولوفكى تعرفت عليه، وكان وقتها سجينا.. واشترك معنا فى خط سكة حديد دودنكا ـ نورلسك. وقد قضى فترة عقوبته البالغة عشر سنوات حكم عليه بها متهما بالعمل التخريبى.. وعندما بدأت الحرب وكانت الحاجة الماسة قد برزت لبناء ورش مهمة للمصنوعات الحربية، استدعوا ابستاين الذى كان مهندسا للمبانى فى وحدتنا.. وتم تعيينه مديرا لاحد الاقسام.
وقد عمل ابستاين فى موقعه الجديد عملا جيدا اتسم بالبذل والعطاء..

وكان ذلك دافعا لهم ليخفضوا مدة سجنه.. وعندما انتهى من اول قسم فى البناء اطلقوا سراحه وعينوه مديرا لمؤسسة ضخمة.
وقد ابتهجت وانا اشاهد على صدره وسامين من اوسمة الاتحاد السوفيتى، عندما لقيته هذه المرة.
وفى فترة الراحة عند الظهيرة ذهبت الى مبنى الادارة لكى ارجو ابستاين ان يعطينى عملا يناسبنى.
لم اكن ادرى كيف ستكون مقابلته لى.. وهل يجوز لمن زينت صدره النياشين ان يتعرف على سجين قديم..؟
دخلت الى حجرة السكرتيرة.. وقد خشيت ان تلقى بى الى الخارج، فقلت لها بخوف ورهبة، اننى اريد محادثة مدير المبانى.. ونظرت الى فلاحظت كيف ان ملابسى متسخة وهيئتى غير محترمة فقالت ببرود..
ـ المدير مشغول..
وساورتنى رغبة شديدة ان اذكر لها اسمى وارجوها سؤال المدير حتى اتمكن من مقابلته..
ولكنى عدلت عن الفكرة واتجهت صوب الباب.. وفجأة جاء من خلفى ابستاين مسرعا فى طريقه الى حجرة كبير المهندسين وتجاوزنى دون ان يلقى الى بالا.. وسألت نفسى الم يلاحظنى..؟ ام انه اراد الا يتعرف علىّ..؟
وفى الممر وقفت افكر فى الذى ينبغى على عمله.. ولما هممت بالخروج لاحظت انه كر عائدا..
وفجأة تواجهنا.. وسألنى..
ـ من أينَ انت قادم..؟
ـ كنت ابحَث عنك..
ـ تعال.. تعال

وتقدمنى فسرت خلفه..
ـ كيف حالك..؟
ـ كما يكون حال السجين.. وكما ترى.. انظر الى ملابسى..
ـ اين تعمل..؟
ـ فى الوحدة التى تبنى منجم الكوك..
ـ هل تريد ان تكون رئيسا للعمال..؟
ـ كما تعلم.. انا لا احب ذلك العمل.
ـ اعلم.. ان ذلك العمل لا يناسب شخصيتك.. رئيس العمال، يجب ان يشتم ويلعب ويسب.
ثم ابتسم واضاف..
ـ لعلك تعلمت ذلك..؟
ـ لحسن الحظ ـ ليس بعد.
وحدثته عن الاعمال التى قمت بها منذ ان فارقته آخر مرة. فطلب منى ان اقابل نائبه واذا لم يعطينى عملا مناسبا على ان احضر له مرة اخرى.
واتجهت الى نائب ابستاين.. وكان على ان اوضح له من انا..وماهى عقوبتى.. وكل الاعمال التى قمت بها فى السنوات الاخيرة. وعندما ذكرت له آخر عمل قمت به كرئيس لموظفى السكة الحديد، قال لىّ ان فى متالورق ستروى مكانا خاليا لمدير قسم الترحيلات.. وسألنى هل اريد هذا العمل..؟
وبعد تفكير قصير وافقت.. لانى اعلم انه عمل جيد.
وفى نفس اليوم احضرت خطابا لمدير القسم السادس بالمعسكر، موقعا عليه من ابستاين يخبره فيه بالعمل الذى ساقوم به، ويرجو ان يقوم بكل مايلزم ومايعين على اداء العمل..
ومن ذلك بالطبع ترحيلى الى عنبر رؤساء الحرس ومديرى الاقسام وقادة الموظفين..
حيث الكنبات ليست عادية، وانما هى فى الاساس مصممة على هيئة ونظام مقاعد عربات السكة الحديد السفرية.
وعلى جوانب العنبر يوجد مكان لاربعة اشخاص بينهم مسافات معقولة... ولكل منهم ملاءة..
وفى منتصف العنبر توجد منضدة كبيرة.. يمكن الجلوس عليها للاكل والكتابة والقراءة.
ومن يسكن هنا كان يمكنه الخروج من المعسكر وقت يشاء.. حسب رغبته والطعام ايضا كان مختلفا عن طعام بقية السجناء.
وفى اليوم التالى استلمت عملى كمدير جديد لقسم الترحيلات فى متالورق ستروى..
مائة وخمسون رجلا تم تقسيمهم الى اربع مجموعات.. كان عليهم تفريغ كل الحمولة التى تصل الى متالورق ستروى عن طريق الشاحنات او القطارات .. وورديات العمل مستمرة ليلا ونهارا.. وبالطبع فان اعمال الترحيل تخضع لزمن محدد مبرمج بدقة.. فعربة القطار التى تحمل عشرين طنا كان يجب تفريغها فى مدة عشرين دقيقة.. والشاحنة ذات حمولة الثلاثة اطنان تفرغ ايضا فى عشرين دقيقة.. والشاحنات الامريكية الكبيرة ماركة (ماك) كان مقررا لها خمسة وعشرون دقيقة.. وهكذا..

من خبرتى السابقة فى عمل السكة الحديد كنت اعلم نوع الصعوبات التى ستواجهنى.. ومن ذلك ان المعدلات الاحصائية للعمل تتطلب رجالا اقويا أصحاء وامثال هؤلاء كانوا قلة فى الوحدة العملية.

ولذلك من النادر ان يتم تفريغ العربات فى الوقت المحدد لها.. وكنت اعلم اننى ولكى انجح هذا العمل، ينبغى ان لا اعتمد على اداء السجناء اطلاقا.. بل يستوجب على البحث عن طريقة اخرى.. وحتى احث السجناء على العمل بمهمة اكثر اخترت طريقة بسيطة ولكنها مدهشة.

قد لايصدق انسان فى هذا العالم، ان ورقة عادية من اوراق الدخان التى تزرع فى المزارع، يمكن ان تحول الانسان الى حيوان.. ولكن ال. ن. ك. ڤ. د كان يعلم بأن هذه الوريقة ليست خطيرة.. ولكنه يستطيع استخدامها فى اغراضه..

ذكرت من ان ترحيلات الحلفاء تحتوى عليى الاف الاطنان من المواد التموينية المرسلة الى نورلسك، لحفظ الانسان من الموت جوعا.. اما الدخان فكان قليلا جدا.. وفى بعض الاحيان هو نادر ومعدوم.. حتى دخان الماهوركا الروسى كان عزيزا ونادرا ايضا.

وراى ال. ن. ك. ڤ. د ان بين يديه سلاحا قويا.. فكان يعطى الماهوركا كجائزة رئيسية لمن يقوم باكمال المعدل الاحصائى للعمل.. والذى كان الوصول اليه شيئا نادرا.

وبهذه الطريقة استطاع ان يحصل على ارقام قياسية فى الانتاج. قبل بداية العمل فى مكان البناء يأتى المدير.. ثم توزع الواجبات على الوحدة... وبعدها يعلن المدير فى الحال عن عدد علب الماهوركا التى سيقسمها فى المساء على من يصلون الى المعدل المطلوب انتاجه.

ويبدأ الجنون.

ولم يكن من الضرورى على الاطلاق ان يطارد رئيسا الحرس والعمال الرجال ليعملوا بجد ونشاط.. بل كانوا هم الذين يطاردون العمل.. ويطاردون بعضهم البعض تنافسا كاد ان يودى بهم ويوردهم موارد التهلكة.. حتى الراحات كانوا يتنازلون عنها بطيب خاطر.. فبمجرد ابتلاعهم لقطعة الخبز يسرعون للعمل مرة اخرى..

امـا الذين لايدخنون فكانوا مضطرين لمجاراة ذلك الايقاع المجنون اللاهث.. الاصدقاء اصبحوا متنافرين من اجل حفنة دخان قليلة.. وعندما ينتهى يوم العمل يحضر رئيس العمال ويراقب الوفاء بالالتزام.. وينتظر الجميع على اعصابهم النتيجة.. واذا كان المعدل الاحصائى للعمل كاملا.. كان رئيس الحراس ينطق الجملة السحرية المنتظرة.

- هذه هى الوريقة.. اذهب واحضر الدخان.

وينتظر الرجال وهم متوترون مشدودون عودة رئيس العمال بالدخان..

يحلمون باشعال السجارة وارتشاف انفاسها اللذيذة ومراقبة دخانها وهو يتلوى فى السماء كالسحب الرمادية.

امـاالذين لايـدخنون فكانوا يستبدلون الماهوركا بالخبز. وكان المدخنون يمرون عليهم ويغرونهم بعروض احسن.. وهكذا.. ولكن الغش كان واردا.. ايضا..

يعد رئيس العمال بعلبة من الماهوركا لكل اثنين.. ثم يعطيها فى النهاية الى اربعة.. اما الفرق الباقى فيحتفظ به رؤساء العمال لانفسهم. وكذلك كانوا يفعلون بالثقاب.. كل واحد يحصل على علبتين من الثقاب. وهكذا ينتهى اليوم.

وما ان يهل اليوم التالى، حتى يبدأ اللهاث من جديد، ويهرعون الى العمل وهم يتسابقون..
وطوال الوقت كنت تسمع صياحهم وهم يستحثون بعضهم البعض للاسراع فى العمل.
- لماذا لا تعمل..؟ انك تعطلنا.. بسببك لن نحصل على دخان. وغالبا ماتحدث المشاجرات الدامية والمعاركة العنيفة.. كان السجناء يضربون بعضهم البعض بالمجارف والمعاول وبكل مايقع فى ايديهم. ولم يكن من النادر حصول عمليات الغش.. فكان الدخان الموعود لا يصل الى ايدى السجناء.. ويتعللون لهم بان المعدل الاحصائى للعمل لم يوف به.. او المخزنجي لم يحضر.. او الماهوركا وزعت على رؤساء العمال.
وفى اليوم الذى لايكون فيه دخان.. يضطر كل عشرة رجال لتدخين سجارة واحدة.
وعندما استلمت عملى الجديد اعطانى (ليام) فى الحال خمسين صندوقا من الماهوركا..
وعندما مد يده لى بها قال:
- ارجو ان تحسن استخدامها جيدا فانها اهم من وجبة الخبز الكبيرة. وقد اردت ان لا استغل هذه الوسيلة.. اردت ان استغل خبرتى فى عمل السكة الحديد.. فجاهدت، اولا لتكون لى علاقة طيبة مع موظفى السكة الحديد. وقد ساعدنى بالطبع موضوع الدخان كثيرا.. ولحسن الحظ فان معاملتى للموظفين وعدم محاسبتى لهم جاء بالنتيجة المرجوة.
وكانت العربات تفرغ فى الزمن المحدد لها تماما.. واعطيتهم عدة صناديق من الماهوركا مكافأة لهم.
وفى نهاية الشهر راجعت حصاد عملى.
فوجدت انه وبعد زمن طويل لا تدفع متالورق ستروى غرامة او ارضية لادارة السكة الحديد.
وارتفعت ارصدة سمعتى فجاة.. وعلا نجم سعدى.
وكان مدير متالورق ستروى سعيدا وفخورا لانه احسن الاختيار عندما عيننى فى هذا المنصب.
وكنت مسرورا بنجاحى.. اما فى الجانب المقابل فقد كان هناك من ساءهم كثيرا هذا النجاح..
وكان على رأس هؤلاء عامل التحويل بالسكة الحديد فى متالورق ستروى.
وفى اول الامر اعيانى ان افهم سبب عدم الرضا ذلك. ولكن بعدها علمت.. ورأيت كيف يضعون العقبات فى طريقى.
كان المدير السابق لقسم الترحيلات ومعه عامل التحويل وبعض الاخرين يقومون باعمال صغيرة غير قانونية.. كانوا يستغلون الشاحنات فى الاعمال الخاصة، فعلوا ذلك بالليل والنهار.
كانت هناك تلال من الفحم على طول امتداد مواقع متالورق ستروى.. لم تكن حراسة احد..
فشحنوها على الشاحنات وافرغوها فى منازل الطلقاء.. وحصلوا من جراء ذلك على مال اقتسموه مع الحرس.
وطبعا رفضت ان امارس مثل هذه السرقات..
فبدات الحرب ضدى.
كانوا يترصدون الاخطاء الصغيرة جدا والتى لابد منها فى كل عمل وينقلونها للمدير العام بتوسع كبير.. ولكن ابستاين كان اكبر من الاصغاء للوشايات طالما لايدفع غرامات لادارة السكة الحديد.

وبعد مضى شهرين تيقنت انى قد إخطأت اذ قبلت هذا العمل... كانت هناك عدة عوامل استطاعت ان ترسخ هذا اليقين فى نفسى... فقد تضافرت مؤامرات عامل التحويل فى خطوط السكة الحديد، مع عدم كفاءة رؤساء العمال، الى الذين كان همهم الاول هو ان يسرقوا، تضافرت هذه العوامل لتقلب حياتى الى جحيم لايطاق.

وسرعان ما ادركت انه يستحيل على الصمود.. فذهبت الى ابستاين ورجوته ان يعفينى من هذه الوظيفة.. غير انه لم يرد سماع ذلك او مجرد الاشارة اليه.

وكان المهندس ستروقنوف صديقا لى وهو المهندس الرئيسى فى قسم (ب. أ. ن) بولشوى للاكترونيات.. صادقته فى زمن الحرب.. وكان تحت التحقيق ايضا بتهمة الانضمام الى طائفة دينية. وحوكم بعشر سنوات سجنا فى المعسكر.. وعاد الى عمله فى ذات المنصب حيث انه كان مقدرا جدا كخبير ممتاز.

امـا مدير ال (ب. أ. ن) فكان من الطلقاء.. ولكن الكل يعلمون بأن الرئيس الحقيقى هو ستروقونوف.. والطليق كما يقولون كان (عين الحزب) ولذلك فهو يحصل على راتب ضخم بينما يعمل ستروقونوف من اجل طبق حساء وقطعة عصيدة مهما كانت فهى لاتسمن ولا تغنى من الجوع.

وكان الطليق يستمع بالطبع الى جميع آراء ستروقونوف فهو يعلم جيدا انه لايسوى شيئا بدونه... ولن يصل الى شىء بغير مشورته ورأيه.

ورجـوت سـتـروقونوف ليسعى فى مساعدتى، وكان مستعدا ليعيننى مراقبا فى (ب. أ. ن) فورا.. وهى وظيفة لاتتطلب كفاءة معينة.. وسعدت لاننى سأتحرر من عملى الحالى المتعب.

ولكن هل يتحقق ذلك..؟ لقـد تحـدث سـتـروقونوف مع ابستاين الذى يتوقف الامر على موافقته.. ولكنه لم يقبل الرجاء.. وحجته فى ذلك انه لايجد بديلا مناسبا يحل مكانى.

وخـدمتنى الظروف حتى ذلك الوقت.. ثم حدث ما لم يكن فى الحسبـان كانت مؤسسـة متالورق ستروى فى حوجة الى قماش الخيام لتصنع منه معاطف المطر للموظفين.. وفى ذلك الوقت كان القماش بحوزة ال (ب.أ.ن) فقط.. وتقدم ابستاين برجاء خاص لستروقونوف ليرسل له المواد اللازمة. واستغل ستروقونوف هذه الفرصة ونجح فى نقلى.

وعندما عاد ابستاين لمكتبه قال مخاطبا ليام...

بعت شتاينر باثنى عشر معطفا للمطر.

وكان على أن احضر لمقر عملى الجديد فى يوم الاثنين.. وقبلها ذهبت للافطار.. وعندما عدت من المطبخ للعنبر علمت من النوبتجى ان رئيس الحرس كان يبحث عنى.. واندهشت.. ماذا يريدون منى؟

فكرت فى الامر وكلى قلق وخوف، ولم استطع ان اجد الجواب الحقيقى كان متفقا عليه ان تكون راحتى هى يوم الاحد، وفى يوم الاثنين استلم عمل المراقبة فى (ب. أ. ن).

وذهبت الى العنبر الذى يقيم فيه ستروقونوف.. فلم اجده.. ولم يكن امامى خيار آخر غير الذهاب الى رئيس الحرس.. وسألته..

ـ انت بحثت عنى..؟

ـ نعم لن تذهب الى (ب. أ. ن).. ولكن ستذهب للمصنع رقم خمسة وعشرون قالها وادار ظهره لى..

كنت اعلم اننى لا استطيع تغيير شىء..

فانضممت الى الوحدة التى تعمل فى المصنع رقم خمسة وعشرون.
كان المصنع يقع ناحية الشمال.
هناك فى البعيد.. ابعد النقاط التى تتفرع منها المنطقة الكبيرة.
البناء العام كان مشادا من الطوب الاحمر.. وكان متكئا على انحدار المرتفع..
كان يرى من البعيد.. ولكن القلة القليلة هى التى كانت تعلم ماذا يدور بين اروقة ذلك المصنع.
الذين عملوا هناك لم يتكلموا ابدا عن ذلك.
وعندما ظهرت فى المصنع، اعطونى مجموعة من السجناء كانت تخرج من عربات السكة الحديد مادة طينية حمراء، على شكل كتل مختلفة الاحجام.
ثم توضع تلك الكتل على اوانى كبيرة وتستقر بعد ذلك فى المعمل الاعلى. علمت فى ذلك المصنع لاسابيع عديدة..
ولم ادر ماذا ينتج.. كل شىء كان سريا..
معظم الذين يعملون هنا من المجرمين.. لذلك كان بامكان ال. ن. ك. ڤ. د ان يحتفظ بسر ذلك المصنع.. على الرغم من ان الاشياء لاتظل سرا الى الابد.
العمل الذى كنت اقوم به لم يكن سهلا على الاطلاق.
ثلاثة رجال فقط، كان عليهم فى ظرف احدى عشر ساعة ان يدفعوا اربعين عربة من عربات السكة الحديد ويقلبوا محتوياتها من الجرف.
المعدل الاحصائى كان يمكن الوفاء به لو سار كل شىء على مايرام ولكن رياح نوفمبر الشتوية التى هبت بكل عنفها وجبروتها تسببت فى احداث ظاهرة غريبة ومحيرة..
قضبان السكة الحديد اصبحت واسعة فى بعض الاماكن.. وضيقة فى اماكن اخرى.. لذلك كانت العربات احيانا تقفز من على القضيب.
وتعبنا فى رفع العربات واعادتها لوضعها الامثل.
استعنا بالاخشاب الكبيرة والسيخ والحديد.. وتعبنا للغاية فى رفع العربات التى كانت محملة الى نصفها..
فى الغالب كنا نحتاج لاكثر من ثلاثين دقيقة.
وعند التفريغ كنا ندوس على تلك المادة الطينية.. ولم نستطع ابدا ارتداء احذية الجليد..
وفى درجة الحرارة التى كانت تصل الى خمس واربعين درجة تحت الصفر.. كان يحدث ان تتجمد ارجلنا داخل الاحذية.. لذلك كنا كل ساعة نذهب الى القاعة الدافئة كى نستدفئ قليلا.
ـ فى عام ١٩٤٧م وعندما لم تصل الى نورلسك اية مواد تموينية من امريكا، انقضت كميات الخبز والطعام..
فبدأت من جديد فترة الجوع..
من داخل روسيا وصلت مواد تموينية قليلة..
القرويون الذين كانوا بانتظار الكولخوز بعد الحرب وجدوا أنهم كانوا مخدوعين.
فى أيام الحرب نشطت الدعاية الستالينية.. وانتشرت أخبار مفادها أنه وبعد الحرب سيحل الكولخوز ويعم.. كانت هذه خدعة كبيرة. لم تكن بالطبع هى المرة الاولى.
وفعل القرويون نفس الشىء الذى فعلوه عام ١٩٣٣ ـ ١٩٣٤م لم يبذروا من البذور ما

أمروا به.
الجهاز الذى كان يرغمهم على العمل فى الكولخوز انكسر فى زمن الحرب وفى زمن الاحتلال تماما..
وكان حصاد عام ١٩٤٦م ـ ١٩٤٧م ضعيفا وفقيرا للغاية..
مولوتوف فى احدى خطبه قال ان الخطأ يقع على الجفاف.. ولكنها لم تكن الاكذوبة الاولى التى نطقها اقرب معاونى ستالين، وزميل زينترويوف عند توقيع الحلف بين الاتحاد السوفيتى والمانيا الهتلرية.
وفى نفس السلبية انتهجها العمال.
فى عام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧م تدنى الانتاج حتى وصل الى اقل من معدل ايام الحرب.. وتلك كانت هى الحقيقة الواضحة رغم الاحصاء الكاذب لمكتب الاحصاء الرئيسى. والسبب كان ايضا قريبا من ذلك السبب الذى حدا بالفلاحين ان لايبذروا.
كان العمال يأملون ان ينالوا حريات اخرى بعد الحرب.. وعلى أجور اكبر. وبدلا عن ذلك كانت الوعود المطولة الوفاء. وهؤلاء العمال العائدون من الحرب لم يكونوا خائفين.. كما كانوا فى السابق... لم يكن تحديهم سافرا للسلطة ولكنهم مارسوا المقاومة السلبية.. لم يحضروا للعمل عدة ايام..
وكان ذلك هو الحال فى القرى.
الارهاب والتسلط جمحا بالسادة الى آفاق اخرى من الترصد والتنكيل .. فقبضوا على الذين غابوا عن العمل فى مدة الثلاثة ايام والقوا عليهم القبض وحاكموهم بتهمة التخريب وارسلوهم للمعسكرات.
وجاء للمدن الصناعية سجناء جدد يعملون فى السخرة.
القرويون العاملون فى الكولخوز ولم يصلوا الى معدلات الانتاج المطلوبة ارسلوهم ايضا الى المعسكرات واسكنوهم فى اقصى الشمال.
ولكن ذلك لم يكن مجديا على الاطلاق.
وقرر ستالين ان يخطو خطوة جديدة..
استبدل العملة السائرة بغيرها..
لم يكن فى روسيا ـ ومنذ وقت طويل ـ اغنياء يمسهم تغيير العملة بأى سوء.. او خسارة. بل كان هناك الموظفون.. القرويون.. المثقفون.. واذا كان مثل هذا القول يرن شاذا وقبيحا فى الاذان.. فان اكثر الناس تعاسة وتأثرا بين التعساء والمتأثرين، هم السجناء.. بناء على الامر الصادر. كل من كان يملك نقودا فى مكتب التوفير، استبدلها على النحو التالى:
ـ مبلغ ثلاثة الف روبل.. الاستبدال ١ ـ ١
ـ مبلغ عشرة الف روبل.. الاستبدال ١ ـ ٣
ـ اكثر من عشرة الف روبل.. الاستبدال ١ ـ ١٠
الوحيدون التعساء هم السجناء...
من كان له حساب او جزء من مال، أرسله اقاربه وذووه.. كان عليهم ان يستبدلوا دون الناس جميعا بنسبة ١ ـ ١٠
ايام الحرب كانوا يعدون السجناء بالعفو عنهم بعد الانتصار... لاسيما فى السنوات الاخيرة.

فى الاجتماعات التى دعى اليها السجناء على وجه الخصوص تحدث ممثلو الادارة فى ال ن. ك. ف. د طالبين من السجناء المزيد من الاحتمال - العمل - الجوع - الصبر.. لان الانتصار على هتلر معناه الحرية لهم.
مرة كنت احضر احد تلك الاجتماعات التى تحدث فيها مدير معسكر نورلسك.. العقيد فورونوف.
وقد بدا العقيد حيثه بهذه الكلمات..
- يازملاء .. نعم.. نعم .. يازملاء.. لم يختلط على الامر..
كلكم انتم زملاؤنا.. فقط انتم معزولون مؤقتا .. وبعد الحرب ستكونون جميعا طلقاء..
ولكن الوعد بالعفو كان من نصيب المجرمين فقط، الذين عملوا اقل. اما السجناء السياسيون الذين كانوا اكثر انتاجا فى زمن الحرب... وصبروا وصابروا وثابروا على الجوع .. فان العفو اخطاهم.
عندما كنت طريح الفراش بالمستشفى فى زمن الحرب قابلت احد معارفى القدامى ديفد افانوفج كياساشفيليا العضو السابق لحزب المنشفيك فى اللجنة المركزية فى قروزيا..
وتحدثنا عن المستقبل.
وتحدثنا ايضا عن الانتصار على هتلر..
كان ديفيد يعتقد بأن الاوضاع فى روسيا ستتغير بعد الحرب.. ولم اقبل تفاؤله.. قلت له..
- ان المنشفيك كثيرا ماخدعوا.. واخاف ان يخدعوا هذه المرة أيضا..
- للاسف - انت على حق.
قالها بمرارة واقتناع.
ساد المعسكر - كما ذكرت - الجوع.. نفس الحال التى كانت سائدة فى بداية الحرب.. ومنذ الخامسة صباحا.. كانت الصفوف تنتظم امام المطعم.. وعندما يفتح بابه فى السادسة يستلم السجناء كميات بسيطة من الطعام.. وما ان يبدأون بأكلها فى لحظات حتى تنتهى.. لم يحتملوا من جوعهم التحرك بها نحو العنابر.
اذكر ان نقاشا دار فى الامم المتحدة عن اوضاع السجناء فى الاتحاد السوفيتى.
كان الحديث الذى قاله نائب وزير الدولة مكويان والذى أصر فيه بأن ارض الاتحاد السوفيتى خالية تماما من معسكرات العمل الاجبارية.. وان السجناء يعيشون عيشة يحسدهم عليها العمال فى انجلترا وامريكا.. كان ذلك الحديث اكذوبة بالطبع.. ومع ذلك فقد اضاف يقول.. ومن يدعى عكس ذلك يكون كلامه اساءة فى حقنا وقذفا ندينه بشدة.
وبمضى الوقت تعرفت على كل اقسام المصنع الخامس والعشرين.
الانتاج الرئيسى لهذا المصنع كان هو الكوبالت.
كانوا ينقلونه على صناديق صغيرة الى المطار.
حاولت بشتى الطرق ان اجد عملا سهلا.. ولكن الكلمة العليا هنا كانت للمجرمين فباءت كل محاولاتى بالفشل.
لذلك قررت ان احاول مرة اخرى فى مجال السكة الحديد.
كتبت طلبا لادارة السكة الحديد وذكرت باننى عملت وقتا طويلا كرئيس للموظفين فى دودنكا.
وكنت اعرف رئيس قسم السكه الحديد بنورلسك واسمه جليلس، منذ ان - عملت فى

دودنكا.. لذلك فقد كتبت الطلب باسمه.. ووعدنى بالاستجابة الى طلبى.. ومرت عدة اسابيع ولم احظ بما يشفي غليلي.. لابد ان شيئا ما وقف في طريق التحاقي بالسكة الحديد.
ولجات الى صديقي فاسليا جويراكوف والذى انقضت مدة عقوبته.. واصبح الان طليقا ويعمل كرئيس للمهندسين فى قسم المجارى بنورلسك.
وسعى فاسيليا لمساعدتي.. وكان سعيه حقيقيا وجدا..
وفى ربيع عام ١٩٤٨م تم تعييني في وظيفة اخصائي المجارى فى احد الاقسام التى كانت تابعة لرئاسته.. وكان على ان ارحل الى القسم الثانى فى المعسكر تبعا للوظيفة الجديدة.
وجاء يوم ذهابي الى مقرى الجديد بالقسم الثاني.
وحضر فجاة وقبل ان يتم ذلك، رئيس الحرس وقادنى من المعمل الى المعسكر.. حيث استلموا منى كل الاشياء التى حصلت عليها فى القسم السادس.
بمجرد ان يحصل السجين على ملابس جديدة.. بنطال.. معطف.. قميص.. الخ. يسارع ببيعه فى الحال. الشيء الذى جعل ادارة ـ المعسكر تكثف المراقبة. فاصبحت عملية البيع والشراء صعبة ولكنها بالطبع لم تتوقف.
عندما مررنا فى طريقنا الى القسم الثانى بالمعسكر تصادف أن رأينا احد عمال التفريغ فى منطقة (بى. اى. زاد) يقع من السقالة وتتحطم ساقاه... كانت دماؤه الحمراء تغمر السقالة.. وكنت سعيدا لانى لم اكن مديرا لقسم الشحن والتفريغ.. فقد درجت ادارة المعسكر على تحميل مدير القسم مسئولية مثل ذلك الحادث.. متناسية بالطبع أن المعدل الاحصائى الكبير للعمل هو السبب.
وبعد ان مررنا اغلقت الابواب الحديدية خلفنا.. وكان يتبعنى الجنود.. ومررنا خلال نورلسك ايضا كان الوقت متاخرا وانتهى اليوم العملي.. ومن كل الجهات كانت قوافل السجناء تتقاطر نحو ساحة المعسكر تحت الحراسة المشددة.. ورأيت الكثيرين من الذين اعرفهم.. وكانوا يلوحون لى بايديهم.
وبعد انتظار قصير امام باب القسم الثانى من المعسكر، سألنى رئيس القسم..
ـ هل بك قمل..؟
ـ كلا ليس بى قمل..
وكانت تلك هى الحقيقة لحسن الحظ.. فاعطانى وريقة للعنبر الذى تقيم به الوحدة التى تعمل فى الورشة الميكانيكية لادارة المجارى.
وعلم رئيس العمال اننى قد اضفت الى وحدته، فافسح لى مكانا فى الكنبة المزدحمة. ورقدت على بعد امتار منه.. وكان ذلك يعد شرفا عظيما.. وعملت فى الورشة الميكانيكية مع صانعى الاقفال اعمالا مختلفة.. كنت اجلب السيخ من الساحة وكذلك الاسلاك الغليظة.. وكان من واجباتي العملية ان اقوم بقطعها الى اطوال مختلفة.
ومثل هذا العمل فى العادة يؤديه اثنان.. على المطرقة والسندان.. احدهما يمسك بالحديد المراد طرقه او قطعه والآخر يضرب بالمطرقة، بعد ان يوضع بالطبع على السندان.
وكنا نتبادل المواقع من وقت لاخر.. يمسك هو واطرق انا، ثم امسك انا ويطرق هو..
زميلى فى العمل كان من قدامى صانعى الاقفال، وكنت مساعدا له... وعندما يخطىء يلقى علي بتبعة خطاه ذاك.. ويوما قلت له محتجا..
ـ انت صاحب خبرة ومسئول عن العمل فكيف تحملنى اخطاءك؟

ـ انت يحميك صديقك.. وانا سيلقون بى فى اعمال اصعب.
وبعد مرور عدة اسابيع تمت ترقيتى واصبحت كاتبا فى جراج ادارة المجارى.
وكنت فى هذا العمل اصطدم كثيرا بالرؤساء.. وقد حاولت ان اجد عملا جديدا.
وكان عملى فى السكة الحديد من الذكريات الطيبة بالنسبة لى: ولذلك فقد كنت اسعى وراءه دائما. وساعدتنى الظروف.
تم ترحيل عمال قسم المجارى للقسم الثالث من المعسكر.. وكان ذلك بالطبع هو قسم السكة الحديد.
وبعد ذلك قادونى لوحدة السكة الحديد التى كانت فى العنابر على الجهة المقابلة.
ورحب بى الرجال كثيرا هناك.. لان رئيس قسم الشحن والتفريغ اعلن بانه سيقوى تيم موظفى السكة الحديد بموظفين ذوى كفاءة.. وبالطبع كان يفكر بى.

قبيلة ساموبد المضيافة

عينت فى محطة سكة حديد نورلسك رقم ٢ ..
كانت هذه المحطة تقع فى منتصف البلدة.. وهى اهم المحطات الحديدية فى نورلسك..
وكانت بها مخازن الادوات الفنية.. وهناك ايضا.. منشار كبير للاخشاب.. جراجات..
وورش كثيرة..
وعدد السجناء الذين يعملون بها حوالى الستين سجينا.. يعملون صباحا ومساء..
كل الاعمال كان يقوم بها السجناء ماعدا وظيفة رئيس محطة السكة الحديد.
حتى المحولجية وباقى الموظفين كانوا ايضا من السجناء.
كان الحرس طوال اليوم يراقبون المواقع التى نعمل فيها.. غير انه وفى كثير من الاوقات
كانت رقابتهم لاتزيد عن مرة واحدة فى اليوم.
هنا كانت لدينا حريات اكبر من تلك التى كانت لنا فى ميناء دودنكا.
هناك كنا نتحرك بحرية داخل الميناء..
اما هنا فاننا نستطيع ان نتجول فى المدينة ذاتها..
ومن واجبات الموظفين الطواف الرسمى على المواقع المختلفة ـ ومتابعة عمليات الشحن
والتفريغ.. لذلك لم يستطع الحراس ان يتابعوا كل خطواتهم وكان من السهل على الحراس
مراقبة السجناء فى مكان محصور.. ولكن اثناء الطواف على المدينة كان ذلك صعبا.. ولو
انه ليس مستحيلا بالطبع... وكان من النادر ان يستغل احد هذه الحرية استغلالا سيئا..
ولكن المجرمين سرقوا.. ونهبوا.. بل وقتلوا ايضا بقصد السرقة..
وقد حدث فى نهاية عام ١٩٤٧م فى نورلسك ان احد المجرمين قتل كل افراد احدى الاسر..
تسلل الى المنزل الذى كان يقع بالقرب من المحطة.. ووجد اربعة من الاطفال الصغار..
تتراوح اعمارهم بين الخامسة والسادسة عشر ومعهم جدتهم العجوز التى كانت
ترعاهم... وعندما دخل القاتل وجدها فى المطبخ فقتلها بالساطور.. وقبل ان يجهز عليها
وجدت الفرصة لتصيح، فهرعت نحوها البنت الكبرى، حيث واجهت نفس المصير.. وبعد
ذلك اقتحم القاتل مكان الاطفال واجهز عليهم جميعا.. وجمع ممتلكاتهم القليلة القيمة...
الفقيرة.. وفى اللحظة التى هم فيها بمغادرة المنزل دخلت الام.. فخنقها بيديه حتى الموت.
وتسلل هاربا..
وبعد ايام تحدث بفعلته متفاخرا وكان ثملا.
فحوكم بالاعدام رميا بالرصاص..
حريتى غير العادية جعلتنى ازور بعض اصدقائى السجناء.. وكان معظمهم قد قضى فترة
العقوبة هنا.. وهم يعيشون فى نورلسك منفيين بعد انتهاء عقوبة السجن.
عمل الكثيرون منهم فى المحطة.. وبعضهم كان يعمل فى نفس القسم الذى اعمل به.. جاءوا
لرؤيتى.. لم ياتوا جميعهم.. بعضهم تهرب من لقائى .. وكانت فرصة لاختبر وفاء هؤلاء
الزملاء. واغرب شىء ان الذين كنت لا اعتقد بصداقتهم ثبتوا للتجربة ولقونى بالترحاب..
اما بعض الاعزاء فقد تهربوا.
كان هناك والتر سورجى عامل من برلين اصبح طليقا وعمل كصانع للاقفال.. فى كل مرة كان

يستلم راتبه يمر بالقرب من السكة الحديد.. وعندما يتأكد ان احدا لا يراقبه يسارع فيدس فى يدى ورقة من فئة الخمسة والعشرين روبلا.
والتر ميلر من برلين ايضا كان يمر فى كل شكل نصف دائرى كبير من محطة السكة الحديد.
وفى ذلك الوقت تهيأ لى ان ازور بعض الاصدقاء فى منازلهم. وكانت تلك فرصة طيبة لارى كيف يمارس الناس حرياتهم ويعيشونها. بعضهم استطاعت زوجته واطفاله الحضور اليه.. وكانت الزوجات يحملن لاصدقاء ازواجهن الكثير من مشاعر الود والاحترام.
وقد ترددت كثيرا على صديقى فاسيليا واسرته، فكانت زوجته تهش فى وجهى عندما ترانى وتستقبلنى بلطف وحيوية. وعندما اغادرهم كانت تملأ جيوبى بالاكل.
ورغما عن ذلك فانى كنت اتردد كثيرا فى اداء مثل هذه الزيارات ولولا انهم يلحون على ويلحفون، لما قمت بها.. فانا اعلم اننى ربما سببت لهم المضايقات من ال. ن. ك. ڤ. د حين يرصدون تلك الزيارات.
وكانت تلك الفترة بالنسبة لى هى فترة الترف والرفاهية.. لم تكن المساعدات التى تأتينى وقفا على الاصدقاء فقط.. بل كان الطلقاء ايضا يشاركون فيها.. وكانوا يحضرون الى الطعام فى المحطة.
وفى تلك الفترة كانت مجموعة من النساء قوامهن اربعون امرأة، تعمل فى تصليح قضبان السكة الحديد.. وكان يقوم بحراسة هذه الوحدة النسائية ثلاثة من الجنود.. وبحكم الطبيعة البشرية نشأت علاقات خاصة بين نساء هذه المجموعة وبين بعض الرجال العاملين فى المحطة.. وكانت تلك العلاقات تجد مباركة الجنود وموافقتهم.. اذ كن عندما يذهبن مع الرجال الى المنازل الصغيرة المجاورة، يعدن للجنود وهن محملات بالفودكا والطعام.. ومنهن من كانت على علاقة ثابتة ببعض الرجال.. ومنهن من كانت لاتؤدى اى عمل فى المحطة عندما تكون خالية من (الزبائن) والوضع لم يكن غريبا عن الفهم بالطبع..
فبعد الحرب عاد جنود كثيرون ـ وشغلوا وظائف الحرس فى نورلسك.. واولئك العائدون من الجبهة كانت اوضاعهم وامورهم احسن كثيرا من غيرهم.. ولم تكن درجة اخلاقهم عالية من حيث الحفاظ على القيم والاعراف.. كانوا يقاسمون النساء مايحصلن عليه.. ويفعلون اشياء كثيرة لايجرؤ غيرهم على فعلها.. لاتخيفهم العقوبات الصارمة او غيرها.. وغالبا ماكانوا يطلقون سراح المجرمين الذين كلفوا بحراستهم ليتسللوا من الوحدة.. ويقومون بسرقة ونهب منازل الناس.
ثم بعد ذلك يعودون ليقاسموا حراسهم الغنائم.
وأحس السجناء السياسيون بالتغيير..
لم يكن الحرس يسبونهم كثيرا.. وقبل ذلك كانوا يضربون ويقتلون... واختفت تماما او كادت ظاهرة الاعتداء بالضرب على السجين.. وقد كثرت محاولات الهرب فى الاونة الاخيرة من مختلف اجزاء المعسكر..
هربت مجموعات كبيرة من السجناء.. اغلبهم من السياسيين. وذلك بالطبع بعد ان تبخر املهم فى العفو العام وخاب وتبخر. وكان من المعروف ـ كذلك ان جزءا كبيرا من ارشيف ال. ن. ك. ڤ. د قد دمر.. واصبح من المحتمل ان يعيش اولئك الهاربون مختفين فى مكان ما.. وساعدت عودة الجنود المقاتلين، والاسرى، وحسنت الفرصة كذلك امامهم الى الاختفاء وسط المجموعة وانتحال اسماء اخرى.

كانت تلك هى هواجس السجناء الذين لم يفكروا قبلها فى الهروب..
وبالطبع وفى مثل هذه الظروف الجديدة نجحت بعض محاولات الهرب. وقد وصلت بالفعل رسائل منهم تفيد بانهم استطاعوا اختراق الحواجز. ولا احد يدرى كم من الزمن ظلوا ينعمون بهذه الحرية الغالية... ومن الهاربين من تجمد بردا فى تلك الصحراء الجليدية.. والغابات المضلة المهلكة .. ومنهم من قبض عليه ال. ن. ك. ڤ. د بمعاونة الرعاة الذين يعيشون فى ذلك التيه الصحراوى العجيب.. واولئك المنكودون واجهوا مصيرين احلاهما مر.. الموت قتلا فى نفس المكان، او العودة بهم مرة اخرى للمعسكر.

ومنطقة نورلسك حتى كسنوبارسك منطقة غير مأهولة بالسكان وخالية تقريبا.. وتبدا الاماكن السكنية اول ماتبدأ على بعد اربعمائة كيلو متر من نهر ال ينسى.. وتلك منطقة تبدو اكبر من مساحة فرنسا والمانيا معا.. وتقع فيها دائرة سكنية واحدة.. هى اغاركه على الضفة الشمالية لنهر ال ينسى.. اما على الضفة اليمنى فلا يوجد الا الفراغ واللاشىء.
السهل الاجرد فى اغلب الاحيان هو منطقة مستنقعات.. ويمكن عبوره فقط فى فصل الشتاء..

وكان ذلك هو الفصل المفضل للسجناء الهاربين.. لعله كان يخيل اليهم انه من السهل التغلب على الرياح الباردة والجليد العميق عن المستنقعات والذباب الذى لايستطيع الانسان ان يحمى نفسه منه.
فى فصل الصيف تتحول الانهار التى تجرى فى السهول الى بحيرات هائلة لايمكن عبورها قط.
وكان خطر الناس قليلا اذ لايجرؤ احد على ارتياد تلك الاصقاع حتى الصيادون كانوا يترددون عندها ولايقدمون على اقتحامها. الخوف الوحيد كان هو الرعاة والمطاردة المستمرة من ال. ن. ك. ڤ. د.. فى شبة جزيرة تايمر كانت تعيش قبيلة ساموید الرعوية.. التى كان افرادها يمتهنون تربية حيوان الرنة، واصطياد الثعالب. وكانوا دائما ينصبون الخيام المصنوعة من جلد حيوان الرنة حول البحيرات وبالقرب من الانهار. ولهم كلاب تشبه الثعالب.. تشم انوفها رائحة الاغراب من مسافات بعيدة.. وعندها تعوى بعنف فيخرج الرعاة من خيامهم لتبدأ المطاردات المحمومة.. على عكس ما كان يجرى ذات يوم بعيد.. اذ كان الغريب يعتبر ضيفا يقدم له الزاد والقرى.. ويكرمونه فى الليل بالنوم فى احضان الزوجات والبنات.. وكانوا لايسألون الغريب من هو.. وانما يقدمون له اول شىء الشاى الاخضر المخلوط بالملح ودهن حيوان الرنة.
ولكنهم بدأوا الان يهتمون.. ويريدون ان يعرفوا هل للغريب وثائق ثبوتية.. واذا كان لايملك منها شيئا القوه تحت رقابتهم الصارمة وكرمهم المبالغ فيه.. المريب.. وسارع بعضهم الى محطات ال. ن. ك. ڤ. د المتواجدة من مسافات معينة.. (كل ثلاثمائة كيلومتر).. وفورا يجىء ال. ن. ك. ڤ. د.
على العربات والزحافات التى تجرها حيوانات الرنة.. والكلاب.. يسرعون ليقبضوا على الهارب.. ومقابل كل هارب يقبض عليه تدفع جائزة بقيمة فراء ثعلب. ولم يكن طريق الحرية موصولا بخطة الهرب فقط.. بل كان السجناء يكتبون للوزارات السوفيتية المختصة رسائل عديدة يطلعونها فيها على اكتشافاتهم القيمة، فى الذهب والمعادن الاخرى.. ورغم ان اغلبية تلك الرسائل كانت من صنع الخيال الا ان بعضها كان صادقا.

فالعالم المعروف قلاذانوف اكتشف فى نورلسك قشرة اليورانيوم..وسجين آخر اعلن بأنه وجد قريبا من نورلسك حقلا للزيت.
وثالث عثر على اكبر منجم للفحم فى العالم بالقرب من نهر تونقوسكا ومن الاختراعات الخيالية الغير جادة اختراع قلوشكوف الذى استطاع ايهام ال. ن. ك. ڤ. د عن طريق رسائله العديدة، انه اخترع (البسكليت الطائر).
وحاول ايضا سجين آخر يدعى قورسكى ان يثبت امكانية زراعة اشياء كثيرة فى نورلسك.. مثل الخضروات والقمح.
وغالبا مايفشل اولئك النفر فى الوصول الى اهدافهم وغاياتهم. اذكر اننى عندما كنت اعمل فى دودنكا بالميناء - وحتى الان فى السكة الحديد هنا فى نورلسك - اذكر ان اناسا كثيرين نطقوا امامى باسماء سجناء وسالونى ان كنت اعرفهم او اعرف شيئا عنهم.
كان معظم اولئك السائلين، نساء يبحثن عن ازواجهن او اولادهن. وكان ال. ن. ك. ڤ. د يحرم تحريما قاطعا اى زيارات يقوم بها الناس الى ذويهم من السجناء السياسيين.
ومن النادر جدا ان يحصل الاقرباء على تصاريح او اذونات بزيارات خاطفة للسجناء..
مثل تلك التصاريح كان من الممكن الحصول عليها فى موسكو من ال. ن. ك. ڤ. د بطرق ووسائل ملتوية كثيرة..
وبعض الناس يظلون فى سعى دؤوب وراء الحصول على معلومات عن كيف يعيش السجناء السياسيين.. ومنهم من ركب الصعب وسافر هنا وهناك على امل ان يجد ضالته.
لم يكن احد يعلم فى اى سجن يوجد قريبه الذى يبحث عنه.. حتى صناديق البريد واختام الرسائل التى على الغلاف لاتثبت شيئا محددا.
على ان بعض المحظوظين عثروا على ذويهم بعد شهور وشهور مضنية من البحث الدقيق.
وكانت الصعوبات تبدأ فى دودنكا. فالدخول الى نورلسك لايتم الا بابراز الاذن الخاص بذلك.. ومن لايحمل اذنا يبقى فى السفينة.. واذا نجح احد فى المرور دون ان تلحظه الرقابة انتظرته صعوبات جديدة .. ففى نورلسك لايستطيع اى غريب ان يبيت فى الحانات بدون تصريح من ال. ن. ك. ڤ. د ولكنه اذا دفع مبلغا كبيرا من المال استطاعوا ان يدبروا له مكانا للنوم.
ثم يبدأ البحث بعد ذلك.
وهؤلاء الباحثون التعساء كانوا دائما يجلبون معهم صررا ولفافات بها طعام للسجناء.
ويصيح بعضهم للوحدات التى تكون فى طريقها للعمل..
- يا اخوه هل تعرفون بتروف..؟
وقبل ان يرد احد يهدد الجندى الحارس ببندقيته فيسيطر الصمت. ايام وايام.. تظل فيها النساء دائرات حول الاماكن التى يؤمها السجناء ولا يجدن خبرا عمن يبحث. ويحدث بالطبع ان يعرف السجناء السجين المبحوث عنه.. ولكنهم لايعلمون فى اى وحدة او قسم هو... حدث ذات مرة وانا فى طريقى للمعسكر ان اقترب منى شيخ عجوز وصاح باسم السجين الذى يبحث عنه.. وكان موجودا فى معسكرنا.. وبالصدفة المحضة كان الجندى الحارس رجلا طيبا، وسمح لنا ان ناخذ الطرد الذى احضره الرجل العجوز. واوصلناه بسلام للزميل السجين مع تحيات والده.. ولكن هذه الواقعة كانت نادرة جدا. وكان على

الذين قطعوا الاف الكيلومترات ان يعودوها مرة اخرى، وبلا شيء.

تسربت اخبار مذهلة مفادها ان ال (بى. او. اف) فابريقة اوبوقاتيتلنا بوليشايا قد انهارت.. وهى بناية ضخمة بناها السجناء المؤبدون الذين كانوا يسكنون في الجوار القريب.. وكانت بناية حديثة يراها القادم الى نورلسك على يده اليمنى.

وقد وصلت معداتها من امريكا في صناديق كبيرة.. الصقت عليها ديباجات تحمل رمز.. (من الامم المتحدة).

من هذا المصنع الجديد كانت ترحل المعادن الثمينة الى مصنع كبير يبعد حوالى الكيلومترين..

وقد ظل العمل في بناء هذا المبنى دائرا ومستمرا حتى عندما كانت درجة الحرارة تنحدر الى الخمسين تحت الصفر.

والمرجح ان الرقابة على تنفيذ البناء لم تكن دقيقة كما ينبغى.. او ربما حدث خطأ فنى ما.. فقد جاء فصل الدفء وتفككت المواد وانهار جزء من البناء.. وفي الحال ارتفعت النغمة المألوفة..

التخريب..!

وعندما تسرب الينا هذا الخبر، كنت بالصدفة اسمع رئيس السكة الحديد يسأل ضابطا كان ينتظر القطار..

- هل تعلم شيئا عن الحادث؟

- لم يحدث شيء ذو اهمية..

- هل هناك ضحايا..؟

- ثلاثة وعشرون قتلى.. وستون جريحا.

ولم افاجأ لرأى الضابط في اهمية الحادث.. فعدد القتلى والجرحى كان شيئا تافها وبسيطا وغير ذى موضوع بالنسبة لضابط ال. ن. ك. ف. د.

بعد قرار الكومنفورم
لا ....

كان ذلك فى صيف ١٩٤٨م
كنت وقتها مشغولا باعداد وثائق الشحن.. ورن جرس التلفون، فرفعت السماعة.
كان الصوت ذو الطابع الخاص.. هو صوت جوزيف قال:
ـ حدث شيء غير مألوف..
ـ ما الذى حدث...؟
ـ لا استطيع اخبارك بالتلفون..
ـ تكلم بالالمانية..
ـ لا... ولكن حاول الحصول على جريدة اليوم.. ذاك الذى تجده يمكن مقارنته ببداية الحرب العالمية.. او بثورة اكتوبر..
وتركت العمل.
استولت على تفكيرى رغبة واحدة ملحة.. هى كيف احصل على جريدة..
وهرولت الى محل المبيعات القريب من نورلسك..
هناك كنت اعرف طلقاء يحصلون على الجريدة..
وفى الطريق كنت افكر فى ذلك الحدث الذى يقارن بثورة اكتوبر.. هل مات ستالين..؟
وعندما دخلت الى قسم البيع وقفت افكر.. الى اين اذهب. واخيرا تذكرت بلوتكن فبحثت عنه.
فى غرفته كانت هناك سيدة.. ولكنها لا تعرف اين هو.. وذهبت الى مارييف..
كان معه بعض الناس يبحثون مشاكل العمل..
واستغربت جدا.. كيف يكون هناك حدث خطير ولا احد يريد ان يتحدث عنه.
وعندما انصرف الناس وبقى مارييف وحيدا، رجوته ان يسلفنى الجريدة.
وفى الحال علم ما اريده منها.
كان مارييف يدرك جيدا انى ملم بكل ملابسات الظروف اليوغسلافية.. فقال لى:
ـ اى نوعية من النلس هؤلاء الذين يتجرأون على فعل شيء كهذا..؟
ـ اناس جيدون.
وجلست فى الركن وبدأت اقرأ..
وعندها فهمت لماذا قال مارييف ما قال..
كان ذلك فى الحقيقة حدثا عالميا من الطراز الاول.. حاسما وقويا لم يمكنهم من تدارك عواقبه فى تلك اللحظة..
وكنت سعيدا.. لان حزبى ورفاقى الاماجد استطاعوا ان يقولوا.. لا...!
وعندما عدت فى المساء الى المعسكر تحدثنا عن الكومنفورم وتيتو ويوغسلافيا..
وكانت ردود الفعل عن الغضب اليوغسلافى مختلفة جدا.. ولكن الجميع سعدوا بالحدث التاريخى العظيم..
وكان اكثرهم سعادة قدامى الشيوعيين الذين، كان اغلبهم قد فقد الثقة فى الاشتراكية..

والان.. هنـاك في العالم قوة، عرفت ان في الاتحاد السوفيتى قهرا وسوء توظيف لتعاليم ماركس.. وممارسة لانصاف الحلول في المجتمع الاشتراكى فقط للاحتفاظ بالسلطة سيفا مصلتا على جميع الرؤوس.. وكان واضحا لكل ذى عينين ان ستالين لن يتقبل ذلك بهدوء. فهو من النوع الذى يمكن ان يبتلع كل مايتهمه به الاعداء، ولكن ان يقول احد في صفوفه.. لا.. فذلك ما لن يمر بسلام ابدا.

وكنت على ثقة شديدة باننا كسجناء سياسيين سندفع الثمن الباهظ. لان ذلك ماكان يحدث دائما وابدا.. تسوء الاحوال في اسبانيا فيشعر بذلك مباشرة السجناء السياسيون.. وعندما انسحب الجيش الاحمر امام جيوش هتلر كان علينا ان نحنى ظهورنا لكى يعلوها زبانية ال. ن. ك. ڤ. د بسياطهم اللاهبة.

فلماذا يكون الامر الان مختلفا..؟

وجلسنا في انتظار اللطمة الاولى

وسرعان ما انتشرت الاخبار..

قالوا ان لجنة سرية ستحضر من موسكو..

وفي نورلسك بدأ يظهر كبار ضباط ال. ن. ك. ڤ. د والذين كانو لايتبعون لقيادة نورلسك..

ولكن ذلك لم يكن يعنى شيئا خاصا.. ففى كل عام وعندما يكون نهر الينسى صالحا للملاحة في نورلسك تجيء كل انواع اللجان والرقابة واقامت اللجنة ثلاثة اسابيع.. وخلال ذلك الوقت قامت بزيارة معسكرات عديدة... وعند مبارحتها المنطقة عائدة الى موسكو بداوا في اخلاء بعض اقسام المعسكر ... ووزع السجناء على اقسام اخرى.. وسمعنا ان بعض تلك الاقسام التى اخليت ستصبح سجنا.. وان السجناء فيه لن يذهبوا للعمل.. وسمعنا ايضا ان هذا السجن الجديد ليس لنا ولكنه للذين حوكموا كمجرمى حرب. وسمعنا الكثير..

قالوا ان السجنـاء سيعـاملون كما كانت روسيا القيصرية تعامل سجنائها، تقيدهم بالسلاسل.. وتسلط العصا على ظهورهم في كل حين.. ويقادون الى العمل كما تقاد السوائم..

ولم نكن نستطيع ادراك الحقيقة في هذه الاخبار المتضاربة..

لم يكن احد يعلم شيئا..

وكـان الجو العام غائما مكهربا بشحنات الانفعال والتوتر والترقب، وعم الخوف قلوب الطلقاء الذين قضوا فترات عقوباتهم..

فقد قيل بان كل من كان بالمعسكر سابقا سيعاد سجنه من جديد.. وكان الاحساس العام، بان هناك شيئا يعد هو اصدق الاحساسات.. وزاد القلق عندما نمى الى علم البعض ان مؤسسات نورلسك تلقت توجيهات بتسجيل السجناء الزائدين عن حاجة العمل العادي..

ولم تكن هذه اشاعة، ولكنها كانت حقيقة مؤكدة.. شكلت المرتكز الاساسي للوصول الى ان شيئا ما يعد..

سالت مرة كبـير موظفي ادارة السكـة الحـديد في نورلسك، ما هي الحقيقة بالنسبة للتسجيل.. فأسر لي بأن كشف التسجيل موجود كحقيقة لا تقبل الشك.. وقال ان اسمي

انا مسجل فيه.. وهو لا يستطيع ان يقول شيئا معينا. وفي النصف الثاني من شهر اغسطس دعيت الى مكتب القسم الثالث من المعسكر قال لي مدير قسم العمل:
ـ غدا لا تذهب الى العمل.. ولا تتحرك من العنبر هنا او هناك.. ابق فيه حتى ارسل لك..
كان القلق الذي كان يغلي بالداخل طيلة الاسبوع الماضي.. وزاد القاطع بان ابقى في العنبر.. ترى ماذا يدبرون لي..؟

وسالت بعض الاصدقاء ان كان احد منهم قد تلقى تعليمات مشابهة..؟
وهل تشمل هذه الاجراءات عددا كبيرا من السجناء..؟ او هي لي وحدي..؟ وتاكد لي جليا انني وحدي المعني بهذا الاجراء.. وان احدا من معارفي لم يدع الى ذلك..

وفي السابعة صباحا ظهر رئيس الحرس ليرى هل الجميع مستعدون للعمل.. وكرر تحذيره لي بالبقاء في العنبر حتى الثامنة، ثم اذهب الى مكتب المعسكر..
وقبل الثامنة بدقائق قدمت نفسي لرئيس قسم العمل.. وقلبي يخفق بشدة فقام بالاتصال التلفوني بغرفة الحرس.. وسال ان كان الحرس مستعدا لغرفة العمليات..؟ وعند سماعي لذلك علمت الى اين يقودوني.. مرة اخرى الى مبنى الـ ن.ك.ف.د. البغيض..
وبعد انتظار دام لدقائق قليلة رن جرس التلفون.. واعلن احدهم بان الحرس جاهز للتحرك.. فاخبرني رئيس قسم العمل ان اقدم نفسي للحرس.. وكذلك اخبرهم بأني لن اعود الى العنابر.. ولكنه سرعان ما غير رأيه.. وقال لأحد الموظفين:
ـ اذهب معه الى الباب الخارجي وسلمه الى الحرس..!
واستلمني جنديان مسلحان..
قررا ان نسلك الطريق الطويل، لأنهما ليسا في عجلة من أمرهما..
وببطء سرنا في الطريق المعروف وسط نورلسك، والذي تقع فيه عمارة من طابقين للـ ن.ك.ف.د..
ومن على البعد لمحت الجزء الجديد لمصنع البي.او.اف. الذي تم تشييده فوق انقاض الجدران التي تهدمت..
ومر قطار بضاعة في تلك اللحظة فوقفنا ننتظر.. وامرني الجنود بأن أجثو على ركبتي ففعلت..
وعندما اختفى القطار سمحوا لي بالنهوض مرة اخرى فنهضت..

الاستجواب

وعند وصولنا الى مبنى الـ ن.ك.ڤ.د. اخطر الجندي المناوب في الحراسة باننا من القسم الثالث للمعسكر.. وقدم له الجنديان اللذان رافقاني قصاصة من الورق . فقام باستدعاء شخص ما
وسرعان ما ظهر احد الضباط وطلب من الجنديين ان ينتظرا..
وذهبت معه خلال ممر مظلم، وعندما وصلنا امام الباب الذي كانت به لافتة كتب عليها
ــ مدير قسم العمليات ن.ك.ڤ.د. ــ طرق الباب برفق..
ثم فتحه ومد رأسه قائلا:
ــ تسمح..
وجاء الرد من الداخل..
ــ ادخل..
وادخلني الضابط فألقيت بالتحية..
وبالقرب من المنضدة وقف بوليكاربوف.. وكنت اعرفه جيدا..
وعندما نظرت اليه تذكرت..
لقد امسك ذات مرة بعنقي وضغط عليه قائلا بحدة:
ــ سأخنقك .. سأخنقك..

وكان في الحجرة ضابط آخر من الـ ن.ك.ڤ.د. وقف بالقرب من النافذة.. بدين الجسم جاد النظرات.. ولاحظت على كتفه خيوطا ذهبية وثلاث نجوم كبيرا.. كان برتبة العقيد..
قال بوليكاربوف:
ــ اجلس..
واشار الى كرسي بالقرب من الآلة الكاتبة.. فجلست ممتثلا لامره. ثم اخذ بوليكاربوف مكانه وعلى مقدمة المنضدة جلس العقيد..
وسألني بوليكاربوف:
ــ كيف الحال..
ــ مسرور..
ــ آه مسرور!! لم انتظر ذلك منك.. أين تعمل..؟
ــ في السكة الحديد..
ــ ماذا قلت..؟ معنى ذلك ان لديك تصريحا..
ــ لا أنا اعمل في قسم الشحن والتفريغ..
ــ أيمكنك ذلك بدون تصريح..؟ هذا صعب للغاية..
ــ ان الامور تسير..
ــ يجب ان تعطى تصريحا.. ليسهل عليك الامر فانت على كل حال نصف طليق..
وكنت اسمع مدهوشا مأخوذا بهذه اللهجة المغايرة، غير مصدق اذني.. ما معنى ان

يصبح بوليكاربوف الذي اعرفه انسانيا هكذا.. وتدخل العقيد في الحوار قائلا:
ــ كم من الزمن انت في السجن والمعسكر..؟
ــ اثنا عشر عاما..
ــ كم مدة عقوبتك!..؟
ــ مرتان بعشرة اعوام..
ــ لا افهم.. كيف مرتان بعشرة اعوام..؟
ــ في عام ١٩٣٦ حوكمت بعشرة اعـوام وفي عام ١٩٤٣ حوكمت ايضا بعشرة اعوام اخرى.. و..

ثم اصابني الاشمئزاز فجاة.. فصمت.. هؤلاء الناس يعلمون جيدا وربما اكثر مني كل هذا الذي اقوله..

وطاف بخاطري سؤال ساخر.. من هو الذي يريد مشاهدة هذه الكوميديا.. وهنا قال العقيد:
ــ اسمـع.. الآن لديـك الفـرصـة لتكـون طليقا.. ولكن عليك انت يتوقف الامر.. هل ستستغل تلك الفرصة ام لا..؟

وفوجئت.. ماذا يعني ذلك مرة اُخرى..؟ ودار ذهني بسرعة فائقة.. وحرصت على ان لا يبدو شيء على وجهي..
ــ من اين تعرف تيتو وبقية القادة اليوغسلاف..؟

كان ذلك هو سؤال العقيد.. ورغم علمي بانه ايضا يعرف الكثير عن هذا، الا انني بدات اسرد تاريخ عملي في يوغسلافيا.. وقاطعني طالبا مني ان اتحدث بالتفصيل وان احصي كل صغـيرة وكبيرة دون ان اغفل امرا من مدة اقامتي بيوغسلافيا.. وعن قادة حزبها الشيوعي.. وعن لقاءاتي بالمسئولين اليوغسلاف في الخارج وفي الاتحاد السوفيتي..

ــ هل قرات قرار الكومنغورم..؟
ــ نعم..
ــ ماذا تقول فيه..؟
ــ انا سجين ورايي ليس مهما..
ــ عندما اسالك عن رايك معنى ذلك اني انتظر منك ردا صريحا..
ــ على هذا السؤال لا استطيع الاجابة، لانني اجهل مجريات الامور والاحداث.. كل ما اعرفه هو ما جاء بالصحف.. ومن قبل كانت هناك تصريحات لا اعلم عنها شيئا..
ــ هل تصدق ذلك الذي قراته في الجريدة..؟
ــ انت تطالبني بالكثـير.. انت ضابط الـ ن.ك.ف.د. وانا سجين لا حول لي ولا قوة، وموقفي يمنعني ان اتحدث عن ذلك بصدق..
ــ انا اصرح لك الآن.. ان لا تخف شيئا..
قالها العقيد ببرود.. فبدات افكر.. ماذا يريدون مني..؟

وتدخل بوليكاربوف:

ــ هل تريد شايا.. ام شيئا للأكل..؟

ــ اقبل الشاي بسرور.. ولكن الاكل لا..

واحضرت احدى الشابات ثلاثة اكواب من الشاي مع قطع الليمون.. وكان ذلك اول ليمون اراه منذ ما يزيد على العشرة اعوام..

واثناء شرب الشاي، جعل العقيد يحكي ذكرياته عن يوغسلافيا.. قال انه كان هناك وانه يعرف معظم القادة..

وكان يحشر في حديثه بعض الكلمات الحربية مما يعطي انطباعا بانه فعلا كان في يوغسلافيا..

واخيرا قال:

ــ العصابة التي باعت نفسها للامبريالية لن تبقى طويلا في الحكم، والشعب اليوغسلافي يقف الى جانب الشعب السوفيتي، وفي كل اجزاء يوغسلافيا هبت الانتفاضات.. واصبحت ايام عصابة تيتو معدودة..

استمعت اليه في صمت شديد.. هذا الذي نطق به كان مشابها لما تكتبه الصحف السوفيتية، ولم يكن بالنسبة لي شيئا جديدا.. وعندما انهى حديثه سالني العقيد:

ــ هل انت مستعد لمساعدتنا..؟

ــ لست ادري كيف يمكنني ان افعل ذلك..

ــ اطلب منك ان تعلن انك تعلم بان هؤلاء الناس كانوا دائما على صلة بالبوليس السياسي..

ــ لا استطيع ان افعل ذلك، فمعلوماتي تقول العكس.. ففي الوقت الذي خرجت خلاله من يوغسلافيا.. كان تيتو وموشى بيادا محكوما عليهما بالسجن المؤبد في لبوقلافي..

ــ هذا ليس مهما.. انت لا تريد مساعدتنا.. كيف تنكر في هذه التفاصيل؟

ــ لقد فقدت حريتي، ولكني لم افقد ضميري بعد..

ــ الا تصدق السلطة السوفيتية..؟

ــ اتيت للاتحاد السوفيتي لاني صدقت الحكومة السوفيتية..!!

ــ اسمع.. الحكومة السوفيتية تقول لك بان القيادة اليوغسلافية للحزب الشيوعي عصابة امبريالية عميلة..

فهل تصدق ذلك ام لا..؟

ــ وانا نفسي حوكمت كعميل للجستابو بالرغم من انني وفي جميع مراحل حياتي لم تكن لي ابدا علاقة بهذا الجستابو المزعوم..

ــ انا لا اتحدث عنك الآن.. ولكن عن قادة الحزب الشيوعي اليوغسلافي..

ــ لست ادري بما حدث في هذا الوقت الذي كنت فيه بعيدا عن مجريات الامور.. ولا استطيع ان اعطى حكمي في الذي حدث هذا.. ولكني اعلم شيئا هاما.. هو انني عندما كنت على صلة بهم، كانوا شيوعيين امناء..

ــ اعيد عليك ما ذكرته سابقا.. الفرصة امامك سانحة لتنال حريتك.. ايام الخونة اليوغسلاف معدودة.. انت تعلم اننا دسنا باقدامنا من هم اضخم واقوى.. المانيا الهتلرية.. وسننتهي من يوغسلافيا في ساعات..
اجبته بحزم قاطع:
ــ آسف.. لا استطيع مساعدتكم..
ــ فكر.. سنتحادث مرة اخرى .. ليس عليك الذهاب الى العمل.. فكر..
قلت له بحزم ايضا:
ــ انا افضل الذهاب للعمل لانه صعب، حتى لا ابقى في العنابر..
ــ لا.. لا.. منذ الآن لن تذهب للعمل..
وتحدث بوليكاربوف بالتلفون، وحضر الضابط وقادني خلال الممر.. ومرة اخرى استلمني الحرس..
وتحركت صوب المعسكر..
وهناك تجمهر حولي الجميع يريدون معرفة أين كنت..
ولم احدثهم بشيء.. الا جوزيف نقلت له غرض العقيد، فقال فورا:
ــ العصابة الحاقدة، اخذت حرياتنا والآن تريد ان تسلبنا الشرف ايضا..!!
وبعد يومين جلست امام العقيد بوليكاربوف مرة اخرى..
ــ نعم .. كيف الحال..؟
ــ كالمعتاد..
ــ هل فكرت ..؟
ــ ليس لدي ما افكر فيه..
ــ كيف..؟ يجب علي فهم ذلك..
ــ استطيع ان اعيد عليك الذي قلته من قبل.. انا لا اصلح لمثل هذه الاشياء...
واخذ العقيد يذرع الغرفة ذهابا ومجيئا.. واخيرا جلس وهو يزفر من الغيظ.
وقال لي بوليكاربوف:
ــ انك عنصر لا يرجى اصلاحه.. يمكنك الذهاب..
ووقفت اتاهب للانصراف فسالني:
ــ هل حدثت احدا بما حدثناك عنه..؟
ــ نعم حدثت بذلك رجلا واحدا..
وقفز العقيد من مكانه.. احمر وجهه وجحظت عيناه.. واصابته الدهشة
ــ ماذا ..؟ من ذلك الذي حدثته..؟ هذا ذنب يكفي لرميك بالرصاص..
وخبرته باسم ذلك الشخص وقلت له..
ــ انني لا احتفظ بسر امام ذلك الرجل..
ــ آهـ.. هو ذاك.. اعرف.. لا.. لا.. ليس هو صديقك.. هنا توجد كل عصابة الكومنترن..
وبفضل هذا... وأشار العقيد بيده الى بوليكاربوف

ـــ ما زالوا احياء يتجولون في هذه الارجاء.. وبعد التفت الى بوليكاربوف قائلا:
ـــ دعه يوقع على التعهد ..
وذهب بوليكـاربـوف الى الغـرفة المجاورة وعاد ومعه وريقة مطبوعة كتب عليها اسمي.. وقدمها لاوقع عليها..
وقرات محتوياتها..
اعلن بانني لن اتكلم مع احد بخصوص هذه المحادثة وفي حالة حدوث العكس ساكون مدانا لافشائي سر الدولة..
ووقعت على الوريقة.
وعندما خرجت الى الشارع تنفست بارتياح..
كنت موقنا من انني لن اعود الى المعسكر.. ولكن الى غياهب السجن..
طوال الطريق كنت افكر في العواقب.. وفي الذي ينتظرني.. تذكرت كيف كنت احدث نفسي ايام الراحة والشبع والارتواء.. ايام السكة الحديد الزاهية الخضراء.. بان ذلك لن يدوم طويلا والآن حدث ما كنت اتحسب حدوثه..

ماذا ينتظرني..؟ هل اعود مرة اخرى للاشغال الشاقة..؟
ومرت ايام..وجلست في العنبر واستلمت الماء الساخن.. ولم يكن يسمح لي بالذهاب الى العمل.. وعندما حاولت يوما ان افعل ذلك مع وردية الليل.. وكنت في الجانب البعيد من باب الخروج ولكن قائد الحرس لحني وكان يعرفني.. فاعادني بهدوء..
وفكرت بعمق.. هذا ايضا لن يدوم طويلا.. ولم اتذكر حالة واحدة لم يكن صاحبها مريضا ومع من الذهاب الى العمل.. وقد حاولت ان اذهب للعمل حتى تكون لي لقاءات مع الاصدقاء من الاقسام الاخرى.. وحتى اخبرهم بما حدث..
ثم كنت اتوجس واتردد.. لن اخبر احدا.. فقد حذرني العقيد ووقعت تعهدا.. واذا ذهبت اخبـاري هنا او هناك فسيكون جزائي صارما وعقابي مهلكا.. وستتخذ ضدي اجراءات فوق العادة..
وقد اموت بيدهم.. وتكون اسباب موتي.. هي اني حاولت الهرب.. او انني مت فجاة بالجلطة الدموية او اي سبب آخر..
ولم استطع ان اتصل باحد من اصدقائي..
ومرت الايام..
كنت ارقد على الكنبة اقرا الكتب ولم يمسني احد...
وفي الثاني من سبتمبر حدث شيء لم اكن اتوقعه..
دخل الى العنبر رئيس العمل بصحبة رئيس الحرس وبوليس المعسكر وقفز النوبتجي من مكانه صائحا:
ـــ سجناء.. انتباه..
وسال رئيس قسم العمل:

ــ اين شتاينز..؟
ونظر هنا وهناك حتى وقع بصره علي فسار نحوي..
ــ اجمع حاجياتك.. وخذ الغطاء معك حتى تسلمه للنوبتجي.. ولم اسالهم الى اين يقودوني..
اخذت كيسي..
كانت فيه ملابسي.. وبنطال نظيف.. وملعقة.. وبعض الادوات الصفيحية..
ودسست فيه الغطاء والمخدة..
وفي انتظار ما سيحدث جمعت اربع وجبات من الخبز.. وكيلو سكر.. واخفيت في الكيس اربعين روبلا..
وبمصاحبة هؤلاء الاربعة اتجهت نحو المكتب.. كنت على ثقة بانهم يغشونه لانهاء بعض الاجراءات الشكلية فقط. والتي تتم عند النقل الى معسكر آخر..
ولكن بدلا من ذلك اقتادوني الى حجرة صغيرة كانت تقع في ممر مكتب المعسكر..
وضعت الكيس في الركن ومضيت اتمشى في الحجرة ذهابا وايابا.. ولم اتخذ لنفسي مكانا ارقد او اجلس فيه، لاعتقادي بأن بقائي هنا لن يطول وانني سابقى لفترة قصيرة.. ريثما املأ الوثائق التي تمكنني من الذهاب الى معسكر آخر..
ومضت ساعتان ولم يظهر احد..
وكنت في اشد الحوجة للذهاب الى دورة المياه.. وطرقت الباب فلم يجبني احد.. وعاودت الطرق مرات ومرات..
وبعض مضي زمن طويل سمعت صوتا من الجانب الآخر:
ــ لماذا تطرق الباب..؟
وسالته:
ــ لماذا تغلق علي الباب..؟
ــ لست ادري ــ اوامرهم ــ اذا اردت شيئا عليك ان تخبرني..
ــ يجب ان اذهب لدورة المياه..
وفتح الباب فورا.. ورايت امامي ساعي مكتب المعسكر..
وسالته مرة اخرى:
ــ ماذا يعني كل هذا..؟
ولكنه لم يكن يعلم شيئا..
وتبعني الى دورة المياه.. وعاد معي مرة اخرى للغرفة وقفل خلفي الباب..
ولاحظت ان نوافذ الغرفة مسلحة.. ورغما عن ذلك حازت اعجابي.. وفكرت كيف يكون جميلا لو سكن الانسان هنا.. يذهب للعمل وبعده يعود ليقرا الكتب ويستمع الى المذياع..
وفي المساء احضر لي الساعي حساء وسمكا وعصيدة..
وبعد العشاء تهيات للنوم.. وفي احد الاركان فرشت المعطف المبطن ومن الكيس

اخرجت المخدة والغطاء ورقدت..
كان راسي منخفضا بعض الشيء.. فوضعت الكيس تحت المخدة واصبح الوضع جيدا للغاية.. وبعد ذلك نظرت من النافذة.. ورايت الوحدات تعود من العمل.. كانوا يصعدون الجبل ليهبطوا منه الى العنابر..
وناديت على بعض اصدقائي.. ولكنهم كانوا قد مروا..
كان بامكاني التحدث دون حرج.. وتحفظ البعض معي خوفا من العواقب وتناثرت الاخبار عن حبسي هنا وهناك.. لم يكن احد منهم يعلم مذا دار بيني وبين العقيد.. فطلبوا مني الاخبار، ووعدتهم بالحديث فيما بعد..
واحضر لي الكثيرون خبزا وسكرا وماكولات اخرى.. وبعضهم اعطاني نقودا.. وبهذا استخلصت انه لا ينتظرني سوء كبير.. من يدري..؟
وفي اليوم التالي اخذ ذلك التضامن اتجاها هز مشاعري وجعل الدمع يطفر من عيني.. كانوا يودعونني بكل احساساتهم وعطفهم.. وامتلأ كيسي بالخبز حتى لم يبق فيه متسع لمزيد..
في اليوم الرابع من سبتمبر حوالي الحادية عشر صباحا ظهر رئيس قسم العمل والمسئول عن معسكرنا..
قال لي:
ـ خذ حاجياتك وهيا معي..
وفي ممر مكتب المعسكر كانت تقف مجموعة من السجناء عددهم حوالي العشرين سجينا.. وانضممت اليهم..
وفي هذه المجموعة وقف بعض السجناء.. الذين طلبوا مني ان اخبرهم الى اين يقودوننا..!
وكان علينا ان نحل هذا اللغز معا..
احضروا بعد قليل صندوقا كبيرا من الخبز..
حصل كل منا على كمية كبيرة منه وعلى قطعتين من السمك المملوح.. وخمس قطع من السكر..
وبذا علمنا ان امامنا طريق طويل.. لان كمية الزاد التي اعطيت لنا كانت تكفي ليومين..
اذن لن نذهب الى سجن نورلسك..
وفرحت لذلك.. لأن الحياة التي عشتها هناك زمن الحرب كانت كابوسا مفزعا سيظل يقض مضجعي طيلة الحياة..
كان السجناء يتابعون خروجنا من المعسكر.. ويلحون في ذلك الحاحا شديدا رغم تحرش الحرب بهم.. وازاحتهم من الباب..
صاح الجميع:
ـ مع السلامة ايها الزملاء...
تابعنا بعد ذلك سيرنا.. نحن العشرين سجينا.. تحت حراسة اثني عشر جنديا وضابطا

واحدا..

مررنا بشوارع نورلسك في اتجاه محطة السكة الحديد..

قبل عشر سنوات اذكر انني مررت بهذا الطريق.. كانت المنازل وقتها قليلة ومن الخشب.. اما اليوم فهي كثيرة ومشادة من الحجر بها طابقان.. وهي جميلة للغاية..

وخرج الناس يتابعون موكبنا..

وعندما مررنا بالمستشفى المركزي هرع المرضى للنوافذ.. ولوحوا لنا بايديهم..

في نورلسك لم يكن اقتياد السجناء في موكب بالامر الغريب او الحدث الذي يسترعي الانتباه والفضول..

ولكن مرورنا من غير سبب واضح اصبح في حد ذاته حدثا كبيرا..

وفكرت في ذلك..

لماذا تثير مجموعتنا كل هذا الانتباه..؟

لابد انها ردود فعل الاحداث التي لها صلة بقرار الكومنترن

الرحيل من نورلسك

عنـد وصـولنا الى محطة السكة الحديد راينا شيئا غير عادي بالمرة.. امام المبنى جلست مجموعة كبيرة من السجناء على الارض..
كان عددهم حوالي الثلاثمائة رجل.. اضافونا لهم فجلسنا على الارض.. وكان اليوم جميلا جدا.. لم ار اجمل منه في نورلسك..
وحول المحطة وقف عدد من الطلقاء والسجناء فيهم النساء والاطفال.. حاول بعضهم الاقتراب منا.. ونجح..
كان الحـرس متهـاونا بعض الشيء.. ولمحت جوزيف فلوح لي بيده.. فتسللت اليه.. حييته وعدت الى الصف.
لاول مرة سمعت كلمة اليابسة ــ ولما كانت نورلسك هي مدينة يمكن الوصول اليها بالجو او البر او البحر.. زاد عجبي من تلك التسمية.. فنحن لم نكن في جزيرة.. ولكنه الاحساس بالخلاص من وطاة مكان كهذا..
وجعلنـا نتساءل اين يذهبون بنا..؟ بعضهم ذكر جزيرة كايركات التي تبعد خمسين كيلومترات من نورلسك.. وعندما مر رئيس قسم الشحن والتفريغ في محطة نورلسك.. سألته الى اي مكان حددت مسيرة العربات.. فاجابني.. «قابيلس»
ــ الى دودنكا..
اذن ليس لمنـاجم الفحم.. فليكن الى مكـان.. لا يهم.. وجلسنا ساعات طوال.. كنا سعـداء لاننـا نفـارق نورلسـك التي عشنا فيها آلاما جساما وقضينا فيها السنوات الدامية.. ووصلت عربات السكة الحديد وامتلأت العربة الاولى.. وبكى البعض عند اغلاق بابها.. وجاءت امراة تجري وهي تصيح:
ــ يا زملاء .. يقودونكم الى سجن اركتسك..!!
وصاح احد السجناء من معارف المراة.. من قال لك ذلك..؟
ــ اخبرني رئيس القسم الصحي...!
اخذنا وقتا طويلا لانهم كانوا ينادون على السجين ويتاكدون من معلوماتهم عنه.. وعنـدمـا نودي علي كان الوقت مظلما..وصعدت الى عربة السكة الحديد ورقدت بين الزملاء الذين كانوا وقتها يرقدون على ارضية العربة..
كان جاري هو الشاب النمساوي ايدي شريدل..
واوقـد احدهم شمعة.. كان بامكاني رؤية وجوه الزملاء الذين رقدوا او انحشروا في الاركان وصمتوا..
بعد اقامة دامت عشر سنوات في نورلسك نذهب الى المجهول.. وفيه سنبدأ من جديد حربنا المقدسة من اجل البقاء..
تبخرت الاحلام..
اولئك الذين داعبتهم خيالات الحرية.. والذين قطعوا الوعود لرؤساء المصانع بان يعملوا معهم بعد اطلاق سراحهم.. انهارت صروح آمالهم..

وسمعنا صفير القطار يشق الصمت والسكون..
وتحركنا ببطء.. وفي منتصف الليل لاحظنا مرورنا على محطة كابركات. وفي تمام الثامنة صباحا وصلنا الى محطة دودنكا..
وفتح الجنود الابواب..
ــ اخرجوا..
وانزلنا حزمنا.. وكان علينا ان نتوقف بجانب العربات.. وبدات عمليات النداء المعتادة.. والاجراءات الاخرى..
وعندما انتهى كل شيء وقفنا في خمس صفوف..
تحدث رئيس الحرس عن قواعد السلوك اثناء السير..
واخيرا تحركنا في اتجاه برسلك..
محطة الراحة بعد دودنكا..
وفي ذلك الوقت كان المرور حيا.. والعنابر كانت مزدحمة.. اما الجو فكان حارا.. مكن السجناء من النوم في العراء..
ونشطت سوق البيع والشراء والاستبدال.. وكانت السلعة الرائجة هي الملابس..
ولما كان القادمون سذجا في البيع والشراء فقد احتال عليهم المتعاملون معهم من المجرمين.. وكانوا غالبا ما يعطون اشياءهم ولا يحصلون على شيء.. اما المضحك بحق فهو رؤية ضباط الجستابو السابقين.. وهم يقايضون بائعيهم الذين دفعوا ثمن القمصان والبنطال سكرا وخبزا..
ولو رآهم اليهود في سوق الشمس بفينا لحسدوهم على هذه العقلية التجارية النابهة..
ووضعونا في العنابر بامر مدير معسكر نولسك فورونوف الذي حضر من دودنكا ليشرف شخصيا على ترحيل سجنائه القدامى..
في فترة اقامتنا بدودنكا اعدوا لنا اكلا خاصا صرف لنا من شباك خاص.. وامر فورونوف ان تباع لنا المواد التموينية.. وكان بالامكان شراء الدخان وورق اللف..
ادارة مصنع نورلسك ابدت اسفها لرحيلنا لان مجموعتنا كان لها الباع الطويل في بناء المصنع..
ولكن ذلك لم يمنع فورنوف من ان يكذب علينا مرة اخرى..
فعندما وصلنا الى المحطة التالية سالنا كيف حالنا..؟
ورد عليه بعضنا بان ساله:
ــ اين نذهب..؟
ونظر اليه فورنوف باستغراب وساله:
ــ ماذا ..؟ انتم لا تعلمون ..؟
ــ لا ..
ــ ما هذا.. لقد اخبرت ديفن ليقول لكم.. هذه اعمال خنازير.. لماذا لم يخبركم..؟
ــ لم يقل لنا احد شيئا..
ــ اذن .. انتم ذاهبون الى القفقاز..
ــ شمال القفقاز..؟

ـــ نعم .. نعم .. الى شمـال القفقـاز هنـاك يشيد مصنع للمعادن الملونة تحت قيادة الجنرال رابوبورتا.. ولقد طلب منا ان نرسلكم له شخصيا لانكم من اصحاب الخبرة الطيبة..

كنا نعرف انه يكذب .. ولكن كان هناك من صدقوه..

في السابع من سبتمبر عام ١٩٤٨ تسربت اخبار بان في الميناء سفينة تجارية هي (جوزيف ستالين) على سطحها مئات من السجناء..

عندما يتم تفريغهم سنشحن نحن في اماكنهم..

ولقد اضطربت حيرة..

هل سنذهب الى البر حقا..؟

وبعد ساعات راينا في الجانب الآخر من الاسلاك الشائكة مجموعة السجناء الجدد، ينتظرون ان يسمح لهم بالدخول الى المعسكر..

تعرفنا عليهم من ملابسهم المختلفة..

كانت هناك سترات وبزات المانية.. بعضهم على طاقيته علامة الموت.. وعلامة الجستابو الهتلري.. (اس ـــ اس)..

كثيرون ايضا كانوا يرتدون ملابس الجيش السوفيتي..

وبـالرغم من حرارة الجـو فقد كان هناك من يرتدون احذية الصحراء الجليدية.. واولئك بالطبع الذين القى القبض عليهم في فصل الشتاء.. وقد وقف هؤلاء القادمون الجدد زمنا طويلا..

وبدا نداء الاسماء.. وحان الضابط يخطيء كثيرا في قراءة الاسماء الالمانية.. وكان من الطبيعي ان لا يرد عليه احد.. فيعيد قراءة الاسم.. وهكذا ولم يسمح لنا بالاقتراب منهم.. لان الرقابة الصارمة لبوليس المعسكر منعت كل تقدم.. نحوهم..

اما في اليوم التالي كان بامكاننا التحدث مع السجناء الجدد بدون مضايقات..

وبدات عمليات البيع والشراء..

كانوا جوعى.. وحاولوا ان يقايضوا ممتلكاتهم بالخبز.

●●●●●

في الثامن من سبتمبر حوالي الخامسة صباحا امرونا بان نستعد للرحيل.. ادخلت حاجياتي في الكيس الكبير.. اما كيس الخبز فقد وضعته في يدي لكي اودعه طعام السفر الذي سيمنح لنا..

وبعد انتظار دام لمدة ساعتين، سمعنا الامر.

ـــ قفوا صفا..

اخذت كيسي واسرعت الى الساحة.. وامام باب الخروج وقف الضباط والجنود..

بمجـرد ما ينـادون على احد كان عليه ان يخلع ملابسه ويقف عاريا.. وبعد هذا التفتيش الدقيق للأشياء والجسم قادونا تجاه الميناء.. ومن على البعد راينا الباخرة

(جوزيف ستالين)..

كانت باخرة جديدة بنيت في المنطقة السوفيتية الالمانية.. وكانت الباخرة تبحر بانتظام بين كرسنويارسك ودودنكا..

وعندما وقفنا امام الباخرة احسست بشعور من السعادة.. منها انا اخرج حيا بعد عشر سنوات من هذا الجزء اليائس في العالم.. كانت لحظات فظيعة في حياتي..

وهذه السعادة لم تكن خالصة.. لقد شابها شيء من الحزن والاسى.. فهناك الكثيرون من الرفاق الذين لم يقدر لهم ان يعيشوا هذه اللحظات..

وفكرت كثيرا في رودولف اندراجق.. وكروشتي مولنار..

●●●●●

على ظهر الباخرة جوزيف ستالين

من السقالة وحتى سطح الباخرة وقف الجنود باسلحتهم الاوتوماتيكية الجاهزة للضرب.. ومررنا بجانبهم فرادى. السلالم الخشبية الواسعة قادتنا الى قاعة خالية، تسارعنا الى احتلال الاركان فيها.. وجلسنا نحاول ان نريح ارجلنا التعبة، ولكن كان علينا بدون انقطاع ان نلتصق ببعضنا البعض لنفسح مكاناً للقادمين الجدد. وسرعان ما امتلا جوف السفينة حتى اوشك ان ينفجر.

كانت القضبان الحديدية مثبتة على نوافذ باحكام واغلق باب الدخول ثم وقف امامه اربعة من الجنود غير المسلحين.

وهدا الاضطراب شيئاً فشيئاً.. واخذ الجميع اماكنهم.. بعضهم اخرج الطعام وبدا في الاكل.

واستطعت ان الم شتات نفسى المبعثرة بعد جهد، وتلفت حولى اتعرف على جيرانى.. بالقرب منى كان يجلس ايدى شريدل، وكنت قد تعرفت عليه في عام ١٩٤٦ عندما وصلت مجموعة من النمساويين الى دودنكا.. وعلى يمينه جلسليو براقنسكى وايضا دنيبرو بنزوفسك المدعى العام السابق.. اما جارى من جهة اليسار فهو فكتور شتريكر مهندس معادن المانى الجنسية.. مثله مثل غيره المان الذين وفدوا الى روسيا منذ نعومة اظفارهم فهو لا يتحدث الالمانية ولا يعرفها. اما البقية فكانت معرفتى بهم سطحية.

وفي المساء أوقدت الانوار الخافتة، وتحركت الباخرة ببطء..نظرت من النافذة، وكانت آخر المبانى تتلاشى في البعيد وتشحب انوارها.. ثم تلوح كالنجوم البعيدة.. واغلقت النافذة وانا احس بان الباخرة تمخر عباب المجهول.

تناولنا قليلا من الطعام.. وتحدثنا كثيراً.. نبشنا اركان الذكريات ولملمنا خيوطها لننسج منها ذكرى كالاحلام الضبابية المزعجة.. واعدنا شرائح الحياة في نولسك بكل مرارتها وحزنها. ثم هجعنا، ونحن على بعضنا البعض في محاولات مستحيلة للراحة والنوم.

في صبيحة اليوم التالى فتح الباب.. وتسللت الاضواء والانسام الجديدة.. واحضر الجنود الافطار.. سلة بها الخبز المقطع للوجبات.. واناء الشاى.. وتم تعيين جارى بارقنسكوف مسئولا عن السجناء.. فقام بتقسيم الطعام مع الجنود بهدوء شديد وبدون مشاكل.

في منتصف الهار حصلنا على الشعير مع الفاص . ووعدونا بتقديم وجبة ساخنة للعشاء ولكنهم لم يفوا بوعدهم وفي الصباح اعتذروا لنا بانه لا يوجد حطب للوقود، وطمانونا الى أن الطعام الدافىء سنعوضه في آنماركه

وفي آخر نهار اليوم التالى تحصلنا على الوجبة الدافئة. وفي المساء تحادثت مع شريدل.. حدثنى عن النمسا وعن الاشياء التى عاشها في فترة الحرب..

وايدى شريدل هذا ابن لقروى غنى من رودنتال التى تقع بالقرب من فينا.. والتحق في بداية الحرب بالجيش الالمانى واشترك في معارك الصحراء الافريقية تحت قيادة

الجنرال روميل.. وعند انهزام الوحدة الافريقية وقع ايدى في الاسر فقضى بعض الوقت بمعسكر لاسرى الحرب في انجلترا.. وبعدها نقل الى امريكا لمعسكر آخر بولاية ماينى.

وبما انه كان مناضلا ضد الفاشية فقد ادخل الى مدرسة خاصة بالاسرى الالمان في امريكا ليتعرف على الحياة هناك. وبعد انتهاء الحرب عاد مع اوائل العائدين.. الى وطنه. ولكنه لم يستمتع بالحرية طويلا.. فمنطقة رودنتال كانت تقع داخل النفوذ السوفيتى.. وذات يوم دعى الى مكتب عمدة المدينة.. وعندما دخل الغرفة كان هناك جنديان روسيان.. وقال له عمدة المدينة انهما يريدان خمراً من عصير العنب.. وطلب منه ان يدبر لهما عشرات لترات. ورغم ان النقود كانت في حالة تضخم ولا قيمة لها، وكان الناس يرفضون بيع نبيذهم المعتق بها.. ورغم ذلك الا ان ايدى لم يرفض طلب العمدة.

وذهب معه الجنديان الى مكان يبعد كثيراً عن منزله حيث توجد خوابى النبيذ.. وحصل الروسيان على ما ارادا ودفعا مبلغاً طيباً من المال.. وذهب ايدى الى الحانة للقاء اصدقائه.. واذ هو هناك جاء الى الحانة عدد من القرويين المفزوعين يصيحون به ـ انت تجلس هنا والروس ينهبون البدروم..؟.

وقفز ايدى من مقعده وجرى مع اصدقائه تجاه البدروم. وفي الطريق راوا عدداً من الناس يضربون ثلاثة من الجنود الروس.. ولما كان هو مخموراً فقد شارك في المعركة واستطاع الجنود الفرار بعد أن نالوا نصيبهم من الضرب.. وكانت تنتظرهم الموتورسايكلات فهربوا بها.. وعلم ايدى تفاصيل الاعتداء على البدروم.. كانوا نفس الجنود الذين باع لهم النبيذ بزيادة آخر. راوا انهم وقد عرفوا مكان النبيذ فلا حاجة بهم الى الشراء او اخذ التفويض من صاحبه، وبناء على ذلك جاءوا بالموتورسايكلات لاخذ ما يستطيعون اخذه.

وكسروا باب البدروم بمعدات من الحديد والسيخ.. وملأوا صفيحة من النبيذ المعتق.. ولكن بعض القرويين وقعت اعينهم عليهم فتجمعوا حولهم ومنعوهم من الخروج.

وعاد ايدى لاصدقائه، واحتفلوا بالنصر على الجنود الروس. وبعد ثلاثة ايام جاء طابور من ال ن ك ڤ د واحاطوا بالقرية.. ثم القوا القبض على اثنى عشر قروياً من الذين شاركوا في المشاجرة.. واقتيد المقبوض عليهم الى بادن..

وبعد اسابيع قضوها في الحقيقات مثلوا امام محكمة عسكرية سوفيتية، فحاكمتهم بعشر سنوات سجناً لكل منهم.

واقتيد ايدى الى نورلسك.. فقضى بها عامين وهو الآن يسافر معنا الى المجهول.

وسارت الباخرة عكس التيار..

وكانت الباخرة تتوقف في بعض الموانىء..

وخلال عدة ليالى كانت تشحن من تلك الموانىء بمعدات ذات صليل كانها جنازير حديدية..

وكانت العاملات بالشحن من النسوة السجينات.. كن يغنين اغنيات حزينة جداً اثرت على نفوسنا تاثيراً شديداً.. وانخفضت لدى سماعها ارواحنا المعنوية الى درجة الصفر.

فى كرسنويارسك

فى اليوم السابع للرحلة وصلت الباخرة الى مدينة كرسنويارسك.. القت مراسيها اول الامر على الضفة الشمالية من الشاطىء.. وبعد ان خرج منها المسافرون العاديون، اقلعت نحو الضفة الجنوبية من شاطىء النهر.. والقت مراسيها مرة اخرى.

بعد زمن قصير فتح الباب.. وامرنا الجنود ان نحمل البراميل التى كنا نقضى فيها الحاجة ابان الرحلة..وعند فراغنا من ذلك وقفوا ينادون علينا مثلما عندما صعدنا الى ظهر الباخرة.. ثم اصطف الجنود فى الممر المؤدى من الباخرة الى اليابسة. وصعدنا الى التل المنحدر الذى يقود من الضفة للسهل الذى تقع على جانبه الايمن مباشرة مدينة كرسنويارسك.

وبمرافقه الجنود والكلاب البوليسية التى يقودنها بالسلاسل، وصلنا الى الجزء الذى لم يكتمل بناؤه بعد فى جانب المدينة.. وهو عبارة عن عدد من ابنية المصانع والمساكن الشعبية..

كانت هذه المشروعات هى النواة للمنطقة السكنية الجديدة. وتراءت من بعيد الضفة الاخرى للنهر وقد ربطت مع رصيفتها بجسر حديدى طويل..

ورأينا عدداً من المداخن تشمخ الى عنان السماء، عددها اثنتا عشر مدخنة.. وكرسنويارسك مدينة صناعية كبيرة كما يبدو..

وسرنا خلال الحقول فى اتجاه خطوط سكك حديد سيبريا الكبرى. ومن بعيد لاح لنا قطار ترانس اكسبريس سيبيريا.. السريع الذى يقطع المسافة الهائلة من نفورل الى فلادفستك وطولها عشرة آلاف من الكيلومترات دون ان يكل او يمل.

ومشينا على الكوبرى الحديدى،وبالقرب من محطة السكة الحديد راينا مجموعة من السجناء تفرغ، تحت حراسه الجنود، جذوع الاشجار من عربات السكة الحديد الكبيرة.. ومررنا بحى سكنى شيدت منازله من الاخشاب وهى منازل صغيرة.. وكان يمكننا ايضاً ان نرى الاغنام وقد ربطت الى اوتادها بحبال طويلة.

نظرت الينا بعض النسوة، ثم اجفلن مذعورات.

اما المسنات منهن فقد رسمن علامة الصليب امام أعينهن... متعوذات والحزن مرسوم على أوجههن..

وعندما حاول بعض الاشخاص الاقتراب من طابورنا طرده الجند.. فسارعوا بالتوارى خلف الشجيرات القصيرة وهم يتابعون مسيرنا.. واخيراً وقعت ابصارنا على برج المراقبة المعهود «بتجنيك» والذى كان يشبه منزلا للطير..

وهنا ايضاً يطلقون عليه نفس الاسم.

وعلى طول الحاجز الخشبى العالى مشينا مسافة كيلومترين.. الى ان وقفنا امام باب بريسلك..

محطة وصول المعسكر.

على جانبي الطريق كان يقف رؤساء الحرس.. وبوليس المعسكر.. وعلى بعد عدة امتار من الباب كانت هنالك منضدة جلس حولها موظفوا ادارة المعسكر.

واتيح لنا ان نرى ديقتن نائب مدير معسكر نورلسك

كان يراقب الافراد وهم يمرون بالمنضدة ويردون على الاسئلة. بعضنا حياه.. فرد هو التحية بلطف.

وعندما انتهت مهمة الاستلام وقفنا في خمسة صفوف يحيط بنا الحرس وبوليس السجن.. وتوجهنا الى عنبر المعسكر التى تبعد حوالى المائتى خطوة والتى كانت لها ثلاثة مداخل..

وكان دخولنا عبر المدخل الاوسط.. بنفس عدد صفوفنا.

دخلنا قاعة مربعة عرضها كطولها.. تحيط بجوانبها كنبات خشبية كثيرة.. ولم ار واحداً من اصدقائي القدامى انشغل الجميع بتنظيم مكان الرقاد..فرشنا المعاطف المحشودة.. وبدلا عن الوسادة وضعنا الاكياس..

والتفتنا فجاة، فوجدنا ان باب العنبر قد قفل.

ازعجنا ذلك..

فهو يعنى ان شيئاً غير طيب يجرىء اعداده.

وفى وقت الغداء فتحت ابواب العنابر.. وفى الفناء امام المدخل انتصب قدر به الحساء الساخن..

وتقدمنا نحوه نمسك بآنيتنا.. فقام الطاهى صاحب المريلة البيضاء باعطاء كل منها ملء مغرففته حساءاً لذيذاً.

وتمشينا امام المعسكر لبعض الوقت مستمتعين بشمس النهار الرائعة... وكان ذلك مسموحاً به..

ثم جاء رئيس الحرس وقال لنا..

ـ ادخلوا العنابر لكى اقفل عليكم الباب مرة اخرى..

ـ لماذ تقفل علينا الباب..؟.

ـ اوامر المدير..!!.

وفى اليوم التالى طلبنا مقابلة مدير المعسكر..

وحضر ديفن وبصحبته رئيس المعسكر وبعض الضباط..

وقفزنا جميعاً من امكاننا.. وسرعان ما احكمنا الحصار حولهم، على شكل دائرة.. ثم تقدم براقنسكى الذى كان رئيساً للسجناء وسأل ديفن الذى كان يعرفه جيداً..

ـ سيادة المدير، لماذ تغلقون علينا الابواب..؟.

ـ أعطيت تلك الاوامر حتى احميكم..

ـ لا نفهم المراد من ذلك..

ـ يوجد هنا كثير من المجرمين المؤبدين فى انتظار ترحيلهم الى نورلسك ويمكنهم ان يؤذونك.

ـ نحن لا نخاف ونعرف كيف نحمي انفسنا..
ـ ولكننا لن نسمح بحدوث مشاجرات دموية..
ـ على الرغم من ذلك فنحن نلح ونرجو ابقاء الابواب مفتوحة..
ـ سافكر في ذلك.. وسارى ما يمكنني عمله..
وفي اليوم التالي جاء ديفن الى عنبرنا..
رجوناه مرة اخرى ان يسمح لنا بحرية الحركة في الساحة فاعاد علينا بانه مهتم بالا يحدث شيء غير مريح لاناس جديرين مثلنا.!!.
وصدقناه رغم كل شيء..
وفي النهاية قال لنا..
ـ لن يغلقوا الابواب في النهار.. ولكنى اطلب ان تتمشوا على طول العنبر فقط.
ـ نعدك بذلك..
وبمجرد ان ذهب ديفن خرجنا للشمس والهواء الطلق..
وفي الحال تقاطر علينا السجناء من العنابر الاخرى ليروا ذلك الحدث العجيب.
كانت بعض الشائعات قد انتشرت بانهم يقودوننا الى موسكو لمنحنا اوسمة.. واطلاق سراحنا فقد قمنا ببناء مدينة نورلسك..
واكد آخرون دحض هذه الشائعات بانهم سمعوا ضابطاً كبيراً يقول.. اننا سنبنى مصنعاً كبيراً في كروسنويارسك.
واطلق على مجموعتنا اسم هو «مهندسوا المراحل»..
المجرمون هنا وهم على علاقات طيبة مع الحرس، كانوا ينهبون القادمين الجدد حيث يصلوا الى جلودهم.. الأشياء المنهوبة يحملها رؤساء الحرس خارج المعسكر لتباع ويقسم ثمنها بينهم وبين المجرمين بل ان بعض الضباط يشتركون في ذلك..
راينا بعد ايام هجوماً منهم على على مجموعة من الشباب (اللاتونيين).. في مدخل العنبر وقبل حضور (اللاتونيين) اختبا المجرمون تحت الكنبات.. وعندما داخل (اللاتونيين) الى العنبر وضعوا حراسة امام باب العنبر تحسباً منهم لهجوم متوقع وما ان استقر بهم الحال حتى خرج عليهم المجرمون وبداوا في نهبهم.. ودارت معركة رهيبة.. دافع الشباب (اللاتونى) بالواح الخشب التى انتزعها من الكنبات وضربوا المجرمين ضرباً مبرحاً لا مزيد عليه.. وسرعان ما راينا طلائع المجرمين تفر هاربة للخارج برؤوس دامية جريحة..
وهرع بوليس المعسكر والحرس لانقاذ بقية المجرمين الذين احكم عليهم الشباب (اللاتونى) الحصار..
وبعد تلك الحادثة ساد الهدوء اجواء المعسكر لعدة ايام. جيراننا في نفس العنبر كانوا من المجرمين الذين جاءوا حديثاً.. وبمجرد وصولهم بداوا في السرقة والنهب.. ولم يكونوا قد انضموا بعد للعصابة التي وثقت علاقتها مع ادارة السجن.. وعليه فقد تم ضبط الاشياء مسروقة وهي لا زالت بحوزتهم.

معظم السجناء كانوا من قبل في المعسكر..

لم يتمتعوا بالعفو الانسانى الذى منحه ستالين بعد الحرب للمجرمين. فبداوا مرة اخرى فى السرقة والنهب والقتل.

لذلك صدرت ضدهم احكام جديدة بلغت الخمسة والعشرين عاماً، مع الاشغال الشاقة.

لم يكونوا مدانين لستالين بشىء..

كانوا يصبون عليه الفاظاً جارحة لم اسمع افظع منها فى حياتى. وغالباً ما كانوا يسمونه.. قوتالنسجك ماسح الاحذية.

لان ماسحى الاحذية فى مدن روسيا الكبرى كانوا من قروزيا او من الارمن وكانوا يقولون دائما ..

ـ قريبا ستاتى نهاية ماسح الاحذية.

كان المجرمون يطلبون منا بلا انقطاع ان نعطيهم الدخان والاكل.

فرانيسي بتيت وآخرين

وجاء الينا بعض النمساويين الذين كانوا ينتظرون الترحيل الى نورلسك. واسعدنى كثيراً ان استمع الى اخبار الجديدة عن النمسا وفينا. وعندما كنا نقف امام المعنبر حدثناهم عن نورلسك.. وعن الاشياء التى تنتظرهم هناك.
حدثونا هم كيف القى عليهم القبض وكيف حوكموا..
كل الذين قابلتهم كان معتقلين فى المنطقة الروسية بالنمسا.. وذلك عند وصولهم الى الجزء الذى يحتله الحلفاء..
وكان الروس حريصين، فالقوا القبض على كل من اتى من المنطقة الغربية الى الشرقية.
اتهموهم بالجاسوسية لصالح امريكا.. وحاكموهم بخمسة وعشرين عاماً اشغالا شاقة فى المعسكر..
كان معظمهم من الشباب.. كان بعضهم برئياً بحق.. وبعضهم كان على اتصال بالمخابرات الامريكية (أى. تى. اس).. مثل فرانتس. لنزا.. وسالسبورج.
حاولت جاهداً التخفيف عنهم..اعطيناهم الاكل.. وزرعنا فى نفوسهم الامل بسرعة العودة الى آفاق حرياتهم.. وهم بالمقابل غنوا لنا احدث اغنيات فينا..
بعد ايام، وصلت من نورلسك مجموعة المعوقين الذين نقلوا الينا خبر موت القاضى الدموى قورهوق غرقاً فى نهر الينسى.. هو ومعه رجل آخر.. واطربتنا تلك الاخبار.
وذات يوم وانا اجلس تحت الشمس بعد الافطار، اقترب منى رجل ضعيف متوسط الطول، يلبس نظارة.. كان قد وقف يراقبنى وانا آكل بحزن وحسرة..
ومن بنطاله الممزق.. ومن هيئته الغربية لم يكن صعباً علىّ ان اخمن انه المانى او نمساوى.
قلت له برقة..
- اقترب..
وتمتم باستغراب شديد..
- انت تتكلم الالمانية..؟.
- انا نمساوى..
- غير ممكن..
- لماذا لا يكون ممكناً..؟ هل تعتقد بانك الاجنبى الوحيد فى سيبيريا.؟.
- لا بالطبع.. يوجد كثيرون غيرى..
- اجلس.. امامك وقت طويل..
- يا آلهى.. الوقت هنا كثير..
قالها وجلس.. فاعطيته جزءاً من الخبز المتبقى معى.. ولكنه نظر اليه محرجاً وقال بحزن.. وارتباك..
- هذا..؟ لا.. لا..

ـ كل.. ولكن بدون رسميات..
وعندما اكل.. مد لى يده مصافحاً وهو يقدم نفسه..
ـ دكتور بيرقمان من شتوتقارت..!
وذكرت له اسمى انا ايضاً.. فسالنى..
ـ منذ متى وانت هنا..؟.
ـ منذ وقت طويل.. طويل جداً..
ـ ما هى المدة بالضبط..؟.
ـ اثنتا عشر سنة..
وبدا عليه انه اجفل فزعاً..
ـ ماذا..؟ اثنتا عشر سنة..؟.
ـ نعم..
ـ كل تلك السنين فى المعسكر..؟.
ـ يبدو رجع هذا الكلام غريباً وغير مالوف..واين كنت..؟.
ـ كنت هناك، حيث المكان الذى سترحلون اليه..
وبدا بيرقمان يسالنى عن نورلسك.. وحدثته انا بالذى ظللت اتحدث عنه والوكه كثيراً..
وبعد ذلك ذهبت الى العنبر ومن الكيس اخرجت بعض الخبز الجاف واحضرته له...
وبدا عليه الاستغراب الشديد.. ولم يستطع ان يصدق ان هناك من الناس من هو غير جائع.. ومن يقدم خبزه للآخرين.. وسالته..
ـ كيف وصلت الى المعسكر..؟.
ـ كنت اعمل فى الجيش الالمانى.. وقريباً من نهاية الحرب وقعت اسيراً بين ايدى الروس.. وفى معسكر اسرى الحرب عملت طبيباً.. وكان من عادتى أن أسجل فى مفكرتى كل اسماء اسرى الحرب الذين ماتوا فى المعسكر.. حتى اخبر اقاربهم وذويهم عند عودتى الى البلاد بمصيرهم.. وعند تفتشى عثر ال ن ك ق د على المفكرة وبها اسماء الموتى واعلن عنى كجاسوس.. فقدمت للمحكمة العسكرية وحكم على بخمسة وعشرين عاماً.

* * * * * *

فى تلك الفترة درج بيرقمان ومعه احد الآلمان على زيارتى.. وكان عنبرنا مثيراً جداً فنحن الذين لم نكن نشكو الجوع مثل غيرنا.. وقدمنا الطعام للآخرين.
وكان بيرقمان مسروراً من اكل المعسكر.
وعندما يلقانى فى المعسكر بعد الوجبات كان يسالنى..
ـ هل تناولت غداءك..؟.
ولا ينتظر جوابى، بل يضيف بسعادة كبيرة..
ـ اليوم الحساء آلهى.. تصور به قطعة لحم كبيرة.
وعندما حضر الى مرة اخرى وذكر لى موضوع الحساء الرائع، دعوته الى العنبر

واعطيته اناءاً به حوالى ثلاثة لترات من ذلك الحساء (الرائع).. ولما اكل حتى اتى على ثلاثة ارباع ما فى الاناء، وضعه وهو يقول..

ـ اكثر من ذلك.. لا يمكن..

ـ لماذا..؟

ـ اقول لك.. عندما يكون الانسان شبعاناً..تلاحظ كيف يدلق الطعام بلا قصد..!.

وسررت جداً لانه اخيراً اعلن الشبع..

وبعد مضى وقت قليل تم ترحيله.. ولم اره بعد ذلك ابداً..

وذات يوم اقترب منى رجل قصير القامة، اسود الشعر، وسالنى شئياً بالالمانية.. ومن طريقة نطقه لها كان يسيراً على ان ادرك انه ليس المانياً..

ولم ارد ان اكثر من سؤاله..

لانه حدثنى ما اردت ا سمع ما لم ارد ان اسمع..

اسمه فرنسيس بتيت..

كان كابتناً فى الجيش الفرنسى.. وحتى ذلك الوقت لم اقابل كثيرين من الفرنسيين.. ولذلك أثار بتيت اهتمامى اكثر من الآخرين.

وبعد محادثة دامت حوالى الربع ساعة.. اوضح لى فيها انه أشترك مع حركة المقاومة الفرنسية.. وفى عام ١٩٤٨ القى عليه الروس القبض بمدينة بوستدام.. وحوكم بخمسة وعشرين عاماً والتهمة هى الجاسوسية.. وانه ينتظر الآن الترحيل الى نورلسك.

وفى نفس اليوم، اتانى بتيت وطلب منى ان نتحدث على انفراد وجهاً لوجه.. واندسسنا فى ركن من اركان الساحة.. وكان اهتمام بتيت منصباً على نوع الحياة فى نورلسك.. فحدثته باختصار عن الاشياء التى عشتها هناك..

ـ هل هناك امكانيات للهروب من نورلسك..؟.

وفاجانى السؤال المباغت، فاجفلت.. هل يفكر هذا البائس جديداً فى الهرب..؟.

وانتظر هو اجابتى وعيناه متعلقتان بشفتى.. ولكنى لزمت الصمت. وحتى اكسب وقتاً اطول للتفكير سالته عن اشياء اخرى لا علاقة لها بهذا الامر.. من المحتمل ان يكون عميلا لل. ك. ن. ق. د.. ولكن هل يعقل ان يرسل ال ن. ق. د لامثالى من المجرمين العتاة امثال مؤلاء القادمين الجدد السذج..؟.

وكان يبدو رجلا برئياً.. كامثال الكثيرين الذين لم يعرفوا شئياً عن روسيا.. عن المسافات الهائلة الشاسعة التى لا تقاس بالكيلو مترات.. عن السكان.. عن ال ن. ك ق.د عن الحياة فى المعسكرات كمعظم الوافدين الجدد الذين وصلوا الى روسيا.. وهم يحملون الاعتقادات الاوربية عن هذه البلاد.. ستكون الافكار هى بداية ماساتهم..

وسالته..

ـ هل تعلم الى اين يقودونك..؟.

ـ الى نورلسك..

ـ واضح.. من هذه المحطة المرحلية ستتحركون الى نورلسك ولكن ذلك لا يثبت

شئيـاً.. يجب ان تعلم انـك ستكـون على بعد الفين كيلومترات من اقرب خط للسكة الحديد.. ستذهب الى معسكر محاط بصفوف عديدة من الاسلاك الشائكة.. منعزل عن العـالم.. وسـط صحـراء لا نهـاية من الثلوج والرياح الجليدية القاسية.. وفي هذا المعسكر ستكون تحت الرقابة الصارمة الدائمة من رئيس الحرس، وبوليس المعسكر ورئيس العمـال وزمـلائـك.. ويكفى ان تتـاخر لحظة عن موعد توزيع الطعام حتى ينشطون في البحث عنك..!.

ـ وماذا عن الليل..؟.

ـ حكاية الليل والنهار هذه لا قيمة لها هنا ك..

واستغرب بتيت جداً..

ـ كيف ذلك..؟ النهار نهار.. والليل ليل.

ـ اسمع جيداً.. وفي نورلسك اربعة اشهر السنة نهار دائم..... واربعة اشهر اخرى ليل دائم..

وصمت بتيت.. مبهوتاً..

لم ارد بالطبع ان اثبط همته.. ولكن كان على ان اقول له ذلك.

خيِّل اليَّ بالطبع انه مستعد لارتكاب اشياء جنونية، لانه لم يكن يعرف حقيقة موقفه جيداً.

وكل الذى اخبرته لا بد ان يكون قد قلب خططه عن نورلسك راساً على عقب.

وسالنى..

ـ كيف الامر في وقت العمل..؟ الا يمكن الهروب من مكان العمل..؟ ووجدت صعوبة كبيرة وانا اوضح له بان كل خططه عديمة الجدوى.. ويبدو اننى لم انجح تماماً في ابعاد فكرة الهروب عن ذهنه.. لانه كان لا يفتا يسالنى من جديد محاولا ان يثبت وجود امكانية الهروب. وبعدها حدثنى بتيت عن منظمة سرية تعمل باسم «كروزلر» (الصليب). وهى منتشرة في انحاء العالم.. حتى في ارجا روسيا السوفيتية. واوضح لى كيف يمكن التعرف على اعضائها.. ففى اثناء الحديث مع رجل غير معروف، عليك ان تحدث اشارة بقدمك على شكل صليبين اثنين... شئياً يشبه الصليب المعكوف مثلا.. وعندما يرى الرجل ذلك سوف يتعرف اليك.. ويعلن عضويته للمنظمة.

واستمعت الى هذه القصة الطريفة.. وسالته..

ـ هل تعتقـد ان في نورلسك اناساً مستعدون لمساعدتك على الهروب..؟ ولنفرض انك خرجت من المعسكر دون ان يلاحظك احد.. ماذا بعد..؟.

ـ ساحاول جاهداً الوصول الى خط السكة الحديد لموسكو.. وهناك في موسكو سوف اذهب للسفارة الفرنسية.. وسيكون كل شيء على ما يرام..

ـ هذا الذى تتحدث عنه مجرد احلام طفولية..

ـ كيف..؟.

ـ انصحـك بشيء واحد هو.. الا تلعب بحياتك.. فمن المحتمل ان يتحسن موقفك مع

الزمن.. ولكن الخطط التى تجول برأسك ستوردك موارد التهلكة دون شك..
ولاحظت كيف اصيب الرجل بخيبة امل قاسية بمجرد أن حدثته بذلك.. وتقابلنا بعدها عدة مرات.. ولكنه لم يحدثنى ابداً عن الهرب.. وبعد سنوات فى تايشت.. وفى معسكر مخصوص قابلت بعض الألمان الذين كانوا فى نورلسك مع بتيت، وقد حدثونى ان بتيت استطاع ان يقنع آخرين بافكاره..

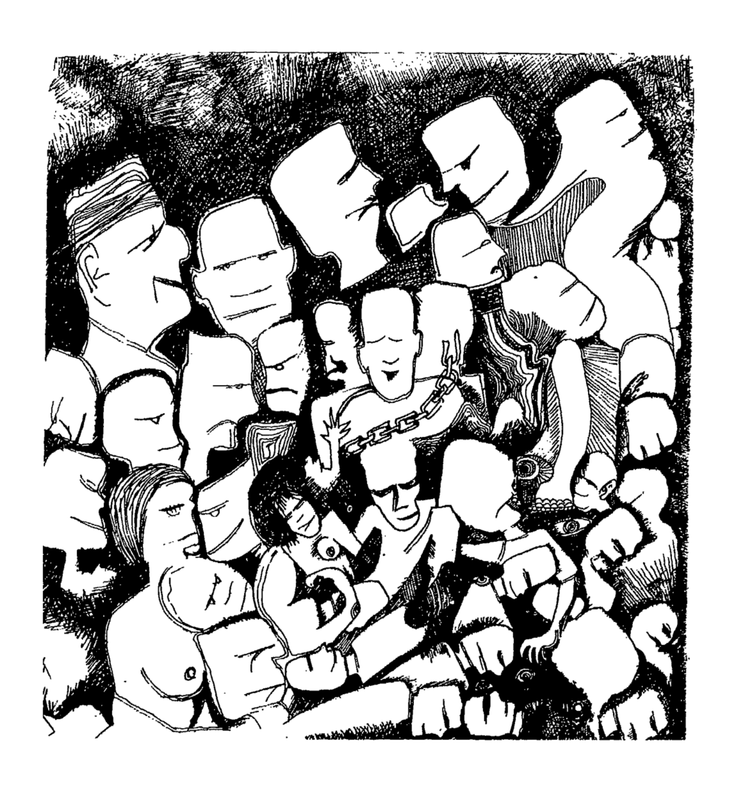
وحاول ان يحقق خططه فى الهروب..
فاتصل بعقيد كان متحالفاً مع بعض الجنود السجناء المقيمين.. وكان بتيت يتحدث بضع كلمات روسية.
واكملوا خططهم وشرعوا فى تنفيذ عملية الهروب..
وبالطبع اكتشفهم ال ن. ك. ف. د.. وبعد عدة شهور فى سجن التحقيق وعلى ذمته حوكموا بالاعدام.. بتهمة الاعداد لانتفاضة..
ولم ينفذ حكم الاعدام على بتيت.. ويبدوا أن الحكومة الفرنسية قد تدخلت وانقذ بتيت..واطلق سراحه.. وهو يعيش الآن فى بلاده..
واقمنا شهراً كاملا فى محطة الانتظار.. وشارفت اقامتنا على النهاية. فى اكتوبر عادة يصل آخر ترحيل من كرسنويارسك الى نورلسك.. ولا يصلح بعدها نهر الينسى للملاحة..
ووسيلة المواصلات الوحيدة تصبح هى الطائرة.. ولا تستعمل لترحيل السجناء الا فى الحالات النادرة جداً.
ثمان طائرة كانت تملكها ادارة نورلسك.. وكانت على الدوام مشغولة بنقل البوستة والموظفين المسافرين فى ماموريات رسمية او حتى شخصية. عودتنا الاقامة تلك على الراحة واحسسنا كاننا فى منازلنا.. بعضنا استطاع ان يوثق علاقته مع رؤساء الحرس المرتشين.. فاحضرت لنا نساؤهم الطعام والخضروات الطازجة.. والتى لم نستطع ان نتنسم ريحها او طعمها فى نورلسك.. ومن كان يملك منا نقوداً استطاع الحصول على الفودكا ايضاً.. وعدنا يوماً بعد جولة شراء الحاجيات لنجد ان جيراننا فى العنبر الآخر احدثوا فجوة فى الجدار وبداوا فى عملية نهبنا.. ولكننا وصلنا فى الوقت المناسب.

فى منتصف اكتوبر رحّلوا المجموعة الاولى وهى تتكون من خمسة وعشرين رجلا.. ولم نكن متاكدين اننا سنلتقى مرة اخرى.. فودعناهم بحرارة شديدة..

حاولنا جاهدين معرفة اتجاه الرحلة ولكننا لم نوفق الى معرفة شىء.. كان المؤشر الوحيد هو أن القطار الذى سافروا عليه اتجه الى اقصى الشمال.. وذلك بتضارب مع الافتراض بانهم سيرحلون الى أركيتسك لا الى القفقاز..
وبدأت السفريات تتوالى.

بعد الظهر ياتى موظفوا ادارة المعسكر فينادون اسماء الخمسة والعشرين الذين وقع عليهم الدور بالاستعداد للسفر فى العاشرة مساء وأتى دورى فى المجموعة الخامسة.

وكالمعتاد استلمنا زاداً يكفى لمدة يومين.. وعلى غير توقع منا حصلنا بدلا عن السمك



المملوح على لحم.. اصاب كل واحد منا ربع كيلو من لحم الضان المطبوخ..
وعنـد البـاب رافقنـا الجنود المسلحون.. وبوليس ال ن. ك. ڤ. د ومعهم الكلاب البـوليسيـة.. وبخطوات سريعة تشبه الهرولة اتجهنا نحو محطة السكة الحديد.. وخاف الجنود أن يفوتنا القطار فجرينا وطاردتنا الكلاب وهى تنبح بجنون مثير.. وتعثر الكثـيرون فى جذوع الاشجـار المقطوعة وسقطوا على الارض فوثبت عليهم الكلاب.. وسبنا الجنود وشتمونا باقذع الالفاظ.... وعندما كنا على بعد عشرة امتار من المحطة راينا القطار يتحرك.. وانهمرت الاساءات..
ـ فاشست ـ تروتسكيون.. عاهرات.. الخ.. الخ..
وقد رافقتنا هذه الاسطوانة ايضاً فى طريق العودة.. وكنا اكثر سعادة ـ عندما وجدنا انفسنا مرة اخرى فى محطة الانتظار. وفى صبيحة اليوم التالى تكررت الاغنية ذاتها.. بخطوات سريعة اتجهنا نحو المحطة.. ولم تكن هناك خطورة ما.. فى أن يفوتنا القطار ايضاً..
فقد اتى بنا الحرس هذه المرة قبل ساعة كاملة من قيام القطار.. وبمشقة شديدة شققنا طريقنا فى ممر السجن الذى يسير على عجلات... أعنى العربة المخصصة لنا فى القطار. وبمجرد ان صعدنا على السلالم بدأ الحرس فى دفعنا وسبنا لان الاشياء التى كنا نحملها لم تعجبهم..
كل زنزانات القطار ممتلئة..
ووقفنا فى الممر طويلا حتى انهى الحراس عملية حشرنا فى مجموعات داخل السجن المتحرك الكئيب.

سجن الانتظار على عجلات.. «ستولين»

الانسان الذى يجىء لاول مرة الى روسيا ويركب القطار، لن يدور بخلده انه وعلى نفس القطار يسافر فيه توجد اقسام كاملة من سجون ال ن. ك. ق. د ملحقة بالقطار.. ومن الخارج تبدو لا فرق بينها وبين العربات الاخرى.. فقط يكفى ان تصعد على السلم وتلقى نظرة الى الداخل حتى يقشعر بدنك.. فى البدء يرى الانسان زياً رسمياً ومعه طاقية على شكل صحن محاطة بحافة كحلية اللون أو حمراء قانية.. هؤلاء هم المعذبون الذين يعرفهم فقط سجناء ال ن. ك. ق.د..

على طول هذه العربات يمتد ممر طويل على كل جانب فيه تقع عشر زنزانات.. فى كل زنزانة منها ثمان خانات لثمانية سجناء.... وبعضها تتسع ستة عشرة سجيناً..

وهم يضعون الآن، فى الصغيرة اثنتى عشرة سجيناً بدلا عن ثمانية وفى الكبيرة ثلاثين سجيناً بدلا عن ستة عشرة سجيناً..

وهى اسوا حالا واشد نكالا من زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية (كارسر).. لا توجد بها نوافذ قط.. ويصل اليها الضوء عبر الممر. وهذه العربات استخدمها لنقل السجناء رئيس وزراء روسيا القيصرية ـ (ستولبن) فاطلق عليها اسمه.

حشرونا نحن الخمسة والعشرين فى أحدى تلك الزنزانات.. كان الجنود فى منتهى القسوة.. دفعونا بارجلهم وأيديهمن..... ليجبرونا على ان ننحشر فى بعض.. ولم يكن يهمهم كيف نتحمل هذا فى رحلة طولها ستمائة كيلومتر.. فقط امرونا بالصمت.. قفلوا علينا الباب.. فوقفنا ثم جلسنا على بعضنا البعض.. وبمرور الزمن تعودنا على ذلك الوضع.. بعضنا تسلق الى الكنبة الثانية ـ والثالثة حيث يمكن الرقاد.. وبعضنا اتخذ لنفسه مكاناً تحت الكنبات وجلست الاغلبية على الارض..

حوائط وارضية الزنزانة مكسوة بالصفيح السميك.

وعلى الرغم من كل ذلك التكدس والزحام فقد كانت باردة جداً.... وبمجرد ان تحرك القطار سمعنا طرقاً ياتى من حائط الزنزانة المجاورة وسال الجندى الذى يقف بالممر..

ـ لماذا تخبط..؟.

اجاب أحدهم..

ـ اطلق سراحنا لدورة المياه..

ـ قلت لكم من قبل بان سيكون لمرتين فى اليوم.

ـ ولكن ماذا نفعل الآن..؟.

ومن الزنزانة الثالثة تعالى صوت نسائى يستعطف..

ـ دعنا نذهب لدورة المياه..

ـ اقفلى فمك أيتها العاهرة.. لقد قلت من انه اثنين.. ولا دورة مياه فيه.

وتعالى صوت المراة بالبكاء هذه المرة..

ـ من فضلك دعنى اذهب.. لن احتمل..

ـ اخرس..
ونسبة لبرودة الطقس فقد أحس الكثيرون بالامتلاء وبانه لا بد من دورة المياه..
احدهم لم يستطيع أن يحتمل اكثر فاتجه نحو الباب وقال للجندى..
ـ اسمع يجب ان أخرج حالا..
وصعق الجندى غضباً به..
ـ أيها الكلب.. ماذا تظم نفسك.. دخلت الآن وتريد الخروج الآن.. هناك فى هذا القطار من ظلوا خمسة ايام.. وحتى ياتى دورهم وهم عليك ان تصمت ايها الكلب..
وخرس الجميع مذهولين..
= خمسة أيام..؟ يا للهول..!! =.
ولم يعد احد يطرق الباب..
ومن زنزانة بعيدة تعالى صوت يصيح..
ـ وعدتونا بالماء.. أعطونا الماء..!.
ـ اى ماء..؟.
ـ أنا ظامىء.. بعد اكل السمك المملح حتى انى لا استطيع الاحتمال.
ـ اقفل فمك.. لانى سوف اخرجك.. واملاك بالماء حتى يسيل منك فتنسى كل شىء..
وهنا بدأ الجميع يصيحون مرة واحدة..
ـ ماء.. ماء.. اعطونا الماء.. أعطونا الماء..
وهرع الضابط..
ـ ما هذه الضجة التى تحدثون..؟ هل تريدون ان ارميكم فى السلاسل.؟.
ـ نحن عطشى اعطونا الماء..
ـ سنحضر لكم الماء فى المحطة القادمة.
وبدأ آخرون يصيحون عندما سمعوا كلمات الضابط..
ـ دعونا نذهب لدورات المياه..
ـ أحفظوا السنتكم خلف اسنانكم.. فى الصباح سنقودكم الى هناك.
وفى أحدى الزنزانات سمع صوت أحدهم وهو يقضى الحاجة على أرضية الزنزانة.
وفى زنزانتنا قرر أحدهم ان يتبول من خلال فتحة صغيرة فى الباب.. ولكن كانت الفتحة ضيقة فتناثر البول وبقى معظمه فى الزنزانة..
الذين كانوا يجلسون على الارض أخذوا فى السباب..
فى آخر الليل وقف القطار بأحدى المحطات.
واحضر الجنود الماء.. ذهبوا به من زنزانة الى اخرى.. مدوا لكل واحد نصف كوب منه.
وفى الرابعة صباحاً بدأوا يفتحون ابواب الزنزانات ويسمحون للسجناء بالذهاب الى المرحاض الذى كان فى ركن الممر.
كان يجب الذهاب الى هناك بخطوات سريعة واليدان على الظهر.
وامتلا الممر بصياح الجنود..

- يداك الى الخلف..
- يداك الى الخلف..
وامام المرحاض وقف جندى يصيح..
- بسرعة.. بسرعة.. الى متى ستجلس..؟.
وطلبت النساء من الجندى ان يبتعد قليلا.. وكان ينظر اليهن باحتقار قائلا..
- انظروا الى هذه العذراء.. الم ترفعى ثيابك أمام رجل ابداً..؟.

أركتسك . مدينة . فى أقصى الشرق

وصلنا الى اركتسك..

اخرجونا نحن الخمسة والعشرين اول من اخروجوا..

وبمجرد خروجنا وقعت اعيننا على الغراب الاسود.. (جورنى قورون) وهو الاسم الذى اطلقناه على عربة نقل السجناء

دخلنا الى العربة ودخل معنا جنديان وضابط..

ومرّ الغراب الاسود خلال المدينة.. فنظرنا بفضول شديد من خلال النوافذ الصغيرة للشوارع غير المعروفة أو المألوفة لنا.. بمدينة أركتسك فى شرق سيبريا.

راينا بنايات خشبية ذات طابق واحد وطابقين.. ثم رأينا فى الوسط مبان من الحجر والطوب.. وفى الشوارع مر الترام بعربات صغيرة.. وكانت هناك بعض الباصات أيضاً.

وفى نهاية المدينة كانت تقف مبانى «محطة الانتظار»..

دلفت العربة الى ساحة.. ونزلنا منها..

جلسنا على حاجياتنا.. وتلفتنا حولنا ننظر ونتامل.. راينا فى الساحة رجالا ونساءاً.. على ايديهم اليسرى شرائط صفراء مكتوب عليه كلمة (مسجون).. واستغربنا عدم سؤالهم لنا.. وكاننا لم نلفت انظارهم...

مروا امامنا ولم ينظروا الينا.

وجلسنا فى الساحة لساعات عديدة..

وكان الحراس يفتحون أبواباً كثيرة لدخول الشاحنات الفارغة..

كان السائقون والركاب يحملون نفس الشرائط الصفراء.

وأخيراً قادونا الى الحمامات التى كانت تقع فى ركن قصى من الساحة الكبيرة.

..وبالقرب من كم اربع بنايات بالطوب الاحمر كان السجن..

وقفت الى جانبه ايضاً بناية من طابقين بها الحمامات فى منتصفها وعلى طول حوائطها مقاعد خشبية طويلة..

ومن قاعة أخرى خرجت مجموعة من النساء وجهن الينا التحية..

ـ نهاركم سعيد يارجال...

وكنا فى اشد الدهشة لرؤية النساء.. وزادت دهشتنا حيمنا قلن لنا...

ـ يجب تعليق كل ملابسكم على الحائط.. وستمرون على قسم الحجر الصحى لتعقيم الملابس.

كان رئيسة العمال فى الخامسة والعشرين من عمرها ممتلئة الجسد سوداء الشعر..

اما الفتيات الاخريات فكن يلبسن قمصاناً ذات اكمام قصيرة وعلى ايديهن اليسرى نفس الشريط المكتوب عليه «سجينة».. اما على خصورهن فتعلقت التنانير الطويلة وتدلت حتى منطقة الركبة.. وفى الاقدام ادخلن شباشب ذات سيور.

ثم ادخلونا الى القاعات فى مجموعات قوام كل منها عشرة افراد.. وكانت النساء فى

انتظارنا..
وقفت عارياً تماماً امامهن.. واصابنى كسوف شديد ولم اجرؤ على التقدم.
وصاحت احداهن بضيق..
ـ أسرع.. اسرع ليس لدينا وقت..
ولوحت لى بيدها التى تضعها على ماكينة الحلاقة ضغطت على اسنانى، وتقدمت وانا ارتجف..
أجلس..
وجلست على الكنبة.. فمرت الفتاة بماكينة الحلاقة نمرة واحدة على شعرى.. وتساقط الشعر على منكبى غزيزاً ملبداً.. وعندما أنجزت الراس رفعت يدى اليسرى وحلقت شعر ابطى.. ثم فعلت نفس الشىء بالابط الايمن.. واخيراً أهضتنى وبدات تحلق شعر العانة. وحتى تقوم بمهمتها على خير وجه قبضت على عضوى التناسلى وادارته فى كل الاتجاهات.. وهى تعلق تعلقيات غريبة..
ثم سالتنى فجاة ـ
ـ كم من من الزمن لم تضاجع أمراة..؟.
أحمر وجهى لدى سماعى ذلك واصابنى الصمت فلم احر جواباً..
وعندما أنهت الحلاقة دفعتنى الى مكان الاغتسال..
أمام الباب كانت تقف احدى النساء ايضاً.. أعطت كلا منا اناءاً من الصفيح وصابونة.. فاغتسلنا وعدنا الى نفس القاعة التى تركنا بها ملابسنا.. وكانت قد أختلطت مع غيرها ولكنها غلست جيداً.. وبصعوبة وجدت ما يخصنى.. وكانت الملابس ملتهبة من سخانة التعقيم حتى انى لم استطيع ان امسكها بيدى.
قادنا رئيس الحرس بعد هذه المراسيم الاحتفالية للحمال الى مبنى ذى ثلاثة طوابق.. وكانت علينا ان ننتظر امام الباب ذى القضبان الحديدية.. وقال لنا رئيس الحرس..
ـ قفوا فى صف من اربعة وستة..
كان بامكان كل واحد منا ان يختار بمزاجه الخاص رفقاءه الذى سيشاركونه السكن فى نفس الزنزانة.. وكان ذلك غريباً لان ادارة كل السجون السابقة كانت هى التى تفضل هذا.
ومن اهم الاشياء لدى السجين،من هو الذى سيشاركه العنبر.... فهناك من يحيلون الحياة الى جحيم بوجودهم معنا فى دائرة واحدة.
ومع ثلاثة آخرين وضعت فى زنزانة فى الاصل معدة لتكون مقراً لسجين واحد.
هذا السجن المرحلى فى أركتسك يختلف كثيراً عن كل السجون الاخرى التى رأيتها.. ظروف الحياة هنا كانت تلائم البشر.. لاول مرة علمت ان الموظفين بادارة السجن يمكن ان يردوا على اسئلة المسجونين بالذوق والانسانية.. لم تكن هنالك اساءات او اهانات او تجريمات.

المجرمون أستغلوا هذا الوضع فعمدوا الى طلب اشياء غير معقولة كان الغرض منها هو تعذيب العاملين.
ومن خلال النافذة أستطعت سماع المجرمين وهم يتبادلون الاساءات والشتائم كانوا يتهمون بعضهم بعضاً بالخيانة.
ثم يطلقون كلمات نابية جارحة.. لا مفر من سماعها الا اذا اغلقنا آذاننا كان هناك قسم خاص للمجرمين الاحداث..

وكان من المحزن سماع اصوات الاطفال.. وهم يتبادولن لغة لا ينطقها الا ابناء العالم السفلى المهين.
وكان احاديث اولئك الاطفال تدور عن قصص «الحب» التى تقع بين الفتيان والفتيان السجينات فى الطابق الاسفل.
ومن الصباح الى المساء يجلسون على النوافذ يقذفون آذان بعضهم بالالفاظ النابية التى يندى لها جبين الكبار خجلا..
وتلك الالفاظ نفسها غير مقبولة ولا مهضومة وهى فى افواه الكبار فكيف بها تصبح لغة فى افواه هؤلاء الاحداث اليافعين..؟.
شىء يؤرث نيران الالم فى النفوس والقلوب.
ومع اطفال مثل اولئك كان يمكن ان تحدث المأساة.
ومضى علينا اسبوع ونحن فى السجن.. لم نعلم الى اى مكان سيرحلوننا.. فصبرنا وأعصمنا بالصمت..

ثم علمنا فجأة بأننا قد نرحل فى اى وقت الى سجن السكندروفسكى وكان لهذا السجن فى تاريخ روسيا سمعة سيئة جداً..
فلم يرد احد منا ان يصدق باننا وقد قضينا كل تلك الاعوام واوشكنا ان ننهى فترات عقوبتنا - نسبياً - سنرمى الى هناك..!.
ولكن هناك شىء واحد كان مؤكداً..
- اننا لن نبقى طويلا هنا..
ومن خلال احاديثنا مع العاملين وقدامى السجناء علمنا، ان المجرمين فقط الذين حوكوا باقل من خمس سنين، هم قاطنوا هذا السجن السعيد وانتظرنا ساعة الرحيل.. بفارغ الصبر..
الظروف هنا محتلمة جداً.. ورغم ذلك كانت تنقصنا بعض الاشياء، التى نعتقد انها من حقنا.
أكثر شىء فقدناه هو الكتاب.. ولم نتمكن من الكتابة الى ذوينا.. ولم يسمح لنا بالتمشى.. وعندما طالبنا به، آمرونا ان نصبر..

وقبل ان يتحقق ذلك، قادونا احد ايام الاثنين الى بناية اخرى، و فى قاعة كبرى تسع خمسين شخصاً قابلنا بعض الزملاء..

وبعد الرسميات المعهودة ذهبوا بنا الى نفس الساحة التى انتظرنا فيها طويلا عند قدومنا..

وهناك كانت بانتظارنا اول مفاجاة من نوعها..

امام ثلاث شاحنات وقفت مجموعة من الجنود على راسها ضابط..

تكومت امام احد الجنود كمية من السلاسل والقيود.

ثم صعد الضابط وجنديان على احدى الشاحنات.

ونادوا علينا اثنين اثنين.. وعند صعود اول اثنين اخذ الضابط قيداً وقيدهما معاً..

واصبحا لا يتحركان الا معاً ولا يجلسان الا معاً...

فجلسنا على أرضية الشاحنة.

ونظرنا الى هذا الامر..

بداية جميلة ولا شك..

وعند دور الاثنين التاليين سال أحدهما الضابط..

ـ لماذ تقيدوننا..؟.

ولم يجب الضابط.. وكانه لم يسمع السؤال.

وقال سجين آخر.

ـ انا فى السجن قبل خمسة عشر عاماً ولم افكر فى الهروب ولا انوى الآن..

وقال الضابط..

ـ انا انفذ الاوامر التى تلقيتها.

هذه القيود ماذا بعدها..؟ انها مقدمة لاشياء واشياء.. ولم اكن افكر الا فى الاعوام التى قضيتها من عمرى بنورلسك.. ولماذا تحملت تلك الحياة..؟.

ولم اعد اهتم بما سيحدث.. ليكن ما يكون..

وخرجت الشاحنة من ساحة السجن.. ولم تسر بالسرعة المطلوبة.... ونظرنا هنا..

وهناك.. بلا مبالاة.. حتى الحرس ما كان يهمهم ان نرى شىء.. ما تضايقوا من حديثنا الى بعضنا باصوات خفيضة.

اما ضواحى اركتسك فما كان فيها جديد او مثير..

مبان خشبية ذات طابق او طابقين لا تتميز بشىء خاص ابداً. نفس الاخشاب المنحوتة من جذوع الاشجار.

السقوف المائلة.. الحشائش المحشوة بين الفجوات لتمنع الرياح.. كل شىء كما هو فى الاماكن الاخرى من سيبيريا.

الشىء المثير فقط هو الكوبرى الكبير على نهر انقارا..

كوبرى متعرج..

تسير عليه القطارات والبصات والمشاة..

عبرنا بنفس سرعتنا..

ثم اتجهت بنا الشاحنات الى اليمين..

فوجدنا انفسنا فى شارع قروى قصدنا منه الى جهة الشرق. وكان سيرنا طويلا.. مئات الكيلومترات عبرنا خلالها عدداً قليلا من القرى..

الشىء المدهش أنها كان ساكنة وخالية كان ساكنيها هم الاموات..!!.

ثم راينا بعض الرجال والحيوانات المنزلية..

وفى بعض الاحيان كان يهب نحو الشاحنات كلب شرس يجرى خلفها وهو يعوى وينبح..

في سجن السكندروفسك المركزى
في الحجرات التاريخية المنيعة الصامدة

ارخى الليل سدوله ونحن ما زلنا نسير..
كانت بعض الاضواء الخافتة تتراءى خلال المنازل القريبة من الطريق..
لم تكن اضواءً كهربائية..
الكهرباء رأينها فقط في معسكرين مررنا بهما.
في آخر الليل وصلنا الي مبتغانا..
وقفز الجنود من الشاحنات..
لاحظت مبنى طويلا من طابقين يشبه الاستراحة الروسية.. به خطوط طويلة علي اضلاع البناء.. اما الابواب فنحتت فيها بعض الزينة والزخارف.
الانوار الكهربائية سطعت من كل مكان فاحالت الليل نهارا.
لا شيء يوحي باننا نقف امام سجن.
في العتمة التي اغرقت المكان لم نر ما يحيط به.
في الاتجاه المعاكس للمبنى بضعة منازل خشبية محاطة بحدائق صغيرة وغرق كل ذلك في جليد عميق.
ثم ظهر ضابط علي الباب المضاء.. وامر بفك قيودنا.
وادخلنا فرادى من خلال الباب فاستلمنا رئيس الحرس وقادنا الي قاعة كبيرة..
نحن الآن في سجن الكسندروفسك المركزى.. أو كما يسمى السجن القديم.. من قرون وقرون..
علي خلاف ما يبدو من الخارج كان منظر السجن من الداخل شبيه بتلك الصور التي رسمها لنا الادب الروسي الجليل.. وبالاخص ما جاء في روايات دستويفسكى الذي قضى هنا سنوات طويلة.
الحجرات الضخمة التي يبلغ سمكها مترا.. الممرات الطويلة المظلمة التي كانت تقود الي الهلاك..
البابان الحديديان الثقيلان المغلقان باقفال عديدة ضخمة تشير بانه لا عودة من هنا..
فاحسسنا فجأة ونحن نرى ذلك بالرهبة والعذاب..
الساحة التي اعدت للتمشي تذكر المرء بالخنادق.. فمنها نرى الحوائط الرمادية.. فقط ثم رفعنا البصر كانت هناك رقعة صغيرة من السماء..
اما الممرات فيرن من ابعادها صدى الخطوات وهى تقرع الارض الصلبة.. اما اذا سعل المرء فان صدى ذلك يفزعه جدا ويكربه ايضا فيجاهد في خنق السعال..
وفي كل مكان كان يسود صمت مطبق.. وكأن هذا المكان هو حجرة الموتى.. او مشرحة الابد.

ومرة اخرى فتشوا ملابسنا.. الاشياء التي كانت معنا اخذوها منا مقابل ايصالات بذلك..
قادوني ومعي، واحدا وثلاثين سجينا الي الجزء الاخر من السجن.. ومررنا بممرات عديدة.. ثم فتحت ابواب مزدوجة.. في البدء باب خشبي ثقيل محاط بصفيح سميك وحديدة.. وبعده باب من قضبان السيخ المستدير السميك.
ثم وصلنا الي ممر طويل في نهايته نوافذ تطل علي الساحة.. اما علي اليمين والشمال فكانت الزنزانات.. وقادونا الي شمال الممر واوقفونا امام باب نمرة واحد..
فتح رئيس الحرس قفلا كبيرا بمفتاح غليظ طويل..
دخلنا بعد ذلك في غرفة مضيئة بها نافذتان تطلان علي الساحة الحوائط المطلية كانت تفوح ... رائحة الجير المحترق الطازج.. وفي منتصف الحجرة وعلي طول الحوائط رصت السرائر الخشبية.. وعلي كل سرير كانت توجد، حصيرة، غطاء، وسادة من القش. وكانت هناك ايضا منصة كبيرة حولها كنبة طويلة. وفي الركن وعلي يمين الباب وقفت مدفاة الطوب التي توقد من الممر وكانت الغرفة دافئة.. وبحث كل منها عن مكانه..
وعندما راى رئيس الحرس ذلك.. خرج واغلق الباب خلفه.
بمجرد ان خلونا الي انفسنا في تبادل الانطباعات عن كل هذا الذي نعيش فيه.. واتفقنا بان كل شيء فاق المتوقع.. واقول ايضا بانه جيد..
وكانت المفاجاة الحقيقية لنا هى ان الامر هنا كما في اركنسك..
فان الحرس يعاملنا معاملة حسنة.. ولم نقابل الاشياء المعتادة من المطاردات والاساءات..
وتحادثنا كثيرا جدا.. لم يوقفنا عن الحديث الا ان الحارس فتح الباب وامرنا بالنوم..
وعندما رقدت، شعرت بالسرور فها انا وللمرة الثانية خلال سجني انام علي الحصير..
ولم استطع النوم رغم انى كنت متعبا ومرهقا للحد البعيد.
وسالت نفسي.. ماذا يعني كل ذلك..؟
بعد كل تلك السنوات الحزينة ها انذا مرة اخرى في السجن.. بلا محاكمة، وبلا ايضاح من احد.. لقد صرنا كالحيوانات، تطارد من كل مكان الي آخر.. وليس لنا الحق في السؤال.. لماذا..؟ أو كيف..؟
وكان واضحا ان كل ما يجرى لا يسنده سند من قانون او اعراف.. كان يحدث بالمزاج الشخصى فقط..
ولاول مرة تمنيت ان انام.. وان انام طويلا.. والي الابد..!!
وفي السابعة صباحا، فتح الحارس كوة الباب وصاح..
ـ انهضوا..
نهضنا .. وارتدينا ملابسنا.. وفتح لنا الباب.. وعلي الرغم من انه لم يقل شيئا فقد حمل اثنان منا جردل قضاء الحاجة لتفريغه. وتبعناهما.. اغتسلنا وقضينا الحاجة في الحمامات بمنتصف الممر. وعدنا للزنزانة .. وجلسنا ننتظر الافطار.

وعندما تطلعنا خلال النافذة ادركنا كسجناء قدامى ان في الاتجاه العكسي للسجن يوجد المعطم.. وعلي اليمين تقع ساحة (التمشي).. وهى تشبه القفص الذي يذكرنا بسولوفكى..

وعلي بعد عشرة امتار من الساحة وقفت بناية من طابق واحد.. نوافذها البيضاء اوضحت بجلاء انها المستشفى..

ومن المنزل الذي تعرفنا عليه.. وقلنا انه المطبخ خرجت امراتان تحملان صندوقا به قطع الخبز..

وصاح الذين كانوا يقفون قرب النافذة..

ـ انهم يحملون الخبز..

سنرى اذن اي نوع من الخبز يقدمون لنا..

"هارجنكو" الضعيف المتهالك اكد ان وجبات الخبز كبيرة ولا تقل عن ستين ديكا جراما.

وعلّق آخر..

ـ عليك اذن ان تنتظر هذه الستين ديكا جرام..

وعلي قدور كبيرة حملت النساء شيئا تصاعد منه البخار..

وبدأ التخمين..

ـ حساء .. حساء..

ـ بل ماء احمر.. شاي.. شاى..

وعند التقسيم استلمنا اربعين ديكا جرام من الخبز..

واصبح هارجنكو هدفا للسخرية..

ـ انظروا .. كان يريد قطعة كبيرة من الخبز..

ـ في نورلسك وعندما كان رئيساً للعمال ، اطعم الذين لم يفوا بالمعدل الاحصائى، اطعمهم ثلاثين ديكا جرام فقط.. وهنا يريد الآن ستين ديكا جرام..!!

وحاول هارجنكو الدفاع عن نفسه.

ولكنه كان مصابا بخيبة امل قاسية.. وسلقه السجناء بالسنتهم طيلة الافطار..

والساخن لم يكن حساءً وانما كان شايا.. واعطونا معه قطعة سكر .. وقطعة سمك [illegible]ح.. ودام ذلك الحال.. تحصلنا علي الخبز والسكر يوميا..

لن تجد في نفسك رغبة للنساء

بعد ان تناولنا وجبة افطارنا وهدات ارواحنا.. اخذنا في حديث مركّز ناضج.. ولكنه مثل اي حديث آخر في ظروف كظروفنا كان حديثا ذا شجون.

بعد قليل اخذونا للتمشي في احدى الساحات.

الحارس الذي كان يراقبنا قفل باب الساحة، واصبح بالامكان التمشي او الجلوس علي الكنبات المرصوة علي جانبي الممر.. لم يتسلط علينا احد بامر.. الجندي الذي علي برج المراقبة كان يراقبنا بصمت.

بعد ساعة من هذه الجولة الطويلة المبهجة اعادونا للزنزانات.

في تمام الساعة الثانية عشرة وصلت وجبة الغداء..

نصف لتر من حساء البطاطس.. عشرة ديكاجرام من عصيدة الدخن.. ولم تشبع هذه الوجبة او تسد جوع احد منا..

وكانت مادة دسمة لحديث بعد الظهر..

واصبح هارجنكو هدفا للسخرية مرة اخرى.. وساله بابج..

- هل اعجبك الغداء يا هارجنكو..؟

- جيد جدا.. سنرى كيف تحتمل طويلا..!

وصمت هارجنكو.. فاستمر بابج يقول..

- الخامسة.. ومع ذلك نصف كيلو من الخبز..

واستشاط هارجنكو غضبا..

- لا تهتم بي.. اهتم بان تجد لنفسك ما يكفيك اما انا فساعيش.

- ستعيش نعم.. ولكن لن تجد في نفسك رغبة للنساء.

تمشينا في الزنزانية وانتظرنا وجبة العشاء لعل وعسي..!! ولكن للاسف خاب املنا فيها كل الذي احضروه لنا كان قليلا من حساء البطاطس... وعندما جاء الحارس ليرفع الاواني سالناه ان كان هناك المزيد من الطعام. فقال ان هذا هو كل شيء.

بعد العشاء كثر حديثنا وتنوع.. و[illegible] امر الطعام.. وفي العاشرة تماما انذرونا بالنوم.. اضاء الحارس النور واطفاه ثلاث مرات.. وهكذا مر اليوم لاقامتنا في سجن الكسندروفسك المركزى سريعا خفيفا..

بعد افطار الصباح ذهبنا للتمشي الذي كان يجلب لنا السرور.. تحادثنا كثيرا عن الحرب وظروفها .. وقد قرّب هذا الموضوع بين الناس الذين كان اكثرهم بالخارج وكان اكثر سكان الزنزانة اثارة للاهتمام هو الدكتور فرانز براوز.. دبلوماسي الماني.. كان سكرتيرا في السفارة الالمانية بموسكو، وعندما بدات الحرب رحلوه الي الحدود الايرانية مع بقية اعضاء سفارته.. ومنها تابعوا سفرهم لالمانيا. كان دكتور براوز احد مواليد هامبورج واحد اعضاء الحزب النازى.... تصادقت معه فقال لي ان نازيتى لم تكن من قلبى ابدا، بل كانت من عقلى فقط.

شيء يتعلق بالوظيفة وبالبقاء في السلك الدبلوماسي.. شخصيته كانت تثير الاهتمام..
كنا قد تعودنا الي ان كل السجناء يتشابهون.. ثم فجاة ياتى سجين ليسلك سلوكا مختلفا عن بقية السجناء..

وكان دكتور براور طويل القامة نحيف الجسم، ينتعل الحذاء العسكرى الطويل ويلبس علي هيكله بزة ضابط الماني لا تتناسب ابدا او تنسجم مع ذقنه الطويلة الكستنائية اللون.. ونظارته السوداء.. وياتى بعد ذلك السلوك المختلف.. الجلوس علي المائدة برشاقة والاكل البطيء.. كان يفرش البشكير بديلا عن فوطة المنضدة ثم يضع الخبز والسمك وكوب الشاي... ويعلق منديله علي رقبته ايضا تعويضا عن الفوطة.. قبضة المعلقة يستعملها سكينا ولديه قطعة خشب هي الشوكة.

وبعدها يبدا افطاره.. قطعة السمك الصغيرة يقطعها (بالسكين) ويحلمها الي فمه بالعود الرفيع.. ومن حين لآخر رشفة من الشاي ويمسح علي فمه بالمنديل.

وكان السجناء يجلسون في صمت حول الاركان البعيدة يراقبون في شغف شديد هذه الطقوس الاحتفالية للطعام.. وحاول الكثيرون التعرف اليه.. ولكن يخيل الي انه كان لا يلاحظ ذلك.. اما انا فقد كان يعتبرني من "بلدياته" ولذلك تمشينا معا كثيرا.. ولاحقني السجناء لاحدثه حتى يسلك سلوكا طبيعيا كبقية السجناء .. وبعد جهد جهيد اقنعتهم بان مسالة اكله والطريقة التي يمارسه بها هي مسألة شخصية جدا.. وعدا ذلك كان براور يخلع بنطاله قبل النوم ويضعه بنظام دقيق تحت الحصيرة، حتي يصبح "مكويا" في اليوم التالى..!

كان بعضهم يسخر من ذلك ويقول ..

- ان براور لن يستطيع كي بنطاله بهذه طريقة ولو انفق في ذلك كل الخمسة والعشرين عاما التي سيقضيها بتهمة الجاسوسية...

وبعضهم اعتقد بان الاناقة والنظام الالماني سيصمدان لاكثر من ذلك..!!

بعد اسبوع اعادوا توزيعنا علي مجموعات جديدة.. واقتيد الدكتور الي زنزانة اخرى.. ولم اسمع بعدها عنه شيئا.. وبعد سنوات طويلة علمت ان دكتور براور يعمل في الدبلوماسية الالمانية بألمانيا الغربية .

وفي مكان دكتور براور حضر ايدى شريدل النمساوى.. وكان شريدل يختلف عن دكتور براور في كل شيء.. ممتلىء الجسم.. اسود الشعر.. مستدير الوجه قروى من النمسا السفلى ومع ايدي هذا كنت في الزنزانة لمدة عشرة اشهر..

اصبحنا اصدقاء.. تحدثنا بالساعات الطوال عن النمسا.. الهتلرية.. وكان يسمى عام احتلال النازية للنمسا.. عام الكارثة..

بقينا قرب بعضنا البعض.. كنا نتبادل تحية الصباح وكذلك وداع المساء.. بصباح

- الخير .. وطابت ليلتك...

واعجبت صداقتنا جيراننا وخاصة دكتور زالكن الذي كان طبيبا ومديرا للقسم الصحى التفتيشى والتخزيني للمواد التموينية بنورلسك.. وكان يمتاز بالبشاشة.. والمروءة..

والاسراع بمساعدة الآخرين.. حوكم بتهمة الاعمال التخريبية لخمسة عشر عاما.. كان قصير القامة اعرج الساقين.. يمشي بصعوبة لتعطل نمو احدي قدميه.. كان زميلا بحق .. اشترك في احاديثنا.. وعلمنا ان اسرته كلها باستثناء اخته قد لقيت حتفها اختناقا في غرفة الغاز.. ورغم ذلك لم يصرح قط بحقده او كراهيته للالمان.. وكان من القلائل الذين يدافعون عن دكتور براور عندما هاجمه الآخرون.

وكذلك عرفت تاييس قرقوريف ياقودا الشابة التي لقيتها ابان عملي بمطعم القسم الثانى من المعسكر في نورلسك.. من دكتور زالكن.

وكان هو قد تعرف علي تاييس عندما كانت تعمل في مخزن فرز البطاطس.

وكانت قد لجأت اليه تطلب الحماية وتناشد نخوته ان تهب لمؤازرتها فوجدت طلبها عنده..

واستمرت صداقتها الي اللحظة التي اطلق فيها سراح تاييس من المعسكر العام سنة ١٩٤٧ حيث قضت فترة العقوبة.

وقد رحلت تاييس ـ حسب افادته ـ بالقوة الي مكان صغير بالقرب من كرنسويارسك وعاشت في بؤس شديد.. وطلب زالكن من اخته ان تمد لها يد العون.. فكانت ترسل لها كل شهر مائة روبل.

دكتور زالكن كان يستمع بسرور وشغف لاحاديث ايدى عن الفترة التي قضاها بالاسر في الولايات المتحدة الامريكية.. واستغرب عندما علم منه ان بالسجن هناك، يوجد دكان لشراء ما يريد المرء دون اعتبار لنوعية البضاعة.

زبد.. بيرة.. خاتم ذهبى.. اي شيء..

وذات يوم سألنى دكتور زالكن..

ـ هل من المحتم علينا تصديق احاديث ايدي عن الاعتقال الامريكى..؟

ـ هذا ممكن الحدوث هناك بالطبع.

فنظر الي بشك عندما سمعنى اقول ذلك..

ومن بقية السجناء علق بذاكرتى شخص فكتور سترسكير.. وهو من الالمان الذين كانوا يعيشون علي ضفاف نهر الفولجا والذين لا يعرفون كلمة المانية واحدة.

وقد حاولنا انا وايدي بعض الالمانية بدون جدوى، ولكنه بعد مجهودات مضنية استطاع ان يقول بالالمانية ـ "انا عندي جوع كبير.."

وهذا الرجل سترسكير كان مشهورا في نورلسك بانه مهندس مناجم فوق العادة.. وكان مسئولا عن الخندق الثانى (ب) .. وهو من احسن الانجازات في نورلسك.. وقد اسقطت اربعة اعوام من عقوبة العشرين عاما التي كان يقضيها بتهمة التخريب.. وبالرغم من ذلك كان يعتبر عنصرا خطرا.. ومن المنجم الذي كان يعمل فيه بنجاح كبير رحلوه معنا الي السجن..

كان فكتور قصير القامة، عريض المنكبين، بارز البطن، اصبح شكله مستديرا كالدائرة التي لم تهدأ فيها الواثبة ابدا..

وعلى كل تعليق لا يعجبه ، كان ينفعل بحدة.. عاش بهدوء شديد مع جيرانه اما مع ايدى ومعى انا فقد عاش صداقة كبيرة..
وكان الد عدو له في الزنزانة هو بابج الذي عمل ذات يوم في ادارة الميناء بدودنكا ميكانيكيا، او مهندسا كما كان يحلو له اين يدعى.
وبابج هذا استطاع ان يقيم صداقة حميمة مع شروسترمان ، فقد كان الاخير نصف متعلم.. ومن ثم فلا يضيره ابدا ان يصدق كل ما يقوله بابج بلا نقاش.. والاثنان متهمان بالارهاب وحكم علي كل منهما بخمسة عشر عاما.. علي الرغم من انهما لم يرهبا احدا.
قيل ان شوسترمان زعم ان روسيا لن يحدث فيها خير قط طالما كان ستالين علي قيد الحياة.. اما بابج فقد قال:ـ
ـ بعد اغتيال كيروف تسطع حقيقة الخسارة الكبيرة في انه لم يقتل ستالين.
وعندما القي القبض علي شوسترمان لم يكن قد بلغ التاسعة عشرة من عمره. اما المشاكل بين سترسكو وبابج فانها انطلقت في البداية من المجال الهندسي.
والمهندس سترسكو لم يوافق علي كل ما يؤكده المهندس بابج..
وهنا تنشب المشاجرة ثم تتطور لتصبح اشكالا شخصيا.. وكان فكتور يحنى راسه للعاصفة ويخضع لبابج لانه ادرك ان ذلك هو الاحسن.. ولكن ما ان يحس بابج انه قد خسر الجولة في المشاجرة حتي يصب جام غضبه علي هارجنكو.
وكان يكفى ان يفتح هارجنكو فمه حتى يهاجمه بابج ويصفه بالحمق والتغفيل ويعيب عليه طول قامته الشاذ.
والطريف حقا ان هارجنكو كان يعمل مديرا للبناء في نورلسك عند تسوير المعسكر.. وهذه الواقعة احسن استغلالها بابج وتحدث عنها في كل مناسبة.
ـ انك ولدت لكى تبنى المعسكرات وهذا ما يتناسب مع اخلاقياتك.
وفي هذا، قد يكون لبابج الحق.. فان هارجنكو حرص علي ان يكون مطية لاوامر وتعليمات ال.ن.ك.ڤ.د وادارة السجن ... كانت اوامر هذه الجهات مقدسة عنده لا يحيد عنها قيد انملة.. وهو يرتجف حذرا ان يمس او يخدش قوانين السجن.. وكان مستعدا لان يضحى بكل شيء حتي لا يسبب ازعاجا لادارة السجن..
وفي الزنزانة تكونت لجنة (كوميت) .. مثل الزنزانة في ذلك مثل اي مكان آخر في السجن.. وكان واجب تلك اللجنة ان تاخذ من كل سجين يملك نقودا، نسبة معينة من الاشياء التي يشتريها وذلك بغرض توزيعها علي من لا يملكون شيئا.
وفي زنزانتنا بالذات كان هناك حوالى ستة اشخاص من مجموع اثنين وثلاثين سجينا لا تصلهم اي نقود من اية جهة..
كانوا من الاجانب..
وهناك ايضا اثنان او ثلاثة تصلهم نقود قليلة جدا.
تقرر ان يعطى الذين لديهم نقود عشرة في المائة فقط .. ولكن كان هناك من وقفوا ضد قرار اللجنة هذا.. وبالطبع هم اكثر الناس نقودا هنا.. منهم، بل قل اولهم كان هارجنكو

وبعده آخر اما الثالث فهو سترسكو .. ولم استغرب ان يتمرد الاول والثاني، اما الثالث سترسكو فقد ساءني تمرده علي قرار اللجنة (كوميت).

فان سترسكو لم يكن بخيلا.. بل علي العكس فانه اعتاد ان يعطى دائما ومن تلقاء نفسه، وبنسبة تتجاوز العشرة في المائة المقررة... وعندما سالته لماذا يقف ضد قرار اللجنة..؟ اوضح لي بانه ضد كل انواع اللجان.. مهما كانت وكيف كانت.. وانه يرغب ان يساعد بماله من يشاء وكيف يشاء..

وحتي يثبت قوله هذا.. قال انه سيساعد شخصين.. ومن المؤكد ان سترسكو ساعد شخصين بانتظام دقيق..

في الشهـور الاولى كان بامكاننا شراء الدخان فقط.. وفي بعض المرات السمك المملوح والصـابـون.. ثم البطاطس وكان يطبخ في مطعم السجن بقشوره.. وكان سعر كيلو البطاطس روبلا واحدا... ولذلك فلم نحس بالجوع في الاسابيع الاولى كانت التغذية جيـدة لان النقـود متـوفرة لدينا.. ثم اخذت النقود تقل شيئا فشيئا وعندها شعرنا بالجوع قليلا.. قليلا..

وادارة السجن كانت ادارة متحررة جدا اجابت علي كل شكاوانا بانها لا تملك مساعدتها، لان ميزانية غذايات السجناء ضعيفة للغاية.. حتي انها في الحساء الرقيق المائى لا تستطيع ان تضع ثلاث قطع من البطاطس..

وهذه بالطبع جزء من تعليمات ادارة السجون الرئيسية بموسكو، التي رات ان تعد لنا نظاما خاصا يحرم علينا الاتصال بذوينا.. ولاول مرة خلال تلك السنين الطويلة اجد انه غير مسموح لي بان ارسل عنواني لاقربائي..

لم يردوا علي طلبنا بالسماح لنا ان نكتب لذوينا.

واصبح الجوع غير محتمل.. كنت استطيع النوم لبضع ساعات فقط.. وغالبا ما كانت تمر ساعات حتي يأتى النوم العنيد.. اما الذين كانوا لا يستطيعون مواصلة التمشي ويجلسون علي الكنبات فقد زاد عددهم من التعب والضعف والمرض.

وامتلأت المستشفى.

اللجنة الطبية التي تشرف علي صحة المرضى ظلت تاتى مرة كل شهر وعندما كان المرضى يشكون من الصداع كان الاطباء يوافقونهم ثم يعطونهم بعض اقراص الاسبرين ، رغم انهم كانوا يعلمون جيدا ان قطعة من الخبز فيها كل الشفاء.

وفي بعض الاحيان كان يحضر الزنزانة احد كبار الضباط .. وعندما نلح في طلباتنا تكون اجابته دائما..

ـ لستم في مصحة.

خلق الجـوع جوا من العصبيـة الشـديدة.. وكان اي نقاش عادي ينتهى بمشاجرة كبيرة.. وكثر الصدام مع العاملين في السجن .. فان ادارة السجن كانت دائما تحبسنا في زنزانات الحبس التاديبية.

وساءت صحة الكثيرين منا..

ادارة السجن رغم انها تملك ما تملك من سلطات الا انها كانت تحس بان مجموعتنا يمكن ان تسير وفق نظام خاص.. كالنظام الذي يتبع مع مجرمى الحرب الالمان واليابانيين.
كان واضحا ان ستالين يتصرف معنا كمن يود ان يصفى حسابا خاصا بيننا وبينه..
وحين شكونا مرة الضابط اجابنا..
-كيف تتخيلون انكم يمكن ان تطالبوا بما تريدون..؟ لقد قضيتم في المعسكرات خمسة عشر او عشرين عامـا.. والآن نقلتم للسجن.. والي سجن الكسنـدروفسـك المـركزى خاصة.. هل تعلمون ماذا يعنى هذا..؟
-نعم.. لا يسمح لنا بطلب شيء.. وما طلبناه لم يعره احد انتباها..
وكنا نشير الي مسالة المكاتبات والرسائل الي ذوينا.
لم يتغير شيء .. سوى اننا كنا نرتدى ملابسنا القديمة، وقد اعطانا هذا احساسا بان وجودنا هنا مؤقت فسرعان ما سنذهب الي مكان آخر..
ولكن جاءنا ذات يوم ترزى السجن لياخذ مقاس كل منا..
وبعد اسبوع نرتدى ملابس السجن الجديدة..
بنطالا.. ومعطفاً من القماش الخفيف عليه خطوط تشبه خطوط حيوان حمار الوحش.. طاقية سوداء.. وحذاء من جلد الخنزير ذا نعل مطاطى.
وعندما ارتدينا هذه الملابس وقر في نفوسنا جيداً انهم سيقبروننا بين هذه الحيطان الحجرية لزمن طويل طويل.
من كانوا يظنون غير ذلك تبخر املهم وخاب.
ادارة السجن تصرفت بوضع السجناء منهكى القوى في قسم خاص انقاذاً لهم من موت محقق.
في هذا القسم استطاعوا ان يحصلوا على طعام خاص.. جيد ووافر.
كانت اللجنة الطبية هى التى توصى كل شهر بمن سيكون من المحظوظين وكان يبقون هناك لمدة شهر..
ثم يعودون الى الزنزانة.. ويبدأ من جديد مسلسل الجوع..
وفترة التغذية هذه لم تفد الكثيرين.
فقد كانت تسود الحياة هنا ظروف غريبة جداً.
ولو سار المسئولين على الخط الذى رسمته موسكو لهم، لمات الجميع موتاً محققاً.
ولاول مرة تجرؤ ادارة السجن على نسف قرارات موسكو.
في العادة، وفي كل السجون كان ال ن. ك. ق. د. هم الحانوتيون للسجناء ولكن هنا في سجن الكسندروفسك المركزى لم يكن الامر كذلك.
كان العقيد لاستوجكن اميناً جداً..
حاول بكل جهد، ان يسهل الامر الصعب عليالسجناء.
وفي ذات يوم قررت ان اقدم نفسى عند (التمام)..

ومن العادة ان السجين الذى يريد ان يقول شيئاً شخصياً يجب عليه ان يخبر مدير السجن او ضابط ال ن. ك. ڤ. د.. وذلك بأخطار الحارس فى طابور الصباح (التمام).. واخطرت الحارس.

وفى اليوم التالى قادونى الى العقيد لاستوجكن.. حضر الحارس عند تمام العاشرة صباحاً وصحبنى خلال الممر الطويل فى مبنى الادارة التى كانت تقع بالقسم الاول من السجن.

عندما وصلنا امام غرفة العقيد لاستوجكن أنتظرت ودخل الحارس يستأذن لى، ثم عاد وادخلنى معه.

وفى حجرة واسعة، على حوائطها علقت صورة ستالين وصورة بيريا وصورة جرجنسك، وبجوار الآلة الكاتبة جلس العقيد لاستوجكن.

وعرفته لانه كان ياتى الى زنزانتنا.. دعانى الى الجلوس فى معقد يبعد عن الآلة الكاتبة بحوالى الاربعة أمتار.. ثم اخذ يتاملنى فترة من الوقت قبل ان يسالنى..

ـ انت تريد الحديث معى..؟.

ـ نعم.

ـ ماذا تريد..؟.

ـ اردت ان اسالك حتى متى يعذبنا الجوع ها هنا..؟.

ـ اؤكد لك بأن الحال سيتحسن قريباً..

ـ هل هذه اقراص مسكنة..؟.

ـ قريباً سيسمح لكم بمكاتبة ذويكم، ويمكنكم استلام النقود، ونحن سنهتم بان تتاح لكم الفرصة لشراء ما تريدون من كنتين السجن.. وسالته..

ـ اننى محاكم بعقوبة المعسكر فلماذ يبقوننى بالسجن..؟.

ـ هذا ليس من أختصاصى.. وبالطبع يمكنك تقديم شكوى للوزارة.. وقد يساعدونك..

ـ شكراً.. وكل هذا جيد..سنرى كم من الوقت يلزمنا الانتظار وهل يسمح لى بان احدث رفاقى فى الزنزانة بمضمون هذا الحديث؟

ـ مسموح...

فشكرت لاستوجكن وعدت للزنزانة..

احاط بى الرفاق منتظرين سماع افادتى عن نتيجة المقابلة..واقترح احدهم ان اجلس وان اتحدث عن كل شىء بنظام.. فحدثتهم بكل ما دار.. وعندما يقاطعني كانوايثورون عليه ويهمون بضربه.. وكانت اكبر اثارة لهم هى امر الوعد بمكاتبة ذوينا..واخطرتهم ايضاً بنصيحة لاستوجكن فى الشكوى للوزارة.. ولكن اغلبيتهم وانا منهم راى عدم جدوى مثل هذه الشكاوى.

وسالونى عن ا لاثر الذى تركه الوعد بمعاودة الكتابة للاهل، فى نفسى.. فقلت لهم أنى احس ان الامر هذه المرة يمكن تصديقه.. ونحن فى انتظار ظروف احسن.

وقد كتب سترسكو، وبايج، وهارجنكو وآخرين شكاوى للوزارة..طالبوا فيها بالعودة

الى المعسكر لكى يضعوا خبرتهم العملية فى بناء الاشتراكية..!! ومرت ستة اشهر على تاريخ قدومنا الى السجن.. وخلال هذا الوقت جاء كثيرون وذهب كثيرون.. جزء الى المستشفى وجزء الى قسم التغذية، ومنها ايضاً.. وبين القادمين الجدد كان الدكتور برليانت.. الذى كان قبل الاعتقال مديراً لقسم العمل الصحى فى المنطقة.. وقد حوكم بتهمة الاعمال التخريبية بعشرين عاماً فى المعسكر.وكان يقدم لى وللكثيرين من السجناء مساعدات جمة.

كان مريضاً بالمعدة، وتقرر ان تجرى له جراحة عاجلة.

وقد علمت مؤخراً فى عام ١٩٥٦ بموسكو ان دكتور برليات مات فى سجن الكسندرفسك المركزى.

فى بداية مايو ١٩٤٩ دخل الى زنزانتنا لاستوجنك.. وقفنا جميعاً نرتجف انفعالا وترقباً كان يعلم ما يهمنا وبدون مقدمات قال..

ـ من اليوم يسمح لكم بمكاتبة ذويكم..

وتنفس الجميع الصعداء. واوضح لنا لاستوجنك ان الكتابة تقررت لمدة مرتين فى العام.. وكذلك استلام الردود.. بعضهم لم يسمع «جيداً» فسأل

ـ مرتان فى الشهر..؟.

كانت تلك هى أجابة عقيد ال ن. ك. ڨ. د.. لا يهم مرة او مرتان.. فان اهلنا يسعلمون اخيراً اننا على قيد الحياة، ولن نكون جوعى بعد الآن.. المدير الذى أتى مع لاستوجنك، فى الحال باشر مهمة توزيع الورق والمظاريف علينا.. الوحيدون الذين لم يحصلوا على ذلك هم الاجانب.

وعندما سأل احدهم..

ـ لماذ لا يسمح لنا نحن بالكتابة خارج البلاد..؟.

لم يرد عليه أحد.

وما ان خرج لاستوجنك ومن معه حتى بدأنا فى الكتابة.. وكانت الشروط ان يكون الخطاب قصيراً، لا يحوى اى معلومات عن السجن وأحواله ولا تذكر فيه عبارة (صادر من سجن [illegible]).

العنوان موضح برقم صندوق البريد.

قيدونا بأوارهم فكتبنا اننا بخير.. نحتاج قليلا من النقود..

وغير مسموح بارسال الطرود.

وانشغلنا بموضوع الخطابات هذه.. وشرعنا فى التخمينات من الذى سيصله اول رد.. وبعضهم قال ان هذه خدعة لان ادارة السجن تريد ان تهدئنا بعض الوقت. وهذه الخطابات لن تصل ابداً للمرسل اليهم.

وكانوا يقولون.. نحن هنا.. وهم هناك.. وبينما نتحادث نحن تكوّن النار عندهم قد التهمت رسائلنا.

لقد أرسلت الخطابات سريعاً وعلى غير العادة. فى المعسكرات والسجون.

وبعد أسبوعين فقط بدأت أول دفعات النقود فى الوصول.

البطاطس ينقذ الحياة

في يوم من الأيام فتحت موظفة الحسابات كوة في الباب، ونادت على بعض الاسماء معلنة بأنهم سيستلمون ايصالات بالمبالغ التي وصلت اليهم. وجن جنونهم من الفرح.. وتعالت أصوات ضجيجهم وعجيجهم.. ثم فجاة وفي اخر القائمة جاء اسمي..
نعم اسمي بعد ان كنت قد وقفت في الركن اداري خيبة الأمل التي بدت على وجهي..
وفي اليوم التالي كان بامكاننا الذهاب الى الكنتين للشراء..
الاول..
ودخل الحارس علينا وقال..
بامكانكم الشراء في ظرف نصف ساعة..
وعملوا على اخراج الذين جاءتهم النقود من الزنزانة..
وكان الكنتين يقع في نفس الممر الذي تقع فيه الزنزانة..
وفي الحقيقة فقد كان هو اصلا زنزانة افرغوها ووضعوا عليها الرفوف في جوانب الجدران.. ثم وضعوا بنكا خشبيا بعرض الباب به الميزان وخلفه جلست الشابة التي سلمتنا ايصالات النقود في اليوم السابق..
وكان امامها اضابير عليها كروت باسم كل سجين..
وتطلعنا لذي البضاعة..
كان هنالك السمك المملوح..المربات..الدخان..معجون الاسنان. الخبز.. وكان بامكان كل منا شراء كيلوين منه.
وعندما اختار كل سجين بضاعته.. سلمتهم الايصالات وعلى ظهرها المبلغ الذي صرفه السجين والمتبقي له.. ونفس المبلغ رصدته على الكرت الذي وقع عليه السجين..
اشتريت انا اثنين كيلو من الخبز.. ونصف كيلو من السمك المملوح..
اما البطاطس فكان بالامكان طلبه ليؤتى به فيما بعد.. ولقد طلبنا منه خمسة وعشرين كيلو جراماً..
وعندما عدنا بعدها للزنزانة.. قمنا بتقسيم مااتفقنا عليه..
عشرة في المائة من المشتروات للذين لم يكن لديهم نقود.
وقررنا ان نقسم البطاطس عند احضاره بالتساوى على الجميع.
وبالطبع، فان البعض لم يوافقو على ذلك ولكنهم اثروا عدم الاعتراض علنا والتزاموا الصمت.. خوفا من تانيب الاخرين.. وكان أول هؤلاء هو هارجنكو ـ كالمعتاد.
وفي اليوم التالي أحضروا البطاطس في براميل كبيرة..
كان مقليا بقشوره..
قسمناه على اثنين وثلاثين جزءا متساوياً.. ووزعناه على الجميع من ساهم في شرائه ومن كان بلا نقود.. حصل كل واحد على كوم من البطاطس.
وحتى لا يفسد وضعناه مرصوصا تحت الاسرة..
وبدانا ناخذ منه بالتدريج..

واخيرا جدا اصابنا الشبع جميعا.. من معه ومن ليس معه..
ولقد اقتسمت كل الذى اشتريته مع أيدى شريدل. وبدون تردد او إنقطاع.
وتحدث أيدى عن شجاعة زوجتى التى أرسلت النقود..
ولاحظنا كيف اصبحت مادة الحساء ضعيفة الكثافة فى مرات كثيرة. وعندما سألناه.. اجابونا بصراحة شديدة..
بالقرب منكم يوجد سجناء من اليابان لا يحصلون مثلكم على اى نقود.. لذلك نحن نعطيهم الحساء الثقيل على حسابكم.. وها انتم تتلقون العون من ذويكم..
ولم نسأل بعد ذلك ابدا لماذا خفت كثافة الحساء.. او لماذا به فقط قطعتان من البطاطس..
وبعد اسابيع تحسنت صحة الجميع..
واستمر الفيض المهج.. تحصلت بعدها على دفعتين من النقود..
وتمكنت من شراء السمك والمربة بكميات اكثر قليلا.. وعندما توفر السكر اشتريته ايضا..
وبمرور الايام دبت الحياة والحرارة فى الزنزانة.. وهدات الاضطرابات النفسية.. وتعالت فى بعض الاحيان اصوات الغناء..
ولم يكن ذلك هو التغيير الوحيد.
فى يوم ما اقتيد سترسكو من زنزانتنا..
ولم يعلم أحد الى اين يقتادونه.. ابداً.. حاولنا ان نعرف ولكن دون جدوى..
وقد استطعت بعد عدة اعوام علمت انه إعيد بناء على طلبه الى نورلسك ليعمل كرئيس للمهندسين فى الخندق الثانى (ب).. وذات نهار حزين كان يتفقد الخندق.. وفجاة بدات الحوائط فى الانهيار التام.. وردمته ردما كاملا.. ولكن العمال سارعوا بالحفر واخرجوه حيا غير انه وفى ظرف اسابيع مات متاثرا بالجراح الخطيرة التى اصيب بها..
بعد خروج سترسكو من زنزانتنا وصل بديلا له المهندس افانوف وهو عجوز مريض.. يعانى من اضطرابات نفسية اكثر مما يعانى من المرض العضوى..
لم يكن له احد فى العالم.. ولذلك فانه لم يحصل على نقود قط من الخارج.. كان يعمل فى نورلسك مهندسا بمكتب الانشاء والتعمير. حضر الى هنا ومعه مال كثير حصل عليه من عمله السابق.. وكان يعارض باصرار اعطاء اى مساعدات لمن لا يملكون شيئا.. وكان يشترى قليلا جدا من التموين حتى لا تنفذ نقوده فلا موارد عنده غير مايملك..
وعندما راى اصرار لجنة (الكومبت) على مد يد العون للاخرين، بدأ يشترى وينفق ببذخ. وأجاب ردا على سؤال الذين استغربوا لهذا التصرف
من الافضل أن تعيش على حساب اللجنة (كومبت)..
وبعد شهور انفق اخر روبل معه.. وبدا عليه السرور العميق فهو الان ضيف على المجموعة حسب قانون اللجنة (كومبت)..
فى أغسطس عام ١٩٤١ ـ وصل الينا زميل من المستشفى.. وحدثنا انه وقبل ايام رحلوا مجموعة سجناء من هنا الى مكان مجهول..

وربطنا بين غياب سترسكو وهذا (الترحيل)..
وكانت هذه الاخبار الجديده، مادة شيقة للاحاديث التى استمرت اياما عديدة..
وبدانا نبحث فى الامر ونتساءل ونحلل. ماذا يعنى هذا..؟
ولم يشأ الكثيرون تصديق هذه الاخبار فاخذوا يمطرون الوافد الجديد بوابل من شواط التحقيقات..
اليست هذه اخبار جديدة فى نهاية الامر..
وقد أكد الوافد الجديد انه رأى المجموعة تقاد من الحمام فى الملابس المدنية ولم يتركوه فى هذه ايضا.. سالوه..
هل انت متاكد من ان هؤلاء الذين هم فى ملابس مدنية ليسوا من السجناء القدامى..
نعم انا متاكد.. لاننى رأيت أحد معارفى من الذين جاءوا من نورلسك..
وبعد ذلك التوضيح صار الامر بينا.. ان هناك شئ يحدث.. وما ان مر شهر حتى تاكد لنا ذلك..
دخل الحارس الى زنزانتنا وقرأ بعض الاسماء من بينها اسمى.. وكان علينا تسليم الايصال الذى اعطونا أياه عند قدومنا.
وسلمنا اشياءنا..
وحدث اضطراب شديد.. وأحاطبنا بقية السجناء.. تكلموا بصوت واحد فى وقت واحد..
واتفقنا أخيرا على الطريقة التى سنزودهم بها بالاخبار..
واخبرت أيدى أنى ساترك له رسالة تحت احد جرادل قضاء الحاجة اخبره فيها بكل ماأعلم..
اكثر ماأهمنى واحزننى هو أن ايدى سيبقى بدون نقود وسيجوع، مرة اخرى.. وكان دكتور زالكن مدانا لى ببعض المال فاتفقت معه أن يعطيها لايدى شريدل.. ووعدنى دكتور زالكن بفعل ذلك..
وقال انه سيساعد أيدى كذلك..
ولم أستطع النوم طوال الليل..
وكذلك جارى مانافا.. دكتور زالكن وايدى..
تحدثنا عن الذى سوف ياتى.. حتى الصباح.
وكان هناك الذين توجسوا من التصفية الجسدية.
كنت هادئا مرتاح البال.. وانا هكذا أبدا عندما ألمح شيئا فى افاق المستقبل يعنى التغيير..
وبعد الغداء قادونا..
ودعت الجميع وخصصت بحرارة وداعى صديقى أيدى ودكتور زالكن..
ولم انس وعدى باخطار أيدى..
مرة عندما وضعت له وريقة تحت جردل قضاء الحاجة..
ومرة بعد عشر سنوات..
عندما أصبحت حرا.. ومن اوروبا كتبت الى ايدى فى رودنتال..

على امل ان يكون قد تغلب بصبره وشجاعته على كل الالام والظروف وعاد الى موطنه مرة اخرى..

ولم استلم منه ردا..

ومر شهران.. فحاولت ثانية..

ومرة ايضا شهران فكتب ايضا..

واخيرا جاءنى رده من فينا..

قال أن خطابى الاول تاه.. والثانى أستلمه بعد لاى.

وذكر انه تزوج وهو يعيش ويعمل فى فينا موظفا بالغرفة التجارية..

أما عن مصائر الاخرين من رفقاء الزنزانة فما أظننى استطعت أن اعرف عنهما شيئا.

■■●■■

الوداع، سجن الكسندروفسك المركزى

داخل زنزانة اطبقت عليها اصابع الظلام واحتوتها جيوش العتمة، بها كنبات عارية الا من الخشونة والبرودة، اجتمعت مع عشرين سجينا من زنزانات مختلفة عديدة. وكان بينهم الفرح الشديد جوزيف بيرقر.. الذى قابلته بعد عام كامل من فراقى له.. وهللنا كالاطفال. كانت صحته متدهورة واهنة، اما روحه المعنوية فكانت متالقة متوهجة عالية.

جلسنا فى الركن وبدانا نتحدث.. تطرقنا الى الوضع الذى نحن فيه، والى اين سنذهب هذه المرة..

اتفقنا على ان حبسنا فى هذا السجن المركزى كان تخطيطا من ستالين الذى استعد لغزو يوغسلافيا.. ولكن شعوب العالم الحر المتقدم وحكوماته لم تمكن المجرم من تحقيق هدفه.. والا يقودوننا خارج السجن.. ولكن الى اين..؟

ذوى الخبرة وقدامى السجناء قالوا سنعود مرة اخرى للمعسكرات.. وكان ذلك واضحا لاننا جميعا كان محكوما علينا بالعمل فى المعسكرات، اما الذين بقوا فهم المحكوم عليهم بعقوبة السجن فقط.. وقد تثبتنا من ذلك حين سالنا ضابط ال ن ڤ د الذى سلمنا الخطابات، وعجبنا للغاية عندما تفضل وتنازل عن كبرياء ال ن ڤ د ـ واجابنا قائلا:ـ جميعكم سترحلون الى المعسكر فى تايشت..

معسكر تايشت.. ذو السمعة السيئة جدا بين معسكرات الاعتقال..

وتسلل الرعب الى نفوسنا باردا كالحزن.. مفجعا كالموت.. فاننا نعلم ايضا.. انه وفوق هذا وذاك.. كل عام تتحرك عشرة الف عربة من عربات السكة الحديد محملة بالاخشاب والسقالات الى مدن اوروبا، من تايشت وفى المساء عندما ذهبنا الى دورة المياه تركت وريقة تحت جردل قضاء الحاجة للصديق أيدى شريدل حسب اتفاقى معه، وقد علمت منه بعد ثمان سنوات انه وجد الوريقة، وكان فيها «نحن الخمسة والعشرين سيذهبون بنا الى معسكر تايشت» ونمنا فى نفس القاعة.. وقد فرشنا ملابسنا القديمة والكيس الذى اعادوه لنا..

وفى الصباح الباكر زودونا بوجبة السفر من الخبز والسمك المملوح والسكر لمدة يومين..

واعادوا التفتيش الدقيق من جديد.. وطلب منا الضابط ان نخرج بهدوء من الزنزانة وان يكون ذلك بصمت، خاصة خلال الممر.. قادونا الى مبنى الادارة وسلمونا للحراس الموكل بهم حراستنا..

بعد ذلك جرت عملية النداء علينا، واركبونا الشاحنات، اربعة فى كل صف.

وللمرة الاخيرة القينا نظرة على المكان الذى قضينا فيه عاما كاملا.. وسارت بنا الشاحنة على الطريق الشرقى لسيبيريا فى اتجاه خط سكة حديد ترانس سيبيريا..

كان الوقت نهاية سبتمبر..

خيل الينا ان المنازل الصغيرة نصف المهدمة خالية من سكانه.. كانت السقوف المتآكلة والابواب القديمة تحمل اثار نقوش بالية عفى عليها الزمن تحكى عن مجد وثراء غابرين لفلاحين كانوا من اشهر اغنياء سيبيريا والذين سار ذكرهم في الدينا.
البنايات الخشبية الضخمة التى ربطت في نهاية الساحة كانت يوما ما مخازن كبيرة للقمح السيبيرى الشهير.
وعندما كنا نمرا امام بعض الفلاحين، كانوا يرفعون ايديهم ويلوحون لنا بها ورؤوسهم غاطسة وسط سنابل القمح التى تموجها الرياح ولم يكن مسموحا لنا ان نرد على تحياتهم..
ورأينا الحاصدة تربض وسط العربات..
وبعد مسيرة ساعات عديدة، وصلنا مرة اخرى الى السجن المرحلي في محطة اركنسك..
وقد سمح لنا أن نعيش ونتمتع باشعة الشمس قبل ان يدخلونا في الزنزانات المعتمة الباردة.
هذه المرة لم ياخذونا الى الحمامات..
وأسف بعضنا لانه لن يلتقى بالفتيات الشابات اللاتى قمن بحلق الشعر عن اجسادنا وبقص شعر رؤوسنا في المرة الفائتة..
وبقينا بسجن أركتسك لمدة يومين فقط..
ثم حشرونا في السجن المتحرك «قطار ستولين».. بحراسة القساة الاجلاف..
طمانا انفسنا بان الطريق الى تايشت اقصر بنصف المسافة من سفرتنا الاولى..
ولكن الذى حدث انه اخذ مدة اطول من المدة السابقة، فبعد سفر ثلاث ساعات توقف القطار في محطة صغيرة.. وسمعنا بعض افراد الحرس يتحدثون عن عطل في القطار، ثم فكوا عربتنا وتركوها على القضيب الجانبي..
ومرنهار كامل وارخى الليل سدوله ومازلنا نقف في ذات المكان..
من حديث الحرس ان احدى العجلات قد كسرت واننا سننقل الى عربة اخرى..
واكلنا كل مالدينا.. وداهمنا الجوع والبرد.. ولم يكن مع الحراس ماياكلونه..
واتفقنا ان نستبدل حاجياتنا واشياءنا بالمواد التموينية..
بعضهم اعطى بنطاله، واخر اعطى سترته، وثالث اعطى معطفه، اما انا فقد اعطيت غطائي.. حمل الجنود الاشياء وعادوا بعد فترة بالبطاطس والدقيق وشحم الخنزير..
وطبخ الجنود في عربة السكة الحديد.. وبذلك انقذنا حياتنا وحياة الجنود من الجوع..
وفي اليوم الرابع وصلت القاطرة ومعها السجن المتحرك «ستولين فاقون» ونقلونا اليها ثم تم قطرها مع العربات الاخرى..
ووصلنا تايشت بعد اربعة ايام..

■■■●■■■

الجزء الرابع

بين مجرمى الحـــرب

■■■●■■■

المحطة المرحلية فى تايشت

بين مدن سيبيريا الكبيرة كرسنويارسك واركتسك تقع مدينة تايشت الصغيرة.. وهى ليست مدينة بالمعنى الحرفى للكلمة، مثل المدن الاوروبية مثلا..
ولكنها مركز صغير مكون من عشرات القرى الصغيرة.. وبه اللجنة التنفيذية للمنطقة، واللجنة التنفيذية للحزب وادارة ال ن ك ڤ د ومدينة تايشت القديمة ذات الشوارع القروية غير الممهدة فى فصول السنة كلها خاصة الربيع والخريف ـ طبعا الشتاء يحيل الطرقات الى جليد، هى المدينة التى يتوجب على من يسير فيها ان يقفز من حجر الى حجر اخر.. وعلى طول الطريق تقف منازل سيبيريا الخشبية فى صفين متقابلين.. وفى بعضها توجد المتاجر التى تباع فيها الاقمشة الرخيصة.. كما توجد ايضا محلات لبيع الفودكا..
ولم تقم فى تايشت ايـة صنـاعات، ولكنها اصبحت مركزا كبيرا لصناعة الاخشاب فى السنوات الاخيرة.. او بعبارة اخرى مركز كبير لمعسكر الغابات
اما فى الاونة الاخيرة فقد شيدت خطوط السكة حديد تايشت ـ براتسك لينا ـ
وكان من المؤمل ان يمد هذا الخط الى كمسومولسك على نهر مور، ثم الى ياكوتى.. وتلك الخطة تسير كما رسم لها..
وعلى ذلك فان تايشت الثانية تكونت واصبحت من المراكز الهامة. وعندما ياتى الانسان من موسكو ومن ناحية الشمال يرى المنازل المخصصة والمهياة لسكنى ضباط ال ن ك ق د وموظفى وزارة الداخلية.
اما الفيلات الانيقة فيسكنها كبار ضباط ال ن ك ڤ د وقواد الحامية.. وفى هذه المنطقة السكنية الجديدة كانت الطرق ممهدة على خلاف ماهو كائن فى المنطقة القديمة، وحتى حواجـز الطرقات كانت مكسوة بالاخشاب. وهناك فى منتصف المنطقة السكنية توجد بناية كبيرة لل ن ك ڤ د ومن متاجر المدينة يمكن شراء المواد الضرورية وبقية المنتوجات.
والقادمون من ناحية اليمين يمكن ان يشاهدوا مدينة كبيرة من العنابر.
مجموعة من العنابر يحيط بها سياج خشبى يرتفع طوله الى ستة امتار ويفصل بين اقسام معسكر تايشت المختلفة..
وهذه ايضا محطات مرحلية للسجناء الذين يتم توزيعهم على اقسام المعسكر المختلفة والكائنة فى عمق الغابة.

وتـنيشت كذلك تعتبر اول محطة للذين يقطعون الاشجار فى الغابة ويبنون خطوط السكة حديد..
وبعض اقسام المعسكر تم تحديدها أيضا للسجناء الذين يعملون فى مناشير الاخشاب والورش الخاصة بتصليح الشاحنات والقطارات..
وهنـاك مجمـوعـات اخرى تعمل فى بناء المنازل والعنابر وبعضهم فى تشييد الطرق ويشرف على كل هذه الفئات اعداد تصل الى المئات من افراد الحرس الذى تسلموا ابراج المراقبة الواقعة على طول السياج..
وقفت عربة السكة الحديد على بعد امتار قليلة من البناية الخشبية لمحطة السكة الحديد..
وفى الحال تهيات لنا اسباب الخروج..
جلسنـا على الارض فى خمسـة صفـوف.. وانتـظرنا خروج النساء من القسم الثانى لينضمن الى مجموعتنا.
وقف كثيرون من الفضولين على الرصيف.. ولم يسمح بالاقتراب من مجموعتنا.. حاول بعض الاطفال الشجعان ان يفعلوا ذلك ولكن الحرس طاردهم..
وتحـركنا عبر الطريق المتربة.. على امتداد سياج المعسكر.. وامام باب الدخول وقف الحراس.. اما الجنود فقد جلسوا على مقاعد خشبية، وقاموا بتحية الحرس المرافق لنا.
وعنـد مرورنـا قرب المصنع رأينا اول السجناء، من الذين كانوا يعملون فى الناحية الاخرى للاسلاك الشائكة..
كان بعضهم يقـوم برص الاخشاب الخام داخل قاعة كبيرة.. وكان اخرون مشغولين بتفريغ القضبان الخشبية من بعض عربات السكة الحديد الكبرى..
وبعد مسيرة ساعة توصلنا الى المحطة المرحلية..
وفتحت الابواب..
وعلى بعد امتار منا انتصبت منضدة امامها موظفو المعسكر ونادوا علينا باسمائنا..
ثم استلمنا مجموعة من الجنود.. خلعوا ملابسنا وفتشونا ومانحمله من أشياء تفتيشا دقيقا مركزا.. ثم ادخلونا الى المعسكر وتقدم نحونا طلائع السجناء.. كانوا جميعهم من الذين القى القبض عليهم حديثا.. وخرجوا من سجن التحقيق..
حدوثنـا بان كل العنـابر والخيام ممتلئة وان مئات السجـاء يعسكرون فى منتصف الساحة الرئيسية للمعسكر..
وسرعان ماتحققنا من انه لا موضع قدم لنا..
وحـططت رحـالى بالقرب من سقف احد العنابر وعصر نفسه بجوارى جوزيف بيرقر وبعض الاصدقاء الاخرين..
اردنا ان نعرف نوعية الطبقة التى جاء دورها الان..
ففى عهد ستالين كان دائما الدور على طبقة معينة من السكان ترسل للمعسكر قبل ثلاثين عامـا بداوا بالحـرب.. وبعده اتى دور الحزب الاشتراكى الديمقراطى.. ثم الجمعية

الامريكية الالمانية الموالية للنازية.. والاشتراكيين الاحرار..
وانصار تروتسكى.. وانصار الجيش الاحمر الذين كانت لهم علاقة مع توهاجفسكى وياكير.. وقبل الصداقة مع هتلر كان الدور بالطبع على (عملاء الجستابو) وبعد الحرب.. سكان المناطق المحتلة الذين تعاونوا مع الالمان..
ومن البداية كان بالامكان معرفة ان المحطة المرحلية يسكنها الان الذين كانوا فى السجون والمعسكرات.. بتهمة الاخطاء السياسية وانقضت مدة عقوباتهم.
وقد أمر ستالين فى ١٩٤٨ بحبس جميع السجناء الذين انقضت فترات عقوباتهم..
ومنذ تلك اللحظة بدأ تدفق السجناء الكبير..
واغلب الظن ان بلاغات او دعاوى جديدة لم ترفع ضد أحد المقبوضون اخبروا بانه قد نمى الى علم ال ن ك ڤ د عدم تحسن سلوكهم..
ولذا حكمت عليهم محكمة الثلاثة ضباط الكبار غيابيا.. ثم اصدرت قرارات بحبسهم مرة اخرى وارسالهم للسجون او المعسكرات، وهكذا كانت الامور تسير..
البعض اتهموا بارتكاب جرائم جديدة اخرى..
واقتادوا جزءا كبيرا الى المعسكر.. وجزءا الى السجن.. وجزءا الى المنفى والمجموعة الثانية تتكون من الذين تعاونوا مع الالمان فى الاراضى المحتلة وبينهم كان عدد كبير من النساء..
ثم سكان البلطيق..
ففى ذلك الوقت كانت هناك حرب مقاومة بين جنود الثوار وجنود ال ن ك ق د ومن بينهم كان القساوسة ومئات الالمان الذين اقتادهم الروس..
وتعجبنا حين علمنا انه لا يوجد مجرمون فى هذه المحطة المرحلية..
والمحطات المرحلية او (اسبسلوقر) تدعى اوزرلاق وهى تنظيم اعتقالى انشىء فى عام ١٩٤٨.. وقبل ذلك كان هناك فى الاتحاد السوفيتى نوعا واحدا من المعسكرات.. وقد تتنوع انظمة هذه المعسكرات الداخلية عن بعضها البعض.. ولكنها كانت واحدة من حيث المبدأ..
وفيها كان يقيم المسجونون السياسيون والمجرمون.
والنساء أيضا يعملن فى وحدة عملية واحدة.. وهن الواتى قبض عليهن بتهمة الجرم السياسى لازواجهن.. وقد وضعوهن فى درجة واحدة مع العاهرات..
ثم هناك ايضا الاطفال الذين كانوا اباؤهم من كبار قادة الحزب وهم ياكلون فى نفس الاوانى التى ياكل فيها الاطفال المشردون..
وفى هذه المعسكرات المخصوصة كان فقط يقيم الذين حوكموا بتهمة الجنوح السياسى وعندما علمنا بذلك بدانا نؤمن بان هذا يعنى تحسين موقف السجناء السياسين.
دائما كنا نحس بانه من العار أن نعيش فى مكان واحد مع المجرمين..
بعضهم راى فى تلك الاجراءات الجديدة لمحة انسانية..
ولكن سرعان ماتاكدنا بان المسعكرات المخصوصة لم تاسس من اجل تحسين وضع

السجناء السياسين.. ولكن حتى يستطيعوا ارهابهم بطريقة مزرية..
وقد ساد في تايشت جو من الحيوية.. والمرح..
بعض السجناء كانت لديهم الات موسيقية وأسسوا اوركسترا.. ورقصوا بحرارة وانطلاق..
السجينات المقيمات في عنابر مخصوصة كل يسمح لهن في وقت معين بلقاء بالرجال في غرفة الطعام.. وأيضا سمح لهن بالرقص ومن كانت منهن ماهرة فيه كان بامكانها ان تجد رفقة دافئة..

اصدقاء الذين كانوا يرقصون مع النساء الجميلات على انغام الغناء والموسيقى، همسوا في اذانهن واقنعوهن بعد جهد جهيد بالذهاب معهم الى صهريج الماء..وهناك جربوا اوضاعا عديدة للحب..
ومن الايام الاولى لقدومنا احسسنا بروح جديدة تسود اجواء ذلك المكان.. من الطبيعى جدا ومن المفهوم والمسلم به انهم لا يسمحون قط لسجين ان ينقد بلطف نظام ستالين على الاطلاق.. اما هنا فكان الوضع مختلفا.. كانوا يلعنون سنسفيل جدوده والويل لمن يعترض او يلوم.. خاصة رجال البوليس السابقين والبلطيقيين الذين حوكموا بخمسة وعشرين عاما.. كانوا يقولون ماذا نخشى وماذا سنفقد.. لا شيء..
وبخلاف ذلك.. كانت الغالبية تؤمن بالحرب القريبة بين الاتحاد السوفيتي والقوى الغربية..
وفي ذات يوم وقف راهب من لتفانيا والقى كلمة وعظ امام مجموعة من مائة سجين.. تحدث عن نهاية دكتاتورية ستالين .. كيف ان الامم المتحدة ستخلص السجناء من مخالب ال.ن.ك.ق.د .. تحدث لمدة عشر دقائق..
وانتشر النبا..
فهرع بوليس المعسكر، واقتادوه الي زنزانة الحبس التاديبية.. (كارسر).
xxxxxxxxxxxxx

استطعنا جوزيف وانا ان نجد مكانا في احدي العنابر بعد ان "وسطنا" لذلك.. وكنا سعداء لاننا اخيرا سننام علي الارض بعد ان كنا نرقد قرب السقف القذر جدا، المليء بالبراغيث (والقراد) في العنبر الجديد تعرفت علي دكتور فرانك من فينا.. وكان قد جاء الي روسيا في الحرب العالمية الاولى كاسير وسكن في طشقند.. وفي عام ١٩٢٦ زار مسقط راسه الذي كانت تعيش فيه والدته واخته..
وبعد اقامة دامت عدة اسابيع في فينا عاد دكتور فرانكل مع زوجته وطفله الي طشقند. وهناك عاش كطبيب ومواطن محترم..
في عام ١٩٤٠ القى عليه ال.ن.ك.ق.د القبض.
ومثل الكثيرين اعتقد دكتور فرانكل ان في امر الحبس بعض اللبس .. وكان متاكدا من انهم سيطلقون سراحه قريبا.

ونجح في اخطار زوجته بانهم يتهمونه بالعمالة لالمانيا..
وانهم يجبـرونـه علي الاعتراف بانه جند لذلك بواسطة عميل كبير هو تاجر الاثار القديمة في فينا وينبيرقر .. ولكن دكتور فرانكل لم ير وينبيرقر هذا منذ ان بدا نفي اليهود في النمسا.
وكان واينبيرقر قد اقتيد قبل اعتقاله الي بولندا.. ومن هناك استطاع ان يهرب الي روسيا..
مثله مثل بقية اليهود الهاربين وضع في معسكر بالقرب من سراتوف على بعد قليل من الفولجا.
وكان واينبيرق زميل دراسة لرافنكل.. وحين وصوله الي سراتوف كتب في الحال لفرانك واوضح له موقفه.
وبعد ذلك ارسل له فرانك كثيرا من النقود والطرود.
وعندما نشبت الحرب بين المانيا والاتحاد السوفيتي ، اطلق سراح اليهود وسمح لهم بحرية واختيار المكان الملائم لاقامتهم. فسافرواينبيرق الي طشقند علي امل ان يجد مكانا لايوائه عند زميل دراسته.
وعند وصوله الي منزل صديقه فرانكل قرع الباب، ونطق باسمه للسيدة فرانكل ففزعت فزعا شديدا وارتجفت انفعالا وغضبا، فهذا الرجل يقف امام عينيها هو السبب المباشر لتعاسة زوجها.. وعندما هدات ثورتها اخبرته بكل شيء ولماذا قبض علي زوجها.
وقرر الاثنان الذهاب لل.ن.ك.ق.د لكي يوضحوا لهم اختلاط الأمر الذي ادى الي سجن فرانكل.
وحكت زوجة فرانكل لضباط ال.ن.ك.ق.د سبب حضورها لهم هي وواينبيرقر وانهما يريدان ازالة اللبس الذي ادي الي اعتقال زوجها.. وكتب ضابط ال.ن.ك.ق.د كل شيء واخبرهما ان يعودا الي المنزل قائلا..
ـ كل شيء سيكون في وضعه الطبيعي..!!
واتجه الاثنان نحو المنزل والامل يراودهما في اطلاق سراح فرانكل سريعا. ومرت ايام عديدة.. ولكن فرانكل لم يعد.
لم يطلقوا سراحه وانما القوا القبض علي واينبيرقر.
والتقى الاثنان في زنزانة واحدة.
وهكذا اتيح لهما ان يحتفلا باللقاء الذي جاء اخيرا وبعد كل تلك السنين الطويلة..
وصدر الحكم علي فرانكل بعشر سنوات سجنا في المعسكر. واما مصير واينبيرقر فكان الموت في السجن بطشقند.
وقد قابلت دكتور فرانكل بعد ذلك في المعسكر نمر ٧.. ثم لم اسمع عنه شيئا بعد ذلك..
وجاء اليوم الذي كان علي ان امثل فيه امام اللجنة الطبية..
وهي اللجنة المنوط بها تحديد نوع العمل وذلك يحدد المعسكر المطلوب الذي سيرسل اليه السجناء ..

وقفت عاريا تماما امام لجنة الاطباء..
امرأتان ورجل
وكان في القاعه ايضا رئيس القسم الصحي.
وسالني الطبي عددا من الاسئلة.. اخذ بعدها في املاء تقريره علي سكرتيرة اللجنة التي جلست امام الالة الكاتبة وهي شابة حسناء..
وبقدر ما سررت بالقرار الذي اصدرته اللجنة وهو (المرتبة الثانية) .. الا انى كنت حزينا لتدهور صحتي.
فالبطاطس الذي اكلته في سجن الكسندروفسك المركزى لم يساعد كثيرا بقينا في المحطة المرحلية لمدة خمسة ايام اخرى..
ثم اخطرونى بالرحيل ضمن مجموعة تتكون من خمسمائة سجين.
وقد بدات اجراءات التسليم والتسلم في الساعة السادسة صباحا وانتهيت في الرابعة ظهرا..
التفتيش .. تقسيم الاكل والزاد للرحلة.. تسليمنا للحرس.. الخ.. الخ.. وداخل عربة واحدة حشرنا.. كان عدد شاغليها ثمانون سجينا.. وكان الوقت متاخرا جدا وقد اطبق الليل جفونه عندما الحقونا بالقاطرة..
اذن سوف نتحرك قريبا..
وسارت بنا القاطرة الي محطة تايشت.. حيث الحقنا بالقطار المتجه الي المعسكر وسار القطار ببطء شديد لان القضبان كانت ما تزال تحت تجربة التشييد.
وصلنا الي المعسكر نمرة ٧ مع التباشير الاول لضوء النهار.. كان الوقت مبكرا ومن خلال كوة صغيرة في القضبان استطعنا ان نرى اقرب المعالم.
علي بعد حوالى مائتى متر من قضبان السكة الحديد تقع مجموعة من العنابر المطلية بالجير الابيض.
وكان المكان محاطا بسياج عال من الاخشاب ويشبه الي حد كبير مثيله في المحطات الرئيسية.
ولم نستطع ان نرى الجزء الخلفي للسياج.
ومن جوانب المعسكر المختلفة كان يمكن رؤية الاشجار القليلة المتناثرة هنا وهناك.
ورايت علي بعد، شجرة عيد الميلاد، فخفق قلبى بحزن..
كان المعسكر هادئا.. وقد اطلت فوهات ومواسير المدافع الرشاشة من فتحات ابراج المراقبة العالية..
ورأينا الضباط والجنود يحرجون من بيوتهم ..
وفي وسط ساحة المعسكر وضعت المناضد والكراسى .
فتحت اول عربات القطار وانحدر السجناء علي الجسر الذي يربط العربة بالارض.
وقفوا صفوفا خمسا.. واتجهوا نحو باب الدخول..
واشار لهم الضابط الي المكان الذي يجب عليهم الجلوس فيه على الارض...

وتناولت المشاهد المتكررة.. عربة وراء اخرى.
وجاء دورنا.. وقفزنا على الجسر كاننا التيوس.
كنـا سعداء بتحريك مفاصلنا بعد طول مكوث دام طويلا. وكانت ألاجراءات طويلة ووملة وضجرة.
ولم يسمح لنا بالدخول الى العنابر الا بعد ان نودى على اسمائنا وقسمونا بالوحدات.
العنابر من الداخل كانت شبيهة بمثيلاتها فى نورلسك.
والوحدة التى وزعت للعمل بها كان عليها اصلاح الجزء الاعلى من القضبان.. وقد علمنا ان عدد الذين يذهبون للعمل فى هذا المعسكر هو حوالى الثلثماية او الاربعمائة سجين فقط.. اما بقية الالف ومائتى سجين فيجلسون فى العنابر.. او يعملون داخل المعسكر.
واقترح على رئيس العمال ان اعمل نوبتجياً..
فوافقت على هذا الاقتراح ولم يكن العمل شاقاً فقد كنا نقوم انا وزميل آخر وكان اسم الزميل لفجنكو.. وهو العمدة السابق لروفنا فى ايام الاحتلال الالمانى
وكان اعرج القدمين، لعجز او قصر فى احدى ساقيه.. لذلك فقد وجد هذا العمل سهلا مريحاً له ويتناسب مع حالته.
اجتهدت ان احفظ النظام فى العنبر، وعملت كثيراً من اجل ذلك..
فى الصباح الباكر وبمجرد ان تفتح العنابر كان على ان احضر الماء من البئر الذى يبعد حوالى المائة والخمسين متر.. وكان الماء قليلا جداً ولا تكفى بئر واحد لالف وخمسمائة شخصاً.
اما اثناء ساعات النهار فقد كنت انظف العنابر.
ونلت بهذا الجهد رضا رئيس العمال والسجناء...
وقدروا لى انى كنت امد الوحدة بالماء الكافى فلم يكن قد اعتادوا على ذلك وكان الرجال يحضرون الينا من العنابر المجاورة ليطفئوا ظماهم.
وسرعان من انتشر الخبر بانى نوبتجي ممتاز.. وصار رؤساء العمال يضربون بى المثل فى النشاط والاخلاص.. ولكن اصدقائى كانوا يسبوننى للمثابرة والاجتهاد الشديد.
اما السخط وعدم الرضا فقد نالهما بجدارة زميلى الآخر (عمدة المدينة) اذ كان لا يعمل شئياً فاستحق بسخرية شديدة لقب عمدة المدينة هذا.. كان فقط يجلس قرب برميل الماء ليزود عنه الظامين من العنابر الاخرى..
وكان يصيح فيهم دائماً..
ـ اذهبوا.. لم اجلب الماء لكل المعسكر.
وكان الجميع يعلمون جيداً انه لم يحضر قطرة واحدة من هذا الماء. وكان هو ـ عمدة المدينة ـ مسروراً منى جداً، فكان يحضر لى كثيراً من الحساء.
وكان يعلم انى سجين قديم، وعضو سابق فى الحزب.. وحكى لى انه كعمدة المدينة روفنا فقد كان يهتم باليهود والشيوعيين. ولكن الآخرين اثبتوا عكس ذلك. وقالوا انه انتزع منازل اليهود واعضاء الحزب.. وخص نفسه باحسن الاشياء المصادرة.. ووشى بأعضاء

الحزب واليهود للجستابو.. ومن سخرية الاشياء ان انقاذه من الاعدام رمياً بالرصاص كان لشهادة ادلى بها احد اليهود، بانه قد اعطاه تصريحاً ذات يوم وانقذه به من ايدي الجستابو

هذا المعسكر (سبسلوقور) المخصوص، اوجد خصيصاً ليعزل السجناء عن العالم الخارجي..

في المعسكرات الاخرى كان السجين يتمتع بحرية الحركة.. وفي اماكن العمل يلتقي بالطلقاء.. ولم يكن معزولا.

كانت الكتابة للاهل محددة بخطابين في العام بالنسبة للسجناء. ولكن بما ان بعض (عديمي النظام) كانوا يساعدون في حصول السجناء بطريقة او باخرى على وسيلة لارسال خطاب..

فان ال ن. ك. ڤ. د فكر في خلق ضوابط جديدة واجراءات مخصوصة..

واحدى تلك الاجراءات كانت الملابس التي ميزت سجناء المعسكر المخصوص عن بقية السجناء واكثر شيء عن بقية سكان البلدة..

حصل السجناء على بنطال وقميص وسترة ومعطف، يميزهم لونهم الكحلي الغامق.. وعلى كل قطعة كتبت ارقام كبيرة ظاهرة بالوان الزيت.

كان الرقم على البنطال في مكان الركبة.. وفي الطاقية من الامام.. وعلى القميص والسترة والمعطف من ناحية الظهر.

اما الملابس التي لا تحمل ارقاماً فلم يكن يسمح بارتدائها.. حتى في داخل المعسكر كان الحرس حريصاً على ان تكون الارقام واضحة للرؤيا..

وكل سجين يخالف ذلك الامر يعاد ليلبس من جديد..

اما الذي لا يعد كتابة رقمه المسموح له به، عوقب بالسجن في زنزانة الحبس التاديبية (كارسر).

كان رقمي في المعسكر المخصوص سبسلوقور هو ـ ش ٤٦٢.. اما امر الرقابة على السجناء في المعسكر المخصوص فكان شديداً صارماً جداً.

وحتى الجهاز القائم لل ن. ك. ڤ. د اضيف اليه جهاز آخر (م ج ب) جهاز وزارة الداخلية. وذلك لتتضافر القوى.

وكان بالمعسكر ضابطان سياسيان، احدهما من ال ن. ك. ڤ. د والآخر من وزارة الداخلية (م ج ب)..

وقد تكالبا وتكاتفا على الفتك بالسجناء واساءة معاملتهم. وكان لهما عملاء بين السجناء اوصلوا لهم كل ما ينطق به احد هناك.

وقد شن السجناء حرباً شعواء ضد اولئك العملاء الذين كانوا بين صفوفهم.. وغالباً ما كان يصيب احدهم حجر اثناء العمل يحطم راسه... او يتدحرج وبمجرد الصدفة تهرسه شجيرة هناك. وكانت هناك ايضاً بعض الاغتيالات.

جواسيس الاميريكان

فى مثل هذه الاحوال.. ومنذ اليوم الاول احسسنا نحن السجناء القدامى، واعضاء الحزب القدامى ايضاً، باننا قد وصلنا الى وضع صعب للغاية.. الحياة فى مكان واحد مع مع رجال البوليس السابقين.. ورجال مخابرات هتلر.. والنازيين من سلوندور كوماند.. كانت غير محتملة على الاطلاق.
بعضنا كتب لل ن. ك. ڤ. د. محتجاً على وجوده فى صعيد واحد مع هؤلاء القتلة والسفاحين.
وجاء الرد الماساوى يقول.. انه من الطبيعى والعدل بمكان كبير انهم ارسلوا الى ذلك المعسكر بالذات.. وكان بين سجناء المعسكر من الألمان من ليست له ادنى صلة بجرائم هتلر.
وفى المعسكر رقم ٧ قابلت مجموعة من الألمان الشبان الذين تعاونوا مع ال (اس.. آى.. اس).. والذين اعتقلهم الروس فى القطاع الشرقى من برلين وحوكموا بخسمة وعشرين عاماً سجناً فى المعسكرات.
وبين آلاف من هؤلاء الشباب الذين عملوا فى خدمة امريكا، كان بالطبع هناك المغامرون، واصحاب التطرف.. والمستعدون لخدمة اى انسان فى اى مكان.
ومن المنصف ان نقول ان الغالبية لم تكن تهتم للمادة. والذى كان يثير اهتمامى بشدة هوكيف يفكر الشباب الألمان بعد اندحار هتلر وهزيمته..؟ هل استطاعوا ان يستوعبوا الدرس الذى حدث امام اعينهم، وفى بلادهم من؟ محاورتى معهم اكتشفت ان القليلين فقط هم الذين كانوا يلعنون هتلر ونظامه.
ولكن الجميع اتفقوا على ان سياسة هتلر تجاه اليهود كانت سياسة غير صحيحة. وكانوا يندددون ويدينون الابادة الجماعية للشعوب الاخرى. واكدوا انهم كانوا يجهلون امر تلك الممارسات البربرية. وعندما سمعت ذلك خطر بذهنى اعتقاد بعض السجناء القاطع بان ستالين لا يعلم شيئاً عن جرائم يجوف.. وبيريا.. وابا كوموق..
وعلى ان اقول بان اول حديث بعد الحرب مع الشباب الألمانى اصابنى بالغم والكدر وعكر صفو نفسى.
واستخلصت بان اثنتى عشر عامـاً من حكم هتلر عاقت وشوهت وحطمت الشباب الألمانى تماماً..!!.
غالبية سجناء هذا المعسكر تتكون من الاجانب، او الروس الذين كانوا فى الخارج واعيدوا بالقوة او بوسيلة ما الى بلادهم.
عقيد الجيش السوفيتى يارهو دخل المانيا مع الجيوش السوفيتية.. كان ضمن اللجنة التى قامت بفك المصانع الألمانية واشرفت على ترحيلها للاتحاد السوفيتى ومنها مصنع سلينر فى «ين» ومصنع الاوبيل الكبير.. وورشة سيمنز... ومصانع اخرى كثيرة.
لم يفكوا الآلات فقط.. ولكن الابواب، والنوافذ، والطوب المضغوط.. والصفيح الابيض

من السقوفات.. وقرر يارهو ان يهرب الى الغرب.. وبعد تدبير واعداد جيد استطاع ان يعبر الحدود دون ان يلاحظه احد..... واختفى فى دوسلدروف.
وكان فى شبابه الاول عضواً فى شبيبة الحزب الشيوعى وجندياً مخلصاً صدق كل ما سمعه عن الحياة فى الدول الراسمالية.. وعندما رأى اول قرية المانية بدا فى مقارنتها بالكولخوز السوفيتي.
والمنازل فى ضواحي برلين وقفت دليلا عن ان العمال لا يعيشون فى بؤس كما كان يقال له. وكانت الضربة الاخيرة هى علاقته بالضباط والجنود الامريكيين. ووجد عملا فى دوسلدورف.
وبعد ثلاثة اشهر، وفى احدى الليالى عندما عاد من السينما راى عربة صغيرة مغلقة تقف بالقرب من مسكنه..
ولا يذكر بعد ذلك ما حدث..
استيقظ فى العربة عندما وصلت الى برلين الشرقية.. وكان يجلس على يمينه وشماله شخصان..
احس عندما افاق بصداع هائل يهز راسه بعنف، كما شعر بان الدم يسيل على عنقه.. واقتاده المختطفون الى السجن..
وبعد ايام عديدة فى الاستجواب اخروجه ليقف امام محكمة عسكرية قضت بسجنه خمسة وعشرين عاماً فى المعسكر.

****

بدا تشييد خط سكة حديد تايشت ـ لينا ـ اسرى الحرب اليابانيين الذين كانوا يسكنون فى العنابر القديمة المحكمه. ذات الروائح الكريهة.. وبعضها كان متهدماً يسند بالاعمدة الخشبية.
امـا العدد الاكبر من السجناء فقد جلس بلا عمل.. وكانت الغابة التى نحن فيها كميات هائلة من الاشجار.. اكثر من طاقاتنا كلها... تجمعت لاسقاطها..
ولكننا بقينا فى انتظار الاوامر العليا.. التى لم تصل بعد. وكان اكبر هموم ضباط ال ن. ن. ك. ڤ. د. هو المحافظة على النظام وعدم السماح لاى احد مهما كان بخرق القواعد والنظم.
وعندما اضطررنا لجلب الحطب والماء من نهر جونا على عربات صغيرة، لم يعجب هذا ضباط ال (م. ج. ب).. فكيف يسمح لسجناء المعسكر المخصوص بالذهاب الى النهر..؟.
ومرة اخرى استفحل النقص فى الماء.
ولكن كل الشكاوى كانت غير مجدية.
وفى يوم ما حضر الى المعسكر عقيد ال (م. ج.ب).. وبدون ان يقول اى كلمة طاف بالعنابر عنبراً عنبراً.. ولم يجرؤ احد على الشكوى له جمعت بقايا شجاعتي وقلت له..
ـ اعذرنى ايها المواطن العقيد ـ هل يسمح لى بان اقول لك شكوى واحدة..؟.
ـ ماذا تريد..؟.

ـ هل يعامل الناس عادة كما نعامل نحن في هذا المعسكر..؟.
قال العقيد بحدة..
ـ انت في معسكر خاص تابع لـ (م. ج. ب) وليس في اي معسكر اخر..
ـ هل هذا ينفي ان تكون هناك معاملات انسانية؟
ـ من الذي يعاملكم بلا انسانية.؟
ـ هنا لا نجد حتى ماءا للشرب..
ـ ماذا ..؟ الديكم ماء قليل..؟
ـ نعم .. متى يسمح لنا بالكتابة الي ذوينا..؟
ـ يسمح لكم بالكتابة مرتين في العام..
قالها واستدار منصرفا خلال جموع السجناء التي كانت تحيط به.
المحادثة اليائسة التي اجريتها معه اتت بثمارها بعد يوم واحد فقط.
حصلنا علي ورقة ومظروف وسمح لنا ان نكتب الرسالة الاولى.
وسررت لانني سأرسل لزوجتي عنواني الجديد..
ورجوتها ان ترسل لي قليلا من الاكل.
وبعد الظهيرة جاء الحارس وقال لي :
ـ هذا اخر يوم لك في العمل كونوبتجي .. فمن الغد عليك ان تعمل في بناء الجسر....
لم ارد عليه..

وفي بناء الجسر علي نهر جونا عملت اربعة ايام فقط.
اشتركت في هد الجسر الخشبي المؤقت.. ولم يكن من نصيبي المساهمة في بناء الكوبري الجديد.. استطاع مدير اقسام المعسكر ان ينتقم مني في اول فرصة سنحت له.. فعندما حضرت اللجنة لاختيار العمال لقسم المعسكر رقم ٣٣ سارع بتعييني معهم.. وقد تضايقت ولكني نصحت بعدم الشكوى.. وان القسم ٣٣ يقع في الجانب الاخر من نهر جونا .. مشينا علي الاقدام مسافة ثمانية كيلومترات .. مررنا اولا بطريق منحدر قاد الي النهر وبعده تحركنا في النهر المتجمد.. ثم مررنا ايضا بقرى بيسرابيا وشاهدنا اهلها يرصون جذوع الاشجار التي حملها تيار النهر في فصل الصيف.. وعبرنا خلال غابة عميقة الجليد، تجاه خط السكة الحديد الجديد، وبعد ان قطعناه راينا سياجا كبيرا لقسم المعسكر ٣٣ قادنا بوليس المعسكر والحرس الي العنبر الثالث وهناك فتشونا وسمح لنا بدخول العنابر.. قمت بحجز مكان لي في الكنبة العليا واخر لاوسكار لبتخ ـ وهانس ـ وهما المانيان تعرفت عليهما في المعسكر رقم ٧ .. كنت متعبا جدا واحس بالضعف الشديد.. وقد كان ولكن ها انا اعاقب لانني شكوت للعقيد وقررت ان ارفض اي عمل لا استطيع القيام به.. وكنت اعي تماما معنى ذلك وعواقبه.. وجهزت سريري في الغرفة المعتمة المظلمة وكان الوقت ليلا وفرشت البنطال والسترة المحشوة والمعطف .. ونمت علي هذا وفي الصباح وزعوا العمل وكان نصيبي هو وردية الليل في وحدة

التفريغ وقررت الراحة اولا ثم التعرف علي القسم ٣٣ ثانيا.. اخذت افطارى الذي لم يختلف عن مثيلاتـه في المعسكـرات الاخرى.. وهذا المكان يشبه القسم رقم ٧ نفس العنابر المتهالكة نفس النظام وحتى الكتابات اليابانية هي ذاتها ..

كان الفرق الوحيد هو جدول المياه وخريرها علي حافة المعسكر.. والبناية الزجاجية التي زرعت فيهـا الخضروات الطازجة لضباط ال.ن.ق.د وكنت مهتما بمعرفة من هو رئيسي في العمل..

ولم يكن ضروريـا ان اسـال فبمجرد ان دخلت العنبر الذي كانت وحدتي فيه .. سمعت شخصا يسب باللغة الروسية ذا صوت داو رهيب فكرت بأسي هل هذا هو رئيس العمال..؟

وخرجت في الحال من العنبر.

تبخرت رغبتي في التعرف اليه..

وكـان علي ان ارحل من العنبر الثالث للعنبر الاول الذي تقيم فيه وحدتي ومعي بالطبع زميلاى هانس اوسكو..

ووضعت حاجياتي في الكنبة السفلى هذه المرة.

كان لدينا وقت كاف .. فتمشينا في الساحة لوقت طويل وتعرفنا علي كثيرين من السجناء الذين كانوا يقيمون هنا لوقت طويل .. ولم نستطع ان نستخلص منهم شيئا جديدا..

وعنـدمـا مررنا بالقرب من مكان الماء الساخن (كبيانلكا) راينا رجلا بدينا عريض المنكبين كثيف شعر الذقن يقوم بتكسير الحطب..

وظننا انه من مجموعة طويلى الذقن.. وساله اوسكار..

ـ هل يوجد ماء ساخن..؟

واجاب بلهجة شبه روسية.. ولم يكن من الصعب ان نكشف هويته الالمانية وسالنها

ـ هل تتكلم الالمانية ..؟

فاسقط فاسه ونظر الينا في استغراب شديد.

ـ هل انتم المان..؟؟ انا من شتايرسك..

وسالته بحب استطلاع..

ـ من اي شتايرسك.

ـ من كابفنبيرق عند الموست في مورى..

ـ آه ..لا توضح لي اين تقع بالضبط كابفنبيرق يمكنى ان اخبرك اين كنت تعمل هناك..!!

وتعجب ذو الذقن..

ـ كيف هذا هل تعرفين..؟

ـ لا .. ولكن يمكنك في كابفنبيرق العمل عند بوهلر فقط حيث لا يوجد مكان اخر للتوظيف..

اجابنى مندهشا..

ـ نعم هذا صحيح .. عملت في فرقة المطاق.

وكان اسمه فرانس الميير..
وكان يعمل عند فولكستورم..
في زمن الحرب حارب ضد مقاتلي حرب العصابات الاسلوفينيين
وبعد الحرب.. قبض عليه وقدم الي محكمة روسية عسكرية حكمت عليه بعشر سنوات في المعسكر..
واصيب بالمرض .. ثم صار معوقا..
ولذلك فهو يعمل في مهمة غلي الماء..
اذن نستطيع ان نحصل علي كثير من الماء الساخن..
والشكر موصول - ومردود لابن بلدنا.
وفي مكان غلي الماء هناك فرن للطبخ.. وكان يسمح للسجناء الذين تاتيهم طرود الطعام ان يطهو فيه ماكولاتهم.. وكان يسمي مطبخ الضباط..
في ايام الفراغ والامسيات كان اناس كثيرون يقومون بطبخ العصيدة في الاواني الصفيحية الصدئة.. فوارغ المعلبات الامريكية والالمانية والروسية.. ولا يقتصر وجود الناس هنا علي الطابخين فقط بل كان هناك الفضوليون والذين ينظرون بحسد الي اصحاب الاكل الخاص..
وكان فرانس الميير مشغولا بعمله ويحفظ النظام وكان يهمس في اذني دائما.. - احضر بعد قليل - هناك شيء للاكل..
وعندما اصبحت طاهيا استطعت ان ارد جمائله بمثلها.. وقد بقيت معه اكثر من عام..
وجاء وقت عملنا.. فسمعت باننا نعمل في شحن الحصي.. كل ثلاثة اشخاص يفرغون ستين طنا في عربة يوميا.. كان العمل مرهقا للغاية..
واصبح الرجال بعد ثلاثة اشهر غير صالحين للعمل.. كان قراري بان ارفض العمل حازما..
رسمت خطتي جيدا..
قبل الذهاب الي العمل علي ان اتوجه من العنبر الذي اقيم فيه الي العنبر الثالث.. وان استلقي في مكان خال واخفي نفسي..
اخبرت هانس واوسكر بما اعتزمت فعله..
وسمعت صوت الجرس.. ثم
- استعدوا للعمل..
وارتدى الجميع الملابس المحشوة وفي اللحظات الختامية اعطاهم رئيس العمال ومساعدوه الاحذية الصحراوية التي احضروها من العنبر الآخر.. حيث خلعتها ارجل الذين كانوا يعملون بوردية النهار.. كانت الاحذية مبتلة..
مضى وقت طويل حتي لبس الجميع..
واشتركت انا في كل تلك المراسم حتي لا الفت نظر احد..
وعندما سمعت صوت الجرس الثاني خرجت من العنبر واتجهت صوب العنبر الثالث

الذي كان مظلما..
وباللمس فقط وجدت مكانا خاليا..
ورقدت بملابسي .. وسمعت من بعيد صوت رئيس العمال وهو يقوم بالتعداد الروتيني.. وصاح قائلا..
ـ من الذي لا يوجد هنا..؟
ولم يجبه احد بالطبع.. وبعدها ذهب الي العنبر لينظر هل بقى حذا لم يلبسه احد...
ولم يجد شيئا..
وتحركت الوحدة بناقص رجل واحد.
اليوم انقذت نفسي من العمل فكيف افعل غدا؟
ووقفت من جديد اعمل فكرى...
وكان قرارى حازما..
ان ارفض وباستمرار عنيد الذهاب الي العمل.
نمت واستيقظت في الصباح الباكر..
وعادت وحدتى من العمل.. ولم يسال رئيس العمال عني.. لانه لم يستطع ان يحدد من الذي تغيب عن العمل..
زيادة علي ان رئيس العمال لم يحفظ وجهى بعد... فقد كنت حديث القدوم وحدثنى اوسكار وهانس بالذى حدث في مكان العمل..
كان عملا شاقا جدا فوق طاقة الاحتمال.. ورغم ان درجة البرودة كانت عالية الا ان الجميع بللهم العرق...
بعد العشاء رقدنا للنوم..
هدا كل من في العنبر..
وبقيت ساهرا اضع الخطط... كنت اعلم انه من غير الممكن التخلف عن العمل للمرة الثانية..
وقررت ان اتحدث مع رئيس العمال..
ساخبره صراحة انني لن استطيع اداء عمل شاق..
نهضت وخرجت من العنبر ..
ذهبت الي مكان غلى الماء وحدثت المير بانني لم اذهب الليلة للعمل.. ولا انوى ان افعل في المستقبل.. فاستمع الي مهموما وقال:
ـ سوف يحبسونك في (الكارسر).
ـ اعلم ما ينتظرني.
وساعدته في احضار الحطب..
وعند الرابعة ذهبت للعنبر.. ولم يكن رئيس العمال موجودا.. وخرجت مرة اخرى ..
وامام العنبر قابلت الطويل النحيف..
ـ يا رئيس العمال هل يمكنني محادثتك؟
ونظر الىّ من طرف عينه.

ـ اسمع..
ـ نعم..
ـ انا ذلك الذي لم يذهب في المساء للعمل. ولن اذهب اليوم. واخذ نكولاى بعنقى...
ـ افعل بامك !! ماذا قلت..؟؟
واحمر وجهه من الغضب
ـ سوف اريك..
ـ اهدأ واسمعني..
وترك نكولاى عنقى قائلا؛
ـ ماذا تريد ان تقول؟
ـ انـا سجين قديم واعلم ماذا يمكن ان يحدث لي.. وقد فعلت ما فعلت بكامل الوعي والادراك.. وهـا انـا اعتـرف لك حتى لا تبحث عنى كما فعلت مساء الامس.. وبذلك ستنتهي المشكلة..
واخذ نكولاى يراقبنى مرة اخرى لبعض الوقت.. ثم قال:
ـ يا بنى آدم.. انت تعجبني.. فلندخل الي العنبر.. هنا الجو بارد. وعندما دخلنا الي العنبر استدار رئيس العمال وذهب بلا كلمة.. واخذت الاكل وانتظرت ما ستتمخض عنه الاحداث.
ولكن في تلك الليلة لم يحدث شيء..
ذهب الجميع الي العمل ومر رئيس العمال بجوارى ولكنه لم يقل شيئا..
لم الجـا الي الاختفـاء .. بقيت في انتـظار بوليس المعسكر لياخذنى لزنزانة الحبس الانفرادى التاديبية.. كارسر..
وبعد ساعتين عادت الوحدة.
قال اوسكار..
ـ نسبة لهبوب العواصف الجلدية الشديدة لا توجد عربة.. وستذهب الوحدة للعمل في الغد..
وكان الجميع سعداء لانهم يستطيعون النوم..
وقد استغرب اوسكار وهانس لاننى لم اكن في زنزانة الحبس الانفرادى .. (الكارسر) وفي صبيحة اليوم التالى كان يجب الذهاب الي العمل..
واخطر رئيس العمال الحارس ـ فورا ـ باننى ارفض العمل.
وكان الحارس يدعى زمين.
قضى فترة عقوبة امتدت الي عشر سنوات.. ثم اطلق سراحه في عام ١٩٤٦.
ولكنه حصل علي عشر سنوات اخرى عام ١٩٤٨ .. بنفس التهمة السابقة.
زمين رجل صاحب قاموس خاص يختلف عن قاموس المجرمين الآخرين..
جاء زمين الي العنبر.. ومن الباب صاح:
ـ اين البطل الذي يرفض العمل؟
وانتظر الجميع مشدودين يترقبون ماذا سيحدث..
وكان مكاني بالقرب من الباب.. فاستطعت ان ارى جيدا وجهه الذي احمرّ انفعالا .. وفمه الاهتم.
وتقدمت ..
ـ انا ارفض ..

ـ هذا ما سوف نراه.. تعال هنا..
وتقدم زمين الى منتصف العنبر حيث توجد المنضدة..
وجلس واشار نحوى قائلا لرئيس العمال..
ـ ارايت.؟ انه لا يريد الذهاب للعمل. سوف نرى اي نوع هو من الابطال؟
ـ لست بطلا.. ولكني لن اذهب للعمل لانني لا استطيع..
ـ هنا لا يسال احد شيئا.. هنا يشقى فقط..
ـ هذه المرة لن اشقى..
ـ سنرى..
ونهض زمين وخرج من العنبر..
كنت متاكدا من انه ذهب لاحضار بوليس السجن..
وخلال ذلك الوقت احضروا الاحذية الجلدية واسرع الجميع يتخاطفون الاحذية..
وفي منتصف العنبر بقى زوج واحد..
اخذه رئيس العمال والقاه امام رجلى قائلا:
ـ البس الحذاء..
ـ لست محتاج له.. فلن اذهب للعمل.
وبقيت الوحدة تنتظر حضور الحرس..
وجلست في مكاني بالعنبر.
وفي تلك اللحظة دخل الحارس وبوليس المعسكر وجرى نحو النوبتجي..
ـ يا نوبتجي اين الذي يرفض ان يعمل.؟
ـ هذا هو..
قالها النوبتجي واشار اليّ.
قال بوليس المعسكر يخاطبني:
ـ من مكانك هذا البس .. ان الوحدة في انتظارك..
ـ لن اذهب للعمل..
ـ لن اذهب للعمل..
تركوني لبعض الوقت.. ثم جاء الحارس وامرني ان اتحرك معه..
ان الامر يبدو حاسما هذه المرة .. ذهبت معه..
كان الوقت باردا جدا.. وتحت الحذاء يتكسر الجليد الجامد..
وسرت في جسدى قشعريرة باردة عندما تذكرت انهم سيرمونني في حفرة تحت الارض..
وفكرت .. كيف لجسد بارد مرتعش مقرور ضعيف ان يستدفىء بثلاثين ديكاجراما من الخبز.. وصحن ماء دافىء..
غير ان ذلك لم يجعلني اندم علي عدم ذهابي للعمل.
كنت متاكدا من شيء واحد فقط هو خير لى ان اتجمد في الكارسر بدلا عن موتي في براري الجليد والبرد.
وعندما اردت ان انعطف يمينا للمكان الذي تقع فيه (الكارسر).. استغربت حين صاح بي الجندى:
ـ تقدم الي الامام.
وذهبت نحو باب الخروج..
في اليمين كانت غرفة الحرس.. فتح الجندي الباب وادخلني الي الغرفة وكان هناك

الحرس.. مدير المعسكر الصول سوروكن ونائبه..
ابتدرني النائب سائلا..
ـ لماذا لم تذهب للعمل..
ـ انا كما ترى ضعيف متهالك ولن استطيع ان اعمل عملا شاقا.. كتفريغ عربات السكة الحديد.. هذا..
ـ انت لديك المرتبة الاولى .. وعليك ان تعمل في كل شيء..
ـ لا انا لدى المرتبة الثالثة..
وسالنى الصول سوروكن:
ـ كيف علمت انك في المرتبة الثالثة؟؟
ـ سمعت الطبيب يقول ذلك في المحطة المرحلية.
ـ كان ذلك منذ وقت بعيد.. الآن انت في المرتبة الاولى ..
ـ كل ذلك سيان بالنسبة لى.. اية مرتبة كانت .. انا ضعيف ولا استطيع القيام بذلك العمل..
ـ هنا يوجد فقط قطع الاخشاب.. غدا سوف تذهب لقطع الاخشاب..
ـ لا.. هذا ايضا لن استطيع القيام به.
ـ آه انت اذن تريد ان ترص الكيك.. ولكن هذا العمل لا يوجد لدينا..!
ـ بالنسبة لي الامر سيان .. اي عمل تعطونني له.. العمل الجسمانى الشاق لن استطيع القيام به..
ـ سوف تعمل كمنظف للمرحاض..
ـ اوافق ..
ـ لا تعتقد بانك ستحمل البراز الجاف.. سوف تحمل البراز السائل..
ـ جيد..
قلت ذلك باعتبار انه مجرد كلام.. كنت اعلم اننى لا اصلح لتنظيف المراحيض.. كما لم اكن ايضا صالحا لنقل الحصى.
ـ اذهب وارسل لي الحارس
وعندما وصلت مع زمين الي المدير بادره هذا قائلا:
ـ اعطه اي عمل في المعسكر..
واجاب زمين باقتضاب..
ـ سنفعل بامر المواطن المدير..
وعندما خرجنا قال لى:
ـ في واقع الامر انت انسان محظوظ..
هذا الذي انتهت اليـه المشكلة كان فوق احلامى وتوقعاتى.. وكنت سعيدا جدا فقد انتهى اضرابى الاول بسلام..
وفي اليوم التالى قادونى ومعى احد الروس واحد لنقطع ونكسر الاخشاب التي تستعمل في المعطم..
وقمنا بذلك العمل لمدة شهرين كاملين..
وفي بعض الاحيان كنا نقشر البطاطس.. وعلي الرغم من ان هذا العمل كان ممنوعا الا ان الطاهي سمح لنا به..

وفى مرات عديـدة اخرى قادنى الجاويش الي الغرفة التي كانت بها الاسلحة، فقمت بمسح ارضيتها اثناء نوم الجنود..

وكنت اضع البنادق والمدافع الاتوماتيكية علي الرف.. ودائما ما راودتنى افكار خاصة عن سذاجة اولئك الجنود وتغفيلهم، اذ انه يسمحون بدخول الثكنات .. غير مدركين ان سجناء المعسكر المخصوص (سبسلوقر) مستعدين لفعل اي شيء..

أول طرد من زوجتى...

فى فبراير من عام ١٩٥٠ كان البرد قارساً على غير المعدل الطبيعى وكنا عائدين من عملنا فى الثكنات ذات يوم شديد الصقيع، نرتجف فى انتظار السماح لنا بدخول المعسكر..

ورأينا امام المدخل عربة نقل صغيرة فوقها عدة طرود.. ونظر الرومانى بحب استطلاع ليرى ما هو الامر.. فلاحظ ان بعض الطرود تحمل عناوينا مقلوبة الى أعلى ويمكن قراءتها.. فصاح فرحاً..

ـ كارلو.. هذا طرد باسمك.

ولم ارع كلامه اهتماماً فقد كنت اعلم انه يحب المزاح..

فاعاد قوله مصراً....

ـ هل انت تسمى شتاينر..؟.

وعندما التفت فرايت الطرد وعليه اسمى..

وخفق قلبى بشدة.. واصابنى القلق.. انتظرت بفارغ الصبر لحظة تسليمى الطرد.

وبحضور عدد من الضباط فتح الطرد وفتشوا كل شىء.. وقطعوا شحم الخنزير الى قطع صغيرة.. الدخن صبوه على جريدة وفتشوه.. وكذلك السكر.. وكان فى انتظارى بنفاد صبر اوسكار وهانس.

وذهبت فى الحال الى مطعم الضباط وطبخت عصيدة فى اناء كبير وعندما جئت به جلس ثلاثتنا قبالة واكلنا باحتفالية شديدة..

احسسنا بالشبع والرضا.. وتحدثنا عن زوجتى التى ظلت تنتظرنى بوفاء نادر كل هذه المدة الطويلة القاسية.

وسررنا لاننا لن نجوع فى الايام القادمة.

عند الصباح الباكر احضر هانس الماء الساخن (كبيلتوك) وحليناه بالسكر ومع شحم الخنزير والخبز واكلنا هنيئاً مريئاً.

بقية الطرد وضعته فى حقيبة قمت بحياكتها من غطاء يابانى.. ووضعتها تحت المخدة..

ورجوت النوبتجى ان يراقبها.. فوعدنى بذلك.

وعندما عدنا كان ا ول شىء فعلته هو ان بحثت عن الحقيبة.

ولكنى لم اجدها...

وسالت النوبتجى هل راى احداً ياخذها.. ولكنه نفى ان يكون راى شيئاً.

اوسكار وهانس كانا اشد تعاسة منى.. ونصحونى ان ابلغ عن السرقة...

وكنت اعلم انه لا جدوى من ذلك.

وكلن النوبتجى جرى الى بوليس المعسكر وبلغ عن السرقة.

وفى صبيحة اليوم التالى استدعونى الى مكتب بوليس المعسكر...

وحال دخولى الغرفة رايت حقيبتى فى الركن..
وسالنى البوليس..
ـ اهذه هى حقيبتك..
ـ نعم.
ـ خذها ووقع بالاستلام.
اخذتها فرحاً.. ولكن سرعان ما وجمت وصابتنى دهشة شديدة..
كان بداخلها ملابس وحذاء قديم.. ولا اثر للطرد ومحتوياته.
احدى عشر عاماً قضيتها فى انتظار هذا الطرد..
عندما اقوم بتقشير البطاطس اكافا بالحصول على بقايا الحساء..
ويوما كنا نجلس فى ركن قاعةالطعام نتجرع من الوعاء بعض الحساء..
ودخل احد الجنود فرانا.. وصاح بالطاهى..
ـ لماذ تطعم هؤلاء الفاشست ـ..؟.
ومن لحظتها لم نحصل على شىء.. وكثيراً ما كنا نرى كيف يدلق الطاهى امام الثكنات بقايا الحساء التى لم ياكلها الجنود..
يفعل ذلك ونحن نتضور جوعاً ونرى كيف يراق الطعام..
وذات يوم عملنـا مرة اخـرى فى تقشير البطاطس.. وكنا فى حالة يائيسة من الجوع الشـديـد.. وفى الغـرفة مدفات حديدية.. فاخذ الرومانى قطعاً عديدة من البطاطس ووضعها فى الفتحة مع الرماد.
وذهبت الى الساحة لاحضر الخشب.. واشار الى الطاهى بيده لادخل سالنى قائلا.
ـ هل انت الذى وضعت البطاطس فى الرماد.
وفكرت لحظة.. اعتقدت بان زملائى تهربوا من تبعة هذا العمل عندما ـ اكتشف امرهم.. ورموا التهمة على شخصى.. وفى ذلك الوقت كانوا فى الحجرة يسمعون.. قلت له..
ـ نعم. انا الذى وضعت البطاطس فى الرماد.
وضربنى الطاهى بقوة على وجهى حتى ترنحت وارتطمت بالحائط..
وهجم على بضراوة..
بدا يضربنى بكلتا يديه فلم اتحرك او ادافع عن نفسى.. واثارت الضجة انتباه الطهاة فجاءوا يستطلعون ما الخبر..
وكان بينهمن واحد كثيراً ما اعطانا الطعام وابدى عطفاً نحونا.. فقال «للبطل».
ـ كفى هذا كفى.. دعه يذهب فى حاله.
وتـوقف الطاهى عن ضربى.. وقررت عند هذا الحد الا احضر الى هنا ابداً وفى نفس المساء ذهبت للمكتب وحدثت زمين بكل شىء فغضب غضباً شديداً.
ـ ماذا تعتقـد..؟ اين تظن نفسك..؟ كيف تتصور انك يمكن ان تختار ما تشتهى من الاعمال وبهذه البساطة..؟.
وكنت قد طلبت منه ان يبحث لى عن عمل آخر.. وذلك الحوار جرى فى مكتب الحسابات

وعلى مسمع من رئيس الحسابات يوهان ـ او بالاحرى ايفان افانوفج كما كانوا يسمونه في المعسكر.. وهو المانى من الفولجا.. سال زمين قائلا.
ـ ماذا حدث..؟.
واجابه زمين بدعابة خفيفة..
ـ كيف ترى هذا الشاب..؟ هل يعجبك..؟ اضرب عن العمل اولا....
ثم لم يعجبه العمل السهل في الثكنات..!!.
كان ايفان افانونج من مجموعة السجناء التى تعتمد عليها ادارة السجن وكان بامكانه التاثير على مدير المعسكر.. قال..
ـ لقد كان في نورلسك طاهياً.. ارسله الى المطعم..
ـ لم اكن اعلم انك ياكارلو خبير في الطهى.. ساحادث رئيس المطبخ بامرك.
واخذنى من يدى الى المطعم..
واصبحت مرة اخرى طاهياً.
زميلى في هذا العمل كان ينحدر من اصل فرنسى.. جاء الى روسيا وهو طفل، مع والده.. اسمه بيرتى.. كان فرنسياً قحاً.. طويل القامة.. نحيل الجسم.. تقاطع ووجهه شيطانية الذكاء.. ملىء المرح والزمالة الحقة.. عندما كنانطهو كنا نتحدث عن كل شىء.. كان من المبهج والمثير ان تراه، وهو يضحك ويهتز جسمه النحيف.. ويداه تشيران الى بمرح ان اكف عن الكلام.
مدير المطعم يهودى من بسارابيا.. ضخم وكانه هرقل.. راى فينا خير مساعدين له فرضى عنا.. وكان يقول انه فخور لان مطعمه يمثل كل طهاة العالم فمن الطهاة الخمسة الذين معه.. كان واحد فرنسياً.. وواحد نمسوي ا..
وواحد روسياً... وواحد يهودياً والخامس ليتونياً.
وكان ينتهز كل فرصه تتاح له ليعدد مزايا كل فرد منا.. وعندما ياتى الدور على الروسى يقول ه.
ـ انت اكبر حرامى..
وكـان هذا الرئيس قد قاد حربـاً طاحنة شعواء ضد المجرمين الذين ارادوا بالتهديد الحصول على خير الطعام..

في المعسكر المخصوص (سبسلوقور) كان يوجد السجناء السياسيون فقط.. ولكن كان بينهم من هو لص بطبعـه عدا اولئك اللصوص المحترفين الذين هزموا في جيش المارشال روكسوفسك.
وقد ارتكبوا جرائم سياسية مختلفة ولذلك وصلوا الى المعسكر المخصوص (سبسلوقور) في المعسكر ٣٣ تكونت عصابة قادها ذو اليد الواحدة فاسكا.. العصابة كانت تنهب طرود السجناء.. وتهدد كذلك الطهاة لتاخذ منهم السمك والدهن والمواد التموينية

الاخرى.
وقـد رفض رئيس مطعمنــا ان يعطيهم جراماً واحداً زيادة على ما يستحقونه.. وبقى صامداً قوياً.
ـ لن تاخذوا منى جراماً واحداً.. هذا طعام السجناء وهو قليل.
وقد تحدث فاسكا صراحة بانه سيقتل رئيس المطعم اذا اصر على رفضه اعطائهم زيادة في الطعام
وذات يوم نفذ فاسكا تهديده..!!.
عندما كان رئيس المطعم يجلسا امام العنبر الذى يسكن فيه ويتحدث مع السجناء.
هجم عليه فاسكا فجاة وطعنه عشر طعنات من سكينة.. ثم سارع بالهروب الى عنبر شركائه المجرمين.
وكنت حينها فى المطعم..
دخل رئيس المطعم مهرولا وهو يصيح..
ـ اعطنى الساطور.. اعطنى الساطور..!
رايت ما يحدث.. ولم ادر ماذا افعل.. المعدات كالساطور والسكاكين كانت مقفولة فى الدولاب حسب اللوائح.. والمفتاح عادة يكون مع الطاهى الذى عليه وردية الخدمة..
وفتحت واعطيته الساطور..
جرى وهو مبتل بالدماء يبحث عن قاتله.. ولكنه فقد وعيه فى منتصف الساحة ووقع ارضاً.. حملوه الى المستشفى.. ثم قرروا تحويله الى المستشفى المركزى حيث مات هناك.
هكذا قالوا..
ولكنى سمعت بعد سنوات بانه لم يمت.
اما فاسكا وعصابته فلم يحدث لهم اى شيء. ولكن لمخالفته (نظم المعسكر) فقد حوكم بعشرين يوماً فى زنزانة الحبس التاديبية (كارسر).
كان ذلك هو كل شيء.
كانت ادارة السجن تنظر بامتاع شديد للحرب بين السجناء.
بعد ذلك عينونى رئيساً للمطعم.
رفضت التعيــين فى البــدء.. ولكن بيرثى وايفان افانوفج الحوا علىّ بطريقة مصممة جعلتنى ارضخ لهما فى النهاية.
وكونت مجموعة كبيرة من الاصدقاء.. ساعدتهم قدر استطاعتي.. وقد لقيت من اجل ذلك عنتاً وتجشمت مضايقات عديدة.. ولكنى كنت اعلم ان السجناء راضون عنى.
الوحيدون الذين لم يرضهم ما افعل هو ادارة السجن والقسم الصحى. كانت العلاقة بين مديـر اقسـام المعسكـر سوروكن وبين الطبيب الرئيسى للسجناء ايفان افانوفج بوبوف، علاقة حميمة للغاية.
تعارف الاثنان منذ سنين بعيدة..
لذلك كان تاثير بوبوف كبيراً فى تعيين رئيس المطعم..

وكـان رئيس المـطعم ملزما باطعام بوبوف ومساعديه في العيادة طعاماً جيداً.. وقد تسربت من مطعم السجن كميات كبيرة من الدهن واللحم والسكر الخ.. وحصل على جزء كبـير منها سوروكن ـ بواسطة بوبوف طبعاً. وقد حرصت على اعطاء بوبوف احسن الطعام.. ولكنه لم يكتف بذلك ابداً..

اما سوروكن فقد كان اقلهم رضا عني

ولذلك عمل الاثنان على تغييري..

بعد أسابيع نقل الينا من القسم الثاني للمعسكر صديق قديم لسوروكن وبوبوف ـ هو سيرجي كونوفالنكو..

واستدعوني حال وصوله الى المكتب.

وكان في المكتب.. الضابط، والمخزنجي، وسوروكن وبوبوف ومعهم كونوفالنكو قال لي سوروكن..

ـ سوف تسلم المطعم للطاهي الجديد كونوفالنكو..

ـ بامر المواطن المدير..

وفي نفس اليـوم جاء الى المـطعم كونـوفالنكو.. وبحضور المخزنجي سلمته العهدة. واقترح على كونوفالنكو ان ابقى طاهياً معه في المطعم.. وبعد تفكير قصير وافقت.

وكونوفالنكو هذا كان رجلا عديم الضمير.. من اوديسا.

في فترة الاحتلال بقي في اوديسا وتاجر مع الالمان.

وعندما عادت القوات السوفيتية، القي عليه القبض وحوكم بعشر سنوات.. وسرعان ما وجد كونوفالنكو يده في السجن واطلقها على آخرها. وارتبط بعلاقات مريبة مع ضباط ادارة السجن، بوبوف ومساعديه.

باع لهم ملابس السجناء.. وعندما اصبح رئيساً للمطعم قام في اول ايامه بسرقة الخ.. من السجناء والتعيينات ايضاً.. وذلك لكي يرضى اصدقاءه الضباط الذين اغدق عليهم ما اختلسـه من السجنـاء. وكثـرت الشكـاوى ضده.. فخلعـوه من منصبه.. ارضاء للشاكين.. ثم ارجعوه للمكان مرة اخرى. كان عليه ان يعطي ويصرف كميات الطعام للطاهي النـوبتجي عن كل وجبـه. ولكن كونـوفالنكو لم يتبع ذلك.. اعطى كل شيء لمساعديه ولم يزن المواد الغذائية وبهذا استطاع ان يستحوذ لنفسه على ما يريد.

ارهب الطهاة وهددهم في كل مناسبة بالطرد..

ولم يجرؤ احد على الوقوف في وجهة..

وكنت اخوض معه حرباً يومياً..

حاولت ان ابين له انما يفعله سرقة دنيئة..

ولكنه لم يرعوا..

واصبح مستوى الاكل هزيلا يوماً بعد يوم..

وزاد عدد الضباط وصف الضباط الذين يحضرون الى المطبخ لاخذ الطرود. وقد ربطت بينه وبين الضباط صداقة توثقت عراها حتى اصبحوا يذهبون الى صيد السمك جميعاً

وهو معهم - كونوفالنكو - ثم تطورت الامور وبنيت قوارب لصيد السمك ذهب فيها المساجين بقيادة كونوفالناكو لصيد السمك..
ولم ير السجناء السمك الذى اصطاده ابداً.. فقد حصل عليه بالطبع وعاش موظفو القسم الصحى وعلى راسهم بوبوف فى بذخ شديد خلال تلك الايام.. اللحم.. والزبد الذى كان مخصصاً للمرضى ذهب الى بطونهم..
اما سوروكن فقد كان يحصل على نصيبه من كل تلك الخيرات.
فكرت فى ترك خدمة المطعم لاننى لم اعد احتمل كل ذلك. واستشرت اصدقائى ولكنهم رجونى ان ابقى فى المطبخ.. خافوا ان يفقدوا القليل من الطعام الذى كنت اخصهم به..
وقد عملت كل ما فى وسعى من اجل هؤلاء الناس..
غرباء.. اوطانهم بعيدة.. لا احد يهتم بهم.. كانت حالتهم «صعبة» بخلاف الروس الذين كان ذويهم يساعدونهم.
وكان هناك ايضاً من لا يستحقون المساعدة على الاطلاق.. يحصل بعضهم على طرود الاكل المليئة ومع ذلك يسعى كل صباح الى نافذة المطعم يستجدى الطعام.
ذات يوم عدت من المطعم الى العنبر، فوجدت فى الساحة رجلا ينتظرنى...
كان قسيساً من كارباتسكا فى روسيا.
- من فضلك..
- نعم..
- معذرة لازعاجك.. ولكن يدفعنى البؤس لان اثقل عليك..
كان يتحدث بلغة المانية جيدة..
- ما الذى يمكننى فعله من اجلك..؟.
- ارجو مساعدتك لى ببعض الاكل، فان الجوع يشوى عظامى.
- اعدك بان افعل كل ما فى وسعى.. احضر لى كل يوم بنافذة المطعم.
ولاسابيع عديدة كنت اعطيه الحساء.. وفى بعض المرات العصيدة.
ذات يوم حدثت عنه اوسكار. فقال لى ان ذلك القسيس لايسلك سلوك الرجال المحترمين انه يحصل على طرود كثيرة ممتلئة بالاكل....
ولكنه لا يعطى احداً اى شىء على الاطلاق..
واستغربت للامر كثيرا
وحدثت اوسكار عن كيف يحضر ذلك القسيس لينال منى بعض الطعام.
اجابنى اوسكار..
- انه يخدعك..فهو يخفى كيلوجرامات عديدة من شحم ولحم الخنزير، حتى انها بدات فى التعفن.
ومنذ ذلك اليوم اوقفت مساعداتى له.
الزائر الدائم لنافذة المطعم كان هو الكاتب الاوكرانى مليسترنكو.. ولكن الفرق بينه وبين القسيس انه كان ياتى مضطراً وعلى مضض.

صادفته من قبل ان اصبح طاهياً وعندما صرت فى هذه الوظيفة عن لى ان اعينه قليلا ولكنه رفض فقد كان من ذوى المبادىء.. وكلفنى الامر نقاشاً طويلا مضنياً لاثبت له ان الموضوع لا يستبطن شيئاً غير اخلاقى على الاطلاق.. فهذا زمان بؤس واوان شدة ولا باس عليه ان قبل شئياً.. كان فى فترة الاحتلال قد بقى فى كييف.. عمل مدرساً حتى يعيش.. وعندما انسحب المحتلون القوا عليه القبض بتهمة (التعاون) مع الفاشية.. وحوكم بعشر سنوات سجناً فى المعسكر.

وكان مايسترنكو يكره الفاشية.

فى كل وقت تحدثنا فيه عن الاحتلال كان يتكلم بحزن شديد وبغض اشد عن جرائم ال (اس. اس) البوليس النازى فى (كييف).

قال لى مايسترنكو انه وحتى عام ١٩٤١ كانت كييف ضد الشيوعية، ولكن بعد سنة من الاحتلال النازى اصبح اهلها شيوعيين.. حتى الذين انتظروا الجيوش الألمانية بفرحة الامل تغير موقفهم وابغضوا ذلك بغضاً لا مزيد عليه. خصوصاً بعد جرائم بابيم يارم..

وهناك فى اطراف كييف يقع مكان المجزرة التى راح ضحيتها اكثر من خمسين الف يهودى.. بعضهم دفنوهم نصف احياء...

وقد اصيب مايسترنكو بالمرض فى عام ١٩٥١ ونقل الى المستشفى المركزى وبعدها اختفى عنى كل اثر له.

من بين الاصدقاء الحميمين لكونوفالنكو كان مدير (ك. ف. ج) قسم الثقافة التهذيبية العقيد كوماروف.. الذى كان ضيفاً دائماً فى المطعم. كان يمثل دور الحادب على مصلحة السجناء..

فياتى وهو يسب الطاهى لكل صغيرة او كبيرة ويتحدث بانه عليه وعلى اعوانه المحاسبة اليقظة لكى يحصل السجناء على ما يستحقونه بالجرام. وتنتهى زيارته دائماً بالذهاب الى المخزن مع كونوفالنكو ليمتلىء جيبه بالمواد التموينية المعدة للسجناء.

بالقرب من المعسكر كانت تسكن امراة شابة، يقيم عندها الضباط الحفلات الساهرة المترعة بكؤوس الفودكا.. وكان من بين زوارها كوماروف.. وهو متزوج له بنت فى السابعة عشر من عمرها .. وابن فى الثانية عشر من عمره..

ولكى يحصلوا على النقود اعفوا اصحاب المواهب فى الرسم من العمل..وذلك حتى يرسموا ما يشاؤن.. ثم يبيعون هم اللوحات فى اسواق تايشت.

كوماروف كان يحضر الى المطعم الفراخ التى يسرقها من زوجته ويامرنا بطبخا.

وكانت زوجته تتهم السجناء الذين كانوا يقطعون الخشب بالقرب من المنزل بسرقة دجاجها..

بوليس المعسكر كان يحضر دائماً لمطبخ الضباط لكى يرى أن كان السجناء يطبخون دجاجاً.

ذات مرة اكتشفوا ان سجينين قد اختفيا.. وهما من اللاتونيين الذين كانوا يعملون فى الجيش اللاتونى وحاربوا الى جانب الألمان.

وفى عام ١٩٤٤ اصبحوا اسرى للروس..وقد حكمت عليهم المحكمة العسكرية بخمسة وعشرين عاماً (للخيانة)..
كان الهاربان يعملان نوبتيجيين.. ولم يخرجا من المعسكر ابداً.. حسب افادة الحرس المراقب.
وبعد بحث دائم لعدة ايام اكتشف ال ن. ك. ڤ. د انه فى زمن الضباب الشديد تسلق الهاربان بسلم الحريق السياج العالى..
وقد دلت على ذلك آثار الاقدام التى وجدت بالقرب من برج المراقبة..!!.
الهاربان وصلا نهر جونا ولكنهما لم يستطيعا عبوره.. فانسحبا الى اعماق الغابة وتعثر وتعذر اكتشاف مكانهما.
وذات يوم كان اثنان من ضباط ال ن. ك. ڤ. د يمران بالغابة عائدين من الصيد، فوقع بصرهما على الهاربين اللذين كانا يستدفئان قرب النار. وعندما شاهدهما الهاربان حاولا الفرار منهما ولكنهما لم يستطيعا.. قتلا واحد منهما اما الآخر فقد تعثر ووقع فاحضراه حياً.
واودع الميت غرفة الموتى والباقى على قيد الحياة زنزانة (الكارسر).
حيث مات هناك (بالسكتة القلبية)!!.. وكان ممتلئاً بالكدمات والنزيف الداخلى.تردت علاقتى بكونوفالنكو، واصبحت واهية رديئة للغاية..
فقررت الذهاب من المطعم..
ذات يوم صرف لى كونوفالنكو التعيينات لوجبة العشاء ولم يعطني جراماً واحداً من الدهن على الرغم من اننى وحسب التعيينات المقررة كان مفروضاً ان استلم اربعة كيلوجرامات من الزيت.. وقلت له..
- بدون زين لا يمكن ان اطهو العشاء..
- اذهب الى الشيطان..
وخلعت المريلة البيضاء وجريت الى العنبر.. وفى المساء ذهبت للحارس . فشرحت له لماذا لا اريد العمل فى المطعم.
وذهب زمين لبأخذ التعليمات من مدير المعسكر.
ولم يعارض المدير فى ذهابى من المطعم.
قرروا ان اذهب الى وحدة جرنيافسك التى تعمل فى اصلاح خط السكة الحديد.
وكانت علاقتى برئيس العمال جرنيافسك جيدة للغاية.. فقد اسديت له أيام كنت طاهياً كثيراً من الايادى البيضاء.. وكانت يحس بانه مدان لى.
ومنذ اليوم الاول لقدومى جاهد جرنيافسك ليكون ودوداً تجاهى.
والعمل عموماً فى هذه الوحدة كان سهلا جداً.. ولذلك حاول الكثيرون ان يعملوا فيها ..
ولكن جرنيافسك لم يكن يقبل اى احد.. وعندما ترسل الادارة سجيناً ضد موافقته.. كان على ذلك السجين ان يعلم انه مواجه باقسى الواجبات واشد الاعمال صعوبة.
كان جرنيافسك هذا قروياً من روسيا البيضاء.. قصير القامة.. ضعيف البنية.. برزت

عظام وجهه.. بليد الملامح.. كانت ملامحه ملامح قاتل نهاب.. وفي وقت الاحتلال كان رئيساً للبوليس في بلدة صغيرة.
كانت جدارته الوحيدة هي انه كالكثيرين اشترك في ابادة اليهود ورجال حرب العصابات.
نائبة في الوحدة كان من روسيا البيضاء واسمه «كوباك».. وكان ايضاً من رجال البوليس.. ولكنه قوى البنية متعطش للدماء.. اما الثالث في القيادة فهو اوكراني حاقد من فوليني واسمه لشجنكو..
الرابع كان قساً.. يختلف عن الثلاثة من حيث نظرته لهم كآكلي لحوم البشر... كان في الوحدة يلعب دور المهتم بالجانب الروحي.
ولكن واجبه الرئيسي هو اطعام الرئيس ومساعديه بالمواد الغذائية الغنية التي كانت ترسلها له جمعيته.
وهذه هي بعض ملامح الشخصيات القيادية في وحدة جرنيافسك.. التي كانت تمثل عصابة كاملة تنتظر اللحظة التي تنهب وتقتل وتفتك فيها بقيادة رئيسها.. وكان جرينافسك يعبر عن نفسه دائماً بقوله..
- أننا ذات يوم سنجر البقية الباقية من اليهود الى غرفة الغاز، ولكننا ايضاً لن ننسى الشيوعيين.!!.
في تلك الوحدة تعرفت على النمساوي فرانز ستيف القائد لشباب هتلر في النمسا. بدأ ستيف حياته كعضو في الشبيبة الهتلرية بمسقط راسه في مدينة شيبش على النمسا السفلى.. حيث كان يعيش مع والده القروي الفقير.
وفي الحال علمت ان ستيف يحمل نفس افكار اعضاء هذه الوحدة. وقد عبر لي عن رايه الذي تضارب مع راي رئيسه بلغة روسية ركيكة، وكان ستيف هذا قد حاول الهرب بعد انتحار هتلر هو خطيبته الى الغرب..
وقد اوشك ان ينجح في ذلك لولا انه تعرف الى سيدة بالقرب من زميرنق سلمته للروس.. وحوكم بخمسة عشر عاماً في المعسكر. تصادقت معه رغم كل شيء.. وكنا نتحادث كثيراً في وقت الراحة. واستغرب الكثيرون كيف اصادق النازي.. كما استغربوا في اول ايام التحاقي بوحدة جرنيافسك.. فقد كانت معروفة بتكوينها من رجال العصابات والمتعاطفين مع النازية.
في المعسكر رقم ٣٣ انشغل جزء من السجناء بالتفريغ والجزء الآخر بقطع الاشجار..
كانت الاعمال صعبة للغاية.. والعمل الوحيد الذي يستطيع الانسان احتماله هو صيانة خط السكة الحديد.
ولم يبق شيء آخر سوى ان اقبل «الوسيلة» التي تبررها غايتي، أو رغبتي في الحياة.
وكنت مرغماً أن أعمل مع افظع البشر حتى احافظ على حياتي العارية.

مـغـامـرة كـارل كـاب

من حديثى مع ستيف تأكدت ان الحوادث لم تعلمه.. وانه بقى من انصار العهد النازى.. كان يؤمن بان كل ما فعله هتلر هو الصواب والحق..
وكان يرى ان اندحار هتلر تعود اسبابه الي الخيانة بين صفوف الجيش النازى الشيء الوحيد الذي لم يستطع ان يبرره هو الابادة الجماعية للامم الاخرى..
ولكنه كان يجد دائما العلل التي يلجأ اليها..
ـ هذا الامر من الاساءات التي يحاولون الصاقها بهتلر..
او...
ـ النازيون لم يسببوا ألما لاحد.. ولا حتى اليهود ..
كان يعمل معى رغم المعانه.. وكان عاملا جيدا للغاية..
تحادثنا دائما..
وعندما احكى له شيئا طريفا كان يضحك بصوت عال من فم خال تماما من الاسنان..
معرفتى بستيف انتهت اخيرا..
وصلت مجموعة جديدة من المانيا في صيف عام ١٩٥١ .. وكان من ضمنها كارل كاب الذي وزع للعمل مع وحدة رئيس العمال .. ومن ضمنها ايضا الفلاح السابق شمدت .. وكانت هذه المجموعة معنا في نفس العنبر..
مرت ساعات علي وصول المجموعة الالمانية، وبعدها تعرفت علي كارل كاب. وكانت هذه مغامرة خطرة منى..
ليس لان خططه كانت خطرة.. ولكن لان ال.ن.ك.ڤ.د يستعمل هذا النوع من البشر كمحرضين وكطعوم.. يجمعون حولهم اشخاصا مستعدين لفعل اي شيء..
وعندما تاتى اللحظة لتحقيق الخطط المتفق عليها يظهر ال.ن.ك.ڤ.د ويعتقل وينظم المحاكمات التي تنتهي بالاعدامات.. كنت اعلم ذلك بالخبرة.. ولكن فرانس ستيف لم تكن له خبرة بمثل تلك الامور
اعجبته خطط كاب واسرته جدا..
وبمـا انى عامل سابق في المطعم فقد كان بامكانى ان اخذ جزءا من الطعام بدون ن اعرض نفسي بالصف..
احضرت اناءً من الحساء وعصيدة ودعوت كاب الجائع.
وعندما اكل حدثنى عن سير المحاكمة فى لايبزج.. كان محكوما عليه بخمسة وعشرين عاما في المعسكر..
عندما كان يتحدث كنت اراقب جسده البدين، ومنكبيه العريضتين، ورقبته القصيرة الغليـظة التي جثم فوقها رأس ضخم كبير ذو جبهة قصيرة وشعر كستنائى تخللته الشعيرات البيضاء.. كان بالامكان تقدير عمره بخمسين عاما.
قطع علينا الحديث وصول رئيس العمال شمدت الذي جلس بالقرب منا.

وفي ذات اليوم قال لي كاب:
ـ كارلو .. من حسن الحظ انى قابلتك عندي لك عمل خاص..
تعجبت كثيرا، كان هذا الرجل = كاب = يحدثني وكانما هو يحدث صديقا قديما جمعت بينهما اواصر الالفة .. علي الرغم من انى تعرفت به قبل ثلاث ساعات فقط..
وتوجست خيفة..
رجاني ان احدد له وقتا نتحادث فيه دون مضايقة..
اتفقنا علي اللقاء غدا في غرفة الماء المغلى (كبياتلكا).
وعندما التقينا قررنا ان نبحث عن مكان آخر.. فقد كان هذا الموضع مليئا بعدد كبير من الناس..
جلسنا في بناء مجاور لعنابر لم تكتمل ذهب عنها العمال.. ولما تاكدنا ان احدا لا يرانا قال كاب:
ـ كما ذكرت لك من قبل لدي عمل خاص لك.. اولا يجب ان تعلم ان اسمى الذي حدثتك عنه بالامس عن قصد ليس هو اسمى.. وانما هذه مسرحية كاذبة تعللت بها لدخول معسكر سوفيتي..
ـ كيف لى ان افهم ذلك؟
ـ كنت مالكا لمصنع ادوات البناء.. وكان بامكانى ان اكون اليوم هناك... ولكن عندي واجب جديد هو ان انظم السجناء، حتى اذا نشبت الحرب، اعلنا الثورة من معسكرات سيبيريا.
ـ من امرك بذلك..؟
ـ يا بنى آدم انت لا تريد فهم شيء.
ـ خططك رائعة جدا.. حتى انى لا استطيع ـ حقيقة ـ فهم شيء منها..
ـ جيدا.. اذن ساعبر بوضوح.. اننى اعمل مع الامريكان.. وانا هنا بناءً علي امرهم.
ـ لقد جئت الي هنا بمحض الصدفة .. وكان بامكانهم وضعك في معسكر آخر .. او حتى في السجن..
ـ بمساعدة جماعتنا في ال.ن.ك.ڤ.د والـ(م.ج.ب) استطعت ان اصل الي هذا المكان هو في اشد الحاجة الي وجودى فيه..
ـ آه .. لقد كنت اذن تعلم بانك ستصل الي معسكر اوزرلاڨ؟؟
ـ ليس ذلك فحسب.. بل انى كنت اعلم من قبل انى سأجدك هنا..
ـ آه .. هكذا.. اسمع دعنى اقول لك بصراحة شديدة ان كل هذا الذى ذكرته لي ليس مقنعا..
ـ هذا لانك لا تتمتع برؤيا خاصة عن التنظيمات الامريكية..
ـ ماذا تنوى ان تفعل..؟
ـ اولا علىّ ان اعلم.. هل يمكننى الاعتماد عليك لانظم معك كل شيء..؟
ـ لست ادرى كيف يمكننى مساعدتك؟

ـ انـا رئيس جيش حرب العصـابات الذي سيتكون من السجناء.. وانت تم تعيينك مسئولا سياسيا عن الجيش..
ـ ومن هذا الذي عينني في ذلك الموقع الخطير دون الرجوع الي في الامر..؟
ـ الوضع الخاص بالمكان لا يسمح لى بان اخذ معك في الحديث عن النصح والاستشارة..
ـ ثم ماذا..؟
ـ لدي امر بان اخبرك بان مرتبك الشهرى هو ثلاثة آلاف دولار وهى تجرى منذ عام.. عندما تصل اوربا او امريكا سوف تجد النقود في انتظارك.
ـ كل هذا رائع للغاية لذلك لا اجد ما اقوله لك.
ـ هل تريد تاكيد لما قلته لك من احد آخر..
ـ من يستطيع تأكيد ذلك ..؟ هل هناك اناس آخرون يعلمون بحططك؟
ـ هنا لا يوجد احد.. ولكن في اي وقت تريد يمكنني الاتصال بالرؤساء.
ـ كيف يمكنك فعل هذا؟
ـ في منطقة المعسكر ستحلق طائرة، وانا ساخطرهم بالاشارات.
وتحدث ايضا في هذه المحادثة التي استغرقت الساعة عن عزمه علي الذهاب الي معسكر آخر بعد تنظيم هذا المعسكر رقم ٣٣.. تحدث بان الطائرات ستلقى بالاسلحة والمؤن والتعيينات وفي النهاية ترك الامر لى للتفكير واعطاء رايى في ظرف ٢٤ ساعة.. وهل اقبل وظيفة المسئول السياسي للجيش..؟ وخرجنا انا لعنبرى الذي كان ينتظر رنين الجرس.. ورقدت..
كانت اعصابى مشدودة متوترة.. فذلك الحديث كبير وخطير على..
ولم انم طوال الليل.. قابلت من قبل الكثيرين من المغامرين والمحرضين.. ولكن لم يكن واضحا لي في اية مجموعة اضع كاب او اصنفه.. ولم يكن من المحتمل كذلك ان يكون كاب قد حضر الي بأمر من (م.ج.ب) .. وما صدقت ان احدا اعطاه مثل ذلك التفويض..
وصلت الي قرار بان كاب واحـد من مجمـوعة العملاء الصغار الذين جندوا في المانيا الغربية وارسلوا للمنطقة الشرقية.
ولاداء المهمة الموكلة به حصل علي مئات الدولارات، وعلي وعد باطلاق سراحه اذا القى عليه الروس القبض..
العملاء كان لديهم الامر بان يواصلوا التجنيد في المعسكر.. وقد وعدوا بالجوائز السنية بعد عودتهم من روسيا..
وكان بعضهم قد قبض عليه في المحاولة الاولى لتنفيذ الامر. والبعض اعتقله الروس في المحاولة الثانية او الثالثة.
ومن النادر ان يبقى ذلك العميل مستمرا في عمله لمدة طويلة.. كان الامريكان يأملون وهم يلقـون بهـؤلاء العمـلاء غير المهمين، في تحويل انظار ال.ن.ك.ڤ.د عن العملاء الحقيقيـين.. وارادوا كذلك ان يكـون لهم انـاس كثـيرين في المعسكرات السوفيتية، ليتحركوا اذا نشبت الحرب .. كطابور خامس في المؤامرة..

وها هو كارل كاب، يذهب الي ابعد مما طلب منه رؤساءه.
وفي محـاولاته لان يعمل شيئا كبيرا، نسي كاب عاملا مهما جدا.. هو ان ال.ن.ك.ق.د و)م.ج.ب) بمساعدة عملائهم من السجناء سيعرفون كل خطوة من خطواته.
كيف اذن ستكون علاقتي بكاب..؟
كانت هناك امكانية واحدة فقط..
ان ارفض بحزم الاشتراك في اي مشروع من تلك المشاريع..
قررت ان اقطع كل علاقة لي بهذا الشخص كاب..
وفي الحال.. وقبل ان يلاحظ احد انني اتحدث معه..
وفي الصباح الباكر استيقظت.. ولم تكن بى قوة.. قدماى لم تستطيعا حملى .. حتى الافطار لم استطع الذهـاب اليـه.. ولكنى تحـاملت علي نفسي وتوجهت الي القسم الصحى.. الي بوبوف.. رجوته ان يعفينى من العمل .. وسالنى بوبوف عما بى.. قلت له انا معافى وبخير ولكنى متعب اريد البقاء بالعنبر.. ولم يسالنى بوبوف عن شيء آخر..
امر سكرتير القسم ان يدرج اسمي ضمن الذين لا يعملون اليوم..
وعندما ذهب الجميع للعمل.. مضيت للافطار.. اكلت وجلست علي الكنبة اقرا.. قرات عدة صفحات، ولكنى اكتشفت انى لم افهم شيئا مما قرات..
وضعت الكتاب جانبا وبدأت افكر.. من اين لهذا الـ كاب ان يعرفنى.. من المحتمل ان الذين يصـدرون اليـه الاوامر علموا باسماء بعض السجناء في الاتحاد السوفيتى.. ويجوز ايضا ان يكون احد في محطات الانتظار قد تحدث عنى ووصفنى.. فاراد هو ان يستغل ذلك ليبثت لى انه يعلم كل شيء..
وفي خلال اليوم نمت لساعات... وعندما صحوت احسست بانى منتعش وعندما عاد كاب من العمل حيانى بصوت عال من الجانب الآخر.. ولكنى رددت عليه من بعد لاى. وفي وقت العشاء ظل يحلّق حولى كثيرا ويمر بجانبى في انتظار اشارة منى للاجتماع به ومر المساء ولم اتحدث اليه.
وفي اليوم التالى تهربت منه..
وعندما التقينا في المساء تبادلنا التحية بصعوبة بالغة..
وكنت سعيدا وتنفست بارتياح لانه فهم بلا ايضاح بانى لا ارغب في ان تكون لي به علاقة.
وسرعان ما رأيت ان كاب وفرانس ستيف تربط بينهما علاقة صداقة كبيرة..
وكانا مع بعضهما بلا انقطاع...
تمشيا في الساحة وكانا يتجادلان كما يبدو في شيء ما.. بحيوية شديدة..
كنت في فترة راحة ما بعد الظهيرة قد تعودت ان اجلس الي ستيف نتبادل الاحاديث. وسالنى يوما:
ـ السيد شتاتير ما هو رايك في كاب..؟

ـ لا استطيع ان اعطيك رأيي في شخص معرفتي به سطحية..
ـ هل تعلم انه شخصية كبيرة..؟
ـ لا اعلم .. ولا يهمني ان اعلم .. وانا لا اهتم به اكثر من سجين عرفته لايام قليلة..
وغضب مني ستيف.
ومنذ ذلك اليوم تدهورت علاقتنا.. وفترت.. حتى وصلت الي حد القطيعة والفوة.. وكنت راضيا وسعيدا بذلك كل الرضا والسعادة، فقد انتهى الخيط الذي كان يمكن ان يربطني بكاب..
واصبح كاب شخصية محبوبة في المعسكر.. تحدث كل انسان عن القائد الاعلى لجيش العصابات .. وقد جاءني سجناء كثيرون ليعرفوا رأيي فيه.. وقد قلت لاصدقائي فقط..
ـ هذا الرجل مغامر خطر.. يستغل شعور المرارة واليأس عند السجناء الآخرين.. وانا لا اعرفه ولا اريد معرفته..
رئيسا العمل جرنيافسك وشمدت كانا مبتهجين ومسرورين بوجود كاب، فحدثت مشاجرة كبيرة واوشكت ان تتطور الي التماسك بالايدى.. وكان ذلك مؤشرا علي ان شعبية كاب في صعود بين السجناء.. وبدا يثير اهتمام الـ(م.ق.د) "وزارة الداخلية"..
وكان كاب ضيفا عزيزا تسر رؤيته مسئولى القسم الصحى..
وقد تحدث للاطباء بوبوف وسوكولوفسك عن خططه.. وقد ابديا اهتماما شديدا بمعرفة التفاصيل.. ولم يقتصد كاب في الكلام ثرثر كثيرا..
وابتلع الاطباء كلماته.. وعندما تركهم خرج منهم محملا بعلبة كبيرة تحتوى علي كميات كبيرة من كل انواع الفايتامينات..
وبمجرد خروجه من عندهما كتب الطبيبان كل ما سمعاه منه وسلماه لوزارة الداخلية (م.ق.د) حدثني بذلك سكرتير القسم.
وكان باستطاعة كاب ان ياخذ من الاطباء اياما للراحة.. ياخذها هو والسجناء الذين يتوسط لهم.. واعتقد بذلك انهم اعضاء في منظمته.. وحتى يرفع من قدر شخصيته اكثر اتى بحيل مختلفة كثيرة.. كانت طائرات ال.ن.ك.ڤ.د تتحرك فوق المعسكر علي شكل دائرى.. وكانت تقوم بذلك العمل الروتيني لمراقبة السجناء ولحصر رؤية اي شيء في المعسكر..
وقد استغل كاب هذه الفرصة وخلق بينه وبين تلك الطائرات علاقا وهمية.. كان يخرج الي الساحة فجاة امام الآخرين ويعطى اشارات غامضة بيده للطائرات وقد صدق السجناء الذين كانوا يراقبونه ان تلك طائرات امريكية..
حدث هذا للدرجة التي كانت عندما تحلق طائرة وكاب داخل العنبر، ان يهرع اليه اتباعه ويخبرونه عنها.. فيخرج للساحة وقد اضفى علي وجهه علامات الجد، واضعا يديه امام عينيه.. ويحدق في الطائرة لعدة دقائق.. ثم يرجع الي العنبر قائلا بابتسامة غامضة هازئة:
ـ هذه ليست طائرتي..

وفي العنبر كان يحيا حياة طفيلية مضحكة.. كان لا يحب ان يعمل قط.. وكان رؤساؤه ومن معه يعينونه علي ان يبقى بلا عمل..
ولم يذق الجوع فقد درج علي تلقى اكبر جزء من الطرود.. فكل من حصل علي طرد يعتبر ان واجبه الاول هو تخصيص جزء من تلك الطرود لكاب..
وقد امتد عرض هذه التمثيلية الكوميدية وبطلها السيد (كاب) عدة شهور في المعسكر رقم ٣٣..
وذات يوم نقل كاب فجأة الي معسكر آخر..
وحين علم اتباعه ذلك اصيبوا بخيبة امل كبرى.. ولكن كاب همس في آذنهم انه نقل بناء علي رغبته الخاصة لينظم الامور في معسكر آخر. وانه قد عين فرانس ستيف خليفة له..
ثم سار بعد ذلك في المعسكر ٣٣ علي الوتيرة العادية..
وعملت الوحدة بعد رحيل كاب بخطط جرنيافسك الواقعية. وعادت تجارة الملابس كما كانت.. وازدادت حدتها كثيرا.
في كل صباح تذهب الوحدة الي منزل السكة الحديد، بالآلات.. ثم يقضى اعماله الخاصة مع الطلقاء ومساعدى حراس خطوط السكة الحديد..
المساعدون اشتروا الملابس التي احضرها السجناء وباعوها للمنفيين من قرى بسرابيا الذين عاشوا في الاماكن السكنية القريبة.
السجناء باعوا الملابس التي حصلوا عليها في المعسكر.. والتى لم تكن تحمل ارقام السجناء.. وكان ما يباع جيدا هو احذية الجليد التي تتوفر في اي مكان آخر للبيع الحر.. وبدون هذه الاحذية كانت الحياة في سيبيريا غير ممكنة.
السجناء من وحدة جرنيافسك لم يبيعوا ملابسهم هم فقط، بل باعوا ملابس السجناء الآخرين مقابل عمولات معينة. ولكى تنقل الاشياء من المعسكر، السجناء يلبسونها فوق ملابسهم العادية وعندما علمت الادارة بذلك شددت الرقابة الصارمة علي الخارجين.. في باب الخروج.. والسجناء الذين وجدت لديهم ملابس بلا ارقام القى بهم في زنزانة الحبس التاديبية (كارسر). ولكن التجارة ازدهرت اكثر، وفيها اشترك بعض الحرس الذين باعوا الخبز والسكر والدخان. وفي بعض الاحيان الفودكا.
كنا دائما نعمل علي امتداد خط السكة الحديد، وغالبا ما كنا نرى السفريات التي تمر بخط السكة الحديد الجديد..
كانت السفريات تتكون من السجناء والحرس. اما رحلات المواطنين العاديين فكانت قليلة جدا.
كان ترحيل السجناء يتم الي معسكرات مختلفة علي طول خط السكة الحديد من تايشت الي نهر لينا. عدا سفريات السجناء التي ذكرناها هناك ايضا قطارات كثيرة كانت تمر وهى محملة بالقرويين المرحلين من بلاد البلطيق وبسرابيا..
والذين كان يتم اسكانهم في الغابات بالقرب من خطوط السكة الحديد الجديدة بعض السفريات كانت تشبه المدن الصغيرة التي تتحرك علي عجلات.. كانت القاطرة تجر

حوالى الستين عربة، حمولة ستين طنا..
ومعنى ذلك ان بالرحلة الواحدة يكون حوالى ستة او سبعة آلاف سجين وكانت تلك العـربـات تحتـوى علي مطعم للسجنـاء والحرس.. ومحطة توليد كهربائية صغيرة لاضاءة لعربات.. وللجنود الذين يرافقون السفرية توجد ايضا ثلاث عربات مخصصة لعمليات الحراسة.. كل عربة مزودة ببرج مراقبة عليه جندى معه مدفع رشاش..
وابـراج المـراقبة تلك كانت مزودة بتلفونات متصلة اتصالا مباشرة مع القيادة.. اما العربة الاخيرة والاولى فكانت بها كشافات تضيء بالليل المسافة بين العربات خلال الليل..
ودائما كنا نشاهد رحلات المجندين الجدد الذين قادوهم للمعسكر لتعلم نظم الحراسة في خدمة ال.ن.ك.ق.د ببراتسك..
وفي اللحظة التي غيرنا فيها الخط وصلت الي المحطة سفرية المجندين الجدد.. وقد راقبنـا اولئك المجندون الجدد بفضول شديد وحب استطلاع اشد. ملابسنا والارقام التي عليها شدت انتباههم..
اما نحن فقد استمتعنا ايضا بمراقبة جنود المستقبل..
وفجاة انهمر علينا الخبز.. ولفافات الدخان واشياء اخرى.. ولم نستطع جمع كل ذلك..
وقد فوجيء حرسنا فلم يستطع التصرف للوهلة الاولى.. ثم سرعان ما تمالكوا انفسهم وبدأوا يصيحون في المجندين الجدد.. ومنعونا ان نجمع الاشياء التي القى بها الينا الشبان.. وبالرغم من ذلك المنع الا ان المجندين الجدد واصلوا رمى اللفافات.. وعندها امر رئيس الحرس بان يخرجوننا من نطاق المحطة..
وقد كان... ثم هدا المجندون الجدد بعد ان اختفوا بنا عن انظارهم.. وعدنا للعمل عندما تحرك قطارهم مبتعدا عن المحطة..
ثلاثة شهور مرت بعد ذلك...
وعندما انهوا دراستهم في مدرسة ال.ن.ك.ق.د في براتسك جاءوا الينا مرة اخرى ... نفس اولئك الشباب الذين القوا الينا بطعام عن شفقة ورحمة، عاملونا الآن بلا انسانية ادهشتنا..
ومن ابنائنا المحلية استبدال زمين ليعمل رئيسا للعمال بدلا عن الحرس.. وكانت وحدة زمين تعمل في نقل الحصى.. وذات يوم كان من الضرورى ان تتحرك الوحدة عدة امتار للامام حتي تفرغ العربة التي كانت هناك... وحتى يتم ذلك كان لا بد ان يؤخذ اذن من الجندى .. وقد اوضح زمين لقائد الحرس الموقف وحصل علي رخصة من الجندى، لكى يحرك اللوحة التى كتب عليها (منطقة ممنوعة) عدة امتار للامام..
واخذ زمين اللوحة، واراد ان يضعها في مكان آخر..
وسمعنا صوت طلقات يدوى ي اتجاهه..
وسقط زمين..
الجندى الذي اطلق النار علي زمين افاد في اقواله بان رئيس الحرس لم يخطره بانه سمح

بتحريك اللوحة..
هذا الاغتيال كان بلا اساس وبلا مبرر علي الاطلاق... حتى ان مدير المعسكر سوروكن تحدث امام السجناء عن هذا الذي حدث ووصفه بالعبث.. ولكن السجناء كانوا يعلمون السبب الحقيقي..
فقبل عدة اسابيع كان علي زمين ان يظهر كشاهد اثبات ضد احد الجنود .. الذي كان متهما باطلاق النار علي احدي الشابات اثناء مرورها امام المكان الذي يعمل فيه السجناء.. وكانت هذه الشابة هي ابنة سكرتير الحزب ولم يكن الجندى يعلم ذلك..
وعلل فعلته بان الشابة ارادت ان تكون على (صلة) بالسجناء..
وكان زمين يراقب الموقف، فتحدث في المحكمة بما رآه.. وحكمت المحكمة علي الجندي بعامين سجنا.. ولكن زملاء الجندى الذين شهدوا ايضا المحاكمة كمدافعين عن زميلهم لم يرق لهم الامر وهددوا زمين بان "هذه هي آخرته"..
وقد اوفوا بكلمتهم..
مضى اكثر من شهرين علي رحيل كاب من المعسكر رقم ٣٣ ولا احد يعلم مصيره.. ولكن الذين يحملون نفس افكاره نشروا اختلاقات وهمية.. بعضهم قال انه حر طليق وسيظهر علي رأس الجيش، ويطلق سراح الجميع.. وهذه الاخبار تولى نشرها التابعون لجيش فلاسوفليف السابق.. اما جرنيافسك وشمدت فقد استعدا للحرب القادمة..
وخيل الي ان هؤلاء الناس اصابهم العمى.. اذ كيف لا يرون ان زملاءهم يطلعون ال ن.ك.ڤ.د وال(م.ج.ب) علي كل ما يجرى في المعسكر؟.. نسوا الخطر المحدق بهم.. وكثيرون لم يابهوا كيف ينتهي هذا الامر؟..
كانوا فقط يفكرون في الخمسة والعشرين عاما التي يجب عليهم ان يقضوها في المعسكر..
ولم يرض احد منهم بذلك...
من قبل كان الكثيرون يأملون في الحرية علي ايدي جيوش هتلر.. والآن ينتظرون النجاة من الامريكان..
والسجناء الجدد كانت تلك هى خيالاتهم بلا انقطاع..
وكان حضور الالمان والنمساويين يتواتر في كل السفريات.
الغالبية منهم حوكموا لصلتهم بالامريكان.. وكانت فترة الحكم هي الخمسة والعشرين عاما لا تقل ولا تنقص يوما.. وكانوا يحلمون نفس الاحلام في الحرية.. بعضهم حدد ذلك بعيد الميلاد.. والآخرون قالوا ان ذلك سيتم علي اسوا الظروف في راس السنة. ثم حضرت الي المعسكر مجموعة صغيرة من السجناء.. ورايت بينهم كاب.. في البداية لم استطع ان اعرفه.. كان ضعيفا للغاية.. ملابسه مهترئه رثة بالية.. وانتشرت اخبار عودته بسرعة فائقة ... وتسارع الجميع.. احضروا له قطع الخبز. الراهب من وحدة جرنيافسك اهدى اليه قطعة من دهن الخنزير.. وكان كاب دائم الصمت.. واستغرب الكثيرون ذلك.

وذهبوا بالسجناء الجدد الي مكان الاغتسال فتجمع هناك كثير من الناس، لرؤية (القائد الكبير).. ثم ظهر ستيف وامر الجميع بالعودة الي العنابر فسيتكلم هو مع كاب ويعرف منه الاخبار.. ولمدة يومين لم نسمع شيئا عن كاب. ثم تواترت الاخبار الاولى. قيل ان كاب قام بعملية (تفتيش) وانه اكتشف في الضفة الاخرى قرب معسكرنا مجموعة كبيرة من رجال العصابات تحت قيادة احدى الجنرالات. اخبر بذلك المقربين اليه ـ ستيف ـ جرنيافسك ـ شمدت. وقد علمت من تحرياتي الخاصة مع السجناء الذين كانوا معه انه لم يكن ابدا في ذلك الوقت ـ بقسم من اقسام المعسكر الاربعة. ولكنه الحق بالقسم الخامس ـ الخاص بقطع الاخشاب.. حيث لم يجد عددا كبيرا من السذج ليصدقوا تخريفاته. مع انه تحدث هناك عن نفس الاشياء التي كان يحدثنا بها..
وقد توقف العمل جزئيا في المعسكرا رقم خمسة..وعليه فقد رحلوا جزءا من السجناء الذين بدا عليهم الضعف والهزال الي المعسكر رقم ٣٣. واشاع انصار كاب بان عودته لم تكن محض صدفة ولكنها اثبات اكيد لقوته ومررت بالقرب منه وكانني لا اعرفه... وفي نفس الوقت وصلت الي المعسكر من تايشت لجنة للكشف علي المطعم، وقر في افكارنا انها قد جاءت للتحقيق في الشكاوى والاتهامات الكثيرة عن سوء الاكل.. وسيادة كونوفالنكو...
وصلت اللجنة ليلا، وفي الصباح الباكر داهمت المطعم واقامت فيه..
وعندما انهت الرقابة والفحص نصحت مدير المعسكر بتغيير كونوفالنكو. ولعدة ايام ترددت اخبار كثيرة مفادها ان رئيسا جديدا للمطعم يجرى البحث عنه ليخلف كونوفالنكو..
كنت جائعا جدا فاسرعت للمطعم ابحث عن العشاء ..
وعندما مررت قرب القسم الصحى نادي عليّ الساعي، ان حضر فورا لمقابلة بوبوف..
وكنت احمل اناء الصفيح وملعقة الخشب عندما دخلت عليه في المكتب.. وحال رؤيت لى قال:
ـ الق بهذا الاناء الصفيحى واذهب الي المطعم فورا، فقد عينت رئيسا له..
ولم يهزني ذلك الخبر او يسرني..
فقد كنت اعلم جيدا ان مدير المعسكر وبووف لا يرون فيّ الرجل المناسب لهم.. وعنّ لي ان اعارض.. ولكن بوبوف رفع يده وصاح بي:
ـ لا تتكلم اذهب الي المطعم فورا.. وساحضر انا عملية التسليم والتسلم.
في الطريق حيانى بعض الذين كانوا يعلمون من قبل ان تعييني رئيسا للمطعم هو انتصار لهم..
وقد حاولت كرئيس للمطعم ان اصنع من المواد التموينية التي كانت تحت يدي في المطعم اكلا محترما نوعا ما..
انهيت عادة ان يطبخ الحساء والعصيدة فقط.. ودائما .. بالمعسكر..
اهتممت بان يكون الاكل منوعا..

بالرغم من ان المطعم كان خاليا.. قليل الدهن واللحم..
فاعددنا اللحم المفروم .. وطبيخ اللحم بالمرق..
وسر السجناء من التغيير.. وقد ادخلت رقابة شديدة لكى امنع السرقة...
حتى ان اقسي الناقمين والناقدين اعترفوا بان النظام ولاول مرة ساد المطعم..
وشجعنى اصدقائى بان اصر علي هذه السياسة فقد كان همى الا يجوع احد..
رفض فرانسيس ستيف ان يقبل منى اية مساعدة، على الرغم من انه كان في السابق يقبلها بسرور.
كان من (مجموعة المعارضة)..
وعد عملى هذا اهانة له.. فهو غير محتاج لمعونتى لان كاب كان ذا امدادات جيدة ومتواصلة.
وذات يوم دعانى الرجل الذي يقوم باشعال المدفاة الي الحجرة..
وعندما دخلت وجد "وفدا" صديقين من عصابة فاسكين..
سالانى هل انا مستعد لاعطائهم اكلا محترما..؟
وكنت قد فكرت في هذا الامر بالذات كثيرا.. واجبتهم في الحال:
- اننى اريد ان اعيش في سلام..
- اذا لم تفعل فسنقتلك.
وذهبا .. بعد ان هددانى..
وفي نفس اليوم حضر الىّ شستيوركا الناطق الرسمى بلسان المجرمين لياخذ منى الاكل الموعود لرؤسائه.. واعطيت المجرم اكلا محترما..
وبعد ايام دعانى ضابط ال.ن.ك.ڤ.د والذي اخبره الرجل مشعل المدفاة باننى اعطى المجرمين طعاما اضافيا..
وسالنى الضابط:
- هل هذا صحيح؟
- بصراحة نعم .. انا لا اريد ان اضحى بحياتى لمطعم السجن.. انت تذكر اغتيال رئيس المطعم السابق.. وعدم حدوث شيء للمجرم القاتل بسرابيا.
ووقف الضابط يسبنى بطريقة فاسك.
وصرفنى وهو يهددنى.
ولكنه لم يفعل شيئا.
وعلي الرغم من اننى لم اغير موقفى من رجال العصابة، الا انه كان يتعين علىّ ان اجد لنفسي حلا وسطا مع ضميرى.
والعمل بالضمير هو مبدأ ثابت عندي ولكننى لم اكن مستعدا للتضحية بحياتى علي الاطلاق.
وكان هناك ايضا كونوفالنكو الذي لم يهدأ لحظة واحدة، وهو غير مقتنع بان المطعم يمكن ان يعمل بدونه.. وكان يامل بان الوضع لن يسير طويلا .. وان الذين يقفون من

ورائه سوف يدعونه لاخذ مكانه القديم.. ولكنه لم يكن صبورا متانيا، اراد ان يحقق ذلك باسرع فرصة ممكنة..
والضباط من اصدقائه الذين كانوا يتحسرون علي عهده ، اخذوا يترددون كل يوم علي المطعم ليروا هل يحصل السجناء علي كل مخصصاتهم الغذائية.. ولم ينسوا ابدا ان يفتشوا هل حصلت علي شيء اكثر من المقرر في الدهن... وهل القدور نظيفة..الخ.. الخ..
ورغم ان كل شيء ان رائعا في المطعم الا انهم كانوا يسبون قائلين بان هذا المكان اصبح شبيها بمنزل الخنازير.. اما كوموف مدير قسم التربية فقد كان يسب علنا وبالمفتوح..
قال ان كنونوفالنكو يجب ان يعود الي مكانه القديم.. سكرتير القسم الصحى حدثنى عن الذي قاله بوبوف لكونوفالنكو ، وانه قام بتهدئة روعه وتطييب خاطره.. وطلب منه ان ينتظر يومين او ثلاثة وان يكون صبورا لانه سيعاد لمكان عمله القديم.
وقد اوفى بوبوف بوعده هذا..
مرت عدة ايام ثم جاءت ذات صباح لجنة من الضباط وعلي راسها كوموف لكى تراقب تقسيم الافطار.. وعندما انتهى التقسيم اكتشفت اللجنة ان هناك خمس عشرة قطعة من العصيدة لا زالت باقية..
ووقف كوموف متعجبا..
ـ كيف تاتى ذلك..؟ بعد التقسيم يمكن تبقى هذه الكمية من العصيدة؟!
ـ عندما تطبخ لالف وخمسمائة شخص انه من الطبيعى ان يكون هناك مثل هذا الفائض البسيط..
ـ وكيف يحدث ذلك..؟ هذا ما اريد ان تحكيه لي بالضبط.
ـ ليس هناك ما يحكى.. اسال زوجتك حتى لو كان الطبخ لاربعة اشخاص فقط لا يمكن ان تطبخ طبخا دقيقا بالديكاقرام..
ـ انت قليل ادب.. هذه الكمية كنت تعدها لاصدقائك..
وصمت..
كان الامر واضحا بان المسالة تمثيلية محبوكة بدقة شديدة.. وان كل شيء كان مقررا بدقـة.. وهو ان يعود كونوفالنكو الي مكانه في المطعم.. وبعد مرور ساعة من الوقت اخبرونى بان مدير المعسكر مريض لسوء الطعام... ويجب علي ان اترك رئاسة المطعم فورا.. وان الرئيس الجديد للمطعم اصبح هو كونوفالنكو مرة اخرى.. وللمرة الثانية سلمت المطعم له.. ولكن لم يطلوبا منى كما طلبوا في السابق ان ابقى طاهيا بالمطعم..
وضعونى للعمل في اسوا وحدة بالمعسكر.. وحدة ياكوفليف... ووحدة ياكوفليف هذه كانت تعمل في بناء خط سكة حديد يتفرع من الخط الرئيسي ويقود الي عمق الغابة التي تقام فيها.. مبانى منطقة سكنية للعمال المنفيين للكولخوز من غرب اوكرانيا.. وكان عليهم ان يقطعوا الغابة هنا اولا.. وكان طول هذا الفرع من الخط الحديدى احد عشر كيلو متـرا.. يجب مده باسرع ما يمكن.. كنـا كل صبـاح نمشي للعمل مسافة ثمانية كيلومترات، وان نمشي مثلها عند العودة مساء... اما الحصى فننقله من التل القريب

رذلك لبنـاء الجسر وتقـوية الخط.. كان العمل شاقا للحد البعيد.. ولكنني تحملت بسهولة هذا الشيء القاسي في اعماق الغابة، وهو اخف عندي من الصراع مع الضباط والمجرمين ورجال ال.ن.ك.ق.د ... وكل الذين كانوا يريدون نهب الطيبات والخيرات من المؤن التموينية التي تخص السجناء..

تحمل جسدى الشقاء وقويت عضلاته لارتفاع المعنويات.

وكان زملائى ودودين معى.. وفي كل فرصة كانوا يذكرون بانى كرئيس للمطعم حصلت علي مودة اغلبية السجناء..

عملت في بناء خطوط السكة الحديد لمدة ثلاثة اسابيع..

ثم ظهرت تنقلات مجموعة من المعسكر رقم ٣٣ الي معسكر مجاور..

وكان اسمي في قائمة التنقلات هذه.

وشاءت الصدف ان يكون ذلك بعد عامين من تاريخ قدومي الى المعسكر رقم ٣٣ في اليوم العشرين من فبراير عام ١٩٥٢ ـ وكان صعبا علي فراق اصدقائى..

والسجـين وفي جدا للمكـان الذي اعتـاد عليه حتى ولو كان العمل فيه شاقا.. وكان السجناء يخشون ان يذهبوا الي مكان جديد ظروفه اصعب واقسي من المكان القديم..

****

فى الغابة...

قسم المعسكر رقم ٣٠ كان يبعد حوالى ستة كيلو مترات عن القسم رقم ٣٣
ومررنا بالقرب من الغابة على طول السكة الحديد فى طريق مخصص للمشاة..
ولم نحس او نشعر بالبرودة.. فقد كان علينا أن نمشى بسرعة فائقة. وقد توقفنا مرة واحدة لقضاء الحاجة..
وفى الساعة العاشرة صباحاً تم تسليمنا الى الضابط النوبتجي امام باب الدخول كان عددنا مائة بالضبط
جئنا الى هنا لنساعد فى قطع الغابة..
دعونا فرادى لمقابلة نائب المدير.. الذى سال كل واحد منا عن مهنته..
وسمع أن هذا طبيب.. وذاك محام.. والثالث اسكافى.. الخ الخ.
ووضعنا جميعا فى وحدة قاطعي الاشجار.
وفكرن بحزن.. ماهى الجدوى لضياع كل تلك الساعات فيما لا طائل وراءه..
وتم توزيعى على وحدة مكولنكوف..
وعندما دخلت فى القاعة المظلمة للوحدة وقدمت نفسى لرئيس العمال سألنى..
ماهى مهنتك..؟
وفاجأنى السؤال المضحك فضحكت.. وضحك هو مده لانه أحس بان سؤاله لا محل له..
ولا جواب له فى تلك اللحظة سوى الضحك..
واصبحنا منذ تلك اللحظة صديقين ودودين..
ومكولنكوف كان مدرساً فى احدى قرى اوكرنيا..
وعندما جاء الالمان استمر فى عمل التدريس.. ولكن الروس بعد عودتهم حاكموه بعشر سنوات سجنا فى المعسكر..
يقع المعسكر رقم ٣٠ فى كوتلين..
خيل الى ان عنابره محشورة فى عمق الارض..
اما المقابر التى تبعد كثيرا عن المعسكر فقد اثارت فى نفس صورة حزينة كان عدد العنابر اثنـين وعشرين عنبرا يسكن فيها حوالى الالفين من السجناء.. وكلهم كانوا يعملون بقطع الخشب فى الغابة.. ماعدا بعض المحظوظين.. وهم قلة.. عملوا فى المعسكر وفى المنطقة المجاورة يصلحون العنابر..
وعنـد وصـولنا خيل الى ان العنابر خالية من الناس وذلك لانها كانت ساكنة سكون الامـوات.. وقـد زادت دهشتي وامتـد عجبى حين أكتشفت انهـا ماهولة بالبشر، بل وممتلئة تماماً.
وفى اليوم الاول عرفت اشياء كثيرة مزعجة.
كان السجناء يرهبون مدير السجن العقيد كوفاليق ويخافون منه للحد البعيد فبمجرد ظهوره فى مكان العمل او بالمعسكر كفيل بان يجعل الاوصال ترتعد فرقا وكان العمل

المرهق الشاق قد امتص دماء الحياة في عروق السجناء.. ففي هذا المعسكر لا يوجد عمل سهل اطلاقا.. لا يوجد الا قطع الاخشاب فقط. المرض الشديد هو الذى يسمح للسجين بسببه ان يذهب للمستشفى. وحاول الجميع ان يكونوا مرضى.. وكل يوم ثلاثاء يقودون مجموعة من السجناء الى المستشفى.. وحرص الجميع ان يكونوا ضمن الذاهبين، ولو في سبيل ساعات من الراحة..

وكانت المأساة الحقيقية انه تحضر كل شهر مجموعات جديدة لتحل محل الموتى..

بعد الليل الذى قضيته على كنبة صلبة، استيقظت باصوات الجرس العادية المصلصلة.. وذهبت مع افراد الوحدة الطعام التى ياكل فيها اعضاء عشر وحدات.. يجلسون الى مناضد خشبية طويلة.. وكان بعض السجناء الذين يعينهم رئيس العمال يحضرون الحساء في اوان خشبية واخرى من الصفيح.. في العنبر اعطونا ستين ديكاجراما من الخبز الاسود.. واسرعنا.. لان امام الغرفة كانت تنتظر وحدة اخرى.

وفي العنبر شربنا كوباً كبيراً من الماء الساخن الذى احضره النوبتجي.. وقبل ان يتمكن الجميع من شرب الماء السلخن، تناهت الى اذنى صلصلة الجرس الثانية..

الى العمل..!

وخرج العمال من العنبر بلا نفس.. ووقفوا في خمسة صفوف..

وكانت السماء مازالت معتمة، عندما مررنا خلال باب المعسكر..

وفي انتظارنا وقفت مجموعة كبيرة من الجنود.

مررنا اولا بشارع واسع تجاه خطوط السكة الحديد.. وعندما وصلنا الى الحد الذى تركنا فيه قضبان الخطوط خلفنا كنا قد دخلنا في الغابة. وعبر الغابة طريق «منظف» طوله اربع كيلومترات.. قادنا اولا الى مساحة كبيرة نظيفة..

هى مركز اعمال الغابات.. حيث توجد المخازن التى وضعت فيها الالات بالنبض الكهربائى..

وفي احد العنابر كان مكتب مدير العمل.. وبالعنبر الثانى الحرس.. اما الثالث فللاسعافات الاولية..

وفي مخزن خشبي مفتوح تناثرت بضعة مواقد بولندية فيها طعام الافطار للسجناء..

ثم امتدت المنطقة المحاطة بالجنود والتى يعمل فيها السجناء ومساحتها كبيرة تصل الى عشرات الكيلومترات.. وحتى تتم الرقابة الدقيقة على السجناء نظفت شوارع عريضة تخللت المكان بطريقة جهنمية بحيث ان كل من يفكر في الهرب لا بد ان يمر باحد هذه الشوارع..

وفي الحال يكشتفه الجنود.. فهم يقفون على مسافات محددة بين كل جندى واخر مقدارها فقط.. عشر خطوات..

رقابة دقيقة جدا.. ولذلك فلم ينجح سجين واحد في الهرب.

كنا نعمل ثلاثة ثلاثة..

اثنان يتحاوران المنشارالكهربائى او اليدوى.. والثالث يعمل بفاس قوى حاد.. يقطع

به الافرع..
تتراكم الاوجاع والساعات فيصل معدلها الى اثنتى عشر ساعة ونحن نخترق ونخترق بحار الجليد الذى يصل الى اكتافنا..
وتتساقط الاشجار.. لم تكن هناك احتياطات امان..
ومافكر احد فى سلامته اطلاقا.. كان التفكير منحصرا فقط فى طعام العشاء.. «بايكو».. وحتى يحصل المرء على اكل كثير عليه ان يعمل اكثر..
كل مجموعة من مجموعات الثلاث عليها ان تسقط مترا مكعباً من الخشب.. وتنظفه تماماً من الاغصان.. وتنشر الجذع الى ستة امتار.. واصعب مافى هذه العملية هو تنظيف الاغصان..
وسالت منا جداول العرق الغزير خلال ذلك الجو القارس الذى بلغت درجة البرودة فيه اربعين درجة تحت الصفر..وماكنا نحس بالبرد الا فى وقت الراحة فقط..
واشتهى كثيرون منا الموت..
وسمعت غناء السجناء.. كانوا يسبون امهاتهم فقد تسببن بولادتهم فى تعريضهم لما يعيشونه من الم وحزن..
وكان عمل الوحدة التى تجر الاشجار المتساقطة عملا شاقا هو الاخر..
كانوا يربطون الشجر بالحبال وبمساعدة الحصان وعضلات الرجال يجرون الشجر الى المكان المحدد.
وكانت الخيل بعد ثلاثة او اربعة اشهر تصبح غير صالحة للعمل فيطعمونها للسجناء.. ومن اصل ثلثماية واربعين حصاناً كانت فى المعسكر ٣٣ بقى مائة وعشرون حصانا فى مستشفى الخيل.. كان المرض يصيب ارجل الخيل..
ورغم انشغالنا ببؤسنا الخاص، فقد كنا نالم جدا عندما نرى كيف تظلع فى مشيها تلك الحيوانات النبيلة.. وسوط قادتها يعوى فوق ظهورها المدماة..
حملنا الاخشاب فى عربات صغيرة بعد ذلك للقضبان الحديدية الضيقة.. والتى كانت تجرها قاطرة خاصة الى (دى - او - كى) مصنع الخشب.. او الى محطة التفريغ حيث تنقل عربات السكة الحديد الكبيرة.. ذات القضبان العادية..
كانت لدينا الفرصة الكافية والمتاحة ان نتحدث عن الموقف الذى نحن فيه..
وكان غريبا الان وبعد الحرب ان يختلف الحديث..
قبل الحرب كانوا يسبون ستالين ومعاونيه..وكان الشيوعيون الغاضبون والثائرون على مايرتكب باسم الاشتراكية وباسم تعاليم ماركس ولينين يوجهون النقد للطغمة الحاكمه.. والان - بعد الحرب - كان السباب موجهاً تشرشل وروزفلت وبقية قادة الغرب الاخرين..
لم يستطيع الكثيرون ادراك كيفية التعامل بالقفازات - حتى بعد ان سحقت الهتلرية، والستالينية التى لم تكن تقل عنها خطراً.
والكثيرون كانوا يحلمون برؤية اولئك الساسة الكبار يعملون معهم جنباً الى جنب فى

هذا المعسكر الخاص بقطع الاخشاب.. وهم يتضورون جوعاً ويحترقون بردا..
وحياتهم معلقة بقطعة من الخبز الاسود العزيز المنال.
كان هناك المان كثيرون تعرفت من بينهم على هانس بالتسى طبيب شاب من بالتس سيبنبيرقن..
ولم تستطع ملابس السجن القاسية ان تشوه وجهه الودود..
وكان هانس بالتس يعمل فى الـ (اس ـ اس)..
وكلما ازدادت معرفتى به وقربى منه، كلما ازداد عجبى وفزعى من ان يعمل مثل هذا الانسان غير العادى والذى كان دائما على اهبة الاستعداد لمساعدة الاخرين.. ان يعمل فى وحدة القتلة السفاحين..
وسألته يوما ما ذلك صراحة.. فاجابنى باسماً..
لم اذهب لاعمل فى الـ (اس ـ اس) لان أبادة الشعوب هى هوايتى..
وانما لاننى كنت شاباً غريراً متحمساً.. صدقت الدعاية الكاذبة التى زعمت لى اننى بعملى ذاك انما اخدم اشياء جيده..
وبعدها تابع حديثه قائلا..
أسمع يا كارلو.. دعنى أسالك انا عن شىء هام.. دخلتم انتم كشيوعيين الحرب لكى تحاربوا من اجل هذا الذى خلقه ستالين..؟
ولم احر جواباً..
وبالرغم من أن هانس كان طبيبا.. فقد كان من النادر جداً ان يقوم بعمل الطبيب فى المعسكر..
كيف يقف هذا المثقف على أرس الوحدة الثلاثية لكى يرص الجذوع الضخمة فى الكوم الكبير.. وخيل الى أحيانا ان ذلك العمل رغم خشونته وقسوته كان سهلا عند هذا المثقف أكثر من سهولته عند من ظلوا يعملون طوال حياتهم عملا جسمانياً شاقاً..
رجعنا الى المعسكر فى صف واحد..
خاف الحرس ان يفاجئهم احد بالجرى فى الظلمة.. وعوت الكلاب ونبحت.. وسب الحرس ببذاءة..
كنا نجرى فى الغابة مرهقين وجوعى.. فتعثر الكثيرون بجذوع الاشجار وسقطوا فى عمق الجليد..
ساعدنى هانس ولم يسمح لى بان اتخلف.. وبعد العشاء جاء الى العنبر لكى يتحدث معى..
حدثنى هانس عن سنين دراسته فى جامعة فينا..
وعن خطيبته التى كانت ممثلة فى المسرح..
ووعدته أن اخبرها عن مصيره اذا قدر لى الخروج دون ان يبتلعنى ظلام ستالين.
ويوماً عدت من العمل فوجدت مفاجأة..
كان هناك طرد ينتظرنى..

وحسبت ان هناك لبسا فى الامر فقد كتبت لزوجتى ان لا ترسل لى طرودا فانا لست فى حاجة لها ـ كنت اعلم ان ظروفها قاسية جدا..

سلمونى فى مكتب المعسكر الطرد..

كان به نصف كيلوجرام من العسل.. ومثلها من الدهن وخمسة اكياس صغيرة من الدخان «ماهورك»..

ونظر الى الضابط مشفقاً..

ولكنى كنت سعيداً للغاية.. فقد علمت المعنى الكبير للطرد..

ان صديقى جوزيف بيرقر مازال حيا..

كان يجب انن يطلق سراحه فى عام ١٩٥١م واتفقنا اذا ما تم ذلك ان يرسل لى من المنفى طرداً صغيراً.. وبذلك اعلم عنوانه.. لان الخطاب لن يسلم لى..

علمت الان انه نفى الى قرية كازاجنسك..

وجريت والطرد فى يدى الى عنبر هانس بالتس، لكى اقتسم معه فرحتى..

جلسنا واحتلفنا براس السنة، رغم اننا كنا فى مارس..

فقد ارسله جوزيف قبل راس السنة واستلمته انا الان لانى نقلت الى معسكر اخر شبعنا.. وذهبنا نتمشى، وعندها كشف لى هانس خطته للهرب.. ورغم انه كان انساناً واعياً الا ان خطته لم تكن ناضجة.. وكانت غير واقعية.. وجاهدت كثيراً لكى احول بينه وبين هذا الانتحار.

وبعد حديثنا بايام أعطيت اشارة الانذار فى المعسكر.. فأعيدت كل الواحدات الى المعسكر فى الحال..

كانت مجموعة مكونة من ستة عشر سجينا فى قسم من أقسام المعسكر المجاور قد حاولت الهرب..

كانوا يرصون جذوع الاشجار فى نهر جونا.. بعد العمل وضعوا الاخشاب على الشاحنة الخاصة بالمطعم.. والذين كانوا يشحنون الاخشاب حصلوا على طعام بسيط من رئيس المطعم.. وتذكر احدهم فجاة ان هذه الشحنة يمكن ان تكون أداة جيدة للهرب..

وكان خمسة عشر سجينا يعرفون الخطة..

وحدث ما ياتى.. جلس السائق فى المطعم يستدفىء..

وانهى السجناء عملهم فى الشحن.. ثم جلس احدهم على عجلة القيادة..

وتسلق الباقون الشاحنة

تحرك ستة عشر فقط من مجموعة السجناء.. وهم الذين كانوا على علم بالخطة..

ضغط السائق على البنزين وتحرك بالشاحنة نحو باب المعسكر الذى لم يتحمل الضغط.. ومن ابراج المراقبة انهال الرصاص كالمطر.. ووصلوا الى النهر المتجمد.. ففروا وفروا فى كل الجهات.. وعندما وصل الحرس الى الشاحنة وجدوا ان اربعة من الهاربين قد فارقوا الحياة متاثرين بجراح رصاص ابراج المراقبة..

ووجدوا ثلاثة كذلك مصابين بجروح خطيرة.. اما التسعة الذين تمكنوا من الهرب فقد

قبض على اربعة منهم.
ونمى الى علمي فيما بعد حوالى ١٩٥٣ ان احد الخمسة قبض عليه قرب نهر امور.. وحوكم مرة اخرى بخمسة وعشرين عاما في السجن.
بعد هذه الحادثة بداوا ينظمون ويعيدون ترتيب الوحدات ترتيبا جديدا وتم نقلى الى وحدة بافلون التى تضم مجموعة من السجناء لم يبق لها الكثير من مدة العقوبة.. اكثرهم بقى له عامان..
هذه الوحدة كانت تعمل في ورديات الليل فقط..
وكانوا يشحنون الاخشاب في عربات السكة الحديد والشاحنات..
ومنذ الليلة الاولى ادركت انني اذا اردت البقاء على قيد الحياة فينبغى على ان اهرب من هذه الوحدة فورا.
كنت قد اعتدت على الخوف.. والعسف.. القسوة.. وكل انواع اللؤم والشدة.. ولكن الذى رايته هنا كان فوق كل تصور..
كان بافلوف احد الذين يوصفون بانهم سباع.. وشعاره الدائم مع الاخرين هو.. «عش باى وسيلة كانت» حتى ولو تحطم الاخرون.. حتى ولو على انقاض وجثث الاخرين..
وكان بافلوف يفخر بانه وفي مدة الخمس عشرة عاماً التى قضاها بالمعسكرات لم يعمل عملا شاقا الا ليومين فقط.. وتنقل في وظيفة.. المدير.. رئيس العمال.. الحارس.. وعندما مرض يوماً أصبح ممرضاً.. ثم اكتشفوا انه والمخزنجى كانا يخلعان اسنان الموتى الذهبية ويقايضونها بالنقود والخمر.. وعدا ذلك ففان بافلوف تعاون مع الـ (ن.ك.ڨ.د.) والـ (مج ـ ب).. وحصل بذلك ودائما على عمل سهل.. وكانوا يحمونه لئلا يصاب باذى.. فتستروا على جريمة الاسنان الذهبية..
وكان في عام ١٩٣٧م قد حوكم تحت المادة ٨٥ ـ الفقرة ٧ و ٨ بخمس عشرة عاما في المعسكر.. وكان يؤكد بانه لم يرتكب جرماً سياسياً ابدا.. كل الخطا كان بسبب زوجته الجميلة والمنزل الجيد في لينجراد.. زوجته كانت تريد الطلاق.. ولكنها لم تستطع ان تحل مشكلة السكن..
نصحها عشيقها انذاك ان تشى ببافلوف للـ (ن.ك.ڨ.د.) بانه سب السلطة السوفيتية وستالين..
وذات ليلة ليلاء انتهت كل مشاكلها التى بقيت ساكنة لسنين طويلة في النقطة الميتة.. اعتقل بافلوف وشهدت ضده زوجته واحد الحرفيين في المصنع الذى كان يعمل به قال ذلك العامل.. انه عندما يخطىء بافلوف يلقبه «بقمل الكولخوز» ثم دخل الزوج الجديد الى منزل الزوج القديم الذى وشى به وحوكم بتهمة الثورة المضادة..

ولكن بعد فترة وصل الى بافلوف خطاب من زوجته ترجوه ان يسامحها ونعتت فيه عشيقها بلقب «ذلك الخنزير».. وذكرت انها طردته وهى الان في انتظار ان يعود لها زوجها الحبيب.. الاصيل.. الوحيد..

**** **** **** **** **** ****

وفي اليوم الاول معه..
كان علينا ان نقف صفا لنتحرك.. فصاح بنا..
ياعاهرات!! متى ستقفون صفاً..؟
ايتها الدببة هل انتهيتم..؟ افعل في امهاتكم..!
اصدقاؤه ومساعدوه كرروا كل مايقوله ورددوه.
وفي مكان العمل كانت تقف عربات السكة الحديد في انتظارنا لنحملها بالاخشاب ولكل عربة وضعوا رجلين او ثلاثة وكان ذلك يتوقف على مقياس قطر جذع الشجرة.. وكان جنديان يقفان امام العربة وهما يحملان بنادقهما..
وكانت الاضاءة ضعيفة جدا.. وعلى ذلك فان جذوع الاشجار المرصوصة على ارتفاع كبير كانت مصائد فئران حقيقية..
وكان على الرجال ان يعملوا الف حساب لخطواتهم والا سقطوا بين الفجوات او سحقتهم الاشجار الكبيرة الضخمة..
وعندما كنا نعمل كان رئيس العمال والحرس يصبون على رؤوسنا اشنع الفاظ السباب واكثرها بذاءة وفحشاً..
وتحمل القسط الوافر منها الذين لم يستطيعوا تحميل الصف الاخير في العربة فطلبوا عون زملائهم..
وعندما تحمل العربات كان يسمح لنا باشعال النار لنستدفىء قليلا ونحن ننتظر القاطرة والعربات الفارغة..
وفي العادة كان ذلك يستغرق نصف الساعة..
ويحدث في بعض المرات ان يكون خط المناورة مشغولا وعندها نحصل على ساعة او ساعتين من الراحة..
والرجال دائما متعبون ويسيطر النعاس علي عيونهم وحركاتهم.. وعملهم يتطلب تركيزا عاليا.. وتلك هي المفارقة.. وكلنا نعلم ذلك ولكن من يفكر كثيرا في العواقب وهو بهذه النفسية المرهقة والجسد الهالك.. وفكرت انا كثيرا في الموت..
بقي لي عامان وتنتهي مدة عقوبتي..
هل سيطلقون سراحي بعدها..
كنت اعلم بان السجين الطليق ينال حكما جديدا.. بعقوبة جديده.. واذا اطلقوا سراحي.. هل ستكون هذه حريتي..
على احسن الفروض سيرسلونني منفياً الى مكان ما.. قرية نائية ربما..
ماذا ينتظرني هناك..؟
هل تصلح الحياة بان يعيشها الانسان عبدا «لاشتراكية» ستالين..؟
وكلما فكرت وصلت الى نتيجة مفادها بان ذلك يمكن انهاؤه بالموت فقط.
وعندما اكون مستعدا للموت ينبعث من اعماقي صوت يقول..
ياكارلو لا تفقد شجاعتك.. عليك ان تعيش..

ومع تباشير الصباح الاولى تدحرجنا الى المعسكر.. وغالبا ماكنا نصل متاخرين لساعة او اكثر..
خلف باب الدخول ـ فى العادة ـ كان ينتظرنا المدير فيبلغه رئيس العمال بعدد العربات التى تم تحميلها.. فاذا كانت النتيجة مرضية صمت ولم يتكلم..
ولكن اذا كانت العربات المحملة قليلة العدد.. بدأ يصيح..
فاشست.. ايتها الحيوانات المتعفنة ساريكم.. غدا لن تحصلوا على الا ثلاثين ديكاجراما من الخبز فقط..
وكان سيادته دائما عند الوفاء بكلمته..
كان انسانا شريفا..!!
لذلك نحصل فى الغد على اكل العقوبة..
وبمجرد ان نخلع معاطفنا نجرى الى المطعم ليعطوننا ذلك الاكل القليل.
وبعدها نلقى باجسادنا الهالكة على الكتبات الصلبة..
وفى العادة كنا نغطى رؤوسنا بالمعاطف المحشوة حتى لا تزعجنا خطوات النوبتجى او ضوضاء الباب عندما يفتح.. وكنا ننام حوالى الخمس او الست ساعات، وهى كافية لراحتى..
ثم جاءت لحظة عدم الاحتمال..
شعرت باننى وصلت الى قمة انعطاق الارهاقي وبان كل طاقاتى توقفت وفى ذلك اليوم عندنا الى المعسكر فى الساعة الحادية عشر صباحا لاننا شحنا خمسة واربعين عربة..
فى تلك كان كثيرون من الذين اعفاهم رئيس العمال عند شحن العربة الاخيرة يتقدمون منهارين تماما..
فقد انكسر علمودان وانهار الخشب المرصوص ودفن اثنان من الرجال.. اما الثالث فقد قفز جانبا ونجا بنفسه، ومات احدهما فى الحال، والثانى كسرت رجله..
وجروا الميت والمكسور جانبا لان الحرس لم يريدوا حملها إلى المعسكر..
وكان المعدل الاحصائى للعمل هو الهدف المقدس الاسمى الذى يجب الوفاء به.
وفى نفس الليلة حدث شىء اخر..
عين رئيس العمال مكان المصابين اشخاصا اخرين.. فسقط احدهم الى الاعماق.. وكسرت عظمة «الترقوه» فى عنق الثانى..
وعندما عدنا صمت المدير..
فقد قمنا بتحميل خمسة واربعين عربة..
اوفينا بالمعدل الاحصائى للعمل الستالين.. ولم تكت ارواح الناس ذات قيمة او اهمية على الاطلاق..
وفى اثناء العمل كنت افكر بان هذه هى اخر مرة اودى فيها هذا العمل القاتل.. وليكن مايكون..
وماعلمت كيف ساتصرف..

كان واضحا بانى لن استطيع التصريح، بعدم رغبتى فى العمل فسينتهي بي المطاف الي (الكارسر)..
وكان يجب ان اجد مخرجا..
ومع ارهاقى الشديد فقد عز على عيونى ان تجد لها سبيلا الى النوم..
فبقيت قلقا افكر بعمق وباس. وساد العنبر سكون ابكم.. وعند الساعة الثانية ظهرا بدأ النوبتجي في نظافة العنبر بفرشة المطاط.
هل احاول ان اجد لى مكانا فى المطعم..؟ لم يكن ذلك سهلا..
يجب ان تكون لى واسطة الجا الى عونها.. ولكن لا اعرف احداً هنا..
فقلت لنفسى وذهبت الى المدير..
وعنـدما فتحت باب المكتب وقع نظرى على العقيد كوفاليق مدير المعسكر، كان يوجه حديثا صارما بكلمات قاسية للمحاسب..
ورايت ان اللحظة غير مناسبة، فترددت قليلا ثم استدرت أريد الخروج ولكنه كان قد لمحنى فصاح بى..
ماذا تريد..؟
وواجهته مستديرا نحوه..
من المحتمل جدا ان يكون شكلى مرعبا لذلك سالنى بعطف..
نعم.. تحدث.. ماذا تريد..؟
وكانت تلك البداية مشجعة فقلت له..
المواطن المدير انا واحد من وحدة بافلوف.. وانا..
ولكنه قاطعنى بحدة مدهشة..
واحد اخر من وحدة بافلوف..
هذا العمل صعب على جداً.. وانا منهك ضعيف..
من اين اجيء بالاقوياء..؟ اين هم..؟ كلهم يقولون انهم ضعفاء..
انا فى الحقيقة لا استطيع اكثر من هذا..
لا يوجد هنا عمل اخر..
وقلت له برجاء وخوف..
انا طاه.. ايمكن ايجاد عمل لى بالمطعم..
انت طاه..اه.. هنا يمكن عمل شيء.. ولكن ليس لدى رجالا يكفون للتحميل والشحن.. والسجناء من اصحاب الخمسة والعشرين عاما لا يمكن ارسالهم للعمل فى وردية الليل.
ارجو ان تعمل على تعيينى طاهيا.. مؤقتا حتى تتحسن صحتى وبعدها ساعمل فى الغابة..
اسمع.. حتى اول الشهر ستكون فى الشحن.. وبعدها ساوظفك فى المطعم..
وشكرته..
منحنى هذا الوعد قوة مضاعفة..

ولكني مع ذلك لم اهدا..
كان معنى ذلك ان انتظر مدة اسبوعين كاملين..
لا..لا.. هذا كثير.. انا احس باني لن احتمل..
ولكن ما هو المخرج..؟
وتبقى لى من وقت فراغي ثلاث ساعات فقط..
فاذا لم استطع فيها عمل شيء هلكت..
وماذا بعد..
وعندها تذكرت.. ان رئيس العمال بافلوف شخص مرتشي..
وقررت ان اعطيه خمسين روبلا، اذا اعفاني من العمل لمدة اسبوع..
كنت اعلم أن هناك احتمال كبير لان يقبل فهو يستطيع خصوصا والوحدة تعمل ليلاً ان يقول ـ لدى اكثر مما يعملون فعلاً
وقابلته في الساحة.. ولم يعرني ادنى اهتمام..
وبدات خطابه..
يارئيس العمال.. هل يمكنني التحدث معك لحظة..
ماذا تريد..؟
لم يتوقف.. وسددت عليه الطريق..
فلتذهب معي للعنبر.. هناك سنتحدث هنا الدنيا باردة..
قالها وهو يحاول أزاحتي من طريقه.. ولكني لاحقته قائلا..
اريدك في حديث خاص.. خاص جدا..
ونظر الى بافلوف باستغراب..
هية.. تحدث ماذا تريد..
سوف يطلق سراحك [illegible] وانا لدى خمسون روبلاً يمكن ان استغنى عنها لك.. سوف اعطيك تلك الروبلات [illegible] اعفيتنى من العمل لمدة اسبوع.. ها.. ماقولك..؟
ـ لا .. لا .. كيف تعتقد ذلك..؟ هذا غير ممكن..
ـ اعلم انـك لا تثق فيّ، فانت لا تعرفني جيدا.. ولكني قضيت بالمعسكرات ستة عشر عاما.. واعلم ما هو الممكن وغير الممكن .. ولن تخسر معي اذا جربتني..
ـ سوف افكر في ذلك.. تعال الي قبل العشاء.
وعرفت عندها اني كسبت الجولة الاولى ..
والآن كانت المشكلة هي كيفية اخراج الخمسين روبلا التي خطتها داخل ثنيات بنطالي، دون ان يلحظني بقية السجناء..
صعدت الي الكنبة وخلعت بالنطال.. وتحسست مكان النقود.. وبحذر شديد بدات افك الخيط، كان عليّ ان اتوقف مرات كثيرة لكل حركة من جيراني.. واخيرا نجحت..
واتى وقت العشاء.. وتـوجهت الوحـدة نحو المطعم .. ودخل رئيس العمال في آخر المجموعة ووقفت خلفه..

وكان ينتظرني.. لانه لم يفاجا..
ولم افتح فمي بكلمة.. او حتى احييه.
قال من بين اسنانه:
ـ يمكنك البقاء في العنبر..
ـ شكرا لك..
ـ ودسست النقود في يده..
ـ سوف نرى اي نوع من الناس انت..
ـ يمكنك ان تطمئن .. وقريبا ساعمل في المعطم ولن انسالك.
ـ ابحث عن طريق المطعم.. فهو عمل جيد..
بعـد مدة طويلة قيض لي ان ارتاح قليلا.. وكنت سعيدا مرة اخرى.. وبانتهاء فترة العشاء كان على ان اكون حذار حتي لا اثير الشبهات.. يجب ان يحمى الرجل الحق اصدقاءه.. ومن يتعامل معهم..ومع بساطة امرى وبانني يمكن ان ازعم اي شيء.. مثل اني كنت اعمل نهارا الا انني قررت البحث عن مكان في عنبر اخر.
واتجهت الي هانسي بالتس لكي يساعدني..
حكيت له امر اتفاقى مع رئيس العمال..
وسالته:
ـ اين استطيع ان احطرحالى؟
واقترح علىّ هانس ان اتى اليه وانام في الكنبة بينه وبين الالمانى الثانى..
وهكذا مر الاسبوع..
لم يكشفنى احد.
ومعين ذلك انه يتوجب علىّ ان اذهب الي العمل.. فنقودى قد نضبت.. وعملت جردا لحاجياتى التي كانت في الحقيبة اليابانية.. من المحتمل ان اجد شيئا يصلح اعطاؤه لبافالوف لكي يعفينى من العمل اياما اخرى..
كان لدي حذاء وقطعتان من الملابس..
وانتظرت الفرصة لكي اتحدث مع رئيس العمال في "عيون اربعة" .. وفي البداية لم يرد بافلوف ان يسمعنى .. ثم قال لى:
ـ نقودك اقتسمتها مع الحارس فقد لاحظ غيابك من اليوم الثانى.. وجادلته كثيرا.. وفي النهاية حصلت علي اسبوع آخر.. "اجازة" واخيرا اتى اليوم الذي طال انتظارى له..
ذهبت الي المكتب لاذكر المدير بوعده..
وفي اللحظة التي دخلت فيها وجدته هائجا يسب مجموعة من رؤساء العمال.. ويلومهم لان وحداتهم تعمل برداءة وسوء..
وانتظرت لحظة مواتية..
وتقدمت نحو المدير.. وذكرته بالامر..
وفكر طويلا.. ووقفت امامه خائفا متوترا بلا كلمة..

واخيرا تمتم بشيء.. وبصعوبة فهمت ان على ان ابحث عن رئيسي..
وبمحض الصدفة دخل بافلوف المكتب.. وساله المدير:
ـ بافلول.. هل هذا الرجل من رجالك؟
ـ نعم.. المواطن المدير: انه من وحدتى..
ـ كيف يعمل..؟
ـ جيدا .. جيدا جدا المواطن المدير.
ـ انه يريد ان يعمل في المعطم.. ماذا ترى؟ هل سيكون مفيدا هناك ام انه يريد ان يسرق؟؟
ـ انه عامل ذو ضمير وليس لصا..
ـ نعم.. نعم.. اعرف مثل هؤلاء القسس.. انهم اسوأ اللصوص..
ـ الرجال في الوحدة وقد كانوا معه في القسم الثانى من المعسكر يقولون انه طاه جيد جدا.. ويؤدى واجبه بضمير حى..
ـ جيد.. سنحاول معه.. دعن يعمل حتي الثالث من الشهر وبعدها سناخذه في المطعم..
وانهى حديثه عند ذلك.

ولما كنت متاكداً من اننى ساعمل طاهياً.. فلم يكن من الصعب على ان احصل على ثلاثة ايام اخرى «اجازة»..
وفى اليوم الثالث حضر الى المدير واخبرنى ان اذهب الى القسم الصحى لكى يفحصنى الدكتور (سجوك) بدقة، بحضور رئيس القسم..
وسالنى الطبيب..
ـ هل اصبت بمرض جنسى..؟.
ـ كلا..
وبعد انتهاء الفحص اخبرنى رئيس القسم الصحي بان لعمل فى المطعم بضمير وان انسى ان لى اصدقاء.. وقال انى لاقل هفوة سانال عقاباً صارماً.
وقدمت نفسى لرئيس المطعم واعطيته الوريقة التى حصلت عليها من رئيس القسم الصحى..
وكان رئيس المطعم من القفقاز.. ويتحدث الروسية بلهجة قفقازية.
سالنى عن اعمال الطبخ.. وعندما قلت له اننى استطيع طبخ (قائمة طعام) المعسكر من الذى تعلمته فى نورلسك قال لى..
ـ اخيراً يوجد من يتكلم الحقيقة.. الجميع كانوا يقولون أنهم عملوا فى ارقى مطاعم موسكو ولينجراد.
واستطعت ان احوذ على رضائه.. خاصة عندما علم اننى لست روسياً.. كان يتكلم الروسية بصعوبة شديدة.. حتى انه لم يلاحظ كيف اتحدثها انا نفسى بدرجة سيئة.
اتفقنا ان ابدا العمل معه منذ صباح الغد عند الثامنة صباحاً، فى وردية النهار ومن

المطعم ذهبت الى الصديق هانس بالتس لكى اخبره عن تطورات الموقف.
وعندما دخلت اليه فى العنبر لم يكن خبر تعيينى مفاجئاً له..
قال لى.
ـ اعلم كل شيء..
ـ اذن لا داعى لان اتحدث..؟.
ـ تلكم.. كيف تمت المسالة..؟ يهمنى ان اعرف..
فحدثته بالتفصيل..
منذ دخولى القسم الصحى الى حديثى مع رئيس المطعم القفقازى..
وحذرنى قائلا..
ـ ستواجهك صعاب جمة ان اردت سلوك نفس طريقتك القديمة فى مساعدة الآخرين والاجانب.. اما انا فلا تعطنى طعاماً اكثر من حقى فالجميع يعلمون اننا اصدقاء..
ـ اسمع.. افضل الرجوع للعمل كقاطع للاشجار فى العراء والبرد، على ان اعمل فى المطعم، ولا يسمح لى بمساعدة الذين لا يجدون من احد.
كان المطعم يقع فى عنبر طويل.. ويطبخ فيه لألفى شخص مرتين كل يوم.. ولم تكن به غرفة ملحقة لتجهيز وتوضيب العمل.. وعلى بعد امتار قليلة كان البدروم وبه عشرة من المعوقين يقومون باعداد الخضار للطبخ. وكان الماء يجلب من البئر الذى يبعد حوالى خمسين متراً..
وعمل الطبخ فى العادة يقوم به طاهيان يعملان بالنهار.. ومثلهما بالليل. ساعدهما اثنان فى وردية.
ادوات المطعم كانت قليلة ولا تكفى.. ثلاثة قدور كبيرة وموقد كبير.. ولم تكن هذه الادوات كافية لاعداد طعام جيد.. ولا حتى من النوع السهل البسيط وكان هناك طعام خاص الاعداد لخمسين مريضاً..
لم تكن بالمطعم انظمة للتهوية.. كانت القاعة تمتلىء بالبخار الشديد، خاصة عندما كنا نطبخ فى وقت واحد وعلى قدور عديدة.
وكالعادة فى كل المعسكرات.. كان طعام السجناء يتكون من الحساء والعصيدة. واما جائزة الذين يوفون بالمعدل الاحصائى للعمل فهى حصولهم على قطعة من السمك المملوح.. وعلى خمس ديكاجرامات من اللحم المملوح احياناً. فى اليوم الاول.. وبعد ان عدت الى العنبر من العمل فى المطعم سالت نفسى ـ ترى ايهما احسن.. العمل فى الغابة ام فى المطعم..؟.
لو علمت فقط انهم لن يرسلونى ليلا للشحن فى الغابة ولكن لقطع الشجر بالنهار.. لتحركت غداً للعمل فى الغابة.
بعد عدة ايام صار العمل بالنسبة لى سهلا، فقد تعرفت جيداً على كل ظروف المطعم.
فى اليومين الاولين سلك بلدياتى سلوكاً ممتازاً ـ والفضل يرجع لهانس الذى طلب منهم عدم مضايقتى طلباً للمساعدة.. ولم يهاجمونى كما كنت اتوقع للحصول على مزيد من

الطعام.

ولكن سرعان ما نبع الضغط وتدفق تياره.

قليلون منهم كانوا لا يبحثون عن الطعام.. ولكن البقية كانت جائعة مسعورة وقد اعطيتهم ما استطعت.

حساء.. عصيدة.. قطعة من السمك.. وهكذا..

كانوا يدورون حول المطعم يبتغون فرصة سانحة يتحدثون فيها الىّ متوسلين جائعين.

ولم يكن فى مستطاعى الذهاب الى دورة المياه، دون ان يوقفنى أحد يسأل اكلا.

الذين اعطيتهم شكرونى.. ومن لم استطع اعطائهم شيئا سبونى ولعنونى.

فى زنزانة الحبس التأديبية - كارسر

ومرت ثلاثة أسابيع..

وفى أحدى الأمسيات عدت الى العنبر.. وصعدت على الكنبة التمس راحة من عناء يوم حافل كثير العمل.

دخل الحارس فجاة وامرنى أن اتبعه.

وطعتــه بدون نقاش..وفى الطريق سالت نفسى.. عن سبب استدعائى المفاجىء.ربما يكون المدير فى حاجة الى ان اوضح له شيئاً..

او ربما وشى بى شخص ما..

فتح الحارس بمفتاح معه الحاجز الذى يقود الى زنزانة الحبس التاديبية..

وقفت متردداً.. ولكن استحثنى قائلا..

- تعال.. تعال..

وتحركت خلفه فى الفناء.. وبعدها الى زنزانة الحبس التاديبية - كاسر..

قادتنا الدرجات المنحدرة الى قاعة باهتة الضوء.

اخرج الحارس من جيبه ورقة، ومدها لى لكى اقرا ما هو مكتوب فيها..

«ادارة المعسكر على علم تام بان السجين كارلو شتاينر الذى يعمل طاهياً قد قام باطعام عصابة الاجانب.. ولمخالفته قانون المعسكريحاكم شتاينر بخمسة ايام سجناً فى زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية - كارسر-».

وكان التوقيع على هذا الحكم هو توقيع العقيد كوفاليف مدير ادارة المعسكر القيم ٥٠...

ولم اقل شيئاً.

فتح الحارس احدى الزنزانات الاربع..

كان فيها كنبة جلس عليها شخصان.. لم استطيع معرفتهما فى الظلام. وعندما تحدثت اليهما عدة كلمات تبين لى ان احدهما كورى والآخر روسى..

كنت متعباً جداً. ورقدت على الكنبة الصلبة.. و غرقت فى النوم فوراً..

وعند منتصف الليل صحوت.. كان جسدى متصلباً من البرد والصقيع.

وقمت اتمشى هنا وهناك فى الممر الضيق..

محاولة يائسة لجلب الدفء.. لم تحقق نجاحاً بالمرة.. كانت رياح اكتوبر القاسية تهب بكل عنفها وجبروتها.. فيستحيل معها الدفء بتلك الطرق ولم يستطيع رفيقاى النوم..

جعلا يتمشيان كما افعل.. فى ذلك الممر.. الواحد خلف الآخر.

وجاء الصبح..

من خلال النافذة الصغيرة المسورة بالقضبان تسرب الضوء الى حجرتنا.. ورأينا ما احضر لنا من طعام..

ثلاثين ديكاجرام من الخبز وانا به ماء ساخن..

بالطبع ذلك هوو الطعام فى (الكارسر).. وهذه هى وجبة كل يوم. وقبل الظهر لم نقاد الى العمل.
جاءنا الحارس فى الساعة الثانية بعد الظهر واخرجنا امام الثكنات.
قمنا بحفر حفرة عميقة لاعمدة الكهرباء..
وعند الثامنة مساء اعادونا الى مرة اخرى للجحر.
وفجاة سمعنا طرقاً خفيفاً على النافذة..
نهض الكورى من الكنبة وقبض على قضبان النافذة مقترباً من الفتحة..
وسمع من يقول..
ـ هل كارلو شتاينر..؟.
جررت الكورى من قدميه منفعلا وتسلقت..
ـ هل انت كارلو..؟.
تعرفت على صوت هانس يقول.
ـ كيف يمكننى ان اعطيك خبزاً..؟.
ورغم انه كان يهمس الا ان الكورى سمعه.. فصاح قائلا..
ـ اكسر الزجاج..
وسمع صوت كسر الزجاج واندفع فى الزنزانة تيار الهواء البارد..
وبصعوبة استطاع هانس ان يدخل قطعاً صغيرة من الخبز..
وعندما كنت اتحدث معه التهم الكورى قطع الخبز..
ونزلت سريعاً لنقتسم الخبز.
اعطيت الروسى قطعة كبيرة فاحتج الكورى..
ولكن الروسى ذكره بانه اكل قطعة اكبر منها قبل قليل.
وكنت ممتناً شاكراً لهانس صداقته واخاءه وجراته.. فقد اقتحم الخطر منذ اليوم الاول وتعدى صفوفاً كثيرة من الاسلاك الشائكة.
وعندما قلت للكورى اننى لم اتبين من يساعدنا للظلمة الحالكة قال لى بصفاقة شديدة..
ـ انا اعرف من كان هناك.. انه ذلك الطبيب الالمانى.. صديقك واجابه الروسى نيابة عنى..
ـ التهمت الخبز فماذا تريد اكثر..؟.
فى اليوم التالى جاء هانس مرة اخرى..
فصعدت الى النافذة واخرجت الخرقة التى سددت بها فتحة الزجاج المكسورة..
وتدفق الخبز ومعه قطعة من السكر..
وقسمنا الوليمة الى ثلاثة اجزاء.. متساوية تماماً..
وكنت قلقاً على هانس.. فمن اين له هذا الخبز وهو لا يملك ما يكفيه.
وفى اليوم التالى عندما ذهبنا للعمل لاحظت ان الكورى وقف ليتحدث مع الحارس..
وفى الحال عرفت انه يبلغ عن هانس وعنى.. وقال الروسى..

ـ وشى بك الكورى لاجل الخبز..
ـ لقد نال نصيبه..
ـ نعم ولكن مع امثال هؤلاء الناس.. لست فى أمان..
ـ كنت افهم موقفه لو اكلت الخبز مفردى وتركتكما..
ـ بعض الناس تجرى الخيانة فى دمه..!!.
وعندما عدنا بعد العمل الى الزنزانة نظر الحارس صوب النافذة وقال..
ـ من الذى كسر الزجاج..؟.
أجابه الروسى قائلا..
ـ عندما جئنا الى هنا كان الزجاج مكسوراً من قبل ونحن سددنا بالخرق..
وصمت الحارس..وخرج من الزنزانة.
وكنت سعيداً لان الامر انتهى بسلام.
اليوم الرابع كان يوم سبت..
اخرجونى من الكاسر. وقال لى الحارس انه يقودنى لضابط ال (م.ج. ب).
واستغربت جداً..
خيل لى ان عملى بالمطعم لا يمكن ان يؤدى بى لمثل هذا التحقيق عند ضابط امن الدولة.
ولكن لا يهم ساجد بعض الدفء هناك.. وكان ذلك هو اقصى ما اريد، فى تلك اللحظة.
والى غرفة بجانب غرفة المدير قادنى الحارس.
كان ضابط ال (م. ج. ب) يجلس قرب الآلة الكاتبة وهو يرتدى زياً يختلف عن زى ال ن. ك.ق.د فى شىء واحد هو علامات الكتف الحمراء القانية.
وعندما دخلت ابتسم الضابط وكانه يلقى احد اصدقائه القدامى.. ولم اجد تفسيراً لذلك.. فنظرت اليه غير مكترث لما يبدو عليه.
ـ كيف تشعر الآن..؟.
ولم يكن السؤال جديداً.. فقد تعلمنا من التجربة انه وحين يريد احد ضباط ال ن. ك. ق. د و(م. ج. ب) ان يعبر عن تعاطفه مع السجين يوجه له ذلك السؤال.. وبهذه الصيغة.
ـ لست اشعر اننى بخير على وجه العموم..
ـ كيف ذلك..؟ تعمل بالمطعم وتشكو سوء الحال..؟ ـ اولا.. لا اعمل بالمطعم.. بل اجلس فى (الكارسر) ثانياً العمل فى المطعم اقل سوءاً بدرجة طفيفة..
ـ لماذا انت فى الكارسر..؟.
ـ لانى اعطيت بعض بلدياتى قليلا من الحساء.
ـ سوف آمر باطلاق سراحك من الكارسر.
ـ لن يكون هذا ضروريا، لان غداً هو اليوم الخامس وسيطلق سراحى فيه.
ونهض الضابط.. واشعل سجارة.. واخذ يتمشى فى الغرفة وعندما وصل فى تدخينه الى منتصف السجارة سالنى.
ـ هل تريد واحدة..؟.

ـ لا.. شكراً.. انا لا ادخن.

وتابعت عيناى الضابط وهو يتمشى فى الحجرة.. جلست ساكناً بلا حراك.. افكر.. ماذا يعدون لى هذه المرة..؟.
كنت اعتقد اننى اعرف واتعامل مع نوعين من انواع سلطة القمع من جهاز بولس ستالين.. ال ن. ك. ڤ. د وال (م. ق. د).. ولكن الآن ادركت انه يتوجب على ان اتعرف على النوع الثالث ايضاً.
ضابط ال (م. ج. ب) كان متوسط الطول.. عريض المنكبين.. مستدير الوجه.. اشقر الشعر.. وعلامات كتفيه تنبىء بانه فى رتبة الرائد.
واخيراً جلس الرائد.. اتكا براسه على يده اليمنى وسالنى..
ـ الك مدة طويلة فى هذا المعسكر..؟.
ـ شهران بالتقريب..
ـ كنت فى المعسكر رقم ٣٣..
ـ نعم..
ـ انا اعرفك.. واعلم انك كنت فى المعسكر رقم ٣٣..
ـ تقول انك تعرفنى..؟ انا اراك لاول مرة.
قلت ذلك ونظرت اليه باستغراب..
ـ اعلم عنك الكثير..
واعتدل الرائد فى جلسته واستمر يقول..
ـ من الذى حضر معك من المعسكر رقم ٣٣ الى هنا..؟.
ـ اعرف عدد قليلا من المئات الذين جاءوا الى هنا..
ـ اذكر اسماؤهم..
قلت له اسمين.. او ثلاثة طافوا بخاطرى لحظتها..
ـ من هو صديقك فى المعسكر رقم ٣٣؟.
ـ فى المعسكر رقم ٣٣ لم يكن لى اصدقاء.. صديقى الوحيد هو جوزيف بيرقر ولكنه رحل..
ـ كاب.. وستيف.. الم يكونا اصدقاء لك..
ـ الواقع عكس ذلك.. لقد كانا من اعدائى..
وفوجىء الرائد..
ـ كيف ذلك..؟.
ـ لم اكن ارغب ان تكون لى اى صلة بالمغامرين..
ـ معروف لدينا.. انهم يحملون نفس افكارك..
ـ من اخبركم بهذا مخطىء كالعادة.. دائماً ينقلون لكم عكس الصواب.. انا اؤكد لك انه لا شىء يجمعنى بهؤلاء المغامرين..
ـ حسناً.. سنتحدث فى ذلك غداً.. اليوم انا مرتبط
وصرفنى الرائد.

وذهبت الى العنبر.. وقررت ان لا اذهب للكارسر الا في المساء.. متوقعاً ان يجهل الحارس وقت انتهاء الاستجواب.

صعدت الى الكنبة افكر في هدوء شديد.. ما معنى ذلك..؟ هذا هو التحقيق الثالث.

اذكر انه قد بقي لى ثلاث سنوات من عقوبتي الاولى عندما اضاف لى فورهوف عشر سنوات اخرى.. والآن بقى لى ستة عشر شهراً..

والامور واضحة..

لن استطيع الفكاك من مخالب ال ن. ك. ڤ. د/ وال (م. ق. د) وال (م. ج. ب)..

هل من الممكن ان (يضيفونني) الى مجموعة كاب وستيف وجرنيافسك..؟.

وهكذا ينتهون مني اخيراً..؟.

ورقدت لعدة ساعات.. لم احس بالجوع او النعاس.. ولا حوجة لى باى واحد منهما..

رغم انني لم اذق شيئاً دافئاً ولا نوماً لمدة اربعة يام.

انا منهك.. مرهق.. متعب.. ولست ابالى.

ليكن ما يكون..

لا املك قوة لاغير بها شيئاً مما يجرى لى.

ونزلت من الكنبة.. اردت الذهاب لهانس.. ثم تذكرت ان الوقت مبكر.. ولن يكون قد عاد من العمل بعد.

وفجاة شعرت بالجوع.. وتوجهت نحو المطعم.. وصادفني الحارس..

سالني ان كان التحقيق قد انتهى.. وعندما اجبت بالاجاب لم يرد ان يقودني فوراً..

سمح لى ان آكل غداءاً وافراً أعطاني اياه اصدقائي في المطعم..

وبعد ذلك قادني الى الكارسر.

واهتم الروسى والكورى بمعرفة اين كنت.

وعندما لاحظا انى لا اريد ان اجيب عليهما تركاني لحالى..

وجلست افكر.. وفجاة طاف بذهني ان بعض اصدقائي كانوا قد اخبروني ان (م. ج. ب) حقق معهم في المعسكر رقم ٣٣ ـ وطلب منهم ان يعطوا معلومات عن اعدادى لثورة مسلحة.. وقد ظننت وقتها انهم اختلقوا ذلك ليحصلوا مني على طعام زيادة.

انهم اذن يبحثون عن شهود اثبات ضدى.. ومثل اولئك الشهود عندما يكون الباحث عنهم هو ال (م. ج. ب) فسيجدهم بالتاكيد.

والمثل الروسى يقول:

«بيلا بى قولوقا ـ هوموت نايدستا».

«اذا كانت هناك رقبة فسيوجد اللحم»...

وفي يوم الاحد انقضت فترة العقوبة.. في الكارسر.

وفي الساعة التاسعة صباحاً حضر الحارس واطلق سراحي، رغم ان العقوبة تنتهى في الساعة التاسعة مساء.. وحذرني الحارس من الخروج للفناء فمن المحتمل ان يراني احد، ويلاحظ ان سراحى قد اطلق مبكراً.

وفي الحال ذهبت الى هانس الذى سر جداً ،لانقضاء تلك الفترة العصيبة..
ومضى هنـا وهناك يبحث لى عن قليل من الخبز.. واستطعت ان اثنيه عن عزمه ذاك بعدتعب شديد.. ولم يصدق انى بالامس تناولت طعاماً جيداً في المطعم.
وتحدثنا عن المكان الذى سيرسلونني للعمل فيه..
ووصلنا الى نتيجة انه سيكون بانتظارى اشق الاعمال..
شحن عربات السكة الحديد في وردية الليل.
ولم احدثه عن التحقيق.
اولا.. يجب على ان ا بحث عن ملابس ثقيلة وعن حذاء الجليد..
فقد اخذوا منى كل هذه الاشياء واعطوني بدلا منها بنطالا ضيفياً وحذاءاً للعمل في المطعم.
وذهبت الى امين المخازن ارجو ان يوفر لى طلباتي..
ولكنه ذكر لى ان المدير لم يعطه تعليمات بارسالى للعمل في الغابة..
وسمعت صوت الجـرس.. ولم اعلم او اخبـر بالوحدة التى سانتمى اليها.. وجريت للحارس اسال..
فاجابني مرة اخرى.
ـ انتظر في العنبر..
واصبح العنبر خالياً بعد انصراف الجميع للعمل.. وحين وصلت المراقبة والتفتيش اجاب النوبتجي..
ـ المواطن المدير.. ان الوحدة المكونة من ٤٢ رجلا ذهبت كلها كاملة لاماكن عملها..
ومن الباب القى مدير القسم العملى نظرة على العنبر..
ثم استدار منصرفاً هو ومساعدوه..
لم يلاحظونني..
حتى النوبتجي نسى اننى رقد على الكنبة..
ومرت ساعة من الوقت.. دخل الحارس وسأل النوبتجي عن مكاني.. وعندما تذكر انى بالعنبر.. وارقد على الكنبة.. ايقظنى بان جرنى من قدمى..وقال لى..
ـ الى المدير..
ونزلت من الكنبة..واتجهت الى مكتب المدير.
وعندما طرقت الباب سمعت صوت كوفاليف العميق يقول..
ـ ادخل..
وبقى الحارس بالخارج.. وحال دخولى طفق كوفاليف يمسحنى بنظراته الفاحصة من راسى الى اخمص قدمى.. ووقفت بلا حراك.. فسالنى..
ـ أها.. ماذا..؟.
وصمت.. فسالنى مجدد..
ـ هل كان صواباً حبسى لك في الكارسر..؟.

ولم اجب ايضاً..
وبدا يفقد صبره..
ـهل بلعت لسانك..؟.
ـمن وجهة نظرك. تصرفك صواب..
ـ آه.. من جهة نظرى.. ومن وجهة نظرك انت لا..؟.

على الرغم من انك وزعت الاكل على اصدقائك ملء كفيك وطاقيتك.. وكان ذاك خصماً من حقوق كل السجناء..؟.
ـ المواطن المدير.. ان ما قسمته هو الذى تبقى فى القدر، بعد ان حصل الجميع على طعامهم.
ـ لا يجوز لاحد ان يحصل على جرام واحد، زائداً على استحقاقه. لان الذى تفعله يمنع عمال الغابة من الوفاء بمعدلات الانتاج المقررة.. فلماذا ينتجون ـ وللطاهى ام طيبة، وهو يعطيهم ما لا يعطيه المدير..
وصمت.. كنت اعرف ان كل المديرين على حق.. ولا احد منهم يقبل ان يعارضه سجين.
قال لى بعد ذلك.
ـ عد الى عملك.. والويل لكل اذا زدت احداً ما ملعقة من الحساء..
وفوجىء رئيس المطعم بعودتى للعمل من الحبس.. ولكنه كان مسروراً جداً.. وعند تقسيم العشاء وقفت مرة اخرى امام نافذة المطعم.
نظرو الىّ...
كانوا مذهولين وكانى هبطت من السماء..
وفى العشاء قابلت هانس ايضاً..
قالى لى..
ـ من النادر ان يعود احد من الكاسر للعمل فى المطعم..!.
ـ هذا يعنى انهم يقدرونى جداً كعامل.

للمرة الثالثة فى سجن التحقيق

ومرت ايام اربعة..

وفى ظهر اليوم الخامس دخل المدير المطعم.. وقال لى..

اعطنى اكلا واذهب للعنبر.. ستنقل للقسم رقم ٢٥ ـ

فى البداية حسبت انه يمزح.. ونظرت اليه متسائلا..

ـ نعم.. نعم.. انا اتكلم جادا.. سوف تذهب للمحطة المحطة المرحلية.

ومن حديثه ذاك علمت ان القسم رقم ٢٥ هو محطة مرحلية.. «اوزرلاق..» وكان يشغلنى هاجس ملح هو ان اودع صديقى الوحيد هنا.. ولكن هانس كان فى موقع العمل ولن يعود قبل الساعة الثامنة مساء.. وشاءت الصدفة ان يتاخر الحرس الموكول به مرافقتى للمحطة.. وهكذا استطعت ان اجد هانس.

حكيت له امر التحقيق.. وذكر لى ان المرجح هو ذهابى للسجن.

وكان الوداع مؤثرا وكاننا اصدقاء عمر قديم.. ولم اره بعدها ابدا.. ولكنى سمعت فى عام ١٩٥٥ من احد القادمين من تايشت بان الـ (م ج ب) سلم هانس ومجموعة من مواطنيه الرومانيين للسلطات الرومانية.

وعند التاسعة مساء رافقنى جنديان للكيلو ١٢٩.. وهو المكان الذى يقف عنده قطار الركاب المنتظم من «لينا» ومن هناك الى تايشت.

كانت الليلة باردة.. والسماء صافية مزدانة بالنجوم.. وكان القمر كذلك مضيئا وكانه اراد ان ينير لنا الطريق فى الغابة المظلمة.

ومشينا نحو محطة السكة الحديد.

وسار احد الجنديين امامى والاخر خلفى.

ولما كان ميعاد تحرك القطار بعيدا ولم يحن بعد.. فقد سمحوا لى بان ارتاح فى الطريق عدة مرات.. وان اخلع الحقيبة من على ظهرى.. وعندما وصلنا كانت الساعة تشير الى العاشرة والنصف.

وجلست على الحقيبة امام مبنى السكة الحديد فى انتظار القطار وتمشى الجنود امامى.. كانوا يدخنون ويستدفئون.

وقبل الحادية عشرة بدقائق وصل جنديان آخران مع سجين من المعسكر رقم ٣٣. وحيا الجنود بعضهم بعضا وسمحوا للسجين ان يجلس قربى.. وكان السجين هو دكتور دولكن.. نفس الطبيب الذى كشف على عند حضورى لسجن الكسندروفسك المركزى والذى اعطانى الدرجة الثالثة للعمل.

حييته.. فقال لى انهم يقودونه للمعسكر رقم ٢٥ ـ

وصل قطارنا متاخرا لمدة اربعين دقيقة.

وادخلونا الزنزانة المتحركة «السجن على عجلات..».

استلمنا مع اوراقنا ضابط.. وهو يقول..

- ادخلوا.
وصلنا مبكرا الى محطة تايشت.
وهناك قابلنا الجنود بشتائمهم وسبابهم المعهود..
وطلبوا منا دون مبرر ان نسرع..
وعند باب المدخل كان بامكاننا ان نلاحظ التغيير الذى طرا على المكان فى مدة السنتين.
كان البـاب ضخما.. وامامه صفان من المتاريس المضادة للدبابات والتى دفنت فى باطن الارض.
وكـانت العـربات تستطيع الدخول للمعسكر اذا مالت قليلا على احدى جنبيها..
ورابنا سياجا طويلا ارتفاعه ستة امتار.. وفى كل مكان آخر كان الجنود يتحركون وعلى ايديهم المدافع الاتوماتيكية.
كانت مجمـوعتنـا مكونة من مائة وعشرين سجينا تم استلامنا بواسطة عدد من الضباط ومجموعة كبيرة من الحرس.. وقد اخذت عملية الاستلام وقتا قصيرا نسبيا..
وكان يقف فى الجانب الاخر بوليس المعسكر، الذى بدأ افراده فورا فى تفتيش حاجياتنا.
قاموا اول شىء بفصلى وفصل دكتور ديكلن عن بقية السجناء. وتم اسكان الباقين فى العنبر الرابع..
اما نحن الاثنان فقد اقتادونا الى عنبر كان به فقط السجناء الذى اثاروا اهتمام قسم التحقيقات.
لم استـطع ان اعـرف المحطة المرحلية (اوزرلاق) جيدا، فقد تغيرت كثيرا.. كانت الحيوية تسود هذا المكان يوما ما وكان السجناء يتجولون بحرية بين العنابر.. حتى عنبر النساء الذى كان يحرسه جنديان معوقان وكان معزولا بالسلك الشائك.. تم نقله الان الى مكان آخر محاط بسور عال من الاخشاب.. مضت الايام التى رقصت فيها النساء مع الرجال.. ويكفى اليوم ان يقترب السجين من قسم النساء حتى يحاكم بخمسة ايام فى الكارسر..
قابلت كثيرا من المعارف الذين حضروا من معسكرات مختلفة وانتظروا لكى ينادى عليهم كشهود او كمتهمين..
وتعرفت على هاينز قويرزا الذى هرب مع والديه الى سويسرا عند مجىء النازيين وعاش حتى بداية الحرب فى اكس - لس - باينس.. وبعدها تطوع بالجيش الفرنسى وابلى بلاءا حسنا نال به نيشانا كبيرا فى الشجاعة.
ثم نقل بعد الحرب الى الوحدة الفرنسية بالنمسا.
وفى عام ١٩٤٧ اختطفه الروس الى موسكو وحوكم بتهمة التجسس لصالح فرنسا..
وكان نصيبه خمسة وعشرين عاما فى المعسكر.
وهم يحققون معه الان ويطلبون منه ان يلقى تهمة التجسس لصالح فرنسا على

عاتق الاخرين.

النمساوى الاخر كان شابا يدعى شتايرسك..

حكم عليه الروس بتهمة العضوية السابقة فى شبيبة هتلر، بعشر سنوات سجنا فى المعسكر.. وهم يحققون معه الان بتهمة اكتشاف «جمعية للثورة» فى معسكر دوك.

وفى نفس الوقت وصلت مجموعات عديدة من الالمان يماثلون العملاء الامريكيين الذى القى عليهم القبض فى القطاع الشرقى..

وكان جزاء كل منهم خمسة وعشرين عاما فى المعسكر.

وكانوا جميعا لا يابهون للامر ولا ياخذون مسالة الخمسة والعشرين عاما هذه ماخذ الجد.. كانوا يأملون ان تحررهم القوات الامريكية فى ظرف شهر او شهرين.. وكانوا لايفتاون يذكرون اسم فوستر دالاس ويضعون عليه آمالا كبيرة..

وعندما سمعوا منى اننى انتظر منذ ستة عشر عاما الافراج عنى دون جدوى.. هزوا رؤوسهم فزعا.. وسالونى بشك:

هل هذه هى الحقيقة.. ام اننى اختلق ذلك لكى ابدو مهما..؟

بعد اسبوع من وصولى الى تايشت استدعونى للتحقيق.. فى مبنى الادارة بالمحطة المرحلية.

كانت هناك غرفة جلس فيها ضابط الـ (م ج ب)..

استمر التحقيق لمدة ساعتين..

سالونى نفس الاسئلة التى وجهت لى فى المعسكر رقم ٣٠..

استجوبنى الرائد ياكوفليف.

وفى النهاية حذرنى لكى اكون معقولا، لان (م ج ب) على علم بكل شىء.

ومرت ايام عديدة.

ثم استدعونى مرة اخرى..

ودعت اصدقائى القدامى والجدد واتجهت نحو باب الخروج.

وكان فى انتظارى الرائد ياكوفليق على عربة جيب وبها ضابط آخر والسائق.

واخذت العربة الجيب تقفز فى الطريق الوعر..

سرنا من آخر حدود تايشت حيث تقع المعسكرات الكبيرة الى النهاية الثانية حيث تقف مبانى الـ (م ج ب) -وزارة امن الدولة- والـ (م ف د) -وزارة الداخلية الروسية.

وامام الحاجز الذى يفصل العربات من خط السكة الحديد، وبين تايشت، كان علينا ان نتوقف ليمر قطار بكين - موسكو السريع.. وعندما وصلنا الى المنطقة السكنية وقف الجيب فى الساحة الخلفية الكبيرة..

نزل الرائد ياكوفليق و معه الضابط الاخر وبقيت انا والسائق فى العربة.. وبعد عشر دقائق اخرجت من العربة.. ومررنا امام الحرس عند دخولنا ثم قادونى فى ممر طويل، ارضيته مكسوة ببساط سميك.. وتفتح فى هذا الممر ابواب بيضاء من الجانبين.

وجلست فى الممر على حقيبتى وانتظرت.

كان الضباط يدخلون ويخرجون.. ولاحظت بينهم عددا من النساء. وفجاة خرجت امراة من احدى الغرف وهي تبكي.

وامرني الحارس ان ادير وجهي للجدار حتى لا اراها.

سمعت نحيبا فقط. ثم جملة واحدة تتردد بلوعة وحزن..

ـ يا الهي.. يا الهي..

ثم مر شخص آخر في ملابس المعسكر.. ومرة اخرى كان على ان ادير وجهي للحائط.

وجاءت فتاتان ترتديان تاييرات سوداء ومرايل بيضاء وتحملان الشاى والسندوتشات واحسست بجوع هائل.

وبعد انتظار ممض طويل استدعاني الرائد ياكوفليق.

اردت ان احمل حقيبتي ولكنه اشار الى بتركها.. ففعلت.

في الغرفة، كانت هناك منضدتان.. بالقرب من احداهما جلس رجل في زى الـ (م ج ب) بدون رتبة عسكرية.

ومن الطريقة المهذبة الخاضعة التي كان يخاطبه بها ياكوفليق علمت انه المسئول.

واجلسوني على الكرسى.. كنت انتظر الاسئلة المعتادة... مثل...

ـ كيف تحس الان..؟

ولكن بدلا عن ذلك سألني..

ـ الا تريد حريتك..؟

ـ ومن الذى لايتوق الى الحرية..؟

ـ اذن لماذا ترغمنا على ان نفتح معك تحقيقا للمرة الثالثة..؟

ـ في الاول كنت استغرب فعلا حدوث ذلك، اما الان فانا قد تعودت عليه.

ـ جميل انك تعودت.. ولكن هل تعلم ان النهاية قد تكون مؤلمة..؟

واجبت في صوت اعلى من المعدل العادى..

يكون ذلك احسن.. لانني سارتاح..

نعم.. ارى انك لاتقدر الحياة..

اى حياة تظن هذه التي احياها الان..؟ هذه ليست حياة.

بهذه الطريقة لن نصل الى شيء ابدا.. يجب عليك ان تساعدنا في انهاء هذا التحقيق.

ماذا لديكم ضدى..؟ انا لا اشعر انني قد اخطات في اى شيء..!

كنت محاطا بعصابة من العملاء الامريكان.. الذين كانوا يعدون لانتفاضة..

علينا ان نصفي اوكار التجسس هذه.. فاذا كان لايربطك شيء بهؤلاء العملاء.. عليك اذن ان تساعدنا لكى نعدمهم..

تكذبون على انفسكم اذا اعتقدتم انني استطيع مساعدتكم في كل الاوقات كنت اتجنب اولئك الناس.. ولم اكن ارد على تحياتهم.. حتى..

ـ عليك ان تفكر.. في ذلك.. لديك متسع من الوقت..

ماذا ستفعلون بي..؟

ـ انا مضطر لان ابقيك في السجن..

ورفع سماعة التلفون.. ثم اخذ يتحدث مع شخص ما.

وجاء احد الضباط واخرجني من الغرفة..

سرت خلفه الى عربة الجيب.. فجلس الى جانب زميله الضابط..

وعلمت فيما بعد انه كان مدير السجن.

ومن البعد لمحت بناءا خشبيا ذا ابراج للمراقبة، التي تزين كل مكان في سيبيريا.؟

وفي الفناء كان السجناء يقطعون الخشب.. وحين دخلنا اداروا لنا ظهورهم.

كان بناء السجن شبيها ببناء سجن نورلسك. طبق الاصل.

وكانما بنى السجنان بخريطة واحدة.

كان علي ان اخلع ملابسي واتعرى حتى يفتشون ثيابي.

في الزنزانة لم يسمحوا لي بحمل اى شيء..

حتى الغطاء ممنوع.

سرت خلف الحارس الذى قادني الى الزنزانة.. وكان بها اربعة اشخاص.

لم تمر نصف ساعة، حتى علمت من هم. وما هي اسماؤهم.. ولماذا يقبعون في سجن التحقيقات..

احدهم اخبرني انه سمع عني في المعسكر.

ولم يسرني ذلك على الاطلاق.

اوزبك عبدالله لفت الانظار اليه من البداية بسلوكه المتعمد الغريب.

المجرى البارون سيلازى تحدث بلسان مجرى المانى.. وعندما دخلت الزنزانة اراد ان يتحدث بالالمانية فقط.. ولكني حذرته بان ذلك ليس عدلا لان هذه اللغة يتحدثها عبدالله.

اما الاثنان الاخران، فكانا من المجرمين الروس.

كان اوزبك عبدالله في بداة الحرب راعيا في جبال ازبكستان..

وقبل انخراطه في سلك الجندية لم يكن يدرى ان في الدنيا شيئا آخر غير الكولخوز والشياه التي يرعاها.

وذات يوم وقع اسيرا في يد الالمان.

وجوعوه حتى الموت فلانت عريكته وقبل ان يصبح عضوا في فرقة الـ (اس — اس) التي كانت تضم عددا من مسلمي الاتحاد السوفيتي. ثم ارسلوه مع عدد من مواطنيه الى فرقة الحراسة في معسكر الابادة اوسوانيسيم.. وهناك مع (الجماعة) من اعضاء الـ(اس ـ اس) شارك في قتل السجناء.

ولكنه لم يستطع ان يهرب في الوقت المناسب.. فقبض عليه الروس وحوكم بخمسة وعشرين عاما.. وارسلوه الى قسم الكارتورقاشا اوزرلاق الذى يقع على الجانب الاخر من نهر لينا..

كان يعمل لسنين عديدة «كاتورقاشا».. ولكنه اراد قليلا من الراحه . والتهرب من العمل الصعب لبعض الوقت.. فكتب خطابا الى الـ (م ف د) اعترف فيه بانه في معسكر الابادة في اوسوانسيم قام بالاشتراك مع بعض رجال الـ (اس ـ اس) بنهب مصوغات السجناء المقتولين ودفنوها في ساحة المعسكر.

وتطوع بان يقودهم الى مكانها...

ومرت شهور.. ثم اعيد بعدها الى اوسوانيسيم لكى يدل الـ (م ف د) على المكان الذى دفن فيه الكنوز. ولكنه فشل. وعندها فهموا انه كان يجرهم من انوفهم.. فارجعوه الى تايشت وحققوا معه من جديد.

ثم توصلوا الى ان العقوبة التى نالها كانت قليلة.

اما سزيلازى فقد كان في الخامسة عشر من عمره عندما مات والده.. وورث منه لقب البارون وثروة طائلة انهارت في عام ١٩٤٥..

وعندما بلغ العشرين من عمره رحل الى بودابست تاركا القرية الصغيرة التى كان يسكنها في الريف ـ ليكمل دراسته.

وكان من المامول ان ينجح مقصده لولا عمته التى كانت تعيش في الخارج والتى جعلت ترسل له نقودا كثيرة.

وحين التحق بالجامعة اخفى لقب البارون ولكن حوالات النقود لم تكن سرا يمكن اخفاؤه.

واكتشفوا اصله.

بالرغم من ان سزيلازى اقسم بان النقود من عمته فقط وليست من جهة اخرى، فقد حوكم بخمسة وعشرين عاما بتهمة العمالة الاجنبية وارسل الى سيبيريا.

وكان في المعسكر بقسم دوك ـ حيث مصنع الاخشاب الذى يقوم بانتاج المنازل المبسطة ـ البراويز للنوافذ ـ الابواب ـ ادوات التزحلق الخ..

ولم يستطع سزيلازى ان يرضى بالامر الواقع وهو بارون منعم.. كيف بخمسة وعشرين عاما عملا شاقا وجوعا متصلا..؟ هذا كثير.. فاسس جمعية سرية اسماها (آخذى الثار) وسرعان ما جمع حوله خمسة وعشرين من التعساء الذين اقنعهم ان من السهل هدم السلطة السوفيتية.

وما يحتاجونه هو الادارة القوية فقط..

وكانوا يجتمعون مرة كل اسبوع في غرفة تجفيف الملابس.. التى كان المسئول عن وقودها عضوا في الجمعية ايضا.

وكل شيء يخص امرهم كان «سريا للغاية»!! حتى ان الـ (م ج ب) كان على علم بكل خطوة من خطوات اعضاء الجمعية..!!

حين أزف الوقت الملائم القى عليهم القبض جميعا..

وحوكموا.. اثنان وعشرون منهم القى بهم في السجن..

ثلاثة نقلوا الى معسكر آخر لانهم كانوا من عملاء الـ (م ج ب) وظهروا في المحكمة

كشهود اتهام.
وقد اكدوا لقاضى التحقيقات ما قالوه من قبل.
وبناء على التصريحات حوكم ثمانية بالاعدام ومن بينهم سزيلازى.. وسبعة عشر حكم عليهم بخمسة وعشرين عاما.. ومن بينهم شاب من شتايرسك.
ومرت سبعة ايام.. واستدعونى للتحقيق.
وكان الضابط فى ملابسه المدنية.. سالنى..
- انت من فينا..؟
- نعم ولدت هناك..
- ماهى آخر مرة كنت فيها هناك..؟
- عام ١٩٣٢
- اذن لقد كان وجودى انا هناك فى وقت متاخر عن هذا -
- هل كنت هناك فى النمسا حقيقة..؟
- نعم.. كنت ضمن سلطات الاحتلال..

لم يستطع ضابط الـ (م ج ب) اخفاء اعجابه بالنمسا.. وخاصة (بادن) المكان الذى كانت به قيادة المارشال كونيف.

وعندما سمعت ذلك.. فهمت ان هذا الاعجاب الشديد، ربما كان هو السب المحتمل لنقله من بادن الى تايشت..
تكلمنا مدة ساعتين.
امر لى بساندوتش وشاى.
تناولتهما بشهية بالغة.
وسالنى قائلا:
- ماذا افعل بك..؟
- ارجو ان ترسلنى الى المعسكر ثانية لكى اقضى بقية عقوبتى.. وبعدها أنال حريتى..
- اتعتقد ان الامر بهذه البساطة..؟ انظر..
واراني حزمة من الاوراق.. واستمر يقول..
- فى هذه البلاغات ذكر اسمك عشرات المرات..
- اقسم لك صادقا انه لم تكن لى صلة ما بهؤلاء المغامرين، اننى امتلك خبرة كافية تقينى شر الانزلاق معهم فى مثل هذه الاشياء.. لاننى قضيت جزءا كبيرا من عقوبتي.
- نعم.. لو كان هذا كافيا لتصديقك..
- انا متاكد انك يمكن ان تساعدنى وتنهى هذه المسالة.. لاننى فعلا برىء.
- سأحاول الحديث مع الرئيس، والان يمكنك الانصراف.
وعندما ارجعونى للزنزانة كان يحتل مكانى القادم الجديد.. اسمه (شاكال) وهو اسم

يطلق على من لايعترفون للاخرين بحق الاسبقية قط.. كل شىء هم اول من يحصل عليه.
ولم تكن لدى رغبة فى الشجار.. وكذلك كنت لا اريد النوم على اسمنت الارض الصلبة.
ولذلك طرقت الباب.. وطلبت من الحارس مكانا فى الكنبة. ولكن.. كان على ان اقضى تلك الليلة على الارض.
وفى الصباح، عندما جاءت المراقبة بروفيركا ..
طلبت من مدير السجن ان يجد لى مكانا خاليا..
وسرعان ما اقتادونى الى زنزانة اخرى.

مغامرة رأوسكر وزوجته

ما ان فتح لى الحارس باب الزنزانة حتى وقعت عيانى على عصاتين كانتا مسنودتين على الحائط.. وعندما خطوت الى الداخل حييت النزيل الوحيد الذى كان يرقد على الكنبة هناك.. واجابنى..

ـ نهارك سعيد (توبرى دن)...

واعتقد صادقا ان زميلى مرة اخرى. اجنبى..

وسرعان ما تحققت من انه نمساوى.. كان اسمه راوسكر..

وخلال الاسبوعين اللذين قضيتهما معه حكى لى طرفا من نبأه..

كان عضوا فى الحزب الشيوعى النمساوى..

وقد ساعده الحزب ـ عام ١٩٤٦ ـ فى الحصول على وظيفة ممتازة فى (دوبر) بالقرب من (يبس) على نهر الدانوب فى النمسا السفلى.. وكان اسم الجهة التى عمل لديها هى مؤسسة (يو ـاس ـ آى ـآى) ادارة الاملاك السوفيتية فى النمسا.. وفى دوبر تعرف على ترود راوشر.. التى اصبحت زوجته فيما بعد. كانا يعملان معا لبعض الوقت.. وقد تم اعفاؤهما عن العمل من منصبيهما بتهمة الاختلاس..

ومكثا بعض الوقت بدون عمل.. وكانا يعتمدان فى معيشتهما على والدى ترود. واجتهد اصدقاؤهم. فى الحزب مرة اخرى فتم تعيينهما مرة اخرى فى ادارة الاملاك السوفيتية فى النمسا.. ولكن فى قسم فينا.

ولم يمكثا طويلا فى هذه الوظيفة ايضا. اذ كلفا الادارة الوفا من الشلنات.. وهكذا عادا من جديد يتسكعان بدون عمل.. وطلبا عون الحزب الشيوعى.. ولكن القيادة ضاقت بهما ونزعت منهما بطاقات الحزب.

وللبحث عن عمل ومكسب تذكرت ترود ان هناك اسيادا جددا يمكن الارتماء فى احضان عمالتهم ـ الامريكان والـ (اس . آى . اس).

فذهبا الى مكتب الـ (اس . آى . اس) وعرضا عليه خدماتهما. وبعد محادثة دامت ساعة كاملة مع موظف من الادارة المركزية للجاسوسية الامريكية، خرج الزوجان من المبنى ومعهما ورقة من فئة المائة دولار «وامر» واجب الاداء.

كان عليهما ان يتسللا الى مصفاة البترول فى زايستردوف، وكانت ايضا تتبع لمؤسسة ادارة الاملاك السوفيتية.. لكى يرسما بعض خرط المبانى ويسرقان بعض الوثائق.

وحتى ينجزا مهمتهما على الوجه الاكمل استعانا بشقيق ترود الذى كان مديرا لقسم الشرطة فى زايسترودوف.

ولكنه لم يوافق واعترض على ذلك فى بادىء الامر.. ثم رضخ اخيرا واتفقوا على الحضور فى احد ايام السبت بعد الظهر..

وفى الساعة المعينة التقوا امام باب المصفاة وادخلهم شقيق ترود.

وعندما كان راوسكر يرسم بجد واجتهاد كانت ترود تبحث فى المكتب عن الوثائق..

وانشغلوا بما كانوا يفعلون فلم يلاحظوا بأن عملا الـ (م ف د) ـ كانوا يتابعونهم بدقة شديـدة. فقبض على الزوجين فى نفس المكان، وكتبوا محضرا بذلك فى الحال، مقررين مصير الزوجين.

ثم قادوهما الى بادن بالقرب من فينا. وفى سجن الـ (م ف د) اعترف راوسكر فى الحال بكل شىء. ولكن ترود كانت عنيدة ولم تعترف الا تحت وقع الضربات المهلكة القاسية.. ثم عادت فانكرت.. وكتبت خطابا لرئيس الشبكة الجاسوسية السوفيتية تسحب فيه اعترافها.

وذات ليلة قادوها الى زنزانة الكارسر وخلعوا عنها ملابسها وعذبوها عذابا لامزيد على فاعترفت مرة اخرى بكل شىء. وحين عادت الى وعيها كتبوا معها محضرا جديدا.

كان عليه اعترافاتها بالتفصيل.

وحاكمتهما المحكمة العسكرية السوفيتية بخمسة وعشرين عاما لكل منهما.. وبعد الحكم تقابلا مرة اخرى فى المعسكر المرحلى الكبير «لوو»..

وقف هو فى طرف الاسلاك الشائكة وهى فى الطرف الاخر. وكانت تحاول التهرب من الذهاب الى سيبيريا..

فكتبت ثانية خطابا الى (م ف د)، وحكت فيه قصة جديدة.. ولكن الضابط الذى تلقى خطاب الاسترحام ذاك اكتفى بالضحك.

وذكر لى راوسكر ان حاله كان جيدا بالمعسكر المرحلى الكبير فى «لوو». وكان سعيدا لخروجه من بدروم الـ (م ف د) فى بادن فقد كان نزيلا دائما فى زنزانه الحبس الانفرادى التاديبية.

كانت «لوو» محتلة من القوات السوفيتية.. وكانت الحياة فيها حية جائشة.. فدوما تصل افواج كبيرة او صغيرة من السجناء.. وكان يمكنهم التحرك بحرية تامة. ولطعامهم حصلو على ثلاث وجبات يوميا.

ولم ياخذ راوسكر عقوبة الخمسة والعشرين عاما ماخذ الجد. كان يعتقد ان بقاءه فى سيبيريا لن يتعدى بضعة شهور يعود بعدها الى بلاده حيث يلقونه بالاعلام والزهور والموسيقى.

وعندما ياخذ قسطه من الراحة يتوجه الى الذين يعطونه اوامرا جديدة.. ويرسلونه فى مهام اخرى.

وبعد ذلك يشرع فى رواية انطباعاته وذكرياته عن سيبيريا وبيده كوب من الويسكى ثم ياتى لاهم شىء.. شيك بمبلغ ضخم..

وياخذ زوجته تحت ابطه ويذهبان الى اكبر المحلات التجارية..

ثم ينطلقان الى الريفيرا الفرنسية لكى يغسل عن دواخله اوضار الحياة القاسية فى سيبيريا.

هكذا كان يفكر راوسكر ويحلم.

وقبله كان كاب وستيف.. ومن لف لفهم من محبى المغامرات.

ولاول مرة يشك راوسكو في احلامه.. وكان ذلك حين وجد نفسه محشورا مع ستين رجلا في عربة سكة حديد مقفلة بقطار طويل متجه الي المجهول.. ودامت الرحلة طويلا.. فتحت فيها ابواب العربة مرة واحدة في اليوم لاستلام الخبز. والسمك المملوح.. وقطع السكر.. وقليل من الماء.. وكان اسوا ما مر به هو الليل، حين يحاول التماس شيء من الراحة.. ولم يجد لذلك سبيل.. كان الحرس يضرب جوانب العربة بالعصى الثقيلة.. وخلال الرحلة داخل اوروبا كان طعامهم يصلهم بانتظام.. ولكن عند مرورهم بالاورال اختفى السكر، وكاد الماء ان ينبعه.. لو لا ان السجناء يلحون في طلبه..

وفي جليابنسك اقتادوهم الي المعسكر المرحلي..

اغتسلوا .. ونظفوا انفسهم من القمل..

وخلال بقائهم لثلاثة ايام هناك حصلوا علي وجبات دافئة .. ثم تحركوا الي الامام.

وقال راوسكو انه ظل مسافرا في تلك الرحلة لمدة اربعة وثلاثين يوما.. كان فيها لا يحلم بشيء سوى الماء والخبز والراحة..

نسي زوجته ترود التي كانت في نفس الرحلة..

ولكن في عربة اخرى.

وحين دخلوا تايشت اصابته السعادة، لان بامكانه ان يمد قدميه ويتمشى في الساحة.. وفي بعض الاحيان وعبر حاجز الاسلاك الشائكة كان يحادث زوجته. وفي المحطة المرحلية بتايشت قابل راوسكو سجناء كثيرين مروا من قبل علي مختلف المعسكرات (اوزرلاق).. ومنهم عرف الكثير عن المعكسرات وحياتها.. وبدا يفكر في الطريقة التي يعود بها سريعا الي اوروبا.. وبدا يحدث السجناء عن امكانية الهرب... واصغى اليه السذج باهتمام بالغ.. بعضهم حفظ عن ظهر قلب كل كلمة قالها ونقلوها الي الـ (م.ق.د)

ومن اليوم الاول لدخوله الي المعسكر سجل اسمه في كشوفات الـ(م.ق.د) للرقابة والمتابعة.

ومن المحطة المرحلية نقل راوسكو الي قسم المعسكر رقم خمسة.

وعمل هناك قاطعا للاخشاب.. وبحث دون مجهود يذكر او تعب عن الذين يودون الهرب بسرور.

وذات يوم حدث ما حال بينه وبين التفكير في تنفيذ خططه.. حدث اثناء العمل في الغابة ان راوسكو لم يسمع التحذير الذي يطلق قبل انهيار الاشجار .. فسقطت الشجرة عليه ودفنته تحتها..

وتم اخراجه من تحتها بصعوبة.. وللمفاجاة ، كان سليما مفتوح العينين مكسور الرجل اليسرى فقط.

نقل الي المستشفى وخرج منها بعد شهرين.. ولم يعد يستطيع الحركة الا وهو يتوكا علي عصاه.. وبقيت ساقه اليسرى اقصر من رفيقتها.. وبدا يواصل نشاطه في معسكر المعوقين حيث نقلوه الي هناك..

وسرعان ما وجد بين المعوقين انفسهم، اناسا مستعدين للهرب. ولكن ضابط الـ(م.ج.ب) كانوا بلا مشغولية تذكر فالقوا عليه القبض.
نقل الي السجن متهما بالاعداد لثورة مسلحة.
وانكر راوسكو كل شيء.
واستدعى الـ(م.ج.ب) الشهود..
فوقفوا بحضوره يرددون كلماته في المحطة المرحلية..
وقال آخرون في وجهه انه نظمهم في المعسكر رقم خمسة.
وشهد ضده ثمانية من الشهود.. وكانت اجابته
ـ كل هذا مرجد محض اساءة.. كيف يمكن لمعوق ان يقود انتفاضة.
حكى لي ذلك.. ثم وقف يريني انه يستطيع ان يمشي بدون عصا.. وخيل الي ان الـ(م.ج.ب) كان على علم بذلك..
وعندما كانوا يقودوننا الي التمشي في الساحة ، كان راوسكو ياخذ عصاه ولكن المدير ظل يقول له دائما:
ـ اترك العصا .. يمكنك ان تسير بدونها.. ولا تنتظر منا ان ناخذها منك..
ومرت عشرون يوما منذ دخولى الي السجن.. ودعونى للاستجواب في ادارة الـ(م.ج.ب) ...
وقال لي قاضى التحقيق:
ـ الرئيس يريد ان يتحدث معك.. تعال
وتبعته الي الغرفة الامامية، التى جلست فيها شابة برتبة الملازم اول (م.ج.ب) طرقت الباب ودخلت تستاذن لنا.. ثم عادت وسمحت لنا بالدخول.. ودخلت في حجرة واسعة .. علي الارض نام سجاد سميك فخم.. وعلى الحوائط صور الزعماء : ستالين .. مولوتوف.. بيريا..
بجوار المنضدة رأيت رجلا قويا في رتبة عقيد، يجلس مسترخيا..
وجهه مستدير ، وشعره اشقر.. وعرفت انه العقيد سلاملتوف.. رئيس قسم الـ(م.ج.ب) بتايشت.
نظر الىّ واشار بيده الي الكرسي.. فجلست .. وجلس مرافقى علي يمينه وسالنى العقيد:
ـ كيف حال..؟
ـ ليس جيدا تماما..
ـ لماذا..؟ هل سبب لك احد ما اساء اليك..؟
ـ في الحقيقة. يؤلمنى اننى قابع في سجن التحقيق .. واعتقد ان هذا سبب كاف للاحزان والالام..
ـ لن تبقى طويلا.. فقط وضّح لنا بعض الاشياء التى تتعلق بالمريض الذي معك في الزنزانة..
ـ تعنى راوسكو..؟

ـ اجل.
ـ ولكننى لا اعرف ذلك الرجل، ولم اره من قبل..
ـ راوسكو من بلدياتك.
ـ نعم.. ولكن ذلك لا يعنى شيئا خاصا.. فانا لا اعرفه حقيقة..
ـ بقيت معه لمدة اسبوعين في نفس الزنزانة..
ـ اذا كان رايى فيه يهمكم.. فاننى يمكن ان اقول لكم لا تاخذوا هذا الرجل ماخذ الجد.. انه مغامر يحلم ومثله التقيت بهم كثيرا في المعسكر..
ـ انت ساذج..
ـ كيف..؟
ـ اذا كنت تعتقد بان اناسا خطرين امثال كاب وراوسكو وغيرهم لا يجب اخذهم ماخذ الجد.. فهذه هي السذاجة عينها..
-سلطات التحقيق لها الحق في اخذ امثال هؤلاء الناس بما تريد.. ولكن اذا كان يهمك رأيى فان اعيد عليك بان هذا الذي يفعله راوسكو وامثاله انما هو لعب اطفال .. ولا يمكن ان انظر اليه من زاوية الجد ابدا..
والتفت العقيد الي قاضى التحقيق الذي كان يتو لى امرى قائلا:
ـ هل لديك سؤال؟
وهز القاضى رأسه نفيا..
فقال لي العقيد:
ـ اذن لقد انتهينا..
ونهض القاضى فتبعته الي غرفة التحقيق.. وهناك وضع لي بعض الاسئلة غير المهمة.. وسار معى مودعا حتي الاستراحة ومنها اعادونى الي السجن..
وحين دخلت الزنزانة سالنى راوسكو:
ـ هل احضرت معك دخانا..؟
ـ ومن اين لي بالدخان..؟
ـ كان يمكن ان تاخذه من قاضى التحقيق..
ـ انا لا اسال احدا شيئا..
وغضب راوسكو .. ادار وجهه للحائط ولم يرد ان يحادثنى لعدة ساعات.. وعند التمشي عثر في الساحة علي عقب سجارة..
قام بتدخينه حين رجعنا الي الزنزانة .. وعندها فقط نطق
وقال لي الحارس في الصباح وهو يمد لي الخبز:
ـ بعد الافطار اجمع حاجياتك.
فهمت اننى ساعود الي المعسكر.. ولم آكل وجبتى اعطيتها لراوسكو.
ومس ذلك شغاف قلبه.
ثم لم اره بعدها ابدا.

اعادوا لي الاشياء التي في حقيبتى.. وبعدها قادونى عبر الشوارع الطينية في تايشت..
كنت اتساءل الي اين يقودوننى..
من المحتمل جدا ان يكون مصيرى الي المعسكر الفظيع في القسم الثالث وعندما عبرنا خط السكة الحديد ولم نتجه نحو محطة السكة الحديد، اعتقدت انهم يذهبون بي الي المحطة المرحلية..
ولكن لم يكن هذا صحيحا..

****

المنظمة السرية في المعسكر رقم «٤٨»

بعد مسيرة حوالى الساعة وصلنا الي باب معسكر غير معروف لى. علي يمين المدخل رايت مدخنة كبيرة.. وخفق قلبى .. هل بدأ الـ(م.ج.ب) يقتدى بهتلر.. ويبنى افرانا لابادة البشر في معسكرات مجهولة؟ ام سيضعوننى في حجرة الغاز ويحرقوننى..؟
ومررنا بساحة كبيرة..
بدات انظر في كل الاتجاهات.
كان ذلك اكبر من معسكر رايت في اوزرلاق.
صفوف.. من العنابر.. عشرات الصفوف ..
ومررنا باوسع شارع داخل معسكر..
على جانبي هذا الشارع الرئيسي شدت اسلاك علقت عليها الانوار..
وفي المنتصف اتجهنا ناحية الشمال.. ووقفنا امام مكتب المعسكر رقم ٤٨.. وبعد الاجراءات العادية تحصلت علي وريقة كتب عليها اسم رئيس العمال ورقم الوحدة التي تم توزيعى للعمل فيها...
كان عليّ اولا ان اسلم حقيبتي..
كنت ارتدى حذاء الجليد، وبنطالا مبطنا.. وكان عليّ ان اسلمها..
واعطونى بدلا عنهما بنطالا صيفيا وحذاءً..
ثم بحثت عن العنبر الذي كانت تقيم فيه وحدتي..
لقيت النوبتجي فقط بالعنبر.. اما البقية فكانت في مواقع العمل..
قرا الوريقة واشار الي مكان في الكنبة الثانية.
واصابتنى الدهشة حين رايت كم هو نظيف ومنظم هذا المكان.
الكنبات كانت مبنية علي نظام عربات السكة الحديد.. لاربعة اشخاص في كل قسم وكان لكل منهم غطاء ـ حصيرة ـ مخدة من القش ـ وبعضهم لديهم ملاءات..
علي شمال المدخل رايت غرفة صغيرة للغسيل، بها صفيحتان.
في الاولى ماء عذب للشرب..
وفي الثانية ماء ساخن "كيباتوك".
وفي الركن كانت هناك شماعتان للملابس..
اما الارضية فصورة مثلى للنظافة..
وسالت نفسي لماذا هنا في تايشت، يسود مثل ذلك النظام..؟
لان تايشت تقع في الخط الرئيسي.. وتتعرض للزيارات المفاجئة من السادة الكبار ـ في موسكو ـ
وفي الغابة لن يضل احد منهم ـ هؤلاء السادة الكبار ـ طريقه. وكان لدي وقت كاف لكي اتمشي في المعسكر..
وهذا المعسكر رقم ٤٨ هو اكبر اقسام اوزرلاق.. كان به اربعة آلاف سجين معظم هؤلاء

السجناء كانوا في الورشة الكبيرة لتصليح القاطرات والعربات. وكان هناك ايضا قسم لانتاج صهاريج البنزين.. كما ان بعض اولئك السجناء كان يعمل في اعمال المباني بالمدينة.. وكانت الورشة تقع بالقرب من المعسكر.. يفصلها عنه حاجز واحد فقط.. اما السجناء فيدخلون ويخرجون بدون حراسة..
الحرس كانوا فوق ابراج المراقبة فقط، ولكن الممر كان تحت رقابة الـ(م.ج.ب)..
والمدنيون يمكن ان يدخلوا، ولكن باذن من الـ(م.ق.د).
وفي المساء تعود الوحدات جميعها من العمل .. اما انا فقد وقفت قرب الباب اراقب الداخلين والخارجين.. اولا كان العائدون هم الذين يعملون في الورشة .. عشرات من الحراس تولوا عمليات التفتيش.. الملابس .. الاحذية. غطاءات الرؤوس الخ.. الخ..
رأيت الذين ينظفون القطارات، وهم غارقون في الزيوت والقاذورات حتى ضاعت ملامحهم ، فلا يكادون يتعرفون علي بعضهم البعض..
وبحث ، عن وجه مالوف ..فلم اجد احد..
ولكن فجاة دققت عيناي على اينزق ورز..
وكنت قد تعرفت عليه قبل فترة قصيرة في المحطة المرحلية.
وسررنا من هذا اللقاء الذى كان على قرب شديد، رغم ان معرفتنا لبعض كانت سطحية هامشية.
وحدثني ه اينز ان في المعسكر اوسكار لبتيخ ايضاً.
وفي وقت متاخر من الليل عادت وحدتي، رقم ٣١..
وامام المعسكر كانت تقف قافلة من الشاحنات تعمل على نقل السجناء الى اماكن العمل البعيدة.
وكان ذلك شيء جديد اراه للمرة الاولى.. فنحن معتادون على المشي الى مسافات بعيدة لنصل الى موقع العمل.
ودخلنا شاحنتنا ونحن خمسة وعشرون سجيناً.. يحرسنا جندى برشاش معمرٌ.. وآخر يجلس قرب السائق.
كانت الوحدة تقوم ببناء منازل لضباط ال (م. ج. ب) في تايشت.
وكان واجبي هو حفر الاساسات وبعد ذلك بناءها بالاسمنت.
ولم يختلف العمل عن الاعمال الشاقة الاخرى في المعسكر.
وكنا ناكل نفس الطعام (بايوك).
ولكن المعاملة كانت هنا خيراً منها في مكان الآخمر.
معظم العاملين في الوحدة ـ بما في ذلك رئيس العمال ـ كانوا جنوداً في جيش الجنرال فلاسوف.
بعضهم اطلق على هذه الوحدة اسم «وحدة القصر».
لان معظهم محاكم بعقوبة قدرها عشر سنوات سجناً.. مع ان اغلبية السجناء كانوا محاكمين بخمسة وعشرين عاما.

وكانت العلاقة بين السجناء جيدة للغاية.
ولكنهم كانوا لا يسمحون بان يقول انه كان عضواً في الحزب الشيوعي يوماً من الايام.
كانوا يكرهون الشيوعيين كراهيتهم للنازيين.
وقررت ان لا اتحدث عن الماضي حتى لا اقع في صعوبات اكثر.
وفي اليوم الاول لي هنا، علمت بان الممثلة المعروفة والمغنية المحبوبة للاغاني الروسية الشعبية روسلانوف، كانت محبوسة في هذا المعسكر.
القي عليها القبض هي وزوجها الجنرال الروسي.
وحوكم الجنرال بتهمة الخيانة العظمى بخمسة وعشرين عاماً.. وعليها هي بعشر سنوات سجناً.
ولكن روسلانوف لم تكن مقتنعة بالحكم.. فكتبت استرحاماً للمحكمة العليا ترجو تخفيف الحكم.. فنظر الاسترحام وعدل الحكم الى خمسة وعشرين عاماً اشغالا شاقة..!!.
كان زوجها الجنرال ضمن جيوش الاحتلال التي غزت المانيا..
وهناك قام باقتحام منزل جميل وافرغة من العفش والصور والرياش والتحف وارسل بها الى موسكو.
شخص ما وشي به حسدا!.
اما روسلانوف ففي اثناء وجودها بالمعسكر كانت تعمل حائكة.. ولكن الطاهي ميشا نوفيكوف كان يزورها بانتظام دقيق.. وكان يحضر لها طروداً صغيرة من الاكل.. وكان يعطي الحارس الوسيط ايضاً نصيبه..
وعندما اكتشف الامر طرد الطاهي من المطعم.. ونقل الحارس.
وارسلت روسلانوف الى معسكر النساء حيث عملت في قطع الاشجار بالغابة.
ولم يكن في امكانها ممارسة المغامرات الغرامية.
وبعد موت ستالين اطلق سراح الممثلة المشهورة..
وفي اليوم التالي قادني فورز واوصلني الى اوسكار.
وعندما وقعت عيناه عليّ فوجيء بمنظري.
وانشغل جداً لما كان يبدو عليّ من انهيار وانهاك. وساءة حال صحتي المتدهورة.
ثم عرفني بعد ذلك بزميله في الحزب هلمت روث.
كان الاثنان اوسكار وهلمت يعملان في «وحدة» واحدة.
وهلمت هذا الماني من المجر.
والذي حدث انه في عام ١٩٤٤ وبناء على تعليمات من ال (اس. اس) نقل اوسكار بتيخ وهلمت روث بالمظلات ونزلا خلف الجيوش الروسية في زايبنبيرقن.
وقد نجحا في الوصول الى مدينة كلاوسنبيرق حيث اختفوا عند دكتور باور.
وكان دكتور باور ولسنين عديدة يتمتع بثقة النازيين.
وقام الثلاثة بتركيب شبكة اتصال بالراديو مع قادة الجيش الالماني ونقلوا اليها

تحركات القوات السوفيتية.
وذات يوم ذهب دكتور باور الى ال (م. ق. د) وابلغ عنهما.
وقد اعتقلوه هو نفسه معهما وحاكموه بعشر سنوات سجناً.. اما اوسكار وهلمت فقد نال كل منهما خمسة وعشرين عاماً.

وتم ترحيل هلمت الى نورلسك.. واوسكار الى تايشت.. وباور الى معسكر آخر. وقد اشترك هلمت روث بعد ذلك في انتفاضة السجناء في سجن نورلسك عام ١٩٥٠ وكان جزء كبير من «السبسلوق» قد حاولوا الوصول الى حرياتهم عن طريق استخدام القوة.
وكانت الفكرة نابعة في الاساس من السجناء القدامى الذين عملوا اعمالا شاقة في زمن الحرب.. وبقوا يحلمون وينتظرون العفو الموعود بعد الانتصار على هتلر.
ولكن ذلك العفو شمل المجرمين فقط واستثنى السياسين الذين كانوا يتساقطون في يد الموت واحداً اثر الآخر.
بدات تلك الانتفاضة في المعسكر رقم خمسة منجم النحاس.. حيث افلح السجناء في تجريد بعض الحرس..
واتجهت مجموعة مكونة من خمسة آلاف سجين نحو المعسكر رقم تسعة وحاولوا احتلاله وكان سلاح الدبابات المقيم في نورلسك وقوات ال (م. ق. د) وال (م. ج. ب) قد تحركت لتحتوى الانتفاضة، ايضاً وفي نفس الوقت.
ورغم قلة تسليح السجناء فقد استمرت الحرب ليومين كاملين.
وفي اليوم الثالث بعد ان مات المئات وجرح الآلاف، سلم الثور اسلحتهم. ثم شب حريق الانتقام.
مئات السجناء رموا في السجون.. كان فيهم اعداد كبيرة لم تكن لها صلة بالامر.. اما الغالبية فقد قتلت وابيدت.. وحوكم الكثيرون بخمسة وعشرين عاماً اخرى.
وكان من بينهم هلمت روث.. الذى هو في الاساس محاكم بخمسة عشر عاماً. وقد تم ترحيل الذين اشتركوا في الانتفاضة بعد الحكم عليهم الى معسكرات ـ اخرى.. جزء الى تايشت ـ واستبلاق ـ في كازستان ـ ودلاق في كوليم.
اما في معسكرنا هذا رقم ٤٨ فقد عاشت مجموعة كبيرة من الاجانب.. اغلبهم المان.. ومن اليوم لاحظت كما حدث في معسكر ارخى انه توجد بعض الجماعات المختلفة التى تحمل نفس مخططات وافكار كاب وراوسكر وغيرهم.
وعلمت من اوسكار انه منضوي تحت لواء جمعية سرية ضمته اليها
وكان مصدر صراع بين الجمعيات كل تحاول ضمه اليها، فقد كان معروفاً بانه عمل في الجيش الالمانى بسلاح الاشارة كخبير للتلغراف اللاسلكى.
وكل هذه المجموعات كان تعمل في السر والتكتم الشديد.. وكثيرون لم يعلموا بها. وقبل ان ارحل عن هذا المعسكر باسابيع عديدة ساد اضطراب كبير.
فجأة ظهر العقيد سلاماتوف مع مجموعة من ضباط ال (م. ج. ب).. وبخطوات سريعة دخلوا مبنى قوة اطفاء الحريق بالمعسكر.. وكان النوبتجى احد السجناء....

وعندمافتشوا كل شيء بدقة، قادوا رجل المطافئ وحملوا معه جهاز اللاسلكى الذى كان بحوزته.. وساد فى المعسكر ان رجل المطافئ عضو فى جمعية المؤامرات.. وان هذا الجهاز الذى ضبط بحوزته تم تجميعه فى ورشة القاطرات للاتصال بالخارج وذات يوم عندما تهيأ الكل للنوم فى عنبر كان يوجد به فنى الكهرباء، دخل سجين من عنبر آخر واتجه نحو الفنى المذكور الذى كان ينام بهدوء وطعنه بآلة حادة فى قلبه.

ومات الشاب فوراً.

وخرج القاتل من العنبر واخبر الحارس بانه وفى هذه اللحظة قد نفذ حكم الاعدام فى الخائن.

وكان المقتول عضواً سرية.. واتهم بانه وشى بالجمعية وافشى سرها للسلطات.

اما القاتل واثنان من مساعديه فقد حوكموا بالموت.. والبقية بخمسة وعشرين عاما لكل منهم.

وبعد تلك الاحداث قررت ان اضيق دائرة معارفى.

صلتى كانت مع اوسكار وهاينز وهلمت.

وكان واسكار فقط هو موضع ثقتى.

اما الآخران فقد كنت حذراً معهما ومنهما.

ومع بقية زملاء الوحدة تحدثت فقط بما هو ضرورى.

* * * * * * * * * * * * *

مذهب طائفة الـ بابتست في الغابة..

كان في المعسكر شخص آخر أوليته ثقتي وكنت اتحدث اليه بارتياح كبير. كنت اعلم انه ليس خطراً على الاطلاق.

انه العجوز المكلف بعملية غلى الماء نكيفور.

كان في السادسة والسبعين من عمره.. يقضى خمسة وعشرين في السجن بتهمة قيادة الجاسوسية الامريكية وعصابة التخريب.

كان قويـاً عريض المنكبين.. له ذقن طويلة بيضاء تضفي على شخصيته لمسة لطيفة تجعله يقع موقع القبول من اى شخص في المعسكر.

ولانه كبير في السن وقع عليه الاختيار ليعمل في غلى الماء. وعندما يكون ـ الطقس دافئاً كان يجلس امام الكوخ الخشبى.

وكنت امر امامه اول مرة فطاب لي ان احييه بود واجاب على تجيتي قائلا.

ـ هذا بالتاكيد ليس روسياً..؟.

ـ لست روسياً، ولكني يوغسلافي.

ـ أى جنسيات لا توجد هنا..؟.

اجبته بمرح..

ـ نعم. لقد جمعت هذه البقعة مجموعات مختلفة الالوان والاشكال. وسالنى.

ـ كيف وصلت الى هنا..؟.

ـ تلك قصة طويلة.. قد احكيها لكل يوماً ما..

قال لى بحنان ظاهر..

ـ ادخل..

ودخلت معه الى مكان غلى الماء.. وتحدثنا لدقائق..

ومن وقتها.. اعتدت ان احضر دائماً للعجوز الحيكم.

واصابني يقين من ان نيكيفور وصل الى المعسكر لانه كان عضواً في طائفة دينية.. كنت اعلم كيف تقدُر الحريات الدينية داخل الاتحاد السوفيتي.

ولكن قصة نيكيفور قصة ليست عادية وتستحق ان اذكرها.

في عام ١٩٠٧ قامت السلطات القيصرية بنفى اربعين قروياً من ضواحي كورسك احدهم نيكيفور الى سيبريا.. لانهم كانوا اعضاء في منظمة دينية.

وكانت هذه المجموعات تكون اسر مختلفة.. تم توطينهم بالقرب من مدينة اجنسك.. ليعملوا بالزراعة.

كانت الارض واسعة غنية.. اعطت ثماراً رائعة.

وسرعان ما تحسنت احوالهم..

هنـا لم يضايقهم احد في اداء واجباتهم الدينية.. وقد تمكنوا من تشييد معبد باسم طائفة الـ بابتست.

وعند نشوب الحرب عام ١٩١٤ تسلم البابتست اوراق التجنيد الاجبارى..
غير انهم لم يستجيبوا له.
ولم يحدث لاحدهم شيء.
وعند قيام الثورة لم يشاركوا فيها ايضاً.
ومرت على اجنسك فى الفترة من ١٩١٨ الى ١٩٢٣ حكومات مختلفة..
فى الاول جاء السوفيت.. ثم الكولجاك.. وبعدها المنشفيك... تلاهم اليك..الى ان جاء البلشفيك..
ولم يهتم القريون بهذه السلطات التى تعاقبت عليهم.. طالما انهم كانوا يمارسون طقوسهم الدينية بكامل الحرية.
وفى عامى ١٩٢٩ و١٩٣٠ ادخلت المزارع الجماعية.. ولم يكن الامر خطيراً عليهم لان الطائفة ظلت فى الاساس تزرع ارضها جماعياً.
الى ان جاء يوماً الى القرية اللادينون ـ كالسم ـ يدعون ضد الدين.. وتم تحويل معبدهم الى ناد لم يتردد عليه احد منهم قط وقرر القريون ان يتركوا ممتلكاتهم.
وبعد تحضير دقيق تحركوا فى هجرة جماعية قوامها حوالى المائتى شخص.. بينهم الاطفال والمسنون.
اخذوا معهم خزينهم وانعامهم وتوغلوا فى اعماق الغابة.
واستمروا يسيرون عشرة يام كاملة.. يرتاحون فى كل يوم لمدة ثلاث ساعات. كثيرون منهم لم يتحملوا هذا الجهد. فمات منهم عشرون شخصاً.
واخيراً توقفوا بالقرب من النهر عند منطقة غنية بالحشائش، لكى يبدوا فى تاسيس قريتهم الجديدة.
وخلال فصل الصيف بنوا لانفسهم سقفاً كبيراً يقى رؤوسهم حر الشمس.. ولمدة عام كامل ظلوا يعيشون على القمح الذى حملوه معهم.. وفى فصل الشتاء نظفوا الغابة وحرثوا الارض.
ثم حصدوا غلتهم.. قمحاً وخضروات تكفيهم لمدة ثلاث سنوات.. وكانت الارض خصبة جداً.
وبعد سنوات تحقق لهم كل شيء.. ولم ياسف احد منهمن على فراق وطنه.. ولم يهتم احد ايضاً بما يجرى فى المناطق الاخرى.
وكانوا يحيكون ملابسهم من جلود الحيوانات.. التى يصطادونها بالسهام والاقواس.
وعندما نفذت كميات الملح التى جلبوها معهم وجدوا نوعاً من النبات اعتاضوا به عن الملح.. وكانوا يشعلون الصمغ الذى تفرزه بعض افرع الاشجار ويتخذون منه مصابيح. عاشوا منعزلين فى مكانهم ذاك لاكثر من عشرين علماً.. بعيدين كل البعد عن العالم.. ولم يعلموا شيئاً عن الحرب الا بعد نهايتها بستة اعوام
وذات يوم من الايام.. وفى عام ١٩٥١ على التحديد هبت الكلاب تنبح نباحاً غريباً شاذاً.. وذعر القرويون ولكنهم لم يروا شيئاً مريباً. ومرَّ اسبوع وكانوا وقتها فى المعبد

حينما سمعوا نباح الكلاب ثانية. وساد الذعر من جديد.. ثم ظهرت مجموعات من الجنود على ظهر الزحافات الجليدية. ومضوا يرقبوننا.. كان اربعة من الرجال.. وانا معهم ومعى ابنتى، الذين خرجنا لنستطلع الامر.. واتجه نحونا احد الجنود.. سالنا..

ـ من القائد هنا..؟.

ـ ليس لدينا قائد.. كلمنا متساوون.. هناك قائد واحد فقط هو الله.

وعند سماعهم لردى ذاك ضحك الجنود بصوت مرتفع.. ودفعوا بنا الى المعبد.. وتقدم قائدهم يسالنا..

ـ ماذا تفعلون هنا..؟.

ـ هذا معبدنا.. ونحن نعبد فيه الله..

وبدا القائد يسخر منا.. قائلا..

ـ هكذا اذن.. مكان للعبادة..؟ سنرى.. اين اللاسلكى واجهزة الارسال؟.

ـ أجهزة ارسال..؟ لا نعلم شيئاً مما تتحدثون عنه ليس لدينا ما تقولون.

ـ هذا ما سوف نراه..

ودفعوا بنا الى ركن حرسنا فيه احدهم بالسلاح.. ولم يسمحوا لنا بالحركة.. وعندما فتشوا المعبد اجبرونا ان نخلع ملابسنا وفتشونا وفتشونا فرداً فرداً.. ثم خرج الجنود وبقينا نحن تحت حرساة جنديين. ثم اظلمت الدنيا وبدا الاستجواب.. وكنت آخر الذين استجوبوهم.. وقد تم ذلك صباحاً.

اقتحموا احد المنازل وحولوه الى محكمة ممتلئة بالجنود..

سالنى الضابط..

ـ ايها العجوز لقد تحدث مساعدوك واعوانك واعترفوا بكل شىء.

ـ ماذا تريدون..؟.

ـ أين أخفيت جهاز الارسال والسلاح..؟.

ـ نحن لا نخفى شيئاً.. كل ما لدينا يمكن ان يراه اى انسان.

وقبض الضابط على لحيتى وجرنى نحو المنضدة بعنف..

أرتطم راسى فاخرج سكيناً كبيرة مررها على عنقى من الخلف وهو يقول..

ـ اذا لم تعترف ايها الكلب سأذبحك.

ولم اجب بشىء..

فرفعنى مرة اخرى من لحيتى منتزعاً شعيراتها البيضاء بيده..

ـ أعطيك ساعة واحدة من الوقت واذا لم تعترف بعدها ساحرق كل القرية.. وسوف احيلك انت الى رماد.

وبعد ساعات استدعونى مرة ثانية..

وقال الضابط..

ـ مثل هذا العجوز لا بد ان يكون جاسوساً..

وصمت. لم اكن أعلم معنى الجاسوسية.

ـ هل تريد ان تعترف..؟.
ـ لقد جئنا الى هذه الغابة لنبدأ حياة جديدة بعيدة عن الآخرين.
وكتب الضابط كل شيء في مفكرته.
وبعد استجواب غير مجد لعدة ساعات اخرجوني من الغرفة وسمح لي بان اعود الى اهلي في المنزل.
وهناك وجدت ابني وزوجته وكانوا يستجوبونهم لمدة طويلة جداً.
واوقفوا امام كل منزل جندياً يتولى حراسته ولا يسمح لأحد بالخروج منه الا باذنه فقط..
وكنا نقود الانعام للمرعى ايضاً باذنه وبتعليماته فقط. واستمر الحال هكذا لمدة اسبوعين.. وخلال تلك الفترة نشأت بعض الالفة بين القرويين والجنود، وجلس هؤلاء الى موائد أولئك.
وقال الجنود لهم عندما طابت نفوسهم..
ـ ان القائد ذهب الى مركز الضواحي وعند رجوعه ستعيشون بلا مضايقات.
وعاد الضابط.. ولكن بمزيد من الجنود. وبعد يومين من استعراض القوة جمع كل القرويين وقرأ عليهم قرار لجنة الضواحي والذي نصه:ـ
« ـ ان هذه القرية البعيدة يجب ان تنقل لتكون بالقرب من مركز الضواحي.. حتى يكون القرويون قريبين من المدينة.. فهناك خطورة من توحشهم بدون مدارس وخدمات.. الخ..». واعطى الضابط القرويين ثلاثة ايام للاستعداد.
وصمت السكان واجمين.. لم يقولوا شيئاً.
فقط سجدوا يصلون طويلا لله..
وبدأت النساء في الانتحاب والبكاء.
وعند اليوم الثالث كنا مستعدين للسفر.
وكان الجنود في حالة تأهب واستعداد، يرتدون ملابس الميدان.
وبدأت المسيرة الطويلة.. مئتا رجل وامرأة يرافقهم ثمانية عشر طفلا.. اطعمنا مواشينا وتزودنا، وتحرك الجميع.. وضعنا النساء المسنات والاطفال على الزلاجات ملفوفين بفراء الدب.. اما الرجال فساروا على اقدامهم... وتزحلق الجنود في شكل دائري واحاطوا بالرحلة.
كنا نمشي بالنهار.. اما بالليل فكان الجنود ينصبون الخيام.. وبعد عشرة ايام وصلنا الى اجنسك.. وفور وصولنا علمنا اننا تحت الاعتقال.. وضعوا النساء والاطفال في زنزانة كبيرة.. اما الرجال فوزعوهم على عدة زنزانات.
واستمروا يحققون معنا لمدة شهرين، واتهمونا باننا كنا على صلة بالجاسوسية الامريكية.. واننا كنا نعد تخطيطاً خطيراً لهدم السلطة السوفيتة.
كان معنا اثنان فقط يعرفان القراءة والكتابة.. اما بقيتنا فكانت امية تماماً.
وعند انتهاء التحقيق اخذوا بصماتنا بدل التوقيع. ولم نعرف ما هو المكتوب الذي بصمنا عليه.

وامـام المحكمة صرحنا باننا لم نر اجنبياً واحداً باعيننا لمدة عشرين عاماً. وقال لنا القاضى ان الاغلبية قد اعترفت بان احد العملاء الامريكيين كان يحضر بانتظام للقرية ومعه الدولارات. واطلعنا على المحاضر التى تحمل بصماتنا دون ان نعرف ما تحتوى.. وقال ان هذه اعترافاتنا وهى واضحة وصريحة. وحكم علينا بخمسة وعشرين عاماً فى المعسكر لكل منا. وانتزعوا منا الاطفال.

* * * * * * * * * * * * * *

كانت هذه هى آخر كلمات العجوز فى روايته للاحداث التى تعرضوا لها، فسالته..

- كيف تفسر اكتشاف منطقتكم داخل الغابة.. ؟ هل توغل احدكم بعيداً أو ذهب هنا وهناك فلفت اليه الانظار..؟.

- قطعاً لا.. لم تكن بنا حاجة للذهاب الى اى مكان ابعد من عشرة كيلومترات حول منطقتنا السكنية.. كان لدينا كل ما نحتاج اليه.

- لم يحضر لكم احد خلال تلك الاعوام الطويلة التى كنتم معزولين فيها عن العالم..؟.

ابداً لم يحدث قط. كنا فى بعض الاحيان نسمع اصوات الرصاص وهذا كل شىء.

- حدثنى، بان الكلاب عوت ذات يوم عواءاً غير عادى.

امن المحتمل ان يكون هؤلاء من الصيادين..

- نعم بالتاكيد.. وقد وضح لنا الآن ان الصيادين هم الذين اكتشفوا مكاننا.

- كيف صحتك..؟.

- جيدة جداً. على ان اكون دائماً فى اكمل حالات العافية فامامى حياة طويلة... عمرى الآن ستة وسبعون عاماً.. وعلى ان اعيش خمسة وعشرين عاماً حتى لا اكون مداناً بشىء للدولة السوفيتية واستالين العظيم.

مجموعة الرائد شوللر

كان الألمان في المعسكر منقسمين الى قسمين..
مجموعة كانت من الغزاة، وهذه حوكمت كمجرمي حرب.. وهي بزعامة ستاينمان..
رئيس الشرطة السابق.. وهو من برلين..
لم يكن لديهم اى نشاط في المعسكر.
كان ستاينمان اثناء الحرب رئيسا للشرطة في أوكرانيا.. وقد قام بارتكاب جرائم فظيعة..
تقشعر لذكرها الابدان..
ومن اعضاء هذه المجموعة ايضا النمساوى ستيهر.. الذى عمل ضابطا في الـ (أس.
اس) بالمعسكرات المخصوصة..
وقد عاوده الان الحنين للزمن القديم..
هؤلاء النازيون الذين لم يعلمهم الماضي شيئا والذين مازال هتلر يعشش داخل افكارهم
المريضة المهووسة.. كانوا جبناء لدرجة انهم لم يستطيعوا ان يقفوا ضد نظام ستالين
«بالمفتوح» رغم طول السنتهم..
كانوا حين يستشعرون خطراً ما يلوذون بجحورهم كالفئران..
ولم يكن لديهم ادنى الرغبة ، في تقديم المساعدة لاحد..
واذا حاز احدهم على عمل جيد في موقع يمكنه من ان يعين الاخرين كان ينسى رفاقه
وزملاءه ولا يهمه كيف يحيون..! مع انهم يحملون نفس افكاره..
اما المجموعة الثانية فكانوا من «المتامرين».. وهؤلاء هم الذين عملوا بعد الحرب في
المنظمات الألمانية الأمريكية.
كانوا يسلكون سلوكاً ديمقراطياً بعض الشيء..
وقد قادهم الروس الى هذا المكان دون اعتبار لاى شيء.
وحوكموا بخمسة وعشرين عاماً..
كان بعضهم عملاء للـ (اس.آى.اس) وللمخابرات الامريكية في المانيا.. اما الاخرون فقد
كان اعتقالهم بسبب من نشاطهم الديمقراطي «كجواسيس»..
ولعل اميزهم كان هو الرائد «شوللر وشردر»..
وكانت مجموعتهم مجموعة متحركة ذات نشاط محموم.. يحملون نفس افكار وأحلام
كاب..
ولكنهم كانوا يختلفون عن ذلك في شيء واحد..
كان كاب وروسكر يغامران بوضوح مكشوف ساذج..
امـا هؤلاء فكانوا جاديين للحد البعيد.. وهم يصدقون ان احتمال تغيير الاحوال في
الاتحاد السوفيتي بالقوة امر وارد..
وكانوا بسطاء.. ومثلهم مثل معظم الأجانب لم يتعرفوا على روسيا..
وقاسوا الامور بالمقاييس الاوربية.. وكانوا واثقين من نشوب الحرب القريبة بين

الأمريكان والروس.. وبكل قواهم كانوا يحاولون منح النصر للامريكان.. وحين شعرت بأن المعسكر كله وقف يحكى عن وقوع الحرب الوشيك..
وينسب أخباره الى مصادر موثوق بها، قمت بتحذير الرائد شوللر من الاخطار التى ستنتج عن ذلك..
قال لى الرائد شوللر انه قد تحدث فى وقت سابق مع الجنرال هالديروم الذى اخبره عن قرب نشوب الحرب.. وقال له ان ذلك لن يتعدى بحال من الاحوال عام ١٩٥٣م.. وأن الأمريكان لديهم معلومات مؤكدة عن هجوم ستالين على يوغسلافيا فى عام ١٩٥٣م..
وهذا بالطبع سيكون سببا فى اشتعال الحرب العالمية..
واقتربت نهاية عام ١٩٥٢ دون أن يلوح فى الافق اثر لشىء..
وقررت مجموعة الرائد شوللر الاتصال بالخارج م هما كلف ذلك.. واقروا كذلك ان يتسلل احد افراد المجموعة - هاربا عن الحدود وأن يسلم الامريكان تقريرا أصليا عن الاحوال هنا..
وان ينقل لهم ان جيشا تعداده مليون سجين فى معسكرات سيبيريا ينتظر الاشارة للثورة ضد نظام ستالين..
واتضحت البساطة والسذاجة لهؤلاء الناس مرة اخرى..
كل القضية عندهم تتلخص فى هروب شخص من المعسكر..
دون أن يسألوا ماذا بعد الهروب.. هب ان شخصا ما نجح فى الهروب من المعسكر.. ونجح كذلك فى عبور الحدود السوفيتية.. رغم استحالة ذلك تماما.. فنحن فى المنطقة الشرقية من سيبيريا على بعد الاف الكيلو مترات من الحدود.. فمن الذي يملك الامدادات..؟ ويعرف اللغة الروسية..؟ ثم كيف يصل الى الحدود..؟
وماذا بعد ذلك..؟
ان الروسى نفسه لا يستطيع ان يتجول بوثائق مزورة دون ان يكتشف امره..
الـ ن ك ف د يدس انفه فى كل شىء.. أصابعه قادرة على الامساك برقاب الامور دائما.
وغير ذلك من اشياء اخرى كثيرة ومتداخلة..
ولم يفكر أعضاء مجموعة الرائد شوللر فى كل هذه الامور..
وبدأوا يعدون عدتهم لتجهيز هروب الشاب الالمانى الذى كان يعمل فى مصنع القاطرات كصانع للاقفال..
وكان التخطيط أن يختفى الهارب فى صهريج الماء باحدى القاطرات.. وبذلك يستطيع ان يخرج عن دائرة المصنع..
أعطوه قليلا من الملابس والخبز.. ومسحوا كل جسده بالدهن حتى يستطيع البقاء طويلا فى صهريج الماء.. وقد حدث..
تحركت القاطرة من صالة المصنع ووقفت امام الباب..وصعد اليها الجندي لتفتيشها كالعادة.. وفى ذلك اليوم أستمر التفتيش لوقت اطول..
فتشوها مرتين.. ادخلوا فى صهريج الماء حديده حادة جدا.. جاسوا بها خلال الماء على

شكل طعنات قوية.. ولكنهم لم يجدوا شيئا..

وأعطى المسئول عن قيادة الحرس باعادة التفتيش..

وحين أدخل الحارس للمرة الثالثة الته الحادة فى الماء.. سمعوا صوت شخص يصرخ..

وفجأة ظهر انسان من الصهريج وقد تغطى جسمه بالدهن والهباب.. أخرجوه بعنف..

وكان واضحا ان فى المجموعة عميلا او عملاء اعطوا الخطة الموضوعة لضابط الـ (م.ج.ب).. الذى كان فى انتظار الهارب..

وقد حدث ما لا بد ان يحدث فى مثل هذه الاحوال..

اكثر من عشرين المانيا بينهم الرائد شوللر ألقوا بهم فى غياهب السجون وقدموهم للمحاكمة.

ولم أستطع أن اعرف شيئا عن مصيرهم..

أبادة اليهـــود

قبل ان يعرف الرأى العام العالمى شيئا عن نفى اليهود الذى بدأ بامر من ستالين..
كان الحديث يدور عن ذلك فى المعسكر..
وما كان يذاع وينشر فى نهاية عام ١٩٥٢.. ليس هو البداية لمأساة اليهود فى الاتحاد السوفيتى..
ولكنه كان حلقات أخرى فى مسلسل حادث الطبيب اليهودى. فذلك الحادث كان مرحلة متقدمة بسيطة وصغيرة لهجمة كبيرة كان يقصد بها فناء ماتبقى من اليهود.. الذين لم يفلح هتلر فى افنائهم..
كان بالامكـان رصد الملامح السريعة الاولى للامر التى بدأت فى عام ١٩٥٢.. ففى كل سفرية جديدة تتجه نحو المعسكرات والسجون كان هناك عدد أكبر من اليهود..
فى البداية كنا نعتقد ان ذاك يتم بمحض الصدفة وحدها.. ثم زاد الامر وضوحا كانت السفريات تكاد ان تكون يهودية محضة..
فى الوحدة رقم ٣١ وصل عدد جديد من السجناء.. كان بينهم يهوديان.. احدهما عملت معــه فى نفس قسم المبانى.. كان صامتا فى اليوم الاول.. وكما يحدث دائما وفى الاف الحالات فان ذلك اليهودى لم يختلف عن غيره فى شيء مهم.. ولم اهتم به بدرجة خاصة..
ومرت اسابيع.. وحدث ان دافعت عنه يوماً عندما هاجم الاخرون السامية، فحزت على ثقته الكاملة.
ومن يومها أصبحت مستشاره الدائم.. كان اسمه رونسكى.. عقيد سابق وقائد لحرس السكــة الحـديد وشبكة موسكو الحديدية.. عندما كان شابا، كان عضوا فى اتحاد الشبيبة الشيوعية. وبعدها اصبح عضوا فى الحزب الشيوعى..
ثم بقى فى الجيش عند انتهاء الحرب.. وبعد ذلك نقل الى حرس السكة الحديد وكان قادة الحزب يسافرون تحت رعايته ومراقبته الدقيقة لخطوط السكة الحديد. ولم يكن حرس السكة الحديد تابعا لوزارة الحربية، ولكنه كان تابعا للـ (م.ج.ب).
وكان العقيد رونسكى يهوديا ـ تزوج من روسية ـ ولكن دائرة مسئولياته وتحركاته أبعدته عن الوسط اليهودى.
له طفلان نشأ على الروح السوفيتية.. واعتبرا نفسيهما وهما فى المدرسة من ابناء الروس.

ولم يعلم اطفـاله بأن والدهمــا يهـودى حتى قبل عام واحد، عندما تقرر فى الاتحاد السوفيتى اطلاق اللفظ المهين (قيد) على اليهود.
جاء أحد أطفاله يوماً من المدرسة وهو يبكى.. وشكى لامه..
وذهبت الام غاضبــة الى مدير المدرسة وبيدها الوثائق لكى تثبت انها ليست يهودية

وكذلك اطفالها.. واجابها مدير المدرسة قائلا..
لا شان لنا بهذا.. ان الاطفال الاخرين يعرفون جيداً من الذى يوجهون له هذه الكلمة..
ونحن لن نتدخل فى الامر..
اما رونسكى نفسه فلم يطلق عليه احد لفظ (قيد) ولكنهم فى يوم من الايام اسموه الجنرال..
وكل من يطلق عليه اسم الجنرال يجب عليه ان يسلم مهام عمله فوراً.. ولم يعن أحد بتفسير الامر له.
لفظوه بعد خدمة دامت لاكثر من ثلاثين عاماً والقوا به فى الطريق.. هو واسرته.. وذهب يشكو.. ولكن الى من؟.. كل الذين ذهب اليهم اداروا له ظهورهم.. وقال له صديق حميم كان فى منصب نائب وزير..
هناك امر سرى من ستالين بابعاد اليهود من كل المكاتب والمؤسسات وعليك ان تفهم اننى لا استطيع مساعدتك فى هذه الظروف ويمكنك الذهاب الى موسكو.. لان حل هذا الامر هناك.. ففى عام ١٩٤٠ عند عقد حلف هتلر ـ ستالين اصدر المكتب السياسى للحزب الشيوعى قراراً بترحيل اليهود من كل المدن الكبيرة وخاصة موسكو..
ولكن بداية الحرب العالمية الثانية منعت ستالين من تنفيذ قراره.
انتهى همس نائب الوزير فى اذن صديقه رونسكى.. وعندما ودعه اضاف قائلا له فى رجاء..
لا تغضب مستقبلا اذا لم اسمح لك بلقائى فان مضطر.
بعد ذلك ادرك رونسكى انه ليس اليهودى الوحيد الذى فصل من عمله..
كانت هناك قائمة طويلة باسماء اليهود الذين يجب فصلهم.. فى قسم شئون الموظفين.. فى الوزارات.. فى الادارة الرئيسية.. فى المدارس العليا.. وقد اضحى يهود موسكو ولينجراد بلا عمل..
الوزارة الوحيدة التى لم تفصل اليهود هى وزارة الخارجية.. لسبب بسيط هو انه ليس بها يهودى واحد..
فقد كان يراسها مولوتوف.. ولم يكن سيادته يطيق أن يرى اليهود..واخر يهودى عمل فى وزارة الخارجية كان هو لوزونسكى الذى وعد النائبة الاولى فى اسرائيل «قولدا مايير» بتسهيل هجرة اليهود الذين يودون العيش فى اسرائيل ولذلك القوا عليه القبض.. وكان بامكان مولوتوف أن يفخر امام ستالين بأن وزارته «نظيفة من اليهود»
وكان مولوتوف قبلها قد نظف اسرته.. طلق زوجته اليهودية.. رغم أنه رزق منها بطفلين احدهما بنت أسمها (جميوجينا) كما قام بتغيير وزير الصناعات الكيماوية وحتى يحوز على رضاء ستالين اصدر مولوتوف امرا باعتقاله..
وفى نهاية عام ١٩٥٢ نشرت الصحف والاذاعة السوفيتية اخبارا موجهة تزعم ان مؤامرة قد تم اكتشافها..
دبرها الاطباء اليهود.. لقتل قادة الحزب الشيوعى السوفيتى..

وذكر في الاخبار ان الاطباء المعتقلين اعترفوا بارسال بعض القادة البارزين الى العالم الاخر..
ولكن يقظة الاطباء المخلصين الاخرين قضت على خططهم بالانهيار.. ونجا القادة من خطر الموت..
الذين يعرفون ماذا تعني مثل تلك الانباء في الاتحاد السوفيتي كان بأمكانهم أدراك كيف ستكون العواقب..
كانت تلك اشارة واضحة الى ان اليهود في الاتحاد السوفيتي قد تقررت ابادتهم تماماً..
ومنذ هذه اللحظة أصبح اليهود محرومين من حماية القانون..
تبع ذلك فصل جماعي من العمل دون أخذ بقانون الانذار او بالقوانين الاخرى.
ومن المدارس العليا فصل الطلاب اليهود..
ونشطت اجهزة الـ (م.ف.د) نشاطاً محموماً..
وامتلأت السجون باليهود الذين اتهموا بأنهم عملاء أمريكيون..
وبأنهم تروتسكيون.. صهاينة.. أرهابيون..
وبدا هياج اعداء السامية..
القوا باليهود خارج المركبات العامة واوسعوهم ضرباً.. وكل من حاول حمايتهم واجه نفس المصير.. وبعدها لم يجرؤ روسي على لقاء اي يهودي مهما كانت درجة صلته به..
ولكن اليهود المشهورين عالمياً لم يكن من البساطة اعتقالهم..
لذلك تسلسلت الاحداث (غير السعيدة).. وفي يوم قرأ الناس بالصحف خبرا يقول (دهست شاحنة مسرعة الممثل المعروف ميهويلس وصديقة منسك..)
أما الحقيقة فتقول انهما قتلا تعذيبا في السجن بعد ان رفضا التوقيع على اعتراف بأنهم عملاء أمريكيون..
ولقي الكتاب اليهود المشهورون حتفهم بنفس الاسلوب..
.: ماركش.. د. قورستاين.. برقلسون.. كفيتكو.. واخرون.. اما في المعسكرات فكان يحدث نفس الشيء الذي يحدث في الحياة العادية..
اليهود الذين كانوا يعملون أعمالاً سهلة نقلوا الى اخرى شاقة..
أما الاطباء فقد كان عليهم العمل في تكسير الاحجار.. وأعمال المناجم.. وجمع الحصى.. وفي الغابات..
ودبرت لهم المصائد.. وأعدت المذابح الهتلرية المسعورة..
ولكن الفرق بين الظروف في السجون وغيرها.. حيث لم يجرؤ الروس على الاختلاط باليهود.. في المعسكرات.. كان بالامكان وجود سجناء..
سجناء شجعان أستطاعوا ان يحموا اليهود من التعذيب..
كان في العنبر الذي يقيم به عمال مصنع المعسكر عدد من الاكرانيين الفاشست الذين حاولوا الاعتداء على الترزي اليهودي.. وقد كان ضمن المدافعين عنه مدير الورشة هنجوك وبقية العمال..

ونشبت عقب ذلك مشاجرة ضرب فيها الفاتسست حتى ان منهم نقلوا الى المستشفى..
كما حدث شيء قريب من ذلك حين آخرج السجناء يهوديا من صف الطعام.
وقد أضطر للدفاع عن نفسه مستعينا باناء الطعام الصفيحي.. فجرح المعتدى عليه جرحاً عميقاً غائراً..
ثم ظهر الفاشستت وتقدموا يضربونه بعنف.. ولكن سرعان ماجاء مدير المطعم ومساعدوه وفرقوا الحشد.
ولو لا ان الانباء الخطيرة تواترت فى الجرائد عن مرض القائد المحبوب ستالين فى اول مارس من عام ١٩٥٣ لكان اليهود قد ابيدوا كلهم ابادة تامة.. فهذه الانباء تستحق الشكر اذن..
ومات ستالين فى يوم ١٩٥٣/٣/٥..
لقد انتظر الشعب المقهور اكثر من عقدين كاملين، تلك اللحظات..
الشعب الروسى الذى كان مرغما على الكشف عن حبه وأخلاصه للقائد المحبوب فى كل لحظة من لحظات حياته.. صار بأمكانه الان ان يتنفس الصعداء..
اقرب معاونيه كان يامل ان يكون موت الطاغية بداية لعهد الحرية.. وتخلصا من كابوس الاخطار التى كان الجميع فيها سواسية..
كان الدليل القاطع على أن اقرب الاقربين اليه فى خطر شديد دائم هو مصير.. بوهاين.
يكوف.. تومسكوق..بياتاكونى.. وياقودا..
كلما أرسل ستالين أحد زملائهم للموت كانوا يساءلون بلوعة مفجوعة..
على من الدور الان..؟

موت ستــالين

فى السابع من مارس عام ١٩٥٣ ظهرت الصحف السوفيتية مجللة بالسواد.. ومؤطرة بالخطوط الحزينة..
انه وفى الخامس من مارس عند تمام الساعة الواحدة والعشرين وفى الدقيقة الخمسين مات القائد العظيم..))
وعنـدمـا كانت الصحف ومحطات الاذاعة تؤبن وتتحسر على الفقد الذى لا يعوض للحزب والشعب.. كانت الحرب قد بدات فى الكرملين على وراثة السلطة..
ولم تبرد الجثة بعد، حيث بدأ الكل يفكرون فى تامين (مكانتهم) عند وريث ستالين..
ولم يرد احد أن يواصل حياة الارتجاف خوفاً على نفسه امام القائد المحبوب الجديد..
الشيء الذى كان يدور فى رؤس هؤلاء الناس، أستطاع خرتشوف أن يعبر عنه أصدق تعبير فى جلسة اللجنة المركزية..
ماهى مسئولية أعضاء اللجنة المركزية عن جرائم ستالين..؟
قال خرتشوف مجيباً..
قبل كل جلسة للجنة المركزية كان كل عضو مشتركا فيها قد ودع اسرته قبل ان يجيء للاجتماع، فهو لا يدرى وان كان يعود الى اهله مرة اخرى.
وفى يوم دفن ستالين وصل النفاق فى المعسكر الى اقصى مداه..
عنـدها اعلن آن ذلك اليوم هو يوم الحزن.. وكان على السجناء الا يذهبون للعمل..
وسرالسجناء لذلك قال بعضهم لبعض..
اذا كان يوم دفن ستالين يوم راحة عن العمل بانه يكون جيدا اذا مات فى كل شهر ستالين صغير اخر.
وعلى رنين الجرس تجمع السجناء فى الساحة.. وقفت كل وحدة على جانب منفرد وفى منتصف الساحة.. وضعت منضدة، صعد عليها ذلك الضابط الذى عذب السجناء عذاباً شديداً..
ومن على المنضدة صاح فينا امراً..
اخلعوا قبعاتكم..
وامتثلنا للامر.. وقف كل السجناء ورؤسهم عارية يحملون قبعاتهم بأيديهم ورن صوت المعذب فى الساحة قاسياً..
فى هذه اللحظة يدفن القائد الكبير للشعب السوفيتى ولكل العالم المحب للحرية والسلام..
وعند تلك الكلمات اخذ السجناء يسعلون بصوت مرتفع..
ونظر ضابط الـ (م.ق.د) حول نفسه وتابع كلامه..
يدفن المحبوب جوزيف فساريونوفج ستالين فى ضريح بالميدان الاحمر..
ومع كل الشعب ناسف لفقد قائدنا المحبوب.. ونقسم فى هذه الساعة بأننا سنعمل أكثر

واحسن..
صمت معذبنا.. وصمتنا لمدة ثلاث دقائق..
وفجاءة سال احد السجناء بصوت عال..
المواطن المدير، في حسابي بعض النقود التي ارسلتها لي زوجتي..
ولما كنت لا استطيع انفاقها على نفسي فساعطيكم منها جزءا لشراء باقة من الزهور
توضع على ضريح قائدنا المحبوب.. فهل هذا ممكن..
عليك ان تكتب طلبا بهذا المعنى لرئيس المعسكر.. والان انصراف..
وعدنا الى العنابر..
سخرنا من الـ (م.ق.د) بلا حدود.. لقد تحدث الضابط كثيرا عن موت ستالين وعن
اسبابه.. كان واضحاً ان النشرة الطبية أعلنت فقط السبب الفزيولوجي للموت ولكن
يجب ان لا ينمحي من الذاكرة ان الضربة التي الحقها به الشيوعيون اليوغسلاف وعلى
راسهم تيتو كانت ضربة قاصمة للظهر..
ومنذ عام ١٩٤٨ لم يهدا لستالين بال..
الرجال الذين حوله كانوا يقولون ان ستالين ظل يفكر ليلاً ونهاراً في طريقة الانتقام من
الشيوعيين اليوغسلاف..
كان يخطط للتدخل العسكرى ضد يوغسلافيا.. قالوا ذلك صراحة..
وقد صرح مولوتوف - ساعده الايمن - بأن الاسابيع القادمة ستشهد كيف يسحق
الشعب اليوغسلافي عصابة تيتو
وحين يذكر رجال كمولوتوف الشعب فهو يقصد دون شك العصابات التي تعمل في خدمة
الـ (ن.ك.ق.د).. وبين صفوف الـ (ن.ك.ق.د).. ايضا..
وكان ستالين يامل بمساعدة مئات من عملائه خلق جو من الفوضى والشغب يهدد به
لتدخله العسكرى وغزوه ليوغسلافيا.. حيث على الحكم السلطة التي تستمع وتخضع
له في كل شيء..
ولم تنجح خططه.. لوحدة الشعب اليوغسلافي والتفافه حول قائده تيتو.. والضربة
الثانية المهلكة تلقاها ستالين عند فشل محاولته في كوريا الجنوبية.. وقد اعتقد ستالين
وهو يرى مافعله هتلر بالعالم ان الحرب الخاطفة في كوريا الجنوبية ستنتهي
لصالحه..
وبالرغم من كل التحذيرات وحتى عندما وصل الوزير الامريكي دلاس الى خندق كوريا
الجنوبية اعلانا بان امريكا لن تسمح بانضمام كوريا الجنوبية الى المعسكر السوفيتي
عن طريق القوة.. بالرغم من ذلك كله كان ستالين قد بدا الحرب وهو مؤمن بالانتصار
وبانه سيلقي بالامريكان في البحر.. كما قال في احدى خطبه..
ولكن هذه لم تنجح ايضا
وبدأ ستالين يخطط لحرب جديدة
خلق ارضا خصبة للدعاية الكاذبة عن حفظ السلام

وكـالعـاة دعى باليـاهرنبيرج ـ ايليوت.. بيترجونسون.. كورى.. واخرين من كبار الشخصيات الادبية والفكرية ذات الوزن الحضارى العالمى لكى ينظموا مؤتمر السلم الذى تهاجم فيه الامبريالية..
وخدع بذلك أناس شرفاء كثيرون..
فمن هو الذى لا يريد السلام..
كل ذلك واكثر لم يستطع ستالين الذى كان ياكل نفسه ان يعيشه..
وليس غريباً، على كل حال، ان تكون لموت ستالين دلالة خاصة فى المعسكر وفجاة بدا السجناء يؤمنون بانهم يوماً ما سيصبحون احرارا..
الحرس.. موظفو السجن.. رؤساء الحرس.. كل انسان هنا احس بأن عهدا جديدا سيبدأ..
وبالرغم من ان نقاشاً مثل هذا لم يجر بين الحرس والسجناء حول موت ستالين الا ان الجميع شعروا بأن الامور ستكون مختلفة..
أول شىء فكروا فيه هو ضعف النظام..
اعلن السجناء صراحة ان العمل شاق جداً.. ولم يدعهم احد لتحمل المسئولية..
السجناء الذين يحصلون على خبز اقل لانهم لا ينجزون المعدل الاحصائى للعمل، قالوا انهم جوعى لن يعملوا.. فحصلوا على وجباتهم كاملة..
وادخلت العطلات.. اربعة ايام فى الشهر..
وبدلا عن ارسال خطابين فقط للاهل فى السنة، سمح للسجين بخطابين فى الشهر..
وفقدت ادارة السجون سيطرتها..
وبعد مضى شهرين حاولت الادارة ان تستعيد هيبتها وحزمها.. فدفعت ببعضالسجناء الى زنزانة الحبس الانفرادى التاديبية.. ولجأ الحرس الى تعذيب السجناء.. ولكن كانت هذه كلها مجرد محاولات لاعادة الوضع القديم.. وكان الجميع يعلمون ان الزمن قد ولى.. وفى المعسكر لم يصل سجناء جدد بانتظام.. والذين جاؤنا من سجون التحقيق قالوا ـ لا يوجد سجناء جدد.. وفى المعسكرات كانوا يعلمون ما يدور فى قمة جهاز الحزب من صراعات.. وتحدث الكثيرون عن الحرب من أجل السلطة التى كان ملتهبة متاججة الاوار..
وحـدث اضراب شديـد لدى سمـاع نبا تعيين المارشال زيكوف وزيراً للحربية.. لان السجناء كان يعلمون ان ستالين قام بنفى زيكوف.. والنفى دائما هو المرحلة الاولى قبل التصفية الجسدية..
وكان ذلك هو الحال مع توهاجفسكى.. وقامارنيك.. وباكبر وبلوهير.. واخرين من القادة العسكريين للاتحاد السوفيتى..
كنت اعلم انه قد بقيت لى شهور على انقضاء العقوبة.. وكنت اعد ماتبقى لى.. وافكر.. كيف انى حين انال حريتى ساكون مجبراً على الحياة فى قرية من قرى سيبيريا..
وكنت واثقا ومستيقنا ان هذه ليست حرية حقيقية.. وذلك لان السجناء السياسيين بعد

انقضاء فترة العقوبة لا يسمح لهم بالعودة الى اسرهم.. وان الـ (م.ج.ب) هو الذى يحدد مكان اقامتهم.. ولكن الحياة فى المنفى خير من الحياة فى المعسكر.. وتملكنى حنين جارف لان افلت من قبضة رئيس الحرس.. وبوليس المعسكر.. والكلاب البوليسية.. والـ (ن.ك.ق.د).. والمدير.. والجبابرة الاخرون..

ثم سمعت من بعض الذين عاشوا فى المنفى ان الظروف هناك سيئة للغاية.. لدرجة ان الكثيرون يحلمون بالعودة الى المعسكر..

وفى تايشت عاش كثيرون من المنفيين الذين كان بالامكان التحدث معهم.. وكانوا فى كل فرصة يرجـون السجنـاء ان يبيعوا لهم جزءا من ملابسهم.. وعند مرورنا بشوارع تايشت راينا صفوفهم الطويلة امام متاجر الخبز والمواد التموينية الاخرى..

ومن خلال النوافذ شاهدنا كيف يجلس الناس فى الحجرات وعلى ضوء الشموع ياكلون عشاء قليلا لا يسمن ولا يغنى من جوع..

وعلى ذلك لم يكن حال المنفيين سارا.. ولكن رغما عن كل شىء حننت الى نيل حريتى والخروج من المعسكر..

كانت الحرية هاجسا ملحاً داعب خيالى ورؤاى فى كل لحظات وجودى هنا..

حريتى اين هى..؟

ولو كانت مؤقتة.. اين هى::؟

وكثـيراً ماكنت اراقب ملابسى المهترئة الممزقة.. والحذاء الذى لا يسر من يرى حاله..

وسالت نفسى..

كيف يمكننى الخروج بهما الى الحرية..؟

كنت آمل ان لا ياخذوا منى ملابس السجن.. اما الارقام فانا كفيل بمحوها..

وكتبت رسـالة الى زوجتى.. اخبـرتهـا بانى قريبـاً ساكون حراً.. واننى استطيع ان احتويها بين ذراعى واحتضنها ثانية.. ولم تكن هذه هى المرة الاولى التى اكتب فيها مثل هذا الخطاب الى زوجتى خلال السبعة عشرة عاما الماضية..

وكنت احس بانها لن تصدق..

ولكنها كانت ترسل الطرد فى الموعد المناسب.. وفى الطرد الذى استلمته قبل شهر من اطلاق سراحى وجدتها قد ارسلت لى بدلة شقيقها الذي قتل فى الحرب.. وزوجين من المـلابس وحذاء اشترته من مرتبها البسيط وسررت كثيراً.. سررت بلا حدود.. فاخيرا استطعت ان اؤمن لنفسى اهم الاشياء..

واهتم أصدقائى فى المعسكر بالامر الجلل الخطير..

اوسكار لبتيخ الذى كان يعمل خراطا فى ورشة صهاريج البنزين صنع لى اثنين من الالمونيوم وقلمين من اقلام الحبر لم يختلفا فى شىء عن تلك الاقلام التى تصنع فى المصانع..

هاينز قويرز نظم حملة سرية لجمع النقود واحضر لى ثلثمائة روبل..

كل ذلك ملانى شجاعة واعطانى املا.. زملائى ورئيس العمال كانوا يعلمون أن سراحى

سيطلق قريبا.. ولذلك فقد سامحونى فى اداء العمل.. وكثيرا ماكانوا يجبروننى على الراحة وهم يبتسمون ويقولون..
سوف تجد امامك فرصة كافية للعمل..
ولكن..
ولكن ماذا هل تعتقد بان الحرية ستسقط على فمك الطير المشوى..
وكنت اعلم كل ذلك فتغرورق عيناى بالدموع..
وبدات اعد الأيام..
عشرة ايام اخرى..
ثمانية.. يومان..
واخيرا جاء اليوم قبل الاخير..
وفى المساء دخل رئيس الحرس العنبر وقال لى..
غدا لا تذهب للعمل..
واحاطنى الزملاء مهنئين..
كانوا يعلمون اننى ظللت اشك كثيراً فى انهم سيطلقون سراحى.. ورتب الاصدقاء ورديات عملهم لتكون ليلية حتى يبقوا معى الساعات الاخيرة لى.. وكان هناك اوسكار ـ لبتيخ ـ هاينز قويرز.. وهلمت روث..
وعادت عيناى تمتلئان بالدموع..

اليوم الاخير في المعسكر

في الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٩٥٣ سمعت صوت جرس الاستيقاظ الذي رن في اذني رنينا غريبا.. اخر جرس اسمعه في المعسكر..
ودخل اصدقائي العنبر..
اليوم لن نذهب اليالافطار..
سنفطر هنا معك..
كلنا مع بعض..
اخرج اوسكار من معطفه المبطن علبة (فواكه معلبة).. واحضر ماينز السكر.. وهلموت قطعة كبيرة من شحم ولحم الخنزير..
ولم اكن اعلم ابدا من اين اخضروا هذه الاشياء..
كنت على يقين من انها كلفتهم جهدا كبيرا..
وعندما انتهينا من الافطار حضر رئيس الحرس وسأل:
ــ اين شتاينز..؟
ــ نعم.. انا هنا..
ــ هيا معي..
واتجهت معه الى المخزن الذي كانت به حقيبتي وملابسي.. وفي غرفة الحرس خلعوا عني ملابس السجن بحضـور ضابـط الـ (م.ق.د) وتم تفتيشي بدقـة شديدة ثم امر الضباط ان يجدوا الوريقة..
كان يعتقد انني احمل معي وريقة لاكتب فيها عنواني الجديد للسجناء..
ولم يجدوا شيئا عندي.. ثم وقعت بعد ذلك على ايصال باني استلمت حاجياتي ونقودي وانني لا اطالب ادارة السجن بشيء.. وقد وقعت رغم انهم لم يعيدوا لي نقودي وملابسي التي اخذوها مني قبل سبعة عشر عاما..
وفي الساحة كان ينتظرني ثلاثة من اصدقائي.. ودعوني وداعا مؤثرا..
ولم ارهم بعـد ذلك الا اني علمت فيمـا بعد بان هلمت روث واسكار لبتيخ قد سلما للسلطات الرومانية..
اما هينز قويرز فيقيم في (اوزرلاق) المعسكر رقم (١٣)..
وفتح الباب..
كان في انتظاري جنديان مسلحان.. قاداني الى بيريسلكي..
وهذه هي المرة الرابعة التي آتي فيها الى هذه المحطة المرحلية..
ولكنني الآن في طريقي الى الحرية..
انزلوني في عنبر السجناء الذين قضوا فترة الحبس وينتظرون الان اطلاق سراحهم..
وفي الحال علمت ان الامر ليس بالسهولة التي يتخيلها به المرء..
كان هناك اناس ينتظرون هنا منذ ثلاثة اشهر.. رغم انهم قضوا فترة العقوبة كاملة..

وكان الامر صعبا على بعض الذين اصبحوا غير قادرين على العمل في المعسكر.. وكان يجب على ذويهم التعهد برعايتهم.. ولكن اين هم الاقارب الذين كانوا على استعداد لرعاية انسان قضى عشرين عاما في المعسكر.. ان امثال هؤلاء الاقارب اصبح وجودهم نادرا جدا..

ولذلك كان يتعين على اولئك التعساء ان ينتظروا حتى يدبروا لهم اماكن في ملاجيء الـ (م.ق.د)..

اما الاجانب منهم كان وضعهم صعبا للغاية..

وقد قابلت هنا الرائد النمساوي شوسلر.. الذي كان في فينا مدير لقسم المصانع بوزارة الحربية.. وهذا القسم اضيف قبل انتهاء الحرب بعامين للجستابو ورحل الرائد للاقامة في فندق متروبول الذي كان مقرا للجستابو..

قبض عليه الروس عام ١٩٤٥ وحكموا عليه بثماني سنوات انتهت في مارسم عام ١٩٥٣م.. ولم يطلقوا سراحه.. فقد كان مريضا، وكان نمساويا ايضا..

ورجاهم ان يعيدوه الى وطنه فوعدوه بذلك.. وذات يوم استدعوه الى مكتب المعسكر واخذوا توقيعه على وريقة لم يستطع ان يقرا فيها حرفاً.. فما كان يعرف من الروسية سوى بضع كلمات.. وقال له الموظف ان هذا اجراء ضرورى جدا لكى يتمكنوا من ترحيله الى النمسا.. وكان هو سعيداً للغاية ووقع بطيب خاطر..

ومرت الاسابيع ومازال الرائد شوسلر قابعا فى المحطة المرحلية..

وعندما دخلت الى العنبر منطويا على نفسه فى ركن العنبر..

وكنت قد تعرفت به من قبل فى المعسكر عام ١٩٤٩.. عندما حييته نظر الى وكانما يرانى من خلال ستار ضبابى كثيف..

ثم صاح منفعلاً..

شتاينز..

واحتضننى وبكى بعنف وحرقة..

وحكى لى العجوز المنهار متاعبه.. فاقترحت عليه ان نذهب سوياً الى المكتب وسوف اكون مترجماً له..

وقد اوضحت لمدير قسم العمل والمراقبة الغرض من حضورنا فصاح بى بحدة شديدة..

ماذا يهمك من موضوع شوسلر..؟ اعمل حساب خروجك انت اولا..!!

نحن من بلد واحد.. وقد رجانى أن اترجم له لانه لا يعرف الروسية..

وصرخ المدير فى وجهى..

اخرج من هنا..

وخرجنا الى الممر.. واتفقنا على خطة جديده.. قررت ان احاول عند مدير المعسكر..

وعندما دخلت غرفة مدير المحطة المرحلية وقعت عيناى على ذلك الضابط (بدون رتبة) والذى كان اخر المحققين معى وكان عاطفاً على جدا..

وسالنى..

ماذا تفعل هنا..؟
وحدثته بانهم اقتادونى الى هنا ريثما يطلقون سراحى.. وحكيت له موضوع شوسلر وانه قد طلب منى ان أكون ترجماناً له..
فاستمع الى بعطف شديد وامر السكرتيرة ان تحضر ملف شوسلر..
وسرعان ماجاءت وهى تحمل الملف.. وقرا المدير بصوت عال محتويات الوريقة التى وقع عليها شوسلر.. والتى جاء فيها انه لا يرغب فى العودة الى النمسا..
وترجمت ذلك للرائد شوسلر..
فقال فزعا وكانما لدغته أفعى..
باسم الاله انا لم أوقع على ذلك ابدا..
وساله المدير وهو يريه التوقيع..
اليس هذا توقيعك..؟
نعم.. ولكنى لم اعرف محوى هذا الذى وقعت عليه غير الان..
وقال المدير..
هذا الامر منته.. عد الى العنبر..
وبكى الرائد شوسلر.. وانهار على نفسه.. فحملته بصعوبة شديدة على السير الى العنبر.. وهناك اخذ ينتحب ويقول..
هذا خداع.. هذا غش..
وفى مدة الاربعة أيام التى قضيتها معه كان على ان أهدى من روعه..
ووعدته بانى ساخبر زوجته التى كان تقيم بفينا فى نمرة ثمانية ـ سايد نقاسى..
وعند وداعى له بكى شوسلر بصوت عال ملتاع.. فجاء جميع المنتظرين وسالوا ما الخبر وحين قصصت عليهم نباه صاحوا.. ياللعار.. ياللعار..
وللمرة الاخيرة رايت جموع الوافدين الجدد للسجن والذين حوكموا بخمسة وعشرين عاماً فى المعسكرات.. وكانوا يبدو عليهم الاستهتار واللا مبالاة.. فهم على ثقة من انهم سيعودون الى قبل عيد الميلاد.. وفكرت بحزن واسى.. ان الكثيرين منهم لن يروا بيوتهم واسرهم ابداً..
وفى ذلك اليوم اطلق سراح ٤٢ شخصا من (اوزرلاق).. واستدعونى الى المكتب وقرأوا على قرار الـ (م.ج.ب) بان كارلو شتاينز الذى حوكم تحت المادة ٥٨ الفقرات ستة وثمانية.. تسعة ـ وعشرة والذى قضى فترة عقوبته ومدتها سبعة عشر عاماً فى السجن والمعسكر يرسل مدى الحياة للمنفى فى منطقة كرسنويارسك أن تحدد مكان الاقامة الدائمة له ـ كارلو شتاينز ـ والذى لا يسمح له بمغادرتها ابداً الا باذن من الـ (م.ج.ب).. وفى حالة مخالفته لهذا الامر سيحاكم بعشر سنوات سجناً فى المعسكر..
وكان على ان اوقع..
نعم.. هكذا تظل هى الحرية السوفيتية..
ولم اكن اتوقع خلاف ذلك..

واطلق سراحي..
وظننت اننى استطيع الذهاب الى المنفى وحدى..
ولكن سرعان ما تاكد لى اننى غيرت فقط قيداً بقيد.. بال بجديد..
ومرة أخرى فتشونى..
ومرة أخرى ـ ايضا ـ ادخلونى العربة السوداء ـ ماريتسا السوداء..
واوصتنا الى محطة السكة الحديد فى تايشت..
وانتظرت القطار المنتظم هباروفسك ـموسكو..
ومرة أخرى ايضا على متن عربة السجن المتحرك (ستولبن فاقون).. والتى كانت ممتلئة حتى اخر نفس فيها..
كانت تحمل المرضى.. من معسكر كوليما الضخم..
مرضى الاسكربوت.. الذين حيونا قائلين..
نهاركم سعيد ياأخوة الى اين تسافرون..
الى كرسنويارسك..
وعلمنا من السجناء المرضى انهم يقودونهم الى معسكر كاراقندى.. وكان معظمهم قد فقد أسنانه..
وبدأت أوجه الشبان كاوجه الرجال المسنين..
وفى العربة شممت رائحة كريهة للغاية.. كان بعضهم قد تقيحت جروحه المفتوحة والتى هى فى حجم كفة اليد.

الجزء الخامس

كيف تعجبك الحرية..؟

كنت سعيدا ـ رغم كل شيء ـ عندما وصلت في الصباح الباكر الي كرسنو يارك.
و في المحطة كانت عربة السجناء تنتظرنا..
وضعونا نحن الثمانية عشر في شاحنة.. نقلتنا الي السجن الكبير..
ثم قفلت الابواب خلفنا، فنزلنا من الشاحنة.. وجلست انا علي حقيبتي..
مبنى كبير من اربعة طوابق.. ومئات النوافذ.. بالقضبان الحديدية.. وسألني جاري..:
ـ كيف تعجبك الحرية..؟
ـ الصبر يا عزيزى .. الحرية لن تاتى بسهولة..
ومن المبنى المجاور خرجت مجموعات الجنود..
نادوا علينا كل واحد علي حدة..
ـ ما اسمك..؟
ـ كارلو شتاينر..
ـ المادة .. ومدة العقوبة..؟
ـ مدة عقوبتي قضيتها..
ـ لا يهمني هذا.. انت سجين بالنسبة لى..
وفتشوا حقيبتي .. وملابسي.. وجسدى.. تفتيشا دقيقا، استغرق اكثر من الساعة ولولا ان الامطار هطلت بغزارة لما توقف الجندى عن التفتيش.. ثم وضعونا مع حاجياتنا في مبنى ارضى .. الزنزانة رقم تسعة.. كانت عبارة عن قاعة كبيرة ذات تعرجات عديدة.. كل كنبة لشخصين.. وكأن العدد يزيد على المائة..

وراودنى احساس بانى في سوق شرقي.. ازدحام شديد وحركة متصلة هؤلاء يمشون هنا وهناك قلقين متوترين..
ولم يحس احد باننا دخلنا مكانا غريبا.. واخذنا نبحث عن مكان.. صعدت الي الكنبة الثانية ومعى احد الروس، وآخر من اللتفانيين.
حدثنا الذين كانوا هناك.. بانهم من تايشت وانهم ينتظرون منذ اسبوع ليرحلوا الي المنفى.. وقال بعضهم انه بقى لاسابيع عديدة..
قيل بان الاغلبية ستسكن في الغابة ومعنى ذلك انها ستعمل فيها ايضا..
ولاحظت بانهم لا يخفون الخبز فعجبت وتساءلت عن ذلك فجاءنى الرد..
ـ الخبز هنا لا يمسه احد.. ولكن الاشياء الاخرى يجب المحافظة عليها..
ووزع علينا خبز الغداء في الباب.. كل فرد يتقدم لياخذ نصيبه.. كانت الفتيات الموزعات يحملن شريطا اصفر حول ايديهن كتب عليه (سجين).. اعطونا من صفيحة كبيرة الحساء الروسي المصنوع من الكضروات، وكن يعلمن اننا من الطلقاء.. فاخذن يمزحن معنا واسمونا "العرسان" ورد عليهن السجناء بكلمات مماثلة..
بعد يومين قادونى الي مكتب السجن.. ملأ الموظف الاستمارة بدون اسئلة جديدة.. وكان

علي ان اذكر مرة اخرى اسمى ـ المادة ـ العقوبة الوظيفة ثم وقعت .. وسالت اين ساذهب..؟

ـ ستعلم في الوقت المناسب ..

وجاء اليوم الذي سمعت فيه اسمي ضمن خمسين سجينا نادوا عليهم.. وفي احدي ساحـات سجن كرسنـويـارسك وقفت خمس عشرة امراة.. بينهن اثنتان باطفالهن .. وبالقرب من الحارس وقف تاجر العبيد بانتظارنا .. واخرجونا واحدا واحدا امام النخاس.

كان يكشف علي كل واحد وهو يوجه الاسئلة.. ووقع اختياره علي الجميع ما عدا ثمانية رفضهم.. واعادوا امراة لان طفلها كان يبكى باستمرار مما اثار تاجر العبيد..

وتاجر العبيد هذا هو ممثل مؤسسة المبانى التي تبنى في منطقة ينسيسك ملجا كبيرا للعجزة الحربيين..

اختياره للقوى العاملة كان يتم علي نظام العبيد في القرون الوسطى.. وعندما يختار التاجر.. يذهب الي مكتب السجن لكى يوثق استلام (العبيد)..

****

صديقى يتزوج..!

عندما كنا في انتظار عودة تاجر الرقيق.. تعرفنا علي النساء. الشاب اللتفانى الذي كان يلازمنى بلا انقطاع قال لى..

ـ وجدت امراة..

ـ اين هى..؟

ـ الثانية في الصف الثالث..

ـ ذوقك جيد..

وعاد تاجر الرقيق يصحبه جنديان.. وفتح الباب ودخلت الفناء شاحنتان و في اثناء ذلك خاطب اللتفانى الفتاة..:

ـ هل تعلمين انك ستصبحين زوجتى..؟

نظرت اليه الفتاة باستغراب شديد، فاستمر يقول..

ـ نعم افكر جديا.. وانت تعجبيننى.. ما هو اسمك..؟

ـ فانيا..

ومن طريقة العرض .. واجابة الفتاة عندما نطقت باسمها علمت انها توافق علي زواجها به..

وعندما اخذت في الحديث الودى مع الشاب اللتفانى قالت لامراة كانت تقف معها..

ـ كاتيا وجدت زوجا..

ومدت كاتيا يدها تصافح الشاب اللتفانى مهنئة..

واشارت فانيا الىّ قائلة..

ـ هذا صديق زوجى يا كاتيا..

ثم اخذت تتحدث معى وعنى وكاننا اتفقنا علي كل شيء.

وتطّور ذلك فخاطبنى باسمى مجردا..

ـ كارلو.. انت وانا...

قاموا بتقسيمنا بعد ذلك الي مجموعتين.. فصعدنا مع اشيائنا الي الشاحنة.. وعندما مررنا بمدينة كرسنويارسك، اتجهنا شمالا علي طول شارع البوستة القديم، والذي لم يكن ممهدا لمسيرة العربات.. وكانت القيادة شاقة جدا علي السائق.. ثم هبت الرياح، وتسللت البرودة الي اجسادنا رغم اننا جلسنا ملتصقين ببعضنا البعض... وكان الوحيدان اللذان لم يحسا بالبرد او يشعرا به، هما العاشقان صديقى اللتفانى وفانيا..

وكانت الشاحنة عندما تمر بالقرب من القرى كنا ننقر علي سقف السائق ونرجو الجندى ان يتوقف امام الحانة ـ جايناى ـ..

كانت قائمة معروضات الحانة نصف ممتلئة بالاشياء الموجودة.. فمن كان يملك نقودا شرب فودكا او شايا.. الرغم من ان الحارس منع ذلك..

وسالنا رواد الحانة من اين جئنا والي اين نتجه.. وكانوا من المنفيين الذين عاشوا

هنا السنوات الطويلة.. ثم واصلنا الرحلة... وفي اواخر المساء توقفنا امام احدى الحانات..
وقام حارسنا بتسليم قائد الـ(م.ق.د) في القرية اربعة نساء تم نفيهن الي هنا.. وبذلك اتسع المجال في الشاحنة قليلا.. فواصلنا الرحلة بعد ان احتسينا الشاى مرة اخرى..
واصلنا السير داخل الغابة ليلا.. واصبح من النادر ان نمر بمكان ماهول وعندما تقع ابصارنا على ضوء في الافق البعيد كنا نامل ان يكون قرية حتى نرتاح قليلا..
واستمرت هذه اللعبة..
استمرت لساعات عديدة.. عديدة حتى صبيحة اليوم التالى..
وعندما اشرقت الشمس وصلنا الي هدفنا تماما..
كان اسم المنطقة نوفوستروبك..
وهى منطقة جديدة لم تطلق عليها وعلي احيائها السكنية اسماء بعد..
كانت نوفوستروبك هذه تقع علي بعد ثلاثمائة كيلو متر من كرسنويارسك..
وقد استغرقت رحلتنا اليها اربع وعشرين ساعة بالتمام والكمال..

فــى الـمـنـفى..
بــين الـمعـوقيــن

ثلاثمائة وعشرة كيلو مترا من منطقة كرسنوريارسك..
وثلاثون كيلو مترا من منطقة وسط ينسيسك..
قُطعتْ اشجارها ونظِّفت تماما..
كانت المساحة التي ستبنى كمنطقة سكنية جديدة، حوالى الخمسمائة كيلومترا مربعا..
عندما وصلنا الي نوفوستروويكخ راينا بعض المبانى الخشبية التي تتكون من طابقين وقد اوشكت علي الانتهاء.. كما راينا الي جانبها حوالى الستة مبانى ذات الطابق الواحد وهى تكون في مجموعها مؤسسة القرية.. وهنك ايضا مبنى جيد البناء من الطوب.. لم يكتمل بعد.. وبالمقارنة مع منازل القرويين نصف المنهارة التي رايناها في طريقنا.. كانت مستعمرة المعوقين هذه شيئا جميلا رائعا..
ورأينـا في السلحة الواسعة مدير ملجا العجزة ينتظرنا.. وكان هو الآخر من معوقى الحرب.. فقد رجله اليسرى..
وقام ضابط الــ(م.ق.د) بتسليم المدير القوى العاملة الجديدة.. وقد تم توزيعنا علي الغرف بواقع اثنين او ثلاثة لكل غرفة..
وكــان من نصيب صديقنا اللتفانى هو وفانيا غرفة منفصلة.. واقترحت كاتيا بصوت خفيض ان نحتل انا وهى الغرفة المجاورة.. وبدلا من الرد عليها رفعت صوتى سائلا المدير:
- اين تقع البوستة؟ فانى اريد ان ارسل برقية لزوجتى في موسكو. وفهمت كاتيا.. فاخذت حقيبتها وانضمت لبقية النسوة..
اعطونى سريرا بمرتبة وغطاء ووسادة وملاءة..
ورقدت كانى في حلم..
اخيرا وبعد كل تلك السنوات المرة ينام المرء كانسان.. وبعدها قادنا المدير الي غرفة الطعام حيث حصلنا علي وجبة غنية..
وبعد الغداء حضر ضابط الــ(م.ق.د) والقى علينا خطبة قال فيها...
"انتم الان احرار.. ستعيشون وتعملون هنا.. والذى يريد ان يؤسس عائلة جديدة يمكنه ذلك.. ومن يريد ان يرسل لاحضار عائلته القديمة، فذلك ميسور له..
ثم يجب ان تعرفوا انه غير مسموح لاحدكم علي الاطلاق بالابتعاد عن المنطقة السكنية الا بذان من الــ(م.ق.د).. والذي يريد كذلك ان يزور المدينة عليه ايضا ان يطلب اذنا بهذا..
وخلدنا الي الراحة اليوم ولكي نتعرف علي المنطقة السكنية واهلها. كان ملجا العجزة هذا محاطا بسياج خشبي.. وخارج السياج الخشبى كانت هنالك مجموعة من العنابر التي يسكن فيها عمال المنطقة السكنية الجديدة..

وهم في الغالب من اولئك الذين قضوا فترة عقوباتهم وتم نفيهم الي هذا المكان..
وكانت غالبيتهم تحيا حياة اسرية مع زوجاتهم اللاتي كن سجينات قبل ذلك.. وبعض الاخريات من نساء المنطقة..
وراقبنا كيف يعيش هؤلاء الناس.. كانوا بعد العمل يذهبون لاطعام مواشيهم .. وبعدها يجلسون للعب الورق ويحتسون الفودكا مع "مخلل العجور" والنساء يجلسون قرب ازواجهن ويتدخلن في مجرى اللعب وعندما لا يستمع الرجال الي مشورتهن بشان ذلك، تنشب المشاجرات.. في ايام الاعياد كانوا يبدون حيوية اكثر ويرقصون علي انغام الهارمونيكا..
وفي الصباح جاء صراف ملجأ العجزة وقدم للطلقاء سلفية مالية عبارة عن خمسين روبلا لكل واحد منهم. وكان المتجر الصغير يحتوى بجانب الادوات الرئيسية والفودكا. علي انواع اخرى من القمح والزبد وبعض السكر.
وفي العراء كنا نعمل في المعسكر، عملنا هنا.. تكونت من كل ثلاثة اشخاص مجموعة عمل.. اثنان يقطعان الشجرة ويرميانها علي الارض والثالث ينجز العمل بازالة وقطع الاغصان والفروع عنها.. ثم نرصها بعد ذلك في مجموعات..
وفي المساء حضر المدير..
حاسبنا علي كل متر خشبى مربع بثمانية روبلات.
ولم يكن بالاستطاعة قطع اكثر من ستة او سبعة امتار للشخص الواحد.. متوسط ما كنا نحصل عليه يتراوح بين خمسة عشر وثمانية عشر روبلا..
وعلى بعد حوالى الكيلومترين من ملجا المعوقين المستقبلي، كان يقع ملجا المعوقين القديم..
قرية صغيرة اسمها كوزمنك تتكون من مجموعات منازل القرويين.. ولكن هنا، ومنذ زمن طويل لا يعيش القرويون..
السكان الاثرياء نسبيا عملوا علي ترحيلهم في فترة التامين.. والبعض هجر الزراعة وعمل في مناشير الاخشاب القروية..
كانت منازل القرويين خاوية علي عروشها لسنوات عديدة..
ثم افتتح الـ(م.ق.د) ملجـا العجـزة.. واستوعب الذين بقوا علي قيد الحياة في المعسكر والذين فقدوا صحتهم..
وكان يسكن هنا كذلك بعض الناس الذين يعملون في منجم كوليما للذهب.. ومنجم اليورنيوم في نورلسك.. ومنجم الفحم في وركوت وجليباينسك.. وبعض قاطعي الاشجار من غابات سيبيريا.. اكثرهم اعمياء لا يبصرون.. وبعضهم فقد احد اعضائه.. يديه ساقه.. الخ.. وكان هناك مرضى الاسكربوت والصرع..
وتحدثت مع الكثيرين منهم بعضهم قساوسة من ديانات مختلفة وبعضهم من اساتذة الجامعات.. وبعضهم من العمال والفلاحين..
وكان الجميع ـ رجالا ونساءً ـ يصابون بالجنون .. حتى الموت..!

والذين كانوا قادرين علي العمل منهم عهد اليهم امر تنظيف الغرف.. والذين كان باستطاعتهم المشي تمشوا دون ان يفعلوا شيئا.. ربما كانوا يقراون الكتب فقط .. او الجرائد..
هنا كان يسود جو من الحرية غريب علي الاتحاد السوفيتي..
لم يكن لديهم ما يحرصون علي الا يفقدوه..
لم يكن حتى يهتمون بجواسيس الـ(م.ج.ب) الذين كانوا هنا ايضا.
وفي احد المنازل كانوا يقيمون الصلوات يوميا للاله.. وقد خصصوا كل يوم لاحد الديانات .. دون ان يحجروا علي دين واحد.
كانوا علي وفاق ممتاز..
ولم يكن من الغريب ان نرى قس الروم الكاثوليك يتمشي مع رابين مدينة ستانسلاف وكان من الضروري بالطبع ان يمر هؤلاء الناس اولا بجحيم ال.ـك.ق.د حتي يستطيعوا التعايش في سلم كبير..
وكان ذلك الوفاق ميسورا ومتحققا حتي في المقابر.. كانت هناك شواهد الموتى والصلبان الخشبية.. وعليها نقوش وكتابات بالروسية والبولندية والعبرية..
وبعد عمل دام اسبوعين في الغابة استلمت اول راتب لي هنا.. واكتشفت انني بمائتي واربعين روبلا هي كل ما تبقى لي لن استطيع العيش .. وفكرت في البحث عن عمل اخر..
ولم يكن ذلك ميسورا هنا..
قررت ان اذهب الي القرية المجاورة ماكلاكوف.. سمعت انها تقع علي بعد ستة كيلومترات الي الجنوب وان بها صناعات..
وقررت ان استغل اول يوم في فراغي.. فركبت البص الذي يسير في خط ينسيسك ـ ماكلاكوف ـ لاجرب حظى ..
ووقف البص في السوق..
وبحثت عن ادارة المباني، وفي ادارة المباني، وفي المدخل الرئيسي قابلت احد معارفي من معسكر تايشت..
كان اسمه تروفونوف.. حدثته عن سبب مجيئي فقال لى:
ـ هنا يوجد عمل كاف، وسوف اذهب بك لرئيس شئون العاملين..
وصمت برهة يفكر ثم قال لي فجاة..
ـ هيا.. ان الامور ستسير بسهولة اذا ساعدناها بكوب من الفودكا.
ثم قال مضيفا..
ـ انتظرنا في الحانة المجاورة وساوافيك انا والرئيس..
وجلست في الركن.. وطلبت نصف لتر من الفودكا.. وانتظرت..
لم يطل انتظاري اذ سرعان ما ظهر تروفونوف رجل ذو ساق صناعية يتوكا علي عصاه..
قدمني اليه تروفونوف بقوله:
ـ صديق قديم.

وعندما جلسنا رفعنا كئوسنا نخب "الصداقة"..
اتبعتها بنصف لتر آخر من الفودكا.. ثم نصف لتر ثالث.. وعندما اعتلجت الخمر في اجوافنا وتصاعدت ابخرتها الي رؤوسنا قال الرئيس:
ـ ستحصل علي عمل في الورشة بمجرد ان ترحل الى ماكلاكوف.
ورجعت الي ديارى سعيدا بهذا الوعد.. وفي الحال طلبت من ضابط الـ (م.ق.د) تصريحا بالرحيل الي ماكلاكوف.. فرفض طلبى قائلا:
ـ هذا التصريح يمكن الحصول عليه من ادارة الـ(م.ق.د) في ينسيسك. وقد اقتضانى الحصول علي تصريح للسفر الي مركز المنطقة تعبا ونصبا شديدين..
وفى اليوم التالى كنت اقف امام الكابتن ساركوف مدير قسم اعمال المنطقة اشرح له امرى.. فقال لى:
ـ لن تذهب الي ماكلاكوف.. ولكن اذا لم تجد عملا مناسبا في نوفوستروويك.. انصحك بالذهاب الي اوست كيم التي تبعد حوالى الثمانية عشر كيلو مترا.. وفى الضفة الثانية لنهر الينسى ستجد عملا في منشار عوارض قضبان السكة الحديد "الفلنكات"..
وحاولت ان استميل قلبه.. ولكن كل محاولاتى باءت بالفشل..
وقررت أن اسافر الي اوست كيم..
ولدي عودتى الي نوفوستريك سلمت ضابط الـ (م.ق.د) التصريح الذي حصلت عليه في ينسيسك .. والذي سمح لي بمقتضاه السفر الي اوست كيم.
****

أوســت ـ كـيــم

وفي صبيحة اليوم التالى جمعت حاجياتى وودعت زملائى وخرجت الي الطريق انتظر ناقلة.. تقلنى الي مقصدى..
ودفعت عشرين روبـلا فحملتنى النـاقلة المشحونة الي ميناء ينسيسك بعد ساعتين وبحثت عن مدير المنشار الخاص بفلنكات السكة الحديد..
وكان شخصا صارما جدا معكر المزاج.. قابلنى بجفاء وغلظة.
ثم سألنى عن ماضى حياتي.. وكانه قاضى التحقيق.. ثم قال لى:
ـ سأفكر في الامر قابلنى غدا
وبامره وبالوريقة في يدى ذهبت الي العنبر..
وكانت هناك عشرون غرفة سكن للمتزوجين والعازبين..
وادخلونى غرفة بها عشرة من الاسرة الخاصة بالجنود.. كلان يقطن فيها مجموعة من الابهـازيق.. وهم افـراد شعب صغير يسكن القفقاز واحضرت المراة المسئولة سريرا اضافيا حشرناه بين الاسرة الاخرى..
وعنـدما جاء القفقازيون نظروا الي باشمئزاز وكاننى حشرة برغوث.. وخيل الي انهم مستعدون لسحقى في اية لحظة..
وحين علموا بانى نمساوى لانت عريكتهم قليلا وبداوا يعاملوننى بلطف.. وسرعان ما صادقتهم صداقـة مسحت كل اوضـار العداء السابق من نفوسهم.. وعلمت منهم ان بعض الالمان يعيشون معهم في نفس العنبر..
وقدمت نفسي لارنولد ارنو من برلين وكان سعيدا بلقائى..
وارنولد هذا مثله مثل غيره من الشيوعيين هرب من وجه هتلر..
ثم عمل بعد ذلك في الصحف الالمانية المركزية بموسكو.
وفي عام ١٩٣٨ القى القبض عليه وحوكم بعشر سنوات سجنا في المعسكر.
وبعد انقضاء فترة الحكم ارسل من المعسكر للمنفى في منطقة بوليشا مورتا. ومن مورتا الي اوست كيم في عام ١٩٥١..
ونقل الى آرنو بامانة دقائق الحياة والعمل هنا..
وعندما اخبرته باننى سآخذ مكان المايسترو .. اثنانى عن قبول هذه الوظيفة.. لانها وظيفة سيئة جدا فالمايسترو يجرى تغييره هنا كل شهرين او ثلاثة.. وذكر لي آرنوا كذلك ان ثمانين في المائة من السكان هم من المنفيين ، وان نصف تلك النسبة من الالمان..
وهم الذين كانوا يعيشون في اوكرانيا..
وكان الجيش الالمانى قد جندهم ايام الحرب في عام ١٩٤٥..
ثم اسرهم الانجليز في شتايرسك وسلموهم للروس.
وقد ارسلتهم السلطات السوفيتية الي سيبيريا.. وهكذا وصل جزء منهم الي اوست ـ كيم..

وتعرفت علي عدد كبير من من الالمان واسرهم ..
لقد تاقلموا هنا.. وفقدوا كل امل لهم في العودة الي اوكرانيا مرة اخرى.
وفي صبيحة اليوم التالى حين وقفت امام المدير قلت له اننى اريد ان اعمل اي عمل.
وخيل الي انه لم ياسف لانى لا ابحث عن مكان المايسترو وشاقنى ان اكتب لزوجتى ..
فبحثت عن وريقة ومظروف فوجدتهما بعد تعب ونصب..
ماذا اكتب..
انا طليق ..؟
ولكن هذه اكذوبة..
فكتبت بانهم ارسلونى من المعسكر الي المنفى..
وبعد عشرة ايام جاءنى الرد..
جاء بسرعة غير عادية علي الاطلاق..!!
مل هذا الرد كان يستغرق وصوله الي المعسكر الي شهور عديدة..
قالت زوجتى انها سرت لتحسن احوالى ، وابدت رغبتها في زيارتى.
وذكرت انها ارسلت لي طردا وملابسا واشياء اخرى صغيرة.
وكنت احس باننى اريد ان اسبح في الاثير من السعادة وذلك لان زوجتى ترغب في زياتى ورؤيتى.
ورغم ذلك قررت ان اثنيها عن تلك الزيارة.. فالمسافة طولها خمسة آلاف كيلومتر..
والذي يزعجنى اكثر هو مسافة الثلاثمائة وسبعين كيلومترا التي تشكل قوام الطريق البحرى والبرى من كرسنويارسك الي اوست ـ كيم.
وجاء شتاء سيبيريا المبكر.
كنت اعمل ليلا في منشار الاخشاب تحت درجة حرارة يصل معدلها الي اربعين درجة تحت الصفر..
ولم اجد سوى ذلك فوردية النهار ممتلئة كلها.
ومع زميلى القروى القوى السليم البدن من سيبريا ، كنا نشحن فلنكات قضبان السكة الحديد في عربات السكة الحديد الصغيرة التي يجرها حصان من المنشار الي المخزن ومقابل ذلك العمل الشاق كنت احصل علي عشرين روبلا يوميا.. وزميلى الذي لم يكن من الطلقاء بل كان حرا طليقا، حصل علي ثلاثين روبلا يوميا مقابل نفس العمل واشتركت مع آرنو في عمل طعام مشترك بيننا وكان هذا ارخص.. جمعتنى صداقة حارة مع آرنو ووفاق كبير.. كنا نتمشي معا في اوقات الفراغ ونتحدث عن الايام الخوالى في النمسا وبرلين .. وكثيرا ما قمنا بزيارة الالمان الذين سكنوا في منازل خشبية شيدوها بانفسهم.. وكنا نحتسى معهم الفودكا ونحكى الذكريات الخوالى.. كانوا لا يغفرون لانفسهم وقوعهم في الاسر بسهولة ساذجة.. ولعنوا الانجليز الذين سلموهم للروس..
اما الاهالى الوطنيون فكانوا يتهربون من الاجانب ولم تكن لي معهم اي صلات ... وكنا نعلم عنهم انهم يعملون في الكولخوز او في قطع الاخشاب..

وفي بداية عام ١٩٥٤ حصلت علي رسالة من صديقي في ماكلاكوف .. والذي سالنى هل لا زلت ارغب في نفس العمل الذي سعيت وراءه من قبل..؟

وكانت الحياة في اوست ـ كيم شاقة للغاية.

واردت ان انتهز الفرصة المتاحة الآن..

ولكن كيف السبيل الي الحصول علي تصريح بالذهاب إلي هناك ـ من اوست ـ كيم؟

ضابط الـ (م.ق.د) لم يرد ان يسمع منى اي شيء في هذا الخصوص..

ولم يوافق كذلك علي سفرى الي ينسيسك.. لكى احصل علي تصريح من هناك..

وقررت ان اسافر بلا تصريح..

انتظرت ان يذهب الي القرية المجاورة.. وساقطع الجزء المتجمد من النهر دون ان يلحظنى احد.. وسوف يقودنى الالمانى الذي احضر الملابس في العربة الصغيرة من ينسيسك.

فى ينســـيسك

وفى الخامسة من صباح اليوم التالى.. كان الجميع نياما.
رقدت على العربة الصغيرة مدثرا نفسى بغطاء الخيل.. كان آرنو هو الوحيد الذى يعلم اننى ذهبت.
وفى ينيسك ذهبت بناء على توصية من آرنو الى الى امراة من برلين كانت تعيش هناك منفية منذ بدايات الحرب الاولى.. وكان اسمها عديلة هرزبيرق شيوعية ـ هربت الى موسكو بعد وصول هتلر الى السلطة.
وكانت محظوظة جدا.. فحين قرر ستالين تصفية الثورة المضادة نجت هى ولم يلق القبض عليها .. وعاشت حتى بداية الحرب فى موسكو.
وعندما قدمت نفسى لها وبلغتها سلام آرنو استقبلتنى بحرارة شديدة .. وشربت معها الشاى وانا احدثها عن سبب قدومى الى ينسيسك.
واكدت لى عديلة انه لا خطر على، لان الكابتن الذى اقع تحت امرته رجل طيب جدا.
وذهبت معها للكابتن.. فطرحت له مطلبى.. اعطانى وريقة الى ضابط الـ (م ف د) الذى وافق على ذهابى من اوست ـ كيم. ورجعت فى نفس اليوم.
استلمت راتبى عن عملى فى منشار الاخشاب وودعت رفاقى.
وكان آرنو اسفا لابعد الحدود فهو سيبقى وحيدا بعدى.
وتمنيت له ان نلتقى فى اوروبا.. «آرنو يعيش الان فى المانيا الشرقية» ونزلت ضيفا عند عديلة لمدة يومين.. بناء على دعوتها الحارة لى.
ونصحتنى عديلة ان لا اذهب الى ماكلاكوف.. وان ابقى فى ينسيسك. وكنت اجوب شوارع المدينة كلها باحثا عن غرفة لى.
ومـدينة ينسيسك مدينة هامة من مدن سيبيريا قديمة عريقة.. وكانت حتى قبيل افتتاح خط سكك حديد سيبيريا الكبير.
فى بداية القرن العشرين ـ والذى لا يمر بها ـ كانت من المدن الهامة. فلم تكن فقط مكـان اقامة الحاكم ولكنها كانت ايضا مركزا لصناعة الذهب ومنتجات الفراء. وكان اثرياؤها يغامرون باموال طائلة كل [illegible] تدون على موائد القمار اموالا تكفى ان تكون ميزانيات دول صغيرة.
امـا تجـار موسكـو وبتـروقراد فقد بنوا فيها القصور الرائعة وأرسلوا زوجاتهم وابناءهم لكى يتعلموا فيها آداب السلوك والاجتماعيات.
ولانفسهم وعشيقاتهم شيدوا منازل جميلة اشعلوا لياليها بطقوس الفسق والعربدة.
ولم ينسوا اقامة المدارس.
وفى شارع لينين يقع اليوم المبنى الرائع للمدرسة الثانوية السابقة.
شوارعها مازلت تحمل طابع الترف القديم العريق.. كان بها اثنتا عشر كنيسة تهتم

بالجوانب الروحية.

اما اليوم فان ينسيسك ليست مدينة التجار الاغنياء .. وليست مدينة منقبى الذهب، وصائدى الفراء.

فمن سكانها السابقين بقى عدد بسيط من الناس المسنين الذين عاشوا خلف الابواب المغلقة، مغمضى العيون.

وللبحث عن غرفة طرقت ابوابا كثيرة.

ولكن من النادر جدا ان يسمحوا للغريب بالدخول.. وفى احد المنازل فتحت لى الباب شابة صغيرة.

وحين سالتها هل تؤجر لى غرفة.. فكرت قليلا ثم سمحت لى بالدخول الى ساحة الفناء .. وقالت انها ستسال اختها الكبرى.

وسرعان ما دفلت تتهادى امراة رائعة الحسن والجمال فى الثلاثين من عمرها. متوسطة الطول .. متسديرة الوجه.. شعرها اشقر مائل للسواد .. لفت خصلاته الغزيرة حول راسها كالتاج الرائع.. عيناها رماديتان .. نظرت الى متسائلة.. ـ ماذا تريد.؟

واستغربت للسؤال كنت اعتقد ان شقيقتها الصغرى اخبرتها بما اريد وأعدت عليها قولى..

ـ أبحث عن غرفة..

ـ لست أدرى بماذا أجيبك.. وفى الحقيقة لا مانع لدى.. لكن أمي.. وتوقفت عن اتمام جملتها.. ثم فكرت قليلا وقطبت جبينها المتلألئ بمياه الحسن.. ودعتنى للغرفة.. وكان المنزل مكتظا بالاثاثات القديمة.

وبالحجرة دولابان كبيران.. منضدة مستديرة.. مرآة كبيرة.. صندوق خشبى.. وعلى الحوائط صور عديدة للقديسين.. وفى الركن لوحة القديس نيكولا وقد أوقدت تحتها شمعة.

ودخلت الام الى الغرفة.

وفى اللحظة الاولى وجمت ولم تستطع ان تنطق بكلمة وهى ترى اجنبيا فى بيتها.

وقالت ابنتها الكبرى مالكة زمام الامور..

ـ ماما هذا الرجل يريد ان يستاجر غرفة.. ماذا تقولين..؟

ـ لا .. لا.. نحن لا نقبل الرجال الاجانب.

وفهمت انها مرت بتجارب مريرة كثيرة.. قلت لها بصوت حزين..

ـ يجب ان لا تخافين مني.

ـ هل انت على طول هنا..؟

ـ نعم.. انا منفى..

وقالت الام مشيرة الى ابنتها الكبرى..

. انظر اليها ذات مرة جاء احد المنفيين واعطيناه غرفة ونالت ابنتى هذه اعجابه .. ولم

اكن ضد ذلك لانه كان رجلا شريفا.. وتزوجا.. ورزقا طفلا.. وبعد ثلاث سنوات.. طفلا آخر.. وكنا سعداء.. لان رجلا فى بيتنا.. وكان يعمل فى الحسابات..
وذات ليلة من ليالى شتاء عام ١٩٤٨ جاءوا هم..
طردونا جميعا الى حظيرة البهائم.. وبقى هو معهم فى المنزل.. وعندما عدنا للمنزل.. وجدنا المكان وكان زلزالا الم به..
ولم نجده هو ابدا.. لم نره بعدها.. اخذوه معهم..؟ قتلوه..؟ لا ندرى حتى الان ما فعلوا به.
ومن الساحة جاء ولدان لطيفان.. احدهما فى السابعة والاخر فى الرابعة من عمره.
نظروا الى بفضول ساذج اليف..
وقالت الام بصوت حزين..
ـ يشبهان والدهما كثيرا.
ودعوتهما الى ولكنهما سارعا بالاختفاء خلف والدتهما.
وحاولت ان اقنع المراة كى تؤجر لى الغرفة ولكنها همست..
ـ لا.. لا .. لا استطيع .. ارجو ان لا تغضب.
فودعتهم وذهبت.
مثل هذه الماساة التى تقطع نياط القلوب كان يحتويها ضمير كل منزل فى المدينة ينسيسك .. مدينة المنفيين.. او سلالة المنفيين السابقين.
حتى الاطفال فى ينسيسك يلعبون لعبة غريبة.. احد الاطفال يمشى ويداه معقودتان وراء ظهره ويسير خلفه آخر وفى يديه من يشبه ان يكون بندقية.. قطعة من الخشب.. ويصيح (الجندى) فى (السجين)..
ـ اذا حاولت الهرب سوف ارميك بالرصاص..!!
اما فى متحف ينسيسك .. فان عشرة فى المائة من المعروضات تتحدث عن تاريخ المدينة.
وكل محتويات الطابقين مليئة بالعروضات التى تتحدث عن الوقت الذى عاش فيه ستالين منفيا فى ينسيسك.. بالرغم من ان ذلك كان فى قرية كوريك على بعد ثلاثمائة كيلو متر من ينسيسك.
وكان هذا المتحف تحت اشراف البروفيسور دبروفسكى.. وقد كنت معه فى سولوفكى ونورلسك حيث قضى هو عشر سنوات سجينا ثم نفى الى ينسيسك.. وخلفه كان يقف يلكوفج.
اما المعاون السابق فهو زنوفيف.
وعندما زرت المتحف كنت اعتقد اننى ساعرف شيئا عن تاريخ هذه المدينة المثيرة .. وبدلا عن هذا رأيت اكاذيب تاريخ ستالين. وسالت يلكوفج، وكنت اعرفه من المعسكر..
ـ الزميل يلكوفج .كيف تعرضون تاريخ ينسيسك..؟
ولم يسمح لى يلكوفج ان اواصل حديثى ولكنه بسط يديه قائلا..

- ماذا يمكنني ان افعل..؟ المعروضات احصل عليها من الادارة المركزية للمتاحف في موسكو.. وواجبي هو ان اضع هذه المعروضات في مكان مناسب.
- هل يعني ذلك ان كل المتاحف تحصل دائما على نفس المعروضات..؟
- ليس كل المتاحف بالطبع.. ولكن تلك التي يمكن ربطها بحياة ستالين.
- ولا حتى في طبعة الحزب الشيوعي السوفيتي «ب» القصيرة يجرؤون على القول بان ستالين عاش في ينسيسك..!!
- في الطبعة الاولى لكتاب لا يثبت انه عاش في ينسيسك.. ولكن في الطبعة الثانية غير ذلك!.
- استمح لنفسك بذلك..؟
- ماذا افعل..؟ هل تريدني وانا في الثانية والستين من عمري ان انقل الاسمنت والدقيق في الميناء..؟ يجب على الانسان ان ياكل.
ولم اجد ما ارد به عليه.
وعندما حدثت عديلة باني بحثت عن غرفة بلا جدوى.. كانت حزينة جدا لاني ساذهب الى ماكلاكوف..
وودعتها

ماكلاكـوف

سافـرت بالبص الذى يتحرك مرتين فى اليوم عن طريق ينسيسك ماكلاكوف. ومرة اخرى خضت فى الوحل الذى يغطى ارض السوق.

وجدت صديقى الذى هيا لى مكانا للنوم.. كان ذلك صعبا.

الليلة الاولى كان علىّ ان اقضيها فى سرير الجنود مع رجل آخر.

وفى صباح اليوم التالى ذهبت للافطار (جبايتايو).. وذهبت مرة اخرى فى جولة رهيبة ابحث عن سكن.

احد من اعرفهم وعد باستضافتى لمدة اسبوع..

والليلة التالية نمت على الارض ولكنها كانت نومة مريحة.

وبدات رياح اكتوبر القاسية تهب .. وانا لازلت انام على الارض.. وردا لجميل هذه الضيـافة كان على ان اقوم بتكسير اخشاب الوقود يوميا وان اشعل المدفأة . وكانت الغرفة دافئة دفئا لطيفا..

وكان علىّ كذلك ان اقدم نفسى مرتين فى الشهر للقيادة.

وفى تلك الزيـارات كان ضابـط الـ (م ف د) يسال اين اعمل، ويهتم كثيرا بطريقة حصولى على المال.. وكم هو هذا المال.

وكان ممثلا الـ (م ف د) و الـ (م ج ب) يراقبان دائما بزيارات مفاجئة للورش اداء الطلقاء وهل هم فى اماكنهم.

العمل الذى وعدنى به مدير قسم الموظفين لم احصل عليه لان احدا آخر قد حصل عليه فى الوقت الذى اضعته انا هنا.. وهناك.. ولان ذلك الشخص قد قدم كميات اوفر من الفودكا.

ولكى لا ابقى عاطلا، عملت مؤقتا كعامل مبان خشبية.

وكان جارى فى المنشار الدائرى هو الكسندر درسكسلو.. من صعاليك ليننجراد.. طويل القامة.. نحيف الجسم.. يذكرنى بالبارون فى (دراما) جوركى.. «فى القاع».

وكان درسكسلو يؤدى عمله وكانه يمثل دورا فى مسرحية..

وعندما قدمنى له مدير الورشة واخبره باننى ساعمل معه.. حيانى بكلمات من شعر بوشكين.

وقد اعجبت به منذ الوهلة الاولى لرؤيتى له.

عشر سنوات فى المعسكر لم تكسر روحه المعنوية.

هذا الرجـل ذو الاربعـة والاربعـين عامـا.. كان يفهم نفسيـات ودواخل الفتيات الجميلات بسرعة فائقة .. وكان كما يقول.. «يستمتع بهن عن طيب خاطر».

اعترف لى بانه يصرف جزءا كبيرا من راتبه على الهدايا التى يقدمها للفتيات.. فبعد اربعة ايام من صرف الرواتب يكون مفلسا.. وكان عليه ان يكتفى كالعادة بقطعة من الخبز الاسود.

وفى نفس القسم الذى كان يعمل به. كان يقضى يوم الاحد. والفرق بين الايام الاخرى وبين يوم الاحد، انه كان فى الاولى يرتدى بنطاله بالمقلوب.

وعمل درسكسلو طويلا..

وصرنا اصدقاء حميمين.

ويعيش هو الان فى منطقة الاوراق بالقرب من مدينة سفردلوفسك مديرا لاحد المسارح الصغيرة.

وكان هناك العمل افضل كثيرا من العمل فى المنشار الكهربائى.. بالطبع..! وكان هناك فى المنشار ايضا البلغارى العجوز بتكوف.. كنت اتحادث معه فى بعض الاوقات.. ولكنه كان رجلا منطويا على نفسه لا يتحدث كثيرا.. اصابه الكبر وتعاورته الشيخوخة فى المعسكر.

ودعانى يوما للعشاء فى منزله ونحن عائدان الى الديار..

فاستغربت جدا.

وعندما كنت اجلس معه ومع زوجته الشابة اليهودية القادمة من روسيا البيضاء.. استطعت ان اتناول البطاطس المطبوخ مع السمك.. وعلمت ان المنزل الذى يتكون من غرفة ومطبخ هو ملك خاص له.. وان البطاطس من مزرعته المنزلية. وحدثنى كيف استطاع ان يمتلك هذا المنزل.. قال..

- فى يوم من الايام شب حريق فى المنشار الكبير.. ودمرت النيران المخازن الكبيرة «للفلنكات» وجزءا واسعا من الورشة.

وقد قمت ببناء منشار جديد.. فسمح لى المدير ان آخذ بقايا الفلنكات والعوارض والقوائم لكى نستعملها فى الوقود.

واشتريت بقليل من النقود ارضا فى طرف الغابة، وبدات ابنى منزلى الصغير.. إستعنت ببقايا الاخشاب المحروقة.

وكنت اعمل فيه، فى وقت فراغى.. وكنت فخورا جدا بعملى..

كان يتحدث والدموع تطفر من عينيه.. وكان عمله ذاك عملا شاقا عنيفا.. اداه بالكثير من الاتقان والدقة.. وعرق فيه عرقا كثيرا.. كان يحمل الاحشاب الكبيرة على ظهره الضعيف العجوز. وكان سعيدا لانه استطاع ان يبنى سقفا يظل راسه.

واخيرا اقترح علىّ ان اسكن معه.. فوافقت شاكرا.. ونمت على الكنبة فى المطعم وكنت انال دفئا رائعا.

وفى كل يوم استمع الى المشاجرة بين العجوز وزوجته الشابة التى كانت تريد زيارة السينماء وترغب فى شراء الجوارب الحريرية.

وكان هو يعتقد ان ذلك ترف وعبط.

وبقيت عند البلغارى طوال فصل الشتاء وعندما جاء الربيع اشترى خنزيرين ووضعهما فى المطعم.. وحاول اقناعى انهما لن يضايقانى.. وقد احتملت لمدة شهرين كاملين مضايقة الحيوانين لى.. ثم فاض الكيل واربى وضاقت النفس وتمردت .. وكان

صديقى درسكسلو يعلم بانى اسكن مع الخنازير فى نفس المكان.. فعرفنى بمدير قسم المبانى فى ماكلاكوف.

وفى احد ايام الاحد وبعد ان شربنا مرتبى الشهرى كله، اعطانى سافجنكو مدير قسم المبانى غرفة.

وبدات فى تنظيم مسالة سكنى وترتيب جميع اوضاعى.. حيث اننى اتوقع قدوم زوجتى فى شهر مايو عام ١٩٥٤.

وبمساعدة مدير الورشة صنعت سريرا واسعا ومنضدة للمطبخ. وبمبلغ المائتى روبل التى ارسلتها زوجتى اشتريت حلة للطبخ وصحنين.

وبذلك صار عندى الان كل ما يحتاجه مطبخ الشخص المنفى فى سيبريا.. بل اكثر مما يملك الكثيرون الذين قضوا هنا عدة سنوات.

من خطابات زوجتى استطعت ان استشف كيف انها تتخيل صورا للحياة فى ماكلاكوف غير حقيقية او واقعية.. وكتبت لها اقول.

- من رسالتك الاخيرة اتضح لى ان لك فكرة خاطئة عن الحياة فى سيبريا.. لقد كانت الحياة فعلا كما تعتقدين ولكن ذلك كان قبل ثلاثين عاما.

اولا: لا تخشى مهاجمة الذئاب او الدب لك فى الطريق من كرسنويارسك الى ملاكلاكوف.. فمنذ ان جاء الـ ر ن ك ف د وباناس من دول البلطيق واسكنهم على طول الطريق الذي تتخوفين منه.. فان الحيوانات قد انسحبت منه الى عمق الغابة.

وثانيا: عليك فقط اخذ حذرك من الناس.. وخاصة فى الحانات التى تقف امامها الشاحنات.. انهم يحبون ان يدعوهم الركاب العابرون على كاس من الفودكا.. فان لم يفعلوا هاجموهم .. فهم نصف متوحشين.

ومن الاجدى على من اراد سلامته ان يدفع فى صمت لكى يتركونه فى هدوء.. ثم ماذا انصحك بعد ذلك..؟

اسمعى، من الافضل ان لا تاتى اصلا.. ارجوك..

ولكن اذا رغبت فى الحضور رغم ذلك، فانى ساعيش على امل واحد فقط، هو الا يحدث لك مكروه قط.

اما فيما يختص بالحياة هنا فكونى مستعدة لاسوا شىء.. والحسنة الوحيدة هنا هى السكن وآمل ان يعجبك.. وللاسف فانه لا توجد هنا اسلاك للسرير، وانما هناك حصيرة فقط.. ولكن هذا لن يتلف سعادتنا.

اما الاكل فستعدينه بنفسك ويمكننا اذا شئت ان نتناول وجبتنا فى غرفة الطعام مقابل عشرين روبلا.

ومن السوق حيث عشرات القرويين يبيعون الخضروات ولحم الخنزير واللبن يمكن ان تشترى ما تحتاجين اليه.. اما الخردوات فتوجد اربعة متاجر بها مختلف ما يحتاجه المرء من الخردوات.. ولكن السكر نادر الوجود فى هذه الاصقاع ويستحسن احضاره معك من موسكو..

هذا، وماكلاكوف قرية كبيرة.. يعيش فى عنابرها الحديثة البناء ومنازلها القديمة اكثر من عشرة الاف شخص.. وبالطبع فان الامر فى كل سيبيريا واحد، وهو ان الناس قد اضطروا للاقامة هنا مكرهين.. ويجد المرء تقريبا كل الاجناس .. يجد اللتفانيين ـ واللاتونيين ـ والالمان ـ والروس ـ والاوكرانيين ـ والبولنديين ـ واليهود ـ والرومانيين ـ والمجتمع الذى ادور فيه يتكون من مجموعة كبيرة من المثقفين، تمثلت فيها كل الجنسيات.. بينهم اناس مثيرون للحد البعيد.

ولا تستغربي لاني لم اكتب لك عن السيبيريين انفسهم.. لانى للان لم اجد الفرصة لكى اتعرف عليهم من قرب.

وكل هذه المجموعة البشرية التى قوامها عشرة الاف شخص يستعمل افرادها حماما نصف مهدم.. ويمكن لكل زوجين ان يستحما سويا.

وفى العنابر القديمة توجد قاعة للسينما.

وعزاؤنا الوحيد ان الاحوال ستتحسن قريبا.

فالحمامات الجديدة يستمر البناء فيها منذ ثلاث سنوات ولكن الناس لم يفقدوا الامل بعد، فى اتمامها.

وهذا ينطبق كذلك على النادى الجديد، الذى يجب ان ينتهى البناء فيه لاحتفالات اكتوبر.. ولكن لا نعلم فى اية عام..!

قلت لها كل ما سبق واكثر.. وبقيت انتظر مايو.. لاننى سالتقى بها فيه.. مرة اخرى بعد فراق دام عشرين عاما تقريبا.

وعملت بجد حتى اتمكن من الحصول على الاشياء المنزلية الصغيرة المختلفة.

وكنت افكر فيها بلا انقطاع.. ولم اصدق اننى ساحتضنها واضمها الى صدرى مرة اخرى.

حبيبتى سونيا.. التى عانت وقاست الكثير من اجلى ـ عشرين عاما ـ اننى ادين لها بالكثير الكثير..

وكانت تعذبنى فكرة واحدة.. هى كيف يكون اللقاء..؟ الا نكون غربا..؟ هل ستتحول الغرفة الكبيرة الى خيبة امل كبيرة..؟ الا يكون من الاعقل ان اتخلى عن فكرة هذا اللقاء، حتى احفظ لنفسى وهم اننا ننتمى الى بعضنا البعض.

واخيرا أهل شهر مايو.

واستلمت منها برقية جاء فيها انها اشترت تذكرة القطار نمرة ٤٢ وانها سوف تسافر فى الخامس عشر من الشهر.

وتخلخلت مفاصلى.. اصابنى اضطراب الفرح.. وذهول السرور.. فجريت هنا وهناك .. احدث الجميع بالخبر السعيد.. وتوافدوا يهنئوننى من كل قلوبهم.. وعزّ على اعينى ان يزورها النوم وهى ترى طيف الحبيبة يدنو ويقترب.. ولم استطع النوم الا ـ بالحبوب المنومة.

وبعد يومين جاءتنى برقية ثانية، هزت كيانى هزا عنيفا قاسيا..

«تاجلت اجازتى لاسباب مكتبية عاجلة.. ولن اتمكن من السفر.. توضيحى بالبريد» واصابنى الانهيار التام.. وبجسدي يرتجف ويتصبب عرقا.. وفى تلك اللحظة القاسية دخل بمحض الصدفة الى مكتب البريد صديقى درسكسلر.. وعندما وقع بصره علىّ جرى نحوى.

ـ ماذا بك..؟ انت شاحب كالحائط..!!

ومددت له لبرقية دون انبش ببنت شفة.. فحاول ان يهدىء من روعى.. فجرنى الى الحانة المجاورة جرا.. وشربت كوبا من الفودكا وساءت حالتى كثيرا.. وفى المنزل رقدت مريضا..ولم استطع الذهاب الى العمل اسبوعا بحاله.

ثم هدأت حين استلمت منها خطابا بالطائرة.

قالت فيه انها كانت بالاجازة تستعد للسفر.. وحضر لها الساعى من المكتب واخبرها بالحضور فورا لمكان العمل لمقابلة رئيس المكتب.

واوضح لها رئيس المكتب انه مضطر لسحب اذن الاجازة لانه يجب ان ينهى عملا عاجلا لا يامن على ادائه غيرها.

وغضبت هى واحتجت.. ولكن ذلك لم يساعد فى شىء..

قال لها الرئيس انها ستفقد وظيفتها ان لم تخضع للامر..

وقد اصابنى الغضب حين وصلت الى هذا الحد من الرسالة كنت اعتقد انها ستصر على السفر حتى لو فقدت عملها.. ولكن بعد تفكير عميق واع رايت انها سلكت الطريق الامثل.. فقد كان من الجنون ان تفقد الوظيفة التى حفظت لها هى وامها الحياة.

ومن عباراتها الحزينة رايت انها تتالم وتتعذب مثلى.. واكدت لى فى ختام رسالتها انها ستصلنى ولو فعلت المستحيل، فى اول فرصة.

وحاولت التماس العزاء فى العمل الشاق.. مرهقا جسدى ارهاقا فوق طاقتى.. وأحسست اننى افقد قواى.. وان المجتمع الذى اتحرك فيه لم يعد قادرا على ان يرضينى.

وكان المنفيون قد تلهوا بالمناصب التى يشغلونها.

ولم تكن هناك مصالح مشتركة بين الناس.. وكان الجميع يخشون ان يلفتوا نظر الـ (م ج ب) والـ (م ف د).. فحراس السلطة كانوا يتابعون بعيون مفتوحة كيف نعيش.. ولم يكن هناك كلام فى السياسة او عن السياسة.. هناك..

فان الانسان يعرض حياته للخطر بلا مبرر اذا القوا به مرة اخرى فى المعسكر.. كل حياتنا الاجتماعية عبارة عن لعب ورق.. واحتساء خمر.. وغناء.. يتبعه رقص لا طعم ولا معنى له.. الا انه تعبير حى عن الضياع.

وكان بعض الرجال يغازلون نساء الغير.. والذين لم يكتفوا بهذه اللعبة البريئة الخطرة حاولوا الذهاب الى ابعد من ذلك.. وكان الفشل نادرا فى هذه الحالة وفاجانى نبا

مثير.. هو ان صديقى جوزيف بيرقر يسكن فى منطقة قريبة لتبعد حوالي الخمسين كيلومترا من ماكلاكوف.. فى قرية كازاجنسك.. وهى مكان قديم فى وسط الحدود.

وكتبت له رسالة عاجلة، فقد كنت فى حاجة الى نصح ذلك الرجل الحكيم.. والصديق الوفى.

وسرعان ما اتانى رده.. وسر جوزيف لاننا وجدنا بعضنا اخيرا وتساءل كيف يمكن ان نجتمع فى مكان واحد.. وكانت حياته فى كازاجنسك حياة اقسى وامر من حياتى هنا واتفقنا على ان ياتى هو الى ماكلاكوف.

وصدفة قابلت مدير قسم شئون العاملين بورشة المبانى، فى الحانة..!!

وبعد لترين من الفودكا وعدنى بان جوزيف سيحصل على عمل. وفى صبيحة اليوم التالى حرر لى شهادة بذلك.. ارسلتها الى كازاجنسك.

وبعد جهد جهيد وصل جوزيف بيرقر صديقى الحبيب الى ماكلاكوف.. وكان لقاؤنا حدثا كبيرا للغاية.

فى الكولخوز السيبيرى

فى يونيو من عام ١٩٥٤ اغلقوا ورشتنا لمدة اسبوعين .. وكان على العمال والموظفين الذهاب للعمل فى كولخوز الضفة الاخرى من نهر الينسى.

وفى هذا الكولخوز بالذات مات فى العام الماضى جوعا عدد مائتين وثمانين خروفا وثمانية عشر بقرة بنسبة عالية من العدد الاصلى الذى كان موجودا.. اما بقية الحيوانات فانها عاشت الشتاء بصعوبة كبرى.

لذلك وصل الامر الرسمى بان يؤمن العشب.. ولم يكن بالكولخوز من العمال ما يكفى لذلك.. وكان على قواتنا العاملة ان تساعد.

وقد ارسلت مجموعنا الى جزيرة فى نهر الينسى.

وكانت الجزيرة بدائية وغير ماهولة بالسكان.

وكان علينا قطع الاعشاب وتكديسها بالمخازن.. وعند حلول فصل الشتاء ينقلونها على العربات الخشبية عندما يتجمد النهر ويجرونها للقرية.

كنا عند السابعة صباحا ذات يوم، قد تجمعنا على ضفاف نهر الينسى.. وابحرنا الى الجزيرة بقارب بخارى.

وهناك كان بانتظارنا رئيس عمال الكولخوز الذى وزع علينا العمل.

بعضنا قطع الاعشاب.. وبعضنا جمعها فى مكان واحد على شكل حزمة كبيرة.. وكان علينا ان نحمل معنا طعامنا .. وعند هطول الامطار كنا نحتمى بمخازن الاعشاب التى بنيناها.

وفى المساء عدنا الى ماكلاكوف..

وهكذا استمر بنا الحال.

وذات مساء انتظرنا القارب كالمعتاد ليعود بنا ولكنه لم يات.. وكانت العاشرة مساء.. فاتفقنا مع حارس المنارة، واحد سكان الجزيرة ان يركبنا فى قاربه البخارى. وكانت حمولة القارب هى عشرة اشخاص.

وجاء دورى مع المجموعة الرابعة.. وتحرك القارب.. وعلى بعد حوالى العشرين مترا من الضفة لاحظنا ان الماء يتسرب الى القارب.

واخذت بعض النسوة فى الصياح والقفز من مكان الى اخر فى القارب. واثناء ذلك الهرج والمرج علق بنطالى بسير الماكينة المكشوفة وجرنى اليه مسببا اذى جسيما لقدمى اليسرى.

ولحسن حظى اوقفت الماكينة فى الحال ولولا ذلك لفقدت قدمى.

وعدنا الى الجزيرة .. وربطة قدمى بقميصى.

وفى منتصف الليل وصل القارب البخارى وعاد بنا الى الضفة الاخرى. ورقدت فى السرير لمدة عشرة ايام تحملت ادارة الورشة دفع خمسين بالمائة من مرتبى فقط بالرغم من ان الراتب يجب ان يدفع كاملا فى مثل تلك الحالات.

قالوا ان حالتي تختلف فاصابتي لم تكن اصابة عمل.

وبعد شهرين كان علينا ان نذهب مرة اخرى للحصاد في الكولخوز. (الطريق الى الاشتراكية).

تقع ادارة الكولخوز في مبنى خشبي من طابق واحد.. وعبر الساحة الطينية دخلنا الى قاعة كانت بها صفوف من المقاعد الخشبية.. وعلى الحائط علقت قطعة من القماش كتب عليها.

- نجني ثمار الحصاد في الوقت المناسب.

لا يسمح ببقاء حبة واحدة في الحقل.

اجمعوا كل القوى لكي تؤمنوا الاكل للمواشي في فصل الشتاء..

وكان مدير ورشتنا يناقش في غرفة المدير طريقة السكن والعمل بالنسبة لنا.. ووزعونا على منازل القرويين.. في مجموعات من عشرة الى خمسة عشر شخصا. مجموعتي كانت في منزل احد الكولخوزيين وكان منزله ذاك مكونا من غرفتين ومطبخ واستقبلتنا النساء القرويات بروح عدائية للغاية .. واشرن الى الغرفة الصغيرة التي سننام فيها.

وعندما جاء الليل حضر القروي ومر بجانبنا وكانه لا يشعر بوجودنا على الاطلاق.

وقبل النوم ذهبت مع صديقي درسكسلر لنرى كيف استقر الجميع.. كانت غالبية المنازل مبنية من جذوع الاشجار التي انتزع منها اللحاء.. وكانت كل السقوف متداعية تقريبا او يتسرب منها الماء.. وبعضها اكتسى بالطحالب وامام المنزل مباشرة بعض المزارع الصغيرة والتي حفلت بالبطاطس والكرنب والبصل وبعض الخضروات الاخرى.. وفي الغرف كانت الاسرة وصناديق الاشياء الكبيرة «السحارات» .. ومن النادر وجود الدولاب.

وعندما اظلمت الدنيا عدنا الى المنزل حيث ننام حتى الصباح ثم ننطلق الى الحقول .. وكان مضيفنا القروي وزوجته ياكلان البطاطس المهروس ومخلل والعجوز بمعالق خشبية .. وفي وقت متاخر عادت ابنتاه من الحقل.. ولم تغتسلا وانما جلستا الى المائدة في الحال .. وصبت الام المزيد من البطاطس في الصحن الخشبي. وعندما كانت الفتاتان تتناولان طعامهما حاولنا التحدث معهما عن العمل في الكولخوز .. وعلمنا انهما تعملان في تجفيف القمح.

وذهبت الفتاتان الى غرفة مجاورة حيث قامتا بخلع حذائيهما.. ورقدتا بملابسهما على السرير.

وكنت احسب ان الداعي لذلك هو الحياء.. وانهما ستخلعانها تحت الغطاء.. ورقدنا على الارض العارية.. تغطيتنا بمعاطفنا وبقية ملابسنا..

وكنت احمل معي غطائي وصحنا وملعقة... وكان ذلك مثار سخرية الزملاء.. الذين كانوا يعتقدون ان الكولخوز سيقوم بكل شيء نحوهم..

ثم اعترفوا انني على صواب.

وفي الفجر استيقظنا .. ذهبنا نبحث عن الخبز والحليب..

اشترينا لتر اللبن باربعة روبلات، ولكن لم نعثر على الخبز.. أكله اولئك الذين حملوه معهم من ماكلاكوف فقط.

ورأيت الام توقظ بنتيها.. فقامتا بملابسهما وارتديتا الحذاء فقط.

وعلى بعد كيلومترين من القرية وقفنا امام حقول القمح غير المنتظمة. وكانت اعواد القمح المترنحة مع ريح الصباح أعلى من قامة الرجل. وكانت مكتنزة بالحب فمالت نحو الارض.

الذين يفهمون عن الزراعة بدأوا في الحصاد والاخرون كانوا يحزمون الاعواد.. وكنت أقوم بتجميع هذه الحزمات في مكان واحد صاعدا بها الى الاعلى.

وفي منتصف النهار جلسنا للاكل.. اعطونا في اليوم الاول كليوجراما من الخبز ولترا من حساء الكرنب.. واعتذر لنا مدير الكولخوز لضعف الغذاء ووعد بعشاء دسم.

وقد فعل فكان العشاء حساء الكرنب.. والبطاطس .. وملعقة من الجبن اللين.. واللبن الزبادى.

وفي الايام الاربعة التالية تحصلنا على لحم حصان.. ولم يكن امامنا خيار آخر غير شراء ما نحتاجه بنقودنا الخاصة حتى نتحمل هذا العمل الشاق في الحقل.. والقرويون انفسهم لم يأكلوا خيرا منا.. ولكن عملهم كان أقل من عملنا .. بدانا في السادسة صباحا وهم بدأوا في التاسعة ـ وساءتنا رؤيتهم وهم يعملون بالكثير من اللامبالاة.

وفي احد ايام الاحاد حضر القرويون للعمل عند الساعة الواحدة بعد الظهر.. واخذنا نعيب عليهم ذلك..

ـ يا للعار نحن ضيوفكم نعمل هنا من السادسة صباحا وانتم تحضرون الان..؟

ـ ستحصلون مقابل عملكم هذا على خمسين بالمائة من رواتبكم ومع ذلك فهم يطعمونكم!! اما نحن.. فهذه هي السنة الثانية التي لم نصل فيها على جرام واحد من القمح.. وفي العام المنصرم كانت حصيلتنا من العمل الشاق الدائم هي عشرون ديكاجراما من الذرة الشامي.. واربعة كيلوجرامات من البطاطس.. فلماذا نعمل..؟ اننا يجب ان نخصص جزءا من وقتنا لمزارعنا المنزلية .. فلذلك هو دخلنا الحقيقي..

ولم نصدقها..

وفي المساء سالنا رئيس العمال.. عن الاجر الذى يدفعه مقابل الدوام اليومي، فلوح بيده متضجرا وهو يقول:

ـ في الغالب لا شيء..

ـ لماذا..؟

ـ نصف الحصاد يبقى في الحقل وغطاه الجليد.

ـ كيف ذلك..؟

ـ ليس لدينا قوى عاملة.. ذهب الشباب من القرية.. هم يعملون الان في الغابة وفي الجبال.. والذين يذهبون للخدمة العسكرية الالزامية لا يعودون للقرية .. انظروا من

يعمل الان..؟ فى الغالب النساء.. والعجائز والاطفال.. ومن الصعب ان ترى شابا فى القرية.

هكذا اذن هى الامور..؟ لقد بقيت الشابات نصف عاقلات من الحرمان والاجهاد.. شأنهن شأن الشباب الذى هاجر وهو ينصف عقله ايضا.

مكثنا نعمل بالكولخوز لمدة ستة عشر يوما انهينا فيها كل العمل. وكان مدير الكولخوز لمدة ستة عشر يوما انهينا فيها كل العمل. وكان مدير الكولخوز مسرورا من نتيجة العلم.. واعطى مدير ورشتنا شهادة باننا قد تفوقنا بمعدل الانتاج الاحصائى الى خمسة وعشرين فى المائة.

وكانت هذه الشهادة بمثابة اذن للقارب البخارى حتى يتحرك عائدا بنا.. والذى لم يكن ليتم حتى صدورها.

وكنا سعداء بتركنا للقرية.

ووصلنا الى شاطىء الينسى ونحن نغنى .. وابحر بنا القارب عائدا. وهكذا رجعنا الى منازلنا بعد اسبوعين كاملين.

كيف مات جورج بيلسكى

حتى استخـرج البطاقة الشخصية، كنت محتاجا الى صورتين فوتوغرافيتين.. لم يكن فى ماكلاكوف كلها اى مصور لاداء هذه المهمة.

ونصحنى احد الاصدقاء ان اذهب الى احد هواة التصوير ليقوم بتصويرى ثم ادفع له اجره.. ووصف لى احدهم.

وطرقت باب منزل بالقرب من المدرسة الجديدة.. ففتحت لى الباب امراة شابة .. قلت لها ما أريد.. فطلبت منى الانتظار قليلا لان زوجها سيعود سريعا.

وبعد لحظات دخل زوجها وحيانى.

ـ آه، نهارك سعيد، كيف حالك..؟ منذ متى وانت هنا..؟

واستغربت لمثل تلك التحية..

لم استطع ان اعرف من هو الرجل.. فبادرنى وقد راى حيرتى..

ـ هل نسيتنى..؟

ـ فى الحقيقة لا اذكر بالضبط اين تقابلنا..

ـ كنت معك فى نفس الوحدة.

ـ اين..؟

ـ فى القسم السادس من المعسكر فى نورلسك.

ـ آه.. هل انت كاربوف..؟

ـ بالطبع كيف نسيتنى بمجرد ان رايتك، كنت متاكدا من ان احدا قد اعطاك عنوانى فاتيت لزيارتى.

وحكيت له لماذا اتيت..

فقال لى..

ـ بالطبع .. بالطبع.. سوف افعل ذلك فى الحال.

واحضرت زوجته الشاى..

وبدانا نتحدث عن نورلسك ونعيد ذكريات معارفنا هناك.

وسالت كاربوف..

ـ هل كنت تعرف جورج بيلسكى..؟

ونظر الىّ كاربوف مستنكرا وهو يقول..

ـ وكيف لا اعرف ذلك الطبيب الذى يرتدى نظارة..؟ من الذى لا يعرفه؟

ـ متى رايته آخر مرة..؟

ـ الم تعلم..؟

وسالته بخوف.. وقد احسست بقلبى ينقبض..

ـ لا.. ماذا حدث له..؟

ـ شىء رهيب .. لست ادرى كيف احكى لك كل ذلك..

ـ تحدث يا رجل.. تحدث.
ـ كان جورج بيلسكى يعمل طبيبا لعدة سنوات فى قسم المعسكر (ار.. او .. ار..) فى منجم النيكل.. كان من احب الاطباء الى قلوب السجناء.. انقذ مئات الارواح من الموت.. وساعد كل انسان آخر.. ورغم ذلك لم يكن مرتاح البال..
ـ كيف ذلك..؟

ـ كان المجرمون يتشاجرون معه.. لانه يرفض ان يضعهم وهم أصحاء فى كشف المرضى.. وهدده احد المجرمين بالقتل.. وكان جورج قد تعود على مثل تلك التهديدات فلم يعر الامر اهتماما..
ـ ثم ماذا حدث..؟
ـ عاد المجـرم الذى هدده وكان جورج يجلس الى منضدته يسجل احصائيات العمل اليومى، عندما فاجاه المجرم بضربات عديدة، سريعة، قوية، هشمت رأسه فورا..
ـ وعند ذلك.
ـ انتشر موت الطبيب المحبـوب بسرعة فائقة.. فهبت مجموعة من السجناء غاضبة فكسرت العنبـر الذى اختبـا فيـه المجـرم واوسعته ضربا شديدا.. وسرعان ما هرع الحراس .. وانقذوا القاتل من موت محقق.
وقدم المجرم للمحاكمة امام محكمة عسكرية، فقضت عليه بالسجن خمسة وعشرين عاما.. وبما ان عقوبته الاولى بقى له فيها ثلاثة وعشرون عاما.. يكون الحكم الجديد عليه هو سنتان فقط.
وصمت كاربوف.
وقد هزنى هذا الخبر المؤلم عن موت صديقى جورج بيلسكى ونخب منى الاعماق.. ولم استطع اخذ الصورة فانصرفت

الحرب من أجل السلطة بعد موت ستالين

بعـد موت ستالين لم يشك احد منا بان تغييرات كبيرة جداً ستنشا في الاتحاد السوفيتي ولكن الشيء الوحيد الذى كان يخامر النفوس والقلوب هو انه لا بد من وقف الحرب ضد الشعب.

ولم يكن التنبـؤ ممكنـاً فان ستالين قتل في حياته كل الذين كان من الممكن أن يتبؤاوا المناصب القيادية في هذا البلد الكبير.

وجمع حوله اناساً عاديين.

وعندما هلت عطلة اعياد نوفمبر ١٩٥٣ ولم يحدث العفو المنتظر، اصابت خيبة الامل جيوشنا من ملايين السجناء وعائلاتهم.

وتحـدث الرجـال ذوو الخبرة عن (القيادة الجماعية).. وبالرغم من التصريحات المؤكدة لذلك الا أن حرباً صعبة تجرى حول السلطة.

وعليه فمن غير المتوقع حدوث تغييرات هامة في السياسة.

واذكر انني عندما عدت بعد العفو الى موسكو كانت لدى فرصة اربعة اشهر لأعلم فيها خفايا واسرار الحرب التى جرت ودارت للاستيلاء على السلطة في تلك المرحلة.

وحتى التغييرات التى حدثت في قيادة الحزب بعد موت ستالين كانت في الأساس لتامين جزء من السلطة لجميع الاطراف الطامعة والمتصارعة.

مالنكوف رئيساً للوزراء .. خروتشوف السكرتير العام.. مولوتوف وزير الخارجية .. زوكوف وزير الحربية.. بيريا وزير الداخلية.

خيل الى ان كل شيء يسير في حدود طبيعته .. وان وحدة الحزب قد تامنت .. ولكن كان هناك سؤال ملح .. الى متى..؟

مجموعة مولوتوف .. كاقانوفج .. مالنكوف. بيريا..

كانت تؤمن وتعتقد بان كل شيء يجب أن يبقى كما هو دون ادنى تغير..

امـا مجمـوعـة خروتشوف .. زوكوف .. شبيلوف .. بولقانين .. ومكويان، فقد استطاعو ان ينفذوا الى لب المسألة ببصيرة فاعلة .. فهم يرون انه ليس كافياً ان تؤمن السلطة فقط.. ولكن يجب عمل شيء للشعب..

ارادوا ان يصبـح الاتحـاد السـوفيتي ـ اخيراً ـ دولة قانونية .. كان في نيتهم تصحيح الجرائم العديدة التى ارتكبت بامر ستالين.

وبعد حرب ضارية في البوليتبيرو تحصلوا على الموافقة باعادة النظر في الأحكام.

اما ال (م ف د) وال (م ج ب) فقد كان عليهما ان يتركا الطرق الستالينية عند الاعتقال والتحقيق والنطق بالحكم.

ولكن رغم ذلك كله، فان الجوهر الخالص لم يطبق جيداً.

وبـدلاً من ذلك كان الاعـداد يجـرى لانقـلاب ـ يحـول دكتاتورية ستالين الى دكتاتورية بيريا، الذى كان يعتمد على اجهزته ال(م ف د) وال(م ج ب) وعلى جواسيسه

وعملائه المنبثين في كل مكان .. حتى في قيادات الجلقيات الحزبية
وكان ينتظر اللحظة المناسبة ليصفى حسابه مع مجموعة خروتشوف ـ زوكوف ـ مكويان وبولقانين ـ وفوروشيلوف.
امـا القوة الوحيدة والحقيقة التى كان يمكن ان تقف فى مواجهة بيريا وجهازه الضخم، هى الجيش بقيادة زوكوف .. وكان هناك تيار شد وجذب بين الجيش وال(م ج ب).
ولم يستطيع الجيش ان ينسى قط أن ال(م ج ب) هم أحسن وأكفأ قادته.
وأستعد زوكوف لانقلاب مضاد.
وفى جلسة ال بوليتبيرو تحدث بيريا على طريقة ستالين.
ووقف يصيح بالجملة المعهودة (أعداء الشعب) ولم يعارضه احد.
ورفع الرئيس الجلسة..
ورأى بيريا .. فى ذلك أشارة وبادرة سيئتين.
واراد ان يذهب للتلفون .. وباشارة متفق عليها يحرك جهازه.
فينقض اعوانه ويلقون القبض على معارضيه ويحاكمون بالاسلوب القديم.
وبمجرد ان خرج بيريا من قاعة الاجتماعات، كان فى انتظاره عدد من الجنرالات يقودهم رجل زكوف وساعده القوي الايمن سيروف.
وفى ساحة الكرملين كانت تقف عربة مصفحة سارت بيريا الى وزارة الحربية.
بعد عشرين دقيقة من ذلك كان بيريا فى عداد الاموات .. وهذا ما آل اليه مصير أربعين من أقرب معاونية.
وبقى ال(م ج ب) بدون راس.
وعين سيروف لجهاز امن الدولة .. فرحل فى الحال الى مبنى ال ليبيانكا..
ومنذ تلك اللحظات اصبح مصير الشعب السوفيتى فى أيدى الجنرال زوكوف.
وارهب المصير الذى وقع فيه بيريا، مجموعة مالينكوف .. مولوتوف .. كاقانوفج.
فكانو يبدون رضاهم التام عن ماتم اتخاذه من الأجراءات الجديدة.
وكانت أول المهام السياسية هى تصحيح الجريمة السياسية ضد يوغسلافيا الأشتراكية.
سافر خروتشوف وبولقانين الى يوغسلافيا وطلبا من تيتو أن يعفو عنهم..
ولم يرد مولوتوف وزير الخارجية ان يشترك فى ذلك فناب عنه شبيلوف باتفاق الجميع.
وقد اكسبت أجراءات الصلح مع يوغسلافيا خروتشوف شعبية كبيرة ـ وهذا ماأثبته الشعب الروسى عندما حضر تيتو الى موسكو.. وقد حضرت الأستقبال الذى اعده الشعب الروسى لتيتو.
مئات الآلآف من الناس خرجوا الى الشوارع والميادين لتحية تيتو.
ولأول مرة، وبعد ثلاثين عاماً يخرج ملايين الناس للتظاهر ضد سياسة ستالين التى هددت استقلال يوغسلافيا الحرة الاشتراكية.

أحضرت زوجتي

المنشار الذى يقع عليه ضفة نهر الينسى كان يصدِّر جزءاً من انتاجه للخارج.. و في كل عام ولفترة قصيرة من الملاحة في النهر المتجمد التى كانت تبدأ من منتصف شهر اغسطس الى منتصف شهر سبتمبر، تاتى سفن تجارية من بلاد العالم المختلفة لميناء الينسى.

وهذا الطريق يمر عبر البحر الابيض .. ثم البيرنتشوف .. وبحر كارا حتى مصب نهر الينسى .. وكذلك عن طريق اوست - بورت - ودودنكا - الى اغاركة .. حيث توجد امكانيات الشحن في هذا الميناء للسفه عابرة المحيط .. ففى اغاركة هذه يمكن رؤية السفن الكبيرة والصغيرة على السواء .. وكذلك الصنادل الخشبية التى تحمل الشحنات الثمينة من الأخشاب الغالية النادرة، من المستشار الذى يقع على ضفة نهر الينسى.

ومن اهم الأشياء واصعبها على القائمين بأمر هذا المنشار هو الوصول الى معدلات انتاجية عالية تفى بحاجة التصدير.

وللتقصير في ذلك ذهب كثير من المديرين الى السجون متهمين بسوء الادارة.

ولم تكن القوة العاملة في الورش كافية - في تلك الفترة القصيرة التى تجرى الملاحة خلالها - لم تكن كافية لتامين طاقات شحن السفن.

وبمجرد ان عدنا من الكولخوز كان علينا ان نتحرك لنسهم في عمليات الشحن لتغطية موسم الملاحة

وعملت لمدة شهرين في ماكلاكوف حيث المنشار الضخم .. وقد شارك في هذا العمل مئات من الجنود جاءوا من المعسكر الذى يقع في ينسيسك.

وعمل الالوف ليلاً ونهاراً حتى يفوا بالمعدل المطلوب..

وكان وزير الصناعات الخشبية يراقب سير العمل بنفسه..

وفي هذا الموسم القصير استطعنا ان نشترى كل الاشياء المعدومة - السجوق .. السكر .. الجبن .. واستمر ذلك حتى امتلا العنبر الاخير. ثم اختفت تلك المؤن وكانها لم تكن..

وكنت سعيداً جداً حين اصبح بامكانى العودة الى عملى القديم في النجارة.

وانقضى فصل الشتاء القارس الرهيب.

واذابت اشعة شمس مارس كتل الجليد المتسخ في ماكلاكوف.

وكنت جاهداً في ترتيب المنزل .. وانا انتظر اللقاء المرتقب مع زوجتى بعد فراق دام أكثر من ثمانية عشر عاماً.

هذه المرة كنت على يقين بانه لا توجد قوة في الارض تستطيع ان تمنع او تحول بيننا وبين هذا اللقاء.

وكانت زوجتى قد جلست بالفعل على مقعدها في القطار السريع موكسو ـ بكين عنـدمـا استلمت برقيتهـا المبشرة بالحضـور. وطلبت من صديق ان ينتـظرهـا في كرسنو يارسك بمحطة السكة الحديد وان يقوم بمساعدتها وتقديم المعونة والمشورة لها.

وهى ستصل الى كرسنو يارسك في التاسع من مارس..

وفي اليوم التالى تكون قد شرفت ماكلاكوف.

وتفضل مدير الورشة فمنحنى اياماً احتفل فيها باللقاء.

وجاء اليوم الموعود .. او المتوقع..

أخذت أتقلب في فراشى كالمحموم .. اطارد نوماً مستحيلاً..

ثم غلبنى التعب فغفوت قليلا..

استيقظت على طرق بالباب الخارجى..

قفزت من سريرى فزعاً مضطرباً خافق القلب .. مرتجف اليدين..

اشعلت الضوء .. كانت الساعة هى الواحدة صباحاً .. وفكرت .. أتكون زوجتى وصلت؟

وجريت متعثراً نحو الباب.

ـ من الطارق؟..

وجاءنى صوت رجالى خشن .. هل يسكن شتاينر هنا؟..

ـ نعم .. انا .. هو..

ـ أفتح..

وانتابنى خوف بارد مقرور .. وعاد جسدى يرتجف من جديد..

وفتحت الباب..

وقف امامى مدير المنشار..

ـ أحضرت زوجتك..

وصحت مجنوناً من الفرح..

ـ أين هى؟ ..

ـ تنتظر عند عربتى تحت.

وحاولت ان أجرى بملابس النوم .. الا ان سافانين اوقفنى.

ـ ماذا يجول بخاطرك؟ .. درجة الحرارة في الخارج اربعون درجة تحت الصفر .. اردت ملابسك ايها الرجل..

وبسرعة ملهوفة ارتديت الحذاء .. والقبعة في يدى جريت للشارع . ومن على البعد تعرفت على ملامحها الحبيبة .. كانت تتمشى امام العربة قلقة متوترة..

عندما سمعت أقدامى على الجليد المتجمد استدارت نحوى .. وجريت بسرعة اشد..

احتضنتها بين ذراعى .. والتحمنا بقوة..

بقينا على ذلك بعض الوقت ـ بدون كلام..

وبعدها قالت:
ـ اخيراً؟..
وكان سافانين وسائقه يراقبان الموقف بصمت.
اخذنا حقيبتها ودخلنا الغرفة الدافئة..
اخذنا نتامل ملامح بعضنا البعض .. وهمست:
ـ لم تتغير..
وخيل إلى ايضاً انها لم تتغير كثيراً..
ومع تباشير الصباح الاولى رقدنا .. بعد عشرين عاماً في احضان بعضنا .. قلنا سوياً .. لن يفرقنا بعد الآن الا الموت.
وجاءت بعد ذلك أحلى ايام حياتى..
كنا نسير كعاشقين ملتهبين وجدا تحت شمس مارس المشرقة..
وحبات الرزاز الخفيفة تقبل وجهينا المشرقين في حنو ورقة وتحدثنا عن الاشياء التى عشناها بعيدين عن بعض.
عرفت مدى الحزن الذى عاشته..
وحدثتها عن حياتى في المعسكر..
وأمضت سونيا معى اربعة عشر يوماً في ماكلاكوف..
ورغم الاثر السيء الذى تركه ذلك المكان في نفسها، الا انها صممت على ان تترك موسكو وتبقى معى، حتى نجد مكاناً خيراً من هنا.
وكان صعباً على وقت فراقها..
شعرت بقلبى يتمزق لوعة واسى..
وعندما سار بها البص المتجه الى كرسنويارسك اوشكت على الانيهار..
ولكنى تعزيت بانها ستعود قريباً .. وتماسكت.

فكرة احد المجانين

احدى افكار ستالين الجنونية كانت هى بناء خط حديدى على طول البحر المتجمد .. من فوركته .. خلال السهول الجرداء في المنطقة القطبية الشمالية الى اغاركه..

ومن اغاركا الى ياكوتيا .. وكوليه..

وكان يجب بالطبع مد خط من اغاركه إلى نورلسك.

كان لسيبريا خط سكة حديدى واحد مهم..

وكان خط بايكال ـ آمور قد انتهى..

اما خط تايشت ـ لينا فكان في طور التشييد.

وهنـاك ايضاً المنطقة التى لا نهاية لها وهى في انتظار ان تمهد لكن كان البناء بطيئاً وقليلاً.

كان العمل في حوجة الى مائة الف عامل ومجموعة كبيرة من الآلات .. ولكى تتحقق فكرة احد المجانين .. وضعت الاف (كمرات النصف) للسكه الحديدية وعشرات الآلاف من الكيلومترات عبارة عن قضبان الحديد .. ولم تكن متوفرة في ذاك الوقت بالاتحاد السوفيتى..

وكل انسان عاقل كان يتساءل..

ـ ما هو العائد الحقيقي لهذه الخطوط..؟

ان الخطوط وبكل المقاييس ليست صحيحة من الناحية الاقتصادية. انها تمر بمناطق غير ماهولة..

وحتى من الناحية العسكرية فان هذا المشروع لم يكن ضرورياً..

كان الخيال الستالينى المريض قاصرا في حدود واجب السجناء فقط.. يعملون .. ويعملون .. الملايين منهم .. وبعد سنوات يموتون .. ولا تهم نتيجة العمل.

وبعد موت ستالين اوقف العمل في هذا الخط الوهمى. وهدم السجناء الهياكل المبنية .. ومرة اخرى أعيد شحن عشرات آلاف من قضبان السكة الحديد والآلات .. ارجعوهم ايضاً عشرت الآلاف من الكيلومترات الى حيث تم شحنهم اول مرة.

وجزء من هذه المعدات والعاملين رحل الى منطقة ينسيسك .. فقد كانوا يبنون خطا للسكة الحديد يربط بين ينسيسك ـ احنسك .. بالقرب ماكلاكوف..

وكان بالامكان رؤية الاسلاك الشائكة التى تحيط بالمعسكر الذى يقيم فيه العمال القادمون لتوهم للعمل الجديد.

وكنت اتحاشى المرور بالقرب من ابراج المراقبة حتى لا اعيد للذاكرة ابشع صورة فترة مرت بها حياتى.

الشهر الاخير في المنفى

فوجئت مفاجاة شديدة .. هزتني وزلزلت كياني من قمة راسي إلى اسفل قدمي..
فقد استلمت رسالة طلب مني فيها مقابلة المدعى العام في كرسنو يارسك.
وذهبت إلى الـ (م ف د) وطلبت اذنـاً بالسفر إلى رئاسة المنطقة. وقرا الضابط الرسالة التى وصلتنى من المدعى العام .. وهز راسه..
ـ تعال بعد غد ..
ـ ولكن الرسالة تقول في الحال..
ـ ليس هذا مهماً ..
وعندما خرجت منه فكرت ان اسافر فوراً في اول بص يغادر إلى كرسنو يارسك دون اى عتبار لما يمكن ان يحدث..
وكانت هناك خطورة في ذلك .. اذ يمكن ان ينزلونى من البص. ولكن رسالة الدعوة كانت في جيبى..
ومن المحتمل ان لا يكون لرحيلي عواقبه الوخيمة..
وذهبت لمدير الورشة وتحصلت على اذن كتابى بالغياب عن العمل لمدة يومين .. ثم توجهت لمحطة البص .. واختلطت بالركاب الذى كانوا في انتظاره .. ومن خلال شباك الحانة كنت اراقب دخول الناس وخروجهم من البص .. وفي آخر لحظة قفزت من مكانى وانحشرت في البص .. وكنت كلما توقف البص اخشى ان يجيء المفتش .. وعلى بعد عشرين كيلومترا من كرسنو يارسك توقف البص في العراء..
ولدهشتى الشديد وفزعى الاشد دخل ضابطان الى البص .. وصاح احدهم من باب الدخول.
ـ جهزوا البطاقات الشخصية ـ
وعندما حضر الى مددت اليه البطاقة ودعوة النائب العام .. وانا ارتجف انفعالاً وخوفاً .. ولكنه اعاد الى الوثائق بدون كلمة.
وهكذا وصلت الى كرسنو يارسك.
كان المدعى العام سولوفيف ينتظرنى بترحاب حار..
كان رجلا قوى البنية .. كبير الراس .. شعره اشقر..
دعانى للجلوس ووضع امامى صندوقاً من السجائر .. ثم قال لى..
ـ جاءنا امر من لجنة الامن القومي في موسكو لنرسل أوراقك ووصف شخصيتك وقد دعوتك لأرى الذى ساعطى أوصافه .. لان الذى لدينا من الـ (م ج ب) ليس كافياً..
وسالته وقلبى يخفق..
ـ هل يمكننى ان اعرف لماذا يبحثون في امرى..
ـ هذا ما لست ادريه انا ايضاً .. ولكنى اخمن ان احداً ما توسطلك .. ومن المحتمل ايضاً ان لجنة الامن اخذت على عاتقها وبدافع خاص مراجعة كثير من الاحكام في زمن

جوزيف.
ـ اذن علينا ان نامل في مجيء زمن سيفعل فيه شيء من أجلنا..؟
ـ كيف لا؟ .. يمكنني أن أقول لك بأن قضيتك الثانية قد انتهينا من اعدادها مرة اخرى واستمعنا الى الشاهد الوحيد الذى بقي حياً..
لارينوف ـ وهذه هي أقواله الجديدة:
ـ آه هذا شيء جديدة..
ـ نعم .. لقد سحب لارينوف شهادته ضدك وقال انه اعطى تلك الشهادة تحت ضغوط مدير الـ (م ف د) في نورلسك ـ بولنكاربوف..
ووجه لي سولوفليف عدة اسئلة.
اجبت عليها بموضوعية فكتب اجوبتي .. وبعد ذلك اخلى سبيلي ولأول مرة اخرج من مؤسسة سوفيتية واشعر بانني لم اشترك في تمثيلية كوميدية.
ان المدعى العام يحاول الآن ان يصلح الامور .. ويعيد العدل .. ويمسح آثار جريمة صعبة.
وعندما عدت الى ماكلاكوف .. حدثت اصدقائي بالحدث الجلل .. ونقلت لهم تفاصيل الحوار الذى دار بيني وبين المدعى العام في كرسنويارسك..
وكان في راى الجميع انهم سيعيدون لي اعتبارى قريباً..
وكتبت الى زوجتي في الحال بذلك الحدث الهام.
وهناك تحركت زوجتي في موسكو .. واخذت الكثير من الخطوات اللازمة لتحريك القضية..
ونجحت في ان تخاطب المدعى العام العسكرى .. الذى وعد بالاسراع في البت .. في امر قضيتي..
وبدون ان تسرح وراء سراب الآمال قررت بواقعية كبيرة ان تاتي للبقاء معي في ماكلاكوف.
ولكن كل اصدقائي عارضوا ذلك .. وقالوا انه من العبط حضور زوجتي في مثل هذه الظروف.
ولكنها كانت قد اعدت العدة لكي تستقيل من عملها .. وتحركت للمرة الثانية من موسكو نحو سيبيريا البعيدة..
وفي الخامسة من يونيو عام ١٩٥٥ سافرت الى كرسنويارسك.
لكي أكون في استقبالها .. وبهذه المناسبة زرت مرة اخرى المدعى العام، الذى اكد لي ان قضيتي ستنتهي قريباً .. واستغرب كيف لا تصدق امراتي ذلك .. وتتكبد مشاق الحضور الى هنا .. ولم تصدق زوجتي نفسها وعينيها عندما راتني اقف على رصيف كرسنويارسك.
كانت قد مضت ثلاث اشهر منذ عودتها الى موسكو من هنا .. وما خطر ببالي عندها انني يمكن ان اذهب معها إلى كرسنويارسك.

وكانت هذه علامة جادة على ان عهداً جديداً قد بدا في الاتحاد السوفتيي.
وقضينا الليلة في كرسنويارسك.
وفي اليوم التالى ركبنا الشاحنة التى أحضرت العمال الشباب من مدرسة الصناعة في كرسنويارسك الى ماكلاكوف.
عدنا ثانية الى منزلى المتواضع.
وارادت زوجتى ان تجد لنفسها عملا يرفع قليلاً من دخلنا الذى لا يكفى للقوت الضرورى.
وكانت المدرسة الابتدائية في ماكلاكوف تبحث عن معلمة للغة الالمانية.
فقدمت نفسها لهذه الوظيفة.
ولكنها عندما ذهبت الى مدير المدرسة تهرب منها بشتى الطرق .. وتحايل حتى لا يقول لها انها زوجة احد المنفين ولا يسمح لها بالعمل في المدرسة.
وحرثت قطعة من الأرض زرعنا عليها بطاطساً..
وفي الخريف حصدنا عشرة جوالات منه .. وكان هذا كافياً لنا .. وفي كل يوم (احد) كانت زوجتى تذهب للسوق لتبيع احدى ثيابها. والنقود التى تحصل عليها كنا نشترى بها الدهن والخضار وبعض الماكولات..
وقد انقذنا ذلك من الجوع..
وكان بامكانى الآن ان اتصل بسفارة بلادى في موسكو .. وقد جاءتنى رسالة من السفير فيدج قال فيها ان الجهات المختصة بدات في اتخاذ الخطوات اللازمة لكى تسهل لى امر العودة الى بلادى.
وفي نفس الوقت وصلنى اشعار من المدعى العام العسكرى الذى اخبرنى ان قضيتى تاخذ مجراها الطبيعي، وانه سيفيدنى بالنتيجة. وسافرنا ذات يوم إلى ينسيسك وهناك تعرفت زوجتى على عديلة هرزبيرق .. وقاسمتنا الابتهاج بتلك الانباء السارة الجيدة. وقالت لنا:
- انا عندى ايضاً اخبار جيدة .. وساغادر قريباً ينسيسك لأعيش في موسكو.
وفي هذه الفترة تعرفت زوجتى على الجزء القديم من مدينة ينسيسك .. ذلك الجزء الذى قرات عنه في الادب الروسى .. وقد تركت هذه المدينة في نفسها اثراً عميقاً.
ومكثت زوجتى معى لمدة اربعة اشهر قررنا بعدها ان تسافر هى إلى موسكو لتتابع بنفسها مع السلطات قضيتى وتسرع الى نهايتها المرجوة..
ومن ناحيتى كتبت رسالة الى مولوتوف .. رجوته فيها ان يتدخل شخصيا ويسمح لى بالعودة الى بلادى .. وحملت زوجتى الرسالة معها .. واتفقنا ان نبذل جهدها لتسلمه الرسالة شخصياً وحين وصولها الى موسكو سعت للقاء مولتوف .. ولكن كان دون ذلك عبور المحيط سباحة..!
احد موظفى السكرتارية هناك كان جافاً وغاضباً لأن زوجة أحد المنفين تبحث عن تدخل مولوتوف الشخصي في قضية زوجها - ولكنه وعدها بنقل محتويات الخطاب الى

السلطات العليا.

وعندما عادت زوجتى مرة ثانية بعد مضى حوالى الشهر الى موظف السكرتارية أخبرها بان قضيتى هى موضوع بحث السلطات العليات الآن الـ (ك ج ب)..

وكانت زوجتى تبدأ سعيها اليومى الثامنة صباحا..

تصعد وتنزل درجات السلالم من الـ (ك ج ب) الى اللجنة المركزية للحزب .. ومن المدعى العام العسكرى الى المدعى العام للدولة. ثم إلى المحكمة العليا.

وفي كل مكان من تلك الامكنة كانت تجد الناس على الأبواب. وهم ينتظرون مقابلة احد الكبار ليتدخل في حسم أمور ضحايا العهد الستالينى ومازالوا أحياء.

الاطفال والنساء والشيوخ تجرأوا الآن في ابداء رجاءاتهم .. لم يعودوا يخافون كما كان سابقاً..

ولم يكن في انتظارهم عند باب الخروج الـن ك ڤ د لياخذهم الى هناك..

إلى البقاء مع الذين يطلبون لهم العفو والرحمة.

وجاء البرد والشتاء كما يجىء كل عام..

ومازلت في ماكلاكوف..

الاخبار الورادة من موسكو كانت مفعمة بالامل..

ولكن لم يصدر القرار بعد.

قيل ان اللجنة المركزية للحزب قررت أن يفرغ المدعى العام والمحكمة العليا من قضايا اعضاء الحزب في المقام الاول. وعشت على الأمل.

كنت أعلم ان دورى سياتى..

ولذلك استعنت على الصمود بالصبر.

بيريـــــا

في أحد أيام الشتاء الباردة كنت مسرعاً كالمعتاد إلى العمل.

وحين وصولي إلى مبنى الـ (م ق د) في ماكلاكسوف وقعت عيناى على مجموعة من الناس كانت تتحلق هناك وتحيط بساحة المبنى.

ما الذى يجرى يا ترى؟..

ودار فكرى بسرعة كبيرة .. كنت آمل بصدق الا تكون مجموعة جديدة من المنفيين قد وصلت.

ومضيت قدماً إلى الامام مقترباً من المكان..

وجدت عدداً من الرجال والنساء والاطفال، قوامهم حوالى الاثنى عشر..

كان الجنود يسلمونهم حقائبهم من الشحانة. وسال احدهم..

- من اين اتيتم؟..

ولكن لم يجب احد.

احدى النساء اللاتى وصلن توجهت بسؤال لضابط خرج من المبنى..

كانت تتحدث الروسية بلكنة قروزية .. وعندها قال احد المشاهدين:

- هؤلاء قروزيون.

اعتقدنا ان نفيهم تم لمحاولتهم الثورة مع الذين كانوا موالين للنظام الستالينى في قروزيا.

ولكن اللغز سرعان ما وضحت خوافيه..

اخذ الضابط الوريقة يقرأ منها الاسماء بعد تسليم الحقائب..

- بيريا..

وتقدم رجل إلى الامام ناطقاً باسمه..

اذن هكـذا؟.. هؤلاء هم اقـارب بيريـا الذى نفـذ فيـه حكم الاعـدام .. والآن سيتحملون هم مصير رأس عائلتهم.

ولم يأسف عليهم احد.

وقال شخص ما:

- انهم لم يحضروا الى هنا كما حضرنا باشيئانا التافهة (وصررنا) الحقيرة .. ولكنهم ياتون بحقائب كثيرة؟..

في اليوم الاخيرة من عام ١٩٥٥ اجتمعت اسر المنفيين لكى تحتفل بوداع العام القديم .. واستقبال العام الجديد ١٩٥٦..

وكان الجو يبدو في عمومه خيراً من اجواء الاعوام السابقة، في مثل تلك المناسبات بعض من كانوا معنا هنا في العام الماضى عادوا إلى الوطن الذى انتزعوا منه بالقوة .. ونحن مازلنـا هنا .. نامل ونرجو ان تحين اللحظة التى نستطيع فيها اختيار المكان المناسب لنا بنفسنا..

واهتم الجميع، حتى تظهر المائدة غنية حافلة.

ولم يكن التوزيع عادياً في الوجبة الخفيفة والمقبلات التى تسبق الوجبة الرئيسية..

كانت هنـاك قطع اللحم المشوية والبطاطس المقلى الذى زكمت رائحته الشهية الانوف وكذلك العجور المخلل بدلاً عن السلطة الطازجة .. وكانت الفودكا كافية مباحة بالقدر الذى يطيقـه الانسان .. ولعشاق عصير العنب المعتق احضروا اثنتى عشر زجاجة كبيرة من كرسنويارسك..

وعندما تعانقت عقارب الساعة في الثانية عشرة ليلاً .. ودقت الاجراس، تبادلنا الانخاب بعام جديد سعيد .. هو عام ١٩٥٦.

وجلسنـا معـاً نسمر حتى الخامسة صباحاً .. حيث فاحت رائحة القهوة ذات النكهة المثيرة ومعها (الطورطه) الساخنة الشهية.

وقد ارسلت لى زوجتى من موسكو هدية العام الجديد .. وكانت كما يلى..

برقية عاجلة في اول يناير عند الساعة الواحدة ظهراً تقول: «المدعى العسكرى قدم استئنافاً ضد حكم المحكمة العسكرية..».

هل كان من الضرورى ان تمر السنون مرتين على عشر لكى يتضح للجميع اين قُتِل القانون)؟..

والآن ـ على فقط انتظار قرار المحكمة العليا للاتحاد السوفيتى.

غيرت اكبر مبانى الميدان الرئيسى في ينسيسك ساكينها..

ذهب موظفو الـ (م ج ب) ومعهم رئيسهم العقيد موسكالنسك، وجاء آخرون .. وجوه جديدة لم نراها من قبل.

على راسهم الرائد فونزالنك.

وانتزعت اللافتة القديمة التى كانت تحمل فوق اديمها النحاسى حروف سوداء كتب عليها: ـ وزارة الداخلية للامن القومى ـ منطقة ينسيسك.

ووضعت بدلاً منها لافتة جديدة كتب عليها: ـ لجنة الأمن القومي الموكلة بمنطقة ينسيك.

وقفت امام الرئيس الجديد للامن القومي الرائد فونزالنك، عندما استدعانى اليه..

قابلنى برقة وتهذيب غريبين لا يلائمان وجه قروى أوكرانى..

قال لى:

ـ اردت ان اتعرف الى المنفى المثير..

وصمت ما أحير خطاباً..

كيف حالك؟..

ـ اعتقد ان واجبك يطلعك على أحوال امثالى.

ـ هل انت سعيد بعملك؟ .. وهل لك منزل جميل؟..

اجبته باقتضاب..
ـ يمكن تحملهما.
ـ هل لديكم أخبار عن الطلب المقدم لاعادة النظر في الحكم عليك؟..
ـ ليس لدى مثل هذه الاخبار..
ـ قريباً سيصلك شيء من موسكو .. واعتقد انك ستكون حراً بعد اسابيع..
ـ انه لمنتهى الوقت؟..
ـ ما الذى تود فعله عندما يرد لك عتبارك؟..
ـ طلبت اذناً بالسماح لى بالعودة الى وطنى.
ـ اذن تريد تركنا؟..
ـ نعم .. فهنا لن يبكى على احد.
ـ يمكنك البقاء معنا .. ففى حالة رد الاعتبار سيصلح كل شيء.
وصمت .. لم اقل شيئاً .. فقال لى برقة حقيقية:
ـ اذا احتجت لشيء يمكنك البحث عنى.
وشكرته وخرجت من الغرفة والمبنى.
وقد انتهزت فرصة وجودى في ينسيسك وقمت بزيارة لقبر ماكست قلبر .. الذى مات قبل فترة وجيزة.
كان قلبر رومانى الجنسية .. موظف دولة .. وعند احتلال الروس لبسارابيا وبكرفن القوا عليه القبض في جرنوفيننا.
ثم قضى مدة الحكم عليه بعشرة أعوام، نفى الى ماكلاكوف لكى يعمل في منشار الخشب..
وهنا تعرف على شابة كانت تدرس في المدرسة الصناعية في كرسنويارسك وارسلت الى ماكلاكوف للتدريب..
واتفقا على الزواج بعد ان تنهى دراستها..
غير ان قابر مرض فجاة مرضاً شديداً للغاية..
وفي وقت قصير مات وهو يعانى اشد الالام في مستشفى ينسيسك.
واهتم أصدقاؤه بدفنه وزينوا قبره. وكان يقف خلف هذا العمل الوفى جوزيف بيرقر الذى أوصى بعمل الشواهد للقبر.
وعندما تاكدت بان كل شيء على مايرام دفعت للقائمين على نظافة ونظام القبور وذهبت منكسر القلب، من ذلك المكان الذى من المحتمل ان لا يزوره من يهتم بوضع باقة من الزهور عليه.
وفي بداية مارس وصل الى ماكلاكوف سكرتير لجنة الحزب للمنطقة، ودعانى ليخبرنى انهم اخطروه من موسكو تلفونياً .. من اللجنة المركزية للحزب ومن سكرتارية الرعاية الاجتماعية ليتقصى احوالى الصحية وموقفى المالى.
وقلت للسكرتير اننى بصحة طيبة .. كما ان مبلغ الستمائة روبل التى اتقاضاها

شهرياً تكفيني لكي لا اموت من الجوع.

وبعد جهد جهيد استطاع ان يقنعني بان بقائي هنا لن يكون الا لوقت قصير جدا.

ثم استدعاني بعد اسبوعين مرة اخرى، وقال لى بان سفارة بلادى تسال عنى واضاف ان ذلك موشر حقيقى لقرب انتهاء قضيتى.

وفي الثانى من شهر ابريل عام ١٩٥٦ ذهبت الى السوق لشراء طعامى ليوم الاحد .. وبعد ان انتهيت ذهبت لمكتب البريد بدافع خفى لست ادرى كنهه..

وعندما هممت بالخروج لمحنى ساعى البريد وكان يعرفنى، فصاح بى:

ـ وصلت برقية لك..

ففتحتها بيد مرتجفة..

كان نصها كما يلى:

ـ «تهانى القلبية برد اعتبارك الكامل .. قف .. سعيدة .. سعيدة .. سعادة لا نهاية لها .. قف..»

سونيا

وجاء ذلك اليوم حقاً .. ليجدنى حياً .. وسعيداً..

وحسبت ما معى من نقود .. فاشتريت زجاجة من عصير العنب المعتق..

وبانفاس متقطعة جريت .. هرعت لأصدقائى كى اقتسم معهم فرحى الكبير .. وشربنا نخب اندحار ظلم ستالين.

وبعد ايام استلم جوزيف بيرقر برقية بنفس المعنى .. فتضاعفت سعادتى .. وقد سافر من ماكلاكوف قبل سفرى بأيام، وهو يعيش الآن مع أسرته في اسرائيل.

وقضيت ما تبقى لى مع اصدقائى الذين كانوا في انتظار لحظات الحرية .. وكنت بحوجة الى ثلاثة أيام أصفى فيها ممتلكاتى.

وفي حفل عائلى ضم اصدقائى الاعزاء ختمت حياة طويلة مفزعة .. وأنهيت فترة مؤلمة من حياتى..

الطريق الـــى الحرية

في الخــامس من ابريل وقفت بحقيبتي أمام الحانة (جانياى) وانتظرت الناقلة التي ستقلني الى كرسنويارسك .. وبالصدفة كان في الحانة رئيس الـ (ك ج م) فوزالنك ومساعده فاسيليف .. ودعياني الى المنضدة التي يجلسان اليها..

وابديا استغرابهما لسفرى، وتاسفا لان عربتهما تحت التصليح ثم اقترحا علىّ ان يطلبا لى عربة تاكسى من ينسيسك .. فشكرتهما على مودتهما، واعتذرت لهما بانه من الاكرم لى ان امتطى الشاحنة المحملة بالاخشاب الى ينسيسك.

وقد اركبني السائق الى جانبه بعد ان وضع حقيبتي بالخلف على الاخشاب..

واثنــاء الرحلة وقفنــا عدة مرات لكى نستدفىء ونصيب بعض الراحة من عناء الطريق الوعر..

ولم يتناول هذا السائق ولا كاساً واحداً من الفودكا .. وكان ذلك امراً نادراً في هذه المنطقة .. وكنت سعيداً لأنى ركبت الى جانب شخص واع .. ولأنى وصلت أيضاً بكامل اعضائى الى كرسنويارسك..

في محطة السكة الحديد بكرسنويارسك خلعت الملابس السيبيرية. وقد أهديت شاباً رث الملابس زرىء الهيئة كان يتسكع في اروقة المحطة، أهديته بنطالى المحشو والمعطف والحذاء..

واندهش الشاب واصابه الذهول للوهلة الاولى .. كان يعتقد انى امزح معه..

وتدخل رجل كان يقف بالقرب منا واوضح له ان هذه الاشياء هدية جاءته من رجل لا حاجة له بها. وانتظرت قطار بكين ـ موسكو..

الذى كان عليه ان يصل بعد ساعة.

وبلا أدنى صعوبة اشتريت تذكرتي..

فقــد كانت بالقــطار العــديد من عربات النوم والدرجة الاولى والثانية .. وتلك الدرجات لم تكن من طلبة الجموع التى احتشدت متكتلة في محطة السكة الحديد.

وفي نفس العربة وجدت الموظفة التى دخلت العربة في كرسنويارسك .. واحد الدبلوماسيين الصينيين في موسكو .. وبعض كبار موظفى السكة الحديد من (جبت).

واخيراً وبعد مرور اثنتى عشر عاماً اجلس في قطار السكة الحديدة مرة اخرى .. كرجل حر .. ولم أكن قد تعودت بعد حرية الحركة داخل القطارات ـ الجلوس .. الخروج .. الدخول .. الذهاب لدورة المياه وقتما أشاء..

وما الذى استطيع قوله بعد .. في أمكانى الذهاب لعربة الأكل في القطار وبأمكانى الجلوس كيف أريد.

ومررنا بمدن سيبيريا الكبيرة نوفو سيبرسك ـ واومسك ـ وسفردلوفسك .. ومعظم هذه المدن انطبعت بصماتها في ذاكرتى كمحطات مرحلية كبيرة للنقل الجماعي لضحايا ستالين.

وفي اليوم السادس اقترب القطار من موسكو..
المدينة التي بدأت فيها مأساتي قبل حوالي العشرين عاماً. واستيقظت بدواخلي أحاسيس شتى .. فارت وتداخلت وفاضت وأربت .. كراهيتي لأولئك الذين سببوا مأساتي ومازال جزء منهم يتربع على دست السلطة .. حبي لزوجتي سونيا الرائعة التي تعيش هناك وتنتظرني..
وجاهدت أن أحصر أفكاري فيها هي وحدها .. وأن أسقط كل من عداها .. فأنا مدان لها بالكثير..
وعندما توقف القطار .. أخذ قلبي يدق بعنف شديد .. وبارتجاف متقطع نزلت من القطار وعيناي تبحثان عن الوجه العزيز المتالق نوراً بين الجموع الحاشدة في موسكو .. وتقدمت نحوي كشعاع من الشمس .. وبشوق اللهفة اخترقت الجموع نحوي وتعانقنا بلا كلمات..
وتقدم بعدها أقرباؤها .. صافحوني بحرارة وبترحيب صادر من القلب. وسارت بنا عربة التاكسي في شوارع موسكو المضيئة.
وعندما مررنا بمبنى الـ (م ج ب) في لبيانكا، لم أستطع كبح جماح نفسي من نعتهم بأقبح السباب..
أول مفاجأة قابلتني في موسكو كانت هي لقائي برئيس القسم الثاني للبوليس والذي رفض قبول إعلان بمكان اقامتي في موسكو .. فأوضحت له بأنني كنت أقيم في موسكو قبل اعتقالي .. ولكنه أصر على رفضه وقال انني بدون سكن أما منزل والدة زوجتي فهو صغير لثلاثة أشخاص .. ومساحته لا تزيد على ثمانية وعشرين متراً مربعاً.
وعلى تعليقي بأن عشر آلاف من الموسكويين يسعدهم جداً أن يجدوا مثل تلك المساحة .. ولم يجب بشيء.
واعتقدت أن هذا سوء فهم ليس إلا، فذهبت الى قيادة الشرط في موسكو بشارع لينينفزادسك.
وكانت هناك لافته على باب المبنى كتب عليها:
ـ الرئيس لا يستقبل أحداً.
واحترت .. هل عدم الاستقبال هو لليوم فقط أم أن ذلك أمر دائم؟..
ـ الرئيس لا يستقبل الجمهور.
وسألت:
ـ إلى من أستطيع بسط مشكلتي؟..

ـ اذهب الى أحد المساعدين في الطابق الأول..
وأمام قاعة كبيرة رأيت مئات الناس يقفون بانتظار اذن الدخول.
ـ كيف يمكنني الدخول إلى نائب رئيس الشرطة؟
أجابني بصوت جهوري:

ـ الكل ينتظر .. ويجب عليك الانتظار..
وسالت بعض الناس عن سبب انتظارهم، فاجابوني انهم ينتظرون السماح لهم بالاقامة في موسكو.
وبعد انتظار دام لاكثر من ثلاث ساعات جاء دوري..
وقابلني ضابط من الـ (م ق د) .. وحدثته باني بعد اعادتي من سيبريا الذي تم بناء على رد اعتباري اسكن عند زوجتي .. ومددت له اوراقي، فقرا قرار المحكمة العليا للاتحاد السوفيتي في رد اعتباري، وقال لي:
ـ انتظر في قاعة الانتظار..
ومرة اخرى انتظرت لبعض الوقت .. ثم ظهر نفس الضابط ومد لبعضهم قصاصات بيضاء وللبعض الآخر بطاقات خضراء.
وانا كالغالبية العظمى كان نصيبي ورقة خضراء..
وقرات عليها .. طلبك للسماح لك بالاقامة في موسكو مرفوض، وعليك أن ترحل من المدينة في اربع وعشرين ساعة .. واحذر ان تكون موجوداً في دائرة قطرها مائة وخمسة كيلومترات هي حدود موسكو..
واذا لم تلتزم جانب هذا الامر سوف تحاكم بموجب المادة ٣٥ والتي عقوبتها تمتد من ثلاث الى خمس سنوات في المعسكر..
اما ماذا تعني تلك المادة فذلك ما أعلمه جيداً .. فقد قابلت في المسعكر آلاف الناس الذين حوكموا بناء على تلك المادة. وتبخرت سعادتي التي كان مصدرها رد اعتباري وعودتي الى موسكو.
ولم اكن ادري كيف اذهب الى زوجتي لاخبرها بان بوليس موسكو لا يعترف باعادة اعتباري.
ووقفت في وسط الطريق اتلفت ولم ادر الى اين اتجه..
لم ارد أن اعود ابداً لمنزلي بمثل تلك الاخبار القبيحة..
لا يمكن ان يكون قرار اعلى محكمة في الاتحاد السوفيتي هو عند رئيس بوليس موسكو لا شيء .. سوى قصاصة من الورق الذي لا قيمه له.
وكانت الساعة عندها، هي الثانية ظهراً، والمؤسسات الحكومية والمكاتب الرسمية تعمل ساعة اخرى.
وذهبت الى التلفون العمومي، وادرت رقم اللجنة المركزية.
وردت على احدى السكرتيرات ... وكان اسمي معروفا لديها اذ أوصلتني فوراً برئيسها ... وحكيت له باقتضاب شديد ما حدث لي في البوليس ـ فسالني
ـ هل كنت عند رئيس قيادة الشرطة ..؟
..هذا شيء لا استطيع مجرد التفكير فيه .. اذ يستحيل الوصول الى ابعد من سكرتيرته.
ـ مع من تحدثت ..؟
ـ تحدثت مع احد مساعديه الذي اعطاني قصاصة خضراء فيه امر بمغادرة موسكو

خلال ٢٤ ساعة.
ـ أرجو ان تعود ادراجك الى رئيس قسم الشرطة وعندما تصله فستكون الامور قد رتبت.
وعندما ذهبت مرة أخرى لغرفة السكرتيرة، قابلتني بابتسامة ساحرة هذه المرة ... وادخلتني فوراً الى غرفة الرئيس.
وسمح لى بالجلوس على الكرسى .. وحكيت له لماذا عدت رغم اننى اعلم بان سؤاله من باب الشكليات ليس إلا ... وبعدها اطلت السكرتيرة وقادتني الى حجرة اخرى ... وبعد دقائق حصلت على خطاب رئيس قسم الشرطة فى المنطقة الثامنة ـ فى نفس اليوم قبلت اقامتى ...
وسمح لى بان اكون من الموسكويين.
وكانت هناك مسألة أخرى ..
قسم اعادة الاعتبار ـ فى الصليب الأحمر ـ هو الذى عليه ان يحصل لى ولزوجتى على تاشيرة خروج.
وعندما قدمت نفسى هناك ... علمت من مدير القسم بان احد قيادى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى انتظارى.
وفى قاعة الانتظار فى ـ ستاربلو شجاد ـ سالنى احد كبار ضباط الـ (ك ج ب) ـ لماذا اتيت هنا ..؟
فاجبته باسم الشخص الذى دعانى.
ومنه وبتوجيهه دخلت الى عدة مكاتب استقبال.
وفى احداهما مد احد الصولات رأسه فاعدت عليه مطلبى ..
ـ ما أسمك ..؟
ـ كارلو شتاينر ..
ـ اجلس على الكرسى ..
ولمدة خمسة عشر دقيقة فيها هناك كانوا يراقبوننى بلا انقطاع من نافذة هناك ثم اشار لى الصول بيده، فوقفت واقتربت من النافذة ...
ـ المدخل الخامس
ومرة أخرى وقفت فى الميدان الكبير ... وبحثت عن المدخل الخامس.
وتقدم نحوى رجل فى ملابس مدنية ...
ـ ما الذى تبحث عنه ..؟
ـ المدخل الخامس ..
ـ عليك بعبور الطريق.
واخيرا وجدت المدخل ... وكان فى انتظارى رائد من الـ (ك ج ب) ..فسالته الى اين اذهب ..
ووجهنى لاحدى النوافذ ... وهناك اعطونى رقم هاتف ...
وامام عشرات الاجهزة التلفونية وقف الناس فى صفوف عديدة ..

ودخلت الى كبينة التلفون ... وذكرت لامرأة فى الجانب الآخر عن الذى اطلب .. فقالت لى ...

- انتظر على الخط.

ومرت دقائق .. والناس فى الخارج يراقبوننى بنفاذ صبر شديد ..

وجاءنى صوت المرأة نفسها ... طلبت منى ان اتوجه للمدخل الثانى وان أطلب الاذن من النافذة الثانية.

وللمرة الثالثة وقفت فى قارعة الطريق ابحث عن المدخل الثانى .

وهناك ذكرت اسمى ولماذا حضرت.

وقابلنى رجل فى بزة رسمية ... وكتب اسمى فى القائمة امامه ...

- بطاقتك الشخصية ..

- هاهى ..

- اجلس وانتظر لحظات قليلة.

وعندما كنت انتظر جاء اناس كثيرون ... توجه بعضهم نحو النافذة وجلس البعض ينتظرون.

وفى قاعة الانتظار كان ضابط الـ (ك ج ب) يتمشى رائحاً غادياً.

وعندما تفتح ابواب الدخول كان يلتفت نحوها مستديراً.

ثم أشار الى الموظف الجالسس داخل النافذة فلما اقتربت منه اعطانى تصريحاً.

وبقيت بطاقتى الشخصية فى حيازته ... ثم اوضح لى كيف اجد باب الدخول.

وبالتصريح فى يدى بحثت عن الرقم داخل البناية الضخمة.

وعند زقاق ضيق وجدت باب الدخول ...

وتكررت نفس الاجراءات السابقة ... ثم قادنى الضابط النوبتجى عبر ساحة بها عربات بنية اللون ماركة بوبيدا وسيزوفا تنتظر اصحابها ...وفى الطابق الاول - قابلتنى شابة مكتنزة الجسم ... قادتنى خلال الممر الى قاعة انتظار.

ثم طرقت باباً هناك ففتح لها ...

ودخلت انا ولم تدخل هى.

ووقف القيادى الكبير امام كرسيه المبطن المكسو ومن خلف المنضدة مدّ لى يده مرحباً ..

- اجلس يا زميل.

وجلست على كرسى ذى ايادى ... وامامى منضدة للتدخين .. وعلى الجانب الآخر كان يجلس القيادى.

- كيف تعجبك موسكو بعد كل تلك السنوات ..؟

وضغطت على اعصابى حتى أجيب على السؤال الذى لم يكن يهمنى فى تلك اللحظات ... قلت ...

- بالطبع ... موسكو مدينة كبيرة ..

ـ نعم .. نعم .. وكثير من ذلك يتغير .. نحن نستثمر نقوداً كثيرة لكى نجمل المدينة ..

ولم أجب ... فلاحظ محدثى بان هذا الامر الذى نتحدث عنه لا يهمنى.

وسالنى ..

ـ كيف عشت هناك؟ أعتقد انها لم تكن حياة سهلة ..؟

ـ هذا ما لا استطيع وصفه ... ولن تصدقنى اذا حدثتك بالذى عشته ... واخاف ان لا تصدقنى أمى التى ولدتنى.

ـ ها ..ها ..ها .. قد مضت كل تلك السنوات ... ماهى خططك ..؟

ـ أريد ان أسافر سريعا الى وطنى.

واخذ يحاول اثنائى ويغرينى بالبقاء .. ولكنى اجبته ...

ـ إن قرارى نهائى ..

ـ جميل .. جميل ... يمكنك ان تسافر الى الجهة التى تريد ... هوّن عليك.

ـ اريد منك ان تسهل لى إجراءات سفرى.

ـ سافعل ... ولكن رغم ذلك اطلب منك البقاء ... ستحصل على سكن مناسب وعمل.

ـ أنا مصمم على قرارى.

ـ جيداً يمكنك أن تسافر بعد اسبوعين.

ونهضت وودعته ... وانصرفت.

موسكو عام ١٩٥٦ ...

الاجانب الذين تتاح لهم زيارة الاتحاد السوفيتي، يكتفون فـي العادة بزيارة موسكو لينجراد ... او اى مدينة اخرى كبيرة .. ويعتقدون بذلك انهم قد تعرفوا على بلاد السوفيت.

وغالبا ما يعطى هؤلاء الناس عند عودتهم الى بلادهم تصريحات، اما ان تكون موجبة للغاية او سالبة للغاية.

وقد يتبادر الى اذهان اولئك الناس انهم بفعلهم ذاك يكونون قد خدعوا آخرين ببريق آمال كاذبة .. او انهم على احسن الفروض قد خدعوا مواطنيهم.

فالشيء الذى يرونه فى المدن الكبيرة لا يمكن اعتباره الوضع السليم فى الاتحاد السوفيتى ...

اما كيف رايت انا موسكو بعد عودتى من سيبيريا؟ فذلك هو ما اقوله هنا .. اقامة طويلة فى موسكـو عام ١٩٥٦ ... اللقـاء مع الاصـدقاء القدامى ... زيارة المؤسسات المختلفـة ... كل ذلك مكننى من رؤيـة العـاصمة السوفيتية تحت الضوء الحقيقى الفاحص ..

فقـد لاحـظت اول ما لاحظت انه ليس من الخطورة على الحياة والحرية ان تمر بالميدان الأحمر، او تقف فيه ...

والعين الفاحصة المدققة تستطيع ان ترى اناساً بالملابس المدنيية يتجولون فى ذلك الميدان ... وهم على كثرتهم ليسوا بالمدنيين ...

كانوا يتهربون من رؤية المارة لاعينهم ..

اما الحى الذى تقع فيه بناية الـ (م ف د) الضخمة لم يتغير، وان كانت هذه البناية قد تضخمت وكبرت اكثر ... الحرس يرتدون على رؤوسهم قبعات لونها ازرق غامق ...

والفرق بين سلوك السابق والآنى، هو انهم اصبحوا يردون على اسئلة المارة.

وهناك ايضا جسر كوزنيسك ... وشارع كيروق ...

وسرتنينك ... وشارع نقلين ... وكل ميدان تروين لا زال حتى الآن هو الذى تتفرع منه شوارع ومؤسسات الـ (م ف د) والـ (ك ج ب) ..

وبجزم شديد يراقب الجميع حرس مرئى، وآخرون غير مرئيين ..

ولكن لا توجـد تلك العـربـات المكتـوب عليهـا كلمة خبز باللغات الالمانية ... واليوغسلافية .. والايطالية ... والانجليزية.

ولكن هناك عربات الخبز الحقيقية المتواضعة والتى كتب عليها بالروسية كلمة "خليب" ... وكان المارة يتاكدون بالفعل ان الخبز الحقيقى يخرج من هذه العربات ..

وامـام السجـون اختفت صفوف الاقارب الذين يحملون (الصرر) فى أيديهم .. وينتظرون على امل أن يعطوا السجناء قليلا من الأكل ... او قليلا من الملابس.

ولكن ارتفع بالمقابل عدد اولئك الذين ينتظرون فى قاعات الانتظار عند المدعى العمومى للدولة، او المحكمة العليا ...

وهم الذين يتتبعون اعادة النظر فى قضايا اقرب الناس اليهم. عدا الكرملين والذى فتح ابوابه للمواطنين فى بعض المناسبات الهامة، فهناك خمس عمارات شاهقة ...

وقد اثارت فضولى بشكل خاص .. فمن الذى يسكن تلك العمارات الشاهقة ...
وحين حاولت الدخول الى احداهن وهى التى تقع فى شارع بلو شجاد فوستنى ـ جاءنى حارس فى ملابس حمراء داكنة اللون ... وسألنى قلقاً ...

ـ عمّ تبحث ..؟

ـ تهمنى هذه العمارة الجميلة ... واريد ان انظر اليها ... ولو الى درجات السلم فقط ...

نيلزيا ـ اى ممنوع ـ ...

ورغم ذلك نجحت فى التسلل الى احدى تلك العمارات ...

ومن الطابق الاول تبين لى انه لا يوجد احد من السكان هنا رتبته العسكرية اقل من رتبة الرائد.

وقد علمت ايضا ان العمارة التى يسكن فيها "رائد" يكون سكانها عادة من الرتب العليا ... وان " الرائد" هى اصغرها.

اما ان رايت فى عمارة ساكنا برتبة نقيب فعليك ان تتاكد بان ساكنى هذه العمارة لا تقل رتبة ادناهم عن رتبة الملازم اول ... ولا تزيد كذلك رتبة اعلاهم عن رتبة نقيب ومثال ذلك ايضا فى حالة المدنيين ... فالعمارة التى يسكن فيها قياديو الحزب، او النقابات لا يجد فيها المواطن العادى من "الغبش" مكانا لسكنه ...

وكانوا يحاذرون جداً ان يتسببوا فى اى نوع من الازعاج لتلك الطبقة التى لا ينتمون اليها.

وكان العمال والموظفون لا يحلمون ابداً ولا يطوف بخاطرهم ان يبحثوا عن سكن هنا ... فرواتبهم السنوية ربما تكفى لدفع الايجار الشهرى فقط.

اما اين يسكن عمال موسكو ..؟

فهناك فى البدرومات باحياء المدينة المهجورة ... يتكدسون كل ستة اشخاص أو ثمانية أشخاص فى غرفة واحدة ... اما فى العمارات الجديدة باطراف المدينة واحيائها النائية فقد يستطيع العامل ان يجد سكناً يلائمه.

المتاجر ... والحوانيت الكبيرة ... فى موسكو دائما ممتلئة بالشارين ... ولكن القليل جداً من الواقفين امام معارضها الضخمة هم الذين يستطيعون الشراء حقيقة.

ولكى أحصل على بنطال علىّ ان ابحث فى متاجر كثيرة .. ورغم ذلك لم اجد ما أبحث عنه ... وبعد ايام كثيرة اقتنعت بما عرض علىّ دون ان احصل على ما كنت اطمع فيه ...

ونفس الشىء يحدث فى مخازن المواد التموينية.

كان يجب علىّ الوقوف فى الصف لمدة ساعتين حتى اتمكن من شراء قطعتى

سجوق.

وفي الاتحاد السوفيتي لا يوجد نظام البطاقات ... ولكن الناس يأسفون لالغائها ... فقد كانوا يستطيعون بها الحصول على جزء بسيط معلوم ... وهو ما ينفقون في سبيله الآن الساعات الطوال ولا يضمنون حصولهم عليه

والاجانب يقولون ان المتاجر ممتلئة، ولكنهم لا يعلمون بان في موسكو يوجد متجر وحد لكل الف وخمسمائة شخص. وفي اوربا تبلغ النسبة متجر لكل مائتين وخمسين شخصا. والموسكويون يستطيعون فقط شراء الاجهزة الالكترونية - راديو - مسجل - تلفزيون الخ ... بدون قيد شرط باثمان معقولة ...

ارض العجائب - حقا ...

اما الاحذية فلا توجد ...

وكذلك لا يوجد السجوق ..

وبالمقابل يمكن رؤية هوائيات التلفزيون متشابكة كثيفة على رؤوس كل الابنية حتى الخشبية منها ...

وكما كان من قبل ... اهتمت الدولة بان يجد الاجنبي ما يريد ... كل شيء ... في الفنادق - انتورست - لا يقف الاجانب في طوابير الصفوف ... ويمكنهم ان ياكلوا جيدا كما في ديارهم ... ولكن بالدولار والمارك والاسترليني والفرنك.

والفتيات الجميلات اللطيفات يعملن جاهدات حتى لا يصاب الاجانب بالملل.

في البارات والمطاعم يستمر الرقص على انغام الجاز حتى الساعة الخامسة صباحا ... وعندما تكون الاضواء مطفأة في منازل الموسكيين منذ فترات طويلة ... تكون انفاس الحياة قد بدات تدب هنا ... والعائدون لمتاخرون في الشوارع المظلمة يمكنهم مقابلة الفتيات اللاتي يردن اضافة بعض الدراهم الى دخولهن الهزيلة من الرواتب التي حيحصلن عليها ..

وفي النهار تمتد ايد كثيرة في موسكو تتسول وتشحذ ...

- اعطني شيئا ... من أجل المسيح ...!!

وانتظرنا تاشيرة الخروج الموعودة اربعة اشهر كاملة.

كل الوعود بقرب حصولي عليها كانت كاذبة.

وبفضل التدخل الحازم للسفير اليوغسلافي استطعت ان اغادر موسكو في الثلاثين من يوليو عام ١٩٥٦.

جلست في عربة السكة الحديد منفعلا ممتلئاً ...

اخيرا اترك البلاد التي قضيت فيها خمسة وعشرون عاماً .. ودفنت في براري ياسها التماعات سراب شبابي.

ولم يكن صعباً على الرحيل من البلد الذي سرق احساساتي الانسانية الرفيعة..

وعندما وصلت بعد ثلاثة ايام الى محطة الحدود ..

تذكرت اننى قبل خمسة وعشرين عاما عبرتها الى الاتحاد السوفيتى. وانا شاب ممتلىء بالحماس والانفعالات والعواطف الجياشة .. وكنت اتطلع بلهفة وشوق الى ان تطا قدماى ارض الدولة الاشتراكية التى ستحقق فيها احلامى وآمالى.

والآن ..!

احس كاننى انقذت بمعجزة ما ..

ومرة اخرى اصبحت رجلا حراً ..

الفهرست

٧ الجزء الثالث

الكتب التى صدرت:

- صرخة فى وادى الانسانية ـ تعليم وتأهيل ورعاية المعوقين.
- مذكرات حامل ـ سلسلة كتب طبية.
- ياعقلى سافر بالسلامة ـ مجموعة قصصية.
- خفاض المرأة ـ سلسلة كتب طبية.
- جزيرة الأقمار السبعة ـ مجموعة قصصية.
- وا أسفاه ـ مجموعة قصصية.
- السرطان مرض العصر بين الوهم والحقيقة ـ سلسلة كتب طبية.
- شخصية الطفل المعوق والطفل المريض ـ سلسلة كتب طبية.
- ٧ ألف يوم فى سيبيريا ـ تعريب.

تحت الطبع:

- الأيدز طاعون العصر ـ سلسلة كتب طبية.
- تكوين الجنين ـ سلسلة كتب طبية.
- التوليد ـ سلسلة كتب طبية.
- أمراض النساء ـ سلسلة كتب طبية.
- الأمير الصغير ـ تعريب.
- نفوس مهشمة ـ مجموعة قصصية.
- عشر قصص ـ مجموعة قصصية.
- رحلة الانسان من المرض الى الشفاء ـ سلسلة كتب طبية.
- مجموعة قصصية.



السيـــرة الذاتيــة

فيصل محمد مكى امين

اللغـــات: عربى - انجليزى - المانى - خرفاتى - صربى (يوغسلافى).

مراحل التعليم: الابتدائى - الأوسط - والثانوى امدرمان.

الجامعى: كلية الطب جامعة زغرب

كلية تعليم وتأهيل ورعاية المعوقين - جامعة زغرب.

الدراسات فوق الجامعية:

أ/ دبلوم الدراسات فوق الجامعية لاكتشاف الخلايا السرطانية فى جسم الانسان.

ب/ ماجستير علوم سرطانية - مرتبة الشرف الاولى.

ج/ زمالة جراحى أمراض النساء والتوليد - الكلية اليوغسلافية.

د/ دكتوراة أمراض نساء وتوليد.

هـ/ درجة الاستاذية «بروفيسر» امراض نساء وتوليد - كلية الطب - شعبة امراض النساء والتوليد - جامعة زغرب.

البحوث والدراسات:

* شارك بالعديد من البحوث فى السمنارات الطبية فى يوغسلافيا والمملكة المتحدة.

* قدم ٣٦ بحثا علميا فى مناحى الطب المختلفة نشرت فى بعض المجلات الألمانية واليوغسلافية، ووضعت كمراجع فى المكتبات للدارسين فى كليات الطب.

السجل العملى:

أ/ عمل بمستشفى امدرمان التعليمى.

ب/ عمل بالمستشفى الجامعى بمدينة زغرب.

ج/ عمل محاضرا بكلية الطب جامعة زغرب.

د/ عمل استاذاً «بروفيسر» بكلية الطب جامعة زغرب.

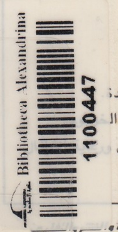
الأوسمة والأنواط والشهادات التقديرية:

أ/ نوط الجدارة من الطبقة الأُولى.

ب/ وسام العلم اليوغسلافى والنجمة الذهبية مع القلاد

ج/ شهادة وقلادة تكريم المبدعين - دار النشر جامعة ال

د/ منشىء ومؤسس معهد سكينة لتعليم وتأهيل المتخلفين عقلياً وبدنياً.



دار هايل للطباعة و



منشورات معهد سكينة